تربية القلب

في حديث الرسول محمد ﷺ

دراسة تحليلية تربوية

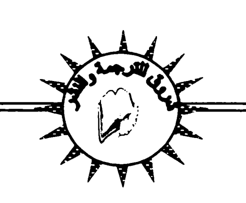
الجزء الأول

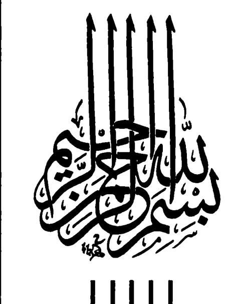
الأستاذ الدكتور
عثمان عبد المعز رسلان

تربية القلب

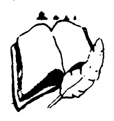
في حديث الرسول محمد ﷺ

دراسة تحليلية تربوية





مؤسسة
شروق للترجمة



بطاقة الكتاب

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م

اسم الكتـــاب : تربية القلب في حديث الرسول محمد ﷺ

(دراسة تحليلية تربوية)

اسم المؤلف : د/ عثمان عبد المعز رسلان

موضوع الكتاب : رقائق وتزكية

الناشـــر :مؤسسة شروق للترجمة والنشر

عدد الصفحـات : ٧١٢

مقاس الكتـاب : ١٧× ٢٤

عـدد المـلازم : ٤٤,٥

رقـم الإيداع : ١٥٤٦ / ٢٠١٢م

المنصورة – أمام مستشفى الطوارئ
ت : ٢٢٥٢٨٦٠ / ٠٥٠
shrook.mst@gmail.com

تربية القلب

في حديث الرسول محمّد صلى الله عليه وسلم

دراسة تحليلية تربوية

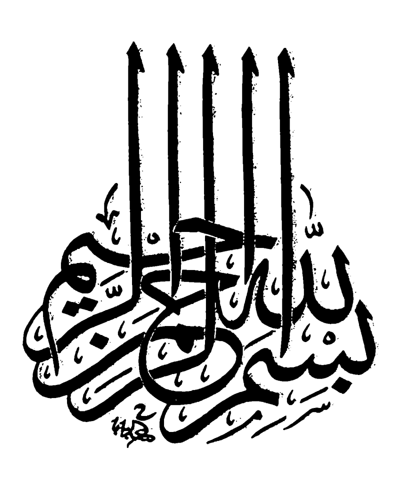
الأستاذ الدكتور

عثمان عبد المعز رسلان

الجزء الأول

مؤسسة شروق

للترجمة والنشر





المقدمة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمدٍ، سيد الدعاة وإمام المرسلين، الذي كان قلبه خير قلب، وأصلح قلب، وأجمل قلب، شهد الله – عز وجل – له بكونه النموذج الكامل في أخلاق القلب والسلوك فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴿٤﴾﴾ [القلم]. صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله الطيبين، وصحبه الكرام الذين قبسوا من نوره، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن القلب؛ هذا الكيان الواعي الباطن في الإنسان، هو الموجِّه، والمرشد العام، والقائد، والإمام، للكينونة الإنسانية كلها، فالقلب هو الإمام؛ القائد، والزعيم المطاع، الآمر الناهي، وجميع الأعضاء جنود مطيعون لهذا الإمام، المِلك، فإذا كان صالحا، طيبا، مؤمنا، مسلما تقيا نقيا، خاضعا لمنهج الله ﷻ، أطاعته الجنود والأتباع، فصلَحت، وطابت، وآمنت وأسلمت، واتقت، وخضعت لمنهج الله، واستسلمت لسلطانه، والتزمت بهداه.

وإذا كان هذا القائد، أو الإمام المرشد، الموجِّه، الملك، السلطان، فاسدا، فقد فسد كل كيان الإنسان. هذه حقيقة نلمسها من أنفسنا، ونحن على بَيِّنَةٍ منها، وقد قررها النبي ﷺ بقوله: «**ألا وإن في الجسد مضغةً، إذا صلَحت صلَح الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[(١)].

فالقلب هو السلطان النافذ الأمر، وهو مركز الصلاح أو الفساد، فهو الكيان الأكثر أهمية في الإنسان؛ فإذا لم نقم بتربيته؛ لإصلاحه، ببذل الجهود العلمية والتثقيفية والعملية؛ لتغذيته بالإيمان الصحيح والعلم النافع، ليكون

(١) سيأتي تخريجه في بداية الفصل الأول «التمهيدي».

صالحا، موقنا، مؤمنا حيا، رقيقا، رحيما.. إلخ، فإننا بذلك نُضَيِّع الإنسانَ كله، ونفسده كله، وبالتالي نفسد شبكة العلاقات الاجتماعية.

ولأن القلب هو القائد الموجه، والسلطان المطاع، النافذ الأمر في دولة الكيان الإنساني، فإن البدء بتربيته هو التوجه التربوي الصحيح، الوحيد، لتربية الإنسان المسلم؛ التزاما بفقه الأولويات، وتوفيرا للجهود؛ فأصل الصلاح أو الفساد هو قلب الإنسان – كما قلنا – والقلب هو عمق الإنسان وسريرته، والتربية التي تنمي هذا القلب في الخير هي تربية الأعماق، حقا.

والمقصد: أن نقرر أن تربية القلب ذات أهمية قصوى في المنظومة التربوية الإسلامية؛ لأن القلب هو مركز الحركة والتوجيه، والسلطة الذاتية، وأساس الأخلاق والأعمال والتصرفات، في الكيان الإنساني كله، ومن هنا وجب البَدْءُ بها، والاهتمام المؤكد بإنجازها في كل إنسان نريد أن يكون مسلما.

ولذا كان هذا الكتاب – الذي بين يديك – وله قصة عنونتها بـ :

الأهمية الذاتية لتربية القلب .. ترجمة مختصرة لقلب المؤلف :

أقول:

إنني توجهت لموضوع هذا الكتاب، ليس من جهة العقل التربوي، بل من جهة تربية قلبي، وتعديل مسار ممارستي الدعوية والتربوية :

١ – إنني مارسْتُ التعليمَ العام، والدعوة (العامة)، والخطابة والتدريس في المساجد، من عام ١٩٧٩م، حتى عام ١٩٩١م، وقد كانت المساجد التي أدعو وأدرس فيها تمتلئ، وتزدحم بالناس... ولكن هذا لم يُحْدِثْ تغييرا شاملا في شخصيات الناس، كما لاحظت، باهتمام جاد، وإنْ أثر كلامي وأسلوبي فيهم، وأوجد نوعا من الرأي العام، المتأثر وجدانيا، غالبا، والمقتنع عقليا بشكل مُبَرْهَنٍ عليه، أحيانا، وقد كان كثيرون ينتقلون معي من مسجد إلى مسجد، ولكن هذا كان – غالبا – من باب التأثر الوجداني، وعمل المحبة، أو

متابعة الموضوع المتسلسل الذي أتناوله بالتحليل، أحيانا.

وبملاحظاتي المتابعة وجدت أن الناسَ يحتاجون لأمر آخَرَ، يضاف إلى، ويؤسس لتحليل قصص الأنبياء وأخلاق الإسلام، وشرح أحاديث التوحيد، واليوم الآخر، ودور المسلم المعاصر، يحتاجون لتربية في العمق، تجعلهم يغيرون أنفسَهم بأنفسِهم، ودوري هو أن أكون مغيرا لنفسي، ومساعدا لهم، ومرشدا؛ لأن يصنعوا هذا التغييرَ لأنفسهم بأنفسهم، فأنا لست بديلا لهم، ولا بَدَلاً منهم، ولا وكيلا عنهم، في تغيير أنفسهم، وتغيير علاقاتهم وأوضاعهم الاجتماعية، وإنما أنا واحد منهم، ومعهم، نصنع هذا التغيير.

ومع أني كنت دائما أعَلم الإيمانَ؛ كما هو في القرآن والحديث الصحيح، والتوحيدَ، وأركانَ العقيدةِ، وأخلاقَ الإسلامِ، إلا أني أيقنت أن شيئا، ما، قبل ذلك، ومع ذلك، لا بد أن نؤسِّسَه ونربيَه، إنه القلب الذي يؤمن ويوحِّدُ، ويعبد الله ﷻ، ويشعر، ويرحم، ويرق، ويخشع، ويُخبت، ويَخضع، ويتواضع، ويعطف، ويحب، ويبغض، ويصلح، ويخلص، ويريد الله، ويحب الخير...... ويحب النبي وآله، وأصحابَه، ويَحِن إليه، ويشتاق لرؤيته، ويُفَرِّغ هَمَّهُ لله، وينظف نفسه من إرادة غير الله، والخضوع للطاغوت، والشرك، والهوى، والبدعة وباطن الإثم، والغل، والحقد، والحسد، والكبر، ونية الشر وأذى المسلمين، وينيب إلى رب العالمين، ويرحم كل الناس والكائنات.

فرسمت خطة شاملة لدراسة كُلِّ آيات القرآن الكريم؛ من تفسير الطبري والقرطبي وابن كثير والظلال والفتوحات الإلهية للجمل، ودراسة كل أحاديث القلب في السنة النبوية، فبدأت أستقصي كُلَّ كتبِ الحديث، ومجاميعه، ومعاجمه وفهارسه، ودراسة كل أقوال وممارسات وخبرات السلف، وكل من له عطاء وخبرة في تربية القلب، وذلك بدءا من عام ١٩٨٧م، وخَطَبْتُ في هذا نِصْفَ سنةٍ، بشكل مستمر (١٩٨٩ - ١٩٩٠م)،

فتجاوب الكثيرون جدا مع (خطب القلوب)، كما أسْمَوْهَا، وسجلوها، واكتظ المسجد وبعضُ ما حوله، وأحسَسْتُ تَغَيُّرًا ذا مذاق خاص في قلبي، وفيمن حولي، فتعمقت أفكارُ ووِجهةُ (الموضوع) في عقلي وقلبي، وَمَلأَتْ نفسي، فوسَّعتُه، وأضفت إليه.

ولكن مادته أصبحت كبيرة جدا، فحولته إلى كتاب مختص بتربية القلب في الحديث النبوي الصحيح.

وأعطيت منه سلسلة من الدروس، في بيتي، وفي أحد المساجد، في ليالي الاعتكاف، فتأثر الحاضرون، وطلبوا تصوير الأجزاء التي كنت أدَرِّسُهَا، أو الإسراع في إخراجه.

وأحسست، بِعُمْقٍ، أن هناك حاجة ملحة عند الدعاة والمربين، والمدرسين، والناشطين في الحركة الإسلامية المعاصرة، لهذا الكتاب؛ ليمارسوا دورهم في تغيير أنفسهم، وفي معاونة الناس؛ ليغيروا ما بأنفسهم، فكان هذا سببا قويا مُسَوِّغاً لإعادة كتابة هذا الكتاب، فبدلا من أن يكون دراسة أكاديمية علمية لتربية القلب في الحديث النبوي، كما سأشير في آخر هذا التمهيد، جَعَلْتُهُ كتابا مبنيا على (الحديث النبوي) ذاته؛ لِيَصْلُحَ للدعاة، والمدرسين، والخطباء، والمربين.

لقد خططت الكتاب، في أول الأمر، ليكون دراسة علمية لتربية القلب في الحديث النبوي؛ ليخرج تحت عنوان: تجديد فقه تربية القلب، وليكون جزءا من سلسلة كتب (منظومة التربية الإسلامية)، ولكن قررْتُ تغييرَ هذه الخطة في عام ١٩٩٩م، على ما أذكر؛ ليخرج بالوضع الحالي، وبالمنهجية المُبَيَّنة في هذا التمهيد، لهذا السبب الدعوي التبليغي، التربوي التغييري.

٢- ولكن ليس هذا فقط هو ما دفعني دفعا لهذا الكتاب / الموضوع، بل إنني توجهت إليه لسبب آخر، كنت أُعِدُّ رسالة الماجستير في التربية السياسية،

في عامي ١٩٨٧ـ ١٩٨٨م، وتعمقتُ فيها، وخضت عالم البحث والتنظير السياسي، وانتهيت إلى أن التربية السياسية التي تهدف لإكساب ذات سياسية لمن نربيه - أي: إكسابه عقائد وقيما وأخلاقا، وعواطفَ وانتماءاتٍ ومشاعرَ سياسيةٍ، ذاتِ دلالة مباشرة وغير مباشرة، وتنمية وعي سياسي ناقد، وفاعل، وقدرات وتوجُّهات للمشاركة السياسية الفاعلة - هذه التربية إنما تهدف لإخراج كوادرَ حركيةٍ تمارس عملية التغيير السياسي من فوق، ومن تحت، وهي عملية لا تقوم، ولا تتم بنجاح، من خلال التلقين السياسي، والتثقيف السياسي، وتكوين العقل السياسي، وقدرات المشاركة السياسية، فقط، بل - أساسا - تتم من خلال الفعل التربوي الشامل الذي يُنَمِّي القلب والعقل والوجدان، بقيم ومشاعرَ وتصوراتٍ سياسية، ومن خلال التربية الاجتماعية؛ باعتبارها ممارسةً للتغيير الاجتماعي، ومن خلال التربية الخلقية والعقلية المعرفية.. فعقدت فصلا عن جوانب تربية الشخصية المسلمة وعلاقتها بالتربية السياسية، وهو - عندي - أهمُّ فصل في تلك الدراسة، انتهيت فيه إلى أن التربية القلبية الروحية والخلقية والاجتماعية، والعقلية المعرفية، هي التي تصوغ الشخصية الإسلامية وتميزها، في وعيها، ومشاركتها السياسية والاجتماعية من أجل التغيير، وهي التي تصوغ الذات السياسية الإسلامية؛ عقائدَ، وتصوراتٍ، وقيما، وعواطفَ سياسيةٍ. وأن هذه الصياغة الشاملة شرط للتغيير السياسي والاجتماعي الشاملين، مِن قِبَلِ الكوادر الحركية الإسلامية... وكان هذا فتحا في مجال التربية السياسية.

فاتجهت، بعد إنجاز الدراسة المشار إليها، وقبل مناقشتها بسبعة أشهر، للاستقراء الشامل للتفاسير والأحاديث وشروحها، كما أشرت، بحثا عن كل ما يتعلق بالقلب، فتكشف لي الاستقراءُ عن حقيقةٍ خطيرة؛ أن أساسَ صناعةِ الإنسان المسلم، وصياغتهُ، وتربيته تربية متكاملة وفاعلة وإيجابية، هو تربية القلب، فهو رأس الزاوية، وحجر الأساس، وقاعدة التوجيه والقيادة.

وانفتح الطريق؛ فتعمقت في الاستقراء باللغتين العربية والإنجليزية، ولم أترك قولا، أو خبرة عن تربية القلب، عَلِمْتُ بوجوده، إلا بحثت عنه، ودَرَسْتُهُ، فتقررتْ نفسُ الحقيقة، وتعمقت في وعيي؛ أن نقطة البدء في إخراج المسلم المعاصر، هي تربية قلبه تربية صحيحة ومتكاملة، وبمنهج الرسول ﷺ، وإن نقطة البدء في التغيير الاجتماعي الجذري هي إخراجُ هذا المسلم الحق؛ ليصنع هو التغيير، بالمشاركة مع أقرانه من المسلمين، الذين يشكلون، معا، شبكة العلاقات الاجتماعية الإسلامية، ويكونون التجمع العضوي الذي يشد بعضه بعضا كالبنيان، ليخوضوا (جهادا) متواصلا من أجل التغيير الجذري.

ثم فحصت كل كتابات القدماء والمحدثين - كما أشرت في فقرات سابقة- وكتبَ الزهاد، والسير، والتراجم، والطبقات؛ لأجمع كل الأقوال والخبرات في هذا المجال. فرأيت ذخيرة لا مثيل لها، لكنها منثورة هنا وهناك، فتغذيت، وشبعت، وارتويت، ودهشت، .... وتفتحت لي الأبوابُ كلها في هذا الميدان البكر، والروض الأُنُف.

فاخترت في هذه (المُدَوَّنة) ما هو ضروري لتصوير تربية القلب، والوعي بها، من أجل ممارسة تربوية للقلب، لمسلمي القرن الحادي والعشرين، لكي نغير ما بأنفسنا، ونغير- مِنْ ثمَّ - واقعَنا المجتمعي برمته، نحو الإسلام كله.

٣- وعندما شرعت في دراسة الدكتوراه في فلسفة التربية، في موضوع القيم والتربية في كتابات زكي نجيب محمود، دراسة تحليلية، وتأصيلية، كنت أحس بجمود، وقسوة تعتري قلبي، لعلها بسبب انغماسي في الدرس الفلسفي الشامل، والدرس الثقافي الشامل، لهذا الموضوع، فكنت، عن وعي وقصد، أعود لما جمعته في (مدونة القلب)؛ لأقرأ، وأحيا، وأرقق قلبي، وأبكي، أحيانا، وتشف روحي، ويبصر قلبي، فأشعر في كل مرة، بأهمية ما دونْتُه، وضرورة

تنظيمه في دراسةٍ، فكنت أعايش ما جمعت، وأنضُجُ قلبيا، وألاحظ تغيرا دائما في قلبي، فكان إيماني يُشرِقُ، وينمو، ومشاعري ترف، وصرت أنمو من الأعماق.

٤- وبعد أن أكملتُ الدكتوراه، في ٢/ ١٢/ ١٩٩٥م، وطبعتها، وشُكِّلت لجنة الحكم والمناقشة، مررت بمحنة قاسية لمدة أربع سنوات وسبعة وعشرين يوما، حُرِمْتُ فيها من مناقشة رسالتي، سَبَّبَهَا لي ستة من (بتوع التربية الإسلامية)، في خمس كليات للتربية في مصر، حرصوا جميعا على الكرسي، فلَعب بهم أحَدُ المتمركسين الذين ليس لهم قلب حي، ولا ضمير إنساني، لعب بهم (د. فاوست) الذي باع نفسه للشيطان، ويبيع نفسه لكل واحد يدفع له، وبإشاعة منه لهؤلاء الخمسة، واحدا بعد الآخر، رموا الرسالة في وجهي، أو سرقوها مني، وكانت سنوات مُرَّةً عَلَيَّ وعلى أهلي وأطفالي، شعرت فيها بالقسوة؛ قسوة الإنسان على أخيه الإنسان، وكظمت آلامي، وتجلدت، فما خُلِقت الرجالُ إلا لمغالبة الشدائد ومواجهة المحن.. ورضيت بقدر الله ﷻ، وعدت من جديد أقرأ في مدونتي عن القلب، فكان هذا الكتابُ هو (الفئة) التي انحزت إليها في معركة الوجود الوحشي، فكنت أقرأ بالدموع، وأضيف من آلام قلبي، وأنجِزُ، وأتجاوز المحنة بقلب صابر طيب، راض بقدر الله، وكنت أقارن ما أقرأ، وما أكتب في تربية القلب، بهؤلاء (الأساتذة المتخصصين في التربية الإسلامية، وفي علم الصحة النفسية)، فاكتشفتُ (المصيبة الكبرى)؛ أن أساتذة التربية الإسلامية، يفقدون التربية الإسلامية!! يحتاجون لتربية قلوبهم، ونفوسهم، وأخلاقهم.. أين مبادئهم، وشعاراتهم؟ ذهبت مع الريح؛ ريح الكراسي، فعرفت من جديد قيمة ما دونته في كتابي هذا، فعدت لأنجز هذا الكتاب في (مُبَيَّضَتِهِ) الأولى، فأنجزتُ نفسي أيضا، وخرجت إنسانا مغايرا لما كنته، وسامحت كل من ظلمني، إلا (فاوست)،

وتحولت تحولا جذريا ؛ فأصبحت (إنسانا)، (مسلما)، (ذا قلب)، وذا فكر يهتم بتربية القلب أولا، عن إيمانٍ وعقيدةٍ جازمة لا ترددَ فيها، وخبرةٍ مريرة عشتها لَحْظَةً بلحظة .

٥- وكان هذا الكتابُ الذي، بصدق، وحق، وعشق، كتبتُه لنفسي أولا، لأجدَ قلبي، وأربيَه، في المِحنة، فهو لي أولا، لا أستغني عنه أبدا، إنني حين أشعر بالجفوة، والقسوة، والتقصير في حق الله ﷻ، وحق الإسلام، وحقوق المسلمين، أطير لهذا الكتاب، فأقرأ، وأبكي.. نعم! وخصوصاً عندما أقرأ فصول: (تربية القلوب التي تحن إلى رسول الله، والطريق لتربية القلب الرقيق، وتربية القلب الغني بالله، وتربية القلب المخموم، وتربية الإيمان في جذر قلوب الرجال).

هذه هي قصة هذا الكتاب معي؛ علاجٌ لقلبي، واتجاه نحو التغيير من الجذور، والتربيةِ من العمق، والتغيير الاجتماعي الشامل على أسُسِه الصحيحة العميقة.

٦- وبقدر الله ظللت (أبيض) هذا الكتاب، بعد تغيير هيكله وخطته، على مدى أربع سنوات، والحمد لله، ليخرج إليك، صديقي القارئ، **فشد يديك عليه، فقد كتبته بالدموع والألم، وأقبل عليه بهمة، وانفتاح عقل، وقلب ومشاعر.**

إنه - صديقي - المطر العذب الذي ينزل في محارة قلبك، لينبت لؤلؤا، فابحث معي عن اللؤلؤ الرائع، وإلاَّ يكن قلبُك من لؤلؤ، فليكن قلبك من ذهب، من ذهب حي.

الإجراءات المنهجية لكتاب تربية القلب

أ- قمت بجمع آيات القرآن الكريم، في القلب والصدر والفؤاد، ودرست تفسيرها من الطبري، وابن كثير، والقرطبي، وفتح القدير للشوكاني، والفتوحات الإلهية للجمل، وعمدة التفسير لأحمد شاكر، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وتفاسير أخرى، وقمت بتحليلها؛ لغويا، وفهمها فهما دقيقا، بالرجوع، أساسا، مع التفاسير السابقة، للمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ولسان العرب لابن منظور، وذلك لفهم الآيات بدقة، واستنباط الدلالات العقدية والخلقية والشعورية، عن القلب، مستعينا في ذلك بمباحث الدلالات من علم أصول الفقه.

وهدف هذه الخطوة: هو استيعاب العقيدة الإسلامية في القلب، كما قررها القرآن، واستنباط القيم القلبية القرآنية؛ لكي تكون إطارا مرجعيا، أفهم في ضوئه أحاديث الرسول ﷺ في القلب. وقمت بجمع الأحاديث والأقوال المأثورة الصحيحة، عن القلب، في أثناء دراسة هذه التفاسير.

ويمكن لباحث آخر، في علم التفسير الموضوعي، أن يدرس (تفسير آيات القرآن عن القلب والصدر والفؤاد) ويمكن دراسة هذه الآيات دراسة بلاغية، ويمكن، في قسم أصول التربية، دراسة القيم المتضمنة في آيات القرآن عن القلب، وتطبيقاتها التربوية في الأسرة والمدرسة.

ب- ثم قمت بجمع الأحاديث الصحيحة التي ورد فيها لفظ القلب ومشتقاته، ولفظ الصدر، ولفظ الفؤاد، وذلك من صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وموطأ مالك، ومسند أحمد (الفتح الرباني بترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني؛ للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي)، ومسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر والزين، ومسند أحمد بتخريج شعيب الأرناؤوط ورفاقه، وسنن الترمذي، والنسائي، وابن ماجه بتحقيق

عبد الباقي، وبتحقيق الألباني، وسنن أبي داود، والسنن الصغير للبيهقي، وشرح السنن للبغوي، ومعالم السنن للخطابي، والمعجم الكبير للطبراني، والإحسان لابن حبان، وجامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، وصحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) للألباني، والسلسلة الصحيحة له، والأدب المفرد بتحقيقه وتخريجه، والمصنف لعبد الرزاق، والجامع له، والمصنف لابن أبي شيبة، وكتاب الإيمان له، وكتاب الإيمان لأبي عبيد، والزهد والرقائق لابن المبارك، وكتب ابن أبي الدنيا، وكتاب السنة، وتحقيقه؛ ظلال الجنة لابن أبي عاصم والألباني، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للطبري اللالكائي، وتعظيم قدر الصلاة، للمروزي، وكنز العمال من سنن الأقوال والأفعال، للمتقي الهندي، ومجمع الزوائد للهيثمي، والزواجر للهيتمي، والترغيب والترهيب للمنذري، وصحيحه للألباني، والمنتقى من الترغيب والترهيب للقرضاوي، وطبقات الحفاظ، وأحاديث سير أعلام النبلاء، وزاد المعاد، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود، وأجزاء حديثية كثيرة جدا، كتبا، وعلى شبكة المعلومات، وعلى اسطوانات (C.D)، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث، لفنسنك وعبد الباقي.

فجمعت كل أحاديث القلب والصدر والفؤاد، وحققتها كلها، وتجنبت الضعيف والواهي والموضوع. ودرست شروحها دراسة مفصلة؛ لغويا، وفقهيا، وعقديا، وخلقيا، مستعينا تماما بكتب الشروح؛ فتح الباري لابن حجر، وفتح الباري لابن رجب، وإكمال المعلم بفوائد مسلم، للمازري والقاضي عياض، والمنهاج بشرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي، وحاشية ابن القيم على سنن أبي داود، ومعالم السنن للخطابي، وفتح المعبود بشرح سنن أبي داود، وحاشية السندي والسيوطي على النسائي، وجامع العلوم والحكم لابن رجب، وكتاب العلم وكتاب الإيمان، من شرح الكرماني

على البخاري، وشرح البخاري لبدر الدين العيني، وشرح السنة للبغوي، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير. وقد استعنت، عامدا، بتفسير آيات القلوب، لفهم أحاديث الرسول ﷺ في القلب، ففتحت لي أبواب عظيمة القيمة في الفهم والاستنباط.

وكنت أجمع كل ذلك في بطاقات وكراسات، ونظرت فيها أكثر من سنتين، فتميزت في عقلي في تسعة وعشرين موضوعا أساسيا، فصلتها في تسعة وعشرين فصلا، كما سيأتي، بعون الله.

جـ- قمت باستقراء مفصل وشامل لحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم (عشرة أجزاء)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي، وطبقات الحفاظ للذهبي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، ومعجم شيوخه، وطبقات الصوفية للسلمي، وذكر النسوة المتعبدات له، والرسالة للقشيري، والبداية والنهاية لابن كثير، وطبقات ابن سعد، وكتب الزهد والرقائق؛ (الزهد لأحمد، الزهد والرقائق، لابن المبارك ،الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا.. إلخ)، وكتب ابن تيمية وابن القيم؛ لأجمع كل قول وخبرة تربوية، في القلب، وردت عن الصحابة والتابعين، وعن الزهاد الأوائل، والسائرين إلى الله، وصنفتها على حسب موضوعات الأحاديث، وتأملتها، فكانت زادا مهما في الفهم والاستنباط، وتأكيد المعاني .

د- قمت بدراسة كتب السلف الصالح التي تناولوا فيها القلب، وما يتعلق بقيمه وأخلاقه وأعماله، فدرست كل كتب المحاسبي المطبوعة (الرعاية- آداب النفوس، شرح المعرفة وبذل النصيحة، أعمال القلوب والجوارح، المسائل في أعمال القلوب، بدء من أناب إلى الله، القصد والرجوع إلى الله، العقل، فهم القرآن، التوهم، رسالة للمسترشدين، المكاسب)، كتب الحكيم الترمذي: (الفرق بين الصدر والقلب، الفروق ومنع الترادف، نوادر

الأصول..)، كتب الإمام أحمد (الزهد- الورع- الأمر بالمعروف)، كتب ابن أبي الدنيا، شروح أسماء الله الحسنى؛ للقرطبي، والرازي، والزجاج، والغزالي، وعجاج الخطيب، والبيهقي، والقشيري، وابن عجيبة. وكتاب إحياء علوم الدين، والفتح الرباني للجيلاني، وكتب ابن الجوزي؛ (ذم الهوى، صيد الخاطر، تلبيس إبليس)، ومجموع فتاوى ابن تيمية، وقاعدة في المحبة، ودرء التعارض، وكتاب التوحيد بتحقيق الجنيد، وكتاب الاستقامة ـ له، وكتب ابن القيم؛ (خصوصا: زاد المعاد، إغاثة اللهفان، مدارج السالكين، طريق الهجرتين، شفاء العليل)، والأعمال الكاملة لحسن البنا، والأعمال الكاملة لسيد قطب، والأعمال الكاملة للشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب (١٣ مجلدا)، والأعمال الكاملة لمحمد عبد الله دراز، والأعمال الكاملة لبديع الزمان سعيد النورسي (كليات رسائل النور)، وكتب العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة.. وكتب التصوف، بمختلف اتجاهاته، مع التركيز على الاتجاه الشرعي فيه.

وفحصت ذلك كله، وانتقيت ما يتعلق بالقلب، وتربيته، وخبرات أصحابه في تربية القلب، وتأملت ذلك، ونسقته، ونظمته، وصنفته، ودرسته بعمق؛ لأفهم القلب، وأفهم حركته، وأساليب تربيته، ثم وزعت ما انتقيته على موضوعات الكتاب .

وكان يحكمني في هذا الاستقراء، والدرس، والانتقاء، أصلان:

الأول: أنني لا أقبل إلا ما وافق القرآن والسنة الصحيحة، فقط، مهما كان صاحبه أو قائله .

الثاني: أنني لا أنقل إلا عن موثوق غير مجروح في دينه، وعدالته، وأمانته، حتى وإن لم أوافقه في بعض أقواله أو أحواله، فذلك مقتضى الإنصاف، ولهذا نقلت عن أبي حامد الغزالي، والحكيم الترمذي، مثلا، وكنت أرجع لكتب

الطبقات والجرح والتعديل؛ لأعرف درجة من أنقل عنه، هل هو ثقة، أو ضعيف، ولماذا ؟ ولذلك تركت كثيرين لم أنقل عنهم.

ومن هنا لا يوجد في كتابي هذا نقل عن متهم في دينه، أو مجروح في عدالته، إلا إذا كان المنقول نتاج بحث علمي، ويتفق مع معطيات الإسلام ومقاصده، فأنقل ما يخدم كتابي هذا، وأنا مستريح الضمير؛ مثل الذي نقلته عن كتاب (ذكاء المشاعر).

هـ- قمت بتقسيم المادة العلمية إلى موضوعات، وفصول، يقوم كل فصل على حديث أو أكثر، يكون عنوانه حسب المعنى الرئيسي المقصود من الحديث، فالفصل الثاني عنوانه: (تربية القلوب التي تنكر الفتن)؛ لأن حديث الفصل يؤكد هذا المعنى، وهكذا، كل فصل يتناول تربية قيمة أو أكثر من قيم القلب، مما يَنُصُّ عَلَيْه الحديث .

ثم جعلت كل فصل (كأنه) شرح للحديث أو أحاديث الفصل، مُسْتَعِينًا بتفسير القرآن، وشروح الحديث، وكلام وخبرات الأئمة والسالكين، إن وجدت ما يتعلق بالموضوع، وفي أثناء الشرح أستنبط وأقرر كل ما يتعلق بتربية القيم أو القيمة موضوع الفصل، أو التصور القلبي موضوع الفصل، وأساليب تربية القيمة، وفي معظم الفصول عقدت فقرة للأسئلة والتطبيقات لتعميق الفهم، وتسهيل الممارسة .

و- وكنت في أول الأمر قد خططت الكتاب ليكون دراسة علمية موضوعية، حسب الخطة التُّسَاعية الآتية :

١- ماهية تربية القلب: مفهومها وأهميتها، وطبيعتها، وأهدافها، وأساليبها ووسائطها في الخطاب الإسلامي.

٢- طبيعة القلب وقوانين حركته في الخطاب الإسلامي .

٣- الأسس العقدية والخلقية لتربية القلب في الخطاب الإسلامي .

٤- منظومة قيم وأهداف تربية القلب في الخطاب الإسلامي .

٥- أساليب تربية القلب في الخطاب الإسلامي .

٦- وسائط تربية القلب في الخطاب الإسلامي .

٧- من يربي القلب في الخطاب الإسلامي ؟

٨- تربية القلب في الواقع التربوي المعاصر، وفي الحركات الإسلامية (دراسة نقدية في ضوء نتائج البحث) .

٩- تجديد تربية القلب في المجتمع الإسلامي المعاصر .

وذلك ليكون بحثا علميا ضمن مشروع بحثي شامل يتناول منظومة التربية الإسلامية المتكاملة.

ولكن ـ كما قلت سابقا ـ بسبب ممارستي للدعوة، والتربية، وإدراكي المتزايد لحاجات المربين والدعاة إلى مدونة صحيحة، أو مرجع ملائم لهم، في هذا المجال، يوفر لهم المادة العلمية الدعوية التربوية بشكل منهجي منظم، وإدراكي أن الدراسة العلمية بالخطة المذكورة ستكون دراسة تقريرية لا يستفيد بها إلا المختصون في الفكر التربوي، وعلم التربية، ومن يهتمون به من الممارسين التربويين، فلهذين السببين قررت تغيير خطة الكتاب، فبنيت كل فصل على حديث أو أكثر، وجعلته كأنه (محاضرات)، أقول: كأنه، لأنني ضمنت في كل فصل كل ما يتعلق به من قيم، وأساليب تربوية، وخصائص تربوية تتعلق بالقيمة أو القيم التي ينص عليها الحديث. فجاء الكتاب بهذا النمط الذي بين يديك .

وقد تم تجريب هذه الطريقة، ثلاث مرات، بالتدريس لمجموعات، مرة في بيتي، ومرة في اعتكاف، ومرة في خطبة الجمعة، ودرست مجموعة من فصول الكتاب، متنوعة، فكانت كل مرة ناجحة تماما .

وبعد هذه التجارب قررت تبييض الكتاب على هذا الوضع الذي تراه .

ولعلي أرجع في بحث علمي مستقل لتناول الموضوع كما أشرت إليه في الخطة التُّسَاعية، حسب إجراءات البحث العلمي، بعون الله، وهذا التمهيد الحالي يعطينا فكرة مختصرة عن ذلك البحث .

ز- وإنما اخترت طريقة (الكشف والإيضاح للأحاديث القلبية الصحاح)؛ لأكشف كل المضمون القلبي في هذه الأحاديث؛ ليستفيد بها كل الدعاة والمربين، والخطباء، وأولياء الأمور، والمثقفين، ومسؤولي التربية في الحركات الإسلامية، وكل من يريد تربية قلبه، بجهد ذاتي، وكل من يريد دراسة هذا الجانب التربوي في الإسلام، ويعرف وجهته وخصائصه، فالكتاب (مدونة) جامعة للمادة الدراسية العلمية عن تربية القلب في الخطاب الإسلامي .

* * *

والخلاصة: أن أهمية هذا الكتاب ترجع إلى:

١- أنه أول كتاب يجمع جميع أحاديث القلب الصحيحة الثابتة عن أحاديث رسول الله ﷺ، ويضعها في سياق منهجي واحد، ويبحث في فقه درايتها .

٢- أنه دراسة في تجديد فقه تربية القلب تصلح للمدرسين، والدعاة، والخطباء، ومربي ومربيات الحركات الإسلامية المعاصرة، ولكل دارس تربوي، ومثقف، وراغب في تربية قلبه، ولكل بيت مسلم، ولكل مسجد، ولكل مكتبة عامة .

٣- أنه إسهام في سد الخلل التنظيري، والعملي، الموجود في أولويات التربية الإسلامية المعاصرة.

٤- أنه موجه للمسلمين، وغير المسلمين؛ ليتعرفوا إلى وجهة الإسلام في تربية الشخصية الإسلامية، وطبيعتها وخصائصها المميزة.

واللهَ أسأل أن يجعل عملي هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله منِّي، طمعًا في نوال رحمته ورضوانه، فهو – سبحانه – وليُّ ذلك والقادر عليه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

والحمد لله رب العالمين

المؤلف



« التمهيدي »

ويتناول الآتي:

أولاً: تربية القلب؛ لماذا؟

ثانيًا: مفهوم تربية القلب.

أولا: تربية القلب، لماذا؟

كتاب عن تربية القلب في حديث الرسول ﷺ، في عصر ثورة [الإنفوميديا]، والهندسة الوراثية، وتحليل الجينوم البشري، واستنساخ الإنسان!

نعم، لماذا؟ للأسباب الآتية:

أ ـ تربية القلب ضرورة لاستكمال تربية الإنسان:

الإنسان؛ أنا وأنت، وهو وهي، وهم وهن، ونحن وأنتم، وهؤلاء،.. مهما تعاظمت معرفتُه، وتطورت حياته، يبقى - دائما - بقلب، وعقل، وروح وجسد، يعيش، بذلك التكوين، في مجتمع، وفي عالم الأشياء والأحياء. الإنسان ليس هو ذلك الجسد الظاهر المتجسد في العالم، فقط بل هو ذلك الكائن الفريد، الذي خلقه الله وسواه، ونفخ فيه من روحه، وكرَّمه، وجعله كيانا متعدد الأبعاد، عميقها.

فهو كائن حي، مستخلف في الأرض؛ ذو جسم يحتوي غرائز وشهوات، وقوى جنسية وعصبية.

وهو كائن ذو روح، بها يكون هذا الجسم كائنا حيا ناميا، حساسا، متحركا؛ يشعر، ويفكر، ويتحرك، ويتصل بخالقه، وبالملأ الأعلى، وبعالم الغيب،..

وهو كائن ذو عقل؛ يفكر ويتأمل، ويتدبر العواقب، ومآلات الأعمال، ويميز، وينقد، ويحلل، ويُقَوِّمُ، ويتعلم، ويفهم، ويقارن، ويذكر ويتذكر، ويبدع الآراء والأفكار والنظريات والعلوم، والآداب، والفنون،..

وهو كائن ناطق، ذو بيان ولغة يتكلم بها، ويعبر عن وجدانه وتصوراته، وطموحاته وآرائه، ويتصل بها، ويتواصل، مع الآخرين في المجتمع الإنساني.

وهو كائن شاعر حساس، ذو مشاعر، وأحاسيس وانفعالات؛ ذو قلب: يحب ويبغض، ويؤمن ويكفر، ويريد ويرفض، ويرق ويقسو، ويلين ويخشن، ويعطف، ويغلظ، ويخلص وينافق، وينفعل، ويشعر بشتى ألوان الانفعالات والمشاعر؛ مثل الخوف، والجرأة، والحزن، والفرح،.. إلخ.

فهو كائن ذو وجدان وذوق وجوانية نفسية، وانفعالات تمثل عمق هذا الإنسان، هذا القلب هو الذي يوجه العقل والحركة والأخلاق الإنسانية؛ فالمشاعر القلبية تعمل كمرشد أساسي لنا، إنها مِثل القيم التي توجه حياتنا، وهي قابلة للتزويد والتنمية، أي: للتربية. وهذه المشاعر والوجدانيات والانفعالات؛ ترشدنا عند مواجهةِ محنٍ، أو مهامّ صعبةٍ، وهي أهم من أن تُتْرَكَ للفكر وحده، أو تتركَ بلا توجيه أو تربية.

إن الإنسان كائن شاعر ذو عواطفَ ومشاعرَ؛ لأنه ذو قلب، فلماذا لا نُرَبِّي هذا القلب؟ ونتجه لتربية الذكاء العقلي، أو بعض الأخلاق؟ لقد تمادينا في المغالاة في الذكاء العقلي على حساب القلب، كما يقول مفكر أمريكي معاصر: «نحن في الواقع نمتلك عقلين: أحدهما يفكر، والآخر يشعر»، وغالبا ما يعملان معا في انسجام عميق، «وانفعالاتنا لها عقل خاص»، إن القلب يعني: المشاعر، والانفعالات، «فما نحتاجه ليس هو طرح الانفعالات بعيدا ليحل محلها الفكر.. ولكن التوصل إلى توازن حكيم بين الاثنين، فالتصور القديم يهدف إلى تحرير العقل من أسر الانفعال، أما تصورنا الجديد فيلح على الانسجام بين الرأس والقلب» . «من الممكن تعليم الكفاءات الانفعالية الأساسية وتنميتها لدى الأطفال [كالكبار] ؛ إذا كلفنا أنفسنا عناء تعليمها لهم».

«هذه هي المشكلة : الذكاء التعليمي لا يقدم إعدادا حقيقيا للتعامل مع الصعاب، (...) وعلى الرغم من أن مُعامل الذكاء المرتفع لا يضمن لنا الثروة

أو الجاه أو السعادة في الحياة، ما زالت مدارسُنا وثقافتنا تركز على القدرات التعليمية، متجاهلة ذكاء المشاعر، (يعني: القلب)، (...) فالحياة الانفعالية تعتبر مجالا- كالرياضيات والقراءة- يمكننا أن نتعامل معه بشكل أكثر أو أقل مهارة، ويتطلب مجموعة متفردة من الكفاءات.. فإنسانيتنا تظهر بعمق في مشاعرنا (...)، إن القيم الأسمى للقلب الإنساني، كالإيمان، والأمل، والإخلاص، والحب، مفقودة تماما في النظرة المعرفية الباردة، فالمشاعر من نعم الحياة، وأي نموذج للعقل يتجاهلها يُعَد قاصرا». «إن هناك اتجاها عالميا يرى ميل الجيل الحالي مِنَ الأطفال نحو ارتفاع الاضطرابات الانفعالية، من الجيل السابق، فهم أكثر شعورا بالوحدة والاكتئاب، وأكثر غضبا وجموحا، وأكثر ميلا للعصبية والقلق، وكذلك أكثر اندفاعا وعدوانية،.. وإن كان ثمة علاج فأرى أنه يكمن في الطريق التي نعد بها صغارنا للحياة، وحاليا نترك تربية مشاعر أطفالنا (للصدفة وحدها)؛ مما يؤدي ذلك إلى حدوث كوارث متزايدة، وأحد الحلول هي أن نعيد تقييم الدور الذي يمكن للمدرسة أن تقوم به في تربية الطفل، من مختلف الجوانب؛ بأن تجمع معا القلب والعقل في الفصل الدراسي..»[1].

ومقصدنا : أن نقرر أن الإنسان كائن ذو قلب يجب تربيته.

وهو كائن له عمر وزمن، ووقت، وأجل مسمى ينتهي إليه، أي: ذو علاقة بالزمن، وبالليل والنهار، وله ماض، وحاضر، ومستقبل، وسواء وَعَى هذا الزمنَ وأدرك قيمتَه، واستثمره أم لا، فهو محاسَب عليه، ومسؤول عنه أمام الله الذي خلقه، وخلق الليل والنهار، ليعمل ويعمر ويسكن ويستريح، وينشط ويدأب .

---

(١) النصوص السابقة في: دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، الذكاء الانفعالي، ترجمة: د. هشام الحناوي، ط١، هلا للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٢١، ٢٦، ٢٧، ٣٦، ٣٧، ٧٥، ٧٦، ٨٢، ٨٦، ٩٦.

وهو كائن اجتماعي؛ يحيا في أسرة، وله عائلة وقرابات وأرحام، وله علاقات مع هؤلاء الأقارب، من أب وأم، وإخوة، أَو مَنْ يَقُومُ مَقَامَهُمْ، وهو يتعامل مع هؤلاء، ويدخل معهم في علاقات متعددة، تتطلب قيما تضبط وتوجه سلوكياته معهم.

وهو كائن يعيش في مجتمع ذي ثقافة وعادات وسلوكيات، وشبكة علاقات شتى، فهو يحيا في وسط ثقافي، ويدخل عضوا في شبكة علاقات اجتماعية، يتعامل مع الناس، سواء كانوا جيرانا، أو زملاء، أو أصحابا، أو معلمين، أو حكاما، أو تجارا، أو سائقين، أو غيرهم، يتعامل: بيعا وشراء، أخذا وعطاء، جارا، ومصاحبا، صديقا أو عدوا، محبا أو مبغضا، مشاركا أو مغتربا، وهو ينفعل بذلك، ومع ذلك، انفعالات شتى.

وهو كائن يعيش في عالم مُسَخَّرٍ له، في هذا الكون، في الأرض، وتحت السماء، يتعامل مع شجر، وطير وبهائم، وشوارع وحقول، ومساكن، ومحلات، وتقنيات وأجهزة، ومواصلات، واتصالات... ويتعامل مع ذلك كله، وينفعل، ويفعل .

وهو كائن سياسي، يدخل في علاقات سياسية مع النظام السائد، والقوى الفاعلة، قبولا أو رفضا، منحازا أو معارضا، مشاركا أو مغالبا، مواجها ومقاوما، أو مغتربا ومنسحبا .

وهو كائن اقتصادي.. وكائن تاريخي، وله تاريخ وأسلاف، وتراث، وإحساس بالتاريخ.

وهو كائن مخلوق، فاعل، ليعمر في الأرض، وليختار ويريد، وليعمل ويكد .

وهو كائن مخلوق ليعبد الله ﷻ، فهو مستخلف في الأرض ليعمر فيها؛ بإقامة شرع الله ﷻ، الموحَى إلى نبيه، وبالعلم، وبالعمل.

وهو كائن مبتلى بذلك كله.

فهو – الإنسان – أنا وأنت، ذو علاقة بالله ﷻ: علاقة مخلوق بخالقه، عابد بمعبوده، وهو ذو علاقة بالكون؛ علاقة التسخير والسيادة والاستخلاف، وهو ذو علاقة بأخيه الإنسان؛ (علاقة المماثلة والتساوي..)، وذو علاقة بعالم الشهادة وبعالم الغيب. وهو مستخلَف مدة عمره في الأرض، ثم هو راجع إلى الله ﷻ، ومجموع ليوم لا ريب فيه؛ اليوم الآخر؛ ليُحاسَبَ هناك، ويُجازَى بناء على ما فعل، ويثاب أو يعاقب.

وهو كائن فائق عن الحيوان، فهو يتذوق الجمالَ في الطبيعة والأدب، ويستمتع بجمال الكون والحياة، ويشعر بالقبح أو الجمال، فيَحْزَنُ أو يفرح[٢].

فالإنسان، الذي هو موضوع التربية : هو ذلك الكُلُّ معا ؛ متفاعلا مع بعضه .

والتربية الصحيحة المناسبة له، هي التي (تَصوغ)، و(تصبغ)، و(تنمي)، و(تصنع) كل هذه الجوانب معا؛ في تكامل، وتوازن، واعتدال، فَتُعَظِّمُ، وَتُكَبِّرُ، وتزود، وتنمي؛ أي: تربي، كل جانب من جوانب الكينونة الإنسانية، وتغذيه بالغذاء المناسب؛ ليكبر وينمو، ويَكْمُلَ ويبلغ كماله وتمامه الممكن له، والمقدَّر له، في هذا العالم. وتحميه وترعاه؛ ليسير، ويصعد، ويحصل أقصى كماله الممكن.

فالتربية الإنسانية؛ (التي تؤنسن الإنسان فعلا)، هي التي تربي: (تنشئ، تكبر، تنمي، ترعى، تغذي، تحمي) جسم الإنسان بكل طاقاته وقدراته، وتربي روحه، وتربي عقله، وتربي نفسه، وتربي قلبه، وتربي حساسيته الخلقية، وذوقه الجمالي، وتربي جانبه القرابي العائلي، والاجتماعي، والجمالي، والسياسي، والاقتصادي، واللغوي، وتربي بُعْدَه الزمني، والتاريخي والبيئي، وتربي جانبه

---

(٢) انظر فيما سبق: سيد قطب: مقومات التصور الإسلامي، ط ٣، دار الشروق، القاهرة، فصل: حقيقة الإنسان. محمد قطب: دراسات في النفس الإنسانية، منهج التربية الإسلامية، الإنسان بين المادية والإسلام، منهج الفن الإسلامي، ط. دار الشروق، كل الكتب السابقة.

المهني، والعملي؛ ليعمر، ويعبد الله ﷻ، في وقت واحد، وليحيا في عالم الشهادة وهو مؤمن بعالم الغيب.

فالتربية المتكاملة اللائقة بالإنسان، منظومة متوائمة ومتناغمة: تشمل التربية الجسمية، والجنسية والصحية، والرياضية، والروحية، والعقلية، والقلبية، والجمالية، والخلقية، والبيئية، والزمنية، واللغوية اللسانية، والتاريخية، والعائلية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والمهنية، والترويحية، والإبداعية؛ ليكون الإنسانناميا في الخير، في ذلك كله، بتناسق، وتوازن، وتكامل.

وأي نقص في جانب من هذه الجوانب، وأي اختلال في منهج تربية كل جانب، هو نقص في تربية الإنسان، يؤدي إلى تشوهٍ في شخصيته، تشوه له آثارُه الضارة على كيان الإنسان، وسعادته، وتوازنه، وعلى كيان المجتمع ذاته، فكل نقص في تربية الإنسان، في جانب من جوانبه وأبعاده، يمثل انحرافا في الذات وفي المجتمع، يجب أن نقومَه ونعالجَه، بإعادة تربية هذا الإنسان؛ لاستكمال هذا النقص، وعلاج هذا الانحراف.

ولأننا نهتم هنا بتربية القلب؛ فإن إهمالها قد أحدث نتائج خطيرة في الْغَـرْبِ المعاصر: أمية المشاعر، القسوة، انعدام التعاطف والتراحم، زيادة أحداث العنف الآخذة في الانتشار، زيادة الاغتصاب، (في سنة ١٩٩٠م) مقارنة بالعقدين الماضيين - شهدت الولايات المتحدة أعلى معدل لِوَقْفِ الصغار لجرائم العنف...، تضاعف معدل وقف المراهقين للاغتصاب بالقوة، وارتفع معدل جرائم القتل لدى المراهقين أربع مرات، معظمها بإطلاق الرصاص،.. وخلال هذين العقدين... تضاعف معدل الانتحار بين المراهقين ثلاث مرات، وكذلك عدد الأطفال الأقل من ١٤ عاما الذين تعرضوا للقتل،.. في سنة ١٩٩٣م ارتفع معدل حمل البنات من ١٠-١٤ سنة، بثبات، خلال السنوات

الخمس السابقة، والذي وصفه البعض: أطفال يحملن أطفالا.. وقد تضاعف معدل الإصابة بالأمراض التناسلية ثلاث مرات، بين المراهقين، في العقود الثلاثة السابقة.. تضاعف استخدام الشباب البيض من الهيروين والكوكايين بنسبة ٣٠٠٪ في العشرين عاما قبل ١٩٩٠م، أما بالنسبة للأمريكان الأفارقة؛ فقد ارتفع هذا المعدل ١٣ مرة عن معدله من عشرين عاما.. كل المؤشرات تتقدم في الاتجاه السيئ، والأطفال [من ٧-١٦ سنة] في المتوسط، يتأخرون في المجالات الآتية: ... القلق، الاكتئاب، مشكلات الانتباه والتفكير، الانحراف أو العدوان، وكثرة الاستفزازات، وسرعة الغضب..[٣]، وهذا موجود في بلدان هولندا والصين وألمانيا، وأستراليا، وفرنسا، وتايلاند.

ومؤلف كتاب: ذكاء المشاعر، يقدم علاجا لذلك: تربية المشاعر، تربية القلب، محو أمية المشاعر، دورات التربية الانفعالية،.. الاهتمام بذلك؛ في الأسرة، في المدارس؛ زيادة الدروس الانفعالية.. زيادة ثقافة المشاعر،.. وإدخالها للمدارس، والتدريب الانفعالي، وتعليم التواصل، وتربية الصداقة..، والتربية الخلقية من خلال ثقافة المشاعر، وتنمية الكفاءات الانفعالية[٤].

وهكذا فإن النقص والخلل في تربية القلب أنتج كوارث اجتماعية ونفسية.

فيلزم تربية قلب الإنسان في إطار المنظومة المتكاملة لتربيته، والتربية المتكاملة هي التي يعطي القائمون عليها كلَّ جانب في شخصية الإنسان حقه، وحاجاته، وبالمنهج الملائم .

إذا، تربية القلب - كما سنحدد معناها وطبيعتها - هي جانب رئيسي من جوانب المنظومة التربوية الضرورية لصياغة وصناعة الإنسان المسلم، المتكاملِ البناء، والمتوازن، وإخراجه للناس.

---

(٣) دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، مرجع سابق، ص ٤٦٤- ٤٦٩.

(٤) المرجع السابق، ص ٣٨٠-٣٩٩، ٤٤٥ - ٤٥٥، ٤٧٧، ٤٧٨، ٥٢٤- ٥٣٧، ٥٦٠، ٥٧٢- ٥٧٥.

وإهمالُها يعني: إهمالَ هذا الجانب، أي: عمق الإنسان، أي: تشويها خطيرا للكيان الإنساني، وإنتاجا لكوارث نفسية واجتماعية، فكل إنسان في حاجة إلى هذه التربية. إنها تخص كل إنسان. وهي أساس للأنسنة.

ب ـ تربية القلب فريضة للبدء التربوي الصحيح:

القلب ليس مكونا في الإنسان، فقط، بل هو المكون المُوَجِّهُ، فإذا نظرنا لهذا الكيان الإنساني نظرة من الداخل، نجده ذا بُعْدَيْن؛ بَرَّانِي وجَوَّاني، ظاهر وباطن، سريرة وعلانية، فكل إنسان - كما يقول سلمان ﷺ - له جواني وبراني، فمن أصلح جوانيَّه أصلح الله برانيه، والجواني الباطن هو الذي يوجِّه، ويقود البرانيَّ الظاهر، أي: إن القلب؛ هذا الكيان الواعي الباطن في الإنسان، هو الموجِّه، والمرشد العام، والقائد، والإمام، للكينونة الإنسانية كلها، فالقلب هو الإمام؛ القائد، والزعيم المطاع، الآمر الناهي، وجميع الأعضاء جنود مطيعون لهذا الإمام، الملِك، فإذا كان صالحا، طيبا، مؤمنا، مسلما تقيا نقيا، خاضعا لمنهج الله ﷻ، أطاعته الجنود والأتباع، فصلَحت، وطابت، وآمنت وأسلمت، واتقت، وخضعت لمنهج الله، واستسلمت لسلطانه، والتزمت بهداه.

وإذا كان هذا القائد، أو الإمام المرشد، الموجِّه، الملك، السلطان، فاسدا، فقد فسد كل كيان الإنسان. هذه حقيقة أشرنا إليها في أول صفحة من هذا التمهيد، ونلمسها من أنفسنا، ونحن على بَيِّنَةٍ منها، وقد قررها النبي ﷺ بقوله: «ألا وإن في الجسد مضغةً، إذا صلَحت صلَح الجسدُ كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»(٥). ويقول أبو هريرة ﷺ: «قلب ملك، وله جنود، فإذا صلح الملك صلحت الجنود، وإذا فسد الملك فسدت جنوده»(٦). فالقلب هو السلطان النافذ الأمر، وهو مركز الصلاح أو الفساد، فهو الكيان

(٥، ٦) هذا لفظ البخاري، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١، كتاب الإيمان، حديث رقم ٥٢، ص ١٢٦ مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ومكتبة الغزالي، دمشق. وسيأتي تخريجه بطرقه في فصل: (القلب: مركز الصلاح والفساد في الشخصية الإنسانية)، بعون الله.

الأكثر أهمية في الإنسان؛ فإذا لم نقم بتربيته؛ لإصلاحه، ببذل الجهود العلمية والتثقيفية والعملية؛ لتغذيته بالإيمان الصحيح والعلم النافع، ليكون صالحا، موقنا، مؤمنا حيا، رقيقا، رحيما.. إلخ، فإننا بذلك نُضَيِّع الإنسانَ كله، ونفسده كله، وبالتالي نفسد شبكة العلاقات الاجتماعية.

فلكي يصلح الإنسان، ويسعد، ويكمل، ويحيا مؤمنا صالحا مصلحا، معمرا؛ فإن نقطة البدء هي تربية قلبه تربية صحيحة سليمة؛ إيمانيا عقديا، وخلقيا، ومعرفيا، وجماليا.

وهذه التربية ستحدث أثرها في باقي الكيان الإنساني؛ بالضرورة؛ ستنصلح الأخلاق والتعاملات، إذا صلح القلب... كما سنفصل ذلك في فصل: القلب مركز الصلاح أو الفساد، وفصول أخرى.

فالأولوية الأولى، في الفعل التربوي الصحيح، هي تربية القلب الإنساني، بشكل صحيح.

ولهذا وجدنا المربين المسلمين يوجهون أنظارنا لهذه الأولوية الأولى، والعليا، في سلم أولويات التربية الإسلامية التي تهدف لصياغة وإخراج الشخصية الإسلامية، وسيأتي تفصيل ذلك بعون الله ﷻ، في الفصل المشار إليه.

فتربية القلب فريضة إيمانية إسلامية، تسبق كل الفرائض؛ لأن القلب هو مركز الصلاح أو الفساد، ومنبع الأفكار والأعمال، فهي تربية من العمق، من تحت، من الجذور. والبدء بها هو الاختيار التربوي الصحيح والوحيد، وإلا قلبنا الأوليات، وأخرجنا شخصيات مشوَّهَة، تهتم بالظاهر والبراني بشدة، بدلا من، أو أكثر من، القلبي والجواني، أي: الجانب العميق في الإنسان، شخصيات؛ مثل المنافقين الذين ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾[المائدة: ٤١]، الذين: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٨]، الذين قالوا: ﴿أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات: ١٤].

وشخصيات كلبية؛ مثل الخوارج؛ (كلاب النار)، أو (كلاب أهل النار)[٧]، الذين نَحْقِرُ صلاتَنا إلى صلاتهم، وقراءتنا إلى قراءتهم، لكن إيمانهم وصلاتهم، وقراءتهم، لا تجاوز حناجرَهم، يقولون كلاما حقا، وليسوا منه في شيء؛ لأن إيمانَهم براني، منظر بلا مخبر، ظاهر بلا باطن، قالب جاف قاسٍ، بلا قلب شاعر مؤمن، حساس، رقيق، رحيم، متذوق، متخلق بأخلاق التوحيد، لهذا كانوا كلاب النار؛ لأنهم عاشوا بقلوب عضَّاضة، متوحشة، قاسية، تعَض في عباد الله، (يقتلون أهل الإسلام، ويدَعون أهلَ الأوثان)، مع أن ظاهِرَهم مبهر، من حيث الشكلُ الإسلامي، كما سنفصل ذلك في فصول عدة من هذا الكتاب.

إن تربية القلب؛ إيمانيا وخلقيا، ضرورة لإنقاذ الشخصية الإسلامية من هذا الخطر الفظيع، خطر النفاق، وخطر الأخلاق الكلبية؛ (نمط الخوارج)، فإذا شئنا إخراجَ إنسانٍ مؤمن، حقا، مسلم، حقا، متكامل، حقا، فاعل للخير، حقا، فنقطة البدء هي: تربية القلب؛ إيمانيا وخلقيا.

إذا، أردنا إنسانا ملتزما بمكارم الأخلاق ومعاليها وصالحها؛ مع الله ﷻ، والناس، والطير، والبهائم، والبيئة والأشياء، ومع ذاته، وعائلته وجيرانه؛ فنقطة البدء: تربية الإيمان والإسلام والأخلاق الحسنة في قلبه، البدء من: (تربية واعظ الله في قلب كل مسلم)، كما سنبين ذلك في فصل بهذا العنوان، وفصل (تربية القلب المؤمن الموجِّه لمكارم الأخلاق الاجتماعية)، وغيرهما. فمن هنا نبدأ فعلا.

وإلا فإننا نبذل جهودا ضائعة في الإصلاح الخلقي والاجتماعي، ما دام القلبُ غيرَ مؤمن مسلم موحِّد.. وعدم تربية الإيمان والإسلام، وإرادة الخير، وإرادة وجه الله ﷻ، في القلب، يَنْتُج عنه شخصية منحرفة؛ خلقيا واجتماعيا،

---

(٧) هو جزء من حديث صحيح، سيأتي تخريجه بطرقه في فصل: (تربية الإيمان في جذر قلوب الرجال).

بالضرورة، كما يشير إلى ذلك حديث أحمد في المسند : «**يا معشرَ مَنْ آمَنَ بلسانه ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قلبَه : لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عَوْراتِهم..**»، ورواه أبوداود، وابن أبي الدنيا، في الصمت، بلفظ: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن بقلبه، لا تتبعوا عورات المسلمين، ولا عثراتهم..**»، ورواه الخرائطي بلفظ: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان في قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم...**»، وأخرجه الترمذي ﷺ بلفظ: «**يا معشر من قد أسلم بلسانه، ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم...**»[٨] إلخ، فهذه الأخلاق السيئة التي نهى عنها النبي ﷺ نتجت من عدم تربية الإيمان في القلب.

إذا، لأن القلب هو القائد الموجه، والسلطان المطاع، النافذ الأمر في دولة الكيان الإنساني، فإن البدء بتربيته هو التوجه التربوي الصحيح، الوحيد، لتربية الإنسان المسلم؛ التزاما بفقه الأولويات، وتوفيرا للجهود؛ فأصل الصلاح أو الفساد هو قلب الإنسان، والقلب هو عمق الإنسان وسريرته، والتربية التي تنمي هذا القلب في الخير هي تربية الأعماق، حقا.

والمقصد: أن نقرر أن تربية القلب ذات أهمية قصوى في المنظومة التربوية الإسلامية؛ لأن القلب هو مركز الحركة والتوجيه، والسلطة الذاتية، وأساس الأخلاق والأعمال والتصرفات، في الكيان الإنساني كله، ومن هنا وجب البَدْءُ بها، والاهتمام المؤكد بإنجازها في كل إنسان نريد أن يكون مسلما.

إن تربية القلب تقوم على قاعدة اعتقادية تصورية للطبيعة الإنسانية، ولموقع القلب وذكاء المشاعر منها.

جـ ـ تربية القلب مقوم أساسي في المَهَمَّةِ التربوية للرسول ﷺ:

إن الدارسَ لسيرة النبي ﷺ، أي: لحركته في المجتمع من أجل تغييره

---

(٨) هذه روايات صحيحة، أو حسنة الإسناد، وسيأتي تخريجها في فصل: (تربية القلب المؤمن الموجِّه لمكارم الأخلاق الاجتماعية).

بالإسلام، ومن أجل تطبيق الإسلام فيه، يدرك أنه أحدث أكبرَ وأشملَ تحول سِلمي في التاريخ «إن النموذج العالمي الذي قام به النبي ﷺ سيظل قدوة للتغيير الجذري والسلمي، ولصنع المجتمع الراشد»(٩) بالجهود التربوية الشاملة وإخراج الشخصيات الإسلامية المتضامة المتآلفة التي تمارس التغيير الإسلامي، وتصنع التاريخ.

وينبغي أن نفكر جيدا في الكيفية التي حدث بها التغيير الإسلامي «إن منهج الأنبياء مختلف عن الثوْرات الدموية(...) والتغيير الذي قام به محمد بن عبد الله ﷺ، لم يكن ثورة دموية؛ بل لم يُقْتَلْ شخصٌ.واحد من أعداء المسلمين، ولقد انتصر، واستُقبِلَ بـ(طلع البدر علينا)، ولم يكن قد قَتَلَ من المشركين شخصا واحدا، لا في مكة ولا في المدينة، وليس هذا فقط، بل إن هذا الأسلوب الرباني النبوي الراشد قلل الخسائر في جانب المسلمين أيضا، فلم يُقْتَل من المسلمين، خلال ثلاثة عشر عاما من الدعوة الساخنة السلمية، إلا شخصان فقط، فيما نعلم؛ امرأة، ورجل؛ سُمَية وياسر زوجُها. كم كانت هذه العملية التغييرية؛ للمجتمع وللأفراد وللحكم، عجيبة واقتصادية ونموذجية؟ كم قللت من سفك الدماء(...) إن هذا المثل المحمدي، هو المثل القدوة للعالم جميعا ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١]»(١٠).

فما الطريق الذي أحدث به النبي ﷺ هذا التغيير؟

نركز هنا على الطريق التربوي، وأبعاد المَهمة التربوية التي أحدث بها النبي ﷺ- بقدر الله وإذنه -ذلك التغيير الشامل في الشخصيات والمجتمع والحكم.

بين الله ﷻ، في القرآن أبعاد المهمة التربوية- ضمن الرسالة الشاملة-

---

(٩) جودت سعيد: التغيير؛ مفهومه وطرائقه، سلسلة ندوات الفكر المعاصر، (٢)، ط ٢، دار الفكر، دمشق، سوريا، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ١٣٨.
(١٠) المرجع السابق، ص ١٦٥، ١٦٧.

للنبي محمد ﷺ، يقول الله ﷻ ذاكرا دعاء إبراهيمَ وإسماعيل، وهما يبنيان الكعبة: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ويقول في نفس السورة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢].

ويقول ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ويقول الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

هذه الآيات تحدد أبعاد وجوانب المهمة التربوية للرسول ﷺ، وهي كلها فِعْلٌ تربوي يهدف إلى تكوين وتنمية وصياغة الشخصية الإنسانية؛ لتكون إسلامية؛ باطنا وظاهرا، في كل مقوماتها وسلوكياتها، أي: إن آليات تغيير ما بأنفس الصحابة، ونقلهم وتحويلهم؛ من الضلال المبين إلى الهُدَى.. في كل شأن، هي هذه الأبعاد التربوية، التي طبقها النبي ﷺ بشكل كامل ومتوازن وجاد، وهي:

١ـ تِلاوَةُ الآياتِ القرآنيةِ: وترتيلُها، وقراءتها على مُكْثٍ، ومَهَلٍ، على المؤمنين بالنبي ﷺ، وبالقرآن؛ ليؤمنوا بها، ويفهموها، ويتأثروا بها، وليصبغوا نفوسَهم بدَلالاتها ومقرَّراتها، ويعملوا بها، هذه هي المنهجية التربوية الأولى؛ التربية بالقرآن.. لتكوين وتنمية الإيمان والمفاهيم الإسلامية، وتنمية الوعي، وإثارة التفكير، وإنارة القلب والعقل والنفس.. إلخ، وقد قام النبي ﷺ بالتلاوة، والترتيل، والقراءة؛ لهذا القرآن، على مهل؛ بنفسه، أو بتعليم مَن يقوم بهذه المهمة

المربية، وإرسالهم؛ ليقرؤوا القرآن، ويرتلوه، ويوصلوه إلي قلوب الناس، وعقولهم ومشاعرهم، وبترغيب كل مسلم في التلاوة والقراءة؛ بنفسه؛ ليربِّيَ نفسَه بنفسِه، بهذا القرآن وهداياته، والقرآن منهج كامل لتربية القلب.. وسوف تأتي شروط الانتفاع بتربية القرآن في فصل: (الطريق لتربية القلب الرقيق).

٢- **تعليمُ الكِتابِ**: أي: القرآن الكريم، والكتابة، والفرائض التي كتبها الله على المؤمنين، وكل علم نافع؛ لنقلهم من الجهل إلى العلم، ومن العطالة العقلية إلى الفعالية الفكرية، ومن اتباع الهوى والتقاليد والشرائع الجاهلية، إلى اتباع الوحي، ولإكسابهم عقائدَ ومفاهيمَ وأخلاقا وعاداتٍ إسلامية، وتثبيتها في نفوسهم، وقام بذلك التعليم أحسن قيام، سواء بنفسه، أو بإعدادِ وتكليفِ مَن يقوم بذلك، مثل: مصعب، وابن رواحة، والقراء السبعون، ومعاذ، وابن مسعود، وأُبَيّ، وعلي.. إلخ.

وتعليم الكِتابِ، يعني: إكسابَ المؤمنين علما نافعا بكل المضمون العَقَدي والخلقي، والعقلي، والقلبي، والسلوكي ..المُتضَمَّن في الكتاب . وقد علَّم ذلك دائما، وبشكل شامل، فعمَّمَ العِلمَ القرآني، وبلَّغه، كاملا؛ بالوعظ والخُطبة، والتوجيه المباشر، والإنذار، والبلاغ المبين، والسؤال والجواب. علَّمَ بالكلمة، وبالإشارة، وبالقدوة، وبالإشعاع السلوكي، وبالقصة، وبالمثل، وباستخدام إمكانيات الجسد، والبيئة المحيطة، والكون المنظور، وعلَّم في المسجد، وفي بيوت أصحابه، وفي حدائقهم، وفي الطريق، وعلى الدابة، وعلم في السفر، وفي الحضر، وفي الهواء الطلق، وفي الحجرات، بالليل وبالنهار، وبالرحمة والحب والتأني، لا بالقسوة والعنف والتجني.

ودعا أصحابَه أن يتعلموا بأنفسهم، وأن يُعَلِّموا غيرهم؛ بالقراءة، والمدارسة، والتفكر، والتحاور، والسؤال، وقال عن نفسه: «**إن الله لم يبعثني مُعْنِتا ولا مُتَعَنِّتا، ولكن بعثني معلما ميسِّرا** ». رواه مسلم (١٤٧٨) عن عائشة.

ووصفه أحد الصحابة: «ما رأيت معلما قبله ولا بعده أحسنَ تعليما منه..» رواه مسلم (٥٣٧)، وقال عن نفسه: «**إنما أنا لكم بمنزلة الوالد؛ أُعَلِّمُكم..**»[١١]، وقال لأصحابه: «**علموا.. ويسروا..**»[١٢]، وقال: «**لِيُبَلِّغْ الشاهدُ الغائبَ**»[١٣]، وقال: «**إن اللهَ وملائكتَه، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر، ليصلون على معلمِ الناسِ الخيرَ..**»[١٤].

فبالتعليم لعلم القرآن، وكلِّ علم نافع؛ ننال الربانية: ﴿**كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

فتعليم الكتاب فعل تربوي؛ لصياغة القلب والعقل والنفس، صياغة إسلامية، ليكون من يعلمهم جيلا يطبق القرآن والسنة النبوية، في قلبه، وعقله، ومشاعره، وأخلاقه، ومعاملاته، ومواقفه، كلها، فأخرَجَ الإنسانَ

---

(١١) حسن، رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان، عن أبي هريرة ﷺ، وفي مشكاة المصابيح، برقم ٣٤٧، وفي صحيح أبي داود، عن أبي عوانة، برقم ٦. انظر: الألباني: صحيح الجامع الصغير، وزيادته، الفتح الكبير، ج١، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، رقم ٢٣٤٦، ص ٤٦٣. وانظر: الإمام الحافظ عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي: سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية الإمام السندي، الجزء الأول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، حديث رقم ٤٠، ص ٢٩.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٦٥، ١٦٧. صحيح لغيره، رواه البخاري في: الأدب المفرد، بتخريج الألباني، ط ٢، دار الصديق، الجيل، المملكة العربية السعودية، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، رقم ١٣٢٠، ص ٤٨٠. وهو في: السلسلة الصحيحة، للألباني، رقم ١٣٧٥، عن ابن عباس. وأخرجه أحمد في: المسند، بإسناد صحيح، وصححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، ط ٣، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، رقم ٤٠٢٧، ص٧٤٤.

(١٣) متفق عليه، وانظر: الألباني: صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، مصدر سابق، رقم ٥٣٥٢، ص٩٤٥، عن وابصة، ورواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي، عن أبي شريح، من حديث بلفظ: «**وليبلغ الشاهدُ الغائبَ**»، انظر الألباني: صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، مصدر سابق، رقم ٢١٩٧، ص ٤٣٨.

(١٤) حديث صحيح، رواه الطبراني والضياء، عن أبي أمامة، وصححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير، المجلد الأول، برقم ١٨٣٨، ص ٣٧٦، وفي صحيح الترغيب، برقم ٧٨. وانظر: يوسف القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ١، ط ٣، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م، حديث رقم ٥٢، ص ١١٥، ١١٦.

المسلم المتعلم، والمجتمع المسلم المتعلم.

٣- تعليمُ الحِكْمَةِ: وهي السنة النبوية، وكل معرفة خُلُقية موجِّهة نحو السلوك الخيِّرِ النافع، سواء فعَل ذلك بنفسه، أو عن طريق إعداد من يقوم بذلك؛ نيابة عن الرسول ﷺ، (العلماء ورثة الأنبياء)، ودعا المسلمين إلى تعلم الحكمة، والعمل بها .

وقد علَّم أصحابه الحكمة؛ وأكسبهم معرفة خلقية ربَّت ضمائرهم، وأرشدتهم إلى كل خلق حسن، وقول حسن، وعادة حسنة، ليعملوا بذلك، وبَيَّنَ لهم كلَّ سوء وشر، ليجتنبوه، في أعمال القلوب والجوارح، وما ترك خيرا عَلِمَهُ إلا وأرشد إليه، وما ترك شرا إلا ونهى عنه، وحذر منه، وقال لأصحابه: «**إنما بعثت لأتمم صَالِحَ الأخلاقِ**»(١٥).

وتعليم الحكمة هو أمر زائد على تعليم العلم، إنه تعليم ما يبعث على التغيير الخلقي، وما ينمي واعظ الله في القلب المسلم. إن تعليم الحكمة هو تعليم يختص بالقلب، هو إنزال العلم والمعرفة الخلقية من الذهن، إلى القلب؛ ليكون معرفة وازعة موجِّهة للقلب والسلوك كله من الداخل.

لقد نقل إلى قلوب أصحابه ونفوسهم حكمة القرآن، وحكمة سنته الشريفة.. فالتزموا صالح الأخلاق باطنا وظاهرا، وتربت فيهم الضمائرُ اليقظة.

٤- تزكية المؤمنين: أي: تطهير قلوبهم ونفوسهم وأخلاقهم من الشرك، والشر، وباطن الإثم وظاهره، وتنمية جانب الخير والإيمان والتقوى في قلوبهم ونفوسهم، وتزويدهم بما يُصْلِحُ هذه القلوبَ والنفوس، وينميها في الخير، وتخليصهم من الشرك واتباعِ الشهوات المُحَرَّمَةِ، والمعاصي، وتنمية قلوبهم، وعواطفهم، ونفوسهم، وكلِّ أخلاقهم، في الخير والصلاح.

---

(١٥) صحيح، رواه البخاري في : الأدب المفرد، بتخريج الألباني، مصدر سابق، حديث رقم ٢٧٣، ص ١٠٠ . ورواه ابن سعد، والحاكم، والبيهقي في الشعب، وأحمد في المسند، وصححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، رقم ٢٣٤٩، ص ٤٦٤ .

والتزكية هي التربية؛ لأن الزكاة هي النمو في الخير، والتربية هي التنمية في الخير والصلاح.. وسوف نرى أن التزكية هي تربية القلب، كما سنقتبس من ابن تيمية وابن القيم .

وقد زَكَّى النبيُّ ﷺ قلوبَ أصحابِه؛ بالقرآن وتعليم العلم النافع، وتعليم الحكمة، وتعليم الإيمان، وبالصلاة، والصوم، وبالزكاة والحج، وبالذكر لله.. إلخ، كما سنرى ذلك مفصلا في فصول هذا الكتاب .

فالتزكية جانب رئيسي من المهمة التربوية للنبي ﷺ، وهي عملية تغيير شاملة للقلب والنفس، وهي تزكية للمؤمنين كلهم، (ويزكيهم) (ويزكيكم)؛ أي: ينميكم في الخير، يزود، ويعظم، ويكبر، الخيرَ، في قلوبكم ونفوسكم وأرواحكم، وأخلاقكم، بجميع نواحيها، ويكملكم، ويتمم صالحَ الأخلاقِ فيكم، ويغيركم، ويحولكم، وينقلكم، من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة لله، ومن الاغتراب والشرود عن الله، إلى القرب منه، والأنس به، والشوق إليه، ومعرفته، والخشية منه، والخوف من مقامه ومن سوء الحساب، والحب له، والإخبات له، والإنابة إليه. إنها تزكية نقلتهم من سيئ الأخلاق إلى مكارمها ومحاسنها وأعاليها، ومن الجاهلية إلى الإسلام، ومن عبادة الطاغوت إلى عبادة الله وحده.

فالتزكية هي العمل التربوي الشامل الذي يُعْتَبَرُ تعليمُ الكتاب، وتعليم الحكمة، وتلاوة القرآن، أجزاءَ ضرورية فيها، ووسائل لها.

إنها هي العملية التي تؤدي إلى تحويل وتغيير ما بالأنفس، لتكون القلوب والعقول والنفوس مؤمنة مسلمة، صالحة، متمسكة بمكارم الأخلاق، فاعلة للخير، راجية رضوان الله ﷻ.

٥- تعليمهم ما لم يكونوا يعلمون: من كل ما يحتاجونه، في الدنيا، والآخرة؛ في عمارة الأرض، وعبادة الله ﷻ، سواء بنفسه، أو عن طريق

صالحي أهلِ كل صنعة وعلم، وبالدعوة إلى تعليم وتعلم كل علم نافع، يقول قتادة: «الله بعث نبيه ﷺ إلى قوم لا يعلمون فعلمهم، وإلى قوم لا أدب لهم فأدبهم»(١٦).

وكل ذلك لإخراج مسلم عابد لله، معمر في الأرض، زكي القلب، والنفس والمشاعر، والأخلاق والأعمال، وهذا هو أساس تربية الشخصية المسلمة؛ تغيير ما بالأنفس؛ بتلاوة القرآن على مكث، وتعليم الكتاب، وتعليم الحكمة، وتزكية القلب، فربى النبي ﷺ أصحابه؛ ربى الإيمان في قلوبهم، وربى الأخلاق فيهم، ورباهم على طاعة الله ورسوله، ونمى في قلوبهم محبة الله، والخشية منه، وابتغاء وجهه، والإخلاص له.. إلخ، فتغيروا، وتحولوا من الجاهلية إلى الإسلام، ومن سوء الأخلاق إلى صالحها، وكوَّن منهم قاعدة حية، ومجتمعا مسلما متألقا، ومتآلفا، زكاهم اجتماعيا؛ فأصبحوا إخوانا متحابين، متعاونين، متصافين، يوالي بعضهم بعضا، أصبحوا حزبا لله متآلفين، كالبنيان المرصوص، يشد بعضُه بعضا، ودخلوا في جهاد مشترك، دائم؛ بالقلب، واللسان، والمال والسلاح، فغيروا التاريخ، فعلا، نحو الخير، بل صنعوه صناعة. فالله ربى محمدا بالقرآن، ومحمد ربى أصحابَه، وأصحابُه رَبَّوْا العالمَ حِقبة رائعة من الزمان.

ونحن، الآن، في مجتمعنا المعاصر، لا يمكن أن نستأنف حياة إسلامية حقة وشاملة، ولا أن نستأنف بعثا إسلاميا، بدون قوم يقومون بهذه المهمة التربوية ذات الأبعاد الخمسة: تلاوة القرآن على مكث، وتنزيله إلى القلوب، وصبغ الكيان كله به، تعليم الكتاب، واكتساب مفاهيمه وعقائده وأخلاقه، وتمثلها، تعليم الحكمة وصبغ القلب بها؛ لتكون موجها للمشاعر والسلوك كله، تزكية

---

(١٦) الإمام ابن جرير الطبري : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المجلد الرابع، ط ١، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، ص ١٩٨.

القلوب والنفوس، وإنماؤها في الخير، وتعليمها ما لم تكن تعلم؛ مما هو ضروري ونافع في عبادة الله، وإعمار الأرض، وإصلاح المجتمع. وكل ذلك بمنهج إسلامي، حقيقي، مُسْتَمَدّ من القرآن والسنة الصحيحة، وبدون هذه التربية الشاملة لا توجد الطليعة القادرة على قيادة التغيير الإسلامي الشامل.

فالذين يُحبون ذلك يلزمهم اتباع النبي ﷺ في إنجاز هذه الأبعاد الخمسة للمهمة التربوية، وذلك في أكبر عدد ممكن من المسلمين المعاصرين؛ ذكورا وإناثا.

إن تربية القلب، أي: تزكيته، سنة نبوية لازمة، وجزء من المهمة التربوية للمسلم المعاصر، يتأسى فيها بالنبي ﷺ، ونحن مأمورون بهذا التأسي والاتباع، فقد مارس النبي ﷺ هذه التزكية؛ بالقول، والفعل، والحال، وما دِراستنا في هذا الكتاب إلا عرضٌ شامل وتحليل منظم لأقواله وسيرته في تربية القلب؛ إنها تجديد لتربية القلب الإنساني ببعض سنة الرسول المعلم ﷺ.

والقائمون بهذه التربية مُلْزَمون باتباع منهج النبي، أي: سنته وطريقته التربوية، في تغيير ما بالأنفس. فهذا شرط في الطائفة المنصورة، وهذه هي السلفية الحقة البصيرة في هذا المجال؛ اتباعُ منهج النبي ﷺ؛ لإخراج المسلم، وتغيير ما بالأنفس؛ حتى يغيرَ اللهُ ما بالمجتمع من فساد وانحراف.

د- تربية القلب استجابة لاهتمام القرآن والسنة الصحيحة بالقلب:

يوجهنا القرآن الكريم إلى الاهتمام بالقلب، عَبْرَ مَدَاخِلَ عَدِيدَةٍ، وَمُؤَثِّرَاتٍ مُوحِيَةٍ:

١- فيلفتنا إلى أن سلامة القلب من الشرك والهوى الباطل، والقسوة، والبدعة، وحب المعصية، والجبن.. مقوم بارز في شخصية إبراهيم الخليل، وهو يقرر هذا الأصل؛ لنتبعه، ونتأسى به، فالله ﷻ يقول: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا** ﴾ [النساء: ١٢٥]،

ويقـول للنبـي ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعـام: ١٦١]، ويقـول: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحـل: ١٢٣]، والله الـذي أمرنـا باتبـاع إبـراهيم هـو الـذي قـال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وهو الذي أخبرنا عن دعاء إبراهيم: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٧ – ٨٩].

فيقرر حقيقة مهمة في وعي المسلم؛ هي أن الذي ينفع يومَ القيامة: سلامةُ القلب، أي: تَطَهُّرُهُ وخلوصُه من الشرك، والهوى الحرام، وحب البدع، والذنوب القلبية؛ كالكبر، والغِل، والحسد، وإرادة الدنيا، والرياء، والقسوة... إلخ، وذلك ليغرس في أعماق قلوب المؤمنين أن طريق النجاة والحياة يمر من هنا؛ من تربية القلب ليكون سليما.

٢- ويبين القرآن الكريم أن الجنة تُقَرَّبُ لمن اتصف بأخلاق قلبية محددة: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ [ق: ٣١-٣٤]، فدخول الجنة، بسلام، مشروط بتربية القلب ليكون تقيا، أَوَّابًا (رجَّاعًا إلى الله)، حفيظا لأمره، مطيعا، يخشى الرحمن، وهو- أي: المسلم - لا يراه في الدنيا، ويجيء إلى الله بقلب منيب، فهو، طوال حياته الواعية، منيبُ القلب، لله، مستمر على ذلك الحال حتى وافاه أجله.

فتربية القلب ليتصف بهذه الأخلاق هي طريق مأمونة لدخول الجنة بسلام.

٣ ـ ويبين القرآن صفات المؤمن الحق، فهو المؤمن، الحي القلب، الذي يَوْجَلُ قلبُه، ويرتجف، ويخاف، من الله، ويعمل الطاعات، ويقرأ، ويذكر، ويتصدق، ويعمل المعروف، ويخاف ألا يقبلَ الله منه، ويزداد إيمانا، ويتوكل

قلبه ويعتمد على الله.. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥]، ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، فالمؤمن الحق هو الذي تربى قلبُه في الإيمان والخير، فأصبح قلبا يؤمن، ويوجل، ويُخْبِتُ؛ يخضع ويتواضع ويذل، لله، ويلين قلبه للقرآن.

فتربية الإنسان لا تصلح أصلا إذا لم نُربِّ قلبه ليحب الإيمان، ويحب الله، ويوجل، ويلين، ويخشع لذكر الله، وما نزل من الحق: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

٤ - والقرآن الكريم ينفر - دائما - من قسوة القلب وغلظته، فيبين أن اليهود قست قلوبهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وأن هذه القسوة نتجت عن نقض ميثاقهم مع الله، وعن طول الأمد: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣]، وإن الله طبع على قلوبهم بكفرهم، فأُغْلِقت قلوبُهم، وأقفلت: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وأن هذا الطبع، وهذه القسوة، وهذا الإغلاق، جعلهم مُشوَّهين نفسيا وخلقيا وعقليا،

يُحرِّفون الكلِمَ عن مواضعه، ويلبسون الحق بالباطل.

وقرر القرآن أن القسوة تمنع التضرع لله: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وحذر نبيه من غلظة القلب: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وعاتب القرآنُ أصحابَ رسول الله ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦].

ومن هنا فإن تربية القلب فريضة لازمة لتنمية القلب الرقيق، اللين، الإحساس المرهَفِ، وليتخلص المسلم من الغلظة والقسوة والجفاء، مع الله ﷻ، ومع الناس، ومع الكائنات في الأرض، وليكون صالحا للجنة: «**وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطانٍ مقسطٌ متصدقٌ موفق، ورجل رحيم رقيقُ القلبِ لكل ذي قربى، ومسلم، وعفيفٌ متعفف ذو عيال**». رواه مسلم وغيره. (سيأتي تخريج هذا الحديث، وتفصيل ذلك في ثلاثة فصول عن تربية القلب الرقيق، الرحيم، اللين).

٥- والقرآن الكريم يقرر، بجلاء، أن من أكبر وأخطر أسباب الكفر، وعوامِله هو: موت القلب، أو إغلاقه، أو قفله، أو الطبع والختم عليه، أو أن يكون بينه وبين الله حجاب؛ فلا يدخل إليه الإيمان، ولا يتدبر القرآنَ، فيقول عن الذين كفروا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]، ويقول عن اليهود: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، وقال عن الكفار: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت : ٥]، ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ

عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية:٢٣]، وذكر الله أن الران الذي على القلب؛ بسبب تتابع المعاصي، أو الكفر، هو حجاب عن الله: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤، ١٥].

فتربية القلب الذي ينكر المعاصي، ويحب طاعة الله ﷻ، وتربيته ليتخلص من الران، والختم، والطبع والغلق.... والحجاب، فِعل لازم لمن يريد اللهَ والدارَ الآخرة.

٦ - ويقرر القرآن قاعدة تربوية مهمة ؛ هي أن الذي يتذكر ويتعظ بالقرآن هو صاحب القلب الشهيد الحاضر، الحي: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧]، ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠].

٧- ولا نملك هنا أن نتابع نصوص القرآن عن القلب، فنشير إشارة إجمالية تبين أهمية القلب في الميزان القرآني، فقد ورد لفظ القلب؛ مُنكَّرًا ومُعَرَّفًا، ومفردًا ومثنى وجمعًا، ومضافا، [١٣٢ مرة] في القرآن الكريم، وورد لفظ الفؤاد؛ مفردًا أو جمعًا، [١٧مرة]، وورد لفظ الصدر؛ مُفْرَدًا وجمعًا، ومضافا، [٤٣ مرة]، أي: أن إجماليَّ ما ورد في القرآن عن القلب والفؤاد والصدر [١٩٢ مرة]، تناولت أحوال القلب المؤمن والمنافق، والكافر، والعاصي، وعلاقة القلب بالله، وبالقرآن، وبالعمل، وبالأخلاق... إلخ .

وذلك ليلفتنا إلى أهمية القلب؛ لنربيه، تربية إسلامية صحيحة، فالقرآن يوجهنا بقوة للاهتمام التربوي بقلوبنا.

٨ - وقرر النبيُّ ﷺ - بوحي من الله - أن القلوب، والأعمال التي تصدر عنها، هي محل النظر من الله، نظرَ الرحمةِ، والإعانةِ، والتوفيق، أخرج مسلم؛

عن أبي هريرة ﷺ، قال : قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(١٧). وقرر أن «**التقوى ها هنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات..(١٨)؛ ليلفت انتباهَنا واهتمامَنا لهذا الجانب العميق، في ذواتنا؛ تربية التقوى في القلب. وقرر أن لله آنيةً في أرضه؛ وهي قلوب عباده الصالحين، وأحبُّها إلى الله أرقها وألينُها، وأن أكمل المؤمنين وأحبَّهم إلى الله كلُّ مخموم القلب، المغسول النظيف، التقي النقي، الذي لا إثمَ فيه، ولا غلَّ، ولا حسدَ.

وأن الإيمان ينزل في جَذر قلوب الرجال، وأن القلوبَ أشدُّ تقلبا من القِدْر إذا استجمعت غليانَها.

ويبين النبي ﷺ أن للقلب وظيفة إدراكية ومعرفية، في قوله: «**استفت قلبك**..»، فالقلب مصدر لبعض المعرفة، كما سنبين في أحد فصول هذا الكتاب، وذلك إلى آخر ما سنتناوله بالتفصيل؛ فصلا، فصلا، في هذا الكتاب، الذي هو - بذاته، ومادته - برهان على ضرورة وفريضة تربية القلب، من خلال الحديث النبوي.

وكل أحاديثه تلفتنا إلى الاهتمام بقلوبنا، وتزكيتها، حتى يُقلبها الله في الخير والهدى.

هـ- تربية القلب لازم إيماني خلقي؛ لإكساب المسلم منظومة الأخلاق القلبية الملزمة:

وهذه الأخلاق القلبية هي شعَبٌ إيمانية مُلزمة، هي فرائض ألزم الله بها

---

(١٧) صحيح، انظر: القاضي عياض: إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم، الجزء الثامن، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، ط ١، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، حديث رقم ٢٥٦٤، ص ٣٢. وسيأتي فصل كامل عن هذا الحديث، وفيه تخريجه بطرقه.

(١٨) صحيح، المصدر السابق، ص ٣١.

المؤمنين والمؤمنات، فتربية القلب فريضة لازمة؛ شرعا؛ ليكتسبَ المسلمُ هذه الأخلاقَ والقيمَ، ويتحقق بها، ويتصفَ بمضموناتها، وذلك بأن يتصورَها تصورا صحيحا، ويصدق بها، ويحبَّها، ويخضع لها، ويتشربها، ويتمثلها، ويريدها، ويمارسها، ويشتهيها، ويلتزم بها .

إن تربية القلب تربية إسلامية تهدف إلى إكساب كل مسلم ومسلمة قيمَ: الإيمان بالله،.. واليوم الآخر، والتقوى، والحب لله، والخشية منه، وبغض المعاصي والشركِ والكفر والنفاقِ، ومَن يرتكب ذلك، وقيمَ: الإنابة والتوبة، والرقة، والرحمة، والإخلاص، واللين، والغنى بالله، والخشوع له، والإخبات، والتواضع، والشكر، وتغيير المنكر، والنقاء، والحرية، واستنارة القلب، والوعي، واليقين في الله، والقرآن، واليوم الآخر، وفي آيات الله، وسلامة القلب، والطمأنينة بذكر الله، والوَجَلِ، والرضا، والفرح بالحق، والأنس بالله، والحنين لرسول الله ﷺ، وبغض الإثم، والتخلص من الغل والبغضاء للمسلمين، والشحناء، والحسد، والحقد، وحب الدنيا، والكبر، والبغي، والغدر، والعبودية لغير الله، واتباع الهوى المحرم، وإكسابِ القلب: حبَّ الله ورسوله، والذين آمنوا، وحبَّ الآخرة، وحب الخير، ومراقبة الله ﷻ، وبغض المشركين والكفار. تربية القلب؛ ليكون حيا، رقيبا على الذات، مرشدا، آمرا بالخير، أي: تربية واعظ الله في قلب المسلم، القاصد للخير، المخلص، الذي يغلي بأعمال البر، ويعزم عليها، ويدفع لفعل الخيرات، في المجتمع والعالَم.

فما الذي يكسب القلب كلَّ هذه الشعبِ الإيمانية اللازمة، وغيرَها، مما شرحناه في كتابنا هذا؟

إن هذه القيم- الأخلاق - مقومات رئيسية للمسلم الحق، وإخراجُ هذا المسلم ضرورة، وفريضة لازمة. وطريق ذلك مُحَدَّدٌ؛ إنه: تربية القلب، أي: تنمية كل هذه القيم فيه، وكل هذه القيم فرائض إيمانية، ولا يمكن أن تتحقق

في القلب بدون فعل التربية؛ التعليم والتزكية؛ أي: تصورها، والاقتناع بها، والتصديق بها، واليقين فيها، والحب، والاشتهاء لها، وإرادتها، والاتصاف بها، والعمل بِمُقْتَضَى ذلك؛ في الشعور والسلوك. فتربية القلب التي تزوده بالغذاء الضروري؛ لينمو في الخير، فريضة لإنجاز وتحقيق ذلك.

و- تربية القلب ضرورة لمواجهة الخلل في شخصية المسلم المعاصر:

إذا، تربية القلب فريضة وضرورة لإخراج المسلم الحق، العميق الإيمان والتقوى، الفعالِ للخير، الرحيم، الرقيق، الحساس، الملتزم بمنظومة قيم القلب المؤمن الحي، المتمسك بها في كل أحواله وتقلباته، وهذا المسلم، مع أقرانه، يشكلون القوة الفاعلة للتغيير في المجتمع المعاصر.

لكن هناك خللا خطيرا في شخصية المسلم المعاصر، نتج هذا الخللُ من عدم الاهتمام بتربية القلب، في الأسرة، والمدرسة، والمعهد، والمسجد، والجامعة، وحركات البعث الإسلامي، لإكساب المسلم القيمَ القلبية العقدية الإيمانية، والخلقية؛ التي تشكل (منظومة فرائض القلب)؛ فنتج عن ذلك أمراضٌ وتشوهات شديدة في (كثير) من المسلمين، لقد انتشرت القسوة، والعنف، والسرقات، وشرب المخدرات، والميكافيللية الجديدة، ومص دماء الناس، وأكل المال بالباطل،... حتى أوشك مجتمعُنا المعاصر أن يُصَابَ بكارثة، أوْ أن يَسْقُطَ في الهاوية، مع أن هناك مساجدَ، وخطبا، وإذاعاتٍ وقنوات فضائية للقرآن، وجماهيرَ متدينة، تابعة للجمعية الشرعية، وأنصار السنة، والسَّلَفية، والإخوان المسلمين، والعشائر المحمدية.... ما السبب؟

نقول: بعد خبرة لهذا الواقع لأكثر من خمس وعشرين سنة، إنه لا توجد تربية للقلب، كما نفصلها هنا، تربية عقدية خلقية، حقيقية، متكاملة، وشاملة، وصحيحة، بل إن كثيرا مما قد يُسَمَّى أمراضَ الصحوة الإسلامية نتج عن هذا النقص التربوي الفادح، الشنيع ؛ إن هناك عددا من شباب وفتيات الصحوة

الإسلامية، ممن لا أَشُكُّ في إخلاصهم، يُشعلون معـاركَ، ويَـشغلون أنفسَهم وغيرَهم، بسبب مسائلَ مختلفٍ فيها ؛ النقابُ فرض. لا.. بـل مـستحب. لا.. بل هو جائز. اللحية فرض مثل الصلاة، لا؛ بل هي واجب، لا؛ بل هـي سـنة مؤكدة . تقصير الثوب إلى أنـصاف الـساق، لازم، أو سـنة مؤكـدة. وتطويـل الثوب إلى ما تحت الكعبين، ولو كان بغـير بَطَـرٍ، ولا مَخِيلَـةٍ، فهـو إسـبال، أوْ مُحَرَّمٌ، دخول البرلمانات كُفر، أو مشاركة في عبادة الطاغوت. وضع اليمين على الشمال، بعد الرفع مـن الركـوع، علامـة عـلى اتبـاع الـسلف والـسنة. التـزامُ التكبير، الذي اختاره الإمام أحمـد في العيـدين، هـو الـسنة، والتكبـير، الـذي اختاره الشافعي واستحبه، بدعة.. وهكذا.. على هذا، وأمثالِ هـذا، يُـشعِلون معـاركَ، ويُجَيِّـشون أنفـسهم، ويبيتـون، يتنـاجَوْن، ويوالـون، أو يعـادون، ويديرون قسما كبيرا من حياتهم التي نشاهدها، وفي أثناء ذلـك: تنتـشر الغِيبـة وتجريح المسلمين، وبغضهم، والتجهم في وجوههم...إلخ.

فإذا قلت لهم: هذه، كلها، (أمور مُخْتَلَفٌ فيها)، وفيها (أقوالٌ)، وتنازُعٌ بين أهل العلم، ولا يصح فيها الإنكار، ولا الموالاة والمعاداة، وهي، كلهـا، أمـور ظاهرة، تتعلق بهيئات، وأننا أغفلنا الأصلَ؛ وهـو تربيـة الإيـمان الحقيقـي في القلب، وتربية أخلاق القلب، والله لا ينظر إلى صـوركم وأجـسادكم، ولكـن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، وأننا، بعـد هـذه التربيـة، نكـون مـسلمين حقـا، مؤمنين حقا، سواء انتقبت المرأة أو اختمـرت، أو التحـى المـسلم؛ وجوبـا أو استحبابا، وسيرفع المسلمُ ثوبَه، فلا ينزل أسفل من الكعبـين، وسـيكبر اللهَ في العيدين، سواء اتبع أحمد أو الشافعي،.. إلخ، المهم: تربية القلب، أولا؛ عقديا وخلقيا، وتربية واعظ الله في القلب المسلم؛ ليأمره بالخير، وينهـاه عـن الـشر، من داخله، وتربية أخلاق الرحمة ومراعاة حقوق المسلمين..إلخ.

إذا قلتَ لهؤلاء الإخوة ذلك؛ شَكُّوا في سلفيتِك، ونَفَّـروا عنك (أتبـاعهم

ومقلديهم)، مع أنهم مقلدة أيضا، وبغضوا فيك المسلمين، وهكذا انقلب سلم أولويات الدعوة والتربية والحركة، عند هؤلاء الإخوة، ونسُوا قولَ سيدنا جندب: «فتعلمنا الإيمانَ قبل القرآنِ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا»، (رواه ابن ماجه ﷺ، وسيأتي تخريجه مفصلا)، وقولَ النبي ﷺ: «**إذا صلحت صلح الجسد كله.. ألا وهي القلب**»، ونسوا كل أحاديث هذا الكتاب، ونسوا مفهوم السنة، وأولوياتها .

إن هذا مرضٌ خطير يجب علاجه؛ بتربيةٍ تفتح القلوبَ للوحي كله، وتستدرك هذا النقص الفادح، وتواجه هذا المرض الخطير الذي يستهلك طاقات الشباب المسلم؛ مرضَ الاهتمام بالفرْعِي قبل الأصلي، وبالمختلف فيه قبل المُجْمَعِ عليه، وبالظاهر قبل الباطن، وبالصغير قبل الكبير، وبتحويل الجائز إلى فرض أو سنة، وما خالفه بدعة، ولو لم يَثْبُتْ فيه أصل، وبصنع قضايا ضخمةٍ على مسألة مختلف فيها، ولكلٍّ من العلماء الأئمة رأيُه، واختيارُه. ثم القنوع بذلك، وبناء (جماعة) توالي وتعادي على ذلك، وأمثاله. واستحلال غِيبة المسلم المخالف، وانتقاص حرمته، والحكم عليه بالتفسيق أو التبديع.. إن تربية القلب، كما هي في هذا الكتاب، مَخرَجٌ حقيقي من هذا الوضع المُوجِعِ.

وهناك عدد من الشباب يستغرقهم - أحيانا - العملُ السياسي، الذي تقلص في وعيهم إلى عمل انتخابي، أو يهتمون بعمل اجتماعي خيري، وهذا فِعْلُ خَيْرٍ لا شك فيه، إذا صدقت النية وسَلِمَ المقصد الشرعي، ولكنْ إذا كان على حساب صياغة القلب صياغة إسلامية، وعلى حساب إخراج المسلم الحق المؤمن القلب، الملتزم بالأخلاق الإسلامية، وعلى حساب (حتى يغيروا ما بأنفسهم)، وعلى حساب تربية العقيدة بمنهج قرآني نبوي، فإن هذا الاهتمامَ بالعمل الانتخابي الجُزْئي، على حساب العمل التربوي القلبي، والخلقي؛ هو

تشوه، يلزم، فورا، علاجُه وتداركه، في إطار المنظومة المتكاملة لتربية الشخصية الإسلامية، والمنظومة الشاملة للعمل الحركي التغييري الإسلامي، بجوانبه التربوية، والدعْوية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية؛ في توازن وتكامل وشمول.

وهناك عدد من الشباب؛ أصيبوا بقسوة الخوارج وكلبيتهم، عاشَرْتُ عددا منهم، وخَبَرْتُهم، حتى أنهم اتهموا رجلا كان يعلمهم، وغيرَهم، حقيقة التوحيد، ويشرح لهم، وغيرَهم، معالم في الطريق، وكتاب الإيمان من صحيح مسلم، وكتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ اتهموه بالكفر، وبالتضليل، ونفروا عنه بعض الناس؛ لأنه رفض مقولتهم في نفي الإعذار بالجهل في الشرك والتوحيد، متمسكا، في ذلك، بأصول أهل السنة والجماعة؛ كما فصلها ابنُ تيمية، وابنُ عبد الوهاب، والشوكانيُّ، وغيرُهم.. ورَمَوْا كثيرا من العاملين للإسلام بالتبديع، والكفر، والتضليل، والفسوق، وسبوا عالِما آخرَ، داعيا لله، بأنه مجنون، وفاسق، واغتابوه بتلذذ، وحَرَّمُوا قراءة كتبه،.. ومارسوا، ببشاعة منقطعة النظير، كلَّ صنوف الغِيبة، والقسوة، والبغض، واغتيال الشخصية المعنوية لمئات من العاملين للإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لمجرد قولِ رأي، أو قولٍ؛ خطأ، أوْ صوابٍ، فيما هو مَحَلُّ اجتهادٍ شرعي.

وسوف نجد، في هذا الكتاب، كيف كان السلفُ الصالح، حقا، ضد هذه السلوكيات الشرسة.

إن مواجهةَ هذه القسوةِ أو الغلظة، التي يمارسها بعضُ هؤلاء الشباب (المتدين)، لا تكون بقسوة مضادة، بل بتربية قلبية، تستدرك، وتنمي الإيمانَ وأخلاقَ الإيمانِ في القلب، وتُخَلِّص النفوسَ من أخلاقِ الخوارج القدماء؛ كلابِ النار.

وهناك عدد من الشباب، فهموا الجهاد حسب مقرراتهم في: الفريضة

الغائبة، وحتمية المواجهة، والميثاق، وفهموا الواقع، وآليات تغييره، فهما مُعَيَّنا، ينقصه كثير من الوعي السياسي الناضج، والوعي التغييري، فمارسوا الجهاد باعتباره (القتل) لبعض رجال الشرطة، أو بعض الشخصيات العامة، أو بعض السائحين.. فكانت (محنة) للإسلام والمسلمين، ثم رجعوا عن ذلك، بعد أكثر من عشرين سنة من الفهم المغلوط، ومن سفك الدم الحرام، والأمر لله. والمنقذ من ذلك تربية قلبية صحيحة تكسب القلب: إيمانا، ورقة، ورحمة، ومعرفة، ووعيا، وذوقا، وأخلاق الحب، والتعاطف، واحترام الدم، والمال، والعرض.. الخ.

وهناك عدد من الناس، ماشَيْتُهم زمنا في شبابي الأول، يمارسون تصوفا بِدْعِيًّا خُرَافِيًّا، يوجِّه، تحت راية حب الأولياء، نحو قبور الأموات، (رحمهم الله)، بدلا من التوجه نحو الله رب الكائنات، تصوفا يمارس (نسيانا)، أسموه ذكرا، يسحب الناس من واقع المجتمع الصاخب الذي يجب العمل لتغييره؛ إلى حلقات وموالد. ويَعْتَقِدُونَ أن هذا هو الطريق إلى الله ﷻ، وغَفلُوا أنهم حُرِمُوا الوصول؛ بتَضييعهم للأصول، وأصلُ الأصول: تربية القلب المؤمن الموحِّد، العابد لله وحده، المتبع للرسول ﷺ، المحب لله، والمبغض لله.. الذي يتمثل كل مقررات أهل الطريق الحق، في القلب والأدب والأخلاق.

إن مواجهة هذه الأمراض، وغيرها، تمثل ضرورة حيوية لسلامة المسار، ولا يمكن تحقيق هذه المواجهة، بشكل صحيح وسليم، ومتكامل، بدون التربية القلبية، الهادئة والشاملة، والمستمرة، والأكيدة المفعول، الملتزمة بمنهجية الرسول ﷺ.

إذا، تربية القلب ضرورة لمواجهة الخلل في الشخصيات المسلمة المعاصرة، على العموم، وعلى الخصوص.

ز- تربية القلب نقطة البدء في حركة التغيير الاجتماعي الجذري الشامل:

جاء الإسلام ليكون عقيدة وشريعة، ومنهاجا يَحْكم ويوجِّه المجتمعَ كلَّه،

وتطبيقُ الإسلام يعني، في مجتمعنا المعاصر، إنجازَ حركةِ تغيير شاملة؛ لإحداث تحول مجتمعي شامل؛ للحكم بشريعة الله في السياسة والقانون والقضاء والمال، والتعليم والتربية والدعوة، والثقافة، وكل شأن من شؤون الحكومة والشعب.

ولا يَحْدُث هذا التحولُ إلا إذا أحدثنا التحولَ الجَذْرِيَّ في أنفسنا. وبالتالي: في قلوبنا؛ طبقا لمنهجية القرآن والسنة. وحسبَ نص الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فإن التغيير يخضع لقانون النفوس، ويصبح التاريخ عملية قابلة للصنع والتغيير؛ لأنه أصبح اختيارا يتقرر في أعماق النفوس. والمعطيات الآتية خلاصة لكتبٍ - ومقالات كثيرة، في التغيير(١٩):

١- إننا لازلنا ننتظرُ التغييرَ، الذي لن يَحْدُثَ إلا إذا صنعناه نحن، إن تغييرَ الواقع لن يتمَّ إلا إذا حدث التغييرُ، قبل ذلك، بما بالأنفس. فما بالأنفس هو الذي يعطي ما بالواقع حقَّ البقاء، وحلُّ مشكلة (تخلف) المسلمين، وانحطاطِهم، لن يتمَّ إلا إذا تمت السيطرة على سننِ تغييرِ ما بالأنفس، وهذا التغيير له قانون؛ سنة عامة لكل البشر؛ قانون نفسي واجتماعي:

- تغييرُ ما بالأنفس يؤدي إلى تغيير ما بالمجتمع.

- الذين تغيروا، وشَكَّلوا تجمعا حركيا عضويا؛ يقومون بأعمال التغيير الشامل؛ من خلال المدافعة والمغالبة، ضد تحالف قوى الاستكبار والاستعباد،

---

(١٩) صحيح، المصدر السابق، ص ٣١. جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ط ١، دار الفكر، بيروت، ص ١٠ ـ ١١، ٢٣ ـ ٢٥، ٦١، ٧٧، ٨٠ ـ ٨٢، ١٠٢ ـ ١٠٣

سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٢، ط ٣١، دار الشروق، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ٧٦٧ ـ ٧٦٨، ٩٧٣، ١٠٣٧ ـ ١٠٣٨، ١٠٤٦، ١٠٨٩.

سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٣، ط ٣١، دار الشروق، ٢٠٠٢م، ص ١٣٣٦، ١٣٣٨، ١٣٧٢، ١٥٣٥ ـ ١٥٣٦، ١٧٥٤.

يوسف القرضاوي: تفسير سورة الرعد، إعداد وتحقيق: محمود عوض، ط ٢، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م، ص ١٥٣ ـ ١٦٠.

والاستغلال والاستحمار، الداخلي والعقلي، أي: مع قوى الجاهلية المعاصرة وآلياتها السياسية والتربوية والإعلامية، والثقافية، والاقتصادية .. إلخ .

ومن خلال التمدد الثقافي، والتربوي: الدعْوي والتعليمي؛ عن طريق استخلاص عناصر جديدة، وتربيتها، وتفعيلها في التجمع الإسلامي العضوي.

- إن هذا يعطينا قدرة على الاجتهاد والعمل؛ لننجز التغيير الشامل.

- إن واقعَنا المجتمعيَّ (المعاصر) يحتاج لتغيير، ما في ذلك شك. لكن هذا الواقع هو نِتاجٌ لما بأنفس مجموع الأفراد؛ الذين يدخلون في شَبَكَةِ علاقاتٍ اجتماعية، ومؤسساتٍ تُكَوِّنُ هذا المجتمعَ، أو هذا الكيان الاجتماعي، ونقطة البدء في تغييره هي (الفعل التربوي الشامل)؛ لصياغة القلوب والنفوس والعقول، صياغة إسلامية تنقلها إلى الإيمان بالإسلام، والعمل به. وما قبل نقطة البدء هو تربية القلب الإنساني، أي: تغييره من العمق؛ لتغيير المجتمع من داخل شبكة علاقاته ومؤسساته.

٢- التغييرُ هو انتقالٌ من حالةٍ لا نرضى عنها إلى أخرى خيرٍ منها، وهذا الانتقال يخضع لقانون يتخذ علاقة بين الهدف والوسيلة وطاقة الإنسان، وبين هذه الأركان توازن.

التغيير هو الانتقال من الموجود إلى المقصود؛ رَفْعُ شيءٍ من القلب، والنفس والخُلُقِ، والعقل، وإحلال شيء آخرَ مكانه، هدم شيء في القلب، والنفس، والخلق، والعقل، وبناء شيء مكانه، إضافة شيء جديد، ورعايته، وتنميته، حتى يصوغ السلوكَ كله؛ يصوغ العقيدة، والفكر، والأخلاق، والاتجاهات، والرغبات، والعادات، والسلوكيات، والعلاقات، والمشاعر.

٣- التغيير لا يحدث بجهد تربوي فردي، بل بجهود تربوية جماعية، ومنهجية، ومنظمة؛ لإخراج أكبر عدد من الفاعلين المسلمين للتغيير،

يدخلون معا في ولاء وإخاء وتناصر، ومغالبة ومدافعة ومجاهدة للباطل، في شكل تجمع عضوي يشد بعضه بعضا.

٤- تغيير ما بالأنفس هو فِعْلُ الناس أنفسهم، كَسْبُهُمْ، وعملهم، وجهودهم.

٥- تغيير ما بالقوم، أي: المجتمع، هو فِعْلُ الله، (فقر/ غنى، ذلة/ عزة، مرض/ صحة، خوف/ أمن، استبداد/ حرية، ظلَم/ عدالة، جهل/ علم، تبعية للغرب/ استقلال، جاهلية عقدية وسياسية/ إسلام، تخلف مدني/ تقدم).

٦- هذا التغييرُ الرَّبانيُّ لما بالمجتمع/ القوم، لا يَحْدُثُ إلا إذا حدث تغييرُ ما بالأنفس:

- تغييرُ العقائد؛ من الخطأ إلى الصواب، من الضعف إلى القوة، من السكون إلى الفعالية يمزق الفراغ والإثمار.

- تغيير الأفكار الميتة، والقاتلة، وإزاحتها، وإحلالُ الأفكار الفعالة محلها؛ في العقل والوعي .

- تغيير الأوهام وإزاحتها، وإحلالُ الحقائق والمفاهيم الإسلامية الصحيحة محلها.

- تغيير المفاهيم والظنون والتصورات، الباطلة، وإحلال الصحيحة محلها.

إن الفكرة حين تتعمق في النفس تكون مصدرا للأخلاق، وما ذلك إلا السلوك الناشئ عن أفكار متعمقة ثابتة راسخة في النفس.

٧- هذا التغيير هو الذي نقوم به؛ فاللهُ ﷻ مَنَحَنَا هذه القدرة، جعل اللهُ الإنسانَ كائنا تاريخيا، يصنع تاريخه؛ أي: يغير ما بنفسه، فينتقل من حالة ووضع إلى حالة ووضع آخر. هذا التغيير يخضع لسلطاننا وفعلنا وكسبنا. نحن نقدر أن نَضَعَ في قلوبنا، وعقولنا، ونفوسنا، أفكارا وعقائدَ، ونؤمنَ بها،

ومـن هـذه الأفكـار والعقائـد تتولـد قـيمٌ وأخـلاق، ومـشاعر وعواطـف، واتجاهات، ومن ذلـك تتولـد الإرادة والنـزوع، والتوجُّـه للفعـل أو الـترك، ويتولـد الـسلوك الإنـساني، والعمـل الإنـساني كلـه ؛ في المجتمـع وعلاقاتِـه المختلفة، فالأساس: تغيـير عَـالَمِ العقائـد والأفكـار والأخـلاق، والعواطـف والمشاعر. وتغييرُ السلوكِ، إذن، يبدأ بتغيير عـالم العقائـد والأفكـار الموجِّهـة، وعالم القيم والمشاعر. إن سـلوكَ الإنـسانِ وتـصرفاتِه نتيجـة لعقائـده وقيمـه ومشاعره. سلوك الإنسان خاضع لما بنفسه، حتى ولو كان وهما يتوهمـه «فـإن الوَهْمَ عظيمُ الاستيلاءِ على النفسِ»، فكيف لو كان عقيدة صحيحة يؤمن بها؟

٨- إذا حدث تغييرُ ما بالأنفس؛ ما بأنفس جمهور النـاس الـذين يُكَوِّنُـونَ كيانا اجتماعيا واحدا، وشبكة علاقات اجتماعية، في اتجاه ما يريد اللهُ ﷻ؛ فـإن الله يغير ما بالمجتمع.

هذه سنة؛ قدر من الله، رَتَّبَهُ عـلى قَـدَرِ التغيـير الأول، فالـذين غـيروا مـا بأنفـسهم، أي: تربَّـوْا تربيـة إسـلامية صـاغت قلـوبَهم وعقـولهم ونفوسـهم وأخلاقهم وارتباطاتهم؛ صياغة إسلامية حقـة، ودخلـوا في تـآلف اجتماعـي، وتنظيم عضوي يشد بعضه بعضا، لتحقيق نشاطهم المشترك، وجهدهم، معا، لتحقيق أهدافهم المـشتركة، بأفعـال تربويـة وثقافيـة، واجتماعيـة، وسياسـية، واقتـصادية، مـشتركة؛ هـؤلاء هـم الـذين يُحْـدِثون (التـاريخ)، أي: التغيـير الاجتماعي الشامل، بقدر الله ﷻ.

٩- إن الله ﷻ أعطى الإنسانَ سلطانا على تغيير ما بنفسه، لكن تغيـير فـرد أو أفراد لما بأنفسهم، لا يُحدث التغيـيرَ الاجتماعـي؛ إلا إذا وُجِـدت القاعـدة، والرأيُ العامُّ، والنسبة الاجتماعية التي يتحقق بهـا، أو يحقـق الله بهـا، التغيـير الاجتماعـي؛ بـاجتماع (الـذرات) الاجتماعيـة، والـدخول في نـضال تربـوي وتثقيفي، ودعـوي، وسـياسي واجتماعـي، واقتـصادي، وتعليمـي، مـشترك.

فالسنة: هي سنة اجتماعية، لا سنة فردية؛ (حتى يغيروا).. لاحظ: واوَ الجماعة، (ما بأنفسهم)، لاحظ: الجمع وضميرَ الجمع؛ هُم، فهي فعل اجتماعي لا يتوجه لنفس واحدة أو اثنتين، بل لما بأنفس القوم.

١٠- الإنسانُ قادرٌ على صنع وتغيير المجتمع والتاريخ؛ أولا: بتغيير ما بنفسه، وما بأنفس الآخرين، ليقومَ هو والآخرون، معا، بالجهاد المشترك؛ ليأخذوا مَصيرَهم في أيديهم هُمْ، فالتاريخ، ليس حتمية مفروضة على الإنسان بفعل آلية اقتصادية أو تكنولوجية، بل نَحْنُ نَشق طريقَ التاريخ بواسطة نشاطنا نحن، الواعي، المتآلف، الذي له هدف ومقصد إسلامي واتجاه .

والذي يجعلنا كذلك هو التربية الإسلامية المتكاملة، وأساسُها تربية القلب؛ بالمفهوم والمضمون الذي يتناوله هذا الكتاب.

١١- إن فقهَ تغييرِ ما بالأنفس يمكن أن يَخْتَزِلَ زَمَنَ التغيير. وأساسُ ذلك: التربية التي تصوغ عقائدَ وتصوراتٍ وأفكار ومفاهيمَ وأخلاقِ، وقيم، ومشاعر وعواطف، واتجاهاتِ، وميولِ، وسلوكياتِ وارتباطاتِ الإنسان، صياغة إسلامية، فيصنع، مع قرنائه، التغيير، أي: التاريخ.

١٢- ومِنْ هنا نحتاج إلى عِلْمِ تغيير ما بالأنفس، فما لم نسيطر على خارطةِ تغيير ما بالأنفس، وما لم نتمكن، بوضوح، من سنة التغيير، وما ينبغي أن نغيِّره، وما ينبغي أن نحذفه، وما ينبغي أن نضيف إليه؛ سنظل نسير في طريقنا بعفوية لا قصد فيها، ونحافظ على أفكار تعوق تقدمَنا، فهنا نحتاج إلى عِلْمين: علم تغيير ما بالأنفس، وعلم آخر؛ وهو ما نميز به بين ما ينبغي أن نغيره، مما ينبغي أن نبقيه، فهذا النقص هو الذي يجعل حركة المسلمين بطيئة، مثقلة بالآصار والأغلال.

ونختم هذه الفقرة بنص سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣]، فيشير إلى «أن الله

يُكَرِّمُ هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم، حين يجعل قدر الله به يَنْفُذُ ويجري، عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله، ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنيا على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم، وأوضاعهم التي يختارونها لأنفسهم»... «ومن هذا الجانب يتبين تقديرُ هذا الكائنِ في ميزان الله، وتكريمُه بهذا التقدير، كما تتبين فاعلية الإنسان في مصير نفسه، وفي مصير الأحداث من حوله، فيبدو عنصرا إيجابيا في صياغة هذا المصير، بإذن الله وقدره، الذي يجري من خلال حركته، وعمله، ونيته، وسلوكه، وتنتفي عنه تلك السلبية الذليلة التي تفرضها عليه المذاهب المادية»(٢٠). ويقول: «إن مشيئة الله في تغيير حال قوم إنما تجري وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القومِ بأنفسهم، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييرا شعوريا وعمليا، فإذا غَيَّرَ القومُ ما بأنفسهم ؛ اتجاها وعملا؛ غَيَّرَ اللهُ حالَهم، وفق ما غيروا هم من أنفسهم..»(٢١).

إذا ؛ «أيُّ تغيير اجتماعي لابد أن يبدأ بتغيير ما بالأنفس؛ تغيير العقائد والأفكار والمفاهيم والأخلاق والقيم، فهذا هو الذي يغير المجتمعات والأمم، وهذا ما صنعه الرسول الكريم ﷺ»(٢٢). وهذا التغيير هو فعل التربية الإسلامية الشاملة، وكتابُنا هذا هو جزء واحد من فقه هذا التغيير؛ لأن تربية القلب، وتزكيته، هي الشرط الأساسي لتغيير ما بالأنفس.

فتربية القلب ضرورة حركية لإنجاز التحول المجتمعي الشامل؛ لأنها أساس التغيير كله.

١٣- إننا نحتاج إلى بيان لطبيعة العلاقة بين تحويل القلب وإصلاحه، وبين الإصلاح والتغيير الشامل في المجتمع:

---

(٢٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٣، مصدر سابق، ص ١٥٣٥، ١٥٣٦.
(٢١) سيد قطب : في ظلال القرآن، مجلد ٤، ط ٣١، دار الشروق، ٢٠٠٢م، ص ٢٠٧٢.
(٢٢) يوسف القرضاوي: تفسير سورة الرعد، مرجع سابق، ص ١٥٨.

نكتفي هنا بتوضيح الشيخ حسن البنا - رحمه الله- لهذه العلاقة؛ يقول في نص يحتاج لدراسة: «إنَّ عاملَ الترام المختص بتحويل الشريط وتغيير اتجاه سير الترام، لا يحمل الترام فيوجهه حيث يشاء.. إنما بعصا بسيطة؛ هي عصا التحويل، وبغمزة خفيفة؛ يحول الشريط فيتحول الترام، أو يتجه وجهته الجديدة دون عناء.. فالقلب الإنساني ومعرفة الله ﷻ هكذا، فالمعرفة الحقة هي عصا التحويل.. فإذا مَسَّتْ القلبَ الإنساني تَحَوَّل من حال إلى حال.. فإذا تحول؛ فقد تحرك الإنسانُ كله، وإذا تحول الفرد؛ تحولت الأمة، وليست الأمة إلا مجموعة من الأفراد.. فلو أردتَ الإصلاحَ؛ فَأَصْلِحِ القلبَ البشري؛ بأن تُعَرِّفَهُ بالله حق المعرفة (...) إن معرفة الله ﷻ تثير في القلب معنى روحيا قويا عميقا؛ يسيطر عليه، ويهيمن عليه، ويسيره، ويتحكم فيه..»[٢٣].

فتغيير المجتمع - الأمة - وتحويله، هو نتاج لتغيير الأفراد، وتغيير الأفراد هو نتاج لتغيير قلوبهم وتحويلها.. وتغيير القلوب وتحويلها هو نتاج لتربية التوحيد فيها، وتزكيتها بالإيمان.

ويقول في نص نقدي: «قلت: إننا في أشد الحاجة إلى أن نتغير تغيرا كليا، وأن نتبدل تبدلا حقيقيا، وألا نكتفيَ من العلم والحديث بمجرد التنسيق والتزويق؛ لأن هذا لا يفيدنا؛ إذا كانت نفوسنا كما هي؛ لم تتبدل ولم تتغير؛ فالمسلم له صفات.. من صفاته الصدق، والإخلاص لله، وبذل النصيحة، وقوة الاعتماد على الله ﷻ..، لا يعبأ بما يقول الناس، صريح، لا يخاتل، ولا ينافق، مهما بلغ العداء بينه وبين غيره، فلا يَحْمِل إلا قول الحق، يثبت عليه، ويموت عليه. أفنحن كذلك؟ (...) إذا تغيرت النفوس، فقد تغير كل شيء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾»[٢٤].

---

(٢٣) الإمام حسن البنا: حديث الثلاثاء، سجلها وأعدها للنشر: أحمد عيسى عاشور، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٩١.

(٢٤) المرجع السابق، ص ٣١٦.

ويقول: «الإنسان ما هو إلا نفس.. فقد جعل الله ﷻ صلاح الشخص في صلاح نفسه، وفساده في فسادها.. وإن أساس الصلاح والفساد مستقر في النفس..»(٢٥).

ويقول: «وأحب، أيها الإخوان، أن أذكرَكم، وأن تشاركوني في الاعتقاد، بأن الأخلاق والمعاني الخلقية العملية هي، في الواقع، أساسُ الصلاح والحياة الطيبة.. في الأفراد والأمم، فإذا أراد الفرد أن يكون صالحا؛ فَلْيُصْلِحْ نفسَه وخلقه، وإذا أرادت مجموعة أن تكون صالحة فلتصلح نفسها وخلقها، وإذا أرادت أمة أن تكون صالحة قوية فلتبدأ بالقلوب تصلحها، ثم تصلح أخلاقها، [ثم يستدل بآيات القرآن، ويقرر] فصلاح النفوس هو صلاح الأمة، وتغيير النفوس هو تغيير الأمة» [ثم يقرر أن ذلك يتم بالاعتقاد الصحيح]؛ «فإذا اعتقدتَ عقيدة لم تظهر في تصرفاتك؛ فهي عقيدة لم تؤمن بها(...) فالعقيدة لابد أن يَظْهَرَ أثرُها في الأقوال والأعمال؛ فإن الحديث عن الأخلاق الحسنة موجود في الكتب، لكن: لابد، مع هذا، من إحساس القلب.. إلخ».

«والخلاصة... أن الأساسَ العملي للإصلاح: إصلاحُ القلوب، الشعور بالمسئولية؛ بأن يكون القلب حساسا كميزان الذهب، المظاهر العملية، وهو أن تتجمل بمكارم الأخلاق.. إلخ»(٢٦).

ويقول: «كتاب الله جاء، ومقصدُهُ الأول وغايتُه الأساسية أن يكون كتابَ هدايةٍ للنفوس، وهداية للأرواح، وإصلاحا للقلب الإنساني، فالهدف الأول الذي يرمي إليه القرآن الكريم هو علاج النفس الإنسانية؛ حتى تتطهرَ وتتزكى وتستقيمَ، وتدركَ الأمور على حقائقها (...) القرآن الكريم- يا أخي- جاء أول ما جاء.. ليعالجَ نفسَ الإنسان، لا ليعالج نُظُمَ الإنسان، مع

---

(٢٥) المرجع السابق، ص ٣١٨، ٣١٩.
(٢٦) المرجع السابق، ص ٣٣١- ٣٣٥.

أن علاج نظم الإنسان موجود أيضا في كتاب الله، ولكن ليس الغَرَض الأول، ذلك أن النفس البشرية إذا صلحت، صلحت نظرتها للنظم، وإذا فسدت، فسدت نظرتها للنظم، حتى وإن كانت هذه النظم صالحة في حد ذاتها(...) لذلك - يا أخي - كان الغرضُ الأول إصلاحَ النفس، وهي الأداة (...) وصلاح المجتمع - يا أخي - أساسه صلاح النفس، وفساد المجتمع أيضا أساسه فساد النفس..»، ثم بين أن أساس صلاح النفس هو تزكيتها ووصلها بالله ﷻ، وتعريفها بالله ﷻ، وجعلها تحت رقابته دائما، ثم يقول: «وكما تناول ذلك القرآن الكريم فقد تناولته السنة النبوية الشريفة: «**البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**». «**ألا وإن في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، ومن هنا - أيها الإخوة الأحباب - إذا قلنا: إن النظم.. العملية تأتي في المرتبة الثانية في كتاب الله بعد صلاح القلب، وبعد السمو بالنفس، وبعد علاج الروح الإنساني، لم نكن في ذلك متجنين، ولا متغالين؛ لأن هذا هو الوضع الطبيعي في الإصلاح..»[٢٧]. وهو كله كلام سديد ونافذ في الحق، وله كتابات كثيرة تقرر نفس المضمون[٢٨].

فإذا أردنا التغيير الشامل ؛ فلنبدأ من تربية القلب وتزكيته بمنهج القرآن والسنة الصحيحة، وهذه هي مهمة هذا الكتاب .

---

(٢٧) المرجع السابق، ص ٤٠٣، ٤٠٤.

(٢٨) انظر: حسن البنا: مجموعة رسائل الإمام الشهيد، ط ١، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، رسالة: إلى أي شيء ندعو الناس؟، ص ٤٩ ـ ٥٠، نحو النور، ص ٧٦، دعوتنا في طور جديد، ص ١٢٦ـ ١٢٩، هل نحن قوم عمليون ؟ ص ٣٤٥ـ ٣٤٦.

حسن البنا: نظرات في التربية والسلوك، جمعه ورتبه وعلق عليه: عصام تليمة، ط ٢، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٥م، فصول: أثر التربية في حياة الأفراد والأمم، ص ١٠٨. التربية الدينية، ص ١٢١، ١٢٣. أزمة نفوس وأرواح، ص ١٢٧ - ١٢٩. نفوسنا التي يجب أن تتغير، ص ١٣٠ -١٣٣. بهذا وحده يكون الإصلاح، ص ١٣٤ - ١٣٦. في صميم الدعوة، ص ١٤٢، ١٤٣.

ح ـ تجديد فقه تربية القلب عند المسلمين:

١ـ إن تربية القلب محورٌ تربوي لم يهتم به المسلمون، كما ينبغي، في القرون الأخيرة؛ من حيثُ التنظيرُ المستمَدُّ فقط من القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، وصحيح التطبيقات والخبرات الثابتة عن السلف الصالح.

صحيح أن هناك كتاباتٍ تناولت القلبَ، وتأديبَ النفس، وأخلاقَ السلوكِ إلى الله، مثل: كتب المحاسِبي: (الرعاية، وآداب النفوس، والقصد والرجوع إلى الله ﷻ، وأعمال القلوب والجوارح، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح)، وكتب الغزالي: (الإحياء، ومنهاج العابدين)، وأعمال عبد القادر الجيلاني: (الفتح الرباني والفيض الرحماني، وفتوح الغيب، والبُغْيَة لسالكي طريقِ الحق)، وكتابات ابن تيمية: (أمراضُ القلوبِ وشفاؤها، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، فصل في تزكية النفس، قاعدة في المحبة، العبودية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)، وكتابات ابن القيم: (إغاثة اللهفان، مدارج السالكين، طريق الهجرتين)، وكتابات وتراجم الصوفية والزاهدين: (الرسالة القُشَيرية، طبقات الصوفية للسُّلَمي، ذكر النسوة المتعبدات، له، آداب الصحبة، له، حِكَم ابنِ عطاء الله وشروحُها، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء؛ لأبي نعيم، صِفة الصفوة لابن الجوزي، ...،..)، وكتب ابن أبي الدنيا: (الرقة والبكاء، الإخوان، التواضع، الأولياء.. وغيرها)، وكتابات ابن رجب الحنبلي: (جامع العلوم، الخشوع، شرحُه لكتاب الإيمان من صحيح البخاري)، لكن هذه الجهود توقفت عند القرن الثامن الهجري، تقريبا، كما أن هذه الكتب جميعها لم تقم على أساس حصر جميع آيات القرآن، وجميع الأحاديث الصحيحة في القلب، وجميع أقوال السلف الموثوقين وتجاربهم في القلب، واستخلاص منهاج لتربية القلب، من ذلك كله.

ولكنها تحتوي على روائعَ وذخائرَ نافعةٍ، وقد استفدنا منها كلِّها .

وفي القرون التالية لا نجد إلا قليلا مما يتعلق بهذا المحور؛ مثل: كتاب: قَطْر الوَلِي للشوكاني، وكتابات أحمد زَرُّوق، وابن عجيبة: (المباحث الأصلية، البحر المديد، إيقاظ الهمم)، ثم مقالات مهمة للشيخ حسن البنا، وكتب: تربيتنا الروحية، والمستخلص في تزكية الأنفس، ومذكرات في منازل الصديقين؛ لسعيد حوى. وكتاب: القلب؛ للبيانوني، وكتاب تجميعي: البحر الرائق في الزهد والرقائق، لأحمد فريد، وكتاب: الجانب العاطفي في الإسلام لمحمد الغزالي، وإعادة نشر لبعض الكتب السابقة، وكتاب: منهج التربية الإسلامية لمحمد قطب.

ولكن هذه الأعمال، باستثناء مقالات البنا، وكتاب القلب للبيانوني، لم تقم، أيضا، على نفس المنهاج الذي اخترناه؛ وهو: تجميع آيات القرآن، وأحاديث السنة، وأقوال وتجارب السلف الصالح الموثوقين، في القلب، بأسلوب الاستقراء والاستقصاء، ودراستها؛ تحليليا، واستخلاص منهج تربوي إسلامي للقلب، منها، بشكل صحيح.

وكتاب القلب للبيانوني مهم في موضوعنا، إذ أنه يقوم فعلا على الارتباط بآيات من القرآن عن القلب، وأحاديث نبوية، عن القلب، ولكنه لم يَسْتَقْصِ، ولم يستوعب، ولم يحلل تحليلا تربويا، مستخلِصا قيمَ القلب وأساليبَ تربيتِها، فهو مهم، أنصح بدراسته، لكنه لا يكفي.

ومن هنا تبدو الحاجة قائمة ملحة لكتاب أو كتب، عن (تربية القلب في القرآن والسنة الصحيحة وتجارب السلف الصالح)، تعتمد نفسَ المنهاج الاستقصائي الذي أشرتُ إليه، وتقوم على التحليل الشارح، واستنباط القيم القلبية، وتحديد أساليب تربيتها في المسلم المعاصر، مستفيدة من كل الكتابات السابقة، المتفقة مع القرآن، وصحيح السنة النبوية، ومن كل الخبرات التربوية في العالم، مما يتفق مع نفس المرجعية الإسلامية.

ويجيء الكتاب الحالي في نفس الإطار، وبنفس المنهج، ولكنه حدد موضوعه ليكون (**تربية القلب في الحديث النبوي**)، لكنه استقصى القرآنَ وخبراتِ السلف والتربويين، مما يرتبط بمعطيات الأحاديث النبوية، والبابُ مفتوح لكتاب كبير آخرَ عن تربية القرآن للقلب، ولو أخذ هذا الموضوعَ أحدُ الدارسِين في التربية، أو الدارسين في التفسير الموضوعي للقرآن، لكان عملا جديرا بالاهتمام والعناية.

٢- فكتابنا هذا هو (تجديد لفقه تربية القلب)، إنه (جزء) من (فقه التربية)، الذي يجب أن يُضافَ لفقه العقائد، وفقه العبادات، وفقه الجهاد، وفقه الأولويات، وفقه الدعوة، وفقه الحركة، وفقه المقاصد، وفقه الموازنات، وفقه السنن الاجتماعية، وفقه الدولة، وفقه المعاملات؛.. ليكون جزءا رئيسا من (فقه التغيير) الشامل.

٣- **هدف هذا الكتاب**، إذن، هو بناء تربية القلب على قول الرسول ﷺ، وفعله وإقراره، في هذا الجانب، بشكل استقصائي وتحليلي شارح، واستنباط قيم وأساليب تربية هذه القيم القلبية، وهذا هو الذي يُسَوِّغُ هذا العملَ، بشكل علمي منهجي، فهو يسد ثغرة في مجال تربية القلب، وفقه التغيير الشامل.

إنه يُؤَسس تربية القلب على منهج الرسول ذاته ﷺ، دون إدخال لأي شيء خارج السنة الصحيحة، التي هي بيان للقرآن الكريم في نفس الوقت، في هذا المجال ؛ إلا ما وافق هذا المنهج، فكلُّ نَصٍّ أوْ رأي، في هذا الكتاب، قد اخترناه طبقا لهذا الأصل؛ الموافقة للخطاب النبوي.

فتخلصنا من مثل تحليلات الغزالي الذاتية، والفلسفية، ومن مثل بدع التصوف غير الشرعي، ومن كل رأي لأي تربوي يتضمن تصورا مخالفا للقرآن والسنة، فجاء كتابُنا هذا جديدا في باب تربية القلب، إنه يبنيها على

القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية، ويؤسس كلَّ فصل فيه على حديث نبوي صحيح أو أكثر. فجاء كتابا في علم دِرَايَةِ السنة، وفي تربية القلب، وفي فقه التغيير، معا، وهو كتاب للدعاة والخطباء والوعاظ والمعلمين، والمدرسين، والمربين في الحركة الإسلامية بكل فصائلها، وهو كتاب لكل مسلم يريد تربية قلبه، بذاته.

٤- وهو كتاب يقوم (بأداء فرض العصر)؛ تربية القلب المسلم الفاعل للتغيير الجذري.

٥- كما أنه يسد نقصا في (وجهة النظر) التربوية، سواء عند المتخصصين في التربية، في الكليات الجامعية، أو لدى القائمين على الفعل التربوي في المدارس والمعاهد والجامعات والأسر والمساجد، وأجهزة الاتصال، أو عند الفاعلين التربويين في حركات البعث الإسلامي، والتجديد الإسلامي المعاصرة، الذين لا يدركون من تربية القلب سوى (الرقائقِ)، أو(الزهد والرقائق)، مع أهميتها في قيمة رحمة القلب ورقته ولينه.

فهذا الكتاب يقدم (رؤية، أو وجهة نظر) تربوية للقلب، تقوم على الحديث النبوي الصحيح، بالتكامل مع معطيات القرآن الكريم، ومقرراته، في القلب. ويقدم هذه الرؤية لكل هؤلاء؛ ليلفت انتباههم جميعا لأهمية هذا الجانب، وضرورته، وكيفية ممارسته، وأسسه العقدية، وقيمه، وأهدافه، وأساليبه التربوية، من خلال أسلوب تحليلي شارح يصلح للجميع، من خلال هيكل معين اخترناه لبناء هذا الكتاب، بحيث يستخرج القارئ رؤيته المتكاملة، بنفسه، لتربية القلب، كما مارسها أعظم وأنجح مُربٍّ للقلب في تاريخ الإنسان؛ محمد ﷺ، دون أية مبالغة، بل تقريرا للحق الثابت.

٦- إذن، يستمد هذا الكتابُ أهميتَه من حيث إنه كتب للتنظير؛ لتقديم (فكر)، و(خريطة عمل)، (ووجهة نظر)، في تربية القلب الإنساني، وكيفية

ممارستها، ومن حيث إنه (تجديد للخطاب التربوي) في مجال فقه تربية القلب، وعلاقته بفقه التغيير، بهدف إحداث حراك فكري تربوي معاصر.

ط - تقديم النمط التربوي الإسلامي للقلب، للتربويين، وللإنسان، في عصر العولمة:

١- بهذا الكتاب، نُسْهم في تقديم النمط التربوي الإسلامي الفريد للقلب، لكل المربين والتربويين في العالم المعاصر؛ لنكشف لهم عن التوجُّه التربوي الإسلامي الذي يقصد إلى إخراج إنسان متكامل الإنسانية، فعلا، وواقعا. إنسان حي القلب، مؤمن بالله ﷻ، يخشاه بالغيب، ويحبه، ويخلص له الدين، ويحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه، رقيق، لين، رحيم، خير، يقظ الضمير، حساس، محب للأخلاق الحسنة، مريد للخير لنفسه وللناس، مخبت لله، متواضع، منيب لربه، مستيقن للبعث والجزاء بعد الموت.. إلخ.. إلخ، إخراج هذا الإنسان هو هدف هذا النمط التربوي الذي يقدمه هذا الكتاب، الذي يكشف عن هذا التوجه التربوي للدارسين والممارسين التربويين في كل أنحاء العالم.

٢- فهذا الكتاب لم يكتب للمسلمين فقط، بل لغير المسلمين أيضا، فالنمط التربوي الذي يكشف عنه، هو نمط (عالمي)، لكل إنسان، وأي إنسان. هذا من جهة.

ومن جهة ثانية، نريد أن يَعْرِفَ غيرُ المسلمين - أيا كانوا - أنهم لا يعرفون الإسلام حقا حين يحكمون عليه بأحكام ظالمة، وباطلة، واعتباطية، فيتصورونه، ويصورونه، دينا يدعو للقسوة والبربرية والجفاف العاطفي!! والإرهاب، الذي هو قتل المدنيين والأبرياء، وما أشبه هذا الكلام، وأنهم لا يعرفون المسلم الحق حين يتصورونه - بسبب بعض الممارسات من قبل بعض المسلمين - متخلفا، وَحْشِيًّا، قاتلا.. إلخ.. إلخ .

إن هـذا الكتـاب ضروري لمواجهـة هـذا الخطـاب الغـربي النفعـي المشوه، والزائف عن الإسلام، والمسلم. هو يقول للمسلم وغير المسلم: هذا هو أسـاس تربيتنا؛ تربية القلب التي هي جزء من منظومة تربوية متكاملة؛ لصياغة الشخصية الإنسانية، وتنمية جميع جوانبها ومكوناتها بشكل شامل ومتوازن وفاعل.

٣- إنني متخصص في التربية، درَسْت كل ما يتعلق بها، وأجبت عـن كـل أسئلتها، وقرأت كتبها في اللغة العربية والإنجليزية، وكنـت دائـما أشـعر بـأن التربية، كما يتصورها المتخصصون؛ قديما وحديثا، في بلادنـا، وفي تراثنـا، وفي الغرب القديم والمعاصر، هي (تربية ناقصة)، غَيْرُ لائقةٍ بالإنسان... الإنسان.

إن التربيـة عنـد المـصريين القـدماء؛ (في متـونهم، ورسـائلهم، وكتـبهم، وممارساتهم، وإن كان فيها نوعُ اهتمام بالقلـب والـضمير الخلقـي، باعتبـار أن القلب سيُحاكَم ويوزن في الحياة الثانية، وخاصة في كتاب الظهـور في النهـار، ومتون هِرْمِسَ)، وعند اليونـان؛ (بروتـاجوراس، وجورجيـاس، وسـقراط، وأفلاطون، وأرسطو، وهوميروس، والطبيعيين)، وعنـد الهنـود، والـصينيين؛ (كونفوشيوس، وبوذا، وكريشنا)، وعند الرومان، وعند المسيحيين، سـواء في كتبهم الدينية، أو ممارسـات رهـابينهم، أو ممارسـاتهم الأخـرى، وأفلـوطين، وتومـا الأكـويني، وعنـد مفكـري النهـضة في أوربـا؛ عنـد لـوثر وكـالفن، والتنويريين؛ مثـل لـوك، وروسـو، وفـولتير، والـواقعيين؛ مثـل كومنيـوس، وهربارت، وإرازموس، وبستالوتزي، ومنتسوري، وبسمارك، وعنـد هيجـل، وهربرت سبنسر، وماركس، وأنجلز، وعند مَكَّارِينكو، وجون ديوي، والقس إيفان إيليتش، والكاثوليكي باولو فريري، وعند الماركسيين الجـدد، واليـسار الجديد، والمدرسة النقدية الاجتماعية، عند ماركيوز، وهنري جـيرو، ومايكـل أَبِلْ، ودونالدو ماسيدو، وعند مفكري العولمة المعـاصرين في الثقافـة الغربيـة الراهنة، وعند سُولْتِيس، وفتجنشتين، وأوكونور.

لقد فحصت إنتاج كل هؤلاء، ودرَسْتُه، فلم أجد أي اهتمام فكري وعملي بتربية القلب؛ ولما وجدت عنوان كتاب لباولو فريري، هـو Peddgogy of the Heart، قرأته، في نصه الإنجليزي، بشغف[٢٩]، فلم أجد سوى العنوان فقط، أما الكتاب كله فهو تذكر لتجارب وأفكار باولو فريـري نفـسه، وجهـده، في مجال التربية، وخصوصا تعليمَ الكبار، وتربية الوعي الناقد، هو تـذكُّر (تحـت شجرة المانجو)، وهذا هو الاسم الأصلي للكتاب، أما العنوان المذكور فهو من وضع الناشر، وهو عنوان مضلل لمثلي.

ثم وجدت كتابَ دانيال جولمان: ذكاء المشاعر - الـذكاء الانفعـالي، وهـو كتاب نافع جدا في مجال تربية الانفعالات، ولهذا تعلق بموضوع تربية القلب، ويقيم مادته عـلى أسـاس أبحـاث نفـسية، وتجـارب تربويـة، ومستخلـصات نظرية، وهو يؤكد على ضرورة التوازن والانسجام بـين تربيـة الـرأس وتربيـة القلب، بين الذكاء التعليمي وذكاء المشاعر، في المدرسة والأسرة، والـدورات التدريبية، وتَنَاوَلَ مَوْضُوعَاتٍ مهمة مثل: الخوف، والجرأة، والحب، ومحو أمية القلب، والمشاعر، والتقمص الوجـداني، والتـدرب عليـه، وتخفيـف مـشاعر الغـضب، وتربيـة الأمـل والتفـاؤل، وعنـاصر ذكـاء المعاملـة، والكفـاءات الانفعالية، والأسرة ودورها في تربيـة الانفعـالات، والـدروس الانفعاليـة في المـدارس، والتربيـة بـالتقمص، والطـلاب الغاضـبين، وبـرامج تـدريبهم، والاكتئـاب، والـصمم الاجتماعـي، ودور علـم الـذات في تربيـة المـشاعر، ودورات ثقافة المشاعر، وإدخالهـا للمـدارس، والتـدريب الانفعـالي، وتعلـم التواصل، وإدارة الانفعالات، وتجـارب التربيـة الانفعاليـة، وسـمات العقـل الانفعالي، وذلك في ٧٠٠ صفحة تقريبا[٣٠].

---

(٢٩) Paulo Freire : Pedagogy Of The Heart , Translated by Donaldo Macedo and Alexandre Oliveira , 2000 , The Continuum Publishing Company , New York , p.29 .

(٣٠) دانيال جولمان : ذكاء المشاعر، مرجع سابق، كل الكتاب .

وهي موضوعات مهمة في تربية الانفعالات، تقدم وجهة نظر ثرية في مجال واحد من مجالات تربية القلب، وقد استفدت به، ويحتاج لاستكمال قيم القلب، وأخلاقه.

ولإريك فروم كتاب the heart of man ؛ قلب الإنسان، يتناول فيه تحليلا نفسيا ووصفيا للقلب... وأتبعه بكتاب (التملك والكينونة)، الذي تُرْجِمَ بعنوان: (الإنسان بين الجوهر والمظهر، [نتملك أو نكون])، وهو وجهة نظر إنسانية لمفكر وعالم نفس يهودي، تناول فيه الهدف الأسمى للوجود، والشعور بالمعنى، والشعور بالغنى القلبي والنفسي، والتفتح النفسي، بالمحبة والعطاء، والمشاركة للآخَرين، والتكامل الإنساني، والإيمان، بحسب مفهومه هو، وضرورة تغيير أسس الحضارة الغربية؛ من المباراة والتنافس، إلى الأنسنة، ومن أسلوب التملك إلى أسلوب الكينونة في الحياة[٣١] ... وهي موضوعات قدم فيها وجهة نظر لإنقاذ حضارة الأتمتة والمادية والتنافسية الدنيوية، وهي مفيدة، ولكنها ليست في تربية القلب مباشرة، ولا تتناول كل أبعادها.

والمقصد أن الفكر التربوي والإنساني، في العالم المعاصر، باستثناء ما ذَكَرْتُ، وهو محدود وغير مكتمل، يعاني نقصا شديدا في البناء التربوي؛ فكرا وممارسة؛ لأنه لم يهتم بتربية القلب؛ تصورا وقيما وأهدافا، وأساليبَ، وبرامجَ، وممارسة.

مِن هنا تجيء أهمية مضافة لكتابنا هذا لكل دارس للتربية، وممارس لها.

إنه يقدم رؤية تربوية للقلب من خلال تحليل شارح لحديث النبي محمد ﷺ، المربي الشامل للقلب الإنساني؛ ليتأملَه الدارسون والممارسون، بهدوء.

---

(٣١) إريك فروم: الإنسان بين الجوهر والمظهر، نتملك أو نكون، ترجمة: سعد زهران، سلسلة عالم المعرفة، رقم ١٤٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ذو الحجة ١٤٠٩هـ - أغسطس ١٩٨٩م، كل الكتاب.

ولهذا ارتبطت بشدة بالحديث الصحيح في مجال القلب، ولم أتجاوز معطياته النصية، ودلالاته المباشرة. فالكتاب استكشاف شامل، وتحليل شارح، لكل أحاديث الرسول ﷺ، في القلب، وليس تنظيرا من عندي، فلهذا التنظير كتاب آخر ينبني على هذا الاستكشاف الشامل، ويُعتبر هذا التمهيدُ إطارا نظريا له.

٤- وأما عند المربين والتربويين العرب، فبالإضافة لما ذكرته في فقرة (ح)؛ تجديد فقه تربية القلب عند المسلمين، فإنني استقصيت الخطابَ التربوي عند المسلمين في عصور الازدهار، والانحطاط، فدرست، وفحصت، إنتاجَ ابنِ سُحْنون، والنووي، والقابسي، وابن جماعة، والعَلمَوي، والخطيب البغدادي، والماوردي، والغزالي، وابن خَلدون، وابن الأزرق، وابن الجزار القيرواني، وصديق حسن خان، والشوكاني، والاتجاه الصوفي، والاتجاه السلفي؛ عند الجيلاني وابن تيمية وابن القيم... فحصت إنتاج كل هؤلاء؛ فكرا، وممارسة، في تربية القلب، فوجدت آراء قيمة عن القلب عند المحاسبي، والحكيم الترمذي، والغزالي، والجيلاني، وابن تيمية، وابن القيم، لكنها لا تشكل (منظومة تربوية متكاملة عن القلب)، ولم تعتمد - إلا قليلا، وأحيانا - على جمع الحديث النبوي، وتحليله ودرسه؛ تربويا، كما أشرت سابقا.

ثم وجدت فكرا تربويا في نظرية التعليم، والعلاقة بين المعلم والمتعلم والعِلم، والقيم الخلقية الحاكمة لهذه العلاقة، فتناولتها في كتاب: (دستور المعلمين)، وهي لا تتعلق بموضوع الدراسة الحالية، إلا في بعض الأخلاق، ومن بعض الجوانب.

ثم وجدت خطأ كثيرا، وبِدَعا عند بعض المتصوفين، فتركت كل ذلك الخطأ، والبدع، وأبعدته عن كتابي هذا؛ الذي يدرس تربية القلب في الحديث النبوي الصحيح، ويقبل، فقط، كلَّ ما وافقه، ويرد ما عداه، فجاء كتابا يقدم،

لأول مرة في تاريخ التربية الإسلامية، رؤية تربوية للقلب؛ من خلال النص النبوي الصحيح، وفي ضوئه، وفي إطاره، فقط، مستفيدا من كل ما سبقني، في كل ما وافق هذا الأصل، بمقياس شرعي سلفي صارم.

٥- وأما التربويون، في عالمنا العربي الحديث والمعاصر؛ فقد فحصت كتاباتِهم، فدرست الأعمالَ الكاملة لرفاعة الطهطاوي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الله النديم، وعلي مبارك، ومصطفى كامل، وعبد العزيز جاويش، ورشيد رضا، والكواكبي، وقاسم أمين، وملك حفني ناصف، ونبوية موسى، وحسن البنا، وسيد قطب، ومحمد قطب، ومحمد الغزالي، ويوسف القرضاوي، ومحمد فريد وجدي، وأحمد فريد، وسعيد حَوَّى، وإسماعيل القباني، وطه حسين، وحامد عمار، وسعيد إسماعيل علي، ومحمد عابد الجابري، ومحمد عزيز الحُبَابي، ومحمود محمد سَفر، وماجد عرسان الكيلاني، وعبد الله عبد الدايم، وغيرهم.

وعند التيار الليبرالي، والاشتراكي، والإسلامي، في الكليات التربوية، وتأملت ممارستنا التربوية في المدارس، والمساجد، والجامعات، والمعاهد، ووسائل الاتصال، والكتاتيب، والحركات الإسلامية، فتأكد لي أنه، باستثناء التيار الإسلامي الحركي، فإنهم جميعا أَهْمَلُوا (تربية القلب) تماما، ولم أجد أحدا من هؤلاء اهتم بها؛ تنظيرا وممارسة، بشكل منظم. وهذا أمر مؤسف حقا.

ووجدت نوع اهتمام بهذه التربية القلبية عند التيار الاسلامي، لكنه اهتمام لم يُوضَعْ موضعَ البحثِ المستقصِي، ولم يتم استكمالُ البناء التربوي القلبي، الذي هو ضرورة حيوية الآن، في حركتنا التغييرية الإسلامية الجذرية، فهي جهود طيبة تحتاج لإكمال.

وكتابي هذا هو جزء من هذا الإكمال؛ يأتي في وقت نحن محتاجون إليه في تربيتنا الشاملة، في عصر المباريات الدنيوية.

٦- ومن جهة أخرى فإن إنسان حضارة الأتمتة والإنفوميديا وثقافة العولمة، هو إنسان الاقتناء والتملك والجشع، والاستهلاك الغليظ، والتنافس الدنيوي، إنسان الاكتنازية المادية والنفسية، والتسلط، ونفي الآخَر، أو محاولة بلعه، أو التمييز ضده، وتهميشه.. إن ثقافة العولمة واليمين الليبرالي الجديد، في الغرب، وأمريكا - بالذات - هي ثقافة القيم الدنيوية البحتة، والآنية، قيم الحياة الدنيا، فقط، والتنافس المادي، والاقتناء، والاستهلاك غير المحدود، وشفط حقوق الآخرين، وإشباع كل ما يَعِن للإنسان من رغبات، دون حدود، الإنسان الذي أصبح مجرد (ترس) في الآلة البيروقراطية، التي تشكل الصناعةُ، والحكومةُ، وإعلامُها، مشاعرَه وأفكارَه وأذواقه، وتتلاعب بها كما تريد وقياس الإنسان بقدر ما يملك، ويستهلك، فهُوية إنسانِ الغرب - عموما - وأمريكا - خصوصا - هي: «أنا موجود بقدر ما أملك وما أستهلك»[٣٢]. ويقول فروم: «النزوع للاستهلاك هو نزوع لابتلاع العالم بأسره»[٣٣]. ويقول؛ مُحللا: «لأنه إذا كان هدفي هو التملك؛ فإنني أكون أكبرَ بقدر ما تزيد مِلكيتي، ويجب أن أشعر بأنني خصم للآخرين جميعا؛ لزبائني الذين أريد أن أخدَعَهم، ولمنافسيَّ الذين أريد أن أقضِيَ عليهم، ولعُمَّالي الذين أريد أن أستغلهم، وأنني لا يمكن أن أشبع؛ لأنه لا حَدَّ لرغباتي، وأنني لابد أن أحسُدَ كل من يملك أكثر مما أملك، وأخاف ممن يملك أقل، ولكن عليَّ أن أَكْبِتَ كل هذه المشاعر؛ لكي أقدم نفسي (للآخرين، كما لنفسي)، كشخص مبتسم ودود، مخلص، وعقلاني كما يتظاهر الجميع. ولابد من أن تُفْضِيَ شَهْوَةُ التملك إلى حرب طبقية لا تتوقف أبدا.. وعلى الصعيد العالمي لابد من الحرب بين الدول، فالجشع والسَّكِينَةُ لا يتعايشان»[٣٤].

---

(٣٢) المرجع السابق، ص ٤٧.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٤٦.

(٣٤) المرجع السابق، ص ٢٥.

إن إنسانَ العولمة المعاصر هو إنسان الجسد، والمعرفة بالوجود المحسوس، وإهمال ما قبل الوجود، وما وراء الوجود المحسوس، وما بعد الحياة الدنيا، وإهمال الإيمان، والحب، والإحساس بمعنى الوجود الطيب، وغِنَى القلب؛ بالتضحية وَالعَطَاءِ. هذه الدنيوية البِنْتَامِيَّةُ المنفعية الاقتنائية المُؤَسَّسَةُ على الأَثَرَة والأنانية والسعي لتحقيق اللذة الجسدية، والمصلحة الشخصية، والجشع والكسب المادي، والاستحواذية، هي أيدلوجيا العولمة والثقافة التي يُرَادُ تعميمُها على كل الأرض، ثقافة الإشباع الجسدي، والدنيوي، والتسيد على كل خامات الأرض.

والتربية التي تؤسَّسُ على هذه الثقافة، هي تربية الجسم، والعقل المنفعي، وبعض خبرات الوجدان، وتربية المهارات الدنيوية، والمدنية، التي تنفع في الإنتاج المادي، وكسب العيش... دونما نظر للقلب الإنساني، وإرادة الإنسان وحريته، وكرامته، وتكامله النفسي، وطمأنينة روحه، واستناده إلى الإيمان بالله ﷻ، هذه الحياة الحَدَاثَوِيَّةُ فككت الإنسان وغرّبته عن ذاته، وعن عالم الإنسان الآخَر، غربته عن ذاته وفطرته التي خلقه الله عليها، عن كينونته الروحية والقلبية؛ عن ربه، عن إنسانيته، عن الطبيعة المؤمنة، كما تتجلى في الشروق والغروب وتغريد الطير، ولون الثمار، والأزهار، ورقرقات المياه.. إلخ، وعن الدار الآخرة، وأخلاقية الضمير، وأخلاقية الفعل المؤسَّسِ على تقوى الله وخشيته بالغيب، والإيمان بالبعث والجزاء في الدار الآخرة.

فأصبح الإنسانُ الغربي والأمريكي، ومَنْ يتابعهم، ويقلدهم، على العموم، إنسانا مفكَّكا، ومغترِبا، وقاسيا، ومتحيزا، ومُهَمِّشًا للآخرين، ومتحيزا ضدهم، حتى في مجتمعه ذاته، فإعصار كاترينا، عام ٢٠٠٥م، كشف، بوضوح بَشِع، تحيز البيض الأمريكيين ضد المُلَوَّنين والسود، وأحداثُ الشغب في فرنسا، والتي دُمِّرَ فيها أكثرُ من ٨٠٠٠ سيارة؛ حرقا، في ثلاثة عشر يوما،

(أكتوبر ونوفمبر، ٢٠٠٥م)، واعْتُقِل أكثر من ٣٠٠٠ فرنسي، وأُعْلِنَتْ حالة الطوارئ، وفُرِضَ حظرُ التجول في أكثر من عشرين مدينة وبلدة فرنسية، هي ثورة المهمشين الفقراء ضد جشع البيض الكاثوليك، وتحيزهم لجنسهم، وتمييزهم العِرْقي والديني ضد المهاجرين والمهمشين في فرنسا. إنها القسوة المكتنزة، المتوحشة، التي جعلت ساركوزي؛ الرئيس الفرنسي، يصف هؤلاء الثائرين بأنهم حثالة.

إن حضارة الأتمتة والشبكة العنكبوتية والتنافس الدنيوي، والشركات عابرة القومية، والتغول الأنجلوأمريكي، وباقي دول المركز الكوني، على (الباقي)، قد فصلت الأخلاق عن الإيمان، وعن الاقتصاد والسياسة، وفصلت الإنسان عن حقيقته، فشعر باللامعنى، والاغتراب والتشظي النفسي، واللامعيارية، والقلق، واتُّصِفَ بالقسوة والعنف الوحشي، (انظر ما فعله الأمريكان في سجن أبي غريب، وفي مدينة الفلوجة، عام ٢٠٠٤-٢٠٠٥م، واستخدامهم للفسْفور الأبيض الحارق، المحرم دوليا، وما فعله الصهاينة اليهود في غزة، ولبنان، من مجازر، عام ٢٠٠٦م)، وانفصل الولد عن والديه، والأخ عن أخيه الإنسان، وانتشرت المخدرات والاغتصابات والانتحارات، باعتبارها حَلًا للاغتراب الناتج عن فقدان الإيمان الحق، والحب، والرحمة، والتعاطف، وفقدان المغزى، والشعور باللامعنى، والنزوع التدميري. وما الظاهرة الاستبدادية في العالم إلا مظهر من مظاهر فقدان تربية القلب.

نتج هذا عن حضارة تنافسية لا تعبأ بالقلب والروح، والكينونة الإنسانية، والإيمان بالله واليوم الآخر، فَيُعَوِّضُون هذا الفراغ الروحي والقلبي، والبطالة النفسية، بخرافات الصين والهند والفراعنة، وما أشبه، والبحث عن كل غريب مثير، وعن تغييرات جزئية في الاقتصاد أو السياسة، أو الضمان الاجتماعي، وليس هذا حلا للإشكالية الروحية والقلبية والخلقية، وأزمة

الضمير الإنساني المعاصر، بل هي مظهر آخَرُ من مظاهرها.

إن الحل هو في استراتيجية جديدة تعيد صياغة الإنسان، تعيد أنسنته، وإحداث تغييرات أساسية في قيم البشر واتجاهاتهم، تغييرات في توجه الشخصية الإنسانية؛ عن طريق تربية القلب الإنساني، في إطار تربية الإنسان تربية متكاملة من جميع نواحيها؛ لإحداث تغيير إنساني شامل. لنتأمل في مقولات إريك فروم، عالم النفس: «لا يمكن إقامة مجتمع جديد إلا إذا حدث، أثناء تطوير هذا المجتمع، عملية تطوير لإنسان جديد، (...) أو بعبارة أكثر تواضعا: إلا إذا حدث تغيير أساسي في بناء شخصية الإنسان المعاصر»[٣٥]. ويقول: «أصبح مجردُ البقاء المادي للجنس البشري يتوقف على إحداث تغيير جذري في وجدان الإنسان وقلبه وضميره»[٣٦]. ويقول: «إن الدوافع الدينية هي مصدر الطاقة الدافعة للرجال والنساء؛ لإنجاز تغيير اجتماعي جذري، ويترتب على هذا أنه يستحيل الوصول إلى مجتمع جديد إلا إذا حدث تغييرٌ عميق في الضمير الإنساني، إلا إذا ظهر شيء جديد يكرس الناسُ حَيَاتَهُمْ من أجله، ويحل محل ما هو موجود حاليا»[٣٧]. ويقول: «إن المنقذ الوحيد لنا.. هو إحداث تغيير أساسي في الشخصية الإنسانية»[٣٨]. ويضيف: «إنما الأمر يتطلب عملية تربوية وتعليمية طويلة الأمد»[٣٩].

ويقول: «لكي يتجنب عالَمُ الغرب دمارا ماديا محققا، وبناء على تقديرات اقتصادية خالصة، يجب تغيير نظام القيم والأخلاق الراهنة، وأن يقوم نظام جديد وموقف جديد من الطبيعة يتضمن تضامنا وتكافلا إنسانيا

---

(٣٥) المرجع السابق، ص ٢٨، ٢٩ ؛ بالتوالي .
(٣٦) المرجع السابق، ص ٢٨، ٢٩ ؛ بالتوالي .
(٣٧) المرجع السابق، ص ١٤١ .
(٣٨) المرجع السابق، ص ١٧٩، ١٨٩ ؛ بالتوالي .
(٣٩) المرجع السابق، ص ١٧٩، ١٨٩ ؛ بالتوالي .

شاملا»[٤٠]. ويقول: «والحقيقة هي أن التغير من توجُّه التملك إلى توجه الكينونة ليس إلا ترجيحا لكفة على أخرى في ميزان الإنسان.. هو تغيير في الاتجاه..»[٤١]، ويقول: «فالحق أن ليس ثمة أمل إلا في طاقة الجذب الكامنة في رؤية جديدة ملهمة، لا جدوى من أي اقتراحات لإجراء إصلاح هنا، أو هناك، لا يفضي إلى تغيير النظام برمته؛ لأن الإصلاحات الجزئية لا تحمل الشحنة اللازمة لحافز جبار (...) لن نستطيع إقامة المجتمع الجديد إلا إذا نبذنا حوافز الربح والسلطة القديمة السائدة، وسودنا مكانها القيم الجديدة؛ الكينونة، والمشاركة، والفهم.. إلا إذا انتهى نمط الشخصية التسويقية لتحل مكانها الشخصية المحبة المنتجة الخصبة، .. إلا إذا انتهت عبادة السيبرناطيقا لتحل محلها الروح الإنسانية الأصيلة»[٤٢].

وتربية القلب والروح الإنساني، بتكامل مع تربية القيم العلمية.. في العقل.. لبناء إنسان متكامل، ومجتمع متكامل، فإذا فقد الإنسانُ العلمَ؛ تخلف مدنيا، وإذا فقد القيمَ الإيمانية؛ ضل سلوكه وفسد. والصواب الجمع بينهما في الفرد والمجتمع.

وتأمُّلُ مجتمعِنا يقرر أنه قد «بدأ خط صعوده من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية، وبدأ خط هبوطه من نقطة افتراقهما، وظل يهبط ويهبط كلما انفرجت زاوية الافتراق، حتى وصل إلى الحضيض؛ عندما أهمل السنن الطبيعية والقيم الإيمانية جميعا»[٤٣].

٧- وكتابنا الحالي هذا يقصد إلى تقديم نموذج تربوي متكامل وصحيح، ومطبق من قبلُ، في جيل كامل، من البشر الأسوياء، نقدمه لتربية قلب

---

(٤٠) المرجع السابق، ص ٢١٤.

(٤١) المرجع السابق، ص ٢١٦.

(٤٢) المرجع السابق، ص ٢١٨، ٢١٩.

(٤٣) سيد قطب : في ظلال القرآن، ج ١، مصدر سابق، ص ١٧.

الإنسان المغترب عن ذاته وكينونته الإنسانية، وخالقه الرحيم. إننا نقدم بديلا حقا لمذهبيات الانحطاط الحضاري المعاصر، السائدة، التي أحدثت فساد العالم، نقدم طريقا جديدا مسلوكا من قبل، لإنسانية الإنسان، وقيما جديدة وأسلوبا جديدا لتربية القلب، طُبِّق بنجاح منذ ١٤٠٠ سنة، تقدم نمطا تربويا يُنَاغِم بين القلب والعقل والروح، وباقي مكونات الإنسان، بعد أن ساد المجالُ العقليُّ المنفعيُّ، وتخلفَ القلبُ الإنساني تحت الركام.

هذه هي الإجابة عن سؤال: تربية القلب ـ لماذا ؟

فما مفهومُ تربيةِ القلب ؟ وما طبيعتها وخصائصُها ؟

ثانيا : مفهوم تربية القلب

قد يثير مفهوم تربية القلب إشكالا؛ من حيث طبيعة العضو الذي نربيه؛ فما القلب؟ ما الذي نربيه بالضبط؟ ما الموضوع الذي تَنْصَبُّ عليه التربية - هنا؟ هل هو العضو اللحمي الكمثري الشكل؟ إنه لا يزيد ولا ينقص، في حالته الصحيحة، فكيف نربيه؟ أم هو الكيان الجواني الباطن الواعي الحساس، هو الذي يتربى؟ نعم، ولكن: هل هذا الكيان ذاته، والذي نحسه، ولا نمسك به -هو الذي يتربى؟ أم أنه (وِعَاءٌ)، والذي يتربى هو ما في هذا الوعاء، مما نريده أن يكون رابيا ناميا؟ أي: العقائد، والأفكار، والقيم، والأخلاق، والعواطف، والمشاعر والرغبات..؟ إذن، تربية القلب هي تربية ما في القلب، وتربية (خصائص) في هذا القلب، ولكن - ثانية - هل كُلُّ ما يكون في القلب، وما يدخل القلب: نربيه؟ أم أن التربية تنصب على ما هو (خير) فقط، وقلع ما هو شر في القلب؟

إذن، **تربية القلب**: هي تربية ما في القلب من عقائدَ، وقيم، وعواطف، واتجاهات، ومشاعر، ورغبات، وإرادات، خيِّرة، أو إيجادها، أو غرسها وتنميتها، وخلع ما يضادها، وغرس (الخير) وتنميته.

هنا يتضح الأمر .

وهذا المفهوم قد تناوله بعض العلماء الممارسين للتربية من المسلمين السابقين، وسأختار أربعة منهم فقط، لنحلل مفهومهم لتربية القلب. وقد عبروا عنه - أحيانا - بتهذيب القلب، وتزكية القلب، ورياضة القلب، وتسمين القلب، وتربية القلب، وقد شبهوا تربية القلب بتربية الشجرة، أو الزرعة، كما سيأتي. وبعد تحليلنا لما قرروه سننظر في هذا المفهوم نظرة ثانية مختصرة؛ من حيث مفهوم (التربية)، ومفهوم (القلب)، اللذين يتركب منهما تركيبا إضافيا، وبالتالي يلزمنا تفكيكه لنرى جزئيه، ومما يتركب كل جزء، وما

البناء المفهوماتي الجديد الذي تولد من تركيبهما معا؟ ثم في فقرة تالية - نتناول طبيعة هذه العملية التي نطلق عليها: تربية القلب.

لندخل في الموضوع.

أ ـ مفهوم تربية القلب عند الحكيم الترمذي:

١ـ عندما تحدث الترمذي عن بِرِّ الله بالخلق، ورحمته، قال له قَائِلٌ: وجدتُ هذا البر تربية خلق الله. فسأله الترمذي: أتربية الأبدان عنيتَ أم تربية القلوب؟ فإن تربية الأبدان ربما أفسدت، وجاوزت المقدار، وتربية القلوب تؤدي إلى منازل الْقُرْبَة.

«فمن بُرَّ؛ ولم يُحْفَظْ له في تربية القلوب (فِعْلٌ)، فهو غير صادق في تربية الأبدان» .

«وتفسير البر: هو الصدق؛ لأن المحبة باطنة، وصدقها: ما يظهر من المحبة فعلا، مما يكون ذلك الفعل دليلا على المحبة بذلك البر..»(٤٤).

فالترمذي يفرق بين تربية القلب وتربية البدن، ويقرر أن تربية البدن ربما أفسدت وأضرت؛ إذا جاوزت المقدار، وتربية القلب توصل إلى منازل القربة من الله ﷻ، أي: يلزم إحداث توازن بين التربيتين، وتربية القلب أهم من تربية البدن، وأن الله ﷻ يربي القلب بيده، أي: بنعمه ورحمته وتفضله، وما ينزله في قلب المؤمن الصادق، ولكي يتربى القلب بهذا البر عليه أن يلتزم بالصدق، والحب، ويقابل البر بفعل يبرهن على محبته لله، وإذا لم يكن كذلك أضر -حتى - ببدنه، الذي يربيه.

والذي نخلص به - هنا - هو أن القلب يربَّى، وأن تربيته أهم من تربية البدن، التي لابد منها أيضا بتوازن، واعتدال، وأن تربية القلب غايتها القرب

---

(٤٤) أبو عبد الله محمد بن علي، الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، تحقيق: محمد إبراهيم الجيوشي، ط١، النهار للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٩٣، ٩٤ .

من الله ﷻ، وتتطلب أمرين: تقبلا لنعم الله وبره، والصدق في ذلك؛ بفعل أفعال تدل على المحبة لله. فتربية القلب - إذن - تقبل لنعم الله؛ وَحْيِهِ، وهدايته، ومعرفته، ومحبته، وفعل أفعال تصدق ذلك.

٢- ثم يبين الحكيم الترمذي تربية الإيمان في القلب، فيشبهه بشجرة، يقول في نص مهم جدا :

«الإيمان: شجرة أنبتها الله في قلوب أصفيائه؛ للتربية؛ فالمؤمن - في جميع عمره - يربيها، حتى ترسخ عروقها في جميع جسده، ويَغْلُظُ ساقُها، وتتفرع فروعها؛ بَاسِقَةً، صاعدة إلى السماء، الفروعُ، وثمرة الفروعِ: هي أعمال الجوارح(...) ولذلك قال علي: الإيمان يبدو لمظةً [نقطة بيضاء] فلا يزال يفشو ويعظم حتى يأخذ القلبَ كُلّهُ، ففشوه، مِنْ تربية العبد، كما تربى الشجرة؛ إذا غُرِسَت- وهي دقيقة- بالماء والتراب، حتى تتربى وترسخ عروقها، وتَبْسُقُ فروعها؛ وتينع ثمارها، فكذلك تربى شجرة الإيمان، فماؤها: العلم، وترابها: العمل، وتحفظ وتحرس؛ حتى لا تيبس من تناول الدواب في أيام غرسها، وتنقى من النبات الذي يحتويها ويَلْتَوِي عليها، فكذلك يحرس إيمان القلب من الآفات، فإذا تمكنت هذه الشجرة من الأرض؛ رُسُوخًا، وتمكنت في الجو فروعها، وزكت ثمرتها؛ حَلَّتْ مِن مالكها محلا يحبها، ويشفق عليها ويحوطها، وإن كانت هذه الشجرة من الأشجار التي تحمل في السنة مرتين؛ أقبل عليها مَالِكها بالمحبة والإشفاق عليها، وإن كانت - مع ذلك - بحال، لا يضرها شتاء ولا صيف، ولا ينقطع ثمرها، فهي مخضرة في الشتاء والصيف، فغير منقطعةٍ ثِمارُها في الشتاء والصيف، فَعَيْنُ صاحبِها عليها من بين الأشجار، فلا يعدل بها شجرةً، وهي سُرَّة بُسْتَانِهِ؛ فَحَلَّتْ منه محلا: إنما يمسك ذلك البستان ويسقيه ويعمره من أجلها، فكذلك المؤمن؛ إذا كانت طاعته لا تنقطع من السماء [أي: أعماله الصالحة تصعد، بلا انقطاع، إلى الله]، وذكر الله لا ينقطع

من قلبه، فهو في جميع حالاته مريد لله، إن صلى أو قام، أو أكل أو شرب، أو صمت أو تكلم، أو قام أو قعد، أو تناول أو تَرَك، ذلك كله من أجل الله ﷻ، فهذا عبد خادم لله، جميع عمله: طاعة وعبادة، وقلبه مع الله ﷻ، في جميع أحواله، لا يسهو عنه.

فهذا كشجرة لا ينقطع ثمرها، ولا يَيْبَسُ ورقها، فهي خضراء ناعمة، هو ولي الله، والله وليه، به يعمر الأرض، وعين الله عليه ترعاه، مشتاق إلى الله ﷻ، والله إليه أشوق»[٤٥].

٣- هذا النص يكتب بماء الذهب على صفحات القلوب، لنتأمل مفهوم تربية القلب، هنا :

أ - تربية القلب هي تربية الإيمان؛ (وهو بضع وسبعون شعبة، أي: قيمة وخلقا وسلوكا صالحا) في هذا القلب.

ب - الإيمان - بما في ذلك: العبادة، والإخلاص، والرحمة، والتقوى، والغِنى بالله.. إلخ - وكلها شعب: أي: فروع وأغصان للإيمان - مثل شجرة، يغرسها وينبتها الله في القلب، فالقلب: أرض، وعاء طيب نقي، صالح خصب، والإيمان: علم الوحي والهدى والصلاح، مثل الشجرة التي تغرس في هذه الأرض الطيبة النقية، الصالحة للزرع، المهيئة للإنبات. والشجرة تحتاج لتغذية وسقاية، وهذا هو العِلم والهدى، كما أخبر النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه، عن أبي موسى ﷺ، عن النبي ﷺ قال: **«إن مثل ما بعثني به الله مِنَ الهُدَى والعلم كَمَثَلِ غيث أَصَابَ أرضا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء»**. وفي رواية البخاري: **«مثل ما بعثني الله به من الـهُدَى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فَكَانَ مِنْهَا نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان** [وفي البخاري ﷺ : وكانت] **منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله**

(٤٥) المصدر السابق، ص ١٨٧ - ١٨٩

بها الناس، فشربوا منها وسقوا، ورعوا [وفي البخاري ﷺ: فشربوا وسقوا وزرعوا]، **وأصاب طائفةً منها أخرى، إنما هي قيعان** [أرض ملساء مستوية]، **لا تمسك ماء، ولا تنبت كَلأً، فذلك مثل من فَقُهَ في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثني الله به؛ فعلم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»**(٤٦). فالأرض هي: القلب النقي، الصالح للزرع، والكلأ والعشب الكثير، مثل الشجرة الطيبة - كما سيأتي، وهو مَثَلُ الإيمانِ وشُعَبِهِ، والغيث هو العلم والهدى الذي بعث الله به محمداً ﷺ. الأرض قبلت العلم، والهدى؛ تفتحت له، وأحبته، وضمته إليها، وتشربته، وتفاعلت معه، وغذت شجرة الإيمان، فنمت، وبَسَقَتْ، وأثمرت، وانتفع بها صاحبها، والناس.

جـ- الذي يقوم بالتربية، هو صاحبُ القلب؛ (فالمؤمن - في جميع عمره يربيها)، فتربية القلب عملية مستمرة في جميع العمر، وهي جهد ذاتي؛ (ففشوه: من تربية العبد) ؛ أي: من فعل المؤمن وجهده الذاتي.

د- غاية تربية شجرة الإيمان في القلب: هي:

- (حتى ترسُخَ عروقها في جميع جسده) أي: يتشربها الكيان الإنساني كله، وتتغلغل فيه.

- (ويغلظ ساقها)، أي: يقوى ويشتد، ويستوي، ويقاوم.

- (وتتفرع فروعها، باسقة، صاعدة إلى السماء). أي: يتحول الإيمان إلى عمل الصالحات والخيرات و الطاعات التي تنفع في العالم، وتصعد - عالية - نَحْوَ الله ﷻ، (وثمرة الفروع هي أعمال الجوارح).

---

(٤٦) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المجلد الأول، كتاب العلم، مصدر سابق، حديث رقم ٧٩، ص ١٧٥.

القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، الجزء السابع، مصدر سابق، حديث رقم ٢٢٨٢، ص٢٤٨، ٢٤٩.

وفي صحيح مسلم بشرح النووي، جـ ١٥، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، ومكتبة الغزالي، دمشق، كتاب الفضائل، حديث رقم ٢٢٨٢، ص ٤٥، ٤٦. وانظر شرحه هناك؛ فهو مهم.

- أن يفشوَ، (أي: يمتد، ويتزايد ويكثر)، الإيمانُ حتى يأخذ القلبَ كله، ويَعْظُمَ، حتى تينع ثمارها. إن غاية تربية شجرة الإيمان أن تغطي القلب كله، وتمد فروعها في الجسد كله، وتتمكن فيه، وفي سلوكه الاجتماعي، وتنضج ثمارها، أي: أعمالها الصالحة، الطيبة، وتظل تثمر بلا انقطاع.

أي: أن نتائج العمليات التربوية الثلاث - الآتية - هي الوصول للثمرات الآتية:

- طاعة لله، وفعل الخيرات، لا تنقطع؛ تصعد إلى السماء.

- ذكر الله ﷻ، لا ينقطع من قلبه.

- أن يكون في كل حالاته مريدا لله، وليا لله، يعمر في الأرض، ويشتاق إلى الله ﷻ، فشجرة الإيمان الصحيح، تثمر ثمرا صحيحا طيبا، نافعا، يدل عليها: «من ثمارهم تعرفونهم ،أيُجْتَنَى من الشوك عِنب أو من العليق تين؟ كذلك؛ كل شجرة طيبة تثمر ثمارا طيبة، والشجرة الخبيثة تثمر ثمارا خبيثة، فَلَيْسَ للشجرة الطيبة أن تثمر ثمارا خبيثة، ولا للشجرة الخبيثة أن تثمر ثمارا طيبة، وكل شجرة لا تثمر ثمرا طيبا؛ تقطع وتلقى في النار، فمن ثمارهم تعرفونهم»[٤٧]. كما روي عن المسيح.

هـ- إن تربية شجرة الإيمان في القلب عملية مركبة من عمليات متتابعة، ومستمرة.

الأولى: عملية الغرس والتغذية؛ بالعلم والعمل: «تربى الشجرة بالماء والتراب، حتى تتربى وترسخ عروقها وتبسق فروعها، وتينع ثمارها». ويقصد بالتراب: العناصر الغذائية المنبثة في التربة.

---

(٤٧) هذا النص، صحيح جدا في معناه، وهو، كما أعتقد، من بقايا الوحي الصحيح لسيدنا عيسى، عليه السلام، وإن كان السند إليه منقطعا، انظر: الإنجيل، بحسب متى: العهد الجديد، منشورات دار المشرق، بيروت، ط ١٢، ١٩٨٦، الفصل السابع ١٦- ٢٠، ص ٥٥.

فالعملية الأولى: هي: الغرس في القلب، وهي تستلزم عملية سابقة، هي: تهيئة القلب، وتنقيته، وإصلاحه، ليكون صالحا لشجرة الإيمان، ثم الغرس، ثم التغذية؛ أي: إمداد الشجرة الصغيرة – الدقيقة - بالعناصر الغذائية الضرورية؛ لتكبر وتفشو، وتعظم، وتنمو، وتزيد، أي: لتتربى، فالشجرة لا تتربى بدون ماء، وعناصر التربة، والضوء والهواء، فكذلك شجرة الإيمان في القلب: لابد من تغذيتها وسقيها؛ بالعلم النافع والحكمة والدرس، والتفكير، وبالعمل الصالح؛ بالذكر لله، والاستغفار، وتلاوة القرآن، والصلاة على رسول الله ﷺ، والصلاة لله، والدعاء، والصوم، والزكاة، ورحمة الضعيف، وإغاثة المكروب الملهوف، ورعاية اليتيم، وإطعام المسكين، وقضاء حوائج المحتاجين، وحب الخير للناس، .. إلخ.

فالعملية التربوية الأولى: هي عمليات وأنشطة وفعاليات متتابعة: تنقية القلب من الشوائب، ومن كل ما يضر زرعة الإيمان، عملية الغرس، عملية التغذية؛ التزويد بالعناصر الضرورية اللازمة لنمو الشجرة نموا صحيحا، وهي هنا تثقيف القلب بالعلم، والعمل بالطاعات والخيرات التي تصعد لله، والذكر لله ذكرا لا ينقطع من القلب، وتلقي نعم الله بالقبول، والشكر، والمحبة، والفعل الصادق.. إلخ.

الثانية: عملية الحفظ والحراسة، والحماية، والتنقية المستمرة من كل المضرات والمعوقات، بـ ـ ولشجرة الإيمان.

- يقول: (وتحفظ)، (وتحرس)، «حتى لا تيبس من تناول الدواب في أيام غرسها». فشجرة الإيمان في بدايتها: ضعيفة، تحتاج لحماية وحراسة، وحفظ، من الشيطان، ومن صحبة السوء، ومن ضعف إرادة الإنسان نفسه، ومن عروض الفتن المختلفة، ومن الثقافات الضارة .. إلخ.

- ويقول: «وتُنَقى من النبات الذي يحتويها، ويلتوي عليها». أي: من

الطفيليات، والمتسلقات المتوحشة، مثل الرياء، والذنوب، وعملية (التنقية) عملية مستمرة؛ لأن الشيطان مستمر في إفساد الإيمان، فهي عملية (مقاومة) مستمرة. مثلما كنا نُنَقِّي حقل القطن، من (اللُّطع) ومن (الدود)، ومن (العَفْشِ والحشيش)، ومن (الفئران)، حتى (نَجْمَعَ) قطنا أبيض رائعاً.

- ويقول: «فكذلك يحرس إيمان القلب من الآفات».

إذا العملية التربوية الثانية، هي أيضا جهد ذاتي، وتتركب من عمليات: الحفظ والحراسة، والتنقية من الآفات والطفيليات، والمقاومة المستمرة ضد خطط وخطوات الشيطان، وأهواء النفس، والثقافات المضادة.

الثالثة: عمليات الرعاية المستمرة؛ بالتغذية، والسَّقي، والتعمير، والحماية، والحراسة، والمقاومة ضد كل ثقافة مغشوشة؛ رعاية شجرة الإيمان، ومحبتها، والاعتزاز بها، والاهتمام بها،(يحبها، ويشفق عليها، ويحوطها) .

و- إذن، تربية القلب، عند الحكيم الترمذي، تتركب من مجموع العمليات الآتية:

- تنقية القلب لغرس شجرة الإيمان.
- غرس الشجرة في القلب.
- تغذيتها بغذاء العلم والثقافة والعمل الصالح، والحب، وسقيها بالتفكر، والطاعة لله، وفعل الخير.
- حمايتها وحراستها من كل الثقافات المضرة، وصحبة السوء، ... إلخ، خصوصا في مرحلة الغرس، وبداية النمو.
- الرعاية والعطف المستمر على شجرة الإيمان، والمحبة لها، والتركيز عليها، والاهتمام بها، والاعتزاز بها.
- حتى تتمكنَ، وتصعد، وتتفرع، وتبسق، وتينع، وتثمر الأعمال الصالحة في العالم، ويكون صاحبها وليا لله، مشتاقا إليه، ذاكرا له، مطيعا، معمرا في الأرض.

ز- إن هذه العمليات تتم مع كل قيمة إيمانية نربيها في القلب.

وكل شجرة من أشجار الإيمان، إذن، لها مراحل في تربيتها: مرحلة الغرس، مرحلة النُّمُو الأولى، مرحلة البُسوق، مرحلة الإثمار، مرحلة التمكن والصعود.

٤- وهذا التمثيل؛ بالشجرة، شائع عند عدد من العلماء المسلمين، وهم ينطلقون من ثلاث آيات من القرآن الكريم:

- الأولى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٨]. قال الحسن البصري: «هذا مثل للقلوب؛ فشبَّهَ القلبَ القابل للوعظ بالبلد الطيب، والنائيَ عنه بالبلد الخبيث، وقيل: هو مثل لقلب المؤمن والمنافق.. عن ابن عباس قال: هو مثل ضربه الله للمؤمن، يقول: هو طيب وعمله طيب، كما أن البلد الطيب ثمرها طيب، ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ﴾؛ ضرب مثلا للكافر، كالبلد السبخة المالحة التي لا تخرج منها البركة»(٤٨).

فالبلد الطيب مثل للقلب، ونباته: شجرة الإيمان فيه، فإذا كان القلب تقيا صالحا؛ خرج شجر الإيمان سَهْلا، وبَسَق، وصعد نباته سهلا ميسورا، وأثمر، ونفع.

يقول سيد قطب: «والقلب الطيب يُشَبَّه في القرآن الكريم، وفي حديث رسول الله ﷺ بالأرض الطيبة، وبالتربة الطيبة، والقلب الخبيث يشبه بالأرض الخبيثة، وبالتربة الخبيثة، فكلاهما.. القلب والتربة، مَنبت زرع، ومَأتَى ثمر، القلب يُنبت نوايا ومشاعر، واتجاهات وعزائم، وأعمالا بعد ذلك

---

(٤٨) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تحقيق وتخريج الدكتور عبد الرحمن عميرة، ج٢، ط ٢، دار الوفاء، المنصورة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥.

وآثارا في واقع الحياة، والأرض تنبت زرعا وثمرا مختلفا أكله وألوانه ومذاقاته وأنواعه»(٤٩).

الثانية: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

فهذا مثل للإيمان والتوحيد لله؛ (الكلمة الطيبة)، وتربيتها في القلب، والهدف من هذه التربية، فهي مغروسة في أصل القلب، ثابتة راسخة متمكنة فيه؛ (أصلها ثابت)، وصاحبُها يعمل بها باطنا وظاهرا، فيخضع لله، ويتبع شَرْعَه، فيعمل الخير، وهذه فروع الشجرة، تفرعت، وصعدت مرتفعة نحو السماء، وأثمرت أُكلاً، يعني: فاكهة وثمرا، باستمرار، وهي أعمال المؤمن؛ مثل: خشية الله ﷻ، والتحاكم لشرعه، وفعل الخير للناس، فلا يخرج منه إلا القول الطيب، والعمل الطيب، فهو يعبد الله ﷻ دائما، فكلمة التوحيد؛ (الكلمة الطيبة)، وشُعَبُ الإيمان، وأعمالُ البر مِثْلُ شجرة في القلب، مثل نخلة مثمرة لا يزال فيها منفعة(٥٠). ويطبق على هذا المثل ما ذكرناه عن الحكيم الترمذي.

الثالثة: مثل المؤمنين في الإنجيل: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]؛ و﴿شَطْـَٔهُۥ﴾: بُرْعُمَه، ونبتته الضعيفة، وهذه هي المرحلة الأولى لتربية شجرة الإيمان، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: أن المؤمن آزَرَ هذا البرعم، أي: قواه، ودعمه، وعززهُ، وحماه، ورعاه، وهذه هي العمليات الثلاث المذكورة عند الترمذي، ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ أي: قوي البرعم واشتد، وتمكن؛

(٤٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، مصدر سابق، ص ١٣٠٠.

(٥٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، مصدر سابق، ص ١٣٠٠. ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ١٣، ط ١، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م، ص ٢٣٥ ـ ٢٤٤. وشرح مهم، وتفصيل رائع لهذا المثل في:
Sayyid Abul A, la Mawdudi: Let Us Be Muslems , Edited by: Khurram Murad , The Islamic Foundation , London , 1406 – A .H . 1985 , p.p.77 – 84 .

بسبب تلك العمليات التربوية، وهذه هي المرحلة الثالثة، لتربية شجرة الإيمان في القلب؛ أن يستغلظ، ويشتد، ويتمكن ويقوى؛ ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ أي: استقام، وارتفع، وصعد، وقام قويا نافعا، وهذه هي مرحلة النضج والإثمار، ولهذا قال: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾، فعملية التربية نجحت بجدارة تستحق أن يُعْجَبَ بها الزراع، الذين زرعوا، وربوا.. إلخ.

وسيأتي مزيد بيان لهذا في عرض مفهوم تربية القلب عند الجيلاني .

ب ـ مفهوم تربية القلب عند عبد القادر الجيلاني :

١ – **ابتداءً**: يقرر الشيخ المربي، القدوة، أنه يتكلم عن خِبرة، إنه تربَّى قبل أن يُرَبِّي؛ «قد رُبيت بيد خشنة»(٥١). ويقول: «قد تربيت على خشونة كلام المشايخ، وخشونة الغربة»(٥٢).

٢– **وثانيا**: ينبه الشيخ القدوة على أهمية تربية القلب، وتهذيبه: «لو تهذب قلبُك لتهذبت جوارحك؛ لأنه مِلك الجوارح، فإذا تهذب الملك تهذبت الرعية»(٥٣) . ويقول : «أسرع إلى الأساس؛ فإذا أحكمته، أَسْرِعْ إلى البناء. ما الأساس؟ الفقه في الدين؛ فقه القلب، لا فقه اللسان، فقه القلب يقربك إلى الحق، عز وجل، يُصَدِّرُكَ، ويَرْفَعُك، ويقرب خطاك إلى ربك، عز وجل»(٥٤). ويقول: «فقه اللسان بلا عَمَل القلب لا يخطيك إلى الحق خطوة؛ السَّيْرُ: سَيْرُ القلبِ»(٥٥). ويقول: «إذا صَحَّ القلبُ صار شجرة لها أغْصَانٌ وأوراق وثمار، يصير فيه منافع للخلق، إذا لم يكن القلب صحة [كذا، وأظنها: صحيحا]؛ فهو كقلوب الحيوانات، (...) شجرة بلا ثمر، بلا طائر، بلا ساكن (...) جسد بلا

---

(٥١) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص ٢٦.
(٥٢) المصدر السابق، ص ١٥.
(٥٣) المصدر السابق، ص ١٠٦.
(٥٤) المصدر السابق، ص ١٤١.
(٥٥) المصدر السابق، ص ٢٩.

روح، كالأجساد التي مُسِخت أَحْجَارًا، فهو صورة بلا معنى»[٥٦].

إذا تربية القلب تستهدف أن يكون مهذبا، فقيها، صحيحا، مثمرا لأعمال البر والنفع للخلق، متقربا إلى الله ﷻ، ليكون قلبا إنسانيا حيا شاعرا، ذا معنى إنساني خصب وثري، فتهذيب القلب؛ (تربيته) يعطي الإنسانَ روحَه ومعناه، وبدون صلاح القلب يكون الإنسان جسدا بلا روح، وبلا معنى.

٣ – **وثالثا:** يحدد مهمته التربوية، بوعي عميق، مع تلامذته وأصحابه؛ يقول: «لِيَ أساسٌ يحتاج إلى بناء، لِيَ أطفال يحتاجون إلى تربية (...) أحتاج في هذه الحالة التي أنا فيها إلى قوة النبيين والمرسَلين، أحتاج إلى صبر مَنْ تقدم؛ من آدم إلى زماني، أحتاج إلى القوة الربانية»[٥٧].

وحق له ذلك؛ فالمسلمون؛ في أوائل القرن السادس الهجري، قد أصبحوا في حالة بائسة؛ عقديا وخلقيا، وسياسيا، وإعادة تربيتهم تحتاج إلى القوة والصبر، كما قال.

ويقول : «إنما أُرَبِّي العقولَ والقلوبَ، أما النفوس والطباع والعادات، فلا، ولا كرامة»[٥٨].

أقول : النفوس والعادات تحتاج لتربية أيضا، ولكن ليس هذا موضوعَنا، المهم أنه يدرك بوضوح مهمته التربوية؛ إنها تربية العقول والقلوب .

ويقول في نص فريد: «يا خلقَ الله، إني أطلب صلاحَكم، ومنفعتكم في الجملة(...) فعودي لمصالح قلوبكم، وتهذيبها، لا لتغيير الكلام وتهذيبه، لا تهربوا من خشونة كلامي، فما رَبَّانِي إلا الخشن، في دين الله ﷻ، كلامي خشن، وطعامي خشن، فمن هرب مني ومن أمثالي: لا يُفلِح، إذا أسأتَ الأدبَ – فيما

---

(٥٦) المصدر السابق، ص ٢٢١.

(٥٧) المصدر السابق، ص ٩، ١٠.

(٥٨) المصدر السابق، ص ١٢٤.

يرجع إلى الدين - لا أتركك، ولا أقول: افعل ذلك ولا أبالي، حَضَرْتَ عندي أم غبتَ، (...) ما أنا فيه: لا يُغَيَّرُ باللسان، إنما يغير بالجَنَان، (...) توبوا من ذنوبكم وسوء أدبكم، هذه التوبة: غرْسٌ في أرض قلوبكم، بناءٌ أبنيه عندكم، أنقض بناءَ الشيطان، وأبني بناءَ الرحمن، وَأُلْحِقَكُمْ بمولاكم وربكم عز وجل، إني قائم مع اللُّب، لا مع القشر، هذا الظاهر قشر لا أَتعَبُ في تربيته، إنما أربي ألبابَكم، وأُنَحِّي قشورَكم، وأربيكم حتى تقرَّ عَيْنُ نبيكم بكم»(٥٩).

إن مهمة الجيلاني، مع تلامذته وأصحابه، هي: تهذيب قلوبهم، وتربية ألبابهم، وتغيير أخلاق القلوب، وبناء دين الرحمن في القلب، وأوله التوبة؛ لتنمو. **ويقرر ثلاث جمل مهمة جدا:**

- «قعودي لمصالح قلوبكم وتهذيبها» .
- «ما أنا فيه لا يغير باللسان، إنما يُغَيَّر بالجَنَان» . أي : القلب .
- «إنما أربي ألبابَكم (...) وأربيكم حتى تقرعين نبيكم بكم» .

فتربيته هي لتهذيب القلوب والعقول، لكي يبلغهم الكمال القلبي والروحي، الذي يجعل النبي ﷺ، يفرح بهم، وتقر عَيْنُه. وهذه العملية التهذيبية التربوية هي تغيير بالجَنَان.

فتربية القلب هي تغييره، وتحويله؛ ليكون مهذبا، صالحا، حيا، مؤمنا، تائبا، مثمرا لفعل الخير.

ويقول في بيان مهمته التربوية: «لست بقَاصٍّ، أنا مُرَبِّي التوحيد والإخلاص، إيش أعمل بكثرتكم؟ (...) توحيدٌ ربيتُه من الصِّغر، أُضَيِّعُهُ الآن؟!»(٦٠). فهو مربي قلوب، أي: يغيرها، ويهذبها لتكون مُوَحِّدة لله، مخلصة له الدين، تائبة.

(٥٩) المصدر السابق، ص ١٦٢، ١٦٣ .
(٦٠) المصدر السابق، ص ٢٩٨ .

٤- أما مفهوم تربية القلب عند الجيلاني فنقول: إنه يستند إلى المرجعية القرآنية في تشبيه الإيمان بالشجرة، وكذلك تشبيه شعب الإيمان بالشَّجَرِ؛ فتربية ما في القلب مثل تربية الإنسان للشجرة المثمرة الصالحة. ومرة يعبر عن تربية القلب بالتهذيب، ومرة بالتَّسْمين؛ «وسَمِّن القلبَ؛ بذكر الحق عز وجل، وطاعته»[٦١]. أي: نَمِّهَ، وكبره، وعظمه؛ بالذكر والطاعة.

ولنتركه يعطينا مفهومَه لتربية القلب بكلامه الشيق؛ يقول:

«يا غلام، إذا تَرَبَّى إيمانك، وصعدت شجرتُه؛ أغناك الحق عز وجل عَنْكَ وعن الخلق ..إلخ»[٦٢].

فالإيمان شجرة تربى؛ تكبر، وتنمي، وتعظم، بالغذاء والماء والشمس، حتى تصعد، وتثمر فيغتني بها المؤمن، ويقول: «شجرة اليقظة والمعرفة تربى بماء الفكر، وشجرة التوبة تربى بماء الندامة، وشجرة المحبة تربى بماء الموافقة»[٦٣]. اليقظة، والمعرفة، والتوبة، والمحبة: قيم للقلب، وتربيتها؛ أي: تنميتها، تكون بإمدادها بالغذاء الضروري؛ بالتفكر، والندم، والموافقة لله - عز وجل.

ويقول: «زرع هذه الزراعة بالقلب والبدن؛ هو الإيمان، والحراثة لها، وجلب الماء إليها، وسقيها؛ بالأعمال الصالحة. إذا كان هذا القلب فيه لِين ورأفة ورحمة؛ نبت فيه، وإذا كان قاسيا فظا غليظا؛ كانت أرضُه سبخة، والسبخ لا يُنبت الزرعَ، إذا زرَعْتَ على رأس جبل؛ لا ينبت فيه. فهو إلى الهلاك أقرب، تعلم هذه الزراعة من الزارع، لا تنفرد برأيك..»[٦٤].

وهذا يشبه ما قرره الترمذي الحكيم؛ فتربية القلب هي تربية الإيمان -

(٦١) المصدر السابق، ص ١٣٩.
(٦٢) المصدر السابق، ص ١٠٠.
(٦٣) المصدر السابق، ص ٨٧.
(٦٤) المصدر السابق، ص ١٢٩، ١٣٠.

بشعبه – في القلب، وهي مِثل عملية الزراعة؛ الزرع هو الإيمان، يزرع في القلبِ والبدن، والزراعة هي التربية، وهي تتطلب عمليات: تنقية القلب؛ ليكون رقيقا لينا، لكي ينبت فيه زرع الإيمان، ويصعد، وهذه الزراعة تتطلب تعلما وخبرة من الزارع، أي: المربي، فتربية القلب تحتاج لتعلم طبيعةِ عمليةِ التربيةِ؛ عملية الزراعة الإيمانية الناجحة، وتحتاج لأخذِ رأي الخبراء التربويين في المجال؛ (لا تنفرد برأيك).

ثم يقول: «هذا هو القلبُ: مَثلُهُ: مَثَلُ نواةٍ في صَحْن دار؛ لاَ سَقْفَ لها، لها أَرْبَعُ حِيطَانٍ واقفة. غيثُ الشتاء، وشمسُ الصيفِ يَنزِلان عليها. تنبُت، وأحَدٌ لا يراها، إذا ظهر سَعَفُهَا، وشَمُخَتْ، وأثمرت، وأينعت، التقطوا منها، ولا سبيل لهم عليها . هكذا القلب»(٦٥).

لنتأمل، ونفحص هذا النص الرائع الخبير :

– إنه يعني: تربية نواة الإيمان والخير في القلب.

– فالنواة؛ البذرة، شجرة الإيمان، موجودة، مغروسة، مزروعة، في مكان صالح ملائم مهيأ؛ (في صحن دارٍ)؛ في القلب.

– هذه الزرعة في بيئة لها عنصران: الأول: لا سقف لها؛ لماذا؟ لكي يأتيَ الضوءُ، والهواءُ والمطر، وهذا هو عنصر التغذية والإمداد بما يُكبِّر ويُنَمِّي. والثاني: لها أربع حيطان واقفة؛ لماذا؟ لتوفير الحماية والوقاية والحراسة ومنع الآفات، وهذه هي العملية التربوية الثانية: منع الثقافة والصحبة المضرة بالقلب، في مرحلة النمو الأولى لزراعة الإيمان.

– ينزل الغيث، وضوء الشمس، على زرعة الإيمان، ينزلان: فعل مضارع يفيد التجدد والاستمرار. فعملية التغذية، مستمرة، متجددة، لزرعة الإيمان.

(٦٥) المصدر السابق، ص ٢٥٨.

- تنبت، في أناة، وعلى مهل، يتجدد نموها، ويستمر، مع التغذية، والحماية من أي ثقافة مضادة.

- مع استمرار نموها، وزيادتها: تشمخ، وتثمر، وتينع، وتترعرع، وتنفع، ويلتقط منها الناسُ الثمارَ؛ أي: تكمل شعب الإيمان، وتثمر الخير، والنفع، والأعمال الصالحة، والكلام الطيب، والشعور الطيب، والفكر الطيب.

- تتمكن أعمالُ الإيمان، فيقاوم كلَّ من يريد به ضررا: «ولا سبيل لهم عليها».

إن الشيخ القدوة يوضح - مِثْلَ الترمذي - مفهومَ وطبيعة تربيةِ القلب، التي تتطلب خبيرا، فتربية القلب هي تربية الإيمان؛ بشعبه، فيه، هي تسمينه، وتهذيبه، وتغذيته، وحمايته، وتخليصه مما يضره، لينموَ، ويثمر، ويقاوم، ليتهذب القلب، ولا يكون له إلا هم واحد، واتجاه واحد؛ يقول:

«أين أنت من القوم الذين هَمُّهُمْ واحد؛ يراقبون الله، ﷻ، في بواطنهم، كما يراقبونه في ظواهرهم، يهذبون القلبَ كما يهذبون الجوارح، (...) فلا يبقى في قلوبهم إلا شهوة واحدة؛ وهي طلبُ الله ﷻ، والقربُ منه، ومحبته، فحسب»[٦٦].

٥- وعمليات تربية القلب - عند الشيخ القدوة - لها آليات وأساليب: التفقه في القرآن، مصاحبة النبي ﷺ بالقلب؛ (فهو [المربي للمريدين] ؛ كما يقول)، ذكر الله، التفكر في العواقب، وفيما بعد الموت، المواظبة على طاعة الله ﷻ الصيام، الخلوة المربية، صحبة العارفين الصالحين، الذين تربت قلوبهم، دخول كُتَّاب القلب؛ أي: مجالس التربية بالعلم النافع، والحال الصالح، والتطريق؛ التسليك؛ أي: جعل الإنسان يسلك طريق الله، ﷻ، فقه القلب للعلم النافع حين تعَلمه، والعمل به..إلخ. وهذا مبثوث بكثرة في كتابه: الفتح الرباني.

---

(٦٦) المصدر السابق، ص ١٢٥، ١٢٦.

جـ- مفهوم تربية القلب عند تقي الدين أحمد ابن تيمية، وابن قيم الجوزية:

لابن تيمية - رباني الأمة - عدة نصوص في مفهوم تربية القلب، وهو يساويها بالتزكية، ويشبهها بتزكية الزرع، وتزكية البدن، هو وتلميذه ابنُ القيم:

١- يقول ابن تيمية: «زكاة القلب مِثلُ نماء البدن، والزكاة - في اللغة- النماءُ والزيادة في الصلاح، يقال: زكا الشيءُ؛ إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يَتَرَبَّى؛ فينمو ويزيد حتى يَكْمُلَ ويصلح، كما يحتاج البدن أن يُرَبَّى بالأغذية المصلِحةِ له. ولابد - مع ذلك - من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه، ومنع ما يضره، كذلك القلب : لا يزكو ؛ فينمو ويتمُّ صلاحُه، إلا بحصول ما ينفعه، ودفع ما يضره، وكذلك الزرع؛ لا يزكو إلا بهذا..».

«وزكاته: معنًى زائدٌ على طهارته من الذنب (...) وكذلك تركُ الفواحش، يزكو بها القلب، وكذلك ترك المعاصي؛ فإنها بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، ومثل الدَّغَل في الزرع، فإذا استفرغ البدنُ من الأخلاط الرديئة؛ كاستخراج الدم الزائد، تخلصت القوة الطبيعية واستراحت؛ فينمو البدن، وكذلك القلب؛ إذا تاب من الذنوب؛ كان استفراغا من تخليطاته، (...) فإذا تاب من الذنوب؛ تخلصت قوة القلب وإرادته للأعمال الصالحة، واستراح القلب من تلك الجواذب الفاسدة التي كانت فيه.

فزكاة القلب: بحيث ينمو ويكمل (...) فالتزكية؛ وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير، فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا.

وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]؛ وهي: التوحيد والإيمان، الذي به يزكو القلبُ، فإنه يتضمن نفيَ إلهية ما سِوَى الحق، من القلب، وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة: لا إله إلا الله، وهذا

أصلُ ما تزكو به القلوب. والتزكية: جَعْلُ الشيءِ زكيا»(٦٧).

٢- هذا النص البديع يتضمن العناصر الآتية في مفهوم تربية القلب:

- القلبُ محتاج لأن يتربى.

- تربية القلب مِثلُ تربيةِ البدن، وتربيةِ الزرع.

- تربية القلب تعني: تنميته، وتزويده في الصلاح والخير، بحيث ينمو ويزيد، حتى يَكْمُلَ ويتم صلاحُه، فيكون زكيا، أي: ناميا، كاملا، تاما في الصلاح والخير.

- هذه التنمية لها عمليتان أساسيتان:

الأولى: إمدادُ القلب، وإعطاؤه الأغذية المُصْلِحَة له؛ التوحيد، والإيمان، والذكر لله، وقراءة القرآن،..إلخ، وهذا أصل ما يزكو - ينمو - به القلب.

الثانية: منعُ ما يضره، وإزالته، ودفعُه بعيدا عن القلب، وهذه هي عملية الحماية والتطهير.

- هذه العملية الثانية تتم بالتوبة والتخلص، والتخلي عن الذنوب والمعاصي، والفواحش، والشرك.. إلخ، وهي عملية تطهير ضروري لتوفير قوة القلب وإرادته؛ لينموَ في الخير، ويريدَ أعمالَ البر، وفعلَ الخيرات.

٣- وقد أخذ ابن القيم النصَّ السابق، وأضاف عليه إضافات، يقول: «فيتغذى القلبُ من الإيمان والقرآن، بما يزكيه ويقويه، ويؤيده، ويفرحه، ويسره، وينشطه، ويُثَبِّتُ مُلْكَهُ، كما يتغذى البدن بما ينميه ويقويه. وكل من القلب والبدن محتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية، المُصْلِحَةِ له، والحَمِية عما يضره، فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه، ومنع ما يضره، فكذلك القلب؛ لا يزكو ولا ينمو ولا يتم

(٦٧) تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني: مجموع الفتاوى، ج ١٠، (فصل: في مرض القلوب وشفائها)، ط ١، دار الوفاء، المنصورة، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م، ص ٦٠، ٦١.

صلاحه إلا بذلك. ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن. وإن وصل إلى شيء منه - من غيره - فهو نزرٌ يسير، لا يحصل له به تمام المقصود، وكذلك الزرع لا يتم إلا بهذين الأمرين؛ فحينئذ يقال: زكا الزرعُ وكَمُل»(٦٨).

فهذه هي نفس مقررات ابن تيمية، ولكن ابن القيم أضاف للتوحيد والإيمان: أخذ أغذية القلب من القرآن، وأضاف مصطلح: الحمية عما يضره.

٤- ثم بَسَطَ ابنُ القيم نفسَ ما قرر ابنُ تيمية؛ يقول: «الزكاة في اللغة، هي النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء». ثم بين أن التزكية تستلزم التطهر والتخلص، والتخلي عن الفواحش والشرك، والمعاصي؛ يقول: «القلب؛ إذا تخلص من الذنوب؛ بالتوبة، فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة، والمواد الرديئة؛ زكا ونما وقويَ واشتد، (...) ونفذ حُكمُه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته»(٦٩).

وهذه إضافة مهمة، فابن القيم يقرر أن تربية القلب تعني: تزكيته، أي: تنميته وتزويده، حتى يكمل ويصلح ويقوى ويشتد، ويقدر على بسط سلطته الخيرة، وحكمه على الجوارح كلها، فينفذ حكمه في رعيته، وتسمع له وتطيع. أي: حسن سيطرة القلب على الكيان الإنساني كله، وحسن إدارته وتوجيهه في الحياة كلها. وأن هذه التربية تتم من خلال عمليتين: عملية التغذية والإمداد بالقرآن، والتوحيد، والإيمان، وعمل الخير. وعملية التطهير، والاحتماء، ودفع الفواحش؛ (الثقافة الرديئة)، وإزاحتها بعيدا عن القلب.

وهذه مهمة المؤمن، ذاته، ومهمة المربين له أيضا.

---

(٦٨) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ج ١، طبعة النور الإسلامية، القاهرة، ص ٥٨.

(٦٩) المصدر السابق، ص ٥٩.

٥- ويستدل ابن تيمية وابـن القـيم بآيـات القـرآن ؛ مثـل : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ومثـل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الـشمس: ٩، ١٠]، وينقل ابن القيم عن قتادة: «من عمل خيرًا زكَّاها بطاعة الله، عز وجل». وقال أيضا: «قد أفلح من زكّى نفسَه بعمل صالح». قال ابن قتيبة: «يريد: أفلح مـن زكـى نفـسه؛ أي : نَمّاهـا وأعْلاَهـا بالطاعـة، والـبر، والـصدق، واصـطناع المعروف، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾؛ أي: نَقَصَهَا وأخفاها؛ بترك عمل البر، وركوب المعاصي»(٧٠).

٦- ويضيف ابـن تيميـة، مؤكـدا عـلى العمليتـين التربـويتين الـسابقتين: «وأصل الزكاة: الزيادة في الخير؛ والـزرع لا يزكـو حتـى يُـزَالَ عنـه الـدَّغَلُ، فكذلك النفس والأعمال؛ لا تزكو حتى يُـزَالَ عنهـا مـا يُنَاقِـضُهَا، ولا يكـون الرجل متزكيا إلا مع ترك الشر، فإنه يُدَنِّسُ نفـسَه، ويدسـيها؛ قـال الزجـاج: ﴿دَسَّاهَا﴾: جعلهـا ذليلـة حقـيرة خسيـسة (...) ومعنـى الزاكـي: النَّـامي الكثير،(...) ما يتزكى به الإنسان: التوحيد، والأعمال الصالحة (...) إن الزكاة تستلزم الطهارة(٧١) .

ويقرر ابن تيمية أن تزكية القلب تستلزم عملية المجاهدة؛ مجاهدة الـنفس، بوعظها، والإنكار عليها حتى لا تتبع الهوى المضاد للإيمان، فهذا فَـرْضُ عَـيْن عليه، والصبر فيه من أفضل الأعمال(٧٢). كما تستلزمُ تفريغَ القلب مما لا يحبـه الله، وأن يملأه بما يحبه الله(٧٣).

---

(٧٠) المرجع السابق، ص ٦٥.

(٧١) تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني: مجموع الفتـاوى، ج ١٠، (فـصل: في تزكيـة الـنفس)، مـصدر سابق، ص ٣٥٤- ٣٥٦.

(٧٢) المصدر السابق، ص ٣٥٧.

(٧٣) المصدر السابق، ص ٢٣٠.

٧- إذا، تربية القلب، عند رباني الأمة، وتلميذه ابن القيم، تعني:

- تنمية القلب، وتغذيته؛ حتى ينموَ في الخير والصلاح، ويكمل ويتم صلاحه، ويشتد، ويقوى على إنفاذ أمره وسلطانه في الكيان الإنساني كله، وذلك يتطلب عمليتين متلازمتين.

الأولى: إمداده، وتغذيته بالأغذية العلمية والعملية، الصالحة، التي تنميه وتكبر، وتبلغه الكمال والتمام، والقوة، في الصلاح، وذلك بإدخال التوحيد والإيمان وحب القرآن، وحب الخير، والعمل الصالح، وتثبيت ذلك، فيه؛ أي: تنمية عالم العقائد والتصورات الإسلامية، وعالم القيم والأخلاق، والعواطف والمشاعر الإسلامية الخَيِّرَةِ، المنبثقة من الإيمان بالله، وهذه العملية تتحقق بتجديد الإيمان؛ بدراسة القرآن، والحديث، والتفكر في الآلاء والنعم، وفعل الخير، وذكر الله، والصلاة والصوم، ومساعدة المحتاجين.. إلخ .

هذه هي العملية التربوية الأولي، وهي تحتاج لقوة الإرادة، والصبر، ومن هنا تجيء أهمية **العملية الثانية**، وهي:

عملية الحماية، والتطهير، والحراسة، من الشرك، والمعاصي، وتفريغه من الفواحش والشر؛ ليقوى القلب، وتقوى إرادته، ويتفرغ لعمل الخير، وهذا شرط لنماء الخير في القلب ولسلامته، وصحته.

وأعني بالشر، والفواحش، هنا، ما يشمل أيضا عالَمَ المعتقدات والأفكار، وعالَمَ القيم والأخلاق، وعالم العواطف والاتجاهات، وعالم العادات والسلوكيات والعلاقات؛ المخالفةِ للوحي الإلهي.

وهذه العملية، ببُعْدَيْها، تستلزم جهاد النفس والقلب، أي: بذل الجهد، واستفراغ الوسع، لإكساب القلب قيم الحياة، والصلاح، والاستنارة، والإيمان والتوحيد، والنقاء، والرحمة، والرقة، وإرادة الخير..إلخ. وحمل النفس على تحمل المكاره في سبيل ذلك.

فتربية القلب جهاد، وجهد ذاتي، في الأساس.

وهذا فرض عين على كل مسلم ومسلمة، ومن أفضل الأعمال.

د ـ إضافة لتحديد مفهوم تربية القلب:

١ – هذا المفهوم يتركب من مُضافٍ ومضاف إليه؛ تربية القلب.

وكلمة (تربية)، مثل كلمة تزكية، مثل كلمة تنشئة، تعني: التنمية والتكبير، وتعظيمَ الشيء، وتزويده، وتبليغه كماله، وتمامه، يقول ابن منظور: «ورَبَّ المعروفَ والصنيعة والنعمة، يَرُبُّها رَبًّا، ورَبابا، وربابة،.. وربَّبَها؛ نماها وزادها، وأتمها، وأصلحها»[٧٤]. ويقول: «ورباه تربية؛ (...) أحْسَنَ القيامَ عليه»[٧٥].

ويقول الراغب: «الربُّ، في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء، حالا فحالا، إلى حد التمام. يقال: رَبَّه ورباه، وربَّبَه»[٧٦]. ويقول عن تزكية النفس: «أي: تنميتها بالخيرات»[٧٧]. وعند ابن الأثير: التربية تعني: الحفظ، والمراعاة، والتزويد[٧٨].

ويقول الشوكاني: «والتربية : التنمية»[٧٩].

وفي الصحيحين عن أبى هريرة؛ مرفوعا: «**مَن تصدق بعدل تمرة، من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يُرَبِّي أحدُكم فلُوَّه، حتى تكونَ مثلَ الجبل**»[٨٠]. يربيها: ينميها،

---

(٧٤) ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، ط ٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ١٥٤٩.

(٧٥) المصدر السابق، ص ١٥٤٧.

(٧٦) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد..): المفردات في غريب القرآن، ط: دار المعرفة، بيروت، لبنان، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، ص ١٨٤.

(٧٧) المصدر السابق، ص ٢١٣.

(٧٨) ابن الأثير (مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري): النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٢، ط ١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م، ص١٨٠.

(٧٩) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، مصدر سابق، ج٢، ص١٠٤.

(٨٠) رواه البخاري؛ انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٣، كتاب الزكاة، حديث رقم ١٤١٠، ص ٢٧٨، ونفس المصدر، ج ١٣، كتاب التوحيد، حديث رقم ٧٤٣٠، ص ٤١٥. ورواه مسلم، انظر: القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، مصدر سابق، كتاب الزكاة، حديث رقم ١٠١٤، ص ٥٣٥، ٥٣٦.

ويزودها، ويكبرها، ويعظمها، حتى تصير مثل الجبل، وفي رواية عائشة: «**ويربيها لصاحبها كما يربى أحدُكم مُهْرَه، أو فصيله، حتى أن اللقمة لتصير مِثلَ أُحُد**»(٨١). وفي رواية الطبري؛ عن أبى هريرة: «**والله يُرَبِّي لأحدكم لقمته كما يربي أحدكم مهره و فصيله، حتى يُوافَى بها، يوم القيامة، وهي أعظم من أُحُد**»(٨٢).

هذا الحديث يلقي ضوءا على مفهوم التربية؛ حين يُمَاثِلُ بين تربية المُهْرِ أو الفصيل، وهو الفَلُوُّ، وتربية اللقمة، أو التمرة. **لنتأمل**:

يُرَبِّي المهرَ؛ يعني: يُعجب به، ويحرص عليه، ويهتم به - يرعاه ويغذيه ويسقيه، ويُمَشِّيه، ويُرَبِّتُ عليه ويغسله، وينظفه - يحميه ويمنع عنه الآفات - يستمر في ذلك، فينمو ويزيد، ويكبر ويعظم، ويبلغ تمامه وكماله.

يُرَبِّي التمرة- أو اللقمة- حتى تصيرَ مِثلَ أُحُدٍ، أو أعظمَ مِن أحد؛ يعني: يهتم بها، ويرعاها، وينميها، ويزودها، ويعظمها، حتى تبلغ ذلك المبلغ.

فالتربية: عملية تغيير وتحويل نحو الأصلح والأكمل، والأتم والأفضل؛ من صغير إلى كبير، من ضعيف إلى قوي، من عجز إلى قوة وشدة، من نقص إلى كمال، من قلة إلى كثرة، من ضآلة إلى عِظم، .. وهكذا، من خلال عمليات: التهيئة، والإعجاب، والتغذية، والحراسة والحماية، والرعاية، والاهتمام.

٢- **فتربية القلب؛ تعني**: القيامَ بالعمليات والأنشطة والجهود الآتية:

- الإعجاب بالقلب، وتهيئته؛ لتقبل ما يربى فيه.

---

(٨١) رواه الطبري، في: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٣، مصدر سابق ص ١٣٢. وروى مثله الترمذي، عن أبي هريرة ﷺ «**إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه، فيربيها لأحدكم كما يربي أحدُكم مُهرَه، حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد ..**» قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. انظر: أبا عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَةَ: سنن الترمذي، ج ٢، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، حديث رقم ٦٦٢، ص ١٤٤، ١٤٥.

(٨٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٣، مصدر سابق، ص ١٣٢، ١٣٣.



- الاهتمام بالقلب، والحرص عليه.

- تغذيته بالأغذية التي تنميه وتزوده، في الخير والصلاح، وتبلغه كماله وتمامه، وصلاحه، وتحوله: من حال انفعالي أو عاطفي، أو خلقي، أو عقدي مرفوض، إلى حال مقبول، ومن صغر إلى كِبَر، ومن قلة إلى كثرة، ومن عقيدة جاهلية أو باطلة، إلى عقيدة صالحة إسلامية، فاعلة محركة، ومن فكرة ميتة، أو قاتلة مميتة، إلى فكرة حية فاعلة نافعة، ومن قيم سلبية مضرة شريرة، إلى قيم صالحة ترضي الله، وتوجه للعمران والخير، ومن عواطفَ وانفعالاتٍ مضرة قبيحة؛ كالخوف والجبن، والغضب، والقسوة، والكراهية، إلى عواطف وانفعالات سوية، ومتفتحة ومشرقة، يحبها الله، ومن سلوكيات كفرية، أو فاحشة، إلى سلوكيات إيمانية يحبها الله، ومن إرادة الشر، إلى إرادة الخير، ومن الاندفاع نحو الإثم والحرام، إلى الاندفاع نحو الخير، والحلال.

- هذه التغذية هي: إمداده بالعلم والذكر والفكر، وكل ما يربيه في الخير، مثل الصحبة المعينة.

- حماية هذا القلب من كل ما يعوق ذلك النموَ والزيادة في الصلاح والخير، مثل: الثقافة المغشوشة، والصحبة السيئة.

- القيام على القلب بما يصلحه، والاستمرار في هذه الرعاية المزدوجة؛ ليبقى القلبناميا في الخير، ناشدا الكمال الخلقي والروحي والعاطفي والانفعالي.

٣- لكن، ما هذا القلبُ الذي نربيه؟

سوف يأتي تفصيل لذلك المفهوم المركزي، في فصل: (القلب: مركز الصلاح أو الفساد في الشخصية الإنسانية)، وغيره، من بعض فصول الكتاب، فنكتفي هنا بمختصر؛ لنأخذ إطارا عاما عن ماهية تربية القلب، في نسق واحد.

- يذكر علماءُ العقل الانفعالي، أو ذكاء المشاعر، أو ذكاء العواطف، أن القلب هو ذلك الكيان الذي هو موطن المشاعر والإحساسات العميقة والانفعالات والمعتقدات والإيمانيات، التي لا نَرثها، وإنما توجد فينا الاستعدادات لها، ونقوم - أو يقوم الفاعلون التربويون، وعبر خبرات الحياة في الأسرة والمدرسة والمجتمع - بتربيتها، بالسلب أو بالإيجاب، فالقلب هو مجموع المشاعر والعواطف والانفعالات والمعتقدات الإيمانية، مثل: الإيمان بشيء، والإخلاص، والأمل، والحب، وهو ذو اتصال بالعقل والفكر، بحيث يؤثر عليه، وإنسانيتنا تظهر بعمق في هذا المقوم الإنساني؛ القلب، وهو من نعم الله على الإنسان، وهو الكيان الذي به نَخاف، ونجبُن، ونجرُؤ، ونقتحم، ونحب ونبغض، ونأمُل، ونكتئب، ونشعر باليأس، أو الإقبال على الحياة، والتفتح، ونفرح، ونحزن، ونغضب، ونرضى، ونميل ونتجه، ونعطف، ونقصد، ونتعمد، ونرحم، ونَرق، ونقسو، ونصح، شعوريا، ونَعْتَلّ، ونعنُف، ونغلظ في أحاسيسنا، ونندفع، ونهدأ، ونحدس، ونستلهم، ونُخَمِّن، ونحس باليقين، ونشك، ونتعاطف، ونؤمن، ونكفر، وننافق، ونستسلم، ونريد، ونعتقد، ونشمئز، ونتكبر، ونتواضع، ونصبر، ونثابر، ونصمد، ونُصِر.. إلخ، وكل هذا ممكنٌ تربيته؛ بالدرس، والمعايشة، والتعود، والتدريب الانفعالي، والقدوة والتأسي، والتقمص، وثقافة المشاعر، والتعليم المناسب، والدخول في خبرات؛ تعيد صياغة الانفعال، أو المعتقد، أو الخلق القلبي، والممارسةِ الذاتية للانفعال، أو الخلق أو العاطفة، أو الإيمان.

وهذا الكيان - الوعاء - الانفعالي، العاطفي، الاعتقادي، الوجداني، الذي هو القلب، له سمات تميزه عن العقل المنطقي التعلمي الفكري؛ فهو أسرع حركة وفعلا واندفاعا، وأفعاله تتميز بدرجة كبيرة من الإحساس باليقين، والاستجابة السريعة للحدث، دون الدخول - مباشرة - في انتباه الوعي

الذهني، فيستجيب للصورة الكلية أو للجوانب البارزة فيها، وقادرٌ جدا على الحَدْس، فيستطيع أن يتعرفَ على انفعالات الآخرين في جزء من الثانية، ويقدم لنا الحُكمَ الحدسي الخاطف الذي يخبرنا: مع مَنْ نُخاصِم، وَفيمن نثق، فهو يعمل مثل (رادار) يرشدنا إلى الخفي، وإذا انتظرنا؛ فقد تكون النتيجة هي الموت. إن القلب يأخذنا حتى قبل أن نعي وجود الحَدْس أو الانفعال.

وللقلب مَيْزة تكيُّفية عالية، فهو يحشدنا للاستجابة للحدث الملِحّ دون ضياع للوقت.

ويمكننا أن نكشف، ونكتشف، قلب الآخرين؛ أي: انفعالاتهم وعواطفهم وإيمانياتهم؛ من خلال قراءة الوجه، والتغيرات التي تظهر عليه، وبعض التغيرات الفسيولوجية، ومن خلال الحدس والفراسة، والتقمص.

وانفعالاتُ القلب وعواطفه ومعتقداته، وحُدوسُه ليست على درجة واحدة، ولا من نوع واحد، فهناك انفعالات تتبع الأفكار، ومشاعر تسبق الأفكار، ومشاعر تحدث مع الأفكار، وهناك انفعالات سريعة، وأخرى بطيئة، وهناك انفعالات مستدعاة..إلخ.

وبرغم ذلك يمكن ضبطها، وتربيتها، والتحكم في مسارها؛ عن طريق التحكم في الأفكار والمعتقدات، فإذا كانت المشاعر تأتينا كأمر واقع؛ فإن العقل المفكر يستطيع أن يتحكم في المسار الذي تتخذه استجاباتنا القلبية.

والقلب يتميز بالترابطية، فهو ينظر للعناصر التي تَرْمُزُ للوقائع، أو تستدعي ذكرياتها، تماما كما لو كانت هي الوقائع نفسها، وذلك هو السبب الذي يجعل التشبيهات والاستعارات تخاطِبُ العقلَ الانفعالي؛ القلب، مباشرة، وكذلك تفعل الفنون؛ كالروايات، والشعر، والمسرحيات، وقد أثر المربون العظام في قلوب حوارييهم؛ بالتحدث بلغة القلب، فكانوا يُعَلِّمون بالأمثلة، والقصص، إن مقر ذلك كله هو لغة القلب، ومنطق القلب.

ويتميز القلب بالنظرة الاعتقادية، فهو يؤمن، ويتيقن، وإذا آمن؛ فما آمن به حقيقة مطلقة، والمشاعرُ والعواطف تبَرِّرُ نفسَها بنفسِها.

والقلب يوجِّه العقلَ المنطقي، والموقفَ الخلقي، ويُخْضِعُ الكيانَ الإنساني للانفعال القائم، والحالةِ الإيمانية القائمة فيه، فعندما نكون غارقين في الحب، - حب الله مثلا - يختلف سلوكُنا تماما عن سلوكِنا في أثناء الشعور بالغضب، أو الكآبة.

ولكل شعور أو انفعال، أو حالة إيمانية، مخزون خاص من الأفكار، والذكريات، والاستجابات، والقلب يُعْدِي، فالانفعالات مُعدية، ونحن نلتقط المشاعر من بعضنا..إلخ(٨٣).

- وفي موروثنا - ولا يختلف المعطى السابق عنه - القلب هو ذلك الكيان الواعي الموجود في صدر الإنسان، والذي له بالقلب اللحمي تعلق، لا نلمسه، ولكن ندركه؛ بحسنا، ووعينا الذاتي، والعقلي، فالقلب هو الجوهر الذي في داخل المظهر الإنساني، ويمكن الإحساسُ به؛ من خلال نفاذ البصيرة في داخل ذواتنا، وهو الكيان الذي يُبْصِر ويَعْمَى، ويتقي، ويفجُر، ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

«التقوى ها هنا، يقول : أي : في القلب»، ويشير إلى صدره. وسُمِّيَ هذا الكيانُ قلبا؛ لأنه خالِصُ ما في البدن.

وهذا القلب، الذي في الصدر، يتقلب؛ فهو يؤمن، ويكفر، ويتقي ويفجر، ويَصْلُح ويفسد، ويبصر ويَعْمى، ويفقه، ويجهل، ويعي، ويغفل، ويصح ويمرض، ويحب ويبغض، ويشكر ويجحد، ويخشع، ويشمخ، ويتواضع،

---

(٨٣) كل المعطيات السابقة مستخلصة من: دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، الذكاء العاطفي، مرجع سابق، ص ٢٦- ٢٧، ٥٨، ٨٢، ٨٦، ٩٥- ٩٦، ١٨٢، ١٨٥ - ١٨٦، ٢٣٦ - ٢٣٧، ٤٥١ - ٤٥٩، ٥٣٠ - ٥٣٤، ٥٧٢ - ٥٨٩.

ويتكبر، ويأبى ويقبل، ويريد ويرفض، ويكسب، ويخسر، ويتعمد، ويقصد، ويعزم، ويُصِر.

وهو وعاء للعلم أو الجهل، وللرقة أو القسوة، وللإيمان أو الكفر، وللنور أو الظلمة، وللإشراق أو الكثافة، وللغل والحقد والحسد والغش، أو الصفح.. إلخ.

هذا القلب هو الكيان الجواني للإنسان، كما قال سلمان: «إن لكل امرئ جَوَّانيا وبرانيا، فمن يصلح جوانيَّه؛ يصلح الله برانيَّه، ومن يفسد جوانيه يفسد الله برانيه»(٨٤). فلكل إنسان: باطن وظاهر، وسر وعلانية، والجواني: منسوب لجو البيت؛ أي: داخله، وباطنه، فالجواني هو باطن وداخل الإنسان، وسريرته، فالقلب: الكيان الجواني الباطن للإنسان، وهو السريرة التي تقابل العلانية، السريرة التي تخفى عن الناس، لكنها أصل العلانية، فهي العمق الجواني، الذي منه تنشأ العواطف والمشاعر، والمعتقدات والأفعال والسلوكيات.

وقد يُعَبَّرُ بالقلب عن المعاني التي تختص به؛ كالروح، والعلم، والشجاعة، وغير ذلك، «والقرآنُ يُعَبِّرُ بالقلب ويعبر بالفؤاد عن مجموع مدارك الإنسان الواعية، وهي تشمل ما اصطلح على أنه العقل، وتشمل كذلك قوى الإلهام الكامنة»(٨٥).

هذا الوجود الجواني العميق الواعي الشاعر المنفعل هو الذي يُدْرِكُ ويَعْرِف، ويفقه، ويجهل، ويغفل، ويبصر ويعمى، ويتيقظ، وينام، ويحب ويبغض، ويتواضع، ويتكبر، ويصفو ويكدر، ويقسو، ويرق، ويغلظ،

---

(٨٤) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد، ويليه كتاب الرقائق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، رقم ٧٢، من زيادات نعيم بن حماد، ص ١٧، ولهذا الخبر روايات، ستأتي مع تخريج كامل، في فصل: (القلب: مركز الصلاح والفساد).

(٨٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، مصدر سابق، ص ٢١٨٦.

ويرحم، ويأمر، ويَعِظُ، ويوجه، ويحيا، ويموت، ويصح، ويمرض، ويُسْلِم، وينكر، ويهتدي، ويضل، ويُؤمن ويكفر، ويوحِّد، ويشرك، ويخلص، وينافق، ويتقي ويفجر ويصلح ويفسد، ويستنير ويظلم، ويبيض ويَسْوَدُّ، ويتيقن ويجحد، ويستقيم وينحرف، ويشعر، ويعطف، ويعقد، ويعتقد، ويعزم، ويريد، ويثابر، ويختار، وينسى، ويذكر، ويقبل، وينفعل بشتى الانفعالات، كما ذكرت سابقا، ويجاهد، وينكر، ويغير، ويغتني، ويفتقر، ويراقب، ويؤنب.

هذا الكيان - يقول الغزالي: «هو حقيقة الإنسان، وهو المدرِك العالِم، العارِف، في الإنسان، وهو المخَاطبُ والمُعَاقَبُ، والمُعاتَب والمُطَالَبُ، وله بهذا القلب الجسماني تعَلُّق»(٨٦).

- هذا القلب - بتلك المعطيات - موجود في كل إنسان، من حيث هو جملة استعدادات، نَشْعُرُ بوجوده داخلنا، ونستطيع أن ندرك أحواله السابق الإشارة إليها، لكننا لا نستطيع إدراك كنهه وحقيقَته.

- هذا الكيان الذي نحس بوجوده، داخلَ كلٍّ منا، له سلطة التحكم والتوجيه والإلزام في جميع جوارح الكيان الإنساني، وفي عقله، وفي أخلاقه، وسلوكياته، فالقرار الإنساني، مرجعه القلب. فهو قائد أو أمير نافذ السلطة على جميع الجوارح والأعمال والسلوكيات، يدبرها ويديرها، إلا أمرا واحدا؛ هو الإيمان العقدي الديني الذي يخضع له القلب، فَيُخْضِعُ جميع الكيان الإنساني لما آمن به، فالقلب يمثل (البنية التحتية) لجميع سلوكيات الإنسان الظاهرة والباطنة، أي: أنه القيادة الموجِّهة المهيمنة على سلوك الإنسان كله؛ السياسي والثقافي، والاقتصادي والقرابي، والاجتماعي العام، والبيئي.. إلخ، فهو القائد الموجِّه المتصرف، الذي إذا صلح؛ صلح الإنسان كله، وإذا فسد؛ فسد الإنسان كله.

---

(٨٦) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ط دار الشعب، القاهرة، ص ١٣٤٤.

٤- فالتربية، بالمفهوم الذي ذكرناه، تنصب على هذا القلب، بهذه المعطيات كلها.

وقد قررنا أن القلب يُرَبَّى، أي: ما في القلب، وخصائص القلب، لا نولد بها، لا نولد بانفعالاتنا وعقائدنا.. إلخ، وإنما نولد باستعدادات وإمكانات لذلك كله، فهي قابلة للتزويد، والتنمية، والتعديل، والتبديل والإزاحة، والإضافة، أي: للتربية. فحياتنا القلبية يمكن إخضاعُها لفعل التربية؛ الإيمان، والحب، والرحمة، والرقة، والأمل، والغضب.. إلخ، كلها يمكن تربيتها، في الأسرة، في المساجد، في المدارس، في دورات تربوية.. إلخ، كلها يمكن تغذيتها، أو تعديلها، تكبيرها، أو إزالتها.. «فإمكاناتنا الانفعالية لا تورَث، وإنما تتحسن من خلال التعليم المناسب»(٨٧). «ليس هناك سمة بشرية بعيدة عن إمكانية التغيير»(٨٨). «يمكنك أن تغير مشاعرك إذا غيرت أفكارك»(٨٩).

٥- وإذا كان (القلبُ) يُرَبَّى، فهي تربية مهمة جدا، إنها تنصب على حقيقة الإنسان. وهي تعني: مجموع الجهود العِلمية والعَملية والتدريبية، المنظمة، المقصودة، التي تبذل مِن قِبَل الإنسان ذاته، أو مَنْ يربونه ؛ لتنمية كياننا الجواني، وتزويده في الخير والصلاح، وتبليغه الكمالَ والتمام والقوة ؛ ليمارس سلطته الرشيدة المؤمنة الخيرة على الكائن الإنساني، وإكسابه عقائد وأخلاقا وعواطف وانفعالات طيبة نافعة .

وذلك من خلال خمس عمليات كبرى، تربوية، هي: الإعجاب، والتهيئة، والتغذية، والرعاية، والحماية، مما يؤدي إلى نموه، وتحوله، وانتقاله من إيمان ضعيف، أو غير موجود، إلى إيمان قوى فاعل آمر بالخير. ومن شر إلى رضا بالخير، وإرادة له، ومن غضب إلى هدوء.. إلى آخر ما قررناه عن الترمذي

---

(٨٧) دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، مرجع سابق، ص٤٥١ .
(٨٨) المرجع السابق، ٤٥٠ .
(٨٩) المرجع السابق، ص ٤٩٣.

الحكيم والجيلاني، وابن تيمية الحراني، وابن القيم، فكله نقبله.

٦- وإنما أضفنا هذه الإضافة لنعرف ماذا نربي؟ إنه القلب؛ بهذه المعطيات.

وفي الفقرة التالية نحدد طبيعة عمليةِ تربية القلب، بناء على التحليل السابق كله.

ثالثا : طبيعة تربية القلب

وتَسِمُها بشخصية وهُوية خاصة، فما الذي يميز تربية القلب، عما سواها، ويجعلها ذات شخصية فريدة ؟ من خلال تحليلنا لمفهوم تربية القلب نستخلص جملة الخصائص الآتية :

أ- إن تربية القلب ليست تنمية وتزويدا وتعظيما للعضو العضلي الجسماني، وإنما هي تربية ما يتعلق بهذا العضو، ويشتمل عليه، إنها تربية لما في الكيان الإنساني الجواني، من عقائد، وأفكار موجِّهة، وضمير خلقي، وقيم مرشدة، وأخلاق ومشاعر، وعواطف، وانفعالات، وإرادة ونزوع للفعل .. أو للترك.

ب- **إنها، من جهة، عملية ذاتية فردية،** جهد ذاتي يبذله الفرد مع نفسه، لنفسه، بجهده هو، ومجاهدته، وعمله المستمر، بفعل التغذية؛ للإمداد بعلم نافع، أو تقمص انفعالي، أو صيام .. إلخ، وبفعل الحماية والتطهير، بالتوبة، والمحاسبة.. إلخ، وبفعل الرعاية والاهتمام، والحراسة، والتهذيب المستمر لكيانه الباطني. يقول الجيلاني لأحد تلاميذه: إنما (يرقيك الفعل)(٩٠). ويقول سلمان لأبي الدرداء: «الأَرْضُ لا تقدس أحدا، إنما يُقَدِّسُ المرءَ عَمَلُه»(٩١). ويقول الجيلاني لتلميذ له : «لا تستعر كلمات الصالحين وتتكلم بها، وتَدَّعيها لنفسك. العارية لا تخفى، اكبش من مالك، لا من العارية، ازرع القطن بيدك، واسقه بيدك، وربه بجهدك، ثم انسجه، وخَيِّطْهُ، والبسه. لا تفرح بمال غيرك، ولا بثياب غيرك، (...) إذا لم يكن لك فعل؛ فلا قول، كل الأمر معلق على العمل»(٩٢).

فتربية القلب لا تكون بدون تفاعل الذات، وانفعالها مع ما تدرسه أو

---

(٩٠) عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني، مصدر سابق، ص٢٩٥ .

(٩١) رواه مالك في الموطأ، عن أبي الدرداء، ورواه الطبري اللالكائي في: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج ٢، ط ١، دار البصيرة، الإسكندرية، حديث رقم ١٧١٨، ص ٨٠٧.

(٩٢) عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني، مصدر سابق، ص ٢٠٣

تتفكر فيه، أو تمارسه، أو تتقمصه، أو تفعله. غرس الشيء في القلب.. فتربية القلب لا تأتي بالتلقين.. ولا تكون بالظاهر، بل يجب أن نمارسها بأنفسنا، ونقوم بعملياتها بأنفسنا، إنها تثقيف ذاتي، تعلم ذاتي، جهد ذاتي، تنمية ذاتية لكل ما في القلب، تدرب ذاتي، وتعود، وعمل.. حتى نكمل ونصير خيارا أبرارا ذوي سلوك محمود.

لكنها من جهة ثانية تربية غير ذاتية، يمارسها المربي القلبي الخبير، الواعي، المخلص، الولي، المرشد، مع من يربيه، يمارسها من خلال كونه قدوة صالحة يشع بسلوكه، ويربي بحاله، قبل مقاله، وبهمته قبل لفظته، وبإرادته، وعزيمته، ووعيه بحاجات المتربي العلمية، والحالية، كي يترقى به من منزلة إلى منزلة، ويحوله من حال إلى حال، ومن انفعال إلى انفعال.

ولكن جهد المربي جهد توجيه وإرشاد وإشعاع، وحفز للهمة، ودفع للنمو، وحياطة، وحراسة، وتقديم لثقافة المشاعر والعقائد، والأخلاق..، وتوفير بيئة صالحة.. وعلى المتربي الجهد الأكبر: في التفهم، والتفتح، والقبول، والتشرب، والحب، والانفعال، والرغبة والاشتهاء للممارسة.. والفعل المباشر.. والتدرب، والتعود، والاهتمام، والإعجاب، والتغذية، والرعاية، والحماية.

فهي تربية تجمع بين الذاتية الفردية، والجهد التوجيهي من مرب، أو معلم، أو داعية، أو أب،.. ولكنها تتم، وتُنجَز من خلال جهد الفرد نفسه. فالتربية القلبية هي فعل إنسان تجاه قلبه، في جانبها الأكبر.

فهي ذات طرفين فاعلين:

- الشخص الذي يربي نفسه وقلبه، فيمارس كل عمليات وآليات وكيفيات تربية القلب؛ فيدرس، ويتأمل، ويتقمص، ويقرأ، ويحاسب نفسه، ويصوم، ويعطف على اليتيم والمسكين.

- والولي المرشد، أي: الشخص الذي يربي غيره، بعد أن ربى قلبه..

فيرشده، ويبصره، ويحفزه، ويمده بالثقافة المربية لقلبه، ويوفر له صحبة مربية، وبيئة مساعدة.. ولكن أؤكد أنه بدون جهد التقبل والإيمان بما يقوله المربي لـه، وتشربه وغرسـه، وإحلالـه في القلـب، والانفعـال الـصادق بـه، والاشـتهاء للاتصاف به.. والشروع في ممارسته والتعود عليه، فلن يَنجح جهد المربي معه.

فهي فعل ذاتي، واجتماعي، تتم من خلال الإشعاع الـسلوكي مـن القـدوة الصالحة، والتأسي، والتقمص، والمحاكاة الوجدانية والتمثـل للنفـر القـدوة.. كما تتم من خلال التأمل والنقـد الـذاتي، ومحاسـبة الـنفس، وقـراءة القـرآن.. وممارسة عمليات التربية التي ذكرناها .

فهي فعل يتم بجهد المرء نفسه، وبجهود الآخرين معه .

جـ - **إنها تربية للذكور والإناث،** فكل صاحب قلب فرض عليه أن يربيه، فهي فرض عين على الذكور والإناث، والله جعل لكل إنسان قلبـا، بـه يكـون إنسانا، وبه يكون مؤمنا.

ومن هنا؛ فإن كل معطيات كتابنـا هـذا مُوَجَّهَـةٌ للـذكور والإنـاث معـا، والحركة الإسلامية التي تنشد بعثا إسلاميا شاملا، وإحياء للأمة إحياء كاملا، يلزمها أن تخطط لتربية قلوب الإناث، كما تخطط لتربية قلوب الذكور.. لأنهن كائنات إنسانية ذوات قلـوب ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحـزاب:٥٣]. ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم :٤] .

د - **إنها تربية تستمر طوال عمر الإنسان الواعي،** حتى يمـوت جـسده، لا تقف عند حد زمني، فـما دام الإنـسان حيـا في العـالم، ومـا دام قلبـه متغـيرا، ومتقلبا، وتأتيه مصادر الانفعالات، من حيث لا يدري أحيانا، وتؤثر فيه شتى المؤثرات الثقافية والاجتماعية.. فإنه في حاجة ملحة ضرورية لتربية قلبه، هـي تربية تبدأ منذ الطفولة المبكرة، يقوم بها الأبوان من خلال تعاملهما، همـا، مـع بعضهما، ومـن خـلال ممارسـتهما لقـيم القلـب المـؤمن، وأخلاقـه، وإشـعاع

سلوكهما الراقي المنير في الأسرة، وتدريبهما المخطط، غير المتروك للصدفة والارتجالية، لإكساب أولادهما قيم القلب وعواطفه، وانفعالاته الطيبة.. وقيامهما بتعليم الأطفال المهارات والكفاءات الانفعالية الطيبة، وغرس حقائق الإيمان، والحب، والرقة، والعطف من خلال تعاملهما الرحيم الحنون مع الأطفال.. إلخ، وتستمر مع الإنسان حين يدخل المدرسة، أو يذهب للمسجد، أو يحضر مع حركة إسلامية مربية.. أو يسمع لشريط، ومع التخلي المتزايد للأسرة عن القيام بدورها في تثبيت العقائد والأخلاق والعواطف الإيمانية الإسلامية، أصبحت المدارس، والمساجد، وجماعات الصحبة، والحركات الإسلامية، والاتصال والعالم الإسلامي، والشبكات الحوسبية، ومواقفها، هي الإمكانات والأماكن التي نعلم فيها أبناءنا كيف ينمون قلوبهم، ونكسبهم الكفاءات الانفعالية الاجتماعية، فهذه الأماكن قادرة على منح الأبناء والبنات، ومنحنا - نحن الكبار - ثقافة القلب، ثقافة الإيمان، والمشاعر، ثقافة التقوى، والعمل الصالح. نفسه، ومن قبل المربين.

هـ - إن تربية القلب كما هي مسؤولية الفرد ذاته، وهو بها رهين، هي أيضا مسؤولية الآباء والأمهات، ومسؤولية الحركات الإسلامية وأجهزتها التثقيفية، والاتصالية والتربوية، ومسؤولية الدعاة، وكل الفاعلين الثقافيين في المجتمع، ومسؤولية أجهزة الاتصال، والمساجد، ومسؤولية القنوات الإسلامية الفضائية، ومسؤولية المواقع الإسلامية على الشبكة.. مسؤولية كل مسلم، حتى نقوم بفرض العين الخطير هذا نحو أنفسنا ونحو الآخرين.

ومن الضروري- إذن- أن تنسق كل هذه الجهات جهودها، وأن يكون لديهم إطار عمل جامع في هذا الميدان، ولعل هذا الكتاب يسهم في ذلك.

و - إن تربية القلب هي بعد رئيسي أساسي ضمن منظومة شاملة لتربية الشخصية الإنسانية في المنظار الإسلامي، فهي تتكامل مع باقي مكونات

المنظومة التربوية للمسلم، ولا تتم بدون التربية العقلية المعرفية الإسلامية، والتربية الجمالية، والتربية الخلقية، والتربية العقدية الإيمانية، والتربية الروحية، والتربية الاجتماعية، والتربية السياسية، والتربية المهنية، والتربية اللسانية، واللغوية، والتربية الزمنية، والتربية البدنية، والبيئية، فهي تتأثر بكل تلك التربيات، مثلا: امتلاء البطن بالطعام والشراب يُقَسِّي القلب، كثرة الكلام بغير ذكر الله تقسي القلب، الزنى يظلم القلب.. العلم النافع ينير القلب..غيبة المسلم والكذب عليه تضعف الإيمان في القلب، أو تخرجه منه.. وهكذا، المسح على رأس يتيم وإطعام مسكين يرقق القلب، وهكذا.

كما أنها تؤثر في باقي المكونات، فإشراق الروح، واستنارة القلب، يجعل النفس مستريحة، ويجذب الآخرين لهذا الشخص.

والمقصد: أن تربية القلب لا تتم بدون التربيات الأخرى، ومن هنا فإن الاكتفاء بها خلل ونقص، وإهمالها خطأ كبير، ونقص شديد.

فهي الأساس الأكثر أهمية في نظام تربوي متكامل، ولعل كلمة حسن البنا - رحمه الله - هنا ذات دلالة؛ يقول: «والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعا، وإن اختلفت مرتبتا الطلب»(٩٣). وهذا كلام دقيق وصادق.

إن تربية القلب يجب أن تتم في ضوء تخطيط تربوي متكامل مع مقومات وجوانب التربية الأخرى التي أشرت إليها؛ لإخراج إنسان مسلم متكامل ومتوازن الأبعاد.

ز- **إن مصادر تربية القلب هي** : القرآن ـ السنة الصحيحة ـ وفقه وخبرات السلف الصالح في هذا المجال، ثم خبرات كل الذين سلكوا طريق تربية القلب. وأي دراسة علمية جادة في هذا المجال، فهي تربية تلتزم الوحي

---

(٩٣) حسن البنا: رسالة التعاليم، في: مجموعة رسائل الإمام الشهيد، مرجع سابق، ص ٣٧٤.

الإلهي، وتنفتح على كل الخبرة البشرية في هذا المجال، ما دامت موافقة للوحي الإلهي ومقاصده.

وهي تربية تجمع بين الثبات والمتغيرات : ثبات المصادر الأساسية، التي نستمد منها تصوراتنا عن القلب (وفي الكتاب فصول عن هذه التصورات) ونستمد منها القيم والأهداف، والخبرات الأساسية. والمتغيرات في الأساليب والطرق، والتطبيقات، وطبيعة وحاجات مَنْ نربيه، وظروفه، فهي تقبل الإضافة، ولا تقبل الحذف، تقبل الإضافة في ظل الإطار الثابت المؤسس على القرآن والحديث الصحيح والسيرة النبوية الثابتة.

ح- **وهي تربية واقعية إنسانية** ؛ ترتبط بالإنسان وحاجاته، وتهتم بقلبه ووجدانه وانفعالاته وعواطفه، وتعالج تشوهات الفطرة والواقع الاجتماعي، من جذورها، وتقدم علاجا مجربا لأزمات الحضارة الراهنة ونتائجها في الأخلاق والسلوك، كما أشرنا لهذا في فقرة سابقة.

وهي واقعية إنسانية؛ لأنها تقدم الفعل الوحيد للتغيير الاجتماعي الجذري لواقعنا الراهن، في الأمة المسلمة، فمنهج الإسلام منهج واقعي جدي، لا يعالج من فوق، ولا من المظاهر، ولا من (الشواشي) بل من الجذور؛ من العمق، من تحت، وهذا هو ما يتطلبه الواقع.

ط - **وهي تربية مركبة من جملة عمليات متتابعة ومستمرة**؛ فهي عملية؛ بمعنى أنها أنشطة مقصودة، منظمة، متفاعلة، تتكون - كما حللنا في المفهوم - من العمليات الكبرى الآتية :

١- عملية (التهيئة والإعداد) للقلب، ليكون طيبا نقيا صالحا لتربيته.

٢- عملية (غرس) ما نريد تربيته، أو (التحويط) على ما نُرِيدُ خلعه.

٣- عملية التغذية الثقافية العلمية والعملية، والإمداد المستمر للقلب؛ بالعلم، والدرس المرتبط بكل عقيدة قلبية، أو قيمة قلبية، أو عاطفة، أو

انفعال، أو اتجاه.. فكما لا ينمو الزرع، وينضج، ويستوي على سوقه، ويثمر، وينبع، بدون ماء، وعناصر غذائية من التربة، ومن الشمس والضوء، والهواء، فكذلك لا تنمو قيم الإيمان والتوحيد والتقوى، والرقة، والرحمة، وإرادة الخير.. إلخ، ولا تنضج، ولا تستوي، ولا تثمر الأخلاق الصالحة، وأعمال البر التي تصعد لله، بدون إمداد القلب (بالماء والغذاء والضوء والهواء)، أعني: بالقرآن؛ استماعا وترتيلا خاشعا، متفكرا، متأثرا؛ بالوعظ، بالذكر، بالتفكر، بالهمة، بالتقمص، بالتأسي، بممارسة أساليب التدرب الذاتي؛ محاسبة النفس، المراقبة، زيارة القبور، تأمل جمال الطبيعة، خدمة اليتامى، رحمة الناس والحيوان، وممارسة قيم القلب في الواقع، فكل قيمة نمارسها تكسب القلب نورا، وهي تغذية (وتسمين) للقلب، وبالصحبة، وبالمدارسة المشتركة.

٤- عملية الوقاية والحماية والحراسة للقلب في مرحلة تنميته الأولى، وفي بداية تربية كل عقيدة، وكل خلق، قلبي، وكل انفعال قلبي راشد، وهي تتضمن: تخليص القلب من الشر، وتخليه عنه، وحمايته من دخول أي شيء مضاد لما نريده في القلب، أي: إبعاد القلب عن كل مؤثرات الشر، وحمايته منها.

فكما أن الزرع لا يحتاج لتغذية فقط، بل لا بد من إبعاد الآفات والحشرات، وكل ما يضره عنه، وتنقيته مما فيه من دغل، ومتسلقات تلتوي عليه، وتعوقه، فكذلك يلزم لتربية القلب من حمايته من الحشرات والآفات الثقافية والمعنوية، من الصحبة الشريرة، والمسلسلات الانحلالية، والكتب الضارة، والذنوب،... وممارسة عملية المحاسبة، والتوبة باستمرار.

٥- عمليات الرعاية والاعتزاز، المستمرة، للقلب، طوال العمر.

هذه العمليات تتصف - في تصورنا - بالاستمرارية، وبالمصاحبة لكل قيمة قلبية أو اتجاه نريد تكوينه و تنميته في القلب، ويقوم بها الفرد ذاته، بمعاونة المربين والمرشدين القلبيين.

ي- ماذا نربي في القلب؟ ولماذا نربي القلب؟ (سؤال الغايات والأهداف):

تتميز أهداف تربية القلب بالشمول؛ فهي ذات أهداف كبرى، يشكل كل جانب منها بُعْدًا كاملا، وتجيب عن سؤال: ماذا نربي في القلب؟ وهذه الأهداف الكبرى العامة لتربية القلب هي:

الأول: تهدف تربية القلب لإكساب المسلم عقائد، وتصورات صحيحة عن القلب وطبيعته، وقوانين حركته، وغرس وتنمية عقائد تصوغ أفكارا وتصوراتٍ عقديةً، إيمانية عن الله، والكون، والحياة والإنسان، والحكم والقيم، وتثبيتِها في القلب، فالقلب لا يتربى بدون أن يعقل نفسه، ويفهم ذاته، ويكتسب وعيا ذاتيا، فالقلوب أوعية «وبعضها أوْعَى من بعض»، وهذه العقائد والتصورات تستمد من كلام رب القلب، ومن كلام المربي الأول للقلب، محمد رسول الله، ثم من كلام الذين خَبَرُوا القلب، ودرسوا طبيعته، وحركته، ونشاطه.

وإنجاز هذا البعد يكون بالدرس، والمحاضرة، والقراءة للقرآن والأحاديث، بتفهم، وتأثر، وتفتح قلب، وبشعور التلقي للتنفيذ، وبشعور العبد المطيع الذي يتلقى منهاج ربه المحبوب، وبالتعلم الذاتي، والتأمل في آيات القرآن عن القلب، وأحاديث هذا الكتاب، أي: أن تربية وإنجاز هذا البعد تتم من خلال الجمع بين تربية العقل المسلم، والقلب المسلم، وتسليم القلب بهذه المعتقدات والمقررات القرآنية عن القلب وحركته ونشاطه، وعلاقته بالله - وزرع المقررات والحقائق القرآنية والنبوية عن الله، والكون، والحياة، والإنسان، والقيم.. وسقيها وتغذيتها بماء القرآن والعلم النبوي، والذكر القلبي، ورعايتها، وخلع ما سواها مما يخالفها، من القلب.

وقد تناولت بعض هذه المعتقدات والتصورات عن القلب في فصل (تربية القلوب التي تنكر الفتن)، وفصل (تربية القلب المصقول)، وفصل (القلب

مركز الصلاح والفساد)، وفصل (الله ينظر للقلوب)، وفصل (القلوب تتقلب، والذي يقلبها هو الله)، وفصل (تربية الإيمان في جذر قلوب الرجال)، وفصل (تجديد الإيمان في القلب) وغير ذلك.

وهذا البعد الأول يتضمن أهدافا كثيرة، فصلناها في تلك الفصول .

البعد الثاني: إكساب القلب منظومة القيم الإيمانية والخلقية القلبية، وتثبيتها في القلب: والتي هي محتوى هذا الكتاب، أساسا؛ فكل فصل يحتوي على قيمة أو أكثر من قيم القلب المسلم .

فتربية القلب ليست إكسابا لعقائد وتصورات ووعي ذاتي عن القلب، أو تغرس في القلب، ويؤمن بها القلب فقط، وإنما هذه العقائد والتصورات إذا آمن بها القلب، أي: صدق بها، وتيقن فيها، وخضع لها، وانقاد لها.. فإنها تصوغ قيمه الموجهة لسلوكه وتضبط كل نشاطه الباطني والظاهري، ومن هنا يأتي البعد الثاني لأهداف تربية القلب، وهي إكسابه قيما قلبية، بحيث يؤمن بها، وَيَنْصَبِغُ بها، وتخالط بشاشَتُها (حَلاوَتُهَا) قَلْبَهُ، فيخضع لها ويذل، ويخضع كل كيان الإنسان لها. هذه القيم تنبع من إيمانه بالله، والوحي، والرسول، واليوم الآخر، والقدر، فالقيم معتقدات إيمانية آمرة بالخير، ناهية عن الشر، وازعة، وموجهة للسلوك، كله - إكسابه هذه القيم بحيث تكون أَوْصَافاً له، وَأَخْلاَقاً، وأحوالا، ومنبعا يصدر عنها سلوكه بِتلقائية وسهولة.

وقيم القلب وأخلاقه، هي التي نسميها: قيم الاستقامة في الإيمان والعمل الصالح والتقوى، وفيما يختص بالقلب، هي: معرفة الله، والإيمان به، وتوحيده، بتجريد العبادة له، وتجريد التلقي لمناهج الحياة وتشريعاتها عنه وحده، وتحرر القلب من التوجه بأية عبادة لغير الله، وتحرره من الولاء والحب إلا له، ولأجله، وفيه، وحب الرسول ﷺ، وطاعة شرعه وسنته، والحنين إليه، ولين القلب له، والحب في الله، والبغض في الله، تقوى الله، الخشية من الله، رجاء الله، الإخلاص، الإخبات والتواضع لله، التوبة له، الإنابة إليه، الخشوع

له، الشكر لله، اليقين في الله، وآياته، وفي الآخرة، الطمأنينة بذكر الله، واليقين في الدعاء، ورقة القلب، لين القلب، نقاء القلب وصفاؤه، سلامته من الشرك، وكبائر الإثم، وحب المعاصي، والبدع. الغنى بالله، حب الآخرة، خوف سوء الحساب، بغض المعاصي، ظاهرة وباطنة، إنكار الفتن حين تعرض عليه، مجاهدة المنكر وتغيير المنكر، التوكل على الله، معرفة الحق، فقه الوحي، تعلق القلب بالمساجد للصلاة، والذكر وتعلم العلم النافع وملاقاة أصحابه المؤمنين، نقاء القلب من الغل والحسد، والبغي والغش، والكبر. اتصاف القلب بالتواضع، وتمكين حب الخير في القلب، محبة الصلاح وإرادته، ابتغاء وجه الله، صفاء اليقين، الثبات على الدين، التضرع لله، والتسليم له، الصبر على أحكامه، يقظة القلب، استنارة القلب، صحوة القلب وبعده عن الغفلة، حياة الضمير (واعظ الله في القلب) بحيث يكون حيا نشطا مرشدا، واعظا من داخل القلب، ورقيبا ذاتيا على أعماله، حرية القلب، ذكر القلب، الاستغفار لله استغفارا يصقل القلب، نظافة القلب وطهارته، إرادة الخير للناس، التخلص من خصائص القلب الميت، والمريض والمنافق، والمنكوس والمصفح، العطف على المساكين، والتعاطف مع المحتاجين والمأزومين، والاندفاع نحو الخير، وتآلف القلوب، والموالاة للمؤمنين، والتعاطف معهم، والتساند إلخ..، وقد تناولنا هذه القيم في كُلِّ فصول هذا الكتاب، وبينا مضمونها وأساليب تربيتها.

وهذه القيم يلزم اكتسابها؛ فهي فرائض عَيْن، على كل مسلم ومسلمة، يلزم اكتسابها بالتعلم والتربي والتعود.

واكتسابها يتم عن طريق الجهد الذاتي، والجماعي، طبقا لأسس تربية القيم، ومبادئها، وهي :

مبادئ تربية القيم والضمير الخلقي :

المبدأ الأول : المعرفة المحَرِّكة بالقيمة :

أي: أن نعرفَ القيمة، ونكتسب علما حقيقيا بها، بحيث نتصورها تصورا

صحيحا، ونقتنع بها اقتناعا مبرْهَنا عليه، ونفكر فيها، ونرى حسنها وثمراتها، وهذا هو مبدأ (تعقل القيم)، بعلم باطن، مستقر في القلب، وهذا هو منشأ الحب والإرادة والطلب، أي: أن ننقل المعرفة بالقيمة من الذهن، واللسان، إلى القلب، فنغرسها فيه، كما يشير لذلك قول الحسن البصري: «العلم علمان: علم ظاهر، وهو حجة الله تعالى على خلقه، وعلم باطن، وهو العلم النافع»[٩٤].

وفي المنتقى من الترغيب والترهيب عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ: «**العِلْمُ عِلْمان: علمٌ في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذاك حجة الله على ابن آدم**». رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في (تاريخه) بإسناد حسن. ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن، مرسلا، بإسناد صحيح[٩٥].

فاكتسابُ القيمةِ، والاتصافُ بها يتطلب معرفة بها؛ معرفة صائبة بمضمون القيمة، ومميزاتها، وأدلتها، وثمراتها، بحيث يقتنع بها الإنسان، وتمتد من العقل إلى القلب والشعور، وتصبح إيمانا عميقا، كما سيأتي، وهذا يتطلب مدارسة وقراءة، وتعلما للقيم؛ تعلما وتثقفا ذاتيا، أو بالتلقي عن أهل العلم .

المبدأ الثاني: الإيمانُ بالقيمةِ:

ومصدرِ الإلزامِ بالقيمة - الله - بيقين وتصديق، وعمق، وغرسُها وتثبيتها في القلب، والإعجابُ بها، وهذا هو مبدأ (تذويت القيم)، أي : الإيمان بالقيمة، والاعتقاد القلبي بأنها حسنة، وضرورية، وجميلة، ونافعة، وأنها خلق حسن جميل؛ «فإنه لولا يراه حَسَنا؛ لم يفعله؛ إذ لو رآه سيئا لم يُرِدْه ولم يَخْتَرْهُ؛ إذ

---

(٩٤) صحيح من قول الحسن، انظر: ابن الجوزي : تلبيس إبليس، تحقيق: مجدي عبد الهادي صالح، ط١، دار ابن رجب، المنصورة، ٢٠٠٣ م، ص ٣٦٦. قال القرضاوي في المنتقى: وجود الحافظ العراقي إسناده، أيضا، لكن قال : وأعله ابن الجوزي، وإعلال ابن الجوزي له وهم، وقال السمهودي: إسناده حسن، ورواه أبو نعيم، والديلمي، عن أنس ؛ مرفوعا، انظر: يوسف القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ١، ط ٣، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١ م، حديث رقم ٥٥، ص١١٧.

(٩٥) ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام) :الاستقامة، تحقيق : أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٥ م، ص ٢٠٧

الإنسان مجبول على محبة الحَسَن، وبغض السيئ، فالحسن الجميل محبوب مراد، والسيئ القبيح مكروه مُبْغَضٌ، والأعيان والأفعال المُبْغَضَة من كل وجه لا تقصد بحال، كما أن المحبوبة من كل وجه؛ لا تُتْرَكُ بحال، (...) فإنه لولا اعتقاده بقبح ذلك الفعل اعتقادا تاما لم يفعله بحال»(٩٦).

وقد أكد عالمُ الأخلاق محمد عبد الله دراز هذا الأصل، فيقرر أن الواجبات الشرعية ليست أوامر إلهيةً فحسب، بل هي أوامر أخلاقية يتعهد بها المؤمن تعهدا كليا عاما، بمقتضى عَقدِ الإيمان الذي ينطوي على السمع والطاعة، ثم يقول: «لا بد، قبل كل شيء، أن تسريَ أوامرُه إلى أعماق الضمير، حتى يتشربَها القلبُ، ثم تفيض عنه، بعد أن تكون قد تحولت فيه إلى أوامر ذاتية انبعاثية.. ذلك أن أول خطوة في امتثال الواجب هي الإيمان بوجوبه، وعدالته، والخطوة التي تليها هي أن يحمل هذا الإلزام إلى النفس على كف الضمير، مشفوعا بصوت منبعث من أعماقه، يناديها: (أيتها النفس، إن الله يأمرك أن تفعلي، و أنا آمُرُكِ أن تطيعي أمرَه؛ فإنه حق وعدل، وإنه لا خيرة لك في رده)، فإن لم ينبعث من الأعماق هذا التبليغ، ولم يرتفع فيها هذا الصوت الداخلي؛ ترديدا لصدى ذلك الصوت السماوي، كان العملُ كله هباءً عند الله، وفي نظر قانون الأخلاق.

القلب (أو الضمير) إذا هو بريد الشرع، الذي لا سبيل إلى الامتثال إلا عن طريقه»(٩٧).

فالإيمان بالقيمة يحولها إلى قوة ملهمة موجهة، من أعماق القلب؛ يحولها إلى وازع ذاتي.

---

(٩٦) محمد عبد الله دراز: كلمات في مبادئ علم الأخلاق، بحث في كتابه: دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية، ط ٥، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٣م، ص ٢٠٤، ٢٠٥.

(٩٧) محمد عبد الله دراز: الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ط ١، دار القلم، الكويت، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، ص ٤٠ -٥٤، ٧١، ٧٠، ٩٨ - ١٠٠.

ويبين دراز عمقَ الصلة بين الإيمان الديني بالله الأحد الحاكم المشرع المُلْزِمِ بالقيم، وبين الالتزام بالقيم، والواجبات الخلقية، فالدينُ يعني: الاعتقادَ الجازم بوجود قوة سبحانية عظيمة فعالة، تقصد ما تفعل بمحض إرادتها ومشيئتها، ذاتِ سلطان عُلوي، وذات اتصال معنوي بالناس، تسمع النجوى، وتصغي للشكوى، ويشعر الإنسان المسلم نحوها بالتعظيم والخضوع، والتقديس، فالمتدين يؤمن بالله، ويقدسه، ويعظمه، ويخضع لسلطانه، وأمره، ويشعر نحوه بشعور وجداني، هو شعور التعظيم والتقديس، وأنه على اتصال به، يسمع النجوى، ويُصغي للشكوى، ويُعْنَى بالآلام والآمال، ويَقدر على كشف الضر، وإجابة الدعاء، فالتقديس الإيماني الديني، تأليه لله وحده، وعبادة له، وخضوع لأمره، خضوعا إراديا اختياريا، فهو حين يخشع لمعبوده، ويسجد لعظمته؛ يفعل ذلك طواعية، تمجيدا، وتقديسا قائما على الحب والإعجاب.

فهو خضوع كُلِّي يفتح باب الأمل، ويبعث على مناجاة الله؛ رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد، هذا هو الدين، من حيث هو تدين نفسي وجداني، وله جانبان: تقديس عن العيوب والنقائص، وتعظيم للقيم والمثل، فمظهر التقديس لله له جانبان: عدم انتهاك ما حرمه، والإقبال على القيم الفُضْلى يغترف من معينها، ويتذوق جمالها، ويتمثلها، ويتخلق بها.

والتدين الحق: معرفة للحق وتعظيمه، وإيمانٌ بأن اللهَ مصدرُ الحُكم والتشريع في الوقت نفسه، ومن هنا هو يشمل الخلق، أي : النزوع إلى فعل الخير، وضبط النفس عن الشر. والأخلاقُ العملية تتناول حياة الإنسان في نفسه، وفي مختلف علائقه؛ مع الله، ومع الخلق. والقانونُ الأخلاقي الكامل هو الذي يرسم ويحدد طرائق التعامل مع الله، ومع النفس، ومع الخلق. والمؤمن يستمد هذه الطرائق من الله الذي آمن به، والقانون الإيماني الديني

الإسـلامي، يُعَـرِّفُ المـؤمنَ الحقـائقَ والفـضائل، ويُغـري الـنفسَ بحبهـا، وتقديسها، ويضع لها المنهاج السوي ليسير عليه الفرد والجماعة.

فالمؤمن المتدين يخضع لله، ويعبده، ويتقيـه، ويتخلـق بالفـضائل الخلقيـة؛ بوازع ذاتي. فالإيمان الديني أساس للأخلاق التي هي ذات طابع عملي.

وهذا التدين يقوم على الإيمان، وهو - الإيمان - ليس معرفة، فقـط، وإنـما الإيمانُ معرفة تتجاوب أصداؤها في أعماق الضمير، وتختلط مادتهـا بـشغاف القلوب، فلا يجد الصدر منهـا شـيئا مـن الـضيق والحـرج، .. الإيـمان تـذوق ووجدان يحمل الفكرة، يحمـل القيمـة الموجِّهـة، مـن سـماء العقـل إلى قـرارة القلب، فيحملها للنفس رِيًّا وغـذاءً يـدخل في كيانهـا، ويـصبح عنـصرا مـن عناصر حياتها، فهنالك تتحول الفكرة قوة دافعـة فعالـة، لا يقـف في سـبيلها شيء في الكون إلا استهانت به أو تبلغ هدفها.

الإيمان الديني بالله، واليوم الآخـر، روح وثابـة، وقـوة محركـة، ولا يقنـع بعمل العقل حتى يضم إليه ركونَ القلب، والاستحواذ عـلى مـشاعر الـنفس ونفاذا إلى أعماق القلوب وأغوارها؛ ليملك زمام النفس، ويقودها ويوجهها.

إن الإيمان الديني الحق يعرفنا بالحق؛ لنعرفه، ونحبه، ونمجده، ونؤمن به. ويعرفنا القيمة؛ الواجب؛ لنؤديه ونوفيه، ونكمل نفوسنا بتحقيقه.

فإذا دخل الإيمان الديني بالله، في القلب، فأقلُّ آثاره، لفت شـعور المتـدين إلى الصلة بينه وبين الله؛ صلة تقوم على معنى الإلزام والالتزام؛ إذِ الدينُ ليس إيمانا ومعرفة فحسب، بل هو فوق ذلك التفات روحي متبادل، هو رباط مـن الطاعة والولاء، ومن الحب والرعاية، بين المتدين وبين الله الذي آمن به.

والعقيدة الدينية إذا دخلت القلب، فإنها تنزع دائما إلى الانتـشار والتحقـق في الشعور، والسلوك، والحياة العملية، وتحرك صاحبها إلى تحقيق أهدافها.

فتربية الإيمان بالله، هي تربية خلقية في نفس الوقت .

إن الإنسان كائن يمتاز عن سائر الكائنات الحية في الأرض، وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها معنى إنساني روحاني، اسمه العقيدة، الفكرة التي يؤمن بها، فالإنسان مقود أبدا بفكرة صحيحة أو فاسدة، فإذا صلحت عقيدته؛ صلح فيه كل شيء، وإذا فسدت فسد كل شيء، إن الإنسان يساق من باطنه، من قلبه، من عقيدته، لا من ظاهره.

ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضمانا للسلام والرخاء، وعوضا عن التربية والتهذيب الديني والخلقي، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين، ولا بد، في حسن استخدامه، من رقيب أخلاقي، [ووازع ذاتي]، يوجهه نحو خير الإنسانية، وعمارة الأرض، لا إلى نشر الشر والفساد.

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان.

غير أن الإيمان على ضربين:

إيمان بقيمة الفضيلة، وكرامة الإنسانية.. وما إلى ذلك، من القيم التي تستحي النفوس العالية من مخالفة دواعيها.

وإيمان بذات عُلويه رقيبة على السرائر؛ ذات الله سبحانه، يستمد القانون الخلقي سلطانه الإيجابي من أمرها ونهيها، وتلتهب المشاعر بالحياء منها، أو بمحبتها، أو بخشيتها، ولا ريب أن هذا الضَّرْبَ أقوى الضربين سلطانا على النفس الإنسانية، وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى، وتقلبات العواصف، وأسرعها نفاذا في قلوب العامة والخاصة»(٩٨).

المبدأ الثالث: إرادة القيمة:

أي: الرغبة العميقة في القلب؛ في الشعور، في الاتصاف بها، والشعور بالحاجة إليها، واشتهاؤها، والتشوقُ للتخلق بها، وإرادتها بالقلب، وطلبها،

---

(٩٨) ابن تيمية : الاستقامة، مصدر سابق، ص ٣٢٠ .

وإيثارها، وتفضيلها على غيرها، وهي تنشأ في القلب من المبدأين السابقين: المعرفة المحركة، والإيمان، يقول ابن تيمية: «فإن الطلبَ والحب والإرادة فرعٌ عن الشعور والإحساس والتصور، فما لا يحسه الإنسان ولا يتصوره، ولا يشعر به؛ يمتنع أن يطلبه ويحبه ويريده»(٩٩).

وإرادة القيمة إرادة جازمة يعني : تصورها، وتمييزها من غيرها، والشعور بها، والغرام بها، والإعجاب والمحبة لها، والتشوق لمعانقتها، وإيثارها، وقصدها، وطلبها، ونهوض القلب إليها، والعزم على منازلتها، والمبادرة إلى ممارستها. فالإرادة مقدِّمة الفعل، ونهاية الإرادة بداية العمل، وما لم يرد الإنسان شيئا بقلبه، ويعزم عليه؛ لم يفعله، فالفعل لا يقع إلا بإرادة جازمة، مع القدرة(١٠٠). ومِن شروط الإرادة مخالفة العادة، وألا يريد المرء إلا مراده، وبذل المجهود للوصول إلى ما يريد.

وهكذا فإن عمل القيمة، أي : الالتزام بها فعلا وممارسة، يخضع لصوت الإرادة، فالنفس متى توجهت عزيمتها إلى حركةٍ ما؛ أصدرت أمرَها، فاندفعت الجارحة في الطريق المرسوم لها، لا يصدها عنه شيء، إلا أن تُصْدِرَ النفسُ أمرا آخر بالكف، فتقف الحركة. فالعزم والإرادة، قد ناط الله بهما وجود الفعل، وهكذا؛ كلما حققنا فعلا اختياريا وحققنا إرادة؛ وُجِدَ الفعل قطعا، تلك سنة الله لا تبديل لها، فيكون الفعلُ عند الإرادة واجبَ الصدور، وعند عدمها ممتنعَ الحصول، فلا يحصل الفعل بدون أن يسبقه هذا العزم، ولا يحصل العزم بدون أن يلحقه هذا الفعل(١٠١).

---

(٩٩) ابن تيمية (شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم): الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ٢، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، دار ابن الهيثم، القاهرة، ٢٠٠٣ م، ص١٩٣.

(١٠٠) محمد عبد الله دراز : المختار من كنوز السنة النبوية، شرح أربعين حديثا نبويا في أصول الدين، ط١، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٤ م، ص ٢٤٤ - ٢٤٧

(١٠١) القشيري : الرسالة القشيرية، ط الحلبي، ١٩٥٩م، ص ١٢١

إذًا، دور المربي هو تنمية هذه الإرادة للقيم، والخلاصة: إنما تنجح المقالة في المرء؛ إذا صادفت هَوًى في الفؤادِ، وهذا أصلٌ في تربية كل قيمة: أن نشتهيَ القيمة، ونريدَها من عمق قلوبنا.

المبدأ الرابع : التعود والتدرب والممارسة والتكرار:

فالقيمة لا تكتسَبُ بمجرد المعرفة والإيمان والإرادة، بل، مع ذلك، بالتعود؛ بالتدرب، بالممارسة، وبالتكرار؛ أي : فعل القيمة، وعملها، وممارستها، مرة بعد مرة، وتكريرُ ذلك، حتى يعتادَها الإنسان، وترْسُخَ في قلبه ونفسه، وتصدرَ عنها أفعاله، بتلقائية وسهولة، فالعادة : تكرير الفعل، وبها يرسخ الخلق في النفس، ويكمل، ويرسخ الاتصاف به، وسيأتي مرارا كلام ابن مسعود ﷺ: تعودوا الخير ما استطعتم، فالخير عادة، وقال وهبُ بنُ مُنَبِّه: «ما تخلق عبد بخلق أربعين صباحا إلا جعل الله ذلك طبيعة فيه»[١٠٢]. أقول : ليس عددُ الأيام مُحَدَّدا، بل الأساس هو استحكام العادة الخلقية، وتحولها إلى سمة وعلامة وصفة للذات الإنسانية، وهذا إنما يكون بتكرير فعل القيمة؛ بالتدرج، والترقي، (إنما يرقيك عملك)، كما ذكرنا عن الجيلاني.

ويقرر العلامة محمد دراز هذا الأصل، يقول : «إن الفكرة النظرية التي تأخذ آثارَها العملية؛ تبقى ماثِلة في الوجدان، لا تزاحمها الأضداد، ولا يَطْغَى عليها النسيان؛ لأنها حاضرة غالبا في مركز الفكر -أو كما يقول علماء النفس: في بؤرة الشعور- فهي تستمد، من العمل بها، قوة وثباتا وإشراقا، حتى تصبحَ للنفس مَلَكَةً وخلقا، وكذلك يستمد منها العمل سهولة ويُسرا؛ عند العود إليها مرة أخرى. وهكذا كلما ازداد تكرر العمل بمقتضى تلك الفكرة؛ ازدادت قوة في نفسها، واستعدادا لإنتاج أمثالِه من الأعمال، بدون تكلف، وازداد العمل لصوقا بالنفس، حتى يكون انتزاعُه ومفارقته أشْبَهَ بانتزاع الغرائز،

---

(١٠٢) محمد عبد الله دراز : المختار من كنوز السنة النبوية، مرجع سابق، ص ١٠٢

ولذلك قيل: (العادة طبيعة ثانيـة»)[١٠٣]. ويناقش دراز مقولة سقراط: إن العلم بالفضيلة يكفي في تحقيقها والتحقق بها، وكيف أن تلميذه أفلاطون قرر أنه ليس بالعلم وحده يصبح المرء فاضلا، فإن الرجل قد يعرف الشر ويأتيه، ويعرف الخير ولا يفعله، وأن الفضيلة الحقيقية تعتمد على معرفة الخير ونيته، وأنه ليس المقصودُ بالعلم الإدراكَ العقلي الجاف، بل المعرفة التي تمتد من العقل إلى القلب، وتصبح إيمانا عميقا، وقوة ملهمة متحمسة، وهذا النوع من العلم كافٍ في نجاح التربية وإثمارها للفضيلة، ثم يقول دراز: «ونحن، وإن كنا نوافق على أن المعرفة وحدها ليس لها كبيرُ جدوى؛ إن لم يكن رِفْدٌ من قوة الإيمان، نرى مع ذلك أَنَّ ضَمَّ العنصرين غَيْرُ كَافٍ في تحقيق الفضيلة العملية. وأن التربية الناجحة لا غنى لها عن توافر عواملَ طبيعيةٍ وعوامل إرادية، وأن لا بد لها، قبل كل شيء، من إزالة الموانع والعقبات من طريقها، ومن أخطر هذه الموانع: البيئة السيئة، والقدوة الضارة التي لا يُنْكرُ أثرُها في سلوك الناشئ، كما أن منها الميول المعارضة، والعوائد المخالفة في سيرة الناشئ نفسه، ثم يجيء بعد ذلك عوامل إيجابية (...) إن الإنسان ليس عقلا فحسب.. بل هو إلى ذلك إرادة فعّالة، وعزيمة نافذة .

وإذًا، فليست الفضيلة علما وإيمانا يَنْزعَانِ بصاحبهما إلى العمل، مع قصور الهمة عن تحقيق هذه النزعة، بل هي عمل يبرز إلى الوجود، ويرى ضوء الحياة. فهذه واحدة.

والثانية أن هذا العمل، حين يبرز إلى الوجود، لا يكفي أن يقع مرة، أو مرتين، بل يجب أن يتكرر، ويستمر حتى يصبح عادة ثابتة، وخلقا راسخا، كأنه طبيعة ثانية، فلابد، إذاً، من رياضة وتدريب على العمل بما نعلم، وتلك هي حقيقة التربية العملية.

---

(١٠٣) محمد عبد الله دراز : دراسات إسلامية، مرجع سابق، ص ٢١٢-٢١٤

وأخيرًا فليست الفضيلة عملا آليا تسخيريا تمُجُّه نفسُ فاعلِه، ويأباه طبعُه، بل هي عمل انبعاثي محبب إلى القلب.. إلخ[١٠٤]. ويقول قتادة : «لم يُرَ أعْطَى من نفس إذا عُـوِّدَت، ولا أضـعف منهـا إذا لم تُعَـوَّدْ»[١٠٥]. أي : أن التعويـد يجعل النفس تسخو بالخلق والعمل الصالح، ويسهل عليها ويجعلهـا قويـة في الخير.

وقد فصَّلَ ابنُ خَلدون هذا المبدأ؛ مبدأ الممارسة والتعـود وتكريـر الفعـل؛ حتى تتحولَ القيمة إلى خلق راسخ في النفس؛ أي: إلى مَلَكَةٍ لها، ويبين علاقـة العلم بالإيمان، و بالممارسة، وبالتكرير؛ بتكوين الملكة؛ فـأولا: يُعَـرِّفُ الملكـة؛ يقول: «والملكة: صفة راسخة تَحْصُلُ عن استعمال ذلك الفعـل، وتكـرُّرِهِ مـرة بعد أخرى، حتى ترسُـخَ صـورته».. والعوائـد: إنـما ترسـخ بكثـرة التكـرار، وطول الأمد، فتستحْكِمُ صفة ذلك، وترسـخ في الأجيـال، وإذا اسـتحكمت الصفة؛ عَسُرَ نزعُها».. الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل وتكراره، وإذا تنـوسِيَ الفِعلُ؛ تنوسيت الملكة الناشئة عنه».. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال؛ لأن الفعل يقع أولا، وتعود منه للذات صفة، ثم تكرر؛ فتكون حالا، ومعنـى الحال : أنها صفة غيرُ راسخةٍ، ثـم يزيـد التكـرار؛ فتكـون ملكـة؛ أي : صـفة راسخة».. وتنمو قوى الملكة بتغذيتها»[١٠٦].

وكل ملكة لها صبغة تنصبغ بها النفس، ولها سلطة عليها؛ إذ أن الملكة هـي السلطان المالك، المتملك، ذو السلطة الآمـرة النافـذة، والـذي يجعـل القيمـة كذلك هو: العلم بها، والإيمان بها، وممارستها، وتكرير الممارسة؛ حتى تنـصبغ

---

(١٠٤) ابن أبي الدنيا : محاسبة النفس، تحقيق : مجدي فتحي السيد، رقم ١٢٢، ص ٨٥ .

(١٠٥) ابن الجوزي : تلبيس إبليس، مصدر سابق، ص ٤٤١.

(١٠٦) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابـن خلـدون، تمهيـد وتعليـق وتحقيـق : د. علـي عبـد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، سلسلة التراث، الهيئة المـصرية العامـة للكتـاب، القـاهرة، ٢٠٠٦م، ج٢، ص ٨٥٦، ٨٥٩ ، وج ٣، ص ١١١١، ١١٤٠، ١١٦٩.

النفس بها، وتصبح ملكة لها.

يقول ابن خلدون، في نص مهم، وهو يتحدث عن قيمة التوحيد: «إن المُعتبَرَ في هذا التوحيد ليس هو الإيمان، فقط، الذي هو تصديق حُكمِي؛ فإن ذلك من حديث النفس، وإنما الكمال فيه: حصولُ صفة منه، تتكيف بها النفس، كما أن المطلوب من الأعمال والعبادات، أيضا، حصولُ ملكةِ الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود، حتى ينقلب المريد السالك رَبَّانيًّا، والفرق بين الحال والعلم، في العقائد، فرقٌ ما بين القول والاتصاف.

وشَرْحُهُ: أن كثيرا من الناس يعلم أن رحمة اليتيم والمسكين قربة إلى الله تعالى، مندوب إليها، ويقول بذلك، ويعترف به، ويَذكر مأخذه من الشريعة، وهو لو رأى يتيما أو مسكينا من أبناء المستضعفين؛ لفر عنه، واستنكف أن يباشره، فضلا عن التمسح عليه؛ للرحمة، وما بعد ذلك من مقاماتِ: العطف والحُنُوِّ والصدقة، فهذا: إنما حصل له، من رحمة اليتيم، مَقامُ العِلمِ، ولم يحصل له مَقامُ الحال والاتصاف. ومِن الناس مَن يَحْصُلُ له، مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين قربة إلى الله ﷻ، مقامٌ آخَرُ أعلى من الأول؛ وهو الاتصافُ بالرحمة وحصولُ ملكتها؛ فمتى رأى يتيما أو مسكينا؛ بادر إليه، ومسح عليه، والتمس الثوابَ في الشفقة عليه، لا يكاد يصبر عن ذلك، ولو دُفِعَ عنه، ثم يتصدق عليه بما حضره من ذات يده. وكذا عِلْمُكَ بالتوحيد مع اتصافك به.

«والعلم الحاصل عن الاتصاف؛ ضرورة، هو أوثقُ مَبْنًى من العلم الحاصل قبل الاتصاف» .

«وليس الاتصافُ بحاصلٍ من مجرد العلم؛ حتى يقعَ العَمَلُ، ويَتكرَّرَ؛

مِرارا غير منحصرة؛ فترسُخَ الملكـة، ويحـصل الاتـصاف والتحقيـق، ويجـيء العلـم الثاني النافع في الآخرة؛ فإن العلم الأول المجـرد عـن الاتـصاف؛ قليـلُ الجَدْوَى والنفع، وهذا عِلْمُ أكثر النظـار، والمطلـوبُ: إنـما هـو العلـم الحـالي الناشئ عن العادة. (يعني: العلم الناتج عن ذوق الحال، الناشـئ عـن التعـود وتكرار الفعل).

واعلم أن الكمال، عند الشارع، في كل ما كلف به، إنما هو في هذا، فما طلب اعتقادَه؛ فالكمالُ فيه: في العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف. وما طلب عملـه من العبادات : فالكمال فيها : في حصول الاتصاف والتحقيق بها»(...).

«فقد تبين لك، مـن جميـع مـا قررنـاه، أن المطلـوبَ، في التكـاليف كلهـا: حصولُ ملكة راسخة في النفس، يَحْصُلُ عنها علم اضطراري في الـنفس؛ هـو التوحيد، وهو العقيدة الإيمانية، وهو الذي تحصل به السعادة. وأن ذلك سواءٌ في التكاليف القلبية والبدنية، ويتفهم منه أن الإيمان، الذي هو أصل التكاليف وينبوعها، وهو بهذه المثابة، ذو مراتب : أولها : التصديق القلبي الموافق للسان، وأعلاها : حصول كيفيةٍ من ذلـك الاعتقـاد القلبـي ومـا يتبعـه مـن العمـل، مستوليةٍ على القلب، فيستتبع الجوارحَ، وتندرج في طاعتها جميـعُ التـصرفات، حتى تنخرط الأفعال كلها في طاعة ذلك التصديق الإيماني، وهذا أرفع مراتب الإيمان، (...)، وكذلك الإيمان، حين تخالط بشاشته القلوب؛ ومعناه أن ملكة الإيمان، إذا استقرت، عَسُرَ على النفس مُخالفتِهَا، شأن المَلَكَات إذا اسْـتقرت، فإنها تحْصُلُ بمَثابَةِ الجبلَّةِ والفِطْرَةِ»[١٠٧].

المَبْدَأ الخَامِس: المُداوَمَة والاستمداد :

وهذا المبدأ مرتبط بالسابق، كما قرره العلامة دراز، فهناك معوقات بيئيـة،

---

(١٠٧) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون : مقدمة ابن خلدون، ج ٣، مصدر سابق، ص ٩٦٩، ٩٧٠.

ومعوقات نفسية من داخل المتربي، ومعوقات غيبية من الشيطان، وبالتالي يحتاج المتربي لعزيمة الاستمرار على فعل القيمة، والمداومة عليها، والمجاهدةِ للمعوقات، وطلبِ العون على ذلك، من خلال الصحبة المربية، المعينة على الخير، والبيئة الملائمة، المُفعَمَة بثقافة مربية للقيم الفاضلة، في الأسرة، والشارع، والصحبة، ومن خلال الإصرار الإرادي، والعزم القوي، والمجاهدة للنفس، ومن خلال ذكر الله، والدعاء له، واستمداد العون منه في التزكي والعمل بالقيمة. ومن خلال المسجد، والصلاة، والصوم، وقراءة القرآن، وطلب النصيحة، فهذا المبدأ يتضمن مبادئ: المداومة والاستمرار والثبات على فعل القيمة ،واستمداد العون من الله، والصحبة المربية، والبيئة المساعدة على فعل الخير، والمجاهدة والمقاومة لعوامل التعويق، والثقافة المربية المحرِّضة على فعل الخير، والمرغبة فيه، والعلم الخلقي الذي يرفض الشر، ويحب الخير، ويشجع على فعله .

ولنتأمل في قول الحسن: «إذا نظر إليك الشيطان ورآك على غير طاعة الله تعالى؛ بَغَاكَ، وإذا رآك مداوما على طاعة الله مَلَّكَ ورفضك، وإذا رآك مرة هكذا ومرة هكذا؛ طَمِعَ فيك»(١٠٨).

المبدأ السادس: التعزيز الذاتي:

بالفرح بالقيمة، والاعتزاز بالتخلق بها، وإثابة النفس على الاتصاف بها، وتشجيع مَن نربيه، والثناء عليه؛ فهذا ينمي الضمير الخلقي الفردي، والاجتماعي في المتربي .

المبدأ السابع: الحماية:

أي : حماية قلب المتربي، وحراسته من الثقافة الملوثة، والعلاقات المضرة، أو المعوقة، لنمو القيمة، وكف آثار التلوث الخلقي عن أن تمتد لقلبِ وأخلاق

---

(١٠٨) حسن البنا: من تراث الإمام البنا، الكتاب السادس، ط ١، دار الدعوة، الإسكندرية ٢٠٠٦ م، ص٦١.

المتربي، وهذا مبدأ مهم له أبعاد تتعلق بنوع الصحبة، ونوع الثقافة التي نتعرض لها في الأسرة، والشارع، والمجتمع عموما.

ونكرر هنا كلمات العلامة دراز، المذكورة سابقا: «التربية الناجحة لا غنى لها عن توافر عوامل طبيعية وعوامل إرادية، وأنها لا بد لها - قبل كل شيء - من إزالة الموانع والعقبات من طريقها، ومن أخطر هذه الموانع: البيئة السيئة، والقدوة الضارة، التي لا ينكر أثرها في سلوك الناشئين، كما أن منها الميول المعارضة والعوائد المخالفة في سيرة الناشئ نفسه..».

المبدأ الثامن: مبدأ التأسي والاقتداء بصالحي الأخلاق:

فكما أن القدوة السيئة الضارة لا يُنْكَرُ أثرها الضار في سلوك الناشئين-كما أشار دراز- فإن القدوة الصالحة لا ينكر أثرها الصالح في سلوك الناشئين والمتربين، ومن هنا تظهر أهمية دراسة السيرة النبوية، وسير الصالحين، للتأسي بهم، والاقتداء بهم، وأهمية إبراز المواقف التطبيقية للقيم في سلوكياتٍ، عمليةٍ لأشخاص محبوبين .

فالشيخ البنا يطلب: «أن يتفقه المسلمون في سيرة نبيهم ﷺ، ويتدارسوها بينهم دراسة منتجة عميقة، تدفعهم إلى الاقتداء به ﷺ، في أقواله وأفعاله، وأحواله»[١٠٩].

ويشترط لنجاح الدعوة؛ وهي دعوة خالصة لوجه الله، من أول يوم، مؤسسة على تقواه، مستندة إلى عظمته، سبحانه، هذه الدعوة، أعتقد أنه لابد لنجاحها من أمرين أساسيين:

أولهما: طهارة القائمين بها، ونزاهة نفوسهم، حتى تصلح لتلقي المعونة والنصر من الحق تبارك وتعالى.

ثانيهما: صلة هذه القلوب بالداعي الأول ﷺ، صلة روحية قوية تؤدي إلى

---

(١٠٩) المرجع السابق، ص ١٤٣، ١٤٤.

حسن الاتباع، والاستمساك بالسنة، ولا يصلح آخِرُ هذه الأمة إلا بما صلح به أولها..»[١١٠].

ويقول ابن الجوزي: «ومن لم يطلع على أسرار سير السلف.. لم يمكنهم سلوك طريقهم، وينبغي أن يعرف أن الطبع لص، فإذا تُرِكَ مع أهل هذا الزمان؛ سرق من طبائعهم فصار مثلهم، فإذا نظر في سير القدماء زاحمهم وتأدب بأخلاقهم،..إلخ»[١١١].

والتأسي المربي- سواء كان بالأنبياء أو الأولياء الصالحين، أو كان بأشخاص أحياء في عصرنا- يتحقق بمعرفةِ مَن نتأسى به، والإعجاب به، ومحبته، والإيمان بأنه قدوة صالحة، ومحبته في الله، «فالمحبة في الله من وسائل التأسي بالصالحين في هديهم وخلقهم؛ لما جُبِلَ عليه الإنسان من الميل إلى محاكاة من يحبه»[١١٢].

وأول شرط لنجاح التأسي المربي في تربية القيم، أن يكون المربي قدوة صالحة مؤثرة، فكثير من الناس عقولهم في عيونهم، ومدرسُ هؤلاء هو الفِعْلُ، ولسانُ الحالِ أبينُ من لسان المقال، وأكثرُ تأثيرا منه، فعلى المربي أن يلاحظ هذا، وأن يقدم للمتربي نماذج القدوة المربية، سواء من الميراث الخلقي العلمي للأمة، أو من الواقع المعاصر .

إن المتربي، إذا أعجب بشخص وأحبه، فإنه يدخله في قلبه، ويتبع هديه وأخلاقه .

---

(١١٠) ابن الجوزي : تلبيس إبليس، مصدر سابق، ص١٣٥، ١٣٦.
(١١١) محمد عبد الله دراز : المختار من كنوز السنة النبوية، مرجع سابق، ص ٤٤٧ .
(١١٢) ابن الجوزي : تلبيس إبليس، مصدر سابق، ص ٤٠٣.

المبدأ التاسع: تحويل اتجاه الغرائز ووقف الأثر الضار:

إن هذين المبدأين ضروريان في تربية الضمير الخلقي، وفي البدء يَعْجَبُ ابن الجوزي «من قوم طالبوا أنفسهم بمحو أثر الطبع، وذلك أمر لا يمكن، ولا هو مراد للشرع..»[١١٣]، ويقول: «فمن ادعى أن الرياضة = [التربية - التعويد..] تغير الطباع، ادعى المحال»[١١٤].

إذًا، ما الذي تفعله التربية نحو الغرائز الطبيعية، التي قد تعوق تربية القيم، أحيانًا؟

يُفَصِّل ذلك العلامة الخلقي محمد عبد الله دراز، مبينا «أن الغرائز والانفعالات؛ مثل الغضب، والحب، والبغض، والحزن، والتشهي والتطلع، والتمني.. إلخ، ليس في الطاقة اقتلاعها ولا مكافحتها، فالله خلقها في الإنسان لحكم يريدها»، ولكننا على الرغم من ذلك نستطيع معالجتها من طريقين: إما بتحويل اتجاهها، وإما بوقف آثارها.

ومعني **تحويل الاتجاه**: أن نستبدل بالهدف الأول، الذي اتجهت إليه رغبتنا - بادئ ذي بَدْءٍ - هدفا آخر.. يعوضنا منه؛ بحيث يكون مَثلنا في معالجة أنفسنا مثل مؤدب الطفل حين يراه شديد الشغف بلعبة خطيرة، فالسياسية الرشيدة، في هذه الحال، لا تعمد إلى كبت إرادة الطفل كبتا كليا، بل تقدم له لعبة أخرى تشبهها أو تفضلها، غير أنها تكون عديمة الخطر، وكلما كان الاستبدال لما هو أنفس قيمة، وأجزل نفعا؛ دل ذلك على حصافة عقل المربي، وكمال رشده.

وهكذا علمنا القرآن كيف يكون موقفنا أمام إلحاح رغباتنا الجامحة؛ فطورا يأذن لنا أن نشبع رغباتنا بأسلوب آخر نستبدل فيه الحلال بالحرام، والطيب

---

(١١٣) المصدر السابق، ص ٤١٦ .

(١١٤) محمد عبد الله دراز: المسؤولية في الإسلام، بحث في: دراسات إسلامية، مرجع سابق، ص ١٣٨- ١٤٠

بالخبيث، وطورا يلفتنا .. ويصرف همتنا عن محقرات الأمور وسفسافها، موجها إياها نحو معالي الأمور وأشرافها ..وأيا ما كان فإنه لا يأمرنا بترك التشهي والتمني إطلاقا، ولكن يرسم لنا أهداف هذا التمني، فلنستمع إليه حين يقول: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ثم يقول: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وهذا نفسه هو الأدب الذي أدب الله به نبيه، فأحسن تأديبه؛ إذ قال له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، وما أجملَ الوصية الذهبية التي يقول فيها الرسول العظيم: «**خصلتان، مَن كانتا فيه كتبه الله شاكرا وصابرا،(...) مَن نظر في دينه إلى مَن هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه، فحمد الله على ما فضله به عليه..**» .

هذه هي سياسية تحويل الاتجاه.

وأما سياسة وقف السير؛ فإنها تتبع في ظروف خاصة، كأنها استثناء من القاعدة، وحتى في هذه الحالات الخاصة؛ ليس المطلوب منا أن نسكت صوت رغباتنا، وأن نحملها قَسْرًا على الجمود والخمود، فإنه أرحم بنا من أن يكلفنا ما لا طاقة لنا به.

وإنما العلاج هو أن ندع جهاز الغريزة يدور حول نفسه،ولا نقدم له المادة التي يطلبها، وتلك هي السياسة التي رسمتها شريعة الصوم تلك هي سياسة ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ولا أطيل في سرد الأمثلة وتعداد الشواهد، فكل غرائزنا ونزعاتنا، في هذا النمط، لم يجعل اللهُ لنا سبيلا عليها في تكوينها، ولا انبعاثاتها الطبيعية، ولكنه جعل لنا عليها سلطانا في: ضبطها، وتوجيهها، وتنظيم آثارها العملية[١١٥]. وهذا أصل مهم في تربيتنا الخلقية القيمية، وفي تربية أبنائنا وناشئينا، وهو أساسُ

(١١٥) المرجع السابق، ص ١٤٠- ١٥٣.

مبدأ مراعاة الطبيعة الإنسانية، واستعدادها، وأنه لا يمكن خلع الطبع أو قلعه، وإنما يمكن تهذيبه، طبقا لمبدأ تحويل الاتجاه.

المبدأ العاشر: إيقاظ الشعور بالمسؤولية الخلقية:

عن كل أعمال الإنسان، نحو الله؛ بإيقاظ شعور المراقبة له، ونحو المجتمع؛ بإيقاظ الشعور الوجداني، الاجتماعي، ونحو القيم ذاتها؛ بإيقاظ الشعور الخلقي، والضمير الفردي، إيقاظ شعور الإنسان بمسؤوليته نحو أعمال قلبه، وأعمال جوارحه، وتصرفاته، وكل أعماله، وعلاقاته، مع نفسه، ومع الله، ومع الخلق، وإيقاظ شعوره، بالمسؤولية عن آثار أعماله في سلوك الآخرين، وعن أعمال الآخرين؛ إذا كان سكوته عنها سيؤدي إلى استمرارها .

والمسؤولية: واجب تطالب بأدائه، وتحاسب عمّا صنعته فيه، بعد أدائه، وهي صفة لازمة للإنسان بما هو ذو عقل وإرادة، واقتدار، وبما هو مستخلف من الله في الأرض، وسيد في الأرض، وعبد لله وحده، وهو مسؤول بموجب ذلك كله؛ أمام الله، وأمام الأمة، المؤمنة، وأمام ضميره(١١٦).

وإيقاظ الشعور بالمسؤولية الخلقية عن عَمل الإنسان وعن سكوته، الاختياري، هو أساس الخطة التربوية لإقامة المجتمع الصالح، يقول العلامة دراز: «أمّا الفطرة المرنة القابلة للتطور، والترقي، فإنه يجب أن يُعْتَمَدَ في تربيتها على ما ينطوي فيها من الصفات الكريمة، والمشاعر النبيلة، وأن يبدأ تغذيتها، منذ نعومة أظافرها، بالغذاء الأدبي المعنوي اللائق بإنسانيتها، كما يجب أن يعوض ما تفقده من غذائها أثناء نموها؛ بعلاج هادئٍ رقيق بطيء، عميق، نفاذ، فعال، تتحول به الصفات، ويُقَوَّمُ به المعوج من الأهداف والنزعات؛ هذا الغذاء والعلاج(...) له في موضوعنا اسم واحد؛ ذلك هو إيقاظ الشعور بالمسؤولية في

---

(١١٦) محمد عبد الله دراز: حصاد قلم، جمع وتحقيق: أحمد مصطفى فضلية، ط ١، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٤م، ص ٢٧٢ - ٢٧٥

كل ضمير؛ ذلك هو إشعار كل عامل - وكل مقبل على عمل - بأن عمله منظور إليه، معدود له أو عليه، وأن كل حركة أو سكون مكتوبة محسوبة، منظورة مسموعة، وأنه سيوجَّه إليه في شأنها السؤال، وأنه سيُقَدِّم عنها الحساب».

«ثم صقل الحساسية النفسية، وإقناعها بقيمة هذه المحاسبة، وما سيكون لها من موقف عظيم، تتهيب النفوسُ الحَية ما قد يُسْفِرُ عنه من لوم وتثريب،.. [أو] ثناء وتكريم،... إيقاظ الشعور بالمسؤولية في كل ضمير(...).

أما الجمهور الأعظم فيجب أن يُعتمَدَ في تربيته على الوسائل المعنوية، التي تدور على محور واحد: هو إشرابُ النفوسِ حُبَّ الواجب، وإيقاظ شعورها بالمسؤوليات والتبعات الأدبية..»[١١٧]؛ عن طريق إشعار النفوس بمسؤوليتها أمام الله، .. وبمسؤولية المؤمن أمام ضميره، وبمسؤوليته أمام الناس، والرأي العام. «إن القرآن يُشْعِرُ كلَّ مؤمن بأنه مسؤول؛ أدبيا، أمام درجات ثلاث من القضاء والحُكم؛ حكم الضمير في قلبه، وحكم الرأي العام من حوله، وحكم الملك الديان من فوقه»[١١٨].

والقرآن الكريم لم يكتفِ بوضع هذه القاعدة الكلية في المسؤولية الخلقية، «بل إنه اتخذ فيها بعد ذلك منهجا تدريجيا مفصَّلا، فجعل يغرس في نفوسنا شعورا عميقا، بكل واحدة من هذه المسؤوليات، ويربي فينا الوجدان الاجتماعي، على حدة، والوجدان الديني على حدة، بحيث إذا اجتمعت للفرد هذه المشاعرُ النبيلة؛ كانت له من مجموعها نفسية مهذبة كاملة. وبحيث إذا اجتمعت في الأمة أفراد مهذبون هذا التهذيب السامي، كانت منها أمة عظيمة، عملية مثالية، معًا»[١١٩].

---

(١١٧) المرجع السابق، ص ٢٧٩

(١١٨) المرجع السابق، ص٢٧٨.

(١١٩) المرجع السابق، ص٢٨٢ .

فإيقاظ وتنمية الشعور بالمسؤوليات يحتاج لتربية الوجدان الخلقي، الذي به يذوق الإنسانُ عمله، ويستشعره، ويدرك ما فيه من جمال أو فحش، فيفعل القيم والأخلاق؛ لما فيها من جمال وطهر وسمو، ويترك الخلق السيئ؛ لما فيه من فحش، وقبح، وسقوط .

والقرآن يربي هذا الوجدان؛ فيعرض الفضائل الخلقية بما فيها من قيمة ذاتية، وسمو، ومنزلة رفيعة، وجمال، ويعرض للشرور والرذائل بما فيها من فحش وبشاعة.. ودنس، وسقوط أدبي .

وهكذا ينادي دراز: «أيها الآباء والمربون.. حجوا بأنفسكم وبأبنائكم وطلابكم إلى هذه الكنوز التربوية في معرض القرآن الفسيح، اسقوهم من منهله العذب؛ غِذاءً لأرواحهم وقلوبهم، اتخذوا لهم مصباحا يقودهم في أقوالهم وأعمالهم. ثم: انهجوا نهجه في هدايتهم وإرشادهم عند كل فرصة ومناسبة: حَبِّبُوا لهم الفضيلة للفضيلة، عودوهم الاستمتاع بوجهها الجميل، ونفروهم من الرذيلة.. أبرزوها لهم شوهاء جرباء ينفر منها كل ذي ذوق سليم.

وأخيرا: علموهم أن محكمة الضمير لها أحكام خطيرة في أعقاب كل عمل، وأن أشقى الشقاوة أن يقعَ المرءُ فريسة حُكمِها،.. وأسعد السعادة أن ينال شرفَ رضاها وتقديرها. وهذا أيضا تجدون مصداقه في القرآن الحكيم؛ إنه يحذرنا أن نُعَرِّضَ أنفسنا لذلك الحكم القاسي، وينهانا أن نعمل عملا ما، تكون عاقبته وخزا لضميرنا، بسهام اللوم والتأنيب، أو لفحا لقلوبنا بشواظ من نار الحسرة والندم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، كما أنه يشوقنا إلى ذلك النعيم الداخلي الذي يجده المؤمنون في أعمالهم، حين يذوقون لذة إرضاء ضمائرهم: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ ۝٨ لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ [الغاشية: ٨، ٩]»[١٢٠].

(١٢٠) المرجع السابق، ٢٩٣، ٢٩٤.

فالقرآن يربي الوجدان الفردي؛ عن طريق إيقاظ الشعور عند كل امرئ بمسؤوليته أمام ضميره.

كما أنه يربي في المؤمن الشعورَ بأن كلَّ مؤمن مسؤولٌ أمام المجتمع، وعن المجتمع، وجعل القرآن مِن مهمته أيضا، إشعارَنا بهذه المسؤولية إشعارا حادا قويا، فأرهف إحساسنا برقابة المجتمع علينا؛ لنحسب لكل عمل حسابَه، ونستعد للجزاء عليه، وذلك من خلال أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..، وواجب التناصُح والتواصي بالحق.

فالمسلم يجب أن يشعر بأنه مسؤول أمام الناس، كما أنه مسؤول أمام ضميره؛ «فالله تعالى هو الذي خَوَّلَ الضمائرَ حق الرقابة على أعمالنا؛ حيث يقول تعالى: ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٤، ١٥].. والله هو الذي أوجب للجماعة حقا في نقد أعمالنا..»[١٢١].

فالقرآن يُوقِظ وجداننا، ويلفت شعورنا إلى وجود رقابة تطالع أعماله، وتحكم عليها وتجازيه بها؛ رقابة من داخل نفسه في بصيرته وضميره، ورقابة من خارج نفسه (...) لكن النفوس المؤمنة بالغيب: تشعر فوق ذلك، بأن لها صلة وثيقة بحقيقة ثالثة.. لا تدركها الأبصار، وإنما تعرفها القلوب والبصائر، حقيقة هي أوسعُ عِلما مِن أن يَعْزُبَ [يغيب] عنها شيء في السموات والأرض، وأعدَلُ حُكما مِن أن تضل أو تنسى أو تجور في حكم، تلك هي الحقيقة الكبرى، والذات المقدسة العليا، التي يخضع المؤمن لأمرها وينزل على حكمها من وراء حكم ضميره، وحكم الناس، بل إن المؤمن حين ينزل على حكم ضميره، أو على حكم الناس، إنما يفعل ذلك عن طريق الوكالة والتفويض الجزئي من تلك القوة العليا.

«الشعور بهذه الصلة العلوية التي تربط المؤمن بربه».. هذا الشعور هو ما

---

(١٢١) المرجع السابق، ص ٢٩٦، ٢٩٧.

نسميه بالوجدان الروحي، وهو شعور تنبت مادته في جذر النفس، وتكمن شعلته في مشكاة القلب» (...).

«إن في قلب الإنسان عنصرا سماويا رفيعا، وإن حياة هذا العنصر وبقاءه رهن بتذكره لأصله النبيل.. بهذه الذكرى المتجددة، يُسْقى غرسه، ويرتوي، ويَغْلُظ عُودُه ويستوي» .

وبهذا الحنين المتواصل، توقد شعلته ويتكامل ضوؤه .

وهكذا يكون أول عمل المربي الروحي أن يوقظ فينا هذه الذكرى، وأن يثير فينا هذا الحنين، وقد انتدب القرآن لهذه المهمة فأداها على أكمل وجوهها..[١٢٢].

وذلك بتذكير المؤمن - دائما - بالله، وإثارة شوقه للدار الآخرة، وتذكيره برقابة الله عليه، وإيقاظ الروح من سُباتها وغفلتها، إن «تربية الوجدان الروحي لها قيمة عملية تهذيبية، يقتفيها القرآن بإيقاظه الشعور عند كل مؤمن بأن عليه رقابة من ربه محيطة شاملة في ظاهره وباطنه، في سره وعلانيته(...)[١٢٣]، ويهدف من ذلك إلى تهذيب نفوسنا، وتربية قلوبنا.

فالأسلوب التربوي الأول في إيقاظ شعورنا بالواجب الخلقي: هو النفوذ إلى باطن الأخلاق، فيطلعنا على قِيَمِها الذاتية، يرينا الفضيلة في جمال منظرها وحلاوة مخبرها، فمتى رأينا وعرفنا، وذقنا، وعشقنا؛ أصبح إقبالنا عليها تشوقا وانبعاثا إلى وجهها المحبوب، ويكشف لنا الرذيلة في خستها وضِعَتِها وفي بشاعتها ومرارتها، فيصبح اجتنابنا لها؛ تطهرا من دنسها، ونفورا من كريه مذاقها، هذه هي يقظة الضمير، ونفور الإحساس الباطن من قبح الرذائل الخلقية .

---

(١٢٢) المرجع السابق، ص ٣٠١ .
(١٢٣) المرجع السابق، ص ٣٠٩ .

إن هذا الأسلوب يوقظ ما كمن في فطرتنا من حس وتذوق للقيم العليا .

أما الأسلوب الثاني: فهو إيقاظ لما في النفس من مشاعر الأنفة من الذم، وإباء الفضيحة والعار، واتقاء نظرات المقت من أفراد الجماعة.

أما الأسلوب الثالث؛ أسلوب النفوس المؤمنة بالغيب، فهو أسلوب يحدثنا عنه دراز بقوله مخاطبا المؤمنَ بالله: «أيها المؤمن، لقد تنامُ عنك أعينُ الرقباء، ولكن عين الله أمامك ساهرة، ولقد تعزب عن بصيرتك موازين الأعمال، وأذواق المعاني، ولكن رقابة الذات العليا في وجدانك حاضرة، وإنك في أدق المواقف وأحرجها لتستمد من شعورك بهذه المراقبة أقوى نازع للخير، وأعظمَ وازع عن الشر، وإنك لتجد فيها بعد ذلك ما شئت؛ أدبَ نفس، وراحة قلب، وقرة عين»(١٢٤).

تذكر الله، وتذكر مراقبته وشهوده لك، والتأدب في حضرته، والتوقير لعظمته، والاستحياء منه، واستحضار معية الله؛ بهذا نربي ضميرنا الإيماني، ونوقظ شعورنا بالمسؤوليات كلها .

والمقصد هنا: أن نقرر هذا الأصل المبدئي في تربية القيم: إيقاظ الشعور بالمسؤولية الخلقية بأبعادها الثلاثة؛ بأن يسعى المتربي في هذا الإيقاظ: بالتفكر، وتدبر القرآن، وتدبر أحاديث النبي ﷺ في الموضوع، ودراسة ما كتبه العلامة دراز في هذا الموضوع المهم(١٢٥)، وما كتبناه هنا، وفي فصل (تربية واعظ الله في قلب المؤمن)، وعلى المربين مراعاة هذا الأصل في ممارستهم لفعل التربية القلبية.

---

(١٢٤) المرجع السابق، ص ٢٩٦، ٢٩٧. انظر: المرجع السابق، (القسم الرابع: المجتمع الصالح وكيف يتكون)، ص٢٧١ - ٣٢١. محمد عبد الله دراز: المسؤولية في الإسلام، بحث في: دراسات إسلامية، مرجع سابق، ص ١٤٠ -١٧٣.

(١٢٥) محمد عبد الله دراز: زاد المسلم للدين والحياة، جمع وإعداد: أحمد مصطفى فضلية، ط ١، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٤ م، (المجموعة الرابعة: مسؤوليات بعيدة المدى)، ص ١٦٧ – ٢٠٧ .

المبدأ الحادي عشر: الجهد الذاتي:

أي: لا تكتسب القيم الخلقية بدون عمل المرء نفسه، وجهده، جهد التعرف على عيوبه الخلقية، وجهد مقاومته الذاتية للرذائل الخلقية التي فيه، وفي المجتمع، وجهادها؛ برد الرذائل ومقاومتها، وبغضها، وخلعها من النفس، وجهد التخلق بالقيم الحسنة، وجهد المحاسبة الذاتية وتقويم النفس قبل العمل، وفي أثنائه، وبعد العمل، وجهد المراقبة، والمجازاة لنفسه، وجهد التغيير الذاتي؛ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وسنشير لكل ذلك في أثناء معالجتنا لتربية قيم القلب، في ثنايا هذا الكتاب، فإنما يرقينا جُهْدُنَا وفعلنا.

المبدأ الثاني عشر: الأمل:

الإيمان العميق بأن الأخلاق يمكن تغييرها، وأن القيم يمكن اكتسابها.

المبدأ الثالث عشر: معرفة عيب النفس:

من خلال المفاتشة، والمحاسبة، والسؤال.. إلخ، وذلك لتحقيق الشعور بالحاجة للقيمة، والإدراك والإحساس بأهمية اكتسابها؛ لتكميل الذات، وإصلاحها؛ إرضاء لله وحده.

إن إعمال هذه المبادئ يتم من خلال عمليات التربية المذكورة في الفقرة السابقة، وهي مبادئ يَلْزَمُ تطبيقها في كل قيمة نريد تنميتها واكتسابها، سواء في أنفسنا، أو فيمن نربيهم.

وهي نفسها مبادئ تربية الضمير الخلقي، الذي هو واعظ الله في قلب المسلم.

وتحدد هذه المبادئ وجهة وهُوية تربية القلب، في المنظار الإسلامي.

وكل قيمة من قيم القلب تُعَيِّنُ هَدَفًا تربويا عاما أو خاصا، يتعين إكسابُه للقلب، واكتسابه من القلب.

وقد فصلنا الأساليب التربوية لاكتساب كل قيمة في كل فصل تناوَلَ واحدة أو أكثر من هذه القيم .

وسوف يأتي في آخر التمهيد الحالي منظومة متكاملة لأساليب تربية القلب.

البعد الثالث (لأهداف تربية القلب): إكسابُ القلبِ اتجاهاتٍ وعواطفَ ومشاعرَ قلبية، نابعة من العقائد، والقيم السابقة: فالعقيدة تعين وتُوَلِّد عَالَمًا من القيم والأفكار الموجِّهة، والقيمُ والأفكار تولد عواطف ومشاعر وانفعالات معينة، مثل: الحب، حب الله، حب الرسول، حب الخير، حب المؤمنين، حب الآخرة، بغض الشر، بغض القسوة، الأمل، حب الجمال، الفرح بالطاعة لله، وفعل الخير، الحزن من المصائب والاستياء من الذنب.. ومعاداة الكفر والشرك والمشركين.. إلخ، وهذه العواطف والانفعالات والمشاعر، تتولد تلقائيا من العقائد والقيم، فهي التي توجِّه القلبَ في اتجاهاتها.. وتجعله يرغب ويحب أشياء وأفعالا، وأخلاقا، ويمارسها، ويكره أشياء، وينفر منها، ويعاديها.

وتربية القلب لا تتم بدون تدريبه على عواطف ومشاعر وانفعالات الإيمان؛ ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] إلى آخر ما سيأتي مفصلا.

هذه المشاعر والاتجاهات الوجدانية هي ثراء في القلب، وتربيتها: عن طريق التأسي، والتأثر، والتقمص، ومحاسبة النفس، والدورات التدريبية عليها، والتعود، والانفعال بما نؤمن به ، والانطباع الوجداني الشعوري، والتذوق الجمالي.

البعد الرابع (لأهداف تربية القلب): مَحْوُ أمية المشاعر، واكتسابُ إحساس ووعي شعوري إنساني بالآخَر: الشعور بالله، بالإنسان، بالكائنات، بالمأزومين وذوي المحن.. إلخ.

وقد أشرت لهذا البعد في فصل (الطريق لتربية القلب الرقيق).

فتربية القلب لا تكون متكاملة إلا إذا أنجزنا وحققنا هذه الأهداف الأربعة الكبرى، والتي يشكل كل هدف منها منظومة أهدافٍ فرعية :

١- بعد العقائد والتصورات والأفكار الموجِّهة، الخاصة بالقلب .

٢- بعد القيم والأخلاق القلبية .

٣- بعد الاتجاهات والعواطف والمشاعر القلبية .

٤- محو أمية المشاعر، واكتساب وعي شعوري ذاتي، ورقة الإحساس والذوق .

وذلك من خلال أساليبَ وبرامجَ تربويةٍ صحيحة، مستمدة من القرآن الكريم، والسنة الصحيحة، وكل خبرة نافعة.

ك- إن تربية القلب تتصف بالشمول: شمول التصورات لكل حركةٍ ونشاطٍ للقلب وعلاقاته، كما سيأتي في الكتاب، شمول الأهداف: لعقائد القلب، وقيمه، واتجاهاته ومشاعره، وانفعالاته، ووعيه الذاتي. شمول القائمين على التربية ـ كما سيأتي في الفقرة الآتية. شمول الوسائط التربوية للقلب، شمول الأساليب التربوية للقلب. وسوف نتناول هذه الثلاثة في فقرات ثلاث تالية .

هذه هي طبيعة تربية القلب، وخصائصُها، وملامحها، في رؤيتنا الإسلامية .

رابعا: من يربي القلب؟

تربية القلب ذات طبيعة خاصة، وهذه الطبيعة الخاصة تظهر أيضا فيمن يربي القلب، ولأنه لا تربية بدون مُرَبٍّ، فإن تربية القلب يقوم بها مربون، والمربي الأول والأكبر والدائم للقلب هو الله رَبُّ العالمين، كما يلي:

المربي الأول للقلب:

المربي الأول للقلب الإنساني هو الله: الرب، الذي يربي القلب ويصلحه، ويرعاه.. ويغذيه.. فالقلب يملكه الله، ويقلِّبه، ويصلحه، ويهديه، ويحبب إليه الإيمان، ويزينه في القلب، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وهو الذي يثبته، على الحق، ويقيمه عليه، ويزيغه، ويضله إذا زاغ.

فالله هو المربي؛ أي: الفاعل الأول والأكبر والدائم لتغذية القلب، وحمايته، ورعايته، فالله يربي قلبك بخطابه، بإلهامه التقوى، بحديثه، باستجابة دعائه، بأنواره وعطاءاته الواردة منه إليه..، يقول الجيلاني: «الحق عز وجل يتولى تربية الصديقين، من حال صغرهم إلى كِبَرِهِم، كلما ابتلاهم بشيء من البلايا، ورأى صبرهم، ازداد قربهم منه»(١٢٦).

فالله يربي قلب المؤمن بالابتلاء، كما يربيه باستجابة الدعاء، وبإلهامه الخير.. وبما جعله في القرآن من هداية، وبما بثه في الكون والأنفس من أدلة وآيات.. فالمؤمن يسلم قلبه لله، يربيه بذلك كله، ويزكيه، وينمي الخير فيه، ويسلم قلبه للقرآن؛ يغسله، وينقيه، ويغرس فيه الإيمان والهداية، وحب الخير، ويفتح قلبه لآيات الله في الأنفس والآفاق، فيربي إيمانه.. ويدعو الله أن يقبل بقلبه إليه، حتى يعرفه حسنا، وحتى يعبده حسنا، وحتى يرعى عهده حسنا،.. وأن ينقيها، ويغسلها من الخطايا.. وأن يوفقه.. ويلتزم بهدايته، ويشرع في عبادته الخالصة، ويتجه لذكر الله، والتفكر، والتأثر، والتنفيذ.

---

(١٢٦) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، مصدر سابق، ص ١٨٩

فالله يربي القلب بكل ذلك.. ويفيض من عطاءاته - التي لا حدود لها - على هذا القلب، فيقربه ويغذيه. ولأن الله هو المربي الأول للقلب فإن النبي ﷺ كان يدعوه، يطلب منه أن يجعل في قلبه نورًا، وأن يهديه، وألا يزيغه، وأن يثبت قلبه، على دينه، وأن يصرف قلبه على طاعته، وأن يَسْلُلَ سخيمة قلبه، وأن ينقي قلبه من الخطايا..إلخ، الأدعية القلبية التي سنوردها في ثنايا هذا الكتاب، ولهذا أيضا كان الدعاء والتضرع لله.. وسيلة فاعلة في تربية القلب.

والنبي ﷺ في هذا أسوة كل مسلم ومسلمة .

والله يربي القلب بما يورده عليه من أنوار وفيوضات؛ إذا عبد المسلم له، ودعاه بأسمائه الحسنى.. كما سيتبين ذلك في فصل (تربية تجدد الإيمان في القلب).

المربي الثاني للقلب:

والمربي الثاني للقلب: هو محمد رسول الله ﷺ، بتجديد الإيمان به، ودراسة سيرته، وحديثه، بتفكر، وتأثر، وتأسي، وشوق، وحنين، ومحبة صحبته الروحية، ومحبته، والميل إليه، ولين القلب له، بهذا «يصير مع النبي ﷺ، من حيث معناه، يتربى قلبه معه ، وبين يديه، يصير يده في يده»[(١٢٧)] .

وهذه تربية بالتأسي والاقتداء، والتماس الإشعاع السلوكي من سيرة النبي ﷺ، وهي تقوم على: الحب، والإيمان، وحسن الصحبة، والاقتداء به، والمدارسة لأحاديثه في القلوب، والأخلاق.. ومحاكاته بوجداننا وأخلاقنا، وممارساتنا.

وتربية النبي ﷺ للقلب.. تكون: بالمحبة له، والحنين إليه، والصلة الروحية بأخلاقه، والتأسي بسيرته القلبية؛ فقلبه كان خير قلب، وأتقى قلب، وأنور قلب، وأصلح قلب، وأخشى قلب لله، وأوعى قلب، فقلبه كان دائما يقظان،

---

(١٢٧) المصدر السابق، ص ٢٠٦ .

تنام عيناه ولا ينام قلبه، وكان أنقى قلب، وأرق قلب، وأرحم قلب، وأخلص قلب لله، وهو القلب الذي غسلته الملائكة، وحشاه الله إيمانا وحكمة.. إلخ، ونكتفي هنا بما رواه أحمد والطبراني والبزار وغيرهم، وهذا لفظ أحمد، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: «**إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه**»(١٢٨). وفي رواية الطبراني: «**إن الله عز وجل اطلع في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وخصه- أو قال: بعثه- برسالته**»(١٢٩).

وسنعقد لهذا القلب النموذج فصلا نختم به كتابنا هذا؛ ليكون أمام المسلم، يتأسى به، ويقتدي، ويتربى .

المربي الثالث للقلب:

والمربي الثالث للقلب: هو المربي الصالح الذي سلك الطريق التربوي، فأصبح (وليا مرشدا)؛ أي: محبا لك، حريصا عليك، مراعيا لك، يرشدك للطريق القلبي الصحيح، ويجعلك تحبه، وتتأسى به، وتلتقط من حالاته القلبية، وانفعالاته الإيمانية، ويُعْدِيكَ في الخير .

هذا المربي ضرورة تربوية لا غنى عنها، سواء كان هذا المربي حيا معك، أو كان من السلف الصالح، فلابد من الشيخ المربي، في هذا المجال بالذات... فتربية القلب تحتاج لهمة قلب، وانفعال، وحال، وتأثير نفسي، ومعايشة..

---

(١٢٨) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٣، ط دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٥ م، رقم ٣٦٠٠، ص ٥٠٥.

(١٢٩) قال محقق المعجم الكبير: إسناد الحديث حسن، انظر: الطبراني: المعجم الكبير، ج ٩، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٥، حديث رقم ٨٥٨٢، ص ١١٢.

وتعويد، وتدريب.. ولا نَعْنِي بهذا أن نعيد نظرية (الشيخ والمريد)، وأن يكون المريد بين يدي الشيخ، كالميت بين يدي غاسله؛ فهذا (تمويت)، وليس تربية تحيي القلب، بل إماتة له، وإنما نعني: المربي الحقيقي الذي عرف الطريق التربوي، للقلب، وسلكه، وقطعَهُ، والتزم بقيمه ومعالمه، ومارس أساليبه، وعرف معوقاته، وعقباته؛ المربي الخبير، الذي يرشدنا ويوجهنا، ونحن يقظون مميزون، نقيس كل شيء على القرآن والسنة.

يقول الشيخ القدوة عبد القادر الجيلاني: «اصحب أرباب القلوب؛ حتى يصير لك قلب، لا بد لك من شيخ حكيم عالم بحكم الله ﷻ، يهديك ويعلمك، وينصحك»(١٣٠).

وإذا لم يوجد هذا المربي المرشد، الآن، فلا بد من دورات تدريبية لإيجاد عدد منهم.. **والمقصد**: أننا نقرر هنا أصلا تربويا؛ فالمربي ضرورة تربوية لمن يريد أن يتربى قلبيا.. فالتربية ليست نقل معلومة من عالم لغير عالم، فقط، إنها نقل حال، وخلق، وهمة، وانفعال، وصفات، وأذواق،.. إنها تغيير يحدثه المربي فيمن يربيه، في قلبه، في فكره، وعقيدته، ومشاعره، وأخلاقه وأذواقه، وعاداته، وسلوكه.. وأهدافه في الحياة.

فوجود المربي ضرورة.. فنتوجه للنبي ﷺ؛ أعني: لسنته، وسيرته، وأخلاقه، وأحواله، ونتوجه للمربين الصالحين في هذا المجال التربوي؛ لسلمان، وابن مسعود، والحسن البصري، وابن أدهم، والداراني، وبشر الحافي، وابن حنبل، والجيلاني، وابن تيمية، وابن القيم، وحسن البنا، وغيرهم، رحمهم الله جميعا، ونتوجه لمعايشة الصالحين، والحياة مع القدوات المربية من سير أعلام النبلاء، وحلية الأولياء، وصفة الصفوة، مثلا. ولنذكر قول ابن الجوزي: «فإذا نظر في سير القدماء زاحمهم وتأدب بأخلاقهم،.. وإنما كانت

---

(١٣٠) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، مصدر سابق، ص ٨١.

هذه سجية السلف؛ بخشيتهم الله عز وجل، وخوفهم منه، ومن نظر في سيرتهم تأدب.. وإنما يتقوم الإنسان بالرياضة ومطالعة سير السلف». وقد ذكرناه من قبل .

المهم أن يكون هناك قدوة ذات إشعاع سلوكي، نعرفها، ونحبها، ونعجب بها، ونتفاعل معها، ونحاكيها، ونستلهمها، ونتأسى بها في تربية قلوبنا؛ يقول عالم غربي: «إن معظم التربية الانفعالية تتم عن طريق الاقتداء،.. فيتعلم الطفل أن يفعل ما رآه. وعند تربية الوجدان تصبح الانفعالات هي الغاية والوسيلة»(١٣١) .

ومن اللازم أن يكون هناك مربون للقلب، كما هناك مربون للجسد، ومربون للعقل، ومربون للغة،.. إن حركة تربية القلب تتطلب آباء مربين، وأمهات مربيات، ودعاة مربين في كل مسجد، وحركة إسلامية .. ولازم إعداد هؤلاء عبر دورات تدريبية، مثلا، بدراسة هذا الكتاب، وممارسة ما فيه، خلال ستة أشهر، مع المتابعة.. والتقويم، فهذا - كما أرى - حد أدنى لإخراج هؤلاء المربين، الذين يوجهون، ويرشدون، ويفعلون.. ويمارسون هذا الجانب التربوي الخطير .

وأي مُرَبٍّ للقلب يلزمه دراسة طبيعة القلب وقوانين حركته، والأحوال التي تتعاقب عليه، ودراسة عقيدة الإسلام في القلب، وعلاقته بالله، والجسد، وكل ما حوله، وذلك من خلال آيات القرآن الكريم عن القلب والصدر والفؤاد، وأحاديث السنة الصحيحة - المضمنة في هذا الكتاب - وممارسة منظومة القيم والأخلاق والاتجاهات والمشاعر والانفعالات القلبية، في مفهومها الإسلامي، والوعي بأساليب تربية القلب، وأين نربي القلب؟ وَمَنْ يُرَبِّي القلب؟ وبماذا يربى القلب؟ وما معوقات ذلك كله؟ مثل الثقافة

---

(١٣١) دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

المغشوشة، والمفسدة للقلب، والصحبة الفاسدة،.. إلخ، والاهتمام بهذا المجال، والاقتناع بأهميته، والمرور بدورات تدريبية لممارسة هذا المجال (عدد محدود من الشباب- والفتيات - كل على حدة - لمدة شهر، ثم تقويم شامل في مجال القدرة على تربية الآخرين قلبيا، وهكذا)، (التدريب المصغر).

المربي الرابع للقلب:

والمربي الرابع للقلب؛ هو الشخص نفسه، من خلال المبادرة الذاتية والتقويم الذاتي، والوعي بأهمية بذل الجهد الذاتي لتربية القلب، والشروع في برامج التعلم والتثقف الذاتي، ووعظ القلب، من خلال جهد ذاتي منظم، فيعمل مثلما عملت، كما أشرت سابقا، فمثلا يدرس آيات القلب، ويفسرها بقلبه، ويدرس أحاديث القلب، ويشرحها بقلبه، ويمارس أساليب تربية القلب التي بثثتُها في هذا الكتاب، وجمعتها في منظومة متكاملة في هذا التمهيد، وهكذا. وهذا هو الأصل في عملية تربية القلب، أعني: تذويد تربية القلب من خلال دوام المجاهدة، والتقمص الوجداني، والمحاكاة الوجدانية الداخلية لما نتعلمه .

المربي الخامس للقلب:

والمربي الخامس للقلب: الصحبة الصالحة، الجليس الصالح، والعمل التعاوني التربوي، الجماعي، من خلال دَوْر الدعاة في المساجد، والمربين في حركات البعث الإسلامي؛ في حلقاتهم، وفي ندواتهم، في (لياليهم) التربوية، المضيئة، في مدارساتهم المشتركة، في اعتكافاتهم، في مجالس ذكرهم ووعظهم وخواطرهم، وزيارتهم الخلوية، ومعسكراتهم ودوراتهم التربوية، ورحلاتهم القمرية، والنهرية، والحقلية، ومحاسبتهم لأنفسهم، والروح الجماعية العذبة التي تسود جمعهم، ورحمة الله التي تنزل عليهم، والسكينة التي تحوطهم.

هذه هي (محاضن القلب المسلم) و(كتاتيب القلوب)، والصحبة التي تربي

العادات القلبية السليمة الصحية «والنفس تسكن إلى العادة بالمرء بين أية جماعة يكون، يعتاد أفعالهم، وللصحبة أثر عظيم في الطبع، وللعادة صولة صعبة».

وشرط الصحبة المربية: خلوها من البدع، واهتمامها بالتثقيف التربوي للعمل والممارسة (من المدارسة إلى الممارسة)، (ومن الوعي إلى السعي)، (ومن فقه اللسان والدماغ إلى فقه القلوب)، والصحبة بالأدب ومكارم الأخلاق، والجدية.. والاستمرارية، وجمع الهم على الهدف، والقدرة على التقمص الوجداني، وتثاقف المشاعر؛ «إن الانفعالات معدية، (...) نحن نلتقط المشاعر من بعضنا البعض» عن طريق محاكاة داخلية «وبهذه المحاكاة يعيد الأشخاص في داخلهم خلق هذه الحالات المزاجية للشخص الآخر»[١٣٢]. أي: التلبس بمشاعر الآخرين.

وكل فصل من فصول هذا الكتاب يمكن عمل صحبة تربوية حوله..، وعقد (ليلة تربوية) تنصب كلها عليه.

هذه الصحبة يمكن أن تتجمع حول عالم مرب للقلب، أو حول داعية مخلص، أو حول مسلم عادي رقيق القلب.. يمكن أن تكون حلقة في مسجد، أو في منزل.. تتناول هذا الكتاب، أو تقرأ القرآن لتعايشه، أو فصولا من حلية الأولياء.. إلخ، هذه هي كتاتيب القلوب، لنستمع إلى الشيخ القدوة، الجيلاني: يقول:

- «تعالوا يا عباد الله عز وجل، في الأرض، ويا زهادها، تعلموا شيئًا ما عندكم خَبَرٌ، ادخلوا كُتَّابي، حتى أعلمكم شيئا لا تجدونه عندكم».

- «للقلوب كتاب. وللأسرار كُتَّاب، وللنفوس كتاب، وللجوارح كُتاب».

---

(١٣٢) المرجع السابق، ص٢٣٦- ٢٣٨.

- «هي درجات ومقامات وأقدام معدودة: القدم الأول ما صح لك، كيف تصل إلى الثاني ؟».

- «أساس هذا الأمر: التوحيد، والثبات عليه بالأعمال الصالحة».

- «الأساس ما أَحْكَمْتَهُ؛ على أي شيء تبني..؟»(١٣٣).

- «قلوب المقربين ما تزال في كتاب القرب والعلم الخاص، يعلم قلوبهم وأسرارهم..»(١٣٤).

المربي السادس للقلب:

والمربي السادس للقلب: الفاعلون الثقافيون؛ الأئمة والخطباء والدعاة في المساجد، والإذاعات والقنوات الفضائية وشاشات الفيديو، والحاسوب، وكتاب الصحف، والمجلات، والكتب، والشعراء، وكتاب القصص، والمنشدون والحداة، والمؤدون للتواشيح، والملقون المتازون للشعر، وكبار العائلات، والأب، والأم.. والمدرسون في المدارس والجامعات، حين يكون كل هؤلاء صالحين، فإن دورهم خطير جدًّا؛ إنه صناعة وصياغة (ثقافة القلب) ثقافة المشاعر، المربية، وهؤلاء - جميعًا - يمكن أن يشكلوا بيئة، أو وسطا ثقافيا رائعا يَتَنَفَّسُهُ المسلمون، ويتشربونه، فتتربى قلوبهم .. حين يكتبون، أو يعقدون سلاسل منظمة في تربية القلب، سلسلة خطب أو دروس في المسجد عن القلب، سلسلة حلقات في برنامج على قناة فضائية إسلامية عن القلب، سلسلة (cds)، أو سلسلة متتابعة على (الشبكة)، سلسلة مقالات، سلسلة كتب، عن القلب، قصائد شعرية، أشرطة حداء وتواشيح مثل: أناشيد أبي مازن: ببابك لن أغادره * ولن أسعى إلى غيرك * سأنسج بالرضا قلبي * وأشرف أنني عندك * وأهتف في ضمير الفجر؛ (جبين الصبح) * حين يقال:

---

(١٣٣) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، مرجع سابق، ص ١٨٦.

(١٣٤) المصدر السابق، ص٢٣٣.

من ربك ؟ * إلهي خالق الأكوان * أشرف أنني عبدك).

ومثل أنشودة:

أحزان قلبي لا تزول حتـــى أبشر بالقبول

وأرى كتابي باليمـين وتقـر عيني بالرسول

وسلسلة أشرطة كاسيت أو فيديو عن القلب، (مثل سلـسلة الـشيخ أحمـد القطان عن القلب من كتاب إغاثة اللهفان)، مع تنويع هذه الـسلاسل، فهـذه سلسلة في تفسير آيـات القلـوب، وهـذه أخـرى في شرح أحاديـث القلـوب، وسلسلة في شرح كتاب مدارج السالكين، وسلسلة في سير أرقاء القلوب، من سير أعلام النبلاء ـ مثلا ـ وهذا يشدو بقصائد لإحياء القلـب، وهـذا يـسجل كتابي هذا بصوته ويذيعه في أشرطة، وهذا يعرض سلاسل من الورد والأزهار والطيور الملونة، ويبرز حكمة الله وعظمته في خلقه.. إلخ.

شيء هائل يمكن أن يقوم به كل هؤلاء؛ ليُكَوِّنـوا ثقافـة مربيـة للقلـوب، ووسطا اجتماعيا ثقافيا مشجعا وجاذبا لتربية الناس لقلوبهم، وإذا اجتمع هذا مع سلاسل مقالات وكتيبات وكتب عن قيم تربية القلب؛ فقد اكتملت دائرة الثقافة المربية للقلوب؛ فإذا كان هناك أب وأم واعيين تربويا.. فإنهما يوجهـان أولادهما للحياة في هذا الجو المربي، بل يوجدانه في منازلهم.

إذا يلزم صناعة وصياغة ثقافة القلب في وسط اجتماعي، وتعميمهـا؛ فـلا تربية للقلب بدون ثقافة القلب.

إن كل مسلم يمكن أن يكون مربيا للقلب؛ الشاعر؛ مثـل مـروان حديـد، والقاص؛ مثل نجيـب الكـيلاني، والداعيـة، والخطيـب، والكاتـب، والأب، والأم؛ التي تحكي لأولادها حكايات مربية، والصحفي، والمدرس، والمـذيع، والفنان، والممثل الذي يمكن أن يكون أكثر تأثيرا في قلوب النـاس، فتمثيليـة واحدة، أو فيلم، يمكن أن يكون أكثر فاعلية في تربية القلب من عشرة كتـب،

وكذلك قصيدة واحدة؛ مثل: أحزان قلبي لا تزول، ومقال واحد؛ مثل مقال حسن البنا: الرجل الذي لا قلب له، ومقال: القلوب الحية، المهم أن يدرك كل منا، وكل من هؤلاء، أهمية الموضوع، ونؤمن به وندرسه ونمارسه، كل في مجاله.

خامسا: منظومة الوسائط المتعددة لتربية القلب
(أين نربي القلب؟)

تربية القلب ذات طبيعة خاصة، فهي تحدث مع كل موقف أو تفاعل أو كلام يؤثر في القلب، ويحدث فيه تغييرًا في المعتقد، أو القيم، أو الاتجاه، أو الشعور، أو العاطفة، أو الإرادة والرغبة، تغييرا إيجابيا، وهذا التأثير في القلب يمكن أن يحدث من خلال الكلمة المسموعة أو المقروءة، ومن خلال المشهد والمنظر المرئي، مثل الشروق، أو وردة تتفتح في الصباح، أو قطرات الندى المتألق على أوراق النبات ساعة البكور، ومن خلال المشهد المتخيل، أو الفعل المؤثر في النفس، مثل إنقاذ ملهوف، وإطعام يتيم، والجلوس والصحبة مع مسكين، أو السعي على أرملة محتاجة، أو حمل مريض أو عاجز، ومن خلال الهمة والحال.. إلخ، ثم أخذ مسافة من هذه الأفعال والمشاهد والتأمل فيها.

فأين نربي ؟ سؤال. جوابه: في كل مكان، أو وسط اجتماعي أو طبيعي، يحدث فيه هذا التفاعل المؤثر في القلب.

ومن منظور الرؤية الإسلامية فإن هذه الوسائط هي:

أ ـ الأسرة في البيت والمسكن:

١ - ابتداء يبين سيد قطب الأهمية التربوية للأسرة، يقول: «والأسرة هي المحضن الصالح للفراخ الناشئة، لا تصح فطرتها، ولا تسلم تربيتها إلا فيه»(١٣٥). ويفصل هذا بقوله(١٣٦): «والأسرة القائمة على الزواج العلني.. هي أكمل نظام يتفق مع فطرة (الإنسان) وحاجاته الحقيقية، الناشئة من كونه إنسانا لحياته غاية أكبر من الغاية الحيوانية - وإن كانت تتضمن هذه الغاية في ثناياها - ويحقق أهداف المجتمع الإنساني، كما يضمن لهذا المجتمع السلم المطمئنة: سلم الضمير، وسلم البيت، وسلم المجتمع في نهاية المطاف(...) الطفل الإنساني

---

(١٣٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، مصدر سابق، ص ٢٢٢٤

(١٣٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، مصدر سابق، ص ٦٢٠، ٦٢١، ٦٤٨، ٦٤٩، ٦٥٠

يحتاج إلى فترة رعاية أطول من الفترة التي يحتاج إليها طفل أي حيوان آخر، كما أن التربية التي يحتاج إليها؛ ليصبح قادرا على إدراك مقتضيات الحياة الإنسانية الاجتماعية المترقية، التي يتميز فيها الإنسان، تمتد إلى فترة طويلة أخرى.

«وإذا كانت غاية الميل الجنسي في الحيوان تنتهي عند تحقيق الاتصال الجنسي والتناسل، والإكثار، فإنها في الإنسان لا تنتهي عند تحقيق هذا الهدف، إنما هي تمتد إلى هدف أبعد؛ هو الارتباط الدائم بين الذكر والأنثى، بين الرجل والمرأة؛ ليتم إعداد الطفل الإنساني لحماية نفسه وحفظ حياته، وجلب طعامه وضرورياته، كما يتم - وهذا هو الأهم بالنسبة لمقتضيات الحياة الإنسانية- تربية هذا الطفل وتزويده برصيد من التجارب الإنسانية والمعرفة الإنسانية يؤهله للمساهمة في حياة المجتمع الإنساني، والمشاركة في حمل تبعته؛ من اطراد الترقي الإنساني، عن طريق الأجيال المتتابعة».

«ومن ثم لم تعد اللذة الجنسية هي المقوم الأول في حياة الجنسين في عالم الإنسان (...) ولم يعد (الهوى) الشخصي هو الحكم في بقاء الارتباط بين الذكر والأنثى، إنما الحَكَم هو (الواجب).. واجب النسل الضعيف.. وواجب المجتمع الإنساني، الذي يحتم عليهما تربية هذا النسل إلى الحد الذي يصبح قادرا على النهوض بالتبعة الإنسانية وتحقيق غاية الوجود الإنساني (...) تنشئة أجيال تنهض بمقتضيات الحياة الإنسانية المترقية، وتحكيم مصلحة هذه الأجيال لا مصلحة العواطف الوقتية الزائلة.. إن الذي خلق هذا الإنسان جعل من فطرته (الزوجية).. وأراد بالتقاء شطري النفس الإنسانية.. أن يكون هذا اللقاء سكنا للنفس، وهدوءا للعصب، وطمأنينة للروح، وراحة للجسد... ثم سترًا وإحصانًا وصيانةً، ثم مزرعة للنفس وامتداد للحياة، مع ترقيها المستمر في رعاية المحضن الساكن الهادئ المطمئن، المستور المصون، (...) ونرجو أن يكون قارئ هذه الصفحة على ذكر مما سبق.. عن طفولة الطفل الإنساني، وطولها، وحاجته

في خِلالها إلى بيئة تحميه أوَّلًا حتى يستطيع أن يكسب رزقه للمعاش، وأهم من هذا أن تؤهله بالتربية إلى وظيفته الاجتماعية، والنهوض بنصيبه في ترقية المجتمع الإنساني، وتركه خيرا مما تسلمه حين جاء إليه» (...).

«إن الأسرة .. هي المؤسسة الأولى في الحياة الإنسانية، الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تؤثر في كل مراحل الطريق، والأولى من ناحية الأهمية؛ لأنها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني، وهو أكرم عناصر هذا الكون في التصور الإسلامي. (ثم بين أن الأسرة هي) المحضن الذي يرعى الناشئة، ويطبعهم بجوه، وأنفاسه وظلاله، وإيقاعاته»[١٣٧].

٢- ومن منظار تربية الانفعالات والعواطف والمشاعر، وهي جانب مهم من أبعاد تربية القلب، يبين دانيال جولمان أهمية الأسرة في هذه التربية، يقول: «تعتبر الأسرة أول مدرسة لتعليم الانفعالات. في هذه البوتقة الحمية نتعلم مشاعرنا تجاه أنفسنا، واستجابة الآخرين لهذه المشاعر، ونتعلم آراءنا عن هذه المشاعر، والاختيارات التي نقوم بها تجاهها، وكيف نتعرف على آمالنا ومخاوفنا، وكيف نعبر عنها».

ولا تعمل التربية الانفعالية فقط من خلال الأشياء التي يقولها آباؤنا أو يفعلونها لنا، لكن أيضا من خلال الاقتداء بطريقتهم في التعامل مع مشاعرهم الذاتية، والمشاعر التي تنشأ بينهما.

وهناك آباء موهوبون في تربية المشاعر، وآباء آخرون متوحشون.

«وقد وَجَدَتْ مِئاتٌ من الدراسات أن طريقة الآباء في معاملة أطفالهم؛ بالتهذيب الخشن، أو التفهم التقمصي ـ باللامبالاة أو الدفء، وغير ذلك - لها تأثير عميق ومستمر على الحياة الانفعالية للطفل، لكن حديثا فقط، بينت الدراسات الجادة أن وجود الآباء أذكياء المشاعر في حد ذاته، له فوائد كبيرة

---

(١٣٧) المصدر السابق، ص ٦٥٢

على الطفل، وتترك الطريقة التي يتعامل بها الأبوان مع المشاعر التي تنشأ بينهما، بالإضافة لتعاملهما المباشر مع الطفل - دروسًا مؤثرة لدى أطفالهم، فالأطفال متعلمون ماهرون، يتناغمون مع أكثر التبادلات الانفعالية خفاء داخل الأسرة»(١٣٨).

ويبين دانيال جولمان أن التعلم الانفعالي مهم في الخمس سنوات الأولى، وأن الأسرة مدرسة لتربية الانفعال، وأن الطفل العدواني الإشكالي له أب وأم يعاملانه بقسوة واستبداد، فيصبحون هم آباء قساة، فالأب القاسي قد تعرض هو نفسه أثناء الطفولة لمعاملة قاسية من أبويه. (وفكرة أن المخ نفسه يعاد تشكيله بالقسوة أو الحب، تدلنا على أن الطفولة تعبر عن نوافذ الفرص المهمة للدروس الانفعالية)(١٣٩).

ويبين أن الأسرة يمكن أن تربي قلوب أطفالها بتغذية مشاعرهم، وتشجيعهم على التعبير عن انفعالاتهم، وتعليمهم التمييز بين الانفعالات، وتدريبهم على التقمص الوجداني، وإكسابهم القدرة على تهذيب مشاعرهم، وحسن إدارتها(١٤٠).

ويبين دور الأسرة التربوي في بعض الانفعالات؛ مثل الاكتئاب والغضب.. إلخ، ودور الخبرات القلبية في الأسرة، وطريقة تعامل الأبوين، وتدريبهم على الأخذ بمنظور الآخر، والتقمص الشعوري.. يقول: «ليس من المحتوم على من ولدوا بنمط كئيب أن يقضوا حياتهم يتخبطون بين الهم والكآبة، فالدروس الانفعالية التي نتعلمها في الطفولة لها تأثير كبير على الطباع، سواء بزيادة أو خفض النزوع الفطري، فالطبع ليس قدرا، ويمكن ترويض اللوزة الشرسة؛ باستخدام الخبرات الصحيحة، وما يحدث هذا

---

(١٣٨) دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، مرجع سابق، ص ٣٨٠، ٣٨١

(١٣٩) المرجع السابق، ص٣٩٩، والمعطيات السابقة: ص٣٩٢ - ٣٩٩ .

(١٤٠) المرجع السابق، ص٣٨١ - ٣٨٩ .

الفارق هو الدروس الانفعالية التي يتعلمها الأطفال أثناء نموهم، وأهم شيء بالنسبة للطفل الجبان هو الطريقة التي يعامله بها أبواه، وبالتالي الطريقة التي يتعاملون بها هم أنفسهم مع جبنهم الطبيعي، والآباء الذين يدبرون خبرات مشجعة متدرجة لأطفالهم قد يساعدونهم على تعديل خوفهم طوال العمر،.. ليس هناك سمة بشرية بعيدة عن إمكانية التغيير.. إن الجينات لا تحدد سلوكا؛ لأن البيئة، خاصة ما نعيشه وما نتعلمه أثناء نمونا، تعدل من الطريقة التي يعبر بها نزوع الطبع عن نفسه، أثناء تكشف الحياة، فإمكاناتنا الانفعالية لا تورث، وإنما تتحسن من خلال التعليم المناسب..»(١٤١).

وهكذا، فإن الخبرات التي يكتسبها الأطفال في الأسرة تغير من انفعالاتهم ومشاعرهم، ولهذا يؤكد المؤلف على إدخالهم في هذه الخبرات، وتربيتهم بالتقمص، وغرس عادات انفعالية محببة ،ودعم ما يربي في الأطفال المهارات الانفعالية الأساسية، من البداية، ومحو أمية مشاعرهم(١٤٢).

٣- والمقصد أن نبين أهمية دور الأسرة في تربية القلب، بأبعادها الأربعة، من خلال الكلام، والتوجيه، والاقتداء، وطريقة التعامل، والتدريب، والتقمص الشعوري، وجو العلاقات في الأسرة،.. إلخ، إنها مكان رئيس؛ مدرسة لتربية القلب؛ من خلال التلاوة، والرحمة، والمدارسة، والحب، والعطف، والتوجيه التربوي الرحيم للأولاد؛ للعطف على اليتامى والمساكين، والصلاة، وذكر الله، ورحمة الجار، وحضور المواعظ، ومن خلال الجلوس معا؛ للتحدث، أو مدارسة حديث نبوي، أو سيرة أحد الصالحين، أو قراءة آيات من القرآن..، ومن خلال ما يسمع ويرى في الأسرة، ومن خلال الإشعاع الروحي السلوكي لأخلاق الأب والأم، والعلاقة الحميمة بينهما،

---

(١٤١) المرجع السابق، ص ٤٤٥- ٤٤٧، ٤٥٠، ٤٥١ .

(١٤٢) المرجع السابق، ص ٤٥٢ - ٤٦٠، ٥٢١ .

ومع أطفالهما، ومن خلال ما يذاع وما يعلق وما يشاهد في البيت.

والمهم أن يكون الأبوان على وعي بتربية القلب، وأهدافها، وأساليبها، وأن يهتما بذلك، وأن يدركا دوريهما في تربية طفل إنسان حي القلب والشعور والضمير.

ب ـ المسجد :

١- هو وسيط تربوي أساسي لتربية القلب المسلم؛ بجوه الروحي، والصلاة الجماعية، واستماع وتلاوة القرآن، وذكر الله، ودروس العلم، وخطبة وصلاة الجمعة، ولقاء المصلين.

وقد أصبح دور المسجد مهما في تربية القلب؛ بعد وجود التقصير في كثير من بيوت المسلمين، في مجال التربية عموما، ومن هنا فإننا نريد تعليق القلوب بالمساجد؛ لتصل قلوبهم إلى الله، (انظر: فصل: تربية القلب المعلق بالمساجد).

٢- وإذا كان الإمام مربيا صالحا؛ فإن عليه فرضا عينيا؛ أن يعقد حلقات ودورات وسلاسل خطب؛ في تربية القلب؛ من خلال تفسير آيات القلوب وأحاديثها، ويمكن اعتماد الكتاب الحالي لذلك، وقد تم تجريبه لأجل ذلك، مرتين، فنجح.

٣- وتربية القلب في المساجد ليست بهذا، فقط، بل، أيضا، بالروح التي تسري فيه، والطبيعة الروحية للمكان، والمشاعر التي تثيرها في القلب؛ فالمسجد يرقق القلب، ويفتح طريقه الصاعد إلى الله، وينزل السكينة على القلب، «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[١٤٣].

---

(١٤٣) رواه مسلم؛ عن أبي هريرة ﷺ؛ من حديث، قال: قال رسول الله ﷺ. انظر: القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، المجلد الثامن، مصدر سابق، حديث رقم ٢٦٩٩، ص١٩٥.

٤- وبما أن الأمر كذلك؛ فإن لدى المسلمين إمكانات ونوافذ رائعة؛ لتربية قلوبهم في المساجد المنتشرة في كل الأحياء، في المدن، والقرى، والعزب، والنجوع، والصحاري.

والدور الأكبر هنا يقع على الإمام، الذي يجب أن يكون معدا لنفسه، مربيا لقلبه، واعيا بهذه المهمة التربوية. ويمكن عمل دورات تربوية للأئمة ومدرسي المساجد؛ لتدريبهم على تربية القلب؛ إنها ضرورة ملحة، وفريضة ملزمة، وإسهام في الترقي الإنساني، والتغيير الجذري .

جـ- الحلقات التربوية وكتاتيب القلوب :

أعني: حلقات العلم القلبي، والمواعظ، والمدارسة، والتلاوة؛ سواء في المسجد أو في قاعات، أو بيوت، أو جمعيات خيرية، أو بيوت علماء صالحين، أو مكتبات إسلامية، أو شاشات فضائية، تنظم بقصد أن تكون دورات تربية روحية خلقية للقلوب، خصوصا إذا فتحنا قلوبنا لمن يشارك، وعاوناهم على أن يمارسوا بأنفسهم ما نتعلمه معا .

ويدخل في هذا الوسيط: حلقات الاستماع للقرآن وتفسيره، وإنزاله على القلب، وشرح الحديث النبوي، والاستماع للشعر الرقيق الصالح، وللمواعظ النافعة، ولسير أرقاء القلوب. وإذا ذكر الصالحون فحي هلا بعمر.

إن هذه الحلقات تربي؛ بما فيها من محتوى شعوري وروحي وعلمي، معا، فإذا اجتمع هذا مع صفاء قلب المربي، ورقته، ووعيه التربوي، وعلمه، وأسلوبه المؤثر، وهمته العالية؛ فقد حققنا وسيطا تربويا فاعلا وناجعا .

ويدخل في هذا الوسيط، أيضا، مجالسة أصحاب القلوب الحية، وحديثي العهد بتوبة، وأرقاء القلوب، المتعايشين مع القرآن والحديث والسيرة النبوية، وسير أهل القلوب الحية، والاستماع لقصصهم، وحديثهم، والتقاط المشاعر الحية منهم، ومحاكاتهم وجدانيا، وتمثل مشاعرهم. (انظر: فصل الطريق لتربية القلب الرقيق).

ويمكن تحويل بعض البرامج الفضائية لحلقات وكتاتيب لتربية القلب .

د ـ الكون المربي:

بسمائه وأرضه، ونجومه وشمسه وقمره، وليله ونهاره، وبحاره وأنهاره، وحقوله وزروعه، وحدائقه وطيوره، وجباله ووديانه، وصحاريه وغيطانه، وأشجاره ووروده، ومعايشة ساعات الإشراق حين يتنفس الصباح، وتدب الحياة في الكائنات، وتذوق ساعات الأصيل، وهمسات السحر، ومصاحبة الورد، وألوان الزهور، وتأمل مساقط المياه وألوان الطيور والعصافير والكتاكيت.

إن هذه الآيات مجالات رحبة بديعة لتربية القلب، وفتح نوافذ رائعة للقلوب: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. يقول سيد قطب: «والنظر بالقلب المفتوح والعين المبصرة في هذا الملكوت الواسع الهائل العظيم يكفي وحده لانتفاض الفطرة من تحت الركام، وتفتح الكينونة البشرية لإدراك الحق الكامن فيه، والإبداع الذي يشهد به، والإعجاز الذي يدل على البارئ الواحد القدير.. والنظر إلى ما خلق الله من شيء ـ وكم في ملكوت السماوات والأرض من شيء ـ يدهش القلب.. ويلجئ العقل إلى البحث عن مصدر هذا كله، وعن الإرادة التي أوجدت هذا الخلق على هذا النظام المقصود والمشهود»(١٤٤).

والتوجيه للكون أسلوب تربوي قرآني في تربية العقائد الصحيحة، والمشاعر الإنسانية، ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤] يقول سيد قطب: «والقرآن يوجه القلب إلى هذه المشاهد، التي ذهبت الألفة بوقعها المثير؛ ليواجه القلب هذا الكون - دائما - بحس جديد، وانفعال

(١٤٤) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٣، مصدر سابق، ص١٤٠٥

جديد، فعجيبة الليل والنهار كم شاقت القلب البشري، وهو يتأملها أول مرة، وهي هي لم تتغير، ولم تفقد جمالها وروعتها، إنما القلب البشري هو الذي صدئ وَهَمَدَ، فلم يعد يخفق لها، وكم ذا نفقد من حياتنا، وكم ذا نخسر من كمال هذا الوجود حين نمر غافلين بهذه الظواهر، التي شاقت حِسَّنا وهي جديدة، أو وحِسُّنا هو الجديد! والقرآن يجدد حِسَّنا الخامد، ويوقظ حَوَاسَّنا المَلُول، ويلمس قلبنا البارد، ويثير وجداننا الكليل، لِنَرْتَادَ هذا الكون دائما كما ارتدناه أول مرة، نقف أمام كل ظاهرة نتأملها، ونسألها عما وراءها من سر وقيمة، ومن سحر مكنون، ونرقب يد الله تفعل في كل شيء من حولنا ونتدبر حكمته في صنعته، ونعتبر بآياته المبثوثة في تضاعيف القلوب.. إلخ»(١٤٥).

إن الكون وسيط تربوي فاعل؛ إذا تفتحت قلوبنا له. ويتم ذلك: من خلال الخروج في رحلات تأمل وتغذي روحي، في هذه الطبيعة، ومشاهدها التي خلقها الله، حتى ساعة نزول المطر، هي ساعة فرحة للقلب، إنه حديث عهد بربه، رحلات وزيارات لِزَنَابِقِ الله، ومصاحبة لكونه، وحقوله، وتفكر، وتفاعل، وتغذية للقلب بالإيمان الحي، والمشاعر الذواقة المتدفقة.

رحلة لنهر، أو بحر، أو بحيرة، أو جدول، أو قناة، أو شلال، أو مسقط مياه.. في ساعة شروق أو أصيل، حيث تلتقي أشعة الشمس الحانية مع المدى الممتد من المياه، لتُكوِّن في القلب شعورًا بالأبدية.. رحلة مثل هذه، هي تربية للقلب، تصفية، تهذيب للمشاعر «ليست مهمة الأنهار: الري، فقط، ولكن مشهدها والماء يجري فيها يثلج الصدور، ويشرح النفوس،.. والناس يحاولون الآن إنشاء برك صناعية؛ لما للماء من روعة وتأثير»(١٤٦).

---

(١٤٥) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، مصدر سابق، ص٢٥٢٣. وانظر: المجلد الثالث، ص١٧٦٥-١٧٦٧.

(١٤٦) يوسف القرضاوي: تفسير سورة الرعد، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

رحلة للحقل الأخضر بالفول أو القمح، أو البرسيم.. وللسهول.. رحلة بين الأشجار والزروع، رحلة في ضوء القمر، رحلة لحديقة، وتأمل شجرات الورد، وألوان الطير، مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله».. مع تأمل، وتذوق، وتفتح قلبي، واندماج روحي، مع زنابق الله، في حقول الله، وجمال كونه، وعجائب مخلوقاته، هي رحلة لتربية القلب الإنساني، وتهذيبه .

لقد جربت هذا بنفسي، مرارا.. وما أروع أثره ! وما أصدق كلام سيد قطب: «فالقلب المؤمن هو القلب الشاعر ببدائع الخلق والتكوين، المدرك لما فيها من روعة باهرة تهز المشاعر، وتستجيش الضمائر، وهو يعبر عن إحساسه بروعة الخلق: بالإيمان، والعبادة، والتسبيح. والموهوبون من المؤمنين هبة التعبير قادرون على إبداع ألوان شتى من رائع القول في بدائع الخلق والتكوين، لا يبلغ إليها شاعر لم تمس قلبه شرارة الإيمان المشرق الوضيء»(١٤٧).

إن هذه خبرات عميقة ترقي القلب الإنساني، ومن الضروري التخطيط، ونحن نربي القلب، لإدخال أنفسنا ومن نربيهم، في هذه الخبرات المؤثرة المربية لإيماننا، وأخلاقنا، ومشاعرنا، وانفعالاتنا، وذوقنا الجمالي .

هـ - برازخ الآخرة:

بالتفكر فيها، وفيما تخفيه، وفيما وراء الموت، (انظر: فصل الطريق لتربية القلب الرقيق)، والخلوة؛ حيث تتعرى المشاعر، وَتُقْرَأُ الذات. والاعتكافات؛ حيث يأخذ الإنسان مسافة من حياته، ومن دنياه؛ ليتأمل، ويراجع، ويفكر، ويُقَوِّمُ ذاته، ويجدد قلبه ويحدثه، عن الله، (وأخرُجُ من بين البيوت لعلني أحَدِّث عَنْكَ النَّفْسَ فِي السِّرِّ خَاليا)، يقول الجيلاني: «الخلوة عبارة عن التَعَرِّي؛ من حيث القلب، عن جميع الأشياء، يتعرى باطنك؛ فيكون متجردا،

---

(١٤٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، مصدر سابق، ص٢١٨٦.

بلا دنيا ولا آخرة، ولا ما سوى الحق عز وجل، في الجنة»(١٤٨).

، وهذا الوسيط تأثير قوي في القلب، وقد جربته مرارا، وإذا صاحب هذا الوسيط قراءة للقرآن، أو لكتاب مناسب، أو لذكر الله.. وجمع الهم القلبي.. فإنه فاعل جدا في ترقيق القلب.. سواء في زيارة القبر، أو الخلوة والاعتكاف.

(من تجاربي المؤثرة في قلبي، ومن معي: قراءة كتاب التوهم للمحاسبي، ونحن جالسون في خلوة، أمام قبر، مع التفكر العميق فيه، بمصاحبة ما نَحُسُّهُ وما نراه، مدارسة كتاب التوحيد في ليالي الاعتكاف، مدارسة أحاديث القلوب في ليالي الاعتكاف، مدارسة الأخلاق القلبية والاجتماعية في ليالي الاعتكاف، في سنوات متتابعة، وبإجماع الحاضرين كانت ذوات تأثير إيجابي قوي).

و- المدارس والمعاهد:

من خلال دروس عن العقائد الإيمانية؛ بالمنهج القرآني، ودروس عن أخلاق القلب ومشاعره وعواطفه وانفعالاته، ومن خلال مناخ تربوي قلبي مؤثر، ونشاط تربوي متنوع هادف لتربية القلب، (كلمات صباح، أناشيد، ندوات، مسرحيات عن أخلاق القلوب..).

يقول دانيال جولمان: «مع التخلي المتزايد للأسر عن القيام بدورها في تثبيت أقدام الأطفال في الحياة؛ أصبحت المدارس هي المكان الوحيد (هو يتحدث عن أمريكا) الذي يتعلم فيه الأطفال الكفاءات الانفعالية والاجتماعية.. فهي القادرة أن تمنح الأطفال الدروس الأساسية للحياة، التي قد لا يتعلمونها في مكان آخر. وَتَضَعُ ثقافة المشاعر عِبئاً كبيرا على المدارس لتعويض تقصير المنازل عن تعليم الأطفال المهارات الاجتماعية، وهذا العبء الهائل يتطلب نوعين أساسين من التغيرات:

(١٤٨) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، مصدر سابق، ص ١٨٤.

- أن يتجاوز المدرسون مهمتهم الأساسية.
- وأن يشارك أفراد المجتمع في الجهود المدرسية.

وليس من المهم أن تكون هناك فصول مخصصة لثقافة المشاعر، بقدر أهمية الطريق التي يتناول بها هذه الدروس»[١٤٩]. ويذكر جولمان مجموعة من الشروط؛ لتقوم المدرسة بدور فاعل في تربية القلب؛ تربية المشاعر والانفعالات، هي :

١- أن يكون المدرس منذ البداية محبا للحديث عن المشاعر .

٢- أن يكون متدربا على الطرق المستخدمة لتربية الانفعالات، وعلى تقديم دورات في ثقافة المشاعر.

٣- توسيع نظرتنا لمهمة المدارس ذاتها؛ فهي وكالة اجتماعية تعمل صراحة على تعليم الدروس الأساسية للحياة، وهذا يتطلب تغيرات أساسية في المناهج، واستغلال الفرص داخل الفصول وخارجها لمساعدة الطلاب على تحويل لحظات الأزمات الشخصية إلى دروس في الكفاءات الانفعالية، والتنسيق بين الدروس التي يتعلمها الطلاب في المدرسة، وما يحدث في المنزل، وتنظيم فصول للآباء ليتعرفوا على ما يتعلمه أبناؤهم، والعلم، ليس في الفصل وحده، بل في الملعب، والكافيتريا، والمنزل، كل ذلك يعني تضافر جهود المدرسة والآباء والمجتمع المحلي، مما يؤكد أن الدروس التي يتعلمها التلميذ في حصص ثقافة المشاعر لن تبقى حبيسة جدران المدرسة، ولكن ستختبرها وتصقلها تحديات الحياة الفعلية. وأن تكون المدرسة والجامعة والسكن مجتمعات رعاية؛ يشعر فيها الطلاب بالاهتمام والاحترام والارتباط.

٤- البدء من عمر مبكر، وبما يتناسب مع المراحل العمرية، والاستمرار طوال سنوات الدراسة .

---

(١٤٩) دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، مرجع سابق، ص ٥٦٠.

٥- مواجهة المعوقات؛ مثل نقص تدريب المعلمين (في تربية القلب)، شرود المدرسين عن تخصيص وقت في المدرسة لتدريس موضوعات قلبية (بعيدة عن مقرراتهم)، اعتراض بعض الآباء والطلاب على هذه الموضوعات؛ باعتبارها بعيدة عن الشواغل الدراسية الأساسية.. إلخ.

٦- التربية الخلقية من خلال ثقافة المشاعر، وغرس التهذيب الذاتي من خلال ممارسة الطلاب بأنفسهم(١٥٠).

ويعقب جولمان على ارتفاع نسبة جرائم القتل باستخدام أسلحة آلية من الطلاب المراهقين من سن ١٤-١٥ سنة، بقوله: «إننا كمجتمع لا ننشغل كثيرًا بالتأكيد على تعليم الأطفال أساسيات التعامل مع الغضب، وحل المشكلات بطرق إيجابية، كما لا ننشغل بتعليمهم التقمص، أو التحكم بالاندفاع، أو أيٍّ من الأسس الأخرى للكفاءة الانفعالية، وتركنا الأطفال يتعلمون الدروس الانفعالية الأساسية بالصُّدْفَةِ؛ لنضيع على أنفسنا نافذة الفرص.. ولا يوجد بالطبع عَمَلٌ.. قادر وحده على حل كل المشكلات، لكن بالنظر للأزمات التي يتعرض لها أطفالنا، وبالنظر كذلك لحجم الأمل الذي تقدمه دورات ثقافة الانفعال، يحق لنا أن نسأل أنفسنا: ألسنا في حاجة أن نعلم كل الأطفال هذه المهارات الضرورية للحياة الآن، أكثر من أي وقت مضى ؟ إذا لم يكن الآن؛ إذن، متى ؟»(١٥١).

بلى! نحن محتاجون لإعادة النظر في تعليمنا الرسمي؛ في المقررات والأنشطة والبناء المدرسي، وإعداد المعلم.. إلخ، لنعيد صياغته؛ لتكون مؤسساته بيئات تربوية تربي قلوب وعقول وجسوم وأرواح وأخلاق الناشئين والناشئات .

---

(١٥٠) المرجع السابق، ص ٥٦١ ـ ٥٦٤، ٥٧٢ ـ ٥٧٣.

(١٥١) المرجع السابق، ص ٥٧٥.

إن المدرسين هم مربون للقلوب أيضا، ويجب أن يُعَدُّوا ويُدَرَّبُوا لينجحوا في ذلك.

ز- المعارض والمتاحف المربية للقلوب؛ والوسائط الأخرى:

مثل معارض تنسيق الزهور، واللوحات الفنية التجريدية؛ المؤثرة في النفس، ولوحات التعبير عن جمال الطبيعة، ومتاحف الأحياء المائية، والمتاحف الزراعية.. إلخ .

ويمكن أن تكون شاشة الحاسوب، والفيديو، وخشبة المسرح، و(صالونات) الأدب، ومهرجانات الشعر، وسائط مهمة لتربية القلب، ويمكن للمسلم أن يلتقط منها ما يربيه، إذا انعدم شرها، وهذا لا يتم- بداهة- إلا إذا أنشأنا مجتمعا مسلما يوجه كل تلك الوسائط لتربية الإنسان الإنسان.

ويمكننا، الآن، أن نوظف ذلك لتربية القلب؛ من خلال عمل مخطط له، ومنظم، لإنشاء مواقع على الشبكة؛ لتربية القلب، أو لتوجيه أصحاب المواقع الإسلامية؛ لوضع مواد منهجية، وجذابة، لتربية القلب، وطبع اسطوانات CD خاصة بتربية القلب، وعرض برامج فضائية عن عالم النبات، والزهور، والأسماك، والأفلاك، والطيور، والحيوانات، وأنواع الأشجار والغابات والفواكه، مشبعة بالمناظر الطبيعية الحية، ومصحوبة بتعليقات علمية روحية إيمانية عليها.

وتنظيم وإقامة (مهرجانات شعرية) عن القلب ومشاعره؛ مهرجانات تعلو فيها لغة القلب، وصوت القلب الإنساني الذي يعاني آلام العالم وآماله.

ونشر مقالات، وقصائد، وقصص، وصور طبيعية، تخصص لهذا المحور التربوي .

إن تربية القلب، كما هي عمل وجهد ذاتي، هي، أيضا، فعل اجتماعي جمالي منظم وشامل.

سادسا: منظومة الأساليب التربوية للقلب
(بماذا نربي القلب ؟)

أعني بالأسلوب: الآلية التي يستخدمها المربي، في وسيط تربوي، ما، ليكسب من يربيه جزءا من أهداف تربية القلب.

فالأسلوب: هو الممارسة أو النشاط الذي يقوم به المربي، سواء بنفسه لنفسه، أو لغيره، من أجل التأثير والتغيير في القلب، ونقل شيء ما إليه.

وتربية القلب - كما قلنا - ذات طبيعة خاصة؛ فلها أساليب تربوية خاصة، يمارسها الفرد مع نفسه، وأساليب يمارسها مع غيره .

ومن خلال الاستقراء لعمليات تربية القلب عند الرسول ﷺ، وعند المربين الصالحين، كما فصلناها في هذا الكتاب، تبين أن أساليبها تشكل منظومة تجيب عن سؤال: كيف نربي القلب ؟ وبماذا نربيه ؟ وهي:

أ- تلاوة القرآن الكريم، والاستماع إليه: بالتفكر، والتأثر، والفهم، وإنزاله على القلب؛ ليصبغه ويصنعه، ويغذيه وينميه، وترسيخه في العقل؛ ليشكله ويوجهه، والشعور بأنه كلام رب العالمين، المحبوب، والعزم على العمل به. ومدارسة تفسير آيات القلب، وآيات أسماء الله الحسنى، ومشاهد القيامة، وآيات الجزاء..، وآيات الطبيعة، و آيات الأخلاق، وآيات التوحيد.. إلخ؛ بالعقل والقلب.

وذلك من خلال أوراد منظمة؛ للقراءة، والحفظ، والدراسة، والقيام به، وأوراد السور، والمدارسة الفردية والجماعية، بحيث لا يمر يوم بدون ورد من هذه الأوراد؛ ليلا أو نهارا، ومن خلال ممارسة آداب التلاوة. ومن خلال الاستماع لقارئ خاشع فاهم، مباشرة، أو عبر شريط مسجل، مع التمعن، وإجراء ما نستمع إليه على القلب.

ب- ذكر الله بالقلب واللسان: لتثبيت الذكر في القلب، وتقويته، وبالتفكر

في الذكر، والتأثر، والتفهم، والشعور بمعنى الذكر؛ بالتهليل، والتحميد، والتكبير، والتسبيح، والاستغفار، بالندم، والشعور بالتقصير، وبالتفكر في دلالات أسماء الله الحسنى، وفي نعمه، مع استصحاب اليقين في ذلك كله، وذكر الذنوب، والمصير، والترديد بالقلب: أنا مودع، أنا ميت، أنا مبعوث، أنا محاسب، أنا مجازى؛ بالجنة أو بالنار، أنا عبد الله، الله ربي، الله مطلع علي، الله محاسبي..، وبحضور مجالس الذكر والتذكير، في بيوت الله، وفي المنازل، وقراءة أذكار الصباح والمساء، بخشوع، وتفكر، وقراءة كتاب الذكر في صحيح مسلم، والأذكار للنووي، وتحفة الذاكرين للشوكاني، وصحيح الكلم الطيب ، والمأثورات، في ذكر الله تعالى، مع الاستغفار، والتضرع، والصلاة والسلام على محمد رسول الله .

فهذا كله أسلوب تربوي فعال جدا في تربية القلب، والعقل، والإيمان، والخلق. خصوصا وقت الصباح والمساء، وفي السحر، وعند نزول المطر، وعند رؤية الهلال، وعقب الصلوات.. إلخ .

جـ- قراءة ومدارسة أحاديث النبي ﷺ ومعايشتها بالقلب: خصوصا أحاديث القلوب، والترغيب والترهيب، الصحيحة والحسنة، وأحاديث الأخلاق القلبية، وسيرة النبي، ﷺ، وآيات نبوته، وشمائله، وأخلاقه، ومصاحبته روحيا، والإعجاب به، وحبه، والحنين إليه، والتشوق للاتصاف بما يحبه من الأخلاق، والتأسي به، وتقمص الأخلاق التي رغب فيها، مع الصلاة والسلام عليه.

إن هذا أسلوب تربوي فعال جدا في تربية القلب، وقد جربته، ومارسته، وأمارسه؛ فهو مرقق للقلب بشكل قوي، خصوصا كتب الإيمان والتوحيد والرقاق والأخلاق، ووصف الجنة والنار، من كتب الحديث، وكل حديثه طيب.

د- مصاحبة الصالحين؛ أرقاء القلوب، والرحماء، والتقاط قيم ومشاعر

القلب منهم، ومصاحبة سيرهم، وقراءتها بحب وشوق وعشق، لأخلاقهم وأحوالهم القلبية الإنسانية، مثل دراسة: حلية الأولياء، وصفة الصفوة، وسير أعلام النبلاء، وطبقات الصوفية للسلمي ..

هـ - **التقويم الذاتي**: بمحاسبة الذات، ومراجعتها، ونقدها، ومفاتشتها، وكشف ما ترسب فيها من مفاهيم وأفكار وموجهات، وإخراجه إلى حيز الوعي، وإجراء التعديل أو التغيير أو التقويم اللازم عليه. وذلك من خلال جداول منظمة للتقويم الذاتي، والمحاسبة، عن التزام كل قيمة من قيم القلب، وكل عقيدة من عقائده، وكل عاطفة وشعور وانفعال؛ بالتقويم الذاتي، أو بمعاونة المربي.

و- **التفكر والاعتبار**: في آيات الله في الكون، والنفس، والمجتمع، وفي آيات الله في القرآن الكريم، وفيما بعد الموت، وفي المرض والعافية، وفي كل ما نقرأ، وفي كل ما يحيي القلب، ويربيه؛ تفكرا فرديا وجماعيا.

ز- **مداومة ذكر الموت**، وما بعده: من حياة برزخية، ومن نعيم أو عقاب، وذكر البعث والحشر، والجزاء، وأحوال أهل الجنة، وأهل النار. وزيارة القبور، والمشي في الجنائز؛ مع التفكر، والتوهم، والتقمص الشعوري لما نتوهمه ونتفكر فيه، ووضع الذات في سيرة مستقبلية؛ تنتهي بدخول الجنة أو النار، عياذا بالله من ذلك. يقول الجيلاني: «والتفكر في الآخرة علم وحياة للقلب»(١٥٢). ويقول: «أدن قلبك من الذكر، وذكره يوم النشور. تفكر في القلوب الدوارس، تفكر كيف يحشر الحق - عز وجل - جميع الخلق، ويقيمهم بين يديه، إذا دمت على هذا التفكر؛ زالت قساوة قلبك، وصفا من كدره»(١٥٣).

---

(١٥٢) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، والفيض الرحماني، مصدر سابق، ص ٢٥.
(١٥٣) المصدر السابق، ص ١٨٢

ودراسة عقيدة البعث والجزاء والحياة الآخرة، دراسة مفصلة، من القرآن، ومن الحديث الصحيح، واليقين فيها، ومعايشتها، بالوعي والعاطفة، وذلك من كتب، مثل: اليوم الآخر في ظلال القرآن، أبواب الجنة والنار، من صحيحي البخاري ومسلم، والمنتقى من الترغيب والترهيب ، والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير، والإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة، لصديق حسن خان .

ويساعد على فعالية هذه الآلية: عيادة المرضى، وزيارة المستشفيات، وحضور بعض الذين يسلمون الروح، ويا له من موقف مؤثر لا يمحى من القلب !

ح- **التأمل في معاني أسماء الله الحسنى**، والتعبد بدلالة كل اسم منها، تعبدًا يليق به، وإحضار دلالاتها في القلب، وتكرار ذلك؛ حتى يشهده القلب، مثل: الله خالقي.

الله رازقي.

الله مُشَرِّع لي.

الله يراني.

الله عليم بي.

الله قائم على نفسي بما كسبت.

الله يحاسبني يوم القيامة.

الله قادر عَلَيّ.. إلخ.

ترديد ذلك على القلب حتى يتأثر، ويتيقن ويخشع، ويشعر.

ويعين على ذلك دراسة كتاب الأسنى للقرطبي، المجلد الأول ـ فقط ـ والدعاء بأسماء الله الحسنى، والتخلق بالأخلاق التي تشتمل عليها.. فهذا كله داخل في حديث: «**من أحصاها دخل الجنة**»، كما سيأتي مفصلا في فصل: «تجديد الإيمان في القلب».

ط- مداومة قراءة، ودراسة بعض الكتب التي تربي القلب، قراءة نقدية، نقرأ من خلالها عالمنا القلبي، ونصحح ذواتنا، وعالمنا، ونحن نقرأ، مثل: الرقة والبكاء، لابن أبي الدنيا، الرعاية لحقوق الله، للمحاسبي، وعامة كتبه الأخرى، الفتح الرباني، وفتوح الغيب، للجيلاني، وكتب ابن تيمية: العبودية، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، أمراض القلوب وشفاؤها، التحفة العراقية في الأعمال القلبية، قاعدة في المحبة، وكتب ابن القيم: مدارج السالكين، إغاثة اللهفان، طريق الهجرتين، كتاب الرقاق، من صحيح البخاري، المنتقى من الترغيب والترهيب، السيرة النبوية، لابن كثير، المعجزات الأحمدية، لبديع الزمان النورسي، حلية الأولياء، العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، لابن عبد الهادي، الأعلام الزكية، للبزار، وأشباه ذلك.

وتكرار القراءة، والتثقيف الذاتي، والتغذي من هذه الكتب وأمثالها، يرسخ ما نتعلمه في النفس، ويثبت المعنى في القلب، سواء كانت دراسة فردية أو جماعية، أو ثنائية، مع حسن الصحبة، وجمع الهم، والمعايشة بالقلب لما يقرأ، وغرس العلم الذي نحصله في القلب، والتفكر والتبصر العميق فيه؛ ففقه اللسان بلا عمل القلب لا يدنيك من الحق خطوة؛ فالسير سير القلب، كما أخبرنا الجيلاني، وكما روي في حديث جابر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**العلم علمان: علم في القلب، فذاك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذاك حجة الله على ابن آدم**»(١٥٤). فالعلم إذا وقع في القلب، ورسخ فيه؛ نفع؛ أي: كان علما مربيا للقلب.

---

(١٥٤) المصدر السابق، ص ١٨٢. يوسف القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، الجزء الأول، مرجع سابق، حديث رقم ٥٥، ص ١١٧. (قال الحافظ المنذري: رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه؛ بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم عن الحسن؛ مرسلا، بإسناد صحيح. وقال القرضاوي: وجود الحافظ العراقي إسناده في تخريج إحياء علوم الدين، وقال السمهودي: إسناده حسن).

ي- **مصاحبة ومعايشة السالكين إلى الله**؛ من أهل العلم والتقوى والرقة، والمواظبة على حضور مجالسهم، والاستماع إليهم، والاقتداء بأحوالهم، وهممهم، وطلب الموعظة منهم، مع توقير وتأدب، وصحبة من يربيك حاله، ويرغبك في الخير مقاله، والتعاون، معا، في ذلك، فالمشاعر معدية، ونحن نلتقط المشاعر والقيم والانفعالات من بعضنا.

ك- **قيام الليل**؛ لمناجاة الله، فرديا وجماعيا، والركوع والسجود بخشوع بين يديه، وهذا من طعام القلب وشرابه، وذلك بشكل دوري، ومخطط، بحيث يشتمل القيام على قراءة أجزاء من القرآن، بقصد التعبد لله، وتربية القلب، وذلك حسب كل قيمة وعاطفة نريد تربيتها؛ فنقرأ آياتها؛ بتفكر. وعلى استغفار بالأسحار، ومناجاة لله في وقت النزول الإلهي؛ في الثلث الأخير من الليل، حين ينادي: من يدعوني..؟ من يسألني..؟ من يستغفرني..؟ وعلى محاسبة للنفس في صمت السحر، وعلى درس روحي، يرقق القلب، وعلى تذوق شعوري للحال كله.

ويمكن توظيف الاعتكاف، والتهجد الجماعي، وهو جائز شرعا، لتربية القلب بهذا الأسلوب.

إن هذه الآلية التربوية تجعل القلب مع الله: واحدا لواحد، وجها لوجه، محبا لمحبوب، طالبا لمطلوب، ذاكرا لمذكور عظيم عليم بذات الصدور.

ل – **المعسكرات التربوية، والدورات الروحية**، المخصصة لتربية القلب، بنظام ومنهجية، بحيث تشتمل على: صلوات، وأذكار، وقراءة للقرآن، ولأحاديث نبوية، ودرس علمي، وتفكر، ومحاسبة، وتهجد لله، واستغفار وقت السحر، ومعايشة لروح اللقاء، ومشاعره الفياضة.

م – **الرحلات التربوية القلبية المنظمة**؛ لزيارة الحدائق، والأنهار، والبحار، والمناطق الخلوية، وتأمل القمر، ولحظات الشروق والغروب، والورد،

والطيور، والأشجار، والحقول الخضر، وتذوق جمال الكائنات والمخلوقات، وعظمة وجمال صنع الله، هذه هي (رحلات قراءة العالم)، التي يجب أن تتزامل وتتزاوج وتتكامل مع رحلات (قراءة الكلمة)، ورحلات النظر في العواقب، ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [فاطر: ٤٤] بحيث نعقل ما نراه، وما نفحصه، وما نتأمله، وما نسمعه، ونفقهه، ونتذوقه بالقلوب، وندمج القلب فيما نتملاه ونذوقه ونشعر به.

ن – **تذوق الشعر والقصص المؤثر**: وخصوصا شعر الحب الإلهي، والحب النبوي، والشعر الذي يصف آلام البؤس واليتم والضعف والوجع، وعناء الوجود الإنساني في العالم، والشعر الذي يفصح عن جمال الورد والطير والبحر والشروق، وقطرات الندى على ورق الشجر، وعالم الحيوان في الطبيعة، ومعاناة الوجود كله، وكذلك القصص المعبر عن ذلك؛ مثل: رحلة إلى الله، ومملكة البلعوطي، لنجيب الكيلاني، وقصة: لغة الآي آي؛ ليوسف إدريس.

سواء بالقراءة المتذوقة، أو الاستماع، وبالاندماج القلبي فيما نتذوقه، والشرب الروحي منه.

ومن المهم توفير مجموعات شعرية؛ مثل: منتخب من أشعار حسان، وابن رواحة، ومروان حديد، ويوسف القرضاوي، وهاشم الرفاعي، وعبد الله شمس الدين، وشعراء الدعوة في العصر الحديث، ومنتخب من روائع الشعر العربي كله. والتوجيه لقراءتها، وتذوقها، أو الاستماع إليها من أصوات شجية، وإنشادها، وتسجيلها على اسطوانات، وتعميمها، مثل شرائط أبي مازن.

إنني تربيت على مثل هذا، أيضا، تربية لا تمحى من القلب.

س – **ممارسة الخيرات وأعمال البر**، التي لها تأثير قوي في القلب؛ مثل: الصيام التطوعي، صلاة الجماعة في المساجد، حضور مجالس العلم النافع، التصدق على المحتاجين، مجالسة اليتامى، والأكل معهم، والمسح على

رؤوسهم، معاونة المساكين في السر، زيارة المرضى، والانخراط، عموما، في خدمة الضعفاء والمحتاجين والملهوفين، والشعور بآلام المهمشين والبائسين والمصابين، وهمومهم.

كل ذلك يكسب القلب مشاعر وقيما إنسانية رقيقة، ويرسخها في القلب.

ع - **الممارسة العملية لقيم القلب، والتعود عليها**: فكل قيمة نتعلمها؛ نشرع في ممارستها؛ فالممارسة ترسخ القيمة، وتثبتها، وتعمق الاتصاف بها، خصوصا إذا آمنا بها، وذودناها، وأدمجناها في (ذات الصدور)، بحب، وعشق، واشتهاء، حتى تصبح خلقا راسخا للقلب، يصدر عنه السلوك بعفوية وتلقائية. والمداومة على ذلك، وإثابة النفس؛ إذا نجحت في التمسك بالقيمة في المواقف الحرجة، وذلك بحسن تصورها للقيمة، وإرادتها، وتكلف العمل بها، حتى تتعودها، والتشجيع الذاتي المستمر؛ حتى تتغير الصفات القبيحة وتنتقل إلى الأخلاق القلبية الإنسانية، وتصير أخلاقا راسخة في النفس.

ف - **الدعاء والتضرع لله**: فهو تذكير للقلب، وتعميق للمعنى المدعو به في النفس، وتركيز للشعور بالحاجة إليه، وشعور عميق بوجوب الاتصاف به. فالدعاء تربية للقلب؛ وذلك بطلب القلب من الله أن يخلقه بأخلاق الإيمان وقيمه، في كل قيمة من قيم القلب وعواطفه.

والدعاء المربي هو الذي يخرج من القلب، باليقين، والتثبت، والتذلل لله، وشدة الاستغاثة به، فهذا هو الدعاء النافع، المؤثر في القلب؛ لنتأمل: قال البخاري: باب الناخلة من الدعاء (أي: الخالص المصفى).. عن عبد الرحمن بن يزيد؛ قال: كان الربيع يأتي علقمة، يوم الجمعة، فإذا لم أكن ثمة؛ أرسلوا إلي، فجاء مرة، ولست ثمة، فلقيني علقمة، وقال لي: ألم تر إلى ما جاء به الربيع؟ قال: ألم تر أكثر ما يدعو الناس، وما أقل إجابتهم؟! وذلك أن الله، عز وجل، لا يقبل إلا الناخلة من الدعاء. قلت: أو ليس قد قال ذلك عبد الله؟ قال: وما

قال؟ قال: قال عبد الله [يعني: ابن مسعود ﷺ]: لا يسمع الله من مسمع، [أي: يريد الشهرة]، ولا مراء، ولا لاعب، إلا داع دعا يثبت من قلبه[١٥٥].

فيدعو المسلم بيقين، وتثبيت من قلبه، وأكل حلال، وتضرع؛ أن يبارك الله في قلبه، وأن يقبل به إليه، وينقيه، ويرققه، ويحبب إليه الإيمان.. إلخ. فهذا الدعاء عبادة، وتربية للقلب؛ بالتفكر، والشعور، وفي السجود، وفي السحر، وفي الصيام، وعقب الصلوات الخاشعة، وعقب نزول المطر.. إلخ.

ص - **الحوار مع شيوخ التربية الفاهمين، السالكين**: لمعرفة طبيعة التربية القلبية، وعقباتها، وكيف نقاومها، وكيف نتصف بكل قيمة ؟.. إلخ.

ق - **الاستماع الخاشع، المتفكر، لحلقات عن القلب**، من أشرطة مسجلة، أو فيديو، أو من الشبكة، مثل: أشرطة أحمد القطان الخمسة عن القلب، (من كتاب إغاثة اللهفان)، وأمثال هذا، وأقوى من ذلك: الاستماع لقارئ خاشع رقيق، للقرآن؛ مثل: المنشاوي، والشيخ محيسن، والاستماع لأذان الفجر، على انفراد، من مؤذن خاشع مخبت، رقيق، ندي القلب والصوت.

ر- **التقمص الوجداني**، والمحاكاة الشعورية الداخلية للشخص الذي نحبه، وللقيمة والعاطفة التي نحبها، وقد أشرت لذلك من قبل، وسيأتي في فصل: الطريق لتربية القلب الرقيق .

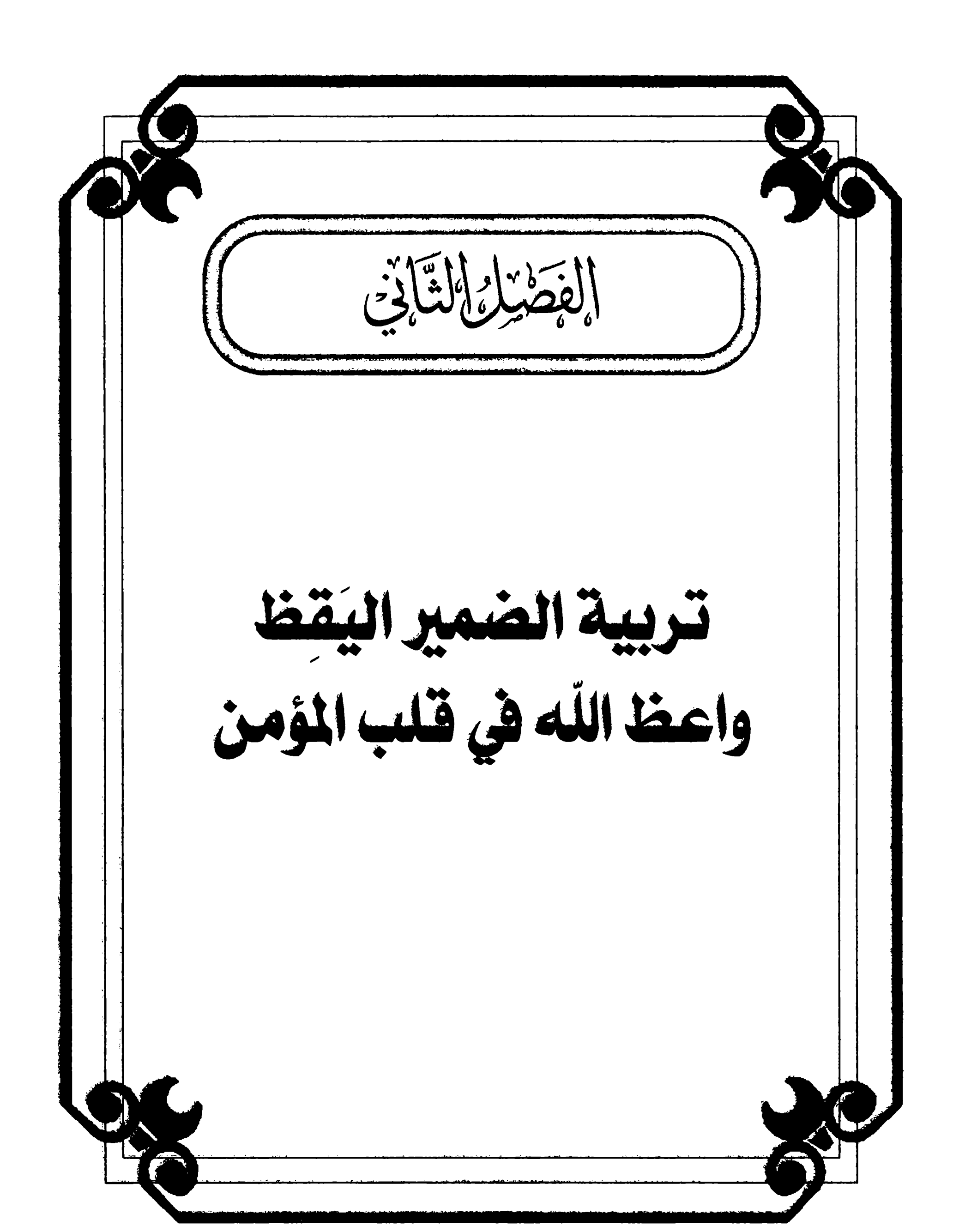
إن كل ما يكشف الران، ويزيح الحجاب عن القلب، ويرجع القلب إلى فطرته، النقية، وصفائه، هو أسلوب تربوي للقلب؛ بدءا من: التأمل في الأنفس والكون والناس، وفي القرآن، والعلم، وانتهاء: بمسح رأس يتيم، أو مسكين.

وتربية القلب لا تكون عبر الدرس النظري، والامتلاء الذهني بالأفكار، بل بغرس العلم والوعي في القلب، وإدماج القلب وغمسه، وغمره، في بحار العلم النافع والعمل الصالح.

---

(١٥٥) قال الألباني: صحيح، انظر: الإمام البخاري: الأدب المفرد، بتخريج الألباني، مصدر سابق، حديث رقم ٦٠٦، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

هذه هي المنظومة الأساسية لأساليب تربية القلب، وهي منظومة شاملة للجهد الذاتي الفردي والجماعي، وعمل الليل وعمل النهار، وللمدارسة والممارسة، واكتساب الوعي والسعي، وللتدريس والتأسيس، وتطبق في كل وسيط تربوي، بعضها أو جلها، وبعضها أكثر أهمية من بعض، بالنسبة إلى بعض القيم، والاتجاهات والعواطف القلبية، كما سنفصل في أساليب تربية كل قيمة في فصول هذا الكتاب.



الفَصْلُ الثَّانِي

تربية الضمير اليَقِظ واعظ الله في قلب المؤمن

تربية الضمير اليَقِظ
واعظِ اللهِ في قلبِ المؤمن

أولا: نص الخطاب النبوي:

أ - أخرج الإمام أحمد؛ عن النواس بن سمعان الأنصاري، عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مَثلا؛ صراطا مستقيما، وعلى جَنْبَتَي الصِرَاط سُورَانِ، فيهما أبواب مُفَتَّحَةٌ، وعلى الأبواب سُتور مُرْخاة، وعلى باب الصراط داعٍ، يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعَرجوا، وداع يدعو مِنْ جَوْفِ الصراط، فإذا أراد فتح شيئا من تلك الأبواب؛ قال: ويحك! لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحْه تلجْه. والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتابُ الله، عز وجل، والداعي فوق الصراط: وَاعِظُ الله في قَلْبِ كُلِّ مُسْلِم**»[(١)].

وأخرجه الحاكم، وفيه: «.. **وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط؛ فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب؛ قال: ويحك! لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق: واعظ الله في قلب كل مسلم**»[(٢)].

---

(١) إسناده صحيح، وصححه الحاكم (١/ ٧٣) ووافقه الذهبي. انظر: المسند، ج ١٣، رقم ١٧٥٦٦، ص ٤٤٥، وأورده ابن كثير، مع بعض اختلاف في الألفاظ، وقال: ورواه الترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والطبري، وإسناده حسن صحيح. قال شاكر في عمدة التفسير: «هو في المسند.. وفي بعض ألفاظه مخالفة لما ثبت هنا، فلعله اختلاف في نسخ المسند، ورواية الطبري، التي أشار إليها ابن كثير: مختصرة، وهي برقمي (١٨٦، ١٨٧) انظر: العمدة، ج١، ص٦٣، وهامش رقم (١)، ومن الاختلاف: رواية المسند: ولا تتعرجوا، وعند ابن كثير: ولا تعوجوا، وساقه ابن كثير ثانية بلفظ: (ولا تعرجوا..) نفس المصدر، ص ٧٣٨ .

(٢) قال الألباني: صحيح، وخرجه في المشكاة ١٩١، وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، ط ٣، رقم ٣٨٨٧، ص ٧٢٢،٧٢١.

وأخرجه ابن الجوزي؛ من طريق عبد الله بن أحمد، حدثني أبي، وساق نفس إسناد أحمد، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلا صراطا مستقيما...**» وساق الحديث، وفيه: «**وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تعرجوا، وداع يدعو من جوف الصراط؛ فإذا أراد- يعني: العبد- أن يفتح شيئا من تلك الأبواب؛ قال: ويحك! لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه. والصراط: الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله - عز وجل، والداعي من فوق: واعظ الله في قلب كل مسلم**»(٣).

ب - وأخرج ابن أبي عاصم، في السنة، عن نواس بن سمعان؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى ضرب مثلا؛ صراطا مستقيما، على جنبتي الصراط أبواب مفتحة، لها سوران، وعلى الأبواب ستور، وداعي الله تعالى يدعو على الصراط من فوقه ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [يونس:٢٥] **والأبواب التي على جنبتي الصراط: حدود الله تعالى، لا يقع أحد في حدود الله حتى يهتك ستر الله، والذي يدعو من فوقه: واعظ الله عز وجل**»(٤).

وأخرجه أحمد، وفي روايته: «**وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوقه، ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾، وفيه: لا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف ستر الله، والذي يدعو من فوقه: واعظ الله عز وجل**»(٥).

وأخرجه الترمذي؛ عن النواس بن سمعان الكلابي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ضرب مثلا؛ صراطا مستقيما، على كنفي الصراط: زوران، لهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو**

---

(٣) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٦٧.

(٤) إسناده صحيح، رجاله ثقات، على ضعف في ابن مصَفى، لكنه مقرون، كما قال الألباني، انظر: كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة، رقم ١٨، ص ٣١.

(٥) إسناده صحيح ؛ بقية صرح بالتحديث، انظر: المسند، جـ ١٣، رقم ١٧٥٦٨، ص ٤٤٦.

فوقه؛ ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ **والأبواب التي على كنفي الصراط: حدود الله؛ فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر، والذي يدعو من فوقه: واعظ ربه»**. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، ثم روى عن أبي إسحق الفزاري، قوله: «خذوا عن بقية ما حدثكم عن الثقات..»[٦]. قلت: بقية لم يصرح عند الترمذي بالتحديث، لكنه صرح بالتحديث في رواية أحمد، ورواية ابن أبي عاصم، وللحديث شاهد، فصح الحديث، والحمد لله.

وفي فتح القدير قال الشوكاني: وأخرج أحمد والترمذي، وحسنه، والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان؛ عن النواس بن سمعان، عن رسول الله ﷺ قال: «**ضرب الله مثلا، صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط: سوران**.. وساق الحديث إلى قوله: «**ادخلوا الصراط جميعا، ولا تفرقوا**..» إلى قوله: «**والداعي من فوقه: واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم**»[٧].

ثانيا: تمهيد في أهمية الحديث وأهمية تربية واعظ الله في القلب:

أ - ساق ابن تيمية، رباني الأمة، رحمه الله، حديث النواس بن سمعان؛ قال: وفي السنن والمسند وغيره؛ عن النواس بن سمعان؛ عن النبي ﷺ قال: .. وذكره، وفيه: «**والصراط المستقيم: هو الإسلام، والستور المرخاة: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح بابا من تلك الأبواب؛ ناداه المنادي: يا عبد الله، لا تفتحه؛ فإنك إن فتحته؛ تلجه، والداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن**». ثم

---

(٦) الترمذي: سنن الترمذي، جـ ٤، رقم ٢٨٦٨، ص ٣٩١ .

(٧) قال محققه: «.. وصححه الحاكم (١/ ٧٣) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي».
الشوكاني: فتح القدير، جـ ١٠، ص ٩١، وهامش رقم (٣).

قال ابن تيمية: «فقد بين في هذا الحديث العظيم، الذي من عرفه؛ انتفع به انتفاعا بالغا، إن ساعده التوفيق، واستغنى به عن علوم كثيرة، أن في قلب كل مؤمن واعظا، والوعظ: هو الأمر والنهي، والترغيب والترهيب»(٨).

وساقه ابن القيم في المدارج، وفيه: «والداعي فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مؤمن»(٩).

وكأن هناك رواية، عند أحمد، بهذا اللفظ، ولكن لم أجدها في المسند، ولا في جامع الترمذي، ولا في غيريهما، مما درسته.

والذي نقصده، الآن، أن واعظ الله في قلب كل مسلم ومؤمن صحيح الإيمان، وأن هذا حديث عظيم النفع، يغني عن علوم كثيرة.

ب - وهذا الواعظ القلبي هو مقياس الخيرية الخلقية، قال الحسن: «إن العبد لا يزال بخير؛ ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همته»(١٠). وقال: «من كان له واعظ من نفسه؛ كان له من الله حافظ، فرحم الله من وعظ نفسه وأهله..»(١١)، وقال محمد بن سيرين: «إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا؛ جعل له واعظا من قلبه؛ يأمره وينهاه»(١٢). وقال: «كان يقال: إن الرجل؛ إذا أراد الخير، كان له زاجر من الله، يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر»(١٣). وعن أبي قلابة؛ عبد الله بن زيد الجرمي؛ قال: «ما من أحد يريد خيرا أو شرا، إلا وجد في قلبه آمرا وزاجرا؛ آمرا يأمره بالخير، وزاجرا ينهى عن الشر»(١٤).

---

(٨) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج ٢، ص ٤٤ .

(٩) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٨ .

(١٠) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ٦، ص ٣٢، وابن القيم: إغاثة اللهفان، ص ٩٥.

(١١) ابن أبي الدنيا: كتاب العيال، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، ط ١، دار الوفاء، المنصورة، ١٩٩٧م، رقم ٣٣٣، ص ٢٣٢

(١٢) الإمام أحمد: كتاب الزهد، ص ٢٩١، وفي النسخة المحققة: رقم ١٧٩١، ص ٥١٤، والإسناد صحيح، وأبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ٢٨٣، وابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ١٣٤ .

(١٣) الإمام أحمد: كتاب الزهد، النسخة المحققة، بإسناد صحيح، رقم ١٨١٢، ص ٥١٨.

(١٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ٢٨٣

جـ - فمن أهم أهداف تربية القلب، في الإسلام، أن يتربى الـواعظ الجـواني؛ الضمير المؤمن المسلم، الحي، الموجِّه للخير، والمقوم الداخلي، في قلب كل مسلم. فتربية واعظ الله في قلب المسلم هو السبيل إلى الخير، والخيرية، أي: هو السبيل إلى أخلاقية الضمير وأخلاقية السلوك، معـا، وإلى الانـسجام الخلقـي بـين الجـواني والبراني؛ أي: تطابق السريرة والعلانية، في الموقف الخلقي العملي السليم، كما أنـه هو السبيل إلى ترك الغي، والإثم الخلقي، والفجور،كما أشار الشاعر:

لن ترجع الأنفس عن غيها ما لم يكن منها لها زاجر[١٥]

ويبين العلامة محمد عبد الله دراز أهمية تربية الضمير الـديني الإيـماني، مـن جهة ثانية؛ جهة القيام بواجبـات الإيـمان وأوامـر الله، بـوازع ذاتي، فيـذكر أن الواجبات الشرعية ليست أوامر إلهية، فحسب، بل هي أوامر خلقية، بمقتـضى عقد الإيمان الذي ينطوي على التزام السمع والطاعة لله. والإسـلامُ لا يطلـب، ولا يرضى، أن تنفذ أوامره تنفيذا آليـا، بـل لابـد، قبـل كـل شيء، أن تـسري أوامرُه إلى أعماق الضمير، حتى يتشربَها القلب، ثم تفيض عنه؛ بعـد أن تكـون قد تحولت فيه إلى أوامر ذاتية انبعاثية، ذلك أن أول خطـوة في امتثـال الواجـب هي: الإيمان بوجوبه وعدالته، والخطوة التي تليها هي: أن يُحْمَلَ هذا الإلزامُ إلى النفس على كف الضمير، مشفوعا بصوت ينبعث مـن أعماقـه، يناديهـا: «أيتهـا النفس، إن الله يأمرك أن تفعلي، وأنا آمرك أن تطيعي أمـره؛ فإنـه حـق وعـدل، وأنه لا خيرة لك في رده». فإن لم ينبعث من الأعماق هذا التبليغ، ولم يرتفع فيها هذا الصوت الداخلي، ترديدا لصدى ذلك الصوت السماوي؛ كان العمل كلـه هباء عند الله، وفي نظر قانون الأخلاق.

---

(١٥) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٦٨

«القلب، (أو الضمير)، إذا، هو بريد الشرع، الذي لا سبيل إلى الامتثال إلا عن طريقه، وكفى بهذا رفعا لمكانته في غضون أحكام الشريعة.. الخ»(١٦).

وهذا هو الوازع الذاتي، الذي نبه إليه ابن خَلدون، وبين أن النبي ﷺ، رباه في جيل الصحابة- رضي الله عنهم- برفق، ودون عنف، بل بتربية الإيمان، فامتثلوا، دون عقوبة من خارج، ودون إكراه وإذلال، بل بوازع ذاتي، فلم تذل نفوسهم، ولم تجبن، ففي صدد بيان أن القسوة في التربية والحكم، تفسد النفس، وتكسبها الجبن والخبث، يقول: «ونجد، أيضا، الذين يعانون الأحكام وملكتها، من لدن مَرْباهم في التأديب والتعليم، في الصنائع والعلوم والديانات، ينقص ذلك من بأسهم كثيرا، ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية، بوجه من الوجوه،.. ولا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة؛ من أخذهم بأحكام الدين والشريعة، ولم ينقص ذلك من بأسهم، بل كانوا أشد الناس بأسا؛ لأن الشارع، صلوات الله عليه، لمَّا أخذ المسلمون عنه دينَهم، كان وازعُهم فيه من أنفسهم؛ لما تلا عليهم من ترغيب وترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي،.. إنما هي أحكام الدين وآدابه، يأخذون أنفسهم بها؛ بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق، فلم تزل سَوْرة بأسهم مستحكمة، كما كانت، ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم، قال عمر- رضي الله عنه: «من لم يؤدبه الشرع؛ لا أدبه الله»، حرصا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه،.. فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس؛ لأن الوازع فيها أجنبي، وأما الشرعية؛ فغير مفسدة؛ لأن الوازع فيها ذاتي»(١٧).

فتربية الضمير المؤمن؛ واعظ الله، في القلب، هي التي تربي هذا الوازع

---

(١٦) محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية، مرجع سابق، ص ٢٠٤، ٢٠٥

(١٧) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ج ٢، ط مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ٤٧٨، ٤٧٩.

الذاتي، وسبيل هذه التربية هي تربية الإيمان بالله وبالجزاء يوم القيامة.

ويذكر بديع الزمان النورسي أن رسائل النور، التي ألفها، تربي هذا الضمير الإيماني، فدروس النور، كما يقول، هي من أجل نصب حارس في قلب كل إنسان، ويقول: «إن الدين ليس عبارة عن الإيمان، فقط، بل العمل الصالح، أيضا، هو الجزء الثاني من الدين، فهل يكفي الخوف من السجن أو من شرطة الحكومة؛ لكي يبتعد مقترفو الكبائر عن الجرائم التي تسمم الحياة الاجتماعية؛ كالقتل والزنى والسرقة والقمار، ويمتنعوا عنها؟ إذن، يستلزم أن نخصص لكل شخص شرطيا مراقبا؛ لكي ترتدع النفوس اللاهية عن غيها، وتبتعد عن هذه القذارات. ورسائل النور تضع مع كل شخص، في كل وقت، رقيبا معنويا؛ من جهة العمل الصالح، ومن جهة الإيمان، وعندما يتذكر الإنسان سجن جهنم والغضب الإلهي؛ فإنه يستطيع تجنب السوء والمعصية بسهولة،.. طلاب النور.. يجعلون في فكر كل من يقرأ رسائل النور؛ بالإيمان التحقيقي، حارسا ورقيبا عليه، فيسعون بذلك للحفاظ على الأمن العام،.. إن طلبة مدرسة العرفان؛ مدرسة النور، يعملون في القلوب، حيث يقيمون حارس الأمن والنظام في العقول والقلوب، إن دروسنا الإيمانية ضد الفوضى والاضطرابات والتخريب، وضد الماسونية والشيوعية.. هل هناك حادثة واحدة تخالف الأمن والنظام صدرت من طالب واحد من طلاب مدرسة العرفان والنور، البالغ عددهم خمسمائة ألف؟ كلا! ومن البدهي الجواب بالنفي؛ لأن في قلوبهم جميعا أقوى حراس الأمن والسكون؛ وهو حارس الإيمان».

فتربية الإيمان هي تربية للحارس اليقظ والرقيب المعنوي في قلب المؤمن، وهذا هو الذي يوجه ويراقب سلوك الإنسان، ويحثه على فعل الخير، ويزعه عن الشر، في كل مناشط حياته.

د - وتربية الضمير هي التي تخرج الإنسان الحق من البشر، وتنمي فيه الرقيب الذاتي على أعماله في الحياة، والموجه الذاتي، والقدرة على التقويم والتصحيح الذاتي. والضمير هو أول ما يميز الإنسان الحق، فنحن لا نعرف حيوانا صاحب ضمير يميز به بين القيم، ويدرك به الحق والباطل، إن وجود الضمير في الإنسان، وتربية هذا الضمير، هي التي تخرج الإنسان الحق من البشر، وهي التي تحول النفس الأمارة بالسوء إلى نفس أمارة بالخير. فهنا هدف تربوي ثابت؛ تربية الضمير إلى الحد الذي لا يكتفي بأن يندم صاحبه؛ بعد الوقوع في الباطل، وإنما يحفز صاحبه لأن يختار سبيل الحق، وأن ينتهي الأمر به إلى التقوى؛ في السلوك مع الخالق، ومع المخلوقات، وهذا الضمير يوجه عمل العقل، وعمل اليد، وعمل العين، إلى آخر مكونات الكيان الإنساني. فتربية الضمير هي أنسنة حقة للإنسان الإنسان. وتجعل له موجها للخير، ورقيبا من ذاته لذاته(١٨).

وفي الفقرة الآتية أتناول مضمون هذا الحديث العظيم، ثم أتلمس حقيقة هذا الواعظ الجواني، وكيف نربيه في قلوبنا؟

ثالثا: مفهوم المثل ودلالته:

هذا مثل ضربه الله؛ ليبين به علاقة الضمير المسلم المؤمن بالإسلام، وما يأمر به، وما ينهى عنه. ويتكون هذا المثل من:

أ - الصراط المستقيم: أي: الطريق الموصل للهدف، من غير اعوجاج، وهذا هو الإسلام؛ إسلام القلب والوجه لله، والخضوع لله، والانقياد والطاعة لشرعه المنزل على نبيه محمد ﷺ، وهو الصراط الذي نسأل الله، في كل ركعة من الصلاة، أن يهدينا إليه، ويثبتنا عليه، ويوفقنا في المشي على هداه؛ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ

(١٨) سليمان حزين: مستقبل الثقافة في مصر العربية، دار الشريعة، القاهرة، ص ٣٠، ٣١.

ﭐلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وهذا هو معنى قوله: «**ضرب الله مثلا؛ صراطا مستقيما**» ثم فسر ذلك بقوله: «**فالصراط: الإسلام**».

وعلاقة (الضمير المسلم) بهذا الصراط: أنه متمكن من الإسلام؛ معرفة، وإيمانا، وهذا هو دلالة قول النبي ﷺ: «**وداع يدعو من فوق الصراط**» من فوقه؛ «**وداع يدعو من فوقه**» «**وداع يدعو فوقه**»، أي: أن واعظ الله؛ (الضمير المؤمن)، متمكن من الإسلام، ومتحقق به، وعارف له، ومستمسك به، وغير منحرف عنه، فهو فوق الصراط، لم يتعوج عنه يَمنة أو يسرة، ولم يزغ عنه، وهذا هو دلالة قوله، في رواية أحمد: «**وداع يدعو من جوف الصراط**»؛ أي: من قلبه، وعمقه الداخلي. فواعظ الله متعمق في الإسلام، والإسلام مشتمل عليه، وهذا أيضا كناية عن تمكن واعظ الله من الإسلام، وتحققه به، فهو في القلب من الإسلام.

ب - **السوران على جنبتي الصراط**: السور الأول، على الجانب اليمين من الصراط، والسور الثاني، على الجانب الشمال منه، والصراط وسطهما، وقد فسر الحديث السورين بأنهما: حدود الله- تعالى، أي: المناطق التي حذر الله من الاقتراب منها، أو تخطيها؛ لأنها تفصل بين الحلال والحرام؛ فالاقتراب منها يؤدي إلى الاقتراب من الحرام. وتخطيها، أو تجاوزها، يعني: أن الإنسان دخل في الحرام.

ولماذا هما سوران؟

الجواب: لأن المحرمات: إما أن تكون بالتفريط في الطاعات، أي: عدم طاعة أمر الله الواجب، أو بالتفريط في النواهي، بفعل المحرمات، وكلاهما يدخل في الترخص الجافي. وإما أن تكون بالإفراط والغلو والتشدد في فعل الطاعة؛ كالثلاثة الذين قرروا عدم الزواج، وعدم النوم، أو قرروا صيام العمر كله؛ ظنا منهم أن ذلك هو طريق الله، ومثل أن يضيق الإنسان على نفسه جدا في أكل الحلال، فيترك كثيرا من الحلال؛ ظنا أن ذلك وَرَعٌ يحبه الله، أو ظنا أنه

يؤدي إلى الحرام، بدون دليل شرعي، وهذا وأمثاله: مغالاة وتشديد على النفس، وهو من الغلو.

والشيطان إنما يريد الانحراف عن أمر الله؛ إما بالغلو فيه، وإما بالتقصير فيه، يقول مخلد بن الحسين: «ما ندب الله العباد إلى شيء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين، ما يبالي بأيهما ظفر: إما غلوا فيه، وإما تقصيرا عنه»(١٩).

والمقصد: أن الإنسان؛ إما ينحرف إلى جهة التفريط، والترخص الجافي، وإما إلى جهة الغلو والإفراط، والتطرف في الفعل والترك، وكلاهما ممنوع، وتجاوز للصراط المستقيم، ولهذا قال ابن تيمية، في تعظيم الأمر والنهي: «هو ألا يُعَارَضَا بترخص جاف، ولا يُعَرَّضَا لتشديد غال، ولا يُحْمَلا على عِلة توهِن الانقيادَ»(٢٠). أي: لا يحمل الأمر والنهي على تأويل فاسد؛ يضعف الانقياد لله، وطاعة أمره، واجتناب نهيه.

والسوران على جَنْبَتي الطريق، أو على كَنَفَيْهِ، أو كتفيه، وكله بمعنى واحد. والأبواب المفتحة: هي التي تُدخل في المحرمات. والسوران: هما الحدود بين الحلال والحرام، والستور المرخاة: هي العوازل بين المؤمن وبين الدخول في الحرام، فإذا دخل في حرام؛ كشف ستر الله عليه.

وعلاقة واعظ الله في القلب بالسورين، والأبواب، والستور المرخاة: هي علاقة الإدراك البصير والحساسية الشديدة؛ لحدود الله؛ من المكروهات والشبهات، والمحرمات، والفقهِ فيها، وعلاقة الحذر منها؛ كالطير الذي يرى له في كل خطوة شَرَكا يأخذه، وعلاقة الاتقاء للمكروهات والشبهات والمحرمات. وفي نفس الوقت؛ هي علاقة القائد المؤمن المسؤول عن رعيته، وعن كل من في ولايته، الشاعر بعمق بهذه المسؤولية، فهو يراقب النفس،

---

(١٩) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٨، ص ٢٦٦

(٢٠) ابن القيم: الوابل الصيب، ص ١٦، ١٧

يراقب الإنسان؛ فإذا اتجه نحو باب من أبواب الحرام، أو المكروه؛ انتبه، ونبَّه الإنسانَ؛ بقوله: «**ويحك**»، انتبه، واحذر، هذا باب من أبواب الحرام؛ «**لا تفتحه؛ فإنك إن تفتحه تلجه**». إنك إن فتحت الباب دخلت فيه، وفعلت الحرام، فاحذر، وارجع، وابتعد عن هذا الباب، وامش على الصراط المستقيم، الذي يوصلك إلى رضا الله تعالى، واتبع كتاب الله، الذي هو الداعي على رأس الصراط، وامش على هداه، لتصل إلى الله بالسلامة، وبهذا يستبرئ الإنسان لعرضِهِ ودينِهِ. ولا يرعى حول الحمى، كما سيأتي في فصل خاص.

جـ - بابُ الصراطِ، ورأسُهُ، والداعي عليه: الباب والرأس، يعني: البوابة، المدخل الرئيسي والوحيد، الذي يدخل منه كل من يريد المشي على الصراط المستقيم، وعلى باب هذا الصراط، وعلى رأسه داع يدعو الناس، لدخول الصراط، ويحذرهم من التعوج، أي: الاعوجاج، أو التعرج، أي: الاتجاه بعيدًا عنه، أو الانحراف نحو جهة التفريط أو الإفراط، والتشديد والغلو، هذا الداعي يدعو أيضا لدار السلام؛ الجنة، ويهدي إلى صراط الله المستقيم، فهو داعي الله، وهو كتاب الله، الوحي الإلهي؛ القرآن الكريم وما صح عن النبي ﷺ، فكتاب الله يدعو إلى الطريق القويم، الوسط، العدل، المستقيم، الذي لا ينحرف نحو جهة التفريط، وترك فعل الخير، ولا نحو التطرف والتشديد الغالي، في الفعل والترك.

وعلاقة واعظ الله في قلب المسلم بهذا الداعي: هي علاقة الانقياد لدعوته، والدخول إلى الصراط، استجابة لدعاء هذا الداعي، فهي علاقة الإيمان بحقيقته، والبصر فيه بصرا ينفعه، واتباع هداه، بدليل أن واعظ الله يحذر الإنسان من الانحراف، وبدليل أن هذا الواعظ، في جوف الصراط، وفوق الصراط.. فهو في قلبه، وفي عمقه، ومتمكن منه. وهذا يعني أن القلب المسلم قد تحقق بالإيمان، والإسلام، والوعي، والحذر.. كما سنبين في الفقرة الآتية.

د ـ الداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب المسلم :

١- وهو داع، يدعو.. أي: ينادي، الناس؛ ليدخلوا في دين الله، أوْ ينادي الإنسان، ويطلب منه أن يتحقق بالإيمان، والإسلام.

٢- وهو داع يقظ، حذر، فاهم، بصير، قائم بمسؤوليته في المراقبة، والحراسة، والتحذير، والمحاسبة، قبل الفعل والترك.

٣- وهو داع متمكن من الصراط؛ فهو فوقه، وفي قلبه، وعمقه، ليس منحرفا عنه، فهو مؤمن بالصراط، سائر عليه، على فهم وبصيرة، غير منحرف جهة التفريط، أو جهة الإفراط .

٤- وهو داع يراقب (إرادة) الإنسان، وهمومَهُ، بيقظة، فإذا [أراد] الإنسانُ فتحَ باب من المكروهات أو الشبهات الملتبسات، أو المحرمات؛ ناداه، ونبهه فورا، على خُطورة هذه الخطوة النفسية؛ (إرادة فتح الباب)، قائلا: «**ويحك، لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجْه**»؛ أي: تدخله، أي: تفعل الحرام.

وهذا يدل على فقه هذا الداعي، ورؤيته المستقبلية، ومعرفته بنتائج وعواقب الأفعال، واعتبار مآلاتها.. فالإنسان إذا أراد الحرام.. واستمر على هذه الإرادة، فإنه يَجْسُرُ، ويقوى نفسيا، على الفعل، فإذا تحرك خطوة نحو باب الحرام.. فإنه يجسر بشكل أقوى، على فعل الحرام، فإذا فتح الباب، فإن عزمه يقوى ويشتد على هذا الفعل.. مما يوقعه فعلا في الحرام.

فالداعي من فوق الصراط.. فقيه شَفُوق على صاحبه، يحذره قبل السقوط.

٥- وهو داع له سلطة الدعوة، وسلطة النهي، بدليل قوله: «**لا تفتحه**»! فهو ناهٍ، وهو آمر، كما قال ابن سيرين: «يأمره، وينهاه». وهو آمر زاجر، كما قال الجرمي: «آمر يأمر بالخير، وزاجر ينهى عن الشر»، فهو ينهى الإنسان عن الشر، والحرام، وهو يأمره، ويدعوه إلى التحقق بالخير، فهو داع له سلطة الأمر والنهي، وهذا يدل على أن هذا الداعي يتكون من العقل والإيمان؛ لأن العقل يأمر، كما

قال الله ﷻ: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الطور: ٣٢]، أي: عقولهم، وإعمال العقل بشكل صحيح يؤدي إلى الاستقامة على صراط الله المستقيم، فالعقل نور فطره الله في الإنسان، فإذا آمن الإنسان العاقل بالله، وبالوحي، ازداد النور في قلبه.. ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥].. والإيمان يأمر، والقرآن يقول عن اليهود: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

والمقصد: أن الداعي من فوق الصراط، ومن جوفه، له سلطة الأمر والنهي، سلطة: افعل ولا تفعل؛ الأمر بالخير، والنهي عن الشر، والزجر عنه، وهي سلطة من داخل القلب، وهي سلطة رشيدة، تتركب من العقل والإيمان.

٦- **وهو داع من جوف الصراط**: أي: أنه في قلبه، ومتخلل فيه، في كل مراحله، ويعرفه جيدا، فهو مستبصر بأوله، وآخره، ووسطه، وحدوده، وأبوابه، وستوره.

٧- **وهو داع واعظ**: فمن خاصيته: أن يعظ؛ يأمر، وينهى، ويرغب ويرهب، فمن مهماته: الوعظ، من داخل القلب، والوعظ: «النصح والتذكير بالعواقب، قال ابن سِيده: هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب(..)، وفي الحديث: «**وعلى رأس الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم**»، يعني: حججه التي تنهاه عن الدخول فيما منعه الله منه، وحرمه عليه، والبصائر التي جعلها فيه(..)»[21]، وقال الراغب: «الوعظ: زجر مقترن بتخويف، قال الخليل: هو التذكير بالخير، فيما يرق له القلب»[22]. وهو هز النفس بموعود الجزاء ووعيده[23]، وهو قيام بالموعظة، مع العطف على الذي

---

(٢١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٦، ص ٤٨٧٣، وانظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٥، ص ٢٠٦ .

(٢٢) الراغب الأصفهاني: المفردات، ص ٥٢٧ .

(٢٣) بتصرف عن: محمد عبد الرءوف المناوي: التوقيف على مهمات التعريف، ص ٣٣٩.

يعظه، ورحمته، وإعانته على نفسه؛ لأن الواعظ الحق يعلم أن القلب متقلب، وأن الإنسان في إسار الأمارة بالسوء، وفي إسار الهوى.

فهو يقصده برفق، ويتلطف معه، ويرقق له قلبه، ويرغبه، ويرهبه، ويسعى إلى تنبيهه، وتطهيره، وتصفية أخلاقه؛ ليصير حرا طاهرا، مفتوحاً له طريق الله(٢٤).

فالواعظ الذي فوق الصراط، وهو الذي في القلب، يَعِي رَقَائِقَ الحديث والكلام؛ من صفات الله، ونعمه، وما تستحقه ربوبيته وألوهيته، ويعي أنباءَ الموت، وما بعد الموت، والقبر وثوابه، وعقابه، وحسابه، ونعيمه وعذابه، والقيامة، وحشرها، وموقفها، وحسابها، وموازينها القسط، وتطاير الصحف فيها، وأخذ الكتب باليمين أو بالشمال، وما فيها من جزاء، وجنة، ونار، ونعيم وعذاب، وصفات أهل الجنة، وما هم فيه، وصفات أهل النار، وما يعذبون به، والصراط على جهنم .. وأخبار التائبين، وأخبار المصدقين بالأنبياء، والمكذبين بهم، وأخبار السائرين إلى الله، وما حَلَّ بكل فريق، فيعظ بذلك، فيرقق القلب، ويلينه، ويرغبه في فعل الخير، ويرهبه، ويحذره، ويزجره، عن الشر، حتى يصل بالسلامة إلى نعيم الله.

فهو واعظ خبير بتربية القلب، فهو مُرَبٍّ من الداخل؛ من قلب الإنسان.

٨- **وهو داع واعظ صادق، محتسب**، يبتغي وجه الله ﷻ، ولهذا قال: «واعظ الله»؛ فهو ليس واعظ الهوى، ولا واعظ الشيطان، ولا واعظ الجاه، والمنظرة، ولا واعظ العَلمانية، ولا واعظ السلاطين، بل هو: واعظ الله، فأضافه إلى الله، تشريفا لقدر هذا الواعظ؛ لأنه مخلص بصير، كبير الشأن، يريد تخليص الإنسان من الإثم وفتنة الشهوات والغي، ومن النار، يريد أن يخلصه لله، فهو مُخلِص مُخَلِّصٌ، يتبع داعي القرآن، ويحرك داعية الفعل في القلب للسير إلى الله.

---

(٢٤) بتصرف عن الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٩٩، ٢٣٣.

٩- **وهو في (القلب)**؛ ليس في الظاهر المعلن، المكشوف، البَرَّاني، بل هو (ضمير) أي: مَسْتُورٌ في القلب، مستكن فيه، غير مرئي، فهناك (قلب) المسلم المؤمن، وهناك ما هو في (قلب المسلم المؤمن)، فهو في قلب القلب، موجود في داخله، وهذا هو (الضمير) المسلم اليقظ، الحساس، البصير، التقي، الملهَم، الذي يلهِم الخير، وهذا هو سر الصلاح الخلقي، الباطني والظاهري، معا، فوجوده؛ بخصائصه ومقوماته، هو سر صلاح القلب والجوارح، وعدم وجوده هو سر فساد القلب والجوارح، وبالتالي: وجوده، أو عدم وجوده، هو سر صلاح الأخلاق والمعاملات، أو سر فسادهما، من حيث إن القلب إذا صلح؛ صلح سائر الإنسان، وسائر عمله، وإذا فسد؛ فسد سائر الإنسان، وسائر عمله، فسبيل الإصلاح الجذري: هو تربية هذا الداعي الواعظ، وتنميته، وتكبيره، للبلوغ به إلى تمامه؛ ليكون واعظا حيا، بصيرا، قويا، فاعلا.

وتربية هذا الواعظ سبيل إلى أخلاقية الضمير، وتأسيس السلوك الخلقي الظاهر مع الناس والأشياء؛ على إيمان حي في القلب، وصفاء خلقي ناصع في السريرة.

إذا؛ تربية الإنسان تتوجه- بشكل رئيس- لتربية الضمير في القلب. وتصبح الوظيفة التربوية الأولى هي تربية هذا الضمير اليقظ.

١٠- **وهو في (قلب كل مسلم)**، أو (قلب كل مؤمن)، فالإسلام يجب أن يتحقق في القلب؛ إسلاما لله، وانقيادا لأمره ونهيه. والإيمان كذلك؛ تصديقا يقينيا يستلزم الخضوع والإذعان لأمر الله وخبره. وهكذا كل مسلم، وكل مؤمن، تحقق بوصفه؛ فإن الله يمده بهذا الواعظ، الداعي البصير، المستنير، حقا، فكل مسلم مؤمن: فيه قلب مسلم مؤمن، وبالتالي: فيه واعظ الله؛ واعظ ربه، عز وجل. لكن هذا الواعظ قد يضعف، وقد يقوى، وقد ينقص، وقد يصل إلى حد التمام، وذلك بحسب ما تلقاه من تغذية وتزويد وإمداد، وتنمية

ورعاية وحماية، أي: بحسب نوع وحجم (تربيتنا) لهذا الواعظ؛ فإذا ربيناه؛ بهدف تبليغه إلى حد التمام الممكن؛ فقد نجحنا كل النجاح في تربية الشخصية الإسلامية المؤمنة، حقا؛ حيث نكون قد ربينا في داخل كل مسلم: مرشدا عاما، وداعيا واعظا ربانيا، وحارسا رقيبا يقظا ديدبانا، ووازعا ذاتيا، يوجه ويضبط ويصلح، من الداخل، من العمق، من تحت، من الجذر، ويبقى معه؛ ليلا ونهارا، منفردا ومجتمعا، سرا وعلانية؛ يدعوه، ويوجهه، ويجازيه، ويربيه؛ ليمشي على المنهج الوسط، صراط الله، ويحذره من التفريط أو الإفراط، والتشدد الغالي، في المعتقدات، وأداء الشعائر، وممارسة الأخلاق، وفي التعاملات.

وهكذا تنجح عملية تربية الشخصية الإنسانية؛ إذا نجحت في تربية واعظ الله في القلب.

رابعا: تحديد طبيعة واعظ الله في قلب المسلم المؤمن :

بعد تفكيك المثل الذي تضمنه حديث الفصل، يتبين أن واعظ الله في قلب المسلم يتصف، بالإضافة إلى ما ذكرته في الفقرة السابقة؛ إجمالا، بجملة الخصائص الآتية التي تحدد هُويته وطبيعته:

أ ــ التمكن من الإسلام والإيمان:

فهو واعظ يعرف الإسلام، ويتحقق به، ويعرف الله، ويؤمن به، ويعرف القرآن، ويتبع هداه، ويعرف الحلال والمكروهات والشبهات، والمحرمات، والأبواب التي تؤدي إليها، ويعمل بالحلال، ويدعو إليه، ويتقي الشبهات، ويجتنب الحرام، ويحذر منه، ويزجر عنه، ويعرف مداخل الانحراف؛ بالترخص الجافي، أو بالتشدد الغالي، أو بالتأويل الجاهل، فهو قد تربى تربية عقلية معرفية إسلامية، وتربى تربية إيمانية؛ فهو ضمير مؤمن مدرك بصير، يقود القلب والنفس للإيمان، ويبعدهما عن مراتع الهلكة؛ عن الحرام، وهو قائد

عامل بالإسلام، متحقق به؛ ظاهرا وباطنا.

ولهذا يقول وهب بن منبه: «الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس بينهما حَرُونٌ (يعني: تستعصي على الطاعة)، فإذا قاد القائد، ولم يَسُق السائق؛ لم يغن ذلك شيئا، وإذا ساق السائق، ولم يقد القائد؛ لم يغن ذلك شيئا، فإذا قاد القائد وساق السائق؛ اتبعته النفس؛ طوعا وكرها، وطاب العمل»(٢٥). أي: اجتماع الإيمان والعمل بمقتضاه في القلب والسلوك.

ويقرر عبد الله بن عبيد بن عمير ذلك بقوله: «الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس حَرُون، فإذا ونى (كسل) قائدُها؛ لم تستقم لسائقها، وإذا ونى سائقها؛ لم تستقم لقائدها، فلا يصلح هذا إلا مع هذا، حتى يقوم على الخير؛ الإيمان بالله مع العمل لله، والعمل لله مع الإيمان بالله»(٢٦). فالضمير المسلم يتركب من الإيمان الصحيح، والتحقق بالعمل، والحث على فعل أخلاق الإيمان، لله وحده.

وإذا كان الإيمان قائدا للنفس؛ فإنه يقودها بكتاب الله، يقول مالك بن دينار: «رحم الله عبدا قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها، [يعني: ركب في أنفها حبلا ليقودها به] ثم ألزمها كتاب الله، فكان لها قائدا»(٢٧).

إذا؛ لا يتحقق وجود الضمير الحي؛ واعظ الله، إلا بتربية الإيمان في القلب.

ب - البصر والفقه بوسطية الإسلام :

بين التفريط وتضييع ما أحل الله؛ بالترخص الجافي، أي: المجانب لأمر الله ونهيه، والتشدد الغالي، والبصر بما يؤدي إلى كلا الجانبين، من أبواب وشبابيك،

---

(٢٥) ابن أبي الدنيا: المحاسبة، رقم ٨٣، ص ٦٩، وابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٢، ص ١٧٦.

(٢٦) ابن أبي الدنيا: المصدر السابق، رقم ٨٦، ص ٧٠ - ٧١، وابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٢، ص ١٢٧، وفيه (ولا يصلح..).

(٢٧) ابن أبي الدنيا: المصدر السابق، رقم ٨، ص ٣٤.

والبصر بالمحرمات والمكروهات، والشبهات، والبصر بعواقب ومآلات الأفعال، أو ترك الأفعال، والتعقل لنتائجها، والعمل بمقتضى ذلك البصر والفقه. فهو ضمير حكيم بصير، مفعم بالبصائر، فطن، مُعمل للعقل، متفكر في نتائج الأفعال، كل الأفعال على الإطلاق، فيقف عند كل هم ونية، وعزم وإرادة جازمة، وينظر في نتيجتها: هل تؤدي إلى حلال ؟ هل هي لله؟ أم تؤدي إلى حرام أو مكروه لله ولرسوله ؟ فإن كان حلالا وقصد به وجه الله؛ أمر بفعله، ورغب فيه، وشوق إليه، فتحركت داعية الفعل في القلب، وانبعثت الجارحة بالعمل. وإن كان مكروها، أو حراما؛ نهى وزجر عنه، ونفر منه، وأمر بتركه؛ فتراجعت داعية الفعل في القلب، وكفت الجارحة عن العمل، وإن كان حلالا، ولم يقصد به وجه الله؛ رغب في الإخلاص، وأمر بإصلاح النية لله.

كل ذلك يفعله واعظ الله في القلب، في حركة قلبية فاعلة حية بصيرة، مشفقة، عطوفة على الإنسان، وبأسلوب مرقق للقلب، يعطفه نحو طريق الله؛ الصراط المستقيم.

والمقصد هنا: أن واعظ الله في القلب يوظف العقل أحسن توظيف، فهو ضمير مستنير، منير، يبصر العواقب، ويعتبر مآلات الأفعال، ويقف عند كل هم، وعزم، وفعل؛ ليفكر، ويضيء، ويرغب أو يرهب، ويأمر أو ينهى، بعد عملية التعقل والاعتبار واستباق الأعمال.

فالضمير المسلم لا يتحقق؛ لا يتكون ولا ينمو، ولا يقوى، ولا يتم، ولا يكمل؛ إلا بتربية قيمة استشراف المستقبل؛ قيمة التفكير المستقبلي، التفكير في نتائج قراراتنا وأقوالنا وأفعالنا، تفكيرا مضبوطا فطنا محكوما بقيم التقوى، أي: في ضوء معايير الحلال والحرام، التي شرعها الله، وهذا المعنى يسمى في تراثنا: «محاسبة النفس في مستقبل الأعمال»(٢٨).

---

(٢٨) هذا عنوان فصل عند المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٤٨ .

وفي ضوء هذا البيان، نتأمل المقولات الآتية:

١- قال الحسن البصري: «ابنَ آدم، عن نفسك فكايس؛ فإنك إن دخلت النار؛ لم تنجبر بعدها أبدا»[(٢٩)]. أي: تعقل نتائج أفعالك، وتبصر في عواقبها؛ لمصلحة نفسك، إنقاذا لها من النار، وهذا هو الكيس، والتبصر في الأمور.

٢- وقال: «أيسر الناس حسابا يوم القيامة: الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم؛ فإن كان الذي هموا به لهم؛ مضوا، وإن كان عليهم؛ أمسكوا، قال: وإنما يثقل الأمر يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا، أخذوها من غير محاسبة، فوجدوا الله- عز وجل- قد أحصى عليهم مثاقيل الذر»، وقرأ: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾[الكهف: ٤٩][(٣٠)].

٣- وقال: «رحم الله عبدا وقف عند همه؛ فإن كان لله؛ مضى، وإن كان لغيره؛ تأخر»[(٣١)]. وجاء في الرعاية للمحاسبي: «قال الحسن: كان أحدهم، إذا أراد أن يتصدق بصدقة؛ نظر وتثبت، فإن كانت لله- عز وجل- أمضاها. وقال الحسن: رحم الله عبدا وقف عند همه؛ فليس يعمل عبد حتى يهم، فإن كان له؛ مضى، وإن كان عليه؛ تأخر. وقال في حديث سعد- حين أوصاه سلمان الفارسي- فقال: اتق الله عند همك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت. قال الحسن: رحم الله القوم؛ كانوا فقهاء، علموا أنه لا يكون عمل حتى يكون بدؤه هَمًّا، وكذلك المؤمن، هو الوقاف. وقال محمد بن علي رضي الله عنه: إن المؤمن وقاف متأن، يقف عند همه لله- عز وجل- ليس كحاطب ليل. وقال النبي ﷺ وسأله رجل أن يوصيه، ويعظه، فقال: «إذا أردت أمرا، فتدبر عاقبته: فإن كان

---

(٢٩) أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ٧٤، ص ٦٦

(٣٠) المصدر السابق، رقم ١٥١، ص ٩٤ .

(٣١) ابن القيم: إغاثة اللهفان، ص ٩٨ .

رشدا؛ فامضه، وإن كان غيا؛ فانته عنه». رواه طاوس. وقال لقمان: «إن المؤمن أبصر العاقبة؛ فأمن الندامة. وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى؛ فلا تعجل بقضاء الشهوة؛ حتى تنظر في العاقبة..الخ»(٣٢).

٤- وواعظ الله في قلب المسلم يبصر العواقب ببصيرة القلب؛ بالنور والفرقان الذي يشرق في القلب بالإيمان والتقوى، ونور القرآن، ونور السنة النبوية، ونور محبة الله، ونور الإيمان بالغيب، والبعث والجزاء والثواب والعقاب، في الجنة والنار، وبنور العقل المستهدي بالتفكير وبهدى الإيمان بالله، وبالتفكر في العواقب، والنتائج المترتبة على النيات والأقوال والأفعال، وكأن في قلب المؤمن عينين: عين الوحي والإيمان به، وعين العقل وتشغيله، وهذا هو دلالة قول خالد بن معدان-رحمه الله- وهو من التابعين: «ما من عبد إلا وله أربع أعين: عينان في وجهه، يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان في قلبه، يبصر بهما أمر الآخرة، فإذا أراد الله بعبد خيرا؛ فتح عينيه اللتين في قلبه؛ فأبصر بهما ما وعد الله بالغيب، وإذا أراد الله به غير ذلك؛ تركه على ما فيه». ثم قرأ: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤](٣٣).

٥- وأخرج أحمد في الزهد؛ عن ثابت البناني؛ قال: «كنت عند الحسن، رحمه الله، فقام إليه سائل ضرير البصر؛ فقال: تصدقوا على من لا قائد له يقوده، ولا بَصَرٌ يهديه. فقال الحسن: ذاك صاحب هذه الدار، وأشار به إلى دار جاره، خلْفهُ (يعني: عبد الله بن زياد)؛ ما كان من جميع حشمه قائد إلى خير، ولا يشير عليه به، ولا كان من قِبَل نَفْسِهِ له بصر يبصر به، وينتفع به»(٣٤).

٦- وأخرج أحمد في الزهد؛ عن الحسن؛ قال: «كانوا يقولون: لسان الحكيم

---

(٣٢) الحارث بن أسد المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٤٩ .

(٣٣) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٦٧- وابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٤، ص ١٤٦، ١٤٧ .

(٣٤) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، ص ٢٥٢ .

وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول؛ رجع إلى قلبه، فإن كان له؛ قال، وإن كان عليه؛ أمسك. وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه، لا يرجع إلى قلبه ما جرى على لسانه»[٣٥]. أي: تكلم به. وفي رواية ابن المبارك: «وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه، لا يرجع إلى القلب؛ فما أتى على لسانه تَكَلَّمَ به»[٣٦].

والمقصد: أن واعظ الله في قلب المسلم هو واعظ بصير يقوم بممارسة قيمة المحاسبة فيما يستقبل من الأعمال.

جـ- القيام بمهام السلطة الذاتية الرشيدة الفعالة:

وهي: المراقبة، والمفاتشة، والتوجيه، والدعوة، والوعظ، والمحاسبة، والمعاتبة، والمعاقبة أو الإثابة. فواعظ الله في قلب المسلم، أي: الضمير في حال قوته وعافيته، ليس عاجزا ولا مشلول الحركة، بل له (سلطان) على القلب والنفس، والسلوك؛ همًّا، وقولا، وفعلا، وهو آمر، ناه، زاجر، واعظ، داع، وهو يلهم القلب والعقل والنفس إلهامات خير، بل إن ابن القيم فسر واعظ الله بقوله: «فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو: الإلهام الإلهي»[٣٧]. فالضمير، أو واعظ الله، هو الذي يمارس السلطان على القلب والسلوك الإنساني كله، ولنتأمل فيما رواه سعيد الدارمي؛ قال: «قيل لرجل: صف لنا الأحنف بن قيس. قال: ما رأيت أحدا أعظم سلطانا على نفسه منه»[٣٨]. وهذا السلطان على النفس هو قوة الضمير المؤمن؛ الآمر الناهي، الذي يُعَوِّدُ النفسَ على فعل الخير، فتعطي القياد لواعظ الله، وتَسْلَسُ له، وتعطي عطاء الخير والإعمار، يقول قتادة: «لم يُرَ أعْطَى من نفس؛ إذا عُوِّدت، ولا أضعف منها؛ إذا لم تُعَوَّدْ»[٣٩].

---

(٣٥) المصدر السابق، ص ٢٥٩

(٣٦) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد والرقائق، رقم ٣٩٠، ص ١٣٠.

(٣٧) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٨.

(٣٨) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ١١٨، ص ٨٣.

(٣٩) المصدر السابق، رقم ١٢٢، ص ٨٥.

وسأفرد الفقرة السادسة لمهمات ومسؤوليات واعظ الله في القلب، أي: الضمير المؤمن.

خامسا: مفهوم الضمير:

١- قبل تناول مهمات الضمير، أو واعظ الله في القلب، نلقي ضوءا على مفهوم الضمير، فنقول: إنه هو ما استخلصناه لأنفسنا، مما تعلمناه، وتربينا عليه، وآمنا به، وأحللناه وأدمجناه في قلوبنا؛ في مشاعرنا، وعواطفنا، وفي رؤيتنا؛ من: معتقدات، وأفكار موجَّهة، وقيم، وأخلاق، ومعايير متناسقة وفعالة، (فأضمرناه) في قلوبنا؛ لنحمله معنا أينما توجهنا، فنكون قد حملنا معنا دليلا هاديا يرشدنا إلى سواء السبيل، في كل موقف من مواقف حياتنا، ونكون قد حملنا في قلوبنا (مُميِّزا) وفرقانا يبين لنا حدود الصواب والخطأ، ونكون قد حملنا معنا قوة ملهمة في أوقات انعدام الدليل؛ فالضمير مرشد جواني، وداع، واعظ، وقاض حاكم في القلب، في السريرة، فهو قوة (حالَّة في القلب)، (مضمَرة)، تجعل الإنسان - بما يتضمنه من قيم صحيحة يؤمن بها - ذا قدرة على تمييز الحق من الباطل، والصواب عن الخطأ، وتكون هذه القوة في القلب بمثابة الدَّفَّة من السفينة؛ تحركها، وتوجهها، وتدفعها نحو المرسى الذي يريده الربان؛ فالضمير ليس هو وعي الإنسان أو معرفته، أو إدراكه للخير والشر فقط، فليس كل ذي وعي خلقي سليم ذا ضمير حي بالضرورة، إنه قوة مضمرة، (وذوق إيماني)، (وحساسية خلقية)، (وحكمة وبصيرة)، يستطيع بها الإنسان - في كل موقف يعرض له - أن يحكم بما يجوز فعله، وما لا يجوز؛ فالإنسان ذو الضمير الحي الذي في قلبه واعظ الله، ينطوي في قلبه على دفة كدفة السفينة؛ توجهها، وينطوي على رقيب يرعى خواطره، ويجيز له شيئا، ولا يجيز له شيئا آخر؛ وهكذا يكون الضمير مع صاحبه؛ فهو يقرر له: متى يصح الفعل، ومتى يبطل ؟ وهو قوة موجِّهة، ومَحكمة مضمرة، في قلب صاحبها،

يسمع صوت قضاتها، ولا يراهم؛ إذ هي تأمر بهذا، وتنهى عن ذاك، وتحكم، ولها قدرة المجازاة والمكافأة؛ بحالة سرور وفرح تبثها في القلب، وقدرة المعاقبة؛ بحالة حزن، وشعور بالسوء والقبح، تشيعها في قلب الإنسان(٤٠).

٢- ونضيف أبعادا أخرى لمفهوم الضمير؛ من خلال نصين صحيحين نافذين في الحق، للشيخ حسن البنا- رحمه الله- يقول، عن الدعامة الأولى للصلاح والإصلاح- في مقال بعنوان (دعامتان): «أما الأولى: فيقظة الضمير، ودقة الشعور، وحياة الوجدان، جعلها الإسلام قوام صلاح الفرد، وديدبانا (رقيبا حارسا)، قائما لا يغفل، يحصي عليه خواطره وهواجسه، وألفاظه وكلماته، وأعماله، وتصرفاته، ويسجل من ذلك كله ما غاب عن وضعة القوانين، فلم يستوعبوه في قوانينهم، وما خفي عن حراسها، فلم يجدوا السبيل إليه في حراساتهم، فيرقب هذا الديدبان الساهر، الذي لا يفارق صاحبه لحظة من ليل أو نهار، في خلوة أو اجتماع، ما دق وما جل، وما خفي وما ظهر، ويزنه بميزان دقيق، يميز الخير من الشر، ويعلن الجزاء لساعته: سرورا وابتهاجا، ورضا وطمأنينة، وراحة وسلاما؛ إذا فكر، أو قال، أو فعل خيرا، وسعيرا وجحيما، ووخزا أليما، ونارا تشتعل وتتلظى، بين الضلوع والجوانح؛ إذا انحرف عن الطريق، أو ضل سواء السبيل، حتى أنه ليفر من ذلك العذاب بتقديم نفسه إلى القصاص والجزاء، وإن كان هذا الجزاء ليس أقل من الإعدام(...) وأساس هذه اليقظة، في نفس المؤمن، معرفة الله. ومَعينها الذي تستمد منه، ومصباحها الذي تهتدي بضيائه وتشرق بسناه: الإيمان الحق برقابة الله- سبحانه- فمن أدرك إحاطة رقابة الله عليه؛.. أحسن مراقبة نفسه، وهي

---

(٤٠) انظر في تفصيل ذلك: عثمان عبد المعز عبد الوهاب رسلان: القيم في كتابات زكي نجيب محمود، دراسة تحليلية تأصيلية، أطروحة دكتوراه، قسم أصول التربية، كلية التربية، جامعة طنطا، ١٩٩٦م، ص ٦٤٨.

مرتبة الإحسان، أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك «.. فيا أيها المسلمون، أحيوا ضمائركم بالإيمان بالله، وحسن مراقبته»(٤١).

ويقول البنا- معلقا على بعض الآثار التي تُرْوَى عن حال المجتمع الإسلامي على عهد رسول الله ﷺ: «شعور دقيق بمعاني الخير والشر، وإدراك واضح لدقائق البر والإثم، وتقدير بالغ لرقابة الله العلي الكبير، وسلطان غالب للدين على هذه النفوس الطيبة، واعتراف بضعف الإنسان، هو في ذاته قوة في الإرادة، تؤدي إلى السماحة والغفران الشعور الدقيق بالبر والإثم، والإقرار على أنفسهم؛ رجاء التطهر بالعقوبة، أو العفو، فلم يكن أحدهم يحاول أن يفر من تبعته، أو يتخلص بالإنكار والزور من آثار خطيئته.

«ولا تريد القوانين الاجتماعية من الناس أكثر من هذا، أكثر من أن يدق شعورهم حتى يميزوا بين الخير والشر، وتتهذب نفوسهم؛ فتألم وتندم؛ إذا قارفت إثما، وتسر وتفرح؛ إذا أصابت إحسانا»(٤٢).

فالضمير: شعور دقيق بالخير والشر، ورقيب حارس يحصي أفعال الإنسان، ولا يفارقه، وقاض يزن بميزان دقيق، ويميز الخير من الإثم، ويحكم بالعدل، ويعلن الجزاء، وينفذه، وواعظ يراقب الله، وقوة تجازي بالألم والندم، أو بالسرور والفرح.

وهو قوة في القلب، هو السريرة، التي يُسِرُّها الإنسان، ويخفيها في نفسه، ويضمرها، لكنها هي القوة الموجهة الوازعة ذاتيا لنشاط الإنسان كله، ولذلك سوف يبلوها الله؛ يختبرها يوم القيامة، ويكشفها، ويظهرها للعلن وللحساب وللجزاء، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، فالله

---

(٤١) حسن البنا: من تراث الإمام البنا، الكتاب الخامس، عظات وأحاديث منبرية، ط ١، دار الدعوة، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص ٣١٤، ٣١٥، ٣١٧.

(٤٢) حسن البنا: المرجع السابق، ص ٤١٥ .

يعيد الإنسان، ويرجعه إليه يوم القيامة؛ يوم «تختبر الضمائر، وتكشف الأسرار، وتعرف العقائد، والنيات الصالحة من الفاسدة، والسليمة من المعيبة»(٤٣).
تُبْلَى: تختبر وتمتحن؛ لإظهار ما كان مستورا فيها من إيمان وكفر، وخير وشر.
والسرائر: جمع سريرة؛ وهي ما يسره العبد، ويخفيه، ويستره، قال الأحوص :

سيبقى لها في مضمر القلب والحشا سريرة ود يوم تبلى السرائر

سادسا: المهمات الأساسية لسلطة الضمير المؤمن؛ واعظ الله:

وهي المهام والمسؤوليات والأدوار، التي تربي القلب؛ لينمو واعظ الله فيه، وينجح في أدائها وممارستها، وهي :

أ ـ الدعوة إلى الخير، والأمر به، والنهي عن الشر، والزجر عنه:

فكما حدد الحديث النبوي أنه «داع من فوق الصراط»، أو «من جوف الصراط»، وهو «داعي الله- تعالى»، فهو داع يدعو، يدعو من ؟ ولمن؟ ولأي شيء ؟ وكيف ؟

١ - إنه يدعو كل جارحة، وكل عضو، وكل هم ونية، وكل ميل وشهوة، وعاطفة؛ إلى طاعة الله، وفعل ما أمر به، ويأمرهم بذلك، ويراقبهم في أثناء العمل، ويناديهم إلى اجتناب ما حرم الله، وما كرهه، ويقبِّحُه لهم، وهو يفعل ذلك؛ لأنه مسلم لله، مؤمن به، عابد له، داع إليه، خاضع له، منقاد لحكمه، مذعن لأمره ونهيه. واعظ الله يأمر بما أمر، وينهى عما نهى، والله يوفقه لذلك، ويؤيده بمَلَك، يقذف في قلبه إلهامات الخير، ونور الدعوة إلى الخير، وهي لمة الملك، ونور الإنكار على لمة الشيطان، ولمة النفس الأمارة بالسوء، فينهاها عن

(٤٣) انظر: أبا بكر جابر الجزائري: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج ٢، ط ٢، مكتبة لينة، دمنهور، ص ١٥٠٣. والمعطى التالي، نفس المرجع، هامش رقم ٨، ٩، ص ١٥٠٣. وكلمة الضمير كلمة واردة كثيرا في الشعر العربي، يقول الشاعر:

أفادتكم النعماء عندي ثلاثة يدي، ولساني، والضمير المحجبا

وغير ذلك كثير.

الهوى الذي يضلها عن سبيل الله. وهو يشرط على كل عضو وجارحة وجندي من جنود القلب أن يستقيم على صراط الله، وأن يتبع كتاب الله، الذي هو الداعي على رأس الصراط، وبوابته، ومدخله، وأن يجتنب فتح أبواب المحرمات، وألا يهتك ستر الله عليه، فدعوته لهذه الجوارح تتضمن مشارطتها؛ أي: يشرط على الجوارح، وعلى كل أجهزة النفس الإنسانية، الشروط، ويوظف عليها الوظائف، ويرشدها إلى طرق الفلاح، ويلزمها بسلوك تلك الطرق(٤٤).

هذه هي الفاعلية الأولى لواعظ الله وداعيه في قلب المسلم.

٢- وهو يدعو الجوارح والحواس الباطنة والظاهرة، وكل جنود القلب الجوانية والبرانية، (إلى الله)؛ إلى أن تخلص له، وتعمل بطاعته، وتترك الإثم؛ ابتغاء وجه الله وحده، فهو، كما يدعو إلى التزام أمر الله؛ يدعو أيضا إلى ابتغاء مرضاة الله، فطاعة الأمر الإلهي وسيلته، والله غايته، ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة :٣٥].

٣- وهو داع فقيه بصير بالدعوة، يفقه أولويات الدعوة، ويعرف الحلال ودرجاته، والحرام ودرجاته، والمكروه ودرجاته، ويعرف متى يتحول الحلال إلى حرام؟ والمكروه إلى مباح ؟ والمباح إلى مكروه؟ أو حرام؟ ويوازن بين المصالح والمصالح، فيرجح أكثرهما منفعة، وبين المفاسد والمفاسد؛ فيتحمل أخف الضررين؛ لتفويت أعلاهما وأشدهما ضررا، وبعد تبصر ذلك؛ يدعو على بصيرة؛ يدعو همومه، وإرادته، وجوارحه.

٤- وهو داع مجد، مجتهد، فعال، يدعو كل مكونات النفس؛ في كل هم، بقول أو عمل، في بدء اليوم، وفي بدء العمل، وفي نهاية كل عمل، يدعوها بإخلاص لله، فهو مخلص لأمر الله، ولوجه الله، يدعو عينيه، ولسانه وشفتيه،

(٤٤) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ٢٧٤٠

وأسنانه وأذنيه، وبطنه ويديه، وفرجه ورجليه، وعقله، وهمه، وإرادته، يمارس معهم الدعوة الفردية، والجماعية، ولا يكف عن هذه الدعوة، حتى تستقيم على منهج الله. ولهذا الدأب والإخلاص استحق لقب: (واعظ الله)، (واعظ ربه)، (داعي الله)، فهو مُخَلِّص.

ب ـ الوعظ:

المرقق للقلب والنفس، المرغب في الخير، المقبح للشر، وهو قبيح، وقد أشرت لهذه المهمة في فقرة سابقة. وهذه المهمة، والتي قبلها، تشكلان معا، مسؤولية التوجيه: توجيه القلب وجنود القلب، ورعيته، بأحسن أسلوب، وأنجعه، فتأملهما؛ فإنهما يحتاجان لتفصيل طويل(٤٥).

جـ ـ المراقبة، والمحاسبة، والمقايسة:

١ - فواعظ الله يراقب الهموم والنزوعات، قبل الشروع في الأقوال والأفعال، مراقبة دقيقة وشاملة، ويلاحظها بعينيه البصيرتين، وينظر في كل هم، وحركة للنفس، والجوارح، بشكل دائم ومتواصل، ويقيس كل نية وقول وفعل، أي: يزنها بمعيار الإيمان بالله، وتقوى الله، ويميز ما يحبه الله مما يكرهه، في هذه النيات والهموم والأقوال والأفعال، جميعا. وهذه مهمة أساسية لواعظ الله في القلب، أشرت إليها باسم: محاسبة النفس في مستقبل الأعمال، ويعرفها المحاسبي بقوله: «قلت: وما المحاسبة؟

قال: النظر، والتثبت؛ بالتمييز لما كره الله، عز وجل، مما أحب، ثم هي على وجهين:

أحدهما: في مستقبل الأعمال (...).

وهي: النظر، بالتثبت، قبل الزَّلَلِ؛ ليبصر ما يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره

---

(٤٥) انظر: ثالثا: د، رقم ٧ في هذا الفصل .

على علم، ويعمل بما ينفعه على علم، فمن اتقى العجلة، وتثبت قبل فعله، واستدل بالعلم؛ أبصر ما يضره مما ينفعه، قبل العمل بهما»(٤٦).

وهذا هو ركن المحاسبة الأول، أعني: المقايسة والموازنة بين نعم الله على الإنسان، وبين جنايته وذنبه، فيعلم فضل الله عليه، وقبح موقفه من الله، والمقايسة بين الحسنات والسيئات، وأيهما أكثر قدرا وصفة، ويميز بين النعم والفتن. وهذه المقايسة تتوقف على نور الحكمة؛ فترى في ضوئه: التفاوت، وتتمكن من المحاسبة، كما تتوقف على سوء الظن بالنفس؛ حتى لا يرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالا.

وركن المحاسبة الثاني: هو أن «تميز بين ما للحق عليك؛ من وجوب العبودية، والتزام الطاعة، واجتناب المعصية، وبين ما لك، وما عليك؛ فالذي لك: هو المباح الشرعي، فعليك حق، ولك حق، فأد ما عليك؛ يؤتك ما لك، ولا بد من التمييز بين ما لك وما عليك، وإعطاء كل ذي حق حقه»(٤٧).

٢- وإذا كان أبو سليمان الداراني يقول: «أبلغ الأشياء، فيما بين الله وبين العبد: المحاسبة»(٤٨)؛ فإن المحاسبي هو أعمق من حلل هذه المهمة من مهمات واعظ الله في قلب المؤمن، فهو يدعو كل مسلم إلى تفقد أحوال نفسه، والبحث عن (عقد ضميرها)، بعناية وشفقة، ويقول: «فأحد النظر إليها، يا أخي، بعين نافذة البصر، حديدة النظر، حتى تعرف آفات عملها، وفساد ضميرها، (...) وليكن، مع ذلك، منك تيقظ، وإزالة للغفلات من قلبك، عند كل حركة تكون منك وسكون، وعند الصمت والمنطق، والمدخل والمخرج، والمنشط، والحب والبغض، والضحك والبكاء، فتعاهدها، يا أخي، في ذلك كله، (...) فتفقدها،

---

(٤٦) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٤٨.

(٤٧) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣٣، والمعطيات السابقة، ص ٣١، ٣٢.

(٤٨) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٨٠.

يا أخي، بالعناية المتحركة منك لها؛ مخافة تلفها، فإنك تقطع عن إبليس طريق المعاصي، وتفتح على نفسك باب الخيرات، وما التوفيق إلا بالله العلي العظيم»(٤٩).

ويقول المحاسبي: «فاجعل المراقبة شغلا لازما، وكن وقافا؛ كما قال الأول: المؤمن وقاف، وليس كحاطب ليل. فقِفْ، وطالع زوايا ضميرك، بعين حديدة النظر، نافذة البصر، فإذا رأيت أمرا محمودا؛ فاحمد الله، وامض، وإذا رأيت مكروها؛ دَارَكْتَه بحسن المراجعة، واستقصيت فيه؛ فإن الذي دخل بيتك، ولم يستأذنك؛ سوف يختبئ فيه، وإن كان مظلما؛ فأنت لا تشعر، إلا أن يكون معك سراج من العلم، مضيء واضح، ويكون معك من العناية بأخذه، والإنكار لما دخل فيه، ما لا صبر له عليه، ولا طاقة له به. ولو قد جَرَّبْتَ؛ لعرفت أن الذي أقول لك كما أقول»(٥٠).

ويبين المحاسبي أهمية المراجعة، والحاجة إليها، ثم يقول :« فاعتن، الآن، بتعاهد هذه المراجعة، على قدر ما عرفت من حاجتك إليها، فإنما لك من عمرك تيقظك، وتيقظك: مراجعة ما فيه منفعتك وقربتك، والمصير إليه بالعقل، وما سوى ذلك غفلة، وسهو، يؤديان إلى شهوة فيها غليان قلبك، وفي ذلك موافقة نفسك الأمارة بالسوء، والهوى المضل عن سبيل الله، (...) فتعاهد أمرك، بالمراجعة؛ فإن رأيت مكروها؛ أصلحته، وتحولت عنه، وإن رأيت غير ذلك؛ حمدت الله، وكانت عنايتك بذلك زيادة لك، أو قربة»(٥١).

٣- وهكذا، فإن من مسؤوليات ومهام واعظ الله في القلب: أن يكون رقيبا على الهموم والأقوال والأفعال، الباطنة والظاهرة، وذلك بأن «يقف عند أول

---

(٤٩) المحاسبي: آداب النفوس، ص ٤١، ٤٢.
(٥٠) المصدر السابق، ص ٨١، ٨٢ .
(٥١) المصدر السابق، ص ٨٤، ٨٥ .

همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه»[٥٢].

وهو في هذه المراقبة، والمفاتشة، والمقايسة، والمراجعة، يسأل نفسه، عندما يهم بعمل أو قول:

- هل هذا مقدور لي، أم غير مقدور؟ فإن لم يكن مقدورا، ولا مستطاعا؛ لم يقدم عليه، وإن كان مقدورا، ومستطاعا له؛ وقف وقفة ثانية، ونظر؛ متفكرا:

- هل فعله خير له من تركه؟ أو تركه خير له من فعله؟ وهنا يقايس بين الهم وبين الحلال والحرام والمكروه، فإن كان الثاني؛ تركه، ولم يقدم عليه، وإن كان خيرا؛ وقف وقفة ثالثة، وتفكر:

- هل الباعث عليه: إرادة الله- عز وجل- وابتغاء وجهه؟ أو إرادة الثناء والجاه والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني؛ وقف، ورغب في تصحيح النية؛ لتكون نهوضا قلبيا لله- عز وجل- ثم وقف وقفة رابعة، وسأل:

- هل هو مُعَانٌ على هذا الخير؟ وهل له أعوان ينصرونه؛ إن كان العمل محتاجا إلى ذلك، أم لا؟ ثم يتخذ قراره، في ضوء ذلك، ويأمر بالتنفيذ أو بالترك[٥٣].

٤- وفي أثناء تنفيذ العمل؛ يظل مراقبا وحارسا، وملاحظا، للجارحة التي تقوم به، ويتفقدها، وينظر درجة الأداء، وغايته، ويتفقد النية، ويقومها، ويسددها، حتى تنجز العمل، على حسب المشارطة، والمحاسبة المسبقة، قبل البدء فيه.

د ـ المحاسبة بعد العمل؛ الباطن والظاهر:

١- أي: أن يعترض واعظُ الله العملَ أو القول، بعد الفراغ منه، خشية أن

---

(٥٢) ابن القيم: إغاثة اللهفان، ص ٩٧ .

(٥٣) المرجع السابق، ص ٩٨ .

يكون فيه زلل، أو نسيان، فأخطأ فيه، أو فرط في إحكامه وإحسانه، فإن رأى تفريطا؛ أتم ما بقي منه، وأصلح ما فسد منه، وينظر: هل أتم العمل أو القول، كما أمر الله؟ وبالشكل الذي يرضيه؟ فيحاسب نفسه على:

- كل طاعة قَصَّرت فيها؛ من حق الله، تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

- كل عمل كان تركه خيرا له من فعله.

- كل أمر مباح أو معتاد: لم فعله ؟ وهل أراد به الله؛ فيربح، أو أراد غير ذلك؛ فيخسر ؟(٥٤).

- أن يحاسب نفسه على المناهي: فإن فعل شيئا منها؛ تداركه؛ بالاستغفار، والتوبة، وعمل الحسنات التي تمحو السيئات؛ فالله يمحو السيئ بالحسن.

- أن يحاسب النفس على كلامها ومشيها وسمعها وبصرها وأكلها،..،...، ماذا أردت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه؟ ولأية غاية؟ وعلى أي منهج؟ وهل أردت وجه الله؟ وهل تابعت النبي محمدا ﷺ فيه؟(٥٥).

٢- وهذه هي يقظة واعظ الله في القلب، وحيويته الرائعة، التي ينبغي أن ندربه عليها، وهي خاصة رئيسة للمؤمن، يبينها الحسن البصري؛ فيقول: «المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله- عز وجل- وإنما خف الحساب يوم القيامة، على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة، على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسب».

« إن المؤمن يفجأه الشيء، ويعجبه، فيقول: والله إني لأشتهيك، وإنك لمن حاجتي، ولكن، والله، ما من وصلة إليك، هيهات ! حيل بيني وبينك». [وهذه

---

(٥٤) ابن القيم: إغاثة اللهفان، ج ١، ص٩٨، ٩٩، والمحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص٥٠ -٥٣.
(٥٥) ابن القيم: المصدر السابق، ص ٩٩ - ١٠١

محاسبة قبل العمل].

«ويفرط منه الشيء؛ فيرجع إلى نفسه، فيقول: هيهات! ما أردت إلى هذا؟ وما لي ولهذا؟ ما أردت إلى هذا؟ وما لي ولهذا؟ والله ما أعذر بهذا، والله لا أعود إلى هذا أبدا، إن شاء الله». (وهذه محاسبة بعد العمل).

«إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن، وحال بينهم وبين هلكتهم. إن المؤمن أسير في الدنيا؛ يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتى يلقى الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله»(٥٦).

ويعقب المحاسبي على نص الحسن بقوله: «وكذلك أهل الدنيا في صناعاتهم، وأعمالهم؛ إذا أراد أحدهم أن يبتدئ العمل؛ روَّاه في نفسه، وقَدَّرَه، ومَثَّلَه في وَهْمِهِ، وصَوَّره في العاقبة: كيف يكون إذا فرغ منه ؟ فإذا تمثل في وهمه على ما يريد من الإحكام والتمام؛ ابتدأ فيه، حتى إذا فرغ منه؛ اعترضه؛ خشية أن يكون كان منه زلل، أو نسيان، فأخطأ فيه، وفرط في إحكامه، فإذا رأى تفريطا؛ أتم ما بقي منه، وأصلح ما فسد منه».

«فعمَّال الله، عز وجل، أولى بذلك؛ أن يتثبتوا قبل أعمالهم، ويمثلوها في أوهامهم؛ كيف تكون، بعد فراغهم منها؟ (...) وكذلك عمال الله- جل وعز- يتثبتون في أول أعمالهم، ويعترضونها بعد فراغهم منها، كيف تكون؛ إذا عُرضت على خالقهم؟ هل هي كما يرضى بها عنهم ؟ وهل أتموها كما أمرهم؟»(٥٧).

٣- وهذه المهمة من مهمات واعظ الله في القلب، هي من مهمات (النفس

---

(٥٦) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ١٧، ص ٣٨ ،٣٩، وأبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٥٧، وابن القيم: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٩٥، ٩٦ .

(٥٧) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٥٢ .

اللوامة)، التي أقسم الله بها، يقول مجاهد: «هي التي تندم على ما فات، وتلوم عليه. ويقول عكرمة: تلوم على الخير والشر. ويقول الحسن: إن المؤمن، والله، ما تراه إلا يلوم نفسه على كل حالاته، يستقصرها في كل ما يفعل، فيندم ويلوم نفسه، وإن الفاجر ليمضي قدما؛ لا يعاتب نفسه»(٥٨). ويقول البصري، أيضا: «لا تلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قدما؛ لا يعاتب نفسه»(٥٩).

ولنتأمل في هذين الموقفين:

- أخرج ابن أبي الدنيا؛ عن رجل كان يصحب الأحنف بن قيس قال: «كنت أصحبه، فكان عامة صلاته: الدعاء، وكان يجيء المصباحَ، فيضع أصبعه فيه، ثم يقول: حس! ثم يقول: يا حنيف! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟»(٦٠).

- قال: «وحدثني رجل من قريش، ذكر أنه من ولد طلحة بن عبيد الله، قال: كان توبة بن الصمة بالرقة، وكان محاسبا لنفسه، فحسب؛ فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها؛ فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم، وخمسمائة يوم، فصرخ، وقال: يا ويلتي! ألقى المليك بأحد وعشرين ألف ذنب؟! كيف! وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟! ثم خر مغشيا عليه، (..) فسمعوا قائلا يقول: يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى !»(٦١).

هذه هي المهمة الرابعة للضمير المؤمن، بحيويتها، وحركيتها، وفعاليتها، في التوجيه، والتصويب الذاتي للسلوك، والتقويم الذاتي للنفس الإنسانية، عَبْر

---

(٥٨) ابن القيم: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٩٤ .

(٥٩) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٧٥٨

(٦٠) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ١٣، ص ٣٦، وأبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٤، ص٢٧٥٩

(٦١) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ٧٦، ص ٦٧ .

تنمية واعظ الله في القلب.

هـ- المجازاة؛ الإثابة، والمعاقبة؛ إن لم تتأدب النفس بالمعاتبة :

١- إن واعظ الله في قلب المؤمن، حين يحاسب صاحبه؛ فإن وجده عمل خيرا حسنا؛ أو قال قولا حسنا؛ فإنه يستشعر الرضا، والفرح والسرور، ويُشْعِر قلبه بهذا الشعور؛ الفرح برحمة الله، ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ [يونس: ٥٨]، ويستشعر أن هذا نعمة من الله، فيحمد الله عليها، ويستريح باله، ويطمئن قلبه؛ لأنه أطاع الله، فيصلح اللهُ بالَه، ويكفر عنه سيئاته، ويشعره براحة القلب، فهو يفرح بالحسنة، كما يستاء بالمعصية، وينقبض. وهذا ميزان من موازين الإيمان الحيوي الفاعل، كما أخرج الإمام أحمد في المسند؛ عن ابن عمر، أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- خطب بالجابية؛ فقال: (وساق الحديث، وفي آخره): «**ومن سرته حسنته، وساءته سيئته؛ فهو مؤمن**»[٦٢]، ورواه، أيضا، عن جابر بن سمرة؛ قال: خطب عمر الناس بالجابية، فقال: إن رسول الله ﷺ قام في مثل مقامي هذا، فقال (وساق الحديث، وفيه): «**ومن كان منكم تسره حسنته، وتسوؤه سيئته؛ فهو مؤمن**»[٦٣]. ورواه الطبري اللالكائي؛ عن زر؛ قال: خطب عمر بالشام، وساق الحديث، وفيه: «**فمن سرته حسنته، وساءته سيئته؛ فهو مؤمن**»[٦٤]. ورواه الطبري، أيضا، من طريق جابر بن سمرة، عن عمر[٦٥].

وأخرج الإمام أحمد، عن أبي أمامة؛ أن رجلا سأل رسول الله ﷺ ما

---

(٦٢) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ١، رقم ١٢٤، ص ٢١٥، ورواه الشافعي في الرسالة مرسلا، انظر: الرسالة، بتحقيق أحمد شاكر، رقم ١٣١٥، ص ٤٧٤ .

(٦٣) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ١، رقم ١٧٧، ص ٢٣٩ .

(٦٤) أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المجلد الأول، دار البصيرة، الإسكندرية، رقم ١٥٥، ص ١٠٣ . وهو حديث صحيح.

(٦٥) المصدر السابق، المجلد الثاني، رقم ١٧٦٩، ١٧٧٠، ص ٨٢٥، ٨٢٦ .

الإيمان؟ قال: «**إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك؛ فأنت مؤمن**»[٦٦]، ورواه عنه، أيضا، قال: فما الإيمان ؟ قال: «**إذا ساءتك سيئتك، وسرتك حسنتك؛ فأنت مؤمن**»[٦٧]، ورواه الطبري اللالكائي، عن أبي أمامة، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان، فقال: «**من سرته حسنته، وساءته سيئته؛ فهو مؤمن**»[٦٨]، ورواه الطبراني، في الكبير، بروايتين، وفي الثانية: «**إذا سرتك حسنتك، وساءتك سيئتك؛ فأنت مؤمن**»[٦٩]، وأخرج الترمذي حديث عمر بلفظ: «**من سرته حسنته، وساءته سيئته؛ فذلكم المؤمن**»[٧٠]، وأخرجه الذهبي؛ في سير أعلام النبلاء، عن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان منكم تسره حسنته، وتسوؤه سيئته؛ فهو مؤمن**»[٧١].

ولا شك أن هذا الشعور بالسرور، في قلب المؤمن، هو فعل واعظ الله في القلب، وهو مقياس من مقاييس الإيمان الصحيح، فحيوية الضمير وحساسيته الوجدانية، وذوقه الجمالي، الذي نشأ عن قوة الإيمان في القلب، ورهافة الإحساس بالخير والشر، والتذوق الشعوري لكل منهما، والاستجابة لكل ذوق؛ كل ذلك يجعل المؤمن يفرح ويشعر بالسرور لفعل الحسنة، وهي كل

---

(٦٦) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٠٦٦، ص ٢٢٣.

(٦٧) المصدر السابق، رقم ٢٢٠٠٩، ص ٢٢١، وإسناده صحيح .

(٦٨) إسناده صحيح، الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، المجلد الثاني، رقم ١٦٦٥، ص ٧٨٣.

(٦٩) صحيح على شرط مسلم، الطبراني، المعجم الكبير، جـ٨، رقم ٧٥٤٠، ص ١١٧، والحديث أورده الألباني في صحيح الجامع ونسبه للطبراني عن أبي موسى، وقال: صحيح، انظر: صحيح الجامع، مجلد ٢، ط٣، رقم ٦٢٩٤، ص ١٠٧٩

(٧٠) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد رواه ابن المبارك عن محمد ابن سوقة، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن عمر عن النبي ﷺ. انظر: سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢١٧٢، ص ٦٨

(٧١) قال الذهبي: هذا حديث صحيح، قال محققه الأرناؤوط: «أخرجه أحمد والطيالسي، والترمذي، وابن ماجه، وسنده قوي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي». انتهى ملخصا، سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ١٠٢ – ١٠٣، وهامش رقم (١) .

طاعة لله، وكل عمل بر وخير، وإذا شعر المؤمن بالسرور لفعل الحسنة؛ فإن دافعية الإنجاز تدفعه لفعل حسنة أخرى؛ ليزداد سرورا وفرحا برحمة الله، فينشط واعظ الله في القلب، في التوجيه والترغيب، والدعوة إلى فعل حسنة أخرى، وبهذا يترقى الإنسان، في منازل العبادة والقربة، وهو مسرور فرح، مستريح البال، وهذه هي سعادة الدنيا، وروحها، ونعيمها، وجنتها؛ التي من لم يدخلها؛ لم يدخل جنة الآخرة؛ جنة الفرح بالله، والسرور به، والتنعم بطاعته.

٢- وإذا فعل المؤمن سيئة، أو إثما؛ مثل: ضرب ولد صغير، بدون جرم، أو شتم مسلم، أو إيذاء لجار، أو تقصير في صلاة؛ فإن من سلطة الضمير المسلم أن يلوم النفس، ويعاتبها على تقصيرها، ولا يتركها هملا، وهذه هي النفس اللوامة، كما أشرنا سابقا. فيقوم الضمير بالعتاب وباللوم والتنديم.

٣- وإذا لم ينفع اللوم والمعاتبة؛ فإن واعظ الله يعاقب النفس الإنسانية؛ بإشعارها بالسوء، والضيق، والنفور، وقد تكون المعاقبة توبيخا لها، وقد يأمر بصوم، أو قيام لله، أو قراءة جزء من القرآن، أو حرمان النفس من شيء تحبه، أو استغفار مائة مرة ،.. ومن ذلك ما رواه ابن أبي الدنيا أن حسان بن أبي سنان مر بغرفة، فقال: متى بُنِيَتْ هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيك؟ لأعاقبنك بصوم سنة، فصامها(٧٢)، ورَوَى أن تميما الداري نام ليلة لم يتهجد فيها، حتى أصبح، فقام سنة، لم ينم فيها، عقوبة للذي صنع(٧٣).

٤- وهذه المعاقبات لابد أن تكون مشروعة، ومربية، وملائمة، وليست مُعَجِّزة، بل ينبغي أن تكون في طاقة الإنسان، ومحدثة لأثر تربوي فيه، أي: أن يأمر الضمير بنوع من العقوبة يحقق أثرًا إصلاحيا في النفس، وهذا من فقه الضمير المسلم وبصره بالسنة والبدعة، في الخير والشر.

---

(٧٢) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ٢٢، ص ٤٢ .
(٧٣) المصدر السابق، رقم ٥٥، ص ٥٨ .

هذه هي مهمات ومسؤوليات واعظ الله في قلب المؤمن، ولا شك أنه؛ إذا تكون، ونما، وكبر، وقوي، وتم، في قلب المسلم؛ فإنه سيؤدي هذه الأدوار، أي: يجد المسلم له من نفسه واعظا وداعيا، وموجها، ومرشدا، وملهما، داخليا، نحو الخير، وفعل الخلق الحسن، ورقيبا داخليا يرعى خواطره وهمومه، وديدبانا حارسا يلاحظ نياته وأفعاله، وقاضيا عادلا مميزا يحكم بالعدل، يحاسبه، ويجازيه، ويثيبه أو يعاقبه؛ بالتوبيخ، أو العتاب، أو الشعور بالندم، والتأنيب،.. كل ذلك بهدف إقامته على الصراط المستقيم، وحمايته من الدخول في أبواب الحرام، محذرا له من ذلك، مانعا له من الانحراف، ناحية التفريط الجافي، أو التشديد الغالي، أو التأويل الجاهل.

وهكذا نجد أن واعظ الله في قلب المسلم يتسم بالحيوية والفاعلية، والحركة الدائبة، في القلب؛ إنها عملية رقابة وتوجيه ذاتي، من الداخل، لإصلاح الذات من باطن الإنسان، فواعظ الله في القلب يتربى؛ ليكون مربيا ووازعا ذاتيا داخل الإنسان، يربي، وهو يمارس مهماته السابقة معه حيث كان.

وهذه هي غاية المشروع التربوي الخلقي الإسلامي: تربية هذا الواعظ الرباني في القلب، والذي إذا تربى في القلب بنجاح، فقد نجح المربي المسلم في إنجاز أخلاقية الضمير وأخلاقية الفعل والسلوك معا. فهو إذن، مشروع تربوي ينبغي أن نكرس أنفسنا له، وأن نجعله في رأس الأولويات التربوية لقلوبنا وقلوب إخواننا، وقلوب أبنائنا وأهلينا. أي: أن نربي الضمير المؤمن الحي الفاعل الواعظ الرباني، اليقظ، النقي، التقي، القوي، الممارس لمهماته ومسؤولياته وسلطاته، المقومة والمربية للذات الإنسانية من الداخل.

إن إنجاز هذا المشروع التربوي، والعزم على تحقيق هدفه، يضعنا فوق الصراط التربوي المستقيم؛ لنمارس مهمات تربوية ضرورية؛ لتنمية واعظ الله في قلوبنا، مما يضعنا فوق الصراط المستقيم؛ منهج الله، لنمارس مهمات التوجيه

والضبط الذاتي من أعماقنا لهمومنا وسلوكنا وتصرفاتنا؛ لنسيطر على أنفسنا تماما، فنتحرر تماما من دواخلنا.

فكيف نربي هذا الضمير المسلم اليقظ، أعني: واعظ الله، في قلب كل مسلم ومؤمن؟

سابعا: تربية واعظ الله في القلب؛ تربية الضمير اليقظ :

أ- **أعني بتربية الضمير**: تكوين وتنمية الحاسة والبصيرة الإيمانية، والخلقية الإسلامية، في قلب الإنسان؛ بحيث يكون له من نفسه هاد يهديه، وداع يدعوه، وواعظ يعظه، ورقيب يراقبه، وحسيب يحاسبه، وقاض يحكم له أو عليه، ويجازيه، ويثيبه أو يعاقبه، فيقوِّمُه ذاتيا، وبحيث يحمل المسلم في داخله قيمه الإيمانية الإسلامية، بكل فتاتها: قيم التعامل مع الله، ومع الناس، ومع النفس، ومع الخلائق، ومع أشياء الطبيعة، ومع الزمن،.. إلخ، أينما كان؛ في المسجد، أو في البيت، أو الشارع، أو العمل،.. في كل مكان، يحمل قيمه الضابطة لسلوكه، والحكمة والبصيرة التي توجهه وترشده إلى أحسن الاختيارات والبدائل، والإلهام القلبي في كل ما يشكل عليه، فيعمل ـ من داخل القلب، كما تعمل الدفة في السفينة، يوجه الإنسان، ويضبط سلوكه، طبقا للقيم والحكمة التي يؤمن بها بعمق.

ب- وتربية هذا الضمير- واعظ الله في القلب- ضرورة إسلامية كما رأينا في الحديث، وضرورة ملحة الآن، بالذات من حيث الواقع الاجتماعي والثقافي المعاش، فقد غاب الذوق، وغابت الرحمة كثيرا، وتعرضت إنسانية الإنسان ذاتها في بلادنا للضياع، وانتشرت ظواهر المكيافيللية الحديثة في العلاقات والتعاملات، وصارت نفوس الناس كأعجاز نخل خاوية، وبعضهم كوحوش ضارية، فسادت القسوة والظلم، وأكل المال بالباطل وبالخطف وبانتهاز الفرص وبالغش وبالمكر والدوس فوق رؤوس الأبرياء بالجزَم، إذا وقفوا في

طريق المصالح الأنانية لبعض (أصحاب الكروش) السمينة، المصابين بهزال الضمير، أو بسل الضمير. بل أقول: لقد تربى ضمير لا ديني، لا خلقي، أناني، دنيوي، منفعي، عند كثيرين ممن عاشرتهم، فأنت (عندهم) (شيء تباع وتشترى)، أو (سِنادة فوق السلالم)، أو (قن) من أقنان الحضارة الحديثة، أنت منتَج استهلاكي، وظيفي، وُجِدتَ خصيصا ليوظفوك لمصالحهم، يتاجرون بك، ويأكلون بك، ويبيعونك، بكل معنى الكلمة، يبيعونك من أجل الجلوس على كرسي لثلاث سنوات، بلا رحمة، بل بفظاظة بشعة، ولا يَرقُّون لعذابات إنسان، لأنهم فقدوا الإنسانية، وامتلؤوا بعقول متلونة، مرنة، تبيح كل شيء، عقول نضالية من أجل السلطة أو الثروة. نعم: تربى هذا الضمير- الآن- رباه في قلوبهم نفايات الأرض من الماركسيين والعَلمانيين وبعض من يزعمون أنهم إسلاميون، ربوا ضميرا خَرِباً، متوحشا، يتزين ببسمة على الوجوه، وفي حنايا الجسد خنجر مسموم لطعنك في مقتل، مادام ذلك يؤمِّن له أن يكون وكيلا لكلية، أو عميدا، أو مديرا، أو عضو مجلس إدارة، أو نائبا في مجلس النواب، أو حتى مادام ذلك يكسبه ١٠٠ جنيه من قوتك وقوت أولادك؛ أنت عند هؤلاء تُقَوَّمُ، لا بقيمتك (الذاتية)، كإنسان مكرم، بل تقوم من حيث أنت سنادة لهم، أو مصدر لأخذ المال منك، أو درجة سلم يصعدون عليها، أو كضرع بقرة تحلب في كؤوسهم، فإذا انتهى لبنك؛ ذبحوك.

إن الضمير ليس منعدما - الآن - بل تربى ضمير قذر مقزز في القلوب الخربة. وأصبح من حقنا أن ننادي المربي المسلم الحق، أدرك السفينة .. قبل الغرق؛ فإن البحر عميق .

جـ - وعلاج هذا الوضع ليس بالقانون وحده، بل لا بد من مشروع تربوي؛ لتربية واعظ الله في القلب؛ أي: الضمير الحي، فالقانون لا يغني عن الضمير، فالإنسان بالقانون (يخشى)، لكن بالضمير (يختشي)، القانون صوت

زاجر يأتي إلى الإنسان من خارجه، وأما الضمير فصوت واعظ يوجه من داخل القلب الإنساني بصدق، وحيوية، واستمرارية، وهو يصوغ تشريعه، أو يستقيه، من نبع باطني ملهم في القلب، وثوابه: الطمأنينة بالرضا، والفرح بالحسنة، وعقابه: عذاب التأنيب، والعتاب، وضيق النفس .

الإنسان - أمام ضواغط القانون - كالحيوان أمام ضواغط السنن التي خلقت عليها، وأما أمام الضمير ووعظه وإلهامه، فالإنسان ينفرد في الكون سيدا قد يرتفع إلى رتبة الملائكة، ومع ذلك كله، فما أكثر ما يجد الإنسان في القوانين ثغرات للمراوغة، والهرب، وأما الضمير الحي، اليقظ، فإذا رصد صاحبه، وراقبه: فأين منه الفرار؟(٧٤).

د - ولا مفر - إذن - من مشروع تربوي على رأس سلم الأوليات التربوية، يتحدد هذا المشروع في عبارة: تربية الضمير الديني، تربية واعظ الله في قلب الإنسان المسلم. فهل يمكن تطوير تربيتنا بدون إنجاز هذا المشروع؟

هـ - وأهداف تربية الضمير، واعظ الله في القلب، قد بيناها في الفقرتين السابقتين، أي: أن يكون متصفا بصفات واعظ الله، وممارسا لمهماته المحددة في الفقرتين السابقتين .

وتربية الضمير تكون- أولا- في البيت، وفي المسجد، وفي القنوات الفضائية والشاشة، وفي المدرسة، وفي الكُتاب، وبالكِتاب، وفي الحركات الإسلامية، وفي الجمعيات الخيرية، وفي النقابات، وفي الجامعة، وفي المدارس الخاصة .

وتكون عبر الكلمة، والصورة، والفيلم، والمحاضرة، والندوة.. والخطبة،.. والكتاب.. إلخ، وبالقراءة للدراسة والتفكر.. والقدوة والتأسي، وتأثير الحال،

---

(٧٤) عثمان عبد المعز عبد الوهاب رسلان: القيم في كتابات زكي نجيب محمود، دراسة تحليلية تأصيلية، أطروحة دكتوراه، قسم أصول التربية، كلية التربية، جامعة طنطا، ١٩٩٦م، ص ٦٤٧.

وعبر الفاعلين الثقافيين: الأب، الأم، المدرس، الواعظ، المحاضر، الممثل، مقدم البرامج، المؤلف للكتاب والمقال .. الخ.

أما الأساليب التربوية لإنجاز هذا المشروع، فنقدم، هنا، أطروحة مختصرة لتربية هذا الواعظ الجواني؛ منتظرين كتابنا المفصل في تربية الضمير، بعون الله.

١ - تربية (عقيدة التوحيد) في القلب:

بحيث يؤمن القلب أن الله الأحد الصمد هو الأكبر، وهو المعبود وحده بحق، فله الحب كله، وله التذلل والتعظيم والخضوع، ظاهرا وباطنا، وله التوجه بالأفعال والأقوال والنيات، وحده، وله الطاعة، وإليه التحاكم، وحده، وله الموالاة والنصرة، فأمره: له الطاعة، ونهيه: يجب أن يجتنب، وعبادته تكون بما شرع، لا بالأهواء والبدع، وفيه الثقة، وعليه التوكل، وإليه المرجع، وبه القوة، وهو المستعان، ومنه نتلقى القيم والموازين، فالقيم التي نتعامل بها نتلقاها منه بالرضا والقبول، والنهوض للعمل، ولا نتلقى ما يقابل ذلك، ونرفضه، ونعاديه.

وتربية هذه العقيدة ليس بمجرد الغرس والتعليم فقط، بل بالإيمان القلبي؛ الذي يحول الفكر والتصور إلى إرادة تحب الطاعة، والالتزام بقيم التوحيد، وتبغض وتنكر المعصية وقيم الأنانية ـ فتحول المعتقدات إلى سلوك عملي، وعادات تمارس في الواقع، وتسرى في التعاملات. ومع الإيمان القلبي المتجذر، يأتي التدرب الذي يحول المعرفة الإيمانية التوحيدية إلى سلوك وعادات، أي: أن تغوص المعرفة في أعماق قلوبنا؛ لتصبح فينا ضميرا واعظا، موجها، وحاكما، وضابطا لسلوكنا، ورادعا ذاتيا، ودفة توجهنا إلى بر السلامة، وبالتمثل: تمثل ربوبية الله، وإلهيته، وأحديته، وكبريائه وحده، وأنه الذي يجب أن نعمل بقيمه، ونلتزم بشريعته، وتمثل عظمته، بإيمان يقيني مصدق، وفكر نَيِّر، وشعور يهيمن على كل ذرات القلب، والوجدان الإنساني. وبالتأمل في كل ذلك، فيتشرب

مقتضياته الخلقية، وينبعث للعمل.

وتربية هذه العقيدة تكون بمطالعة آيات القرآن؛ بالتدبر، وفتح القلب لأنواره، وغرسه، وبالتسليم لمعطياته، وبمطالعة أحاديث النبي محمد ﷺ، في أركان الإيمان؛ بالتفكر، والحب، والتسليم والتصديق، والتأثر الشعوري، والإذعان لما تدل عليه من معان وأخلاق، والعزم على العمل بها، وبالتفكر في أذكار الصلاة، وفي نعم الله، وآلائه في الكون.

كل هذا يمثل منهجا لتربية الإيمان في القلب، أي: أن تنغرس عقيدة التوحيد في القلب، وتتجذر فيه، وتثبت، وتركز، وتنمو، بحيث تخالط حلاوتها القلوب، وبحيث يذوقها القلب، ويتلذذ بعبادة الله، وطاعة قيمه، وتوحيده، فيتكون وينمو واعظ الله في القلب؛ باستمرارية كل ما سبق، يتكون وينمو واعظ مؤمن موحد، مطيع لله، عابد له، خاضع لمنهجه، ملتزم بقيمه، متبع لصراطه المستقيم، سائر عليه، داع إليه، في الحلال والحرام؛ في الأخلاق والتعاملات بجميع مستوياتها.

ولنتأمل في النص الصحيح الآتي، يقول حسن البنا: «إن خلاصة إيمان المؤمنين بالله الحق؛ أنهم موقنون بأن لهم إلها اتصف بالكمالات كلها، وتنزه عن النقائص كلها، لا علم أوسع من علمه، ولا قدرة أعظم من قدرته، ولا كمال أفضل من كماله، وهو معهم أينما كانوا، يرى ويسمع، ويُحصِي ما يقولون وما يعملون، وأنه أمرهم بالخير كله، لأنفسهم ولغيرهم، ونهاهم عن الشر كله، لأنفسهم ولغيرهم، وإن تعرفهم إليه وصِلَة أرواحهم به، هي السعادة كل السعادة والفوز العظيم، والنعيم المقيم».

«هذا الإيمان هو وحده - ولا شيء غيره - سر حياة الضمير الإنساني، ويقظة الشعور، وإشراق الوجدان، وعماد الخلق، ومصدر الفضيلة في الإنسان. وعن هذا الإيمان وحده، تنبعث أكمل الصفات الإنسانية الاجتماعية؛ من:

الإيثار، والتضحية، والحب، والرحمة، وإسداء الجميل، والتعاون على البر والتقوى، واحتمال مشاق الجهاد، والبذل في سبيل الحق والخير، وإقرار المثل العليا في أرض الله».

«ولا يمكن أن يستقيم فرد بغير ضمير ووجدان مشرق، ومحال أن تنهض أمة بغير الحب والتعاون والبذل والإيثار والجهاد».

«ومتى فُقِدَ الإيمانُ؛ فقدت هذه المزايا جميعا، وانقلب المجتمع إلى قطعان من الوحش والحيوان، يأكل بعضها بعضا. ومصداق ذلك في تاريخ الأمم جميعا، في القديم والحديث على السواء».

«ولم ير تاريخ الإنسانية انقلابا أعظم، ولا إصلاحا أتم، ولا حضارة أبقى وأخلد، من الانقلابات والإصلاحات والحضارات التي قامت على الأصول والقواعد التي جاء بها الأنبياء العظام: موسى وعيسى ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - وعصارة هذه الأصول، وخلاصتها، وأعلاها، وأثبتها: (الإيمان بالله)، فماذا يريد أولئك الجاحدون أن يفعلوا بأنفسهم وبالناس؟»[٧٥].

إذا، تربية الضمير الحي اليقظ تكون بتربية الإيمان بالله[٧٦].

٢- شهود أسماء الله وصفاته الحسنى وتربية الرقابة الذاتية في القلب لله:

ترسيخ صفات الله وأسمائه الحسنى في القلب، بحيث يشهد معنى كل اسم وصفة، ويتعبد لله بمقتضاها، ويتخلق بما تدل عليه من خلق، بما يناسب دلالتها، ومقتضاها.

وأقرر - من خلال تجربتي، وخبرتي الخاصة - أن هذا الأسلوب من أنجع أساليب تربية الضمير الديني، ولو جربت مثل تجربتي لعرفت صدق ما أقول،

---

(٧٥) حسن البنا: من تراث الإمام البنا، الكتاب الأول ـ العقيدة والحديث، ط ١، دار الدعوة، الإسكندرية، ص ١٠٥، ١٠٦

(٧٦) فصلنا ذلك في فصل: تربية تجدد الإيمان في القلب. فانظره في موضعه.

ولأضرب مثلا تحليليا، ومثلا تطبيقيا يبين لنا المعنى الذي نقصده بالتربية الخلقية بأسماء الله الحسنى، فمن أسماء الله: العليم، فمن «شهدَ مَشهَد العِلم المحيط، الذي لا يعزُب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات، ولا في قرار البحر، ولا تحت أطباق الجبال، بل أحاط بذلك، وعلمه علما تفصيليا. ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود: من حراسة خواطره، وإرادته، وجميع أحواله وعزماتِه وجوارحه، علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته، وجميع أحواله: ظاهرة مكشوفة لديه، علانية له، بادية، لا يخفى عليه منها شيء»(٧٧).

فتأمل صفة (العليم)، على هذا النحو، والتعبد لله بمقتضاها، أي: شهود علم الله المحيط، واطلاعه على ما في القلب، وذات الصدور، والحياء منه، ومراقبته في كل فعل، وتصحيح النية، لأن الله يعلم أخفى من السر، والحذر من السؤال يوم القيامة، والتخلق بصفة العلم، فالله عليم يحب كل عليم مؤمن، فيحرص على التعلم، كما يحرص على مراقبة الله في كل سلوكه.

ويبين الشيخ حسن البنا هذا الأصل، ويعتبره الدعامة الأولى للصلاح، فهو يرى بحق أن للصلاح والإصلاح الاجتماعي دعامتين: الأولى: تربية الشعور برقابة الله في الإنسان، والثانية: القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد ذكرنا مقالته في ذلك، وأن أساس يقظة الضمير في نفس المؤمن: معرفة الله، ومَعينُها الذي تستمد منه، ومصباحها الذي تهتدي بضيائه، هو الإيمان الحق برقابة الله، فمن أدرك إحاطة رقابة الله عليه؛ راقب نفسه، وأحسن عمله(٧٨).

كما ذكرنا في الفصل الأول أن تربية الشعور الخلقي اليقظ تتأسس على تربية

---

(٧٧) ابن القيم: طريق الهجرتين، وسبيل السعادتين، المطبعة السلفية، القاهرة، ص ٤١ .
(٧٨) حسن البنا: دعامتان، في: من تراث الإمام حسن البنا، ج ٥، مرجع سابق، ص ٣١٤، ٣١٥.

الوجدان الديني بالتذكير بالله، والإيمان برقابته الشاملة الكاملة على الإنسان[٧٩].

ويشير ابن مسعود ﷺ، إلى أن الإيمان بأن الله يرى الإنسان ويسمع كلامه، جهرا، أو سرا، هو من فقه القلب، يقول: «اجتمع عند البيت [الكعبة] ثلاثة نفر؛ قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فقال أحدهم: أترون الله يسمع ما نقول ؟ وقال الآخر: يسمع؛ إن جهرنا، ولا يسمع؛ إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع- إذا جهرنا ـ فهو يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ [فصلت: ٢٢][٨٠]، فهؤلاء قليل فقه قلوبهم، أما المؤمن فهو فقيه القلب، يعلم أن الله يراه، ويسمعه، ويعلم كل عمله .. فيخشع له، ويستكين، ويراقبه، ويستحي منه، فيصلح عمله كله.. ويراقبه، ويُقَوِّمُ ذاته بذاته.

ولسنا هنا بصدد تفصيل ما يتعلق بهذا الأصل التربوي المهم في تربية الضمير الديني، فسوف يأتي تفصيل ذلك في فصل: (تربية تجدد الإيمان في القلب)، ولكن أثبت هنا قاعدة ذكرها ابن القيم، تهمنا في موضوعنا، يقول: «إن أكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه (القدير) عن التعبد باسمه (الحليم الرحيم)، أو يحجبه عبودية اسمه (المعطي) عن عبودية اسمه (المانع)، أو عبودية اسمه (الرحيم والعفو والغفور) عن اسمه (المنتقم)، أو التعبد بأسماء: (التودد، والبر، واللطف، والإحسان) عن أسماء: (العدل، والجبروت، والعظمة، والكبرياء)، ونحو ذلك.

---

(٧٩) محمد عبد الله دراز: حصاد قلم، مرجع سابق، ص ٢٩٥ .

(٨٠) صحيح مسلم، إكمال المعلم، ج ٨، حديث رقم ٢٧٧٥، ص ٣٠٨، وتكملة الآية: ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت:٢٢]، ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣] .

وهذه طريقة الكمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠]، والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو- سبحانه - يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه، وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها. وهو سبحانه يحب مُوجِبَ أسمائه وصفاته:

(فهو عليم) يحب كل عليم، (جواد) يحب كل جواد.. (جميل) يحب الجمال، (عفو) يحب العفو وأهله، (حيي) يحب الحياء وأهله، (بر) يحب الأبرار، (شكور) يحب الشاكرين، (حليم) يحب أهل الحلم»(٨١).

وهكذا يصبح في قلب المؤمن، بأسماء الله الحسنى، منظومة قيمية خلقية ملزمة، وفاعلة، تشكل له ضميره، وتغذي واعظ الله في قلبه.

والطريق لذلك: هو دراسة معاني أسماء الله الحسنى، وتأمل معطياتها التعبدية والخلقية، ومحبتها، والعزم على السلوك حسب ما تدل عليه من أخلاق، كل ذلك بالإيمان اليقيني القلبي، مما يربي وعيا خلقيا بمنظومة القيم الإسلامية، يوجه الإنسان المؤمن حيثما كان .

ولنتأمل في هذه التجربة التربوية: يروي القشيري؛ عن سهل بن عبد الله؛ قال: قال لي خالي يوما: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلت: كيف ذِكره؟ فقال: قل؛ بقلبك، عند تقلبك في ثيابك؛ ثلاث مرات، من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إليّ، الله شاهدي، فقلت ذلك، ثم أعْلمْتُهُ، فقال: قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة، فقلت ذلك؛ فوقع في قلبي حلاوة. فلما كان بعد سنة؛ قال لي خالي: احفظ ما علمتك، ودم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة، فلم أزل على ذلك سنين، فوجدت لها حلاوة في سِرِّي، ثم قال

(٨١) ابن القيم: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣١٦ .

لي خالي يوما: يا سهل، مَنْ كان الله معه، وهو ناظر إليه، وشاهده: أيعصيه ؟ إياك والمعصية»[٨٢].

هذه تجربة تربوية يمكن تطبيقها في كل اسم لله تعالى، ثم تأمل في نهاية التجربة: لقد تكون لدى سهل ضمير يجتنب المعصية، ويستشعر حلاوة الحضور مع الله، حياء من الله: الرقيب، المطلع، الشهيد.

٣- تربية محبة الله في القلب، ومحبة مكارم الأخلاق التي يحبها :

وذلك بتعميق معرفة الله بأسمائه الحسنى، ومطالعة مننه ونعمه، وتدبر آلائه، في الكون، تربية تجعل القلب منعطفا نحو الله، مائلا لالتزام معالي الأخلاق التي يحبها، راغبا ـ بشوق ورضا وأنس ـ في العمل بما يرضيه، واجتناب محرماته، أي: أن يكون الضمير القلبي ملتزما بأمر الله؛ حبا لله، وتلذذا بطاعته، وتنعما بعبادته، فيركض إلى الله، ويطير إليه؛ فرحا وسرورا، وأن يدعو القلب والجوارح لذلك .

فتربية الضمير تكون بالتحبيب في مكارم الأخلاق، وفي الله الذي شرعها ورضيها .

٤- تربية الخشية من اللـه في القلب :

والخوف من أن يحجبك الله عن رؤية وجهه، في الآخرة، والخوف من أن يحجب قلبك عن معرفته، وشهود مجالي أسمائه، وجلاله، وكماله المطلق، في الدنيا، والخوف من أن يحجب قلبك عن نور القرآن، ونور السنة المحمدية، والخوف من غضبه وسخطه، إذا عملت بسيئ الأخلاق التي يبغضها، والخوف من عذاب الله، في نار الجحيم؛ إذا فعلت ما حرم الله؛ من العقائد، والأخلاق، والتعاملات، وتركت ما يرضيه؛ من فعل الخير المؤدي للفلاح.

---

(٨٢) القشيري: الرسالة، ص ١٥ – ١٦ (طبعة الحلبي) .

تربية هذه الخشية، أي: تنميتها، وتعظيمها؛ بإمدادها وتغذيتها بالمعرفة الصحيحة، والممارسة العملية، هذه التربية هي مرتكز أساسي لتربية واعظ الله في القلب، أعني: الضمير الديني اليقظ المشفق على النفس أن تقع في سخط الله، وعذابه، وشر عقابه؛ في الدنيا والبرزخ في الآخرة، فيبادر الضمير بالأمر بالخير، والزجر عن الشر، والمراقبة، والمحاسبة، الدقيقة، لكل هموم القلب، وأفعال الإنسان، ويبادر بالتوجيه الدائم إلى ضرورة أن يخشى الله فيما يقوله، وما يعمله، وما ينشط فيه من نشاطات وعلاقات، وأن يخشاه فيما لم يقله، ولم يعمله، في حين كان الواجب الخلقي يستلزم أن يقال وأن يفعل.

فإذا تربت هذه الخشية في القلب؛ حرص ألا يعصي ولا يزل في خطيئة أو إثم، لينجو من عذاب أليم، أقله: عذاب الضمير.

وتربى هذه الخشية بأن يطالع القلب- بتعمق وتفكر- الآيات والأحاديث التي تتحدث عن صفات الجلال، وعن الكبائر التي تسخط الله، وعن العذاب، وآثار المعاصي في القلب، وفي القبر والآخرة، وتأمل مراحل السفر الإنساني عبر الموت، وما بعد الموت، والبعث، والحشر، والحساب والجزاء، والثواب والعقاب في الجنة والنار، وتحويل ذلك التأمل، والتوهم والتمثل، في القلب والنفس والعقل إلى حالة شعورية يعيش بها القلب حالة الخوف والخشية من الله، فيهدي هذا الشعور الحي صاحبه في ميادين النشاط الاجتماعي والمادي المختلفة، نحو ما ينبغي أن يفعله، وما يجب أن يتركه .

وبهذا تتحول الخشية من الله إلى (حِكْمَة) في القلب، فرأس الحكمة: مخافة الله، أي: تتحول إلى ضمير ديني حي ينفع صاحبه، ويدفعه إلى عمل الخير الذي يحبه الله، وترك الشر الذي يُغضب الله، ويجعله قادرا على (تمييز) الصحيح والفاسد من الأخلاق، واختيار الصحيح، حتى يحبه الله، ولا يعذبه.

فتربية هذا الواعظ مرهونة بتربية تنمي في القلب خشية الله، كلما هَمَّ بفعل لا يجوز أداؤه .

٥- تربية الإيمان اليقيني والوعي اليقظ باليوم الآخر:

بحيث نكوِّن وننمي إيمانا، وتصديقا يقينيا يجعل القلب يشهد مشاهد الثواب، والعقاب، في الجنة والنار، ومشاهد الأهوال عند الموت، وفي القبر، ويوم البعث والموقف،.. فتربية الإيمان بما بعد الموت، وباليوم الآخر وما فيه من بعث، وإقامة للعدل التام، وثواب على الإيمان والعمل الصالح، وعقاب على الكفر والعصيان وفعل الشر، تربية تسري في العروق، هذه التربية هي ركن رئيسي في تربية الضمير اليقظ الذي يكون له وقفة أخلاقية لا تنفصل عنه كلما هم بقول، أو عمل، أو سلوك .

وتربية عقيدة الإيمان بما بعد الموت، وبالبعث وإحياء الموتى للجزاء، يكون باكتساب صورة مفصلة لما سيكون، من خلال الاطلاع على الآيات والأحاديث المفصلة لهذه العقيدة، بطريقة توحي بمراعاة هذا اليوم الآخر في كل هم، وقول وعمل، وأنه محاسب ومجازى على كل ذلك أمام الله، وسيوزن كل قول وكل عمل في موازين قسط، لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، وبحيث يدخل القلب المطالع لهذه الآيات والأحاديث في حالة وجدانية متأثرة ومنفعلة بالمعاني، والمواقف، فيتعمق الإيمان بالبعث، ومشاهد الثواب والعقاب في القلب، وبهذا تتحول المعرفة المفصلة به إلى (ضمير) حي، يهدي سير الإنسان على الطريق المستقيم .

ويتحقق ذلك بتمثل مشاهد الثواب، ومشاهد العقاب، ومشاهد الأهوال والشدائد، وتمثل كيفية الخروج من العذاب إلى الثواب والنعيم، وأن المخرج هو ترك العصيان والإثم، مع العمل بما يرضي الله، وكلما تمثل الإنسان ذلك بعقله وقلبه وتخيله؛ ازدادت الحاسة الخلقية عنده نموا، وكلما هم الإنسان بإثم،

فتذكر خشية الله، فامتنع عن اقتراف الإثم، تربت الحاسة الخلقية. وبهذا يصبح الحكم الخلقي الصحيح، عادة مألوفة عنده .

وتربية الضمير الديني الواعظ مرهونة بتربية تبث في قلب الإنسان خشية الله كلما هَمَّ بفعل لا يجوز أداؤه، سواء وقف الإنسان من تلك الخشية عند الرغبة في ثواب الجنة، أو الرهبة من عذاب النار، أو أضاف إلى ذلك شعورا: هو أن الصالح ثوابه فيه، والفاسد عقابه فيه، ففي كلتا الحالتين يتحقق الإنسان بمرشد جواني هو واعظ الله في القلب المسلم(٨٣) .

ولنتأمل في الصور التطبيقية الآتية :

- أخرج ابن أبي الدنيا عن إبراهيم التيمي قال: «مَثَّلْتُ نفسي في الجنة: آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها. ثم مثلت نفسي في النار: آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها؛ فقلت لنفسي: أي نفسي، أي شيء تريدين ؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا، فأعمل صالحا، قال: قلت: فأنت في الأمنية، فاعملي»(٨٤) .

وأخرجه أحمد في الزهد؛ قال إبراهيم التيمي: «مثلت نفسي في النار، أعالج أغلالها وسعيرها، آكل من زقومها، وأشرب من زمهريرها، فقلت: يا نفسي، إيش تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا، فأعمل عملا أنجو به من هذا العقاب. ومثلت نفسي في الجنة: مع حورها، وألبس من سندسها وإستبرقها، وحريرها، قلت: يا نفس، إيش تشتهين؟ قال: فقالت: أرجع إلى الدنيا فأعمل عملا أزداد فيه من هذا الثواب. قلت: فأنت في الدنيا، وفي الأمنية»(٨٥) .

---

(٨٣) عثمان عبد المعز عبد الوهاب رسلان: القيم في كتابات زكي نجيب محمود، دراسة تحليلية تأصيلية، مرجع سابق، ص ٥٨٧ .

(٨٤) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ١٠، ص ٣٤ .

(٨٥) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، ص ٣٤٢ .

- وقال ابن أبي الدنيا: «حدثني خالد بن خداش؛ قال: حدثني معلى الوراق؛ قال: كنا عند مالك بن دينار وهو يتكلم فجاء أبو عبيدة الخواص، فأخرج من كمه حبل ليف جديد، في طرته عُرْوَتان، فجعل عروة في عنقه، وعروة في عنق مالك، ثم قال: يا مالك، عُدَّ أَنَّا بين يدي الله، ما عسى أن نقول؟ فبكى القوم جميعًا»(٨٦).

هذه الآلية التربوية هي آلية التمثل، والتخيل لما يمر به الإنسان من لحظة الموت، إلى الاستقرار في الجنة، أو النار، وهي آلية أصيلة في تربية الضمير الديني، وتستلزم الدرس المفصل، والتأمل لتفاصيل الإيمان بالبعث والجزاء، وتمثل ذلك، بالقلب، والتخيل، ووضع الإنسان نفسه في ذلك المسار الأخروي، من لحظة خروج روحه، إلى الاستقرار في دار الجزاء، وأول البلية - يقول المحاسبي: «تعطيل القلوب من فكر الآخرة وذكرها، وعن ذلك يكون اللهو، ثم النسيان، ثم الغفلة، ثم التضييع لأمر الله عز وجل، ثم مواريث السوء على أعمال السوء»(٨٧).

ويضيف المحاسبي: «فإذا تفكر في المعاد بتخويفه نفسه عظم قدر العذاب عنده، فإذا عظم قدر العذاب عنده؛ هاج في قلبه الخوف حتى لا يملكه (..) العبد: كلما أدام الفكر بالتخويف في ذكر العقاب وكثرة الأهوال، وعظم السؤال، مع المعرفة بعظيم حق الله عز وجل، وواجب طاعته، وأنه لِعَامَّةِ ذلك مضيع؛ هاج الخوف، فإذا هاج الخوف قذف القلب بالإصرار على الذنوب، وسخا عنها نفسا، فندم، وتاب، وخشع، وأناب، (...) فمن أدمن الفكر بالتخويف لنفسه فيما تهدده ربه وتوعده به؛ هاج خوفه، فأطفأ نار شهواته، التي أصر عليها، فسخا بترك الإصرار نفسا، وأقلع عن الذنوب، وخاف عاقبتها،

---

(٨٦) ابن أبي الدنيا: كتاب الرقة والبكاء، رقم ٢٨٣، ص ٢٢٢ .

(٨٧) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٥٤ .

ولا سيما إذا أدمن الفكرة وهو يتلو كتاب الله عز وجل فيتفكر في وعده ووعيده، وأهوال القيامة وشدائدها، وتلك أنجع الفكرة؛ إذا كانت بتلاوة كتاب الله عز وجل»(٨٨).

وبهذا التفكر، وهذا التمثل لما يجري للإنسان بعد الموت - كما بين القرآن وصحيح السنة - ينمو واعظ الله في القلب، ويقوى، ويؤدي أدواره في الوعظ والدعوة والتوجيه، والضبط الخلقي الذاتي الإرادي .

وهذه الآلية يمكن ممارستها من خلال تلاوة آيات اليوم الآخر في القرآن، ودراسة أحاديثه، وتأمل كتب صحيحة في هذه العقيدة، وزيارة المقابر، وشهود الجنائز، ووضع الإنسان دائما نفسه في موضعها، وتمثل ماذا يجري.

فلا بد من بذل جهد في ذلك لتحصيل هذا الغرض .

٦- تربية عقيدة الاستخلاف في الأرض:

وهذه العقيدة ضرورية لتربية واعظ واع بمهمته في الأرض، تربية ضمير فاهم ومدرك للمهمة الأساسية للإنسان، وغاية وجوده، ليوجه على بصيرة؛ فالله استخلفنا؛ لنعبده، ولنعمر في الأرض، بالتزام منهجه، والخضوع له، وبإعمال عقولنا لتطوير عالمنا، فالله وكلنا لهذه المهمة في الأرض، وجعل لنا مدة محددة (هي أعمارنا - كأفراد - وعمر العالم كجنس بشري) لهذا الاستخلاف؛ لنمارس مهمات الاستخلاف، وتنتهي هذه المدة بموت كل منا، ثم يأتي الحساب على إنجازاتنا وأعمالنا في الأرض، وبمعيارية المنهج الإلهي، فمن هذه المدة، والمستخلف (الله تعالى) لنا هو الذي يحاسب كل مستخلف، وهو كل أفراد البشر، كل منا، سيسأله: ماذا عملت؟ وماذا أجبت المرسلين؟ يسألنا عن كل شيء، ويزن أعمالنا بموازين قسط، فإن كانت الأعمال موازنة لمنهجه فُزْنَا بالجنة

---

(٨٨) المصدر السابق، ص ٦٧، ٦٨

ونعيمها، وتمتعنا برؤية وجه الله الكريم، وإلا فمصيرنا العذاب والحجاب، وستأتي أحاديث توضح هذا المعنى، ومنها: «وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون». وتأمل في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨] ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ۞ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۞ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٦ـ ٩] فنحن جميعا مسؤولون عن أعمالنا في الأرض، في مرحلة الاستخلاف، ولن نعود إلى الدنيا لنعمل صالحا غير الذي كنا نعمل، فقد أعطانا الله عمرا لنعمل، ونعمر، ونعبد الله، بفعل ما أمر، وترك ما نهى عنه.

إن القلب إذا استشعر هذه الحقائق المتعلقة بعقيدة الاستخلاف في الأرض، والحساب على الأعمال، وأنه موقوف للسؤال: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وأنه «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه: ماذا عمل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟ وعن جسمه: فيما أبلاه ؟**»(٨٩)، وأنه سيتمنى أن يكون له نصف حسنة يدخل بها الجنة، .. إذا آمن القلب بهذا واستشعره، ودخل في حالة وجدانية بتمثل ذلك، وتخيله يجري عليه، فتأثر بهذه الحقائق، فإن واعظ الله سيكبر، وينمو، ويقوى، ويتبصر، وتتكون له رؤية خلقية، تدفعه للوعظ، والدعوة والأمر بالخير، والزجر عن الشر، والحرام، من داخل قلب الإنسان.

وتأمل في قول أبي الدرداء: «إن أخوف ما أخاف - إذا لقيت ربي تبارك وتعالى - أن يقول لي: قد علمتَ، فماذا عملتَ فيما علمتَ ؟»(٩٠).

---

(٨٩) رواه الخطيب في اقتصاد العلم العمل، رقم (١)، وقال الألباني: إسناده صحيح، وأخرجه الدارمي والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، انظر: رسائل أربع، كتاب الإيمان..، ص ١٥٩، ١٦٠

(٩٠) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، ص ١٣٠، وأخرج مثله الخطيب، في اقتضاء العلم العمل، بإسناد حسن، المصدر السابق، ص ١٧٦ – ١٧٧ (أرقام ٥٣– ٥٥).

٧- تقوية شهود عبودية المسلم لله وحده، وأنه مخلوق لعبادته، بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه:

فهو مخلوق له، مربوب له، لا نجاة له إلا بعبادته وتقواه، وشهود أنه لم يخلق في هذا العالم عبثا، ولا سدى؛ ولا هملا، وإنما خلق ليبلوه الله ويختبره، هل يحسن العمل في الأرض ؟ هل يطيع أم يعصي؟ فينتقل من هذه الدنيا إلى نعيم الأبد، أو عذاب الأبد.

فإذا علم وتيقن ذلك، وآمن به، واستشعره بقلبه، علم أن الدليل على طاعة ربه: العلم بدينه، ومعرفة ما أحل مما حرم؛ فيعرف، ويدرس مقومات عقيدة الإسلام، ومنظومته التعبدية الخلقية، ويعرف مراتب الحلال، ومراتب المباح، ومراتب المكروه، ومراتب الحرام، فيدرس المنهيات في العقائد والأخلاق والقيم، ويدرس المحرمات من الكبائر، والصغائر، فيعمل بأمره عن علم وإيمان وعشق، ويجتنب الحرام عن علم وإيمان وبغض، يعمل بالأمر الإلهي في مواضعه وأسبابه، ويجتنب النهي في مواضعه وأسبابه، ولن يجد ذلك العلم إلا في كتاب الله ـ ربه ـ وسنة نبيه ﷺ، فيدرس آيات العقيدة، وآيات الأخلاق، وأحاديث العقيدة وأحاديث الأخلاق، ليعمل، ويهتدي، ويطيع ربه، فالطاعة له سبيل النجاة، والعلم هو الدليل على هذه السبيل، وهكذا يصبح الإسلام في قلبه يدعوه من داخله، ولهذا جاء في حديث الفصل: «**والداعي على باب الصراط: الإسلام**». ومن المهم هنا التحقق بدراسة ذلك الذي ذكرته، ودراسة كتاب الإيمان من صحيح البخاري، وكتاب الإيمان من صحيح مسلم، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للطبري اللالكائي، والإيمان لابن منده،.. إلخ، وكتاب الأدب من صحيح البخاري، وكتاب الأدب المفرد له، وكتاب صحيح الترغيب والترهيب، وكتاب البر والصلة من صحيح مسلم، وكتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمي (مع الحذر الشديد من منهجه

التأويلي في العقيدة) ، وكتاب مدارج السالكين لابن القيم، والتحفة العراقية في الأعمال القلبية لابن تيمية، وكتاب الكبائر، ونصيحة المسلمين، والإيمان والتوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب، كل ذلك لتكوين تصور علمي صحيح للمنظومة العقدية والخلقية من مصدرها الصحيح، في وعي المسلم، فإذا عرف القلب ذلك، واعتقده، وآمن به بيقين، تحصل فيه معرفة مفصلة لقيم الإيمان، ومعايير السلوك، فيأمر واعظ الله في القلب بالخير، وينهى عن الشر، من داخل القلب، عن حكمة وبصيرة .

٨- تقوية شهود التسجيل لكل قول وعمل في سجلات وكتب تعرض على الإنسان يوم الجزاء:

إن هنا حقائق إيمانية صريحة هي أن الله جعل ملائكة مخصوصة لكتابة وتسجيل أقوال وأعمال الإنسان، وأن كل ما صدر عن الإنسان، سيأخذه، ويقرأه، ويسأل عنه، ويجزى عليه، وأن هؤلاء الملائكة الذين يسجلون أقوال وأعمال الإنسان يعلمون كل ما يفعل الإنسان، ويكتبونه عن علم.

إن اكتساب المسلم لهذه التصورات العقدية، والإيمان بها، هو دعامة أساسية لتربية واعظ الله في القلب، لأن هذه العقيدة تقوي الحساسية الشعورية الخلقية لأعمال الإنسان، وأنه محاسب عليها وسوف تعرض عليه مكتوبة محصاة عليه.

لنتأمل في هذه الآيات:

- ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية: ٢٩].

- ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨]، فكل قول، وكل عمل يسجله ملك رقيب عتيد قوي يقظ، لا يغادر أي قول إلا وكتبه، ولا يغادر أي عمل إلا كتبه وسجله.

- ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾[القمر: ٥٢، ٥٣]،

والزبر: هي الكتب التي تسجل الملائكة المختصون فيها كل شيء يفعله الإنسان، حيث يسطرون ويكتبون في سطور كل شيء، صغير وكبير.

- ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢]. فهم ملائكة كرام ماهرون في الكتابة، ويعلمون ما نفعل، فيكتبون بدقة وإحصاء.

- ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء: ١٣، ١٤]. فكل ما طار، أي: صدر عن الإنسان من قول أو عمل، هو مسجل في كتاب، سيلزم به الإنسان، ويسأل عنه، ويؤخذ به، خيرا أو شرا، ويخرج الله له كتابا يلقاه منشورا ليقرأه الإنسان بنفسه، ويحاسب نفسه بنفسه.

- ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] فكل ما عملناه في الدنيا، هو حاضر مسجل في كتاب نجده يوم القيامة أمامنا، لنحاسب طبقا له.

- ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] هكذا بكل دقة وإحصاء، لا يذهب شيء.

- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾[الحاقة: ١٩ - ٢٧].

إن شهود القلب لهذه الحقائق، وتمثلها بالمشاعر والخيال، والاندماج فيها، وتذوقها، وإمرار النفس فيها، يقوي واعظ الله، لأنها تدخله في عملية تربوية تنقيه، وتدعمه، وتنميه، لتجعله حذرا في كل قول، وفي كل فعل؛ لأنه يعلم

ويعي أنه مكتوب مسجل، ومحاسب عليه يوم الجزاء والدينونة، فلابد أن يكون قوله أو فعله موزونا بميزان القيم الإسلامية التي تشربها، ووعاها.

٩- تربية قيمة اعتبار مآلات الأفعال، وتعويد الإنسان على محاسبة نفسه على ما مضى، وعلى ما يستقبل من الأعمال:

وقد أشرت لهذه الآلية في بيان مهمات واعظ الله ومسؤولياته، والمهم أن يتعود المسلم على التفكر العقلي في مآلات نتائج أقواله وأعماله، وما يترتب عليها من مصالح أو مفاسد دنيوية، وأخروية؛ فإن هذا الفكر يكشف له مدى صحة قوله أو عمله، وهل يستحق أن يفعله، أو أن يقوله، يقول الحسن: «الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك»(٩١).

١٠- التربية الخلقية الصحيحة التي تستهدف:

- إكساب تصورات ومعتقدات صحيحة عن القيم الخلقية، وضرورة التمسك بها، وأهميتها في حياة الإنسان؛ بحيث يتكون تصور صحيح لمضمون كل قيمة، وأهميتها، وكيفية ممارستها، وثمرات الالتزام بها، وحدود التمسك بها.

- إكساب اتجاهات وجدانية إيجابية ترغب، وتشوق، وتدفع نحو التزام هذه القيم، بحيث يشتهي الإنسان ذلك، ويحبه، ويشعر بالسرور عندما يؤدي الخلق الحسن، ويشعر بالسوء عندما يخالفه، فيعرف قلبه المعروف وينكر قلبه المنكر.

- تعويد الإنسان على ممارسة كل خلق، فالخير عادة؛ يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: «تعودوا الخير، فإن الخير بالعادة»(٩٢). ويقول أيضا: «حافظوا على أبنائكم في الصلاة، وعودوهم الخير؛ فإن الخير عادة»(٩٣)، وقد روى الطبراني

---

(٩١) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٨، ص ١٠٩.

(٩٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج ٩، رقم ٨٧٥٥، ورجاله رجال الصحيح، ص ١٥١، ورواه برقم ٩١٥٦، ص ٢٣٦

(٩٣) المصدر السابق، ج ٩، رقم ٩١٥٥، ص ٢٣٦، وإسناده ضعيف، لكن يشهد له ما سبق، والمعنى صحيح.

عن معاوية رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الخير عادة..»(٩٤) وإسناده حسن.

- تعويد الإنسان على ممارسة محاسبة النفس على كل أعمالها، كما ذكرتها سابقا، فهذه العملية تمثل تقويما خلقيا ذاتيا، وإصلاحا من الداخل، بجهد ذاتي.

إن عملية التربية الخلقية متشعبة، ودائمة، والمهم أن ينخرط المسلم في تربية نفسه خلقيا، لاكتساب الأهداف السابقة، والاتصاف بمكارم الأخلاق ومحاسنها، وتنمية مرجعية خلقية في وعي الإنسان، ووعي خلقي يشكل حكمة وبصيرة يوظفها واعظ الله في القلب. وقد بينت أسس ومبادئ التربية الخلقية في الفصل الأول، فيرجع إليه .

١١ - تربية توقظ الشعور بالمسؤولية الخلقية بأبعادها:

وقد أوضحنا ذلك في الفصل الأول عند الكلام عن مبادئ تربية القيم .

١٢ - أداء العبادات الإسلامية بخشوع وتفكر:

فتنمية واعظ الله في القلب تحتاج لتغذية وإمداد روحي واستعانة بالله، واستمداد منه، لتغذية هذا الواعظ الرباني، وتقويته، وإقامة الصلاة، وصلاة الجماعة، وصوم رمضان، وقراءة القرآن، وذكر الله، والتفكر في آلائه، وحج البيت الحرام، والإخلاص والمراقبة لله.. كل هذا يربي الشعور بالله - ويقوي واعظ الله في القلب.

وهذا موضوع بحث كبير (دور العبادات الإسلامية في تربية الضمير الخلقي) ولكن نكتفي هنا ببعض النصوص الدالة، في الصلاة والصوم، يقول الشيخ حسن البنا: « الصلاة: منهاج تربية كامل للفرد، أولًا - وإذا كان معنى التربية الكاملة عند المربين إبلاغ المربي حد كماله، وذلك بالنسبة إلى الإنسان:

---

(٩٤) المصدر السابق، ج ١٩، رقم ٩٠٤، ص ٣٨٥، ٣٨٦، مع تحقيق المحقق الفاضل .

تكميل بدنه بالقوة والعافية، وتكميل عقله بالعلم والمعرفة، وتكميل خلقه بالوجدان السامي، والضمير الحساس الشاعر؛ فإن الصلاة وحدها هي التي تصل بالمصلي إلى هذا الكمال من أقرب طرقه، وأفضل وسائله، فهي -بما يسبقها ويلازمها من طهارة ونظافة ووضوء وغسل، وعادات صحية- خير وقاية، وقد تكون خير علاج يؤدي إلى القوة والعافية. وهي - بما فيها من قرآن يتلى، وآيات تردد - مجموعة من العلم والمعرفة؛ تثقف وتعلم، وتملأ العقل وتنير القلب، وهي بما فيها من ركوع وسجود وخشوع ومناجاة لله العلي الكبير ترقق الحس، وتهذب النفس، وتصل الروح بالملأ الأعلى، وتتمم مكارم الأخلاق، ولسجدة واحدة خاشعة مخلصة أشد عملا في نفس المؤمن من عشرين درسا في فلسفة الأخلاق»[٩٥].

ويفصل فكرة أن «الصلاة منهاج كامل لتربية الأمة الإسلامية» في محاضرة طويلة، يقول فيها: «ثم إنك تقول: الله أكبر، فتتخلص من كل ما حولك، وتتجه لله تبارك وتعالى، وتركع تعظيما لمولاك، وتقول: سبحان ربي العظيم، ثم تسجد، وهناك يستيقظ ضميرك، يستيقظ الضمير الإنساني، ومتى استيقظ الضمير فقد تنبه الميزان الفاصل الذي يستطيع أن يميز بين الخير والشر، وهذه اليقظة لن تأتي بدراسة الأخلاق، ولا بقراءة الكتب؛ فكم من علماء وصلوا في العلم إلى درجة عالية، ولكن وجدانهم فاسد مجرم.. أما الوجدان الصحيح فهو نور في القلب يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده، حتى يستطيع أن يميز بين الخير والشر.. هذا الإيقاظ الوجداني يتجدد- يا أخي- خمس مرات في اليوم والليلة ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]»[٩٦].

---

(٩٥) حسن البنا: من تراث الإمام البناء، الكتاب الخامس، ص ٣٩٣، ٣٩٤.
(٩٦) حسن البنا: حديث الثلاثاء، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٢٨

والصوم، وشهر رمضان مدرسة تربي الخلق التقي، في الأمة المسلمة: «تزكي أرواحها، وتصفي نفوسها، وتصلح أخلاقها، وتجدد حياتها، وتقيم موازين التقدير فيها، فتعلم أن المطامع أساس الاستعباد، وأن الشهوات قيود الأسر، وأن أساس الحرية: الاستغناء، وأن الاستغناء يستتبع المشقة، ولكنها مشقة عذبة لذيذة، لأنها ستنتج الحرية، والحرية أحلى من الحياة»(٩٧).

ويقول البنا: «وسترى إذا تأثرت بالصوم أن عاطفة رقيقة يتحرك بها قلبك وشعورا دقيقا تختلج به نفسك، وإحساسا قويا يسري في جوانحك هو الذي يسميه الناس الرحمة، أو الشفقة أو العطف، أو الحنان، وسمه ما شئت، فحسبك أنه شعور يدفعك إلى مواساة المنكوبين، وإعطاء المحرومين.. إلخ»(٩٨).

ويحدث المسلمين عن رمضان فيذكر أنه «يربي فيكم الإرادة القوية، ويعودكم الاحتمال والصبر، ويرسم لكم طريق الحرية، ويكشف عن بصائركم حجب المادة، حيث تسمو إلى أفق الملائكة، ويعلمكم الفقه عن الله - تبارك وتعالى - والنهم لكتابه ودينه، وآياته، ولكل أستاذ أثره، فكيف كان شهر رمضان في نفوسكم ؟.. إلخ»(٩٩).

ويسأل: «هل اهتدينا في رمضان الماضي إلى أسلوب صحيح من أساليب تربية النفوس وتطهير الأرواح، وتزكية الأخلاق، فحرصنا عليه..إلخ؟»(١٠٠).
ويقول: «هذا هو رمضان الذي تربى بأيامه ولياليه السلف الصالح فكانوا أكرم الناس نفوسا ومشاعر، وأزكاهم أرواحا وعواطف..»(١٠١).

---

(٩٧) حسن البنا: من تراث الإمام البنا، الكتاب السادس، ط ١، دار الدعوة، ٢٠٠٦م، ص ٦٦.
(٩٨) المرجع السابق، ص ٦٧، ٦٨.
(٩٩) المرجع السابق، ص ٧٨.
(١٠٠) المرجع السابق، ص ٨١.
(١٠١) المرجع السابق، ص ٨٨، وانظر أيضا: محمد عبد الله دراز: الصوم تربية وجهاد، تحقيق أحمد مصطفى فضلية، ط ٣، دار القلم، الكويت، ٢٠٠٣م، ص٥٣، وما بعدها.

وقراءة القرآن ـ بتدبر، وتفكر وخشوع، وتأثر تربي العقل والقلب، يقول دراز: «وكلنا نعلم أن القرآن الكريم ليس رسالة مدنية فحسب، وأنه ليسْ كل همه تنظيم صور الحياة ومظاهرها، وإنما هو قبل كل شيء تربية للعقول بالعقائد السليمة، وتزكية للقلوب بالمبادئ الفاضلة، التي متى نبتت بين الجوانح؛ أينعت ثمراتها الطيبة على اللسان والجوارح، أجل، ليس من سنة القرآن الكريم أن يكتفي في معالجة الأمور بذلك النوع من العلاج السطحي الجانبي، ولكن دائما يأتي البنيان من قواعده، ويسوس الأمر من باطنه، وأعماقه؛ يمكن للخيرات والفضائل؛ بغرس بذورها، ويكافح الشرور والرذائل باقتلاع جذورها..إلخ»(١٠٢).

وعلى مدى كتابنا هذا نرى أن العبادات وتلاوة القرآن، وذكر الله تمثل ركائز أساسية لتربية أخلاق القلوب، وإنما نريد هنا أن نقرر أن المربين المسلمين للضمير الخلقي لا نجاح لهم بدون التوجيه الحي لممارسة العبادات الإسلامية لله، بخشوع، وهمة، وتفكر.

إن إعمال الأساليب والفاعليات التربوية السابقة، هو ما يحقق تنمية واعظ الله في قلب المسلم، وبالتالي ينجز أهم مشروع تربوي في التصور الإسلامي، حسبما نراه، ونؤمن به.

ثامنا: خاتمة واستنتاجات:

أ- نستعيد الآن بعض ما قاله ابن تيمية، الفقيه الرباني، عن هذا الحديث الذي يشكل محور هذا الفصل، فقد وصفه بقوله: (الحديث العظيم)، وقال: «من عرفه انتفع به انتفاعا بالغا، إن ساعده التوفيق، واستغنى به عن علوم كثيرة». فهو عظيم حقا، لأنه يتعلق بأهم مشروع تربوي، وهو تربية واعظ الله في قلب المسلم، وهو نافع منفعة بالغة، ولكن بشرطين: أن نعرفه، وندرسه،

(١٠٢) محمد عبد الله دراز: حصاد قلم، مرجع سابق، ١٣٨

ونفقه دلالاته، وقد حاولنا ذلك في هذا الفصل، والثاني: أن يساعدنا التوفيق، أي: أن يوفقنا الله في العمل به، وأن يهدينا هداية التوفيق القلبي نحو التزام ما يدل عليه. ولهذا يتطلب هنا الدعاء لله، ولو بجزئيات تتعلق به، مثلا: اللهم قوِّ واعظك في قلوبنا، اللهم وفقنا لتربية واعظك في قلوبنا.. !

ب- إن تربية واعظ الله في القلب معيار لخيرية الإنسان في الدنيا والآخرة، ومعيار لفلاحه، فهي مشروع تربوي يقع في رأس الأولويات التربوية المستهدفة لإخراج الشخصية المسلمة الصحيحة، التي تقود عمليات تغيير ما بالأنفس، وتغيير ما بالمجتمع .

جـ - إن تربية هذا الواعظ الجواني، تستلزم وضوح التصور عن طبيعته، ومهماته، وكيفية هذه التربية وآلياتها، وقد فصلنا ذلك في الفقرات السابقة.

د - إن عملية التربية الإسلامية ـ الخلقية ـ خصوصا، والقلبية، أيضا، لا يمكن أن تكون كاملة، وصحيحة بدون إنجاز مشروع واعظ الله في قلب الإنسان المسلم، فبدون إنجاز هذا المشروع التربوي الحيوي ستكون التربية الخلقية شكلية، برانية، لا تدخل في العمق، ولا تعمل من تحت، ولا تضبط من داخل الإنسان، وتسيره تسييرا ذاتيا، ومن هنا فالتربية المستهدفة لأنسنة الإنسان وتحريره، وتنميته ـ تنمية متكاملة، ومتوازنة - ستخسر وتفقد أهم جوانبها، وأهدافها، إذا لم تكرس الجهود لتربية الضمير المؤمن؛ واعظ الله؛ وداعي الله، في القلب.

وبهذا يصبح لنا معيار صحيح لنقد العمل التربوي الذي نمارسه مع أنفسنا ومع أولادنا وبناتنا، والذي نمارسه مع زملائنا وإخواننا، والذي يمارس في الحركات الإسلامية، والذي يمارس في المدارس الرسمية تحت اسم التربية الإسلامية .. وتفعيل هذا المعيار يجعلنا نحلل فكرنا التربوي، وممارستنا التربوية في المستويات السابقة، لنحكم على مدى تحقق المشروع التربوي لتربية

الضمير الحي، على مستوى الفكر، والممارسات التربوية، ويجعلنا نبحث في السياقات الثقافية والاجتماعية التي تحول دون تبني هذا المشروع في مدارسنا وحركاتنا الإصلاحية الإسلامية، لتحديد المعوقات والعقبات والحوائل الثقافية والاجتماعية في المؤسسات التربوية، التي تمنع وتحول دون ممارسة تربوية تنجز هذا المشروع المهم.

هـ - وأستطيع أن أقرر أن تطوير الحركة الإسلامية، وتطوير التربية في مجتمعنا، لن يتحقق، بدون تبني مشروع تربية واعظ الله في قلب كل مسلم؛ أي: أن كل مسلم يجب أن يربي في قلبه هذا الضمير الحي.

و - ولماذا ؟ لأن المسلم الحق لا يوجد إلا بهذا الضمير الحي .

ولأن إصلاح القلب والنفس لا يوجد إلا بهذا .

ولأن تغيير ما بالأنفس لن يحدث إلا بهذا .

ولأن تغيير ما بالمجتمع لن يحدث إلا بهذا .

فأي تضييع لكل هذه الغايات الكبرى إذا لم نربِّ الضمير الحي، واعظ الله، في قلب كل مسلم ؟

تاسعا: أسئلة وتطبيقات لتعميق الفهم، وتسهيل الممارسة:

١ - حدد مفهوم واعظ الله في قلب المسلم .

٢ - بين العلاقة واعظ الله بالصراط المستقيم .

٣ - ما مكونات المثل المذكور في الحديث؟ وما علاقة واعظ الله بها؟

٤ - ما طبيعة واعظ الله في القلب؟ بين بالتفصيل، ووضح الدلالات.

٥ - ما مهمات وأدوار واعظ الله في القلب ؟ وما علاقتها بأهداف تربية الضمير المسلم؟

٦ - هل تعبير: الضمير المسلم الحي ـ يعتبر بديلا ـ لغويا ـ صحيحا يعبر عن مفهوم واعظ الله في قلب المسلم؟ ولماذا؟

٧ - ما موقع تربية واعظ الله في القلب، في المشروع التربوي الإسلامي؟ وضح ما تقول .

٨ - ما جوانب العملية التربوية الضرورية لتربية واعظ الله في القلب؟ وما الجانب العقلي المعرفي؟ وما الجانب القلبي الإيماني؟ وما جانب التعود والممارسة؟

٩ - هل يمكنك أن تضيف آليات وفاعليات أخرى؟

١٠ - قم بإعداد قائمة مفصلة بخصائص ومهمات واعظ الله في القلب، وأثبتها على ورقة، جهة اليمين، وأمام كل خاصية، ومهمة حدد: هل تتوفر وتحقق في قلبك أم لا ؟ ما رأيك في هذا الأسلوب التربوي الذاتي؟

١١ - استخدم القائمة السابقة للحكم على ممارستك التربوية، وممارسة غيرك.

١٢ - هل تَرَبَّى واعظ الله في قلبك، عبر التعليم الرسمي ؟ أو عبر مشاركتك في حركة إسلامية ؟ ما دلالة ذلك ؟

١٣- ما الرؤية التربوية المستخلصة من هذا الفصل؟

١٤ - كم حديثا صحيحا في هذا الفصل؟ قم باستخراج الأحاديث، واشرع في تفهمها على حدة .

١٥ - قم بإعداد درسين، أو محاضرتين، من مادة هذا الفصل .

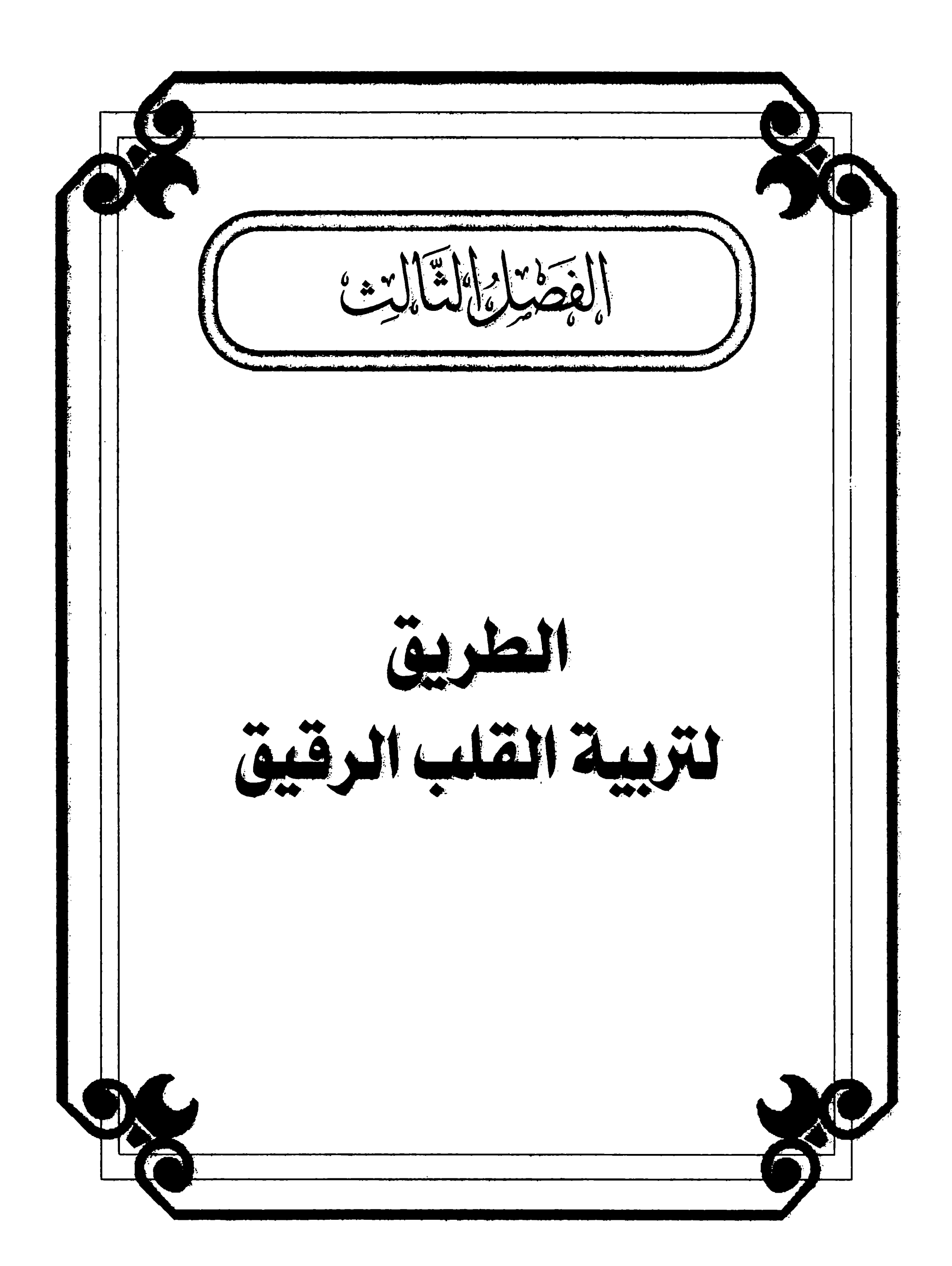
١٦ - قم بإعداد قائمة يمكن أن تطبع على شكل (بوستر)، أو ملصق مقاس ١٠×٣٠ سم، تعرف فيها واعظ الله في القلب، تلخص هويته، وطبيعته، وتحدد مهماته ومسؤولياته، وترسم كيفية تربيته، في نقاط واضحة منسقة، وحاول أن توزع هذه القائمة بعنوان (المشروع التربوي الأول ـ تربية واعظ الله في قلب كل مسلم) .

١٧ - ما علاقة واعظ الله في القلب بمفهوم القلب الأجرد السليم المنـور؟ الذي تناولناه في الفصل الثاني عشر؟

هل يمكن القول: إن تربية واعظ الله في القلب لا تتم بـدون تربيـة القلـب الأجرد المنير؟ وهل السراج الـذي يزدهـر وينـير في قلـب المـؤمن، هـو النـور والإلهام الذي يبثه واعظ الله في القلب؟! وضح وجهة نظرك.

١٨ - ما أهمية تربية الضمير اليقظ، في حيـاة الـشخص المـسلم، وفي حيـاة المجتمع المسلم، وفي الحياة الاجتماعية الإنسانية؟ وضح ذلك بأمثلة.

والحمد لله رب العالمين



الفصل الثالث

الطريق لتربية القلب الرقيق

الطريق لتربية القلب الرقيق

أولا: نصُ الحَديثِ النبوي:

١ـ أخرج الطبراني عن أبي الدرداء ﷺ قال: أتـى النبـيَّ ﷺ رَجـلٌ يـشكو قَسْوَةَ قلبهِ، قال: «**أتحـب أن يلـينَ قلبُـك، وتُـدركَ حَاجَتـكَ؟ ارحـم اليتـيم، وامْسَح رَأسَهُ، وأطعمهُ مِنْ طعَامِكَ؛ يَلِنْ قلبُك، وتدرِكْ حاجَتكَ**»[١].

وأخرجه الخرائطي، في مكارم الأخلاق، وابن عساكر بإسناد حسن، وفيه: «**أدْنِ اليتيم منك، وألْطِفهُ، وامسح برأسِهِ، وأطعمه من طعامك، فإن ذلـك يلين قلبَك، ويدرك حاجَتكَ**»[٢]. ورواية الخرائطي إسنادها معـضل؛ عـن أبي عمران الجوني؛ قال: قال رجل: يا رسول الله، أشكو إليك قسوة قلبـي. قـال: «**أدْنِ منك اليتيم، وامْسَح رَأسَهُ، وأجْلِسْهُ على خِوَانِكَ، يلن قلبك، وتقدر على حَاجَتِكَ**»[٣].

٢- وأخرج أحمد في المسند عن أبي هريرة؛ أن رجلا اشـتكى إلى النبـي ﷺ قسْوَة قلْبِهِ، فقال: «**امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**»[٤].

وأخرجه أحمد عن أبي هريرة، أن رجلا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه،

---

(١) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته، الفتح الكبير، ج ١، حديث رقـم ٨٠، ص ٧٨ وفي السلسلة الصحيحة، حديث رقم ٨٥٤ .

(٢) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير.. ج١، حديث رقم ٢٥٠، ص ١٠٨ .

(٣) الخرائطي: مكارم الأخلاق، ص ٧٤، وانظر: المسند، ج ٧، شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر، هامش ص ٣٣٦، ٣٣٧، ويشهد بحسن هذه الرواية ما ذكرناه.

(٤) قال محققه: «إسناده صحيح، وقد صـححه المنـذري في الترغيـب.. والهيثمـي في المجمـع، وقـالوا: رجاله رجال الصحيح». انظر المسند، ج ٩، شرحه وصنع فهارسه حمزة أحمـد الـزين، دار الحـديث، القاهرة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م، حديث رقم ٨٩٩٥، ص ٨٠، وقال ابن حجر: سنده حـسن، انظـر: فتح الباري، ج١١، مصدر سابق، ص ١٥١، وانظـر: يوسـف القرضـاوي: المنتقـى مـن الترغيـب والترهيـب، ج٢، ط ٣، دار التوزيـع والنـشر الإسـلامية، ١٤٢١هــ - ٢٠٠١م، رقـم ١٥١٩، ص١٩٣، وفيه: «امسح على رأس اليتيم..» قال المنذري: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، وكـذا قال الهيثمي (٨/ ١٦٠).

فقال له: «**إن أردت تليين قلبك؛ فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»(٥).
وأورده الألباني في صحيح الجامع بلفظ: «**إن أردت أن يَلِينَ قلبُكَ..**»، وقال: حسن(٦).

وأخرجه ابن أبي الدنيا، عن أبي هريرة، أن رَجُلاً شكا إلى رسول الله ﷺ قسوة قلبه، فقال: «**إن أَحْبَبْتَ أن يلين قلبك، فامسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين**»(٧).

ثانيا: خطورة قسوة القلب:

يتبين من هذا الحديث أن صحابيا راقب أحوالَ قلبه، وناقَشَ نَفسَهُ؛ فلاحظ، وأدرك أن قلبه قاس، لا يلين للعلم، والقرآن، وضعفاء الناس، وعلم أن هذا مخالف لخلق المسلم، وأنه يعاني من مرض سيئ، خطير، فبادر إلى رسول الله ﷺ يسأله عن علاج القسوة، ويشكو إليه هذه المصيبة، مما يدل على حرص هذا الصحابي على التمسك بخلق الرقة واللين، والرحمة، وحرصه على تعلم الطريق لذلك، وقد أرشده النبي ﷺ إلى ممارسة أخلاق عملية لتليين قلبه، وترقيقه.. وهي رحمة اليتيم، وإطعام المسكين، مما يدل على أن للأخلاق العملية أثرا مباشرا في القلب .

وسوف نتناول هذا الموضوع في الفقرات الآتية: خطورة قسوة القلب، ومفهوم القسوة وأعراضها ونتائجها، وسعي السلف الصالح للتخلص من قسوة القلب، واكتساب الرقة، وأسباب وعوامل قسوة القلب، والأساليب التربوية لاكتساب رقة القلب، والتخلص من القسوة .

---

(٥) المسند، ج ٧، تحقيق أحمد محمد شاكر، حديث رقم ٧٥٦٦، ص ٣٣٦، وقال: إسناده ضعيف، قال الألباني: «للحديث شاهد يمكن أن يرتقي به إلى درجة الحسن». انظر السلسلة الصحيحة، ج٢، هامش ص ٣، ٤ .

(٦) الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ١٤١٠، ص ٢٩٨

(٧) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، مصدر سابق، رقم ٤٧، ص ٧٢

وفي هذه الفقرة أتناول خطورة قسوة القلب، فأقول:

بتتبع النص القرآني، والحديث النبوي الصحيح، ونُصوص وتجارب أصحاب القلوب الحية الرقيقة، فإنني أبلور هذه الخطورة في النقاط الآتية:

١- القسوة تجميد لحركة القلب، وتحويله من كيان حي فعال، إلى عُضو جامد كالحِجارة، جَدْب لا يقبل غرسا، ولا ينبت خيرا، ولا يثمر معروفا، وقد أصيب به اليهود، ووصِفوا به؛ كما نقضوا العهد والميثاق مع الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

٢- القسوة عقوبة لنقض العهد مع الله، تؤدي إلى انحراف العقل والقلب، وإلى التبجح على الحق، والاستهتار بالحقائق، وتحريفها، أو تزييفها، أو تلبيسها.. دون مبالاة، وإلى البتر والانتقاص من دين الله، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، فتحريف وتزييف الوعي هو نتاج القسوة، قال ابن كثير: «أي: فبسبب نقضهم الميثاق الذي أُخِذَ عَلَيْهِم؛ لعنَّاهُمْ؛ أي: أبعدناهم عن الحق، وطردناهم عن الهُدَى، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ أي: فلا يتَّعظون بموعظة؛ لِغِلَظِها وقسَاوتها، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾؛ أي: فسدت فهُومُهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مُرَادِهِ، وقالوا عليه ما لم يَقُلْ؛ عِياذا بالله من ذلك، ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: وتركوا العمل به؛ رَغْبَةً عَنْهُ»[8].

٣- القسوة تجمد القلب وتمنعه من التضرع إلى الله، حتى في أوقات البأس، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فالعلة المانعة لهم من الخشوع والتضرع لله، في وقت

---

(٨) إسماعيل بن كثير القرشي: تفسير القرآن العظيم، ج ٢، مكتبة الإرشاد، مكتبة التراث الإسلامي، مكتبة الدعوة الإسلامية (شباب الأزهر)، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص ٣٣.

البأس، هي أن قلوبهم يابسة، جافة، غليظة، لا رقة فيها، ولا لين. فالقلب القاسي - يقول سيد قطب: «قلب تحجر، فلم تعُدْ فيه نداوة تعصرها الشدة. ومات؛ فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس، وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبه القلوب الحية للتلقي والاستجابة»(٩).

٤- القسوة تهيئ العقل والقلب لقبول إلقاءات الشيطان؛ خواطره ووسوساته، المتضمِّنة لعروض الفتن والذنوب، وقبول إغراءاته المزخرَفة، فيفتتن به قاسي القلب بسهوله، ويقبل زخرفاته اللفظية، وينخدع له بسرعة، فقسوة القلب تؤثر سلبيا على دقة الفهم وصوابه، وعلى قدرات العقل الإنساني، قال تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ [الحج :٥٣] فالذي يفتتن بإلقاء الشيطان هو مريض القلب بالنفاق، والقاسي القلب(١٠).

٥- القسوة تمنع القلب من التأثر بكلام الله، وتمنع العقل من التركيز الصحيح، ومن الفهم السليم الدقيق، فالقسوة تحول بينه وبين الفهم والإدراك الصحيح للدلالات، فتمر عليه الآيات والأحاديث دون أن يَعِيَ، ودون أن يدرك ما فيها من دلالات، ودون أن يتأثر بها، وكأنه يُنَادَى من مكان بعيد؛ لأن قلبه عليه غطاء يغلفه، وهو جامد ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢] أي: عند ذكره، قال ابن كثير: «أي: فلا تلين عند ذكره، ولا تخشع، ولا تعي، ولا تفهم، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾»(١١).

٦- القسوة نتاج الران على القلب، فهي عقوبة وحجاب للقلب عن الله،

---

(٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٢، ج ٧، ط ٣١، دار الشروق، ٢٠٠٢م، ص ١٠٨٩.

(١٠) انظر: ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، مصدر سابق، ص ١٦ - ١٨.

(١١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ ٤، مصدر سابق، ص ٥٠.

فيُحْجَب عن رؤيته في الآخرة، وهي بُعْدٌ عن الله، دنيا وآخرة؛ أخرج مالك في الموطأ (بلاغاً)، وابن المبارك، عن مالك بن أنس؛ أن عيسى ابن مريم كان يقول: «لا تُكثِرُوا الكلامَ بغير ذكر الله؛ فتقسو قلوبكم؛ فإن القلب القاسي بعيد من الله، ولكن لا تعلمون، ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد، فإنما الناس مبتلى ومُعَافى، فارحموا أهلَ البلاء، واحمدوا اللهَ على العافية»[١٢].

وأخرج الترمذي عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعدَ الناس من الله تعالى القلبُ القاسي**» .

قال أبو عيسى: « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم ابن عبد الله بن حاطب»[١٣].

وكان السلف الصالح يدرسون هذه الخطورة:

- يقول علي بن الحسين (زين العابدين): «كانت امرأة بالبصرة تقول لقلبها: فقدتك من قلبٍ، ما أنساك ! أصْبَحْتَ لعظمة الله ناسيا، إلهي ! كيف لي بالقرب منك، وقاسي القلبِ منك بعيدٌ؟»[١٤].

- ويقول مالك بن دينار: «ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»[١٥].

---

(١٢) مالك بن أنس: الموطأ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة الشعب، القاهرة، ص ٦١٠. عبد الله ابن المبارك: الزهد والرقائق، مصدر سابق، رقم ١٣٥، ص ٤٤.

(١٣) سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٤١٩، ص١٨٤ – ١٨٥، وقال شاكر في عمدة التفسير، بعد تحقيق: «فالحديث صحيح الإسناد». انظر في: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ١١٧، هامش رقم (١)، ورواه ابن مردويه، والبيهقي في الشعب (٤٦٠٠).

(١٤) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٤، مرجع سابق، ص ٣٠ .

(١٥) المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٥، ورواه أحمد في الزهد بإسناد حسن لمالك بن دينار، انظر: الإمام أحمد بن حنبل، الزهد، تخريج وتحقيق: أبي محمد يحيى بن محمد بن موسى الأزهري، ط ٢، دار ابن رجب، ٢٠٠٣م، رقم ١٨٩٥، ص ٥٣٦ .

- وقال حذيفة بن قتادة المرعشي (صاحب سفيان الثوري): «ما أصيب أحد بمصيبة أعظم من قساوة قلبه»(١٦). وقال: «أعظم المصائب: قساوة القلب»(١٧).

- وقال أحمد بن أبي الحواري: «ما ابْتلى اللهُ عبدا بشيء أشد من الغفلة والقسوة»(١٨).

٧- القسوة تعني: الجفاء والغلظة، والجلافة؛ جلافة الشعور، والسلوك، وشدة القلب، فهي تؤدي، قطعا، إلى جفاء الخُلق، وخشونة السلوك اللفظي والعملي، مع الناس، ومِن هنا؛ فإن الناسَ ينفرون عن صاحب هذا القلب، والخلق الغليظ، وينفضُّون من حوله، وبناء عليه لا يصلح أن يكون صاحب هذا القلب مربيا، أو معلما، أو فاعلا في حركة التغيير الاجتماعي؛ لأنه - بذلك - يفتقد شرطا مهما من شروط الاستيعاب الحركي والخُلقي للناس، إذ كيف تُسْهِمُ في تغيير أو تربية إنسان لا يحبك، وهو منفض عنك ؟ فقسوة القلب نفي وإبعاد، وإلغاء لشرط التغيير الاجتماعي المذكور. ومن هنا ندرك أهمية التوجيه القرآني للرسول محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال الشوكاني: «والفظُّ: الغليظ الجافي.. وغِلظُ القلب: قساوته، وقلة إشفاقه، وعدم انفعاله للخير، والانفضاض: التفرق..»(١٩)، ويقول سيد قطب: «فهي رحمة الله التي نالته

---

(١٦) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٨٩. أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٨، ص ٢٩٩.

(١٧) الإمام حافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء، الجزء التاسع، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه: شعيب الأرناؤوط، حقق هذا الجزء: كامل الخراط، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص٢٨٤

(١٨) أبو عبد الرحمن السُّلَمي: طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، ط ٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م، ص ١٠١

(١٩) الشوكاني: فتح القدير، ... ج ١، مصدر سابق، ص ٦٤٠

ونالتهم؛ فجعلته ﷺ رحيما بهم، لينا معهم، ولو كان فظا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر؛ فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم.. في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم، ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم، ولا يُعَنّيهمْ بهمه، ويجدون عنده، دائما، الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضاء.. وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ، وهكذا كانت حياته مع الناس..» (٢٠).

٨- إن قسوة القلب تعني: التبلد، تعني: (أمية المشاعر) والأحاسيس، تعني: (أمية القلب)، وأمية القلب، أو المشاعر، تعني: افتقاد القدرة على الشعور بالآخرين، والعجز عن (تقمص) انفعالاتهم، والتلبس بها، والفشل في التعاطف مع الآخر المنفعل، إنها التبلد، وإصابة القلب بالصمم العاطفي؛ صمم المشاعر، صمم عن (لغة القلب وصوته)، صمم عن النغمات الانفعالية. فقاسي القلب هو المتبلد، أصم للنغمات الانفعالية، ولا يلاحظ التنويعات واللفتات التي تسِمُ كلمات البشر وأفعالهم؛ كالتغير في نبرات الصوت، أو وَضْع الجسد، أو الصمت البليغ، أو الرعشة الموحية، هو أصم للغة الورد، والطير، والشجر، والماء، لهمسات الكائنات، وتوقيعات الخلائق على نبضات القلب.. ووشوشات الندى على الورق الغض عند تنفس الصباح.

إن أُمِّيَّ المشاعر مُصَابٌ بالتشوش في أحاسيسه الذاتية، مما يجعله يشعر بالحيرة، والتبلد، عندما يُفضِي إليه الآخرون بمشاعرهم، وهذا نقص مأساوي في إنسانيته، إنه يفتقد المبالاة بالناس، فكل الروابط التي تؤدي إلى المبالاة تنشأ من التناغم الانفعالي، الذي ينشأ بدوره من القدرة على (التقمص الوجداني)، أي: القدرة على التعرف على مشاعر الآخرين، ورحمتهم، والتعاطف معهم،

---

(٢٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ١، ط ٣١، دار الشروق، ٢٠٠٢م، ص ٥٠٠، ٥٠١.

أنه يفتقد القدرة على قراءة القنوات غير اللفظية للاتصال؛ نبرات الصوت، الإيماءات، تعبيرات الوجه، ضغطة اليد على اليد، كيفية قول الكلام، التوتر، الألم الذي يصدر عن أنين قط، أو كلب.. أو طفل مسكين، أو امرأة ثكلى!.

يفتقد القدرة على قراءة الرسائل غير اللفظية؛ الحساسية غير اللفظية؛ قراءة المشاعر من الوجوه، ووضع نفسه مكان الشخص الآخر، وتفهم محن الآخرين، كالفقراء، والمضطهدين، والمنبوذين، والإحساس بآلامهم، والاستجابة لمشاعرهم، والتعرف على أزماتهم.. لأنه أصم القلب .

إن أمي المشاعر مصاب بالإهمال الانفعالي، والتبلد، وافتقاد شعور الطفولة الرائع .. الطفل يبكي عندما يرى الآخرين يبكون..!

إن قاسي القلب يفتقد التواصل الانفعالي، والقدرة على معرفة الخبرات الذاتية لشخص آخر، ومحاكاة اكترابه وآلامه، مما يولد نفس المشاعر، ويعمق النفس، ويتربى الإحساس الإنساني .

والإنسان الرقيق هو صاحب القلب الواعي شعوريا، الذي (محا أمية قلبه ومشاعره)، فكان قادرا على التفتح والتفهم الكافيين لاستقبال الإشارات القادمة من مشاعر شخص آخر، أو نداءات الكائنات لِقَلْبِهِ، فيفهمها، ويقبلها، ويشعر بها، ويشاركه فيها، مما يؤدي إلى الترابط الاجتماعي العميق، وإخراج الشخص المتناغم، والمجتمع الحساس المتعاطف الذواق .

هذه القدرة على الوعي بآلام الآخرين، والشعور بمشاعرهم .. هذا التقمص الوجداني، يعني: المبالاة بالآخرين، والاهتمام الانفعالي والشعوري والخُلقي بهم، وهو أساس لكثير من الأخلاق الحسنة؛ إن مشاركتنا لمشاعر الآخرين وكروبهم تدفعنا لمساعدتهم، ورفع العِبء عنهم، ومواساتهم، وإيثارهم، والتزام الأخلاق الحسنة معهم، والتراحم معهم، وإبهاجهم، وإدخال السرور عليهم، وعدم السعي في جَرْحِهِمْ.. إن الوعي الشعوري

يعني تفتحنا للجمال والروعة، والدهشة والعظمة في حقول الله وحدائقه.

إن رقة القلب، والتخلص من القسوة، أي: أمية القلب، والمشاعر، وصممها، تجعلنا حراسا للحق، والعدالة، وغاضبين ممن يؤذون الآخرين الأبرياء، ونادمين على توجيه أدنى أذى للآخرين، ونافرين، بمشاعرنا الحية، من أي قبح نُسَبِّبُهُ في العالم . وقاسي القلب بعيد من ذلك كله .

إن أمية القلب، وتبلده، وعجزه عن الإحساس بمشاعر الآخرين وآلامهم، هي سيف للاغتصاب، والوحشية، والقتل، والتلوث النفسي ... إنها أساس (السيكوباتية)؛ أي: العجز التام عن الشعور بالشفقة من أي نوع، أو بوخز الضمير. وهكذا فإن قسوة القلب عامل تدمير اجتماعي.

ولابد من التدرب على (التقمص)، وتربية قيمة (رقة القلب): فالانفعالات مُعْدِيَة، ونحن نلتقط المشاعر من بعضنا البعض، بالمحاكاة الداخلية، وتَمَثُّلٍ وِجْدَانِيٍّ نفسي لمشاعر وآلام الآخرين، مما يغير الذهن، والقلب، وبهذه المحاكاة يعيد الشخص، داخله، (خلق) هذه الحالات المزاجية للشخص الآخر، فهذه المحاكاة الشعورية هي (تلبس بمشاعر الآخرين)؛ تقليد لمشاعرهم، وفهم لها، واستجابة، مما يؤدي إلى عمل رابطة جمعية معهم، تدفع لمواساتهم، والاستجابة لآلامهم، أو تدفع لتذوق العمق المدهش والجميل في كائنات الله، وزنابقه وسوسناته.

وهكذا فإن القسوة: صمم اجتماعي، ونفسي، وتبلد روحي، وافتقاد لقيمة أساسية خطيرة من قيم التواصل الاجتماعي، والتماسك الاجتماعي، والتغيير الاجتماعي(٢١).

---

(٢١) دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، الذكاء العاطفي، مرجع سابق، ص ١١٥، ١١٦، ١٢١، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٧ - ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤١، ٢٤٢، ٤٦٣، ٥٠٥، مع بعض إضافات لمؤلف هذا الكتاب.

٩- هذه هي خطورة قسوة القلب، إنها تَحَجر، وعقوبة، وانحراف نفسي وعقلي، ومرض قلبي، وتبلد نفسي واجتماعي، وصمم قلبي .. ولهذا وجدنا (الصالحين) يسعون للتخلص منها، عندما كانوا يحسون بها، واكتساب قيمة رقة القلب ولينه، ووعيه الشعوري .

ثالثا: سعي السلف الصالح للتخلص من قسوة القلب وللتخلق بالرقة:

لنتأمل في الوقائع الآتية:

١ - هذا الصحابي الذي جاء إلى النبي ﷺ وشكا إليه قسوة قلبه، فأرشده إلى الأساليب المذكورة في الحديث الذي نحلله في هذا الفصل.

٢- أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة، يقول: قلنا: يا رسول الله، إنا إذا رأيناك؛ رَقَّتْ قلوبنا، وكنَّا من أهل الآخرة، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا(...) قال: «**لو تكونون- أو قال: لو أنكم تكونون - على كل حالٍ التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم، ولزارتكم في بيوتكم..**»(٢٢).

وفي رواية الترمذي: «قلنا: يا رسول الله، مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا، وزهدنا في الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عِندِك، فآنسنا أهالينا(...) أنكرنا أنفسنا ؟» (٢٣).. الحديث.

فأبو هريرة، والصحابة - رضي الله عنهم، لاحظوا هذا التغير؛ رقة القلب عندما يكونون عند رسول الله، ثم تغير القلب عن حال الرقة، حتى كانوا ينكرون قلوبهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ.

ولاحظ حنظلة (أحد كتاب الوحي) هذا التغير، ووصفه بالنفاق، قال:

---

(٢٢) قال شاكر: إسناده صحيح، وانظر تخريجه فإنه مهم، المسند، ج ٨، رقم ٨٠٣٠، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٢٣) قال أبو عيسى: «هذا حديث ليس إسناده بذاك القوي، وليس هو عندي بمتصل، وقد رُوي هذا الحديث بإسناد آخر؛ عن أبي مُدَلَّهٍ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ». سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٥٣٤، ص ٢٣٦. قلت: والإسناد الثاني إسناد صحيح، وهو رواية أحمد التي صححها أحمد شاكر، وأثبتناها فوق.

فقلت: يا رسول الله، نافق حنظلة (...) فقال: «**يا حنظلة، ساعة، وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما كانت تكون عند الذكر؛ لصافحتكم الملائكة، حتى تسلم عليكم في الطرق**»[٢٤].

فمن الواضح أنهم كانوا يخافون قسوة القلب، ويبحثون عن الرقة عند رسول الله ﷺ.

٣- عن المُعَلَّى بن زياد (ثقة) قال: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي. قال: أدْنِهِ من الذِّكر. أي: ممن يُذكِّرُ[٢٥].

٤- وفي حلية الأولياء: ذهب ميمون بن مهران إلى منزل الحسن: «فخرج إليه، فاعتنقا، ثم دَخَلا، فقال ميمون: يا أبا سعيد، قد أَنِسْتُ من قلبي غِلظة، فَاسْتَلِنْ لِيَ مِنْهُ. فقرأ الحسن: ﴿**أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾[الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]»[٢٦].

٥- وقال الفضيل: تعاهد قلبك ألا يقسو، وهل تدري مَا قَسَاوَةُ مَنْ أَذْنَبَ؟[٢٧].

٦- وقال رجل لمورق العجلي: إني أشكو إليك قسوة قلبي، لا أستطيع الصوم، ولا أصلي (يعني: تطوعا)، فقال له مورِّق: إن ضعفت عن الخير، فاضعف عن الشر؛ فإني أفرح بالنومة أنامها[٢٨].

---

(٢٤) رواه مسلم، انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، رقم ٢٧٥٠، ص ٢٥٠، ٢٥١.
(٢٥) رواه أحمد، في: الزهد، مصدر سابق، ص ٢٥٥. وابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، مصدر سابق، رقم ٤٨، ص ٧٢، وأخرجه البيهقي في الشعب (رقم ٧٠٣) بإسناد حسن إلى الحسن بلفظ: أدبه بالذكر. ورواية أحمد إسنادها حسن، انظر: الإمام أحمد بن حنبل: الزهد، حققه وخرج أحاديثه: أبو محمد يحيى بن محمد بن موسى الأزهري، أشرف على تحقيقه: الشيخ مصطفى العدوي، ط ٢، دار ابن رجب، ٢٠٠٣م، رقم ١٥٢٩، ص ٤٥٤.
(٢٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٤، ص ٨٢، ٨٣.
(٢٧) أبو نعيم: حلية الأولياء.. ج ٨، ص ٩٧.
(٢٨) أبو نعيم: حلية الأولياء.. ج ٢، ص ٢٣٥.

٧- جاء رجل إلى أم الدرداء؛ فقال: أشكو إليك قسوة أجدها في قلبي. قالت: اطَّلِعْ في القبور، وجالس الموتى(٢٩).

٨- وثمة وقائع أخرى، والمقصد: أن نقرر حرص السلف الصالح على مراقبة قلوبهم، ورعايتها، وأن تكون رقيقة، بعيدة عن القسوة، فإذا لاحظوا بُعْد القلوب عن الرقة، والرحمة، واللين، أخذوا في العلاج، فورا، فيسألون خبراء تربية القلب، ويبحثون عن أساليب لتربية الرقة في قلوبهم.

وفي العصر الحديث نجد وقائع، بعضها كان معي، وبعضها قرأته، وبكيت، وأُثْبِتُ أهم ما أثَّر فِيَّ من هذه الوقائع، التي نشرها الشيخ حسن البنا - رحمه الله - حيث أرسل له أحد تلامذته خطابا عميقا مؤثرا عن حالة قلبه، ولنتركه يحدثنا بنصه الكامل، قال في ١٥ رمضان ١٣٦١هـ - ٢٦ سبتمبر ١٩٤٢م، تحت عنوان: (رجل لا قلب له)(٣٠).

«سيدي وأستاذي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. (وبعد):

هَل أتاك نبأ الرجل؛ لا قلبَ له؟ عَفواً، إذا كان القلب هذه الكتلة العضلية من اللحم الأحمر، التي تقبض الدم وتبسطه، فهو يملكه- لا ريب؛ بدليل حياته. وأما إذا كان هذه العاطفة الجياشة، والإحساس الصقيل، والشعور الحي، فَأَسَفاً!

هو يفطن إلى معالم الحُسْن الدقيقة بالنظرة الخاطفة، كما يدرك مواطن القبح الخفية باللمحة العابرة. وهو يقرأ أخلاق الرجل في وجهه، مصيبا إلى حد بعيد، كما يشير إليه الرمز، ويَرْمِي الإيماء، وبالرغم من ذلك؛ فهو لا قلب له!

هو يَلقَى الصديق بعد غياب طويل، فيهز يده في قوة، بل ويعانقه، ولكن

---

(٢٩) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ترجمة أم الدرداء.

(٣٠) نشرت في مجلة: (الإخوان المسلمون) الأسبوعية، العدد الثالث، السنة الأولى، انظر: حسن البنا: نظرات في التربية والسلوك، جمعه ورتبه وعلق عليه: عصام تليمة، مرجع سابق، ص١٤٧- ١٥١.

قلبه جامد لا يختلج (لا يتحرك..).

هو يهتف في الناس: أنْ كونوا، وكونوا، ويدلل ويحتج، ولكن قلبه متصلب لا يهتز .

هو يتلقى الخبرَ السار فيبتسم، والنبأ المحزن فَيُقطِّبُ، ولكن سرورُه وحُزْنُهُ آلِيَّيْن، وقلبه ساكن لا يضطرب.

وهو يعلن للشخص حُبَّه، أو بُغْضَهُ، ثم يَلتـَفِتُ إلى قلبه فيجـده صـامتا لا يُبِـين.

هو يقف للصلاة، ويلم فيها شتاته، ويتلو القرآن، ويحصر فيه انتباهـه، ثـم يصلي ويتلو بنبرات قالوا: إنها شجية خاشـعة، ولكنـه يتحـسس قلبـه فيجـده أصم، لا يخشع، وإن كان يفقه.

هذا وصف حق، يا سيدي، لم أتزيد عليه، أو أتنقص فيه شـيئا، فهـل تجـد لديك القدرة على الاعتراف بأن هذا قلب كسائر القلوب ؟!

لقد أوتيت العقلَ، وسـلِبْتُ القلـبَ، فطالمـا أحسـست بفكـري يتـأجج، ويعمل، ويحيا، ويثبت وجوده، ولكن عبثا حاولت أن أثبت هذا لقلبي(...).

أنا أصلي؛ لأن ديني يطلب هذا، وهكذا أصوم، وأؤمن بملائكة الله وكتبـه ورسله.

ولقد اندمجت في القطيع المسوق إلى حتفه، لا ينظر إلا إلى الأرض، وفوقـه السماء، ولكنها لا تعنيه، ولا هو يفكر يوما في أن يُعْنَى بها .

وأخيرا: ولقد أتاك نبأ الرجل الذي لا قلب له !

هو شاب قد بايعك، وأخذتَ منه ميثاقا غليظا، فهل يرضيك أن يحيا أحـدُ جنودِك بلا قلب ؟ يا ذا القلب الكبير .

إني أستجديك قبَسا مما يضطرم في قلبك، ألقيه على هشيم قلبي الميت، عَلَّه

يبعث فيه الحياة .

إني أسألك وَمِيضا مما يسطع في قلبك، أسلِّطُهُ على دياجير (ظلمات) قلبي الكريهة، عَلَّه ينشر فيه النور.

أنت رجل ممتاز، وعنصر جبار نهض في جيلنا المتداعي، وأنا أحمل لك ما أحمله للوجوه البارزة التي تطل على الدنيا، فتهزها، وتخضعها لإرادتها، وأنا أجلك كما أُجِلُّ عزيمة عاتية سيطرت على عنان الزمن، ووجَّهته حيث يريد.

وأنا مطمئن إلى سيري في موكبك، ولكن أحتقر عقلية القطيع.. وأحتقر نفسي.. إن قلت قولا لا يُقرني عليه عقلي، ويدفعني إليه قلبي .

فهل لك في أن تحيي قلبي حتى يؤَمِّنَ على ما يقوله اللسان: بالخفقان والإحساس والشعور ؟

هذه علة أحد جنودك، سيوجعك أن تعرفه، لذلك أمسك عنك اسْمَهُ حتى أهنئك بشفائه، فأصرح لك باسمه. وأما العلاج، فمتروك لطبيبي الرحيم، فإما..، وإما..، وإما ضمن رسالة تنشر؛ لعل أحدا يعاني ألمي، ويشكو عِلتي. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

الجواب :

«يا أخي: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .

قرأت خطابك، متأثرا أعمق التأثر، بصدق لهجتك، وروعة شجاعتك، ودقة يقظتك، وحياة قلبك.

لستَ، عزيزي، ميتَ القلبِ، كما تزعم لنفسك، ولكنك شاب مرهف الحس، صافي النفس، رقيق الشعور، ولو لم تكن كذلك ما اتَّهَمْتَ نَفْسَك، ولا أنكرتَ حِسَّك. ولكن بُعدُ هِمَّتِك، وتنائي غايتك، يجعلك تستصغر الكبير من شأنك، وتتطلب المزيد لوجدانك، ولا بأس عليك في ذلك؛ فهكذا يجب أن

تكون». ثم وصف له الأساليب التربوية الفعالة لإحياء القلب وترقيقه، وسنثبت ما قاله، في موضعه بعون الله.

رابعا: مفهوم القسوة وأعراضها:

أ- مفهوم القسوة:

١- يقول ابن منظور: «والقسوة: الصلابَةُ في كل شيء. وحجر قَاسٍ: صُلب، وأرض قاسية: لا تُنبت شيئا. وقال أبو إسحق، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤]؛ تأويلُ قست، في اللغة: غَلُظَتْ، ويَبِسَتْ، وعَسَتْ، فتأويل القسوة في القلب: ذَهَابُ اللين والرحمة والخشوع منه. وقَسَا القلْبُ قسْوَةً، وقساوةً وقسَاءً؛ بالفتح والمد: هو غِلظ القلب وشدته.. ويقال: الذنب مَقسَاةٌ للقلب.

عام قسِيٌّ: ذو قحط (...) قال شَمِرٌ: العام القسي: الشديد، لا مطر فيه، وعَشِيَّةٌ قسِيَّةٌ: باردة (...) وليلة قاسية: شديدة الظلمة (...) ودرهم قسِيٌّ: رديء، (...) وقد قست الدراهم، تقسو؛ إذا زَافتْ، وفي حديث الشعبي: قال لأبي الزِّناد: تأتينا بهذه الأحاديث قسية، وتأخذها منا طازجة؛ أي: تأتينا بها رديئة، وتأخذها خالصة مُنَقاةً»(٣١).

فالقسوة: غِلظُ القلب، ويُبْسُه، وشدته، وجَدْبُه، وصلابته، وقحطه، وعدم نداوته، وعدم رقته، وذهاب اللين والرحمة والخشوع منه، وزيفه ورداءتُه، وظلمته الشديدة، ولا يخرج عن هذا التحليل كل مَن حلل مفهوم القسوة، فالراغب يقول :«القسوة: غِلظُ القلبِ. وأصله: من حجر قاسٍ» وقال: «قساوة؛ أي: صلابة»(٣٢).

(٣١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ص ٣٦٣٣ .
(٣٢) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص ٤٠٤ .

٢- ويقول الحكيم الترمذي: «والقسوة: غِلظ القلبِ، وجموده، ويُبْسُه؛ لِخُلُوِّهِ من الرحمة، فإذا خَلا قلبٌ من رحمة الله؛ وجاءته شهوات النفس بحرارتها؛ أيْبَسَتِ القلبَ؛ فصار بمنزلة شجرة يابسة (...) ولذلك قيل: إذا قل ذِكرُ الله على قلب عَبْدٍ؛ قسَا»[٣٣]. وهذا تحليل يبين علة لقسوة القلب.

٣- ويقول الطبري، في تفسير قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ «أي: جَفَّتْ، وغَلظت، وعَسَت، يقال: قسا، وعسا، وعتا؛ بمعنى واحد؛ إذا جفَّ وغَلظ وصَلب»[٣٤]، فالمعنى: «ثم صَلُبَتْ قلوبكم - بعد إذ رأيتم الحق فتبينتموه، وعرفتموه - عن الخضوع له، والإذعان لواجب حق الله عليكم، فقلوبكم كالحجارة؛ صلابةً ويُبْسًا، وغِلظاً وشدةً، ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ يعني: قلوبهم - عن الإذعان لواجب حق الله عليهم، والإقرار له باللازم من حقوقه عليهم - أشد صلابة من الحجارة»[٣٥].

فالقسوة: حال يعرض للقلب، به يكون غليظا، جافا، يابسا، شديدا، جامدا، متبلدا، جلفا، بسبب فقدانه للرحمة، وذكر الله، والخضوع له، واللين، والرقة والخشوع.

ب - أعْرَاضُ القسوة:

أشرت لبعض أعراض ومظاهر القسوة؛ عند بيان خطورتها في الفقرة الثانية، وعند تحديد مفهومها، والآن أنبه ـ فقط ـ على هذه الأعراض وغيرها، فالقلب القاسي:

١- لا يخشع عند ذكر الله، ولا لِما نزل من الحق، فلا يلين، ولا يتأثر، ولا

---

(٣٣) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف مصدر سابق، ص ١٢٢

(٣٤) الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٢، تحقيق أحمد، ومحمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ص ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٥ بالتوالي.

(٣٥) المصدر السابق نفسه.

ينفعل، ولا يستشعر، ولا يتعظ بالقرآن، والحديثِ الصحيح، ولا بالعلم النافع، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢،٢٣]، أيْ: فويل للقاسية قلوبهم عن ذكر الله، والمعنى: أنه غَلَظ قلبُهُ وجفا عن قبُولِ ذكر الله، يقال: قسا القلبُ؛ إذا صَلُبَ، وقلب قاس؛ أي: صلب لا يرق ولا يلين، أما أولياء الله؛ فإن قلوبهم تلين وترق، وتطمئن، وتسكن إلى ذكر الله»[٣٦]. يقول سيد قطب: «وهذه الآية تصور حقيقة القلوب التي تتلقى الإسلام فتنشرح له وتَنْدَى به، وتصور حالها مع الله؛ حال الانشراح والتفتح والنداوة، والبشاشة والإشراق والاستنارة، كما تصور حقيقة القلوب الأخرى في قساوتها وغلظتها، وموتها، وجفافها، وعتمتها، وظلامها، ومن يشرح الله صدره للإسلام ويمد له من نوره؛ ليس قطعا كالقاسية قلوبهم من ذكر الله. وشتان بين هؤلاء وهؤلاء»[٣٧].

٢- القلب القاسي قلب لا يَوْجَل، ولا يهتز ويشعر عند قراءة القرآن، بل يكون بينه وبين القرآن حجاب مستور، وكِنَانٌ، وعلى قلبه قُفل يمنع دخول نور القرآن وروحُه، وحلاوتُه إلى القلب، فيمنع الفهْم فلا يعقل المعنى، ويمنع الشعور، فلا يشعر بعاطفة، ولا بحلاوة، لا للقرآن، ولا للطاعة، إن أداها، ولا للذكر إن ذكر .

٣- لا ينتفع بدروس العلم، ولا بالقراءة، ولا بالتذكير، ولا بالمواعظ، والخطب:

إذا قسا القلبُ لم تنفعْهُ مَوْعِظةٌ ... كالأرض إن سَبختْ لم يُحْيِهَا المَطرُ

وهذا قلب مثل الأرض القيعان، لا تمسك ماء، ولا تُنْبتُ كلأ، فلا تنتفع،

---

(٣٦) الشوكاني: فتح القدير...، ج٤، ص ٦٠٢، ٦٠٣ .

(٣٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٥، مصدر سابق، ص ٣٠٤٨ .

ولا تنفع، فلم يرفع بهداية الله رأسا، ولم يقبله، ويتشربه، ويتفاعَلْ معه .

٤- لا يتضرع، عند نزول بأس الله، وحلول المصائب، ولا يستكين لله[٣٨].

٥- يجف قلبه، ويفقد الإحساسات والمشاعر البشرية الإنسانية، ويصاب بأمية المشاعر، والصمم القلبي، ويصير صلبا كالحجارة، أو أشد منها .

٦- يفتتن بإلقاءات الشيطان، من الإنس والجن، في قلبه، حيث يفقد الهداية، والنور المرشد، والفرقان بين الحق والباطل، والشعور بالصواب، فيكون إلقاء الشيطان، في قلبه وعقله، فتنة له، فيميل للتدجيل، والاستحمار، وينقاد بسرعة لمزيفي الوعي، وأصحاب الأطروحات والنظريات والآراء والأغراض التافهة، والفاسقة؛ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ .

٧- يحرف الكَلامَ والأفكار، ويلوي الحقائق ويزيفها؛ إما بإضافة ما ليْسَ منها، إليها، تزويرا على الحقيقة، وإما بتفسير النصوص وفق الهوى والمصلحة، والهدف الخبيث، وإما بإخفاء الحقائق، وإما بالافتراء، والتدليس.. فيلبس الحق بالباطل.. وإما بأن ينسى، ويحذف، ويستبعد قدرا من الحق والبراهين، تعميةً على المستمع، أو القارئ، أو المشاهد. وهذا أحد عوامل إفساد الواقع الثقافي والعلمي في المجتمع الإنساني .

٨- القاسي القلب أكثر قابلية للاستحمار، وسماع الكذب، وأكل الحرام، والمسارعة في كل أنواع الكفر .

---

(٣٨) انظر: الطبري: جامع البيان من تأويل آي القرآن، ج ١١، دار المعارف بمصر، ١٩٧٥م، ص٣٥٧، وانظر (٣) من الفقرة (ثانيا) من هذا الفصل .

٩- يمارس سلوكا وحشيا قاسيا ضد الناس، والأطفال، والطيور، والحيوانات؛ فهو يعاني أمية المشاعر، والتبلد، ويفقد القدرة على الشعور بمحن الآخرين وآلامهم .

١٠- يمارس العُنْفَ الرمزي؛ (بالتهديد، والشتم، وتحقير الآخرين.. إلخ)، والعنف المادي (بالضرب، والهجر.. وربما القتل، والسرقة، والاغتصاب.. إلخ)، مع الناس.. الأقارب والأباعد.

١١- يشعر بالضيق، والقلق، واللامعنى، وافتقاد الإحساس بجدوى الحياة، ويشعر بالوحشة، والحجاب، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[سبأ:٥٢].

هذه هي أعراض القسوة، التي إذا وجدت كلها، أو بعضها، كانت مؤشرا على تمكن القسوة في القلب، فيتعين على المسلم أن يبادر، ويسارع؛ لتحديد أسباب هذه القسوة، ويبدأ في التخلص منها .

وما أكثر انتشار هذه الأعراض في بيوتنا، وحوارينا، ومجتمعاتنا، ومع بعضنا!

خامسا: أسباب وعوامل قسوة القلب:

بِاسْتِقرَاءِ القرآن الكريم، وحديث النبي ﷺ وكثير من شروح الخبراء، وبتحليل بعض التجارب والخبرات الخاصة في هذا المجال؛ استطعت تحديد جملة من الأسباب والعوامل الذاتية والاجتماعية، التي تنشئ وتولد قسوة القلب، لكل متعرض لها، ومتأثر بها، وأرتبها بتحليل شارح، فيما يلي:

أ- نقض ميثاق الإيمان مع الله:

يقول الله تعالى، عن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً﴾ [المائدة: ١٣] أي: فبسبب نقضهم للميثاق الذي أخذه الله عليهم، لعنهم، فأبعدهم عن الحق، وطردهم عن الهدى، وجعل قلوبهم قاسية؛ فالقسوة هي نتاج لنقض الميثاق .

والميثاق: هو المعاقدة والمبايعة على السمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه(٣٩).

فالإقرار بلا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وبأن ما أوحاه الله إليه هو الصدق والحق الملزم- هو عقد وميثاق بين المقر بذلك، وبين الله، على أن يسمع ويطيع، ويخضع ويذعن، وينقاد؛ ظاهرا وباطنا، للوحي المنزل من الله.

والنقض: هو المخالفة، وحل ما تم عقده وتوكيده .

وقاعدة ذلك: ما قرره ابن القيم: «يعرضُ للقلب مِنْ فساد العمل: قسوة»(٤٠).

فكل مخالفة لهذا الميثاق ينتج عنها قسوة في القلب. وكلما كثرت مخالفات الإنسان لميثاق الله وعهده؛ تراكمت القسوة في القلب .

ب - إشراب القلب حبَّ المعاصي والإثم؛ ظاهره وباطنه:

وعدم إنكار القلب لإلقاءات الشيطان، وعروض الفتن عليه، فينكت في قلبه نكتة سوداء، وثانية، وثالثة، وهكذا يموت القلب، ويقسو، يقول ابن القيم في الفوائد: «قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب(...) وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وربه (...) وقسوة القلب(...) وحرمان العلم (...) تتولد من المعصية والغفلة، كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار»(٤١). فالقسوة عقوبة على ذنب، أو ذنوب، لم يتب منها الإنسان.

ولنتأمل في المقولات الآتية:

يقول سفيان الثوري: «الرغبة تقسي القلب»(٤٢). أي: شهوة الذنب،

---

(٣٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، مصدر سابق، ص٣٢.
(٤٠) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان.. ج ١، مصدر سابق، ص ١١
(٤١) ابن قيم الجوزية: الفوائد، المكتبة القيمة، القاهرة، ص ٣١.
(٤٢) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٧، ص ٨٤.

والشهوة الحرام، تحدث قسوة في القلب .

ويقول المحاسبي: «ينبغي للمؤمن؛ إذا رأى القسوة؛ من الرين على قلبه؛ عقوبة له على ذنبه؛ أن يخاف أن يكون الله، سبحانه، لمَّا حَجَبَ قلبَهُ عنه؛ بالرين والقسوة، أن يحجبه غدا عن النظر إليه»(٤٣).

ولهذا قال مكحول الدمشقي: «أرق الناس قلوبا؛ أقلهم ذنوبا»(٤٤).

وأقول: «أشد الناس قسوة؛ أكثرهم وقوعا في معاصي الله، وارتكابا للحرام».

ويقول الفضيل: «تعاهد قلبك ألاَّ يقسو.وهل تدري ما قساوة مَنْ أذنَبَ؟»(٤٥).

جـ - طول الأمد، والغفلة عن الوحي والموعظة الحسنة:

يقول ابن منظور: «الأمد: الغاية، كالمَدَى»(٤٦)، ويقول الراغب: «الأمد: مُدَّة الزَّمَانِ التي لا يُعْلَمُ لها حَدٌّ في المستقبل»(٤٧). فطول الأمد: هو طول المدة الزمنية التي تفصل بين الإنسان، وبين تلقي عقله وقلبه للمعرفة الحية النافعة، والرشاد، فيجف القلب، ويَغْلُظُ؛ لانعدام العلم النافع. مثل الأرض التي لم ينزل عليها الماء، لمدة طويلة.

وهداية القرآن هي روح يحيي القلب، وماء يرويه ويلينه؛ فإذا طالت المدة الزمنية، والمدى الزمني بين القلب وقراءة القرآن، والاستماع للحديث النبوي، والعلم النافع، والتفكر في آلاء الله، وتدبر عالم الآخرة، والجزاء،.. فمعنى

---

(٤٣) الحارث بن أسد المحاسبي: معاتبة النفس، مصدر سابق، ص ٣٧.

(٤٤) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، مصدر سابق، رقم ٦٦، ص ٨٥، أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٥، ص ١٨٠، ورواه أحمد في الزهد بإسناد صحيح إلى مكحول، الزهد، بتحقيق الأزهري، رقم ٢٣٢٦، ص ٦٤١.

(٤٥) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٨، ص ٩٧.

(٤٦) ابن منظور: لسان العرب، ج ١، مصدر سابق، ص ١٢٥.

(٤٧) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص ٢٤.

ذلك أننا نحول هذا القلب إلى ما يشبه الأرض القاحلة، الصحراوية الجافة، فيقسو ويموت.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٦، ١٧]، يقول ابن كثير: «يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن؛ فتفهمه، وتنقاد له، وتسمع له، وتطيعه (...) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى، لمَّا تطاول عليهم الأمد؛ بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمنا قليلا، ونبذوه وراء ظهورهم، وأقبلوا على الآراء المختلفة، والأقوال المؤتفكة، وقلدوا الرجال دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، فعند ذلك: قست قلوبهم؛ فلا يقبلون موعظة، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد، وكثير منهم فاسقون»(٤٨).

فقسوة القلب نتجت بسبب طول المدى الزمني، الذي بعدوا فيه عن كتاب الله، والانتفاع بهدايته ونوره والحياة التي يبثها في القلوب، ففعلوا ما ذكره ابن كثير. وهذا قانون قلبي عام، يقول سيد قطب في ظلال الآية الأولى: «إن هذا القلب البشري سريع التقلب، سريع النسيان، وهو يشف ويشرق فيفيض بالنور، ويرف كالشعاع، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكر؛ تبلَّدَ، وقسا، وانطمست إشراقته، وأظلم وأعتم، فلا بد من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع. ولا بد من الطَّرْقِ عليه حتى يرق ويشف، ولا بد من اليقظة

(٤٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، مصدر سابق، ص ٣١٠.

الدائمة كي لا يصيبه التبلد والقساوة»(٤٩).

وقد حذر أبو موسى الأشعري- رضي الله عنه- طلبة العلم وأهْلَهُ، من خطورة طول الأمد، فقد أخرج مسلم عن أبي الأسود؛ قال: بعث أبو موسى الأشعري إلى قُـرَّاءِ البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرؤوا القرآن؛ فقال: «أنتم خيار أهل البصرة، وقرَّاؤهُم؛ فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد؛ فتقسو قلوبكم، كما قست قلوب من كان قبلكم»(٥٠). وهذا مثل قول ابن مسعود: «ألا لا يطول عليكم الأمد فتقسو قلوبكم»(٥١).

د - انغماس هموم القلب في أودية الدنيا؛ دون ذكر الله، وذكر الموت، وذكر الدار الآخرة:

يقول الحسن البصري: «كيف يَرِقُّ قلبك، وهَمُّك في آخر؟»(٥٢).

فالقلب لا تحدث له رقة، ما دام ينشغل ويهتم بغير الله تعالى، وبغير الهم بطاعته.

ويرتبط بهذا السبب: الاسترسال في طول الأمل، دون استعداد للقاء الله، ولأمر الآخرة، ومصير الإنسان فيها.

وهذا الموضوع في حاجة لبيان يحدد ماذا تقصد بالضبط ؟

١ - **مفهوم الأمل**: هو الرجاء(٥٣). يقول ابن حجر: «رجاء ما تحبه النفس من طول العمر، وزيادة غنى، وهو قريب المعنى من التمني(...) وقيل: لا

---

(٤٩) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٦، مصدر سابق، ص ٣٤٨٩.

(٥٠) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٣، تحقيق د. يحيى إسماعيل، ط ١، مصدر سابق، حديث رقم ١٠٥٠، ص ٥٨٤.

(٥١) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، (كتاب الجامع..)، ج ١١، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، توزيع المكتب الإسلامي، بيروت، رقم ٢٠٠٧٦، ص ١١٦

(٥٢) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، مصدر سابق، ص ٢٤٨.

(٥٣) ابن منظور: لسان العرب، ج ١، مصدر سابق، ص ١٣٢

ينفك الإنسان من أمل، فإن فاته ما أَمَّلهُ؛ عَوَّلَ على التمني، ويقال: الأمل: إرادة الشخص تحصيلَ شيء يمكن حصوله، فإذا فاته: تمناه»(٥٤).

فالأمل: رجاء وإرادة ورغبة في طول العمر والحياة، ودوام البقاء، والغنى، والاستمتاع في الدنيا، ومحبة ذلك، والطمع فيه، والفرح به، فهو انفعال وشعور قلبي إنساني .

٢- فالأمل - في ذاته- شعور إنساني، واتجاه نفسي فطري، أعني: استعدادا، يولد به الإنسان، ففيه ميل فطري لحب البقاء، وحب الحياة، ورجاء الدوام فيها.فهذه طبيعة إنسانية .

وقد بين الرسول ﷺ هذه الطبيعة في حديث صحيح، أخرج البخاري أن أبا هريرة- رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يزال قلب الكبير شابا في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل**». وأخرج عن أنس- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكبر ابن آدم، ويكبر معه اثنتان: حب المال وطول العمر**»(٥٥).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**قلب الشيخ شَابٌّ على حب اثنتين: طول الحياة، وحب المال**». وأخرج عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**يهرم ابن آدم، وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر**»(٥٦).

وأخرجه أحمد، بأسانيد صحيحة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

---

(٥٤) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١١، مصدر سابق، ص٢٣٦.

(٥٥) المصدر السابق، حديث رقم ٦٤٢٠، ورقم ٦٤٢١، ص ٢٣٩ .

(٥٦) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٣، حديث رقم ١٠٤٦، ١٠٤٧، ص ٥٨٢، ورواهما الترمذي، وقال في كل: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٣٤٥، ٢٣٤٦، ص ١٥١ – ١٥٢ . ورواهما ابن ماجه بإسنادين صحيحين، انظر: الألباني: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤٣٠، ٣٤٣١، ص ٣٧٨ .

«الشيخ يكبر، ويضعف جسمه، وقلبه شابٌّ على حب اثنتين: طول العمر والمال». وفي رواية: **«الشيخ يكبر، ويضعف جسمه، وقلبه شاب على حب اثنتين: طول الحياة، وحب المال»**(٥٧).

فهذا الحديث، برواياته، يبين أن طول الأمل هو محبة طول العمر، وطول الحياة، والحرص على ذلك، وأن هذه المحبة شيء غرَزِي، يعظم، ويكبر، كلما كبر الإنسان؛ وأن قوة حب العمر لطويل، وحب الغنى المالي، تنمو، وتعظم، وتستحكم في القلب مع سن الشيخوخة. وليس في هذا الحديث ذَمٌّ أو استحباب، وإنما هو بيان لطبيعة القلب الإنساني .

٣- وبأسلوب تربوي مؤثر يبين النبي ﷺ أن الأمل، يقوى دائما، ويتوسع حتى يتجاوز أَجَل الإنسان، فيموت دون أن يحقق كلَّ أملِه، فلا يصل للأمل الذي هو خارج الأجل، وكأنه ﷺ ينبهنا إلى أن نأمل الآمال الممكن تحقيقها في حياتنا، أي: الأحلام والطموحات الممكنة المقدورة لنا، وليس الأحلام التي هي آمال خادعة ملهية، تستفرغ العمر وتبعثره في أحلام يقظة غير واقعية .

فلنتأمل في هذه التوضيحات التربوية لعلاقة الأمل بعمر الإنسان؛ (أجله):

- النبي ﷺ خط خَطًّا مربعا، وخط خطا في الوسط خارجا منه، وخط خُطَطًا صغارا إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به - وهذا الذي هو خارج: أَمَلُهُ. وهذه الخطط الصغار: الأَعْرَاضُ؛ فإن أخطأه هذا؛ نهشه هذا، وإن أخطأه هذا؛ نهشه هذا(٥٨). الأعراض: ما يعرض للإنسان من خير أو شر، وما ينتفع به، أو ما يُضَرُّ به. ونهشه؛ يعني: أصابه. أي: الابتلاءات والأحداث التي

---

(٥٧) مسند أحمد، ج ٨، رقم ٨٤٠٣، ص ٣٠٩، ورقم ٨٤٥٣، ص ٣٢٣ .

(٥٨) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١١، رقم ٦٤١٧، ص ٢٣٥، ٢٣٦ .

تصيب الإنسان وتحدث له، وتؤثر فيه .

وروي ابن ماجه هذا الحديث عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ، أنه خط خطا مربعا، وخَطا وسط الخط المربع، وخطوطا إلى جانب الخط الذي وسط الخط المربع، وخطا خارجا من الخط المربع، فقال: «**أتدرون ما هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا الإنسان؛ الخط الأوسط، وهذه الخطوط إلى جنبه: الأعراض تنهشه، أو تنهسه، من كل مكان، فإن أخطأه هذا، أصابه هذا. والخط المربع: الأجل المحيط. والخط الخارج: الأمل**»(٥٩).

وأخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :«**هذا ابن آدم، وهذا أجله عند قفاه، وبسط يده أمامه، ثم قال: وثَم أمَله**»(٦٠).

وأخرج الإمام أحمد، عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ غَرَزَ بين يديه غَرْزًا، ثم غرز إلى جَنْبِهِ (إلى جنب الغرز الأول) آخر، ثم غرز الثالث فأبعده، ثم قال: «**هل تدرون ما هذا؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هذا الإنسان، وهذا أجله، وهذا أمله، يتعاطى الأمل، يختلجه** (يعني: الموت يصيبه) **دون ذلك**»(٦١). ورواه ابن المبارك - مرسلا-: أخذ رسول الله ﷺ ثلاثة أعواد، فغرز عودا بين يديه، والآخر إلى جنبه، فأما الثالث فأبعده، فقال: «**أتدرون ما هذا؟**»(...) قال: «**فإن هذا الإنسان، وذاك الأجل، وذلك الأمل، يتعاطاه ابن آدم، ويختلجه الأجل دون ذلك**»(٦٢).

وأخرج أحمد عن أنس قال: جمع رسول الله ﷺ أنامله، فنَكَتَهُنَّ في الأرضِ، فقال: «**هذا ابن آدم**» وقال بيده خلف ذلك (يعني: نكت في الأرض

---

(٥٩) الألباني: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤٢٨، ص ٣٧٧، وقال: صحيح .

(٦٠) قال الألباني: صحيح، المصدر السابق، حديث رقم ٣٤٢٩، ص ٣٧٨ .

(٦١) المسند، ج ١٠، وإسناده حسن، حديث رقم ١١٠٧٤، ص٥٩ .

(٦٢) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد، رقم ٢٥٤، ص ٨٦ .

بيده خلف النَّكْتَةِ الأولى)، وقال: «**هذا أجله**» قال: وأومأ بين يديه (يعني: أشار قُدَّامَهُ)، قال: «**وثَمَّ أَمَلُهُ**». ثلاث مِرَارٍ(٦٣).

فهذه أربع وسائل إيضاح، يعلم بها النبي ﷺ أصحابه علاقة الإنسان بالأمل، والأجل وابتلاءات الحياة، وأن الأجل، أي: الموت، يصيب الإنسان، قبل أن يصل لمنتهى أمله، إذن، الأجل أقرب إلى الإنسان من الأمل، فالآمال واسعة طويلة، أطول من عمر الإنسان، وهذه حقيقة قلبية نفسية، يقررها النبي ﷺ ليدركها المسلم، ويعيها، ويستثمرها أحسن استثمار، فيأمل الآمال الممكنة في مدة عمره المتوقع، ويسعى لتحقيقها، مادامت خيرا، ويأمل الآمال الاجتماعية النضالية، ويربيها، ويجاهد مع أقرانه لتحقيقها.

٤- ولأن الإسلام دين الفطرة، فإنه راعَى هذه الفطرة (علاقة الإنسان بالأمل)، وهذان حديثان يشيران بوضوح إلى أن الإسلام مع التأميل الخير، والممكن، والمقدور، أي: حب طول العمر، وحب المال، والعافية .. إلخ، ما دام ذلك خيرا، يسر الإنسان، وفي طاعة الله، دون التهاء عن الدار الآخرة.

أخرج البخاري، من حديثٍ، وفيه: فقدم أبو عبيدة بمالٍ من البحرين، فَسَمِعَتِ الأنصارُ بقدومه، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ فلما انصرف؛ تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، وقال: «**أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة، وأنه جاء بشيء؟**» قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**فأبشروا وأمِّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على مَنْ كان قبلكم، فتنافَسُوها، كما تنافسوها، وتلهيكم كما ألهتهم**»(٦٤)، ورواه أحمد بإسناد صحيح، وفيه:

---

(٦٣) المسند، ج ١٠، رقم ١٢٣٢٧، ص ٤٣٩، ٤٤٠ وإسناده صحيح.

(٦٤) فتح الباري،.. ج ١١، رقم ٦٤٢٥، ص ٢٤٣، ورواه مسلم، إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، رقم ٢٩٦١، ص ٥١٣، ٥١٤.

«أبشروا، وأمِّلوا خيرا..»(٦٥).

فالنبي ﷺ يبشرهم، ويدعوهم للاستبشار، وإلى أن يؤملوا ما يسرهم، وأن يؤملوا خيرا، فالأمل، في الخير، وفيما يسر الإنسان سنة نبوية، بشرط ألا تلهيه الدنيا، وتدفعه للتحاسد والتنافس، وسوف نفصل هذا في فصل: (تربية القلب الغني)، (وتربية القلب المخموم).

وأما الحديث الثاني؛ فأخرجه الترمذي عن أبي بَكْرَةَ: أن رجلا قال: يا رسول الله، أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمْرُهُ، وحَسُنَ عَمَلُه**».قال: فأيُّ الناس شَرٌّ؟ قال: «**من طال عمره، وساء عمله**». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح(٦٦).

فخير الناس من يرجو طول العمر في حسن العمل، ويكون كذلك فعلا.

إذن، الأمل؛ الرجاء في طول العمر، وكثرة المال، والرفاهية، في الخير، للنفس وللآخرين، هو أمر محمود، مادام خيرا، ولا يلهي عن الله، والآخرة، ولا عن حق الله، وحقوق الناس، وكذلك الأمل في التمكين لدين الله في الأرض، والنصر، والوصول إلى الأهداف والطموحات والأحلام المشروعة، الممكنة، التي تدفع الناس للعمل، بصدر متفائل، وروح وثابة، وكفاح، وثبات، فتربية الأمل ـ بهذا الوضع، في القلب، تربية مشروعة، لأن الأمل، بهذا الوضع، يبعث على التحرك، والسعي، والنضال لإنجاز ما أمَّلناه، أي: مشروع حياتنا، وما أضيق العيشَ لولا فسحة الأمل.

٥- أما الأمل الذي يلهي عن الله، والمصير الأخروي، ويُطغي على حقوق الناس، فهو المذموم حقا، وهو كما قال الله في بعض الكفار: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾[الحجر: ٣] فالأمل- هنا - تجاوز حدود

---

(٦٥) المسند، ج ١٤، رقم ١٨٨١٨، ص ٣١١، ٣١٢ .

(٦٦) سنن الترمذي، ج ٤، رقم ٢٣٣٧، ص ١٤٨ .

المعقول المحمود، المشروع، فصار أداة إلهاء، وتغفيل، وتعمية، إنه الأمل المغموس في الكفر والتمتع المادي الدنيوي فقط .

وهذا مِثل الاسترسال في طول الأمل، وليس الأمل في ذاته، قال الإمام علي- رضي الله عنه: «إن أخوف ما أخاف عليكم؛ اتباع الهوى، وطول الأمل؛ فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فَيُنْسِي الآخرة». وفي بعض طرقه: «وطول الأمل يصرف هِمَمَكمْ إلى الدنيا»[٦٧].

قال ابن حجر: وورد في ذم الاسترسال مع الأمل، حديث أنس، رفعه: «**أربعة من الشقاء: جمود العين، وقسوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا**». أخرجه البزار[٦٨].

وينبغي أن نقرر هذه الحقيقة؛ وهي: أن الاسترسال مع الأمل، حين يكون متعلقا بالدنيويات، وبعالم الشهادة، المحسوس، فقط، هو المذموم المرفوض، وهو الذي يُقسِّي القلب، جاء في الفتح: «ويتولد من طول الأمل: الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب؛ لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر، والثواب والعقاب، وأهوال القيامة (...) وفي الأمل سِرٌّ لطيف؛ لأنه، لولا الأمل ما تهَنَّى أحَدٌ بعيش، ولا طابت نفسه أن يشرع في عمل من أعمال الدنيا، وإنما المذموم منه: الاسترسال فيه، وعدم الاستعداد لأمر الآخرة، فمن سلم مِنْ ذلك؛ لم يُكلّف بإزالته»[٦٩]. أقول: بل يكلف بتربيته، فالإنسان في حاجة لتربية الأمل الباعث على بذل الجهد لتحقيق الأهداف المشروعة، والأمة محتاجة لتربية الأمل في كل

---

(٦٧) ابن حجر: فتح الباري، ج ١١، ص ٢٣٦، ٢٣٧، ابن المبارك: كتاب الزهد، رقم٢٥٥، ص٨٦ .

(٦٨) ابن حجر: المصدر السابق، ص ٢٣٧ .

(٦٩) المصدر السابق، ص ٢٣٧، قلت: وفي هذا الإطار يرجع إلى: ابن رجب: جامع العلوم والحكم، في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، مصدر سابق، حديث رقم ٤٠، ص ٤٥٠ – ٤٥٩.

ناشئتها؛ لينجزوا المشروع الإسلامي إنجازا حقيقيا في عالم الواقع.

٦- فالاسترسال في الأمل، وعدم تذكر المصير الأخروي، والانغماس في هموم الدنيا وحدها، يقسي القلب، ويفسده، يقول الربيع بن أبي راشد: «إن ذكر الموت إذا فارق قلبي ساعة؛ فَسَدَ عَلَيَّ قلبي»(٧٠).

هـ - الثرثرة وكثرة الكلام، الفارغ من الخير والصواب والمنفعة، وما يلحق بذلك من الجدال والصياح.. إلخ :

١- سواء نطق بذلك الإنسان، أو استمع إليه، فإنه ينشأ عن كثرة ذلك، غفلة في القلب، ويثور غبار عليه، مما يُحدِث فيه قسوة، وقد سبق أن ذكرنا قول المسيح: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم..»، فقسوة القلب تنتج عن كثرة الكلام في غير صواب، وتصويب، وخير، ومنفعة، وحق، وقصد لوجه الله.

٢- وفي كثرة الكلام يقول الخبير القلبي بشر بن الحارث؛ (الزاهد، الجبل الثقة، ليس يروي إلا حديثا صحيحا، الإمام، العالم، الرباني، القدوة، كان يغزل المغازل ويبيعها، فذاك كسْبُه، قال أحمد بن حنبل: لو كان بشر تزوج لتَـمَّ أمْـرُهُ)(٧١). قال بشر: «خصلتان تقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل»(٧٢).

ويقول ابن القيم: «قسوة القلب من أربعة أشياء؛ إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة»(٧٣).

---

(٧٠) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد..، رقم ٢٦٦، ص ٩٠، وهذا قاله صالح المري، كذلك، نفس المصدر، رقم ٢٦٠، ص ٨٨، وقال مثله سعيد بن جبير؛ انظر: الحافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٤، ط مؤسسة الرسالة، ص ٢٧٩ .

(٧١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٤٦٩ – ٤٧٥ .

(٧٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤٤٠، أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٨، ص ٣٥٠.

(٧٣) ابن قيم الجوزية: الفوائد، مرجع سابق، ص ٨٧ .

٣- وفي المِراء - الجدال بدون دليل، وبدون قصد علمي صحيح - وكثرة المسائل في غير ما ينفع؛ قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: «المِرَاءُ في الدين يُقسِّي القلب، ويورث الضغائن»[٧٤].

وقال مالك: «الجدال في الدين: ينشئ المراء، ويذهب بنور العلم من القلب، ويُقسِّي، ويُورِثُ الضِّغْنَ»[٧٥].

وقال محمد بن عُبَادَةَ المُعَافِرِيُّ: «كُنَّا عند ابن شُرَيْح؛ (الإمام القدوة، الرباني، المعافري الإسكندراني، العابد، وثقه يحيى بن معين، وقال أبو حاتم: لا بأس به) رحمه الله، فكثرت المسائل، فقال: قد دَرَنَتْ قلوبكم، (يعني: أصابها الوسخ)، فقوموا إلى خالد بن حميد المسهري؛ اسْتَجْلُوا قلوبكم، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق؛ فإنها تجدد العبادة، وتورث الزهادة، وتجر الصداقة. وأقلوا المسائل؛ فإنها، في غير ما نزل؛ (وقع فِعْلا) تُقَسِّي القَلْبَ، وتورث العداوة»[٧٦]. وهذا حق قد جربته وخبرته.

والقسوة؛ إذا وقعت لصاحب العلم والقراءة؛ فلا أشد منها، قال المنذر ابن مالك: «كُنَّا نتحدث أنه ليس شيء أشد قسوة من صاحب كتابٍ إذا قَسَا»[٧٧]. فهو يقرأ، ويكتب، لا لله، ولا للدين، بل للجاه، والمنصب، والمال.. والرياء الاجتماعي.. فيا لها من قسوة إذا عُوقِبَ بها شخص! قال سعيد بن يزيد: «ميراث الذكر - لغير ما يوصل إلى الله - قسوة في القلب»[٧٨].

فالذكر: العلم، وقراءة القرآن، وتعليم العلم.. إلخ، إذا كان لغير الله، ولم يوصل إلى الله، أنتج القسوة في القلب؛ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي

---

(٧٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٣٦ .
(٧٥) المصدر السابق، ج ٨، ص ١٠٦
(٧٦) المصدر السابق، ج ٧، ص ١٨٢، ١٨٣
(٧٧) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٣، ص ٩٨ .
(٧٨) المصدر السابق، جـ ٩، ص ٣١٧ .

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢] .

ومن لفتات ابن الجوزي في ذكر تلبيس إبليس على الفقهاء، قوله: «ومن ذلك أنهم جعلوا النظر جُلَّ اشتغالهم، ولم يمزجوه بما يرقق القلوب؛ من قراءة القرآن، وسماع الحديث، وسيرة الرسول ﷺ وأصحابه، ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير، وهي محتاجة إلى التذكار والمواعظ؛ لتنهض لطلب الآخرة، ومسائلُ الخلافِ - وإن كانت من علم الشرع - إلا أنها لا تنهض بكل المطلوب.

ومن لم يطلع على أسرار سير السلفِ، وحالِ الذي تمذهب له؛ لم يمكنهم سلوك طريقهم.

«وينبغي أن يُعْلَمَ أن الطبع لِص، فإذا تُرك مع أهل هذا الزمان؛ سرق من طبائعهم فصار منهم، فإذا نظر في سير القدماء؛ زاحمهم وتأدب بأخلاقهم، وقد كان بعض السلف يقول: حديث يرق له قلبي أحب إليَّ من مائة قضية من قضايا شريح. وإنما قال هذا؛ لأن رقة القلب مقصودة، ولها أسباب(...) ومن تلبيسه عليهم: أن يحَسِّنَ لهم ازدراء الوعاظ، ويمنعهم من الحضور عندهم، فيقولون: من هؤلاء؟ هؤلاء قصاص. ومراد الشيطان ألا يحضروا في موضع يلين فيه القلب ويخشع..»(٧٩) إلخ.

٤ - وفي الصياح وعلو الأصوات، والاشتداد والاستمرار فيه، يقول النبي ﷺ فيما أخرَجَهُ أحمد عن أبي هريرة؛ قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: **«الإيمان: يمَانٍ، والحكمة: يمانية، هم أرق قلوبا. والجَفَاءُ في الفَدَّادِين، أصحاب الوَبَرِ»** وأشار بيده نحو المشرق(٨٠).

فالجَفَاءُ، وهو غلظة القلب وخشونة السلوك، في الفدادين. وأخرج عن

---

(٧٩) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩

(٨٠) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٧، ط دار الحديث، رقم ٧٤٩٦، ص ٢٩٥.

أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «**ألا إن الكفر والفسوق وقسوة القلب في الفـدادين، أصحاب الشعر والوَبَر، الذين يغتالهم الشياطين على أعجاز الإبل**»(٨١).

وأخرج أحمد، عن أبي مسعود الأنصاري، قال: أشار رسـول الله ﷺ بيـده نحو اليمن، فقال: «**الإيمان: هَاهُنَا**».قال: «**ألا وإن القـسوة وغلـظ القلـوب في الفدادين، أصحاب الإبل، حيث يطلع قَرْنُ الشيطان، في ربيعة ومُـضر**». قـال محمد: عِنْدَ أصول أذناب الإبل(٨٢). وهذا في رواية البخاري ومسلم، واللفظ له، عن أبي مسعود قال: أشار النبي ﷺ بيده نحو اليمن، فقال: «**ألا إن الإيمان ها هنا. وإن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين، عند أصول أذناب الإبل، ..**». وأخرج مسلم عن جـابر بـن عبـد الله، يقـول: قـال رسـول الله ﷺ: «**غِلَـظ القلوب، والجفاء: في المشرق، والإيمان في أهْـل الحِجَاز**»(٨٣).

ففي هـذا الحـديث ينـسب النبـي ﷺ الجفـاءَ والقـسوة، وغلـظ القلـب، للفدادين، فمن هم؟ قال ابـن الأثـير: «الفَـدَّادُون - بالتـشديد: الـذين تعلـو أصواتهم في حروثهم، ومواشيهم، واحِدُهُمْ: فَـدَّاد. يقال: فَـدَّ الرجـل، يَفِـدُّ، فَدِيدًا؛ إذا اشتد صَوْتـُه (...) إذا عَلا صَوْتـُه»(٨٤).

وقال ابن منظور: «الفديـد: الـصوتُ، وقيـل: شِـدَّتُهُ (...) فَـدَّ يَفِـدُّ فَـدًّا وفَدِيدًا: إذا اشتد صوتـه.. ورجل فَـدَّادٌ: شديد الصوتِ، جَـافِي الكَـلام(...) وفَدَّ يَفِدُّ فَدًّا وفَدِيدًا (...) اشتد وَطْؤُهُ فوق الأرض؛ مَرَحًا ونشاطا (...) فَـدَّدَ

---

(٨١) قال محققه حمزة الزين: إسناده صحيح، المسند ج ٩، دار الحديث، رقم ١٠٩٢٠، ص ٦٢٣، ٦٢٤.

(٨٢) قال محققه: إسناده صحيح من طريقيـه، انظـر: المسند، ج ١٣، رقـم ١٧٠٠٣، ص ٢٥٥، ورواه بإسناد صحيح عنه، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٢٤٣، ص ٢٧٩ .

(٨٣) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، تحقيـق د.يحيـى إسماعيل، رقـم ٨١ (الحـديث الأول)، ورقم ٩٢ (الحديث الثاني)، ص ٢٩٤، ٣٠٣، ولفظ البخاري: «**والجفاء وغلـظ القلـوب في الفدادين..**»، فتح الباري.. ج ٨، حديث رقم ٤٣٨٧، ص ٩٨، ورواه الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٧، رقم ٥٦٤ حتى رقم ٥٦٩، ص ٢٠٨ - ٢١٠.

(٨٤) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٣، دار الفكر، بيروت، ص ٤١٩ .

الرجل: إذا مشى على الأرضِ؛ كِبْرًا وبَطـرًا. وفَدَّدَ الرجـل؛ إذا صـاح في بيعـه وشرائـه (...) وقـال ثعلـب: الفَـدَّادُون: أصـحاب الـوبر؛ لِغِلَـظِ أصْـواتِهِمْ وجفائهم..»(٨٥).

فالفَدَّاد: هو الذي يكون صوته عاليا شديدا، جافيا، غليظا، يكثر الـصياح في عمله، أو بيعه وشرائه، وهو مع ذلك فيه كِبْر، ونَفْخَةٌ، يمشي في مرح، وعلو صوت، وفَدَّاد: على وزن: فَعَّال، صيغة مبالغة من الفديد، فالفديد الكثير أحد أسباب قسوة القلب وغلظته. يقول عياض:

فالفدادون- إذًا - الـذين عَنـى النبـي ﷺ بهـذا الحـديث، وصْـفَهُم بهـذه الأوصاف؛ من الجفاء والقسوة وغلظ القلب، والفخـر والخـيلاء، هـم - كـما فسرهم في الحديث - أهْـلُ نجد، وأهل الخيل، والإبِل، والـوَبَر، ومـن ربيعـة ومُضر، وهو نحو ما قال مالك وأبو عبيد (أنهم المكثرون من الإبل)، ولا يبعد منه قول الأصمعي والقتبي من أن الفدادين: أصحاب الأصوات المرتفعـة في حروثهم وأموالهم ومواشيهم؛ لأن فيه الرِّياءَ والخَيَلاءَ، ولا يبعـد أيـضا قـول أبي عمرو؛ لما ذكره من الجفـاء والتَّبَـدِي. وبالجملـة: ففـي هـؤلاء كلهـم مـن الخيلاء والكِبْر ما قال؛ بسبب كثرة المال، ومن الجفاء والغلظة والقسوة؛ بسبب التبدي والاشتغال بأموالهم، وحبها والإقبال عليهـا، عَـن النفقـة في ديـن الله تعالى»(٨٦). وما قاله يتكامل مع ما قررناه .

فالصياح الكثير، مع ما سبق، أحد أسـباب قـسوة القلـب، فـانظر نتيجـة ارتفاع الأصوات، والصخب، والتلوث بالضوضاء في قلوبنا !

و- كَثْـرَةَ الضَّحِك والاسترسالُ فيه:

١ - الضحك والتبسم طبيعة إنسانية مميزة، لهـا أسـبابها النفـسية والعقليـة

---

(٨٥) ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٣٦٢، ٣٣٦٣ .

(٨٦) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، مصدر سابق، ص ٢٩٦

والاجتماعية، وهي خاصية للإنسان الاجتماعي، وكان النبي ﷺ يضحك، تبسما، وضحك حتى بدت نواجذه، وفي خلق النبي ﷺ مع نسائه - يقول ابن كثير: «وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهْلَهُ، ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، ويضاحك نساءه..»[٨٧]. وحسَّن الترمذي حديث الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد الله بن الحارث بن جزء قال: «ما كان ضحك رسول الله ﷺ إلا تبسما». وروى أحمد عنه، يقول: «ما رأيت أحدا كان أكثر تبسما من رسول الله ﷺ». ورواه عنه بلفظ: «ما رأيت أحدا أكثر تبسما من رسول الله» [٨٨]. وأخرج ابن عساكر عن عائشة: وكان ضحاكا بَسَّامًا، وأخرج أحمد والترمذي والحاكم عن جابر بن سَمُرة: «كان لا يضحك إلا تبسما». وأخرج أحمد عنه: «كان طويل الصمت، قليل الضحك»[٨٩].

وكان الصحابة يضحكون، سئل ابن عمر: هل كان أصحاب محمد يضحكون؟ قال: «نعم، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال»[٩٠].

وكان ابن سيرين تابعيا فقيها، ورعا، وكان بسَّامًا، وما كان يعرض له أمران في دينه إلا أخذ بأوثقهما، فتقول امرأة هشام بن عباس: «كنا نزولا مع محمد بن سيرين في داره، فكنا نسمع بكاءه في الليل، وضحكه بالنهار». وقال

---

(٨٧) أحمد محمد شاكر: عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، ج ١، مصدر سابق، ص ٤٢٣ .

(٨٨) إسناده حسن، المسند، ج ١٣، حديث رقم ١٧٦٣٤، ص ٤٦٨، ٤٦٩، المسند، ج ١٣، حديث رقم ١٧٦٤٤، ص ٤٧١، وقال شعيب الأرناؤوط وزملاؤه: حديث حسن، (رقم ١٧٧١٣، ١٧٧١٤) ورواه ابن المبارك في الزهد، رقم ١٤٥

(٨٩) انظر: الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، حديث رقم ٤٨٢٢، ص ٨٧٣ (إسناده حسن)، ورقم ٤٨٦١، ص ٨٧٧ وإسناده صحيح (حديث جابر بن سمرة الأول)، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٤، تحقيق وتوثيق: صدقي جميل العطار: ط ٣، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص ٤١٧، ٤١٨، ٤٢١، وفصل: (ذكر مزاحه عليه السلام) نفس المرجع، ص ٤٢٢ - ٤٢٥.

(٩٠) أبو نعيم: حلية الأولياء.. ج ١، ص ٣١١، عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ١١، رقم ٢٠٦٧١، ص ٣٢٧، ورقم ٢٠٩٧٦، ص ٤٥١ .

مهدي بن ميمون: كان محمد بن سيرين يتمثل الشعر، ويذكر الشيء ويضحك، حتى إذا جاء الحديث من السنة؛ كَلَحَ، وانضم بَعْضُهُ إلى بعض. وعن السَّري، وابن شوذب؛ قالا: كان ابن سيرين ربما ضحك حتى يستلقي، ويمد رجليه. وقال حبيب بن الشهيد: كان ابن سيرين لا يئن على بَلاء، وربما يضحك حتى تدمع عيناه، وقال أبو سهل: رأيت محمد بن سيرين، وكان كثير المزاح، كثير الضحك. وقال قرة بن خالد: قلت لمحمد بن سيرين: هل كانوا يتمازحون ؟ فقال: ما كانوا إلا كالناس، كان ابن عمر يمزح، وينشد الشعر(٩١).

وتأمل ما رواه الذهبي، قال: «كان سفيان (الثوري) يضحك، حتى يستلقي ويمدد رجليه» (٩٢).

وقال معاوية بن قرة: «مَنْ يَدُلُّنِي على رَجلٍ بَكَّاءٍ بالليل، بَسَّامٍ بالنهار»(٩٣). نعم: مَنْ ؟

وعن مالك بن مِغْوَل قال: مَزَح الشعبي في بيته، فقيل له: يا أبا عمرو، تَمْزَحُ ؟! قال: قَرَّاءٌ داخلٌ، وقَرَّاءٌ خَارجٌ! نَمُوتُ مِن الغَمِّ؟»(٩٤).

فالمسلم ذو طبيعة إنسانية، كالناس الأصحاء الأسوياء، في هذه الطبيعة.

٢- لكن الاسترسال في الضحك، والمزاح، والفكاهة، والتمادي فيه،

---

(٩١) أبو نعيم: حلية الأولياء،.. ج ٢، ص ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٤، ٢٧٥ .

(٩٢) الذهبي: سير أعلا م النبلاء، ج ٧، ص ٢٧٢ .

(٩٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ١٥٤، ورواه أحمد في الزهد، ص ٢٧٥

(٩٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، ... ج ٤، ص ٣٢٤،

قلت: أوجه القارئ لدراسة البحث المهم النافع، الآتي:

أ.د.حسن عبد الغني أبو غُدَّة: المزاح في الإسلام، بحث في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، السنة العشرون، عدد ٦١ (يونيو ٢٠٠٥م)، ص ١٩٥ – ٢٧٣، ودراسة كتاب: د. يوسف القرضاوي : فقه اللهو والترويح، ط ١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م، ص ١٩ –٤٤.

والإكثار منه، هو الذي يُقَسِّي القلب، ويميتُه، وخصوصا إذا صاحب ذلك غفلة عن الله، وعن المصير الأخروي والجزاء، وعن غاية الإنسان في الوجود، وعن فعل الخير، وذكر الله، وعمل الحسنات.ومن هنا جاء التوجيه النبوي لأصحابه بعدم (الإكثار) من الضحك .

أخرج ابن ماجه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، ﷺ: «**لا تكثروا الضحك، فإن كثرة الضحك تُميت القلب**»[٩٥].

وفي صحيح الجامع الصغير: «**لا تكثر الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب**».ورواه أحمد في المسند بهذا اللفظ[٩٦].

وفي صحيح الجامع: «.. **وإياك وكثرة الضحك؛ فإن كثرة الضحك فساد القلب**»[٩٧].

وفي ابن ماجه، عن أبي هريرة: «.. **وأَقِلَّ الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب**»[٩٨].

٣- نخرج من ذلك بما يلي:

- الضحك العادي، والتبسم، طبيعة إنسانية.. والممنوع على المسلم هو الاسترسال، والتمادي، والإكثار .

- إن كثرة الضحك والاسترسال فيه تفسد القلب، وتقسيه، والقسوة نتاج

(٩٥) قال الألباني: صحيح، انظر: الشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج ٣، رقم ١٤٩١، ص ٢٩٢، وأورده الألباني في: السلسلة الصحيحة، ج ٢، رقم ٥٠٦، ص ١٦ بإسناد جيد .

(٩٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته، الفتح الكبير، ج ٢، رقم ٧٤٣٥، ص ١٢٣٩، وفي الصحيحة رقم ٥٠٥ والمسند، ج ٨، رقم ٨٠٨١، ص ١٦٦، ١٦٧ وهو صحيح لغيره .

(٩٧) صحيح الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٧٨٣٣، ص ١٢٩٣

(٩٨) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣٤١٧، ص ٣٧٤، وفي السلسلة الصحيحة، ج ٢، برقم ٩٢٧، وبرقم ٢٠٤٦، وقال في مصباح الزجاجة: هذا إسناد حسن.انظر: الشهاب البوصيري: مصباح الزجاجة، ج ٣، رقم ١٥٠٥، ص ٣٠٠.

للموت الناتج عن التمادي في الضحك الغافل، فالضحك المسترسل، وبكثرة، هو انغماس في موقف اجتماعي غافل عن الله، وهو صياح، وتتابع في الغفلة، مما يحدث تحولا في القلب من اللين والرقة إلى القسوة والغلظة، لكن رفض كثرة الضحك، والاسترسال والتمادي فيه لا ينفي أن يكون المسلم بسَّاما ذا طبيعة مرحة، فكها مع أهله، ومع الناس، كما قدَّمْنا، ويقول حماد بن زيد: «ما رأيت رجلا قط أشد تبسما في وجوه الرجال من أيوب»(٩٩).

ز - البطنة والتخمة وما يتعلق بهما:

١ - ثبت لي - بالخبرة - أن كثرة الأكل لحد امتلاء البطن هو عامل من عوامل الكسل العقلي، والوخم الذهني، وداع إلى النوم، أو التراخي والفتور في الأعمال المطلوبة، ومن هنا فإني أصدق بيقين ما قرره سفيان الثوري: «إياكم والبِطْنَة؛ فإنها تُقَسِّي القلبَ، واكظموا الغيظ، ولا تكثروا الضحك؛ فإنه يُميت القلوب»(١٠٠). والبِطْنَةُ: امتلاء البطن بإفراط، من الأكل والشرب. ورواه ابن المبارك قال: أخبرنا سفيان؛ قال: كان يُقال: «إياكم والبطنة؛ فإنها تُقَسِّي القلبَ»(١٠١).

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: «ما شبعت منذ ست عشرة سنة، إلا مَرَّةً، فأدخلت يدي فتقيأتُها»؛ رواه ابن أبي حاتم عن الربيع، وزاد: «لأن الشِّبَع يُثْقِلُ البَدن، ويُقَسِّي القلبَ، ويُزيل الفِطْنَة، ويجلب النَّوْمَ، ويُضْعِفُ عَنِ العِبادة»(١٠٢).

---

(٩٩) هو أيوب بن كيان السختياني، سيد الفتيان، وسيد الفقهاء، وجهبذ العلماء، لقي ستة وثمانين من التابعين، يقول مالك بن أنس: كنا ندخل على أيوب السختياني، فإذا ذكرنا له حديث لرسول الله ﷺ، بكى، حتى نرحمه. انظر: أبو نعيم: حلية الأولياء.. ج ٣، ص٣، ٤، ونص المتن، ص ٨.

(١٠٠) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٧، ص ٣٦ .

(١٠١) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد، رقم ٢٦٩، ص ٩١ .

(١٠٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ٣٦ .

قلت: صدق والله الشافعي .

وقال أبو سليمان الداراني: «لكل شيء صَدَأٌ، وصَدَأ القَلْبِ: الشِّبَعُ»[١٠٣].

وقال أيضا: «إذا جاع القلْبُ وعطش؛ صَفَا ورَقَّ. وإذا شبع؛ عَمِيَ وغَلُظَ»[١٠٤].

ويقول القسطلاني: «فالشبع يورث القسوة، ويُوفِّر الجَفْوَة، ويثير النوم، ويجلب الكسل عن الطاعة. ورُوِيَ عن عيسى - صلوات الله وسلامه عليه - أنه كان يقول للحواريين: لا تأكلوا كثيرا، فتشربوا كثيرا، فتقسو قلوبكم»[١٠٥].

وفي إكمال المعلم بعد أن ذكر جواز الشبع في الأكل قال: «وما جاء من كراهة الشبع عن النبي ﷺ وعن السلف، فذلك حكم المداومة عليه؛ لأنه يقسي القلب، ويُنْسي أمر المحتاجين وما لهم، ويكثر عليه المحاسبة، غير أن المباح منه ما لم يزد على القدر، ويشغل عن أداء الواجب، ويضر بالنَّفَس، ويضيقه ويورث التخمة ويثقل المعدة وما زاد على هذا فغير مباح.. إلخ»[١٠٦].

ويقول بشر بن الحارث الحافي: «الجوع يصَفِّي الفؤاد، ويميت الهَوَى، ويورث العلم الدقيق»[١٠٧].

ويقصد بالجوع - هنا - الصوم، أو عدم الشبع؛ إذا أكل .

٢- ويوضح المحاسبي هذه النقطة، في تحليل دقيق؛ يقول: «كان جوع أصحاب محمد ﷺ: إذا أُعْطُوا؛ أَكَلُوا وشَرِبُوا، وإذا مُنِعُوا؛ حمدوا وصبروا،

---

(١٠٣) المصدر السابق، ص ١٨٣

(١٠٤) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٤، ص ١٤٩٣

(١٠٥) المحدث الحافظ قطب الدين القسطلاني: مدارك المرام في مسالك الصيام، علق عليه رضوان محمد رضوان، ط كلية الأزهر، هدية، رمضان ١٤١٣هـ، ص ٩٣ .

(١٠٦) القاضي عياض: إكمال المعلم، بفوائد مسلم، ج ٦، ص ٥١٢ .

(١٠٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٣، ص ٤٧١ .

فلم يجعلوا الجوع لهم سببا ولا طريقا، ولا الشبع لهم منزلة. وذلك أن في الشبع غِلَظا وصَلابَةً؛ عند الوعد والوعيد، وفي الجوع رقة واهتياجًا للبر»(١٠٨). ثم يقول: «ومَنْ دعا إلى الشبع فقد عصى الله، ولم يحسن أن يطيعه؛ لأن الشبع ثقل على البدن، وصلابة عن وعيد الله في القلب، وغلظ في الفهم، وفتور في الأعضاء»(١٠٩).

ويقول في أعمال القلوب: «الطبائع تختلف من الناس: فمنهم مَنْ يحتاج إلى الطعام في وقت أكله، ويستغني عنه - عند ذلك الوقت - في يوم آخر، وربما احتاج إلى طعام (في حال)، ويستغني عن مثله، في غير تلك الحال. ولكن أفضل ما أخذ من طعام: أخْذ ما تحتاج إليه النفس، ليس فيه زيادة ولا نقصان، فيأخذ منه ما يعينها، ويدفع عنها ما يطغيها»(١١٠). وهذا هو الوسط المعتدل، وهي خاصية الحر، كما قال ابن المبارك:

ومِنَ البَلاءِ وللبلاء عَلامَةٌ ... أن لا يُرَى لك عن هَوَاكَ نزُوعُ

العَبْدُ عَبْدُ النفْسِ في شَهَوَاتِهَا ... والْحُرُّ يَشْبَعُ مَرَّة ويَجُوعُ(١١١)

٣- ومما يُقَسِّي القلب ـ في هذا السياق ـ النَّوم على الأكْل، ففي تعليق ابن القيم على حديث ضعيف الإسناد، فيه: «ولا تناموا عليه (الطعام) فتقسو قلوبكم. قال: «والواقع في التجربة يشهد به». ويقول ابن حجر: «هذا حديث لا يثبت، وإن كان معناه قويا»(١١٢).

---

(١٠٨) أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي: المكاسب، ضمن مجموعة المحاسبي: أعمال القلوب والجوارح، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(١٠٩) المصدر السابق، ص ٢٢٨

(١١٠) المصدر السابق، كتاب أعمال القلوب والجوارح، ص ٨٦، وانظر نفس المرجع، ص ٨٧، ٨٨.

(١١١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٤١٧.

(١١٢) ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ٢، ط ٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، مع تخريج الشيخ شعيب الأرناؤوط وزميله، ص ٣٧٠، وهامش رقم ٥.

٤- وأختم هذه العِلـَّة لقسوة القلب، بقول عمر: «اتقوا هذه المجازر؛ فإن لها ضراوة كضراوة الخمر». قال ابن الأثير: « نهى عن أماكن الذبح؛ لأن إلفها وإدامة النظر إليها، ومشاهدة ذبح الحيوانات مما يُقَسِّي القلب، ويُذهب الرحمة منه (...) وقيل: إنما أراد بالمجازر: إدمان أكل اللحوم؛ فكَنَّى عنها بأمكنتها»(١١٣).

قلت: الأول صحيح؛ فإدامة وإلف النظر إلى عملية الذبح ومشاهدتها، دون ذكر الله، قد يحدث قسوة في القلب. لكني أعرف جزارين فيهم رقة قلب، ورحمة، والثاني هو (الأصح)؛ لأن كثرة أكل اللحم خطيرة جدا، لأنها محبوبة مشتهاة مغرية، (وهذه هي ضراوتها)، لكنها مضرة جدا بالكبد والطحال، والقلب، فتأمل، واسأل طبيبا مختصا تجد ما قلته لك صحيحا، لأنني خبرته، وعانيت منه .

والمقصد: أن نقرر أن كثرة الأكل، والبطنة، والنوم على الأكل، وكثرة أكل اللحم، ومشاهدة عملية الذبح بكثرة، كل هذا يفسد القلب، ويُقَسِّيهِ، ويحول بين القلب وحلاوة المناجاة لله، يقول الجنيد: «يقوم أحدهم في صلاته، فيجعل بينه وبين الله تعالى زَنْبيلَ طعام، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة، أو يسمع فهم الخطاب» ويشرح أبو طالب المكي ذلك بنص قال فيه: «الجوف إذا خلا من الامتلاء؛ كان أرق للقلب، وأعذب للتلاوة، وأدوم للقيام، وأقل للمنام»(١١٤).

ح - أكل الحرام ولبس الحرام وشرب الحرام:

فهذه كلها معاصٍ، وتجاسر على الظلم، وترك للخير، تترك رانا على القلب، فيحدث فيه قسوة، وإذا كان أبو عبد الله الساجي سعيد بن يزيد

---

(١١٣) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث، ج ١، ص ٢٦٧ .

(١١٤) الجنيد البغدادي: الأعمال الكاملة، ط ٢، دراسة وجمع وتحقيق: د. سعاد الحكيم، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ١٥٤، ١٥٥

يقول: «أكل الحلال يُصَفِّي القلب، فيبصر أمر الدنيا والآخرة»(١١٥). فإن أكل الحرام يظلمه ويقسيه، وكما ذكرنا قول سفيان: الرغبة ـ يعني: في الحرام ـ تقسي القلب، فكيف بالحرام؛ أكلا، ولبسا، وشربا، وفعلا، وقبولا؟

وتأمل في قول الحسن البصري: «إن الرجل ليدخل المدخلَ، ويجلس المجلس، أو يأكل الأكلة؛ فيغير قَلْبَهُ»(١١٦).

فأعمال الإنسان تؤثر في قلبه، وتتأثر به؛ الحلال يؤثر في القلب، والحرام يؤثر في القلب، الأول: يحدث الصفاء والرقة، والثاني: ينتج القسوة والغلظة. ويقول الثقة الفقيه الثَّبْتُ، صاحب الأوزاعي؛ الوليد بن يزيد: «مَنْ أكَلَ شهوة (يعني: حَرَامًا) من حَلالٍ؛ قسا قَلْبُهُ»(١١٧). فما بالنا إذا كان الأكل والشرب واللبس والترويح، مِنْ حَرَامٍ؟

ط ـ صحبة قساة القلوب:

١ - تكلمت عن آلية الصحبة المربية، في تربية قيمة التوبة والقلب المصقول، وكونها عاملا تربويا خطيرا، وأقرر هنا أن الصحبة تؤثر في القلب؛ رقة أو قسوة، خيرا أو شرا؛ يقول ممشاذ الدينوري: «صحبة أهل الصلاح تورث في القلب الصلاح، وصحبة أهل الفساد تورث فيه الفساد»(١١٨).

أقول: وصحبة أهل الرقة والرحمة - مع الشعور بالحاجة للرقة - تورث في القلب الرقة والرحمة، وصحبة أهل القسوة والجفوة والغلظة تورث في القلب القسوة. فالطبائع والأخلاق تتثاقف، ويلتقط بعضها من بعض، ويأخذ بعضها عن بعض. والمرء على دين خليله؛ فإذا كان خليله وصاحبه قاسي القلب؛ فإن غبار قسوته ورمادها يتنفسه الصاحب، فيخبث قلبه، ويقسو، إلا

---

(١١٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٩، ص ٣١٠ .
(١١٦) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، مصدر سابق، ص ٢٦٨
(١١٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٩، ص ٤٢٠ .
(١١٨) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٣١٨ .

إذا كانت الصحبة لغرض تهذيبي تربوي، أو لمصلحة ضرورية، مع عزلة شعورية تحول دون التأثر بالقاسي.

٢- ولهذا حَذَّر الجهبذ الفذ بشر بن الحارث الحافي من مثل هذا؛ يقول: «النظر في وجه البخيل: قساوة القلب»(١١٩). وهو في الحلية بلفظ: «النظر إلى البخيل يُقَسِّي القلب»(١٢٠). وتأمل في قول هذا الرباني الثقة: «بحسبك أن قوما مَوْتَى تحيا القلوب بذكرهم، وأن قوما أحياء تقسو القلوب برؤيتهم»(١٢١).

٣- ومما يُرْوَى في هذا، بسند مقطوع، قال محمد بن النضر الحارثي: «أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: يا موسى بن عمران، كن يقظا، مُرْتادًا لنفسك أخدانا (أصحابا حميمين)، فكل خِدْنٍ لا يُواتِيك على مَسَرَّتِي؛ فإنه لك عدو، وهو يُقَسِّي عليك قلبك، ولكن من الذاكرين تستوجب الأجر، وتستكمل المزيد»(١٢٢).

٤- فالصحبة، والمخادنة لأشخاص قساة القلوب؛ تحدث (ثقافة قسوة)، (ووسطا ثقافيا قاسيا، جلفا) يتشربه الصاحب، وهو لا يشعر، هذا التشرب لثقافة القسوة يؤثر في المشاعر، والاتجاهات، والأفكار، والأخلاق، والعادات، تأثيرا بطيئا، أكيد المفعول، إنه يتدسس للقلب والنفس، فيصوغهما على مَهَل، لإخراج قلب قاسٍ، وخلق غليظ. يقول ابن الجوزي: «والمعلوم أن الطبع يسرق من خصال المخالطين، فإذا خالطوا مؤثري الدنيا، الجهال بالشرع؛ سرق الطبع من خصالهم (...) وذلك سبب الهلاك»(١٢٣).

---

(١١٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ١٣٢

(١٢٠) أبو نعيم، حلية الأولياء، ج ٨، ص ٣٥٠.

(١٢١) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٤٦.

(١٢٢) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٨، ص ٢٢٢، ورواه أحمد في الزهد بإسناد صحيح إلى الحارثي المذكور، بلفظ غريب، الزهد، النسخة المحققة، رقم ٤٣٧، ص ١٧٩.

(١٢٣) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، النسخة المحققة، مصدر سابق، ص ١٤٨

ي - عوامل التنشئة الثقافية الدنيوية:

في الأسرة، والتلفزة، والمسرح، والسينما، والنادي، والشارع، والمدرسة، والجامعة، ومؤسسة العمل، والنقابات، والكتب، والصحف والمجلات، والقهاوي، والشبكة الدولية والفيديو، والحاسوب، حين تكون بعيدة عن منهج الله تعالى، فتعرض الفتن على القلوب، باستمرار، وتبث ثقافة قسوة، وتوجه توجيهات عَلمانية دنيوية معزولة عن الله، وتقواه، وعن اليوم الآخر، فتشكل وسطا ثقافيا يؤسس عالمَ عقائدَ وأفكار، وعالم قيم وأذواق، وعالم عادات وسلوكيات، تحجب عن الله، وتنفتح على (الحرام) المربي للقسوة، فيتشرب الناشئون والناشئات ذلك كله، دون حس نقدي يسأل: لماذا؟ وكيف؟ وهل هذا صحيح؟ وما الدليل؟

إن الدجاجة إذا كانت ترعى وتأكل العُذرة، وتشرب الماء الملوث تسمى (الجلاَّلة)، ويُكْرَهُ أَكْلُهَا حتى تغير مرعاها..؛ والسمكة إذا تربت في مزرعة يفتح عليها الغائط والبول.. تلوثت، وفسد لحمها، فكذلك القلب الإنساني إذا نشأ في بيئة ثقافية ملوثة، بالكلمة، والحركة، والصوت، والنغمة، واللون.. فإنه يتشرب هذا التلوث..، ويخرج قاسي القلب، فاسد السلوك.

هذه هي الأساليب والعوامل الذاتية، والاجتماعية، التي تحدث القسوة في القلب، بقدر الله، أي: أن القسوة هي نتاج مشروع تربوي ذاتي، وجماعي، وربما نتاج مشروع تربوي سياسي تشرف على إنجازه قوى (الاستحمار) الثقافي؛ العلماني، والإلحادي، عبر المؤسسات التثقيفية التي يهيمنون عليها.

وإذا لم يُبَادر الإنسان بعلاجها، ومواجهتها.. بقَدَر التداوي المناسب، فإنها تحول (الإنسان) إلى (شيء) جامد الشعور، جلف التعامل، متبلد الإحساس، غليظ، وقح الشعور، أمي القلب، مصاب بالصمم الانفعالي، وحشي التعامل مع خلق الله، زائف الادعاءات.

إن القسوة: تشييء، وانحطاط إنساني؛ فيلزم برنامج تربوي لإحياء إنسانية الإنسان، الإنسان .

سادسا: مبادئ تربية الرقة والتخلص من قَسْوَةِ القلب:

اكتساب رقة القلب، والتخلص من القسوة، هدف تربوي إسلامي مُلزم، وهناك أربعة مبادئ لا بد من إحكامها والعمل بها، أولا: لتحقيق هذا الهدف، وهي:

المبدأ الأول: الإيمان بإمكانية اكتساب الرقة:

أول طريق لمداواة القسوة، وتربية الرقة في القلب: أن نؤمن أن القلب (يتقلب)، وأن إزالة القسوة أمر ممكن؛ إذا مارس الإنسانُ الأفعالَ التي تزيلها، وتُثَبِّت الرقة وتنميها في القلب. قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧] قال صالح المُرِّي: «يعني: أنه يُلَيِّن القلوب بعد قَسْوتِها»[١٢٤]. وأضاف ابن كثير: «فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها(...) فكما يُحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهَتَّانِ الوابل؛ كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج (يدخل) إليها النور، بعد أن كانت مُقْفَلَة، لا يصل إليها الواصل»[١٢٥].

ومن هذا الإيمان ينشأ الأمل في التخلص من القسوة، ومنهما - معا -ينشأ الميل لذلك، والسعي في ذلك، يقول سيد قطب: «لا يأس من قلبٍ خمد، وقسا وتبلد، فإنه يمكن أن تدب فيه الحياة، وأن يشرق فيه النور، وأن يخشع لذكر الله، فالله يحيي الأرض بعد موتها، فتنبض بالحياة، وتزخر بالنبت، والزهر، وتمنح الأُكُلَ والثمار، وكذلك القلوب..»[١٢٦] .

---

(١٢٤) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد..، رقم ٢٦١، ص ٨٨، وروي هذا عن ابن العباس، انظر: الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، ج ٥، ط ٢، ص ٢٣١

(١٢٥) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، مصدر سابق، ص ٣١١ .

(١٢٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٦، مصدر سابق، ص ٣٤٨٩ .

المبدأ الثاني: اشتهاء الرقة، والرغبة القوية في اكتسابها :

نؤكد دائما على هذا المبدأ، فالنقطة الضرورية الثانية: أن يوجد اشتهاء، وحب عاشق، ورغبة أكيدة في إزالة القسوة، واكتساب الرقة. فشهوة الرقة - أولا، ومن هنا، من العمق الجواني، من جذر القلب، نبدأ؛ بتربية إرادة الرقة أولا، تربية شهوة الرقة، ومنها ينشأ الميل، والاهتمام، أي: أن يشغلك ويهمك، ويمتلك عليك مشاعرك، وقلبك، وعقلك شيء من الأشياء، أو إشباعُ حاجة من الحاجات الملحة، وهو هنا: التخلص من القسوة، والاتصاف بالرقة واللين، والعذوبة، والذوق الرفيع الجميل، وتذوق الحُسْن والقُبْح في الأشياء والأشخاص، والأخلاق، والسلوكيات، والتأثر بالحسن، والسرور به، والتقزز من القبح، والنفور منه.

فتكوين وتنمية هذا الحب، والإرادة، والاهتمام، يجعل القلب يَغْلي بأعمال الرقة واللين والذوق، والرحمة، فيتجه القلب إلى تلك الأخلاق، وينهض لممارستها، ويعزم على الاتصاف بها. **لنتأمل:**

يقول مالك بن دينار: «إن الأبرار لتغلي قلوبهم بأعمال البر، وإن الفجار تغلي قلوبهم بأعمال الفجور، والله يُرَى همومَكُمْ، فانظروا همومَكُمْ، رحمكم الله»(١٢٧). ويقول يزيد بن أبَان الرقاشي: «للأبرار هِمَمٌ تُبَلِّغُهُمْ أعْمَالَ البِرِّ، وكفاك بهمة دعتك إلى خير خَيْرًا»(١٢٨).

وهذه الهمة والغليان القلبي ينشآن من المحبة، محبة هذا الخُلق؛ الرقة، وبغض القسوة، أولا؛ فهذه المحبة تحرك إرادة القلب، وهو داعية لعمل الجوارح، ومنشأ النزوع إلى الأعمال كلها.

---

(١٢٧) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ١٦٤

(١٢٨) أبو نعيم: حلية الأولياء...، ج ٣، ص ٥١ .

ولنتأمل في كلمات للجنيد: «المحبة: مَيْلُ القلوب. قال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي يقول: المحبة ميلك إلى الشيء بِكُلِّيَّتِك، ثم إيثارُك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرا وجهرا (...) قال الجنيد: علامة المحب: دوام النشاط الدؤوب، بشهوة تَـفْـتِرُ بدنـَه، ولا تفتر قلبَه»[١٢٩].

فالمحبة تُنْشِئُ الميل، والنشاط، ويقرر المحاسبي هذا الأصل النفسي التربوي، بقوله: «وَمِنْ أَحْسَن العبادة: أن يمتلئ قلبُ العبدِ من حب الطاعة، فإذا فاض (يعني: الحب في القلب)؛ عملت الجوارح على قدر ما رأت من القلب، (...) قلت: وكيف عبادة القلب دون الجوارح؟ وكيف يفيض القلبُ بالعبادة إلى الجوارح؟ قال: أن يصير وِعَاءً لِلْـهَمِّ (...) والافتقار، والخوف، والندامة، والتواضع، والاضطرار إلى الله عز وجل، والنصح له، وحب ما يحب الله، وبغْض ما يبغض الله، فإذا عامل اللهَ - على هذا - بقلبه؛ هاجت الجوارح بمثل ما رأت من القلب، فانبعث على الطاعة، وإنما يكون ذلك من القلب؛ إذا خالط سُوَيْدَاءَهُ (...) والباب الآخر: أن يمتلئ قلبه من معرفة نعم الله - عز وجل، وسروره بالله، وأنسه بعبادة الله، وشوقه إلى محاب الله، وحبه للشكر لله، ورجائه مغفرة الله، فإذا عامل الله بهذا، من قلبه؛ اشتاق إلى عبادة الجوارح معه، فيكون عاملا، وفي عمله أُنس، وسرور، وحلاوة»[١٣٠].

ويُفَصِّلُ ابنُ تيمية هذه القاعدة النفسية التربوية، يقول في كتاب التوحيد: «وأصْلُ الحركاتِ: الحب»[١٣١]. ويُفَصِّل في (قاعدة في المحبة) يقول: «وأصل كل فعل وحركة في العالم: من الحب والإرادة، فهو أَصْلُ كل فعل

---

(١٢٩) الجنيد البغدادي: الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٩٨، ١٠١

(١٣٠) المحاسبي: آداب النفوس، مصدر سابق، ص ١٧٨

(١٣١) شيخ الإسلام ابن تيمية: كتاب التوحيد والإخلاص في العمل والوجه لله - عز وجل، دراسة وتحقيق د. محمد السيد الجليند، مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ١٩٣

ومبدؤه. كما أن البغض والكراهة: مانع وصَادٌّ لكل ما انعقد بسببه ومادته، فهو أصل كل ترك»[١٣٢]. ويضيف: «هذا يندرج فيه كل حركة وعمل (...) فلم تَبْقَ حركة اختيارية إلا عن الإرادة»[١٣٣]. ولكنه يضيف: «الحب يتبع الإحساس»[١٣٤]. والإحساس: شعور مبني على معرفة، يقول ابن القيم: «فإن الحكمة.. هي التي تجعل المريد مريدا، فإنه؛ إذا علم بمصلحة الفعل ونفعه وغايته؛ انبعثت إرادته إليه»[١٣٥]. فالمعرفة تولد المحبة، وهي تولد الإرادة، والاهتمام، والحركة، والانبعاث للفعل .

ومبدأ الاهتمام مبدأ تربوي لفت إليه المحاسبي بقوة، وأتركه يوضح هذا المبدأ بأسلوبه، يقول: «فبالاهتمام، والحذر: يُجْتَلَبُ التيقظ، وبالتيقظ يُجْتَلَبُ الذِّكْرُ (حُضُور الشيء في الوعي)، وبالذكر يُجْتَلَبُ التثبُّت، وبالتثبت يُجْتَلَبُ التَّفَقُّد، وبالتفقد بالعلم يتبين له ما كره الله - عز وجل - مما أحب، وبالتبين - مع الخوف، يميز ما كره ربه عز وجل مما أحب. وبالتمييز -مع الخوف - يكون متقيا موفيا بعزمه .

قلت: فالاهتمام والحذر، إن ألزمهما قلبه؛ يوقظاه فيما يستقبل من عمره؟

قال: نعم .

قلت: فما الدليل على ذلك ؟

قال: الدليل على ذلك: أن العبد قد ينام الليالي الكثيرة، فلا يستيقظ إلا وقت صلاة الفجر، أو بَعْدَه، حتى إذا عرضت له حاجة من حوائج الدنيا يهتم بأن ينالها، ويحذر أن تفوته إن لم يُدْلِجْ لها (يبكر في السير)؛ فإذا نام، مُهْتَمًّا بالقيام،

---

(١٣٢) شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية: قاعدة في المحبة، تحقيق د.محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ص ٧ .

(١٣٣) المرجع السابق، ص ٩، ص ٢١٣ بالتوالي .

(١٣٤) نفس المرجع السابق.

(١٣٥) ابن قيم الجوزية: شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ص ٤٠٤ .

وقد ألزم قَلْبَهُ الحذرَ مِن أن يذهب به النوم، فيفوته البكور؛ تيقظ في الليل مِرارا، لغير الوقت الذي كان ينتبه له، يحركه الاهتمام والحذر، اللذان نام وهما في قلبه، فإذا كان الاهتمام والحذر، لأمر الدنيا، يوقظان عَقله وينبهانه، بعدما نام وذهب عقلُه، فهما أوْلىَ أن يوقظاه لأمر الآخرة، وهو يقظان لم ينم، ولم يذهب عقله بنوم، وشتان بين المطلوبَيْن(...) فشتان ما بين الهمتين، وشتان بين الغايتين.

«فإذا كان هذا النائم يوقظه اهتمامه؛ (...) بعد ذهاب عقله، فالهَمُّ للباقي الهنيء السليم، والحذر من فَوْته (...) أوْلى أن يَيْقَظَ له العقل، ولم يذهب بنوم، فإذا اهتم وحذر: تيقظ، وإذا تيقظ ذكر، فإذا ذكر تثبت، فإذا تثبت تفقد، فإذا تفقد نظر، فإذا نظر بالنور؛ وهو العلم، أبصر، وإذا أبصر تبين»[١٣٦].

فالمبدأ الثاني لتربية الرقة في القلب، والتخلص من القسوة، هو أن يريد القلب، ويحب، ويهتم، أولا، بأن يكون رقيقا، ويحذر من القسوة، فهذا الحب، والاهتمام، يحركه، ويبعثه لممارسة أعمال الرقة، والتخلص من أعمال القسوة، فالحب مُحَرِّكٌ، والاهتمام مُحَرِّك؛ دافع جواني، فَعَّال، فلابد من تكوينه وتنميته أولا، من خلال اكتساب المعرفة العميقة بخطورة قسوة القلب، وأعراضها، وأسبابها، وآثارها في الذات، والمجتمع والبيئة المادية والاجتماعية، واكتساب المعرفة بالرقة، وحلاوتها، وآثارها.. وذلك من خلال الدرس، والدورة التعليمية، والقراءة، والتعلم الذاتي، والجماعي.. ومن خلال التفكر، ومصاحبة الأرقاء،.. وقراءة القرآن.. كما سأبين في الفقرة الآتية .

المبدأ الثالث: العلاج والتربية بالضِّدِّ:

المبدأ الثالث للتخلص من القسوة، واكتساب الرقة، هو الإيمان بأن القلب القاسي، إذا كانت قسوته لم تصل به لحد الموت، والطبع عليه، والختم عليه، هو قلب مريض، فإذا سلمنا بهذا، وعرفنا أنه مرض خطير يبعد عن الله، دنيا

---

(١٣٦) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، مصدر سابق، ص ٧٦، ٧٧ .

وأخرى، وينشئ السلوك الوقح الوحشي في المجتمع والبيئة، فإن علينا أن نُوَظِّف ونُفَعِّل المبدأ التالي الذي قرره الشيخان ابن تيمية وابن القيم، يقول ابن القيم: «والْمَرَضُ: يُدْفَعُ بالضد، والخِلافِ، وهو يَقْوَى بِمِثْلِ سببه، ويَزُول بضده. والصحة: تُحْفَظ بمثل سببها، وتضعف، أو تزول بضده(...) فإذا حصل للمريض مثل سبب مَرَضِهِ؛ زاد مَرَضه، وضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، وتَرَامَى إلى التَّلَفِ، مَا لَمْ يتدارك ذلك؛ بأن يحصل له ما يقوي قوته، ويزيل مرضه»(١٣٧).

وهذا النص القيم هو إعادة وتلخيص لما شرحه شيخه ابن تيمية في رسالة (أمراض القلوب وشفاؤها) وغيرها، وهذا تلخيص لما قرره هذا الجهبذ، يقول: وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته، والقلب الحي المنور؛ فإنه، لما فيه من النور، يسمع ويبصر، ويعقل. والقلب الميت؛ فإنه لا يسمع ولا يبصر.

وحياة البدن بدون حياة القلب: من جنس حياة البهائم.

وحياة القلب وحياة غيره، ليست مجرد الحس والحركة الإرادية، أو مجرد العلم والقدرة، بل الحياة صفة قائمة بالموصوف، وهي شرط في العلم والإرادة والقدرة على الأفعال الاختيارية، وهي أيضا مستلزمة لذلك؛ فكل حي له شعور، وإرادة، وعمل اختياري، بقدرة، وكل ماله عِلمٌ وإرادة، وعمل اختياري فهو حي.

والحياءُ مشتق من الحياة، فإن القلب الحيّ يكون صاحبه حيا، فيه حياء يمنعه من القبائح؛ فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب. لهذا كان الحييّ: يظهر عليه التأثر بالقبح، وله إرادة تمنعه عن فعل القبح، بخلاف الوقح الذي ليس بحييّ، فلا حياء معه، ولا إيمان يزجره عن ذلك.

---

(١٣٧) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان، ج ١، ص ٢٤

والقلب إنما خُلق لأجل الله تعالى؛ لأجل حبه، ومعرفته، وعبادته، وهذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فالله - سبحانه - فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تُرِكت الفطرة بلا فساد؛ كان القلب عارفا بالله، محبا له، عابدا له وحده، إذا يَسَّر الله، تعالى، لها من يَسْعَى إلى إعادتها إلى الفطرة.

والرسل- صلوات الله عليهم- بُعثوا لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها.

ثم يقرر أن الصحة تُحفظ بالمثل، والمرض يدفع بالضد، وصحة القلب بالإيمان تحفظ بالمثل: وهو ما يورث القلب إيمانا؛ من العلم النافع، والعمل الصالح، فتلك أغذية صحية له، وهو ما يقوي العلم والإيمان: من الذكر والتفكر، والعبادات المشروعة .

وتزول الأمراض بالضد؛ فتزول الشبهات بالبينات، وتزول محبة الباطل؛ ببغضه، وبمحبة الحق .

فحفظ الصحة: بالمثل، وإزالة المرض: بالضد، والمرض يقوى بمثل سببه، ويزول بضده، فإذا حصل للمريض مثلُ سَبَبِ مَرَضِهِ، زاد مَرَضه، وزاد ضعف قوته، حتى ربما يهلك.. إلخ(١٣٨).

وهكذا - فعلاج قسوة القلب، وتربية الرقة في القلب، يكون بأمرين كلِّيَّيْن: الأول: إزالة أسباب القسوة، بضدها، وتقوية الرقة واللين، بممارسة أسبابها، ومثل أعمالها .

المبدأ الرابع- للتخلص من القسوة:

هو المبادرة الفورية لعلاج قسوة القلب، واكتساب الرقة، عند الشعور بأعراض القسوة، كما شرحنا سابقا، وهذا الشروع يكون بالبحث، والسؤال،

---

(١٣٨) تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني: مجموعة الفتاوى، المجلد العاشر، مصدر سابق، ص ٦٥ - ٦٨، ص ٨٣ - ٨٩، ص ٩٤ .

والدرس، والمدارسة، والممارسة لما سيأتي من أساليب تربوية ذاتية، وجماعية .

تلك هي مبادئ التخلص من قسوة القلب، وتربية الرقة والرحمة.ومنها ننطلق إلى ممارسة أساليب اكتساب الرقة، وهي أساليب تكشف عن الطبيعة الخاصة لتربية القلب، كما أشرنا من قبل، في التمهيد.

سابعا: أساليب تربية الرقة والتخلص من قسوة القلب:

أ - تجديد ميثاق الإيمان:

بتجديد التصديق، والخضوع، والانقياد؛ لله، ولمنهجه المنزل على سيدنا محمد ﷺ، وتطبيق ما فصلناه وحددناه في فصل (تربية الإيمان في جذر قلوب الرجال والنساء)، وفصل (تجديد الإيمان وتربيته في القلب).

والخلاصة، هنا: أن يشهد بقلبه وعقله وشعوره أنه لا معبود - بحق، إلا الله، وأن الخضوع والطاعة والاستسلام والموالاة تكون لله تعالى، وحسب المنهج الذي أوحاه وأنزله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر:٦٤]، فيعظم الله، ويراقبه، ويخضع له، ويذكر اطلاعه عليه، يقول المحاسبي: «وأسرع الأشياء إزالة لغلظ القلب، وانكسارا له: ذكر اطلاع الله - عز وجل عليه بالتعظيم». والخوف أن يكون الله حجبه عنه بالقسوة، وأنه، إذا لم يصح قلبه، فسيحجبه غدا، في الآخرة - عن النظر إليه[١٣٩]. ويقول ابن تيمية: «وتزكية القلب: تحصل بإزالة الشر، وتحقق التوحيد والإيمان؛ الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وإثبات إلهية الحق في القلب، وهو حقيقة لا إله إلا الله، وهذا أصل ما تزكو به القلوب»[١٤٠].

---

(١٣٩) المحاسبي: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ضمن مجموعة (أعمال القلوب والجوارح)، مصدر سابق، ص ١٣٠

(١٤٠) تقي الدين أحمد بن تيمية: مجموعة الفتاوى، المجلد العاشر، مصدر سابق، ص٩٦، ٩٧، ص٦١.

فتجديد الإيمان الصحيح هو أصل لتربية الرقة والتخلص من القسوة .

فإذا كانت قسوة القلب ناتجة عن (نقض ميثاق الإيمان)، كما قرر الله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣]؛ فإن الطريق لتربية القلب الرقيق يتحدد في (تجديد ميثاق الإيمان)، وهذا هو (إيتاء القلب زكاته) «وهو التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب،.. وهذا أصل ما تزكو به القلوب». كما ذكرنا، أي: تنمو، وتطهر، وتتربى في الخير.

وقد تناولت تربية الإيمان والتوحيد في القلب، في فصل كامل؛ (تربية تجدد الإيمان في القلب).

ب- قراءة القرآن بالتفكر، والتخشع، والإيمان بأنه كلام الله المتضمن للحق والنور والحياة:

١- وهذا أصل لتربية الأصل السابق، وحقيقة علمية خَبَرتها، ورأيت صِدْقَهَا، وقد قررها خبراء سابقون، يقول وهيب بن الورد: «نظرنا في هذا الحديث: فلم نجد شيئا أرق لهذه القلوب، ولا أشد استجلابا للحق؛ من قراءة القرآن؛ لمن تدبره»(١٤١).

وهذا حق، فإذا كانت القسوة هي نتاج الوسخ والصدأ الذي يتراكم بفعل الذنوب على القلب؛ فإن تجلية هذا الصدأ له طرق؛ من أهمها فعل الإيمان بالقرآن، وقراءته بالتفكر، فعن نافع، عن ابن عمر؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد**»، قالوا: يا رسول الله، فما جلاؤها؟ قال: «**قراءة القرآن**»(١٤٢).

وقراءة القرآن - بالإيمان، والتدبر - مداواة حقيقية لقسوة القلب، فالله تعالى يحيي القلب القاسي، وينوره، ويلينه، فيحوله إلى قلب حي، لين، رقيق،

---

(١٤١) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٨، ص ١٤٢

(١٤٢) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٨، ص ١٩٧

مشرق، فهو يلين القلوب بعد قسوتها، فكما يحيي الأرض المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل؛ كذلك يهدي القلوب القاسية، ببراهين القرآن ودلائله، ويدخل إليها النور، بعد أن كانت مقفلة(١٤٣).

ويوضح ابن تيمية هذا الأصل بقوله: «وفي الدعاء المأثور: (اجعل القرآنَ ربيعَ قلوبِنا، ونورَ صدورنا..)، والربيع: هو المطر الذي ينزل من السماء فَيَنْبُتُ به النباتُ. والفصلُ الذي ينزل فيه أول المطر: تسميه العَرَبُ: الربيع؛ لنزول المطر الذي ينبت الربيع فيه، وغيرهم يسمي الربيع: الفصل الذي يلي الشتاء، فإن فيه تخرج الأزهار، التي تُخْلق منها الثمار، وتنبت الأوراق على الأشجار»(١٤٤). فالقرآن للقلب مثل الربيع للأرض والزرع، هو مطر يسقى القلب، فيحيا، وتورق شجرة الإيمان فيه، وتزهر، وتثمر.

✤ ويقول ابن تيمية: «والقرآن شفاء لما في الصدور، ومَنْ في قلبه أمراض الشبهات والشهوات، ففيه مِنَ البينات ما يزيل الحق من الباطل، فيزيل أمراض الشبهة المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه، وفيه من الحكمة والموعظة الحسنة؛ بالترغيب والترهيب، والقصص التي فيها عبرة، ما يوجب صلاحَ القلب، فيرغب القلبُ فيما ينفعه، ويرغب عَمَّا يضره، فيبقى القلب محبا للرشاد، مبغضا لِلْغَيِّ، بعد أن كان مريدا للغي، مبغضا للرشاد (...) فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة، حتى يصلح القلبُ، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته، التي فطر عليها، كما يعود البدن إلى الحال الطبيعي، ويغتذي القلب من القرآن بما يزكيه وينميه..»(١٤٥).

---

(١٤٣) انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٣١١ .
(١٤٤) تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني: مجموعة الفتاوى، المجلد العاشر، مصدر سابق، ص ١٠٣ .
(١٤٥) المصدر السابق، ص ٦٠ .

ويقرر إبراهيم الخواص هذا المعنى بقوله: «دواء القلب: خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن (الصوم)، وقيام الليل، والتضرع عند السَّحَرِ، ومجالسة الصالحين»(١٤٦).

وفي مقال (القلوب الحية) يقول حسن البنا: «هذا القرآن: حياة ونور... والقلوب الحية تتذوق طعمَ الكلام.. وتدرك، تمام الإدراك، مرمى الآيات البينات، ومغزاها القريب والبعيد، وتنظر، وترى.. وتميز.. وتشعر بهذا كله شعورا قويا، وتحث به إحساسا رقيقا يحدد لها مثلها (...).

وهذا القرآن الكريم، بما يحمل من طابَع الربانية، وخصائص الكلام الإلهي، وبما ينطوي عليه من معاني التأثير الكامل في القلوب الواعية والنفوس الصافية، وبما تميز به من.. إعجاز البلاغة، وحلاوة الأسلوب، وعذوبة المنطق، وعلو الذوق.. وصادق التوجيه، وصحيح المعرفة، هذا القرآن، بخصائصه هذه، روح من الله تبارك وتعالى، ينفخ في القلوب الهامدة، ويسكب في تجاويف الأفئدة الميتة، فيحييها، ويبعثها، ويحركها، ويعيد إليها كل معاني الحياة القوية الدافعة المنتجة المثمرة، وهو بهذه الخصائص كلها، نور قوي وهَّاج يضيء لها سبيل السير والسلوك، بعد أن وهب لها حسن الحياة وقوة الأحياء..»(١٤٧).

٢- ولكي يكون القرآن ربيعا للقلب، ودواء للقسوة، ومنهَجًا لتربية الرقة واللين والرحمة، فإنه يَلزَم تحقيق جملة شروط لذلك؛ فابتداء لا بد من الإيمان- أولا- بأن هذا القرآن كلام الله المنزل، ومنهجه الذي يحقق الخير والرحمة والصلاح.. إلخ.

فقراءة القرآن إذا انطلقت من أصل الإيمان بالله، وبكلامه الحق، وأنه شفاء

(١٤٦) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، مرجع سابق، ص ٢٨٦

(١٤٧) حسن البنا: القلوب الحية، في: نظرات في التربية والسلوك، مرجع سابق، ص ١٥٢ – ١٥٤.

ورحمة، لمن اتصف بالإيمان، ومِن ترسيخ هذه المعاني في القلب، فإن القرآن- فعلا وحقا- يكون وسيلة حقيقية فعالة لإزالة القسوة، واكتساب الرقة ولين القلوب.

وفي هذا الأصل- الشرط - نجد نصوصا مضيئة، تستدعي التأمل والتذوق، فالتأمل ضروري في هذا الأمر الخطير :

- أخرج أحمد، عن عبد الله بن عمرو، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني أقرأ القرآن، فلا أجد قلبي يعقل عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن قلبك حُشِيَ الإيمانَ، وإن الإيمان يُعْطَى العَبْدُ قبلَ القرآن**»(١٤٨).

- فالإنسان العابد لله يُعْطَى الإيمان، أولا، فإذا قرأ القرآن، وهو مؤمن به، وبمن أنزله، وبمن أُنزل عليه، فإن قلبه يعقل، ويفهم، ويحيا، ويشرق، ويرق، ويلين إلى ذكر الله، فينتفع بالقرآن، ويزداد إيمانا وحياة، ورقة ولينا، ورحمة.

وهذا المعنى يقرره حديث صحيح آخر عن جندب بن عبد الله، قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حَزَاوِرَة، (جمع حَزَوَّرٍ؛ وهو الغلام؛ إذا اشتد وقوي وحزم)، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآن؛ فازددنا به إيمانا(١٤٩).

ويقول عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما: «لقد عشنا برهة من الدهر، وإن أحدنا يُؤْتَى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة؛ فيتعلم حلالَها وحرامَها، وأوامرها وزواجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها. ولقد رأيت رجالا يؤتى أحَدُهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته: لا يدري ما

---

(١٤٨) قال شاكر: إسناده صحيح، انظر: المسند، ج ٦، حديث رقم ٦٦٠٤، ص ١٧٥.

(١٤٩) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه ج ١، رقم ٥٢، ص ٣٧، ٣٨، وقال الشهاب البوصيري: «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات». انظر: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج ١، رقم ٢٣، ص ٥٥.

آمِرُه؟ وما زاجره؟ وما ينبغي أن يقف عنده. ينثره نثر الدَّقَلِ»(١٥٠). يعني: رديء التمر.

وفي خبر عن جندب بن عبد الله؛ قال: «كُنَّا، أصحابَ رسول الله ﷺ أوتينا الإيمان قبل القرآن، وسيأتي بعدكم قوم، يُؤتُونَ القرآنَ قبل الإيمان؛ يقيمون حروفه، ويضيعون حدوده، وحقوقه، يقولون: قرأنا؛ فمن أقْرَأُ مِنَّا؟ وَعَلِمْنَا؛ فمن أعْلَمُ مِنا ؟ فذلك حَظُّهُمْ»(١٥١).

٣- ومع تحقيق أصل الإيمان بالقرآن ومنزله، والمنزل عليه، فإن الإقبال المربي عليه يتطلب قراءته، وتلاوته بشعور خاص، وتذوق، شعور أنه منزل إلى القارئ، وبشعور التلقي للتنفيذ، والتلقي للتعلم والعمل، والتسليم للقرآن، وترك القرآن يشكل وجدانك ومشاعرك، وأفكارك، واتجاهاتك، مع شعور عقلي، وحضور قلبي، واستسلام لكلام الله، مع إشعار القلب أن الله يخاطبك أنت، وأنزل القرآن إليك لتتبعهُ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[الأعراف:٣]، فتذكر أنت هذه الحقيقة، وسلم قلبك وعقلك، ونفسك، وروحك، ومشاعرك لله، حين تجلس بين يدي كتاب الله، بعقل متفتح، مدقق، متفكر، شاهد، حاضر، غائص في أعماق الآيات، مستمع لخطاب الله له، وبقلب مستسلم لكلمة الله، ورغبة قوية في معرفة الحق والعمل به. إذا كنت كذلك؛ ولم تدخل على القرآن بمصادرات ومقررات مسبقة، بل كنت تلميذا نجيبا للقرآن - لخطاب الله إليك، الذي أنزله إليك، منه، ليرشدك في حياتك إلى سبيل النجاة، ويهديك للتي هي أقوم، في المعتقد والفكر، والقيم، والمشاعر، والسلوك، والحياة، إذا كنت كذلك، وفتحت له قلبك وتركته يرويك، ويسقيك،

---

(١٥٠) رواه الحاكم وصححه، على شرط الشيخين، ورواه البيهقي، انظر: المغنى على حمل الأسفار، مع إحياء علوم الدين، ج ١، مصدر سابق، هامش ص ١٣٠

(١٥١) المصدر السابق نفسه.

ويغسلك، ويطهرك، ويغرس في قلبك غراس الإيمان والرقة والرحمة واللين، والشفقة على خلق الله؛ فإنك ستنتفع – تماما – بالقرآن، ويحيا قلبك، ويندى، ويرق، ويلين، ويتجدد، ويتحول، ويتغير، وينمو فيه الخير، **تأمل معي**:

- أخرج مسلم عن أبي وائل؛ قال: «جاء رجل يقال له: نَـهِيك بن سنان، إلى عبد الله، فقال: يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذا الحرفَ: أَلِفًا، تجده، أم ياءً - ﴿مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ﴾ [محمد: ١٥] أو: (من ماء غير ياسن)؟ قال: فقال عبد الله: وكُلَّ القرآن أَحْصَيْتَ غير هذا ؟ قال: إني لأقرأ المُفَصَّلَ في ركعة. فقال عبد الله: هَذًّا كَهَذِّ الشِّعْر؟ إن أقواما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم، ولكن إذا وقع في القلب، فرسخ فيه؛ نَفَعَ..»(١٥٢) الحديث.

وفي رواية أحمد: «.. ولَيَقرأَنَّ القرآن أقوام، لا يجاوز تراقيَهم، ولكن إذا قرأ فرسخ في القلب؛ نفع»(١٥٣).

وفي رواية للطبراني: «إن رجالا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيَهم، فإذا دخل في القلب، فرسخ فيه؛ نفع»(١٥٤).

وهَذُّ الشعر: هو الإفراط في سرعة قراءته، ونثر الدقل: هو رمي رديء التمر، وقوله: لا يجاوز تراقيهم: يعني: يقرأونه بلا فهم، ولا يغرسونه في قلوبهم، ولا يتذوقونه، فهم يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم إلى قلوبهم وعقولهم، ليتأملوه، ويفقهوه، ويتعقلوه، ويتعلموه، ويفسروه بقلوبهم، ويشعروا به، ويعملوا به، مثل فعل الصحابة الذين رباهم القرآن، فأخرج منهم جيلا قرآنيا فريدا، في قلوبهم وعقولهم، وأخلاقهم، وأهدافهم،

---

(١٥٢) انظر: القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٣، تحقيق د. يحيى إسماعيل، حديث رقم ٢٧٥، ص ١٩٦، ١٩٧، والهَذُّ: الإفراط في السرعة.

(١٥٣) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٣، رقم ٣٦٠٧، ص ٥٠٩.

(١٥٤) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ٩٣٤١، ص ٢٦٩، وفيه رجل من أصحاب ابن مسعود، ليس له ترجمة، وبقية رجاله رجال الصحيح. ويشهد له ما قبله، وما بعده.

ومعاملاتهم. فعندما سُئِل زيد بن ثابت: لِمَ يقرأ القرآن في نصف شهر، أو عشرة أيام؟ قال زيد: «لكي أتدبره، وأقف عليه»(١٥٥). وروى مالك: «أن عبد الله ابن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين، يتعلمها»(١٥٦).

وأخرج الإمام أحمد؛ عن أبي عبد الرحمن السُّلمي؛ قال: «حدثنا مَن كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون عن رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى؛ حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قالوا: فعلمنا العلم والعمل»(١٥٧).

وفي مقدمة تفسير ابن كثير: عن أبي مسعود؛ قال: «كان الرجل منا، إذا تعلم عشر آيات، لم يُجَاوِزْهُنَّ حتى يعرفَ معانيهن، والعمل بهن». وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل. فتعلمنا القرآن والعَمَلَ جميعا»(١٥٨).

هذا هو (النهج المُرَبِّي) في قراءة القرآن؛ التلقي عن القرآن بشعور المؤمن به، المحب له، بشعور العابد لله، المتبصر الذي جاءه خِطَاب ربه ليهديه، ويرشده، وينير له الطريق، ويزرع في قلبه الخير، فهو يقرأ كلمة الله له، ليتعلمها ويعمل بها، ليتلقى أمْرَ الله وهدايته في شأن نفسه وشأن الحياة، وشأن الناس، ليفهم، ويتأثر، ويعمل، فتتحول معاني القرآن فيه إلى (حركة)، إلى منهجيةٍ تنميةٍ، وبناء، إلى تيارٍ من الوعي الدافق المتحرك؛ للعمل البصير، الرشيد. إلى موجِّهٍ، مُرَبٍّ، مُخَلِّص، من بقايا القسوة، والران، والبعد عن الله، وعن الخير الذي دعا إليه.

---

(١٥٥) الإمام مالك بن أنس: الموطأ، (كتاب القرآن، رقم ٤)، ص ١٤٢

(١٥٦) المصدر السابق، كتاب القرآن، رقم (١١)، ص ١٤٥

(١٥٧) إسناده صحيح، المسند، ج ١٧، رقم ٢٣٣٧٤، ص ١٠ .

(١٥٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٣، وهو في عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، لأحمد محمد شاكر، ص ٤٠، ٤١ .

ولنتأمل في قول الحسن البصري: «إن هذا القرآن قد قرأه.. صِبْيَان، لا علم لهم بتأويله، ولم يأتوا الأمرَ مِن قِبَلِ أوَّلِهِ، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وما تدَبُّرُ آياتِهِ؟ اتباعُه- والله- بعِلْمِهِ، أما - والله، ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى أن أحدهم يَقُول: لقد قرأت القرآن كلهُ، فما أسقطت منه حَرْفًا، وقد - والله - أسقطه كلهُ، ما يُرَى له القرآنُ في خلقٍ ولا عَمَلٍ (...) والله، ما هؤلاء بالقراء، ولا العُلَمَاء، ولا الحكماء، ولا الوَرَعَةِ..»(١٥٩).

أمَّا التابعي، الثقة، أحد أعيان كَتَبَةِ المصاحف؛ مالك بن دينار، فينادي: «يا حَمَلَةَ القرآن، ماذا زَرَعَ القرآنُ في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض، وقد ينزل الغيث من السماء إلى الأرض، فيصيب الحُشَّ (موضع قضاء الحاجة خارج البيت)، فيكون فيه الحَبَّةُ، فلا يمنعها نتن موضعها أن تهتز وتخضر، وتَحْسُنَ. فيا حملة القرآن، ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ أين أصحابُ سورةٍ؟ أين أصحاب سورتين؟ ماذا عملتم فيهما»(١٦٠)، ويقول: «إن الصديقين إذا قُرِئَ عليهم القرآن؛ طَرِبَتْ قلوبُهم إلى الآخرة، ثم يقول: خذوا، فيتلو، ويقول: اسمعوا إلى قول الصادق مِنْ فوقِ عَرْشِهِ»(١٦١).

ويقول شُمَيْط بن عجلان: «إن المؤمن اتخذ كتاب الله تعالى مرآة؛ فمرة ينظر إلى ما نَعَتَ (وصف) اللهُ - عزَّ وجل - به المؤمنين، ومرة ينظر إلى ما نعت الله - عز وجل - به المُغْتَرِّين، ومرة ينظر إلى الجنَّةِ، وما وَعَدَ الله - عز وجل - فيها،

---

(١٥٩) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد..، رقم ٧٩٣، ص ٢٧٤، ورواه عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ٣، رقم ٥٩٨٤، ٣٦٣، ٣٦٤.

(١٦٠) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ١٥٧، وإسناده حسن إلى مالك، انظر: الإمام أحمد: الزهد، النسخة المحققة، رقم ١٨٨٥، ص ٥٣٤.

(١٦١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٦٣.

ومرة ينظر إلى النار، وما أعد الله - عز وجل - بها، تلقاه حزينا(...) شوقا إلى ما شوقه الله عز وجل إليه، وهَرَبًا مما خوفه الله عز وجل منه»[١٦٢].

ويقول أحمد بن أبي الحواري: «إني لأقرأ القرآن، فأنظر في آية، فيحار عقلي فيها، فأعجب مِنْ حُفَّاظِ القرآن: كيف يهنيهم النوم.. وهم يتلون كلام الرحمن؟ أمَا لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حَقَّهُ، وتلذذوا به، واسْتَحْلُوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم؛ فرَحا بما رُزِقوا»[١٦٣].

فنهج تربية الرقة بالقرآن، في القلب، والتخلص من القسوة، ينبني على هذا الإيمان، وهذا الشعور؛ أننا نتلو القرآن كلام الرحمن، ونسمعه منه، هنا نجد الحلاوة، والتأثر، والنزوع للعمل، يقول سَلَم الخواص: «كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة، فقلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من رسول الله ﷺ قال: فجاءت حلاوة قليلة. ثم قلت لنفسي: اقرئيه كأنك سمعتيه من جبريل يخبر به النبي ﷺ قال: فازدادت الحلاوة. قال: قلت لها: اقرئيه كأنك سمعتيه منه (الله، عز وجل) حين يتكلم به. فجاءت الحلاوة كلها»[١٦٤].

وأخرج عبد الرزاق؛ عن أبي الدرداء؛ أن رجلا قال له: إن إخوانك من أهل الكوفة يقرؤون عليك السلام، قال: وأنت فأقرئهم السلام، وقل لهم: فَلْيُعْطُوا القرآن بخزائمهم، فإنه سيحملهم على القَصْدِ، والسهولة، ويجنبهم الجَوْرَ والحزونة. يعني بخزائمهم: اجعلوا القرآن مثل الخزام (حلقة يُشَد فيها الزِّمَام) في أنف أحَدِكم، فاتبعوه واعملوا به»[١٦٥]. والحزونة: الشدة والصعوبة والقسوة.

هذا هو نهج تلاوة القرآني، المربي، ويتحدد في:

---

(١٦٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ٢٠٣.
(١٦٣) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٦٦
(١٦٤) المصدر السابق، ج ٤، ص ١٩٣
(١٦٥) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ٣، رقم ٥٩٩٦، ص ٣٦٨.

- الإيمان بأنه كلام الله، وهدايته. - غرسه في القلب.
- التفكر فيه.
- الدخول إلى القرآن بشعور الرغبة في العمل والتنفيذ.
- القراءة أو الاستماع على أنه منزل للفرد نفسه.
- إعطاء القيادة للقرآن، ليوجهنا.

٤- وهناك عوامل مساعدة لجعل القرآن أكثر فاعلية في تربية القلب الرقيق:

فقراءة القرآن، بخشوع قلب، وتمعن عقل، واشتهاء القلب للفهم، والتوبة، والرقة، ورغبة النفس في العمل به، تحدث في القلب أثرا قويا مزيلا للقسوة؛ هذه القراءة تكون أكثر نَجَاعَةً وتأثيرا في مشاعر القلب؛ إذا كان القارئ صائما لله، أو كان في صفاء الليل، ويقرؤه في صلاة التهجد، أو بغير صلاة، فيتفتح القلب لذكر الله، عز وجل، ويندى ويلين، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـࣰٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]. ناشئة: مَصْدَرٌ على وزن (فاعلة)؛ مِنْ نَشَأ؛ إذا قام، أي: صلاة التهجد، أو بمعنى اسم الفاعل؛ أي: النفس الناشئة بالليل، أي: التي تنشأ من مَضْجَعِهَا، أي: تنهض، وناشئة الليل: آناؤه، أي: ساعاته الناشئة، المقبلة، بعضها في إثر بعض. هذا القيام بالقرآن والنهوض بتلاوته في صلاة الليل، وفي ساعاته، هي أشد وَطْأً، أو (وِطَاء)، وهي قراءة صحيحة، أي: مواطأة؛ أشد موافقة لسمعه وبصره وقلبه وعقله، وهي أشد وَطْأً، سيرها يكون أثبت في الخير، وأقوم قيلا؛ أي: أبلغ في الحفظ، أي: وَقْعُها يكون قويا في القلب، والعقل، والنفس[١٦٦]، لأن للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفافيتها، وإنها لتسكب في القلب أُنسا وراحة وشفافية ونورا، (...) واللهُ الذي خلق هذا القلب يعلم، مداخله وأوتاره، ويعلم ما يتسرب إليه، وما يوقع عليه، وأيُّ الأوقاتِ يكون فيها أكثر

---

(١٦٦) انظر: ابن حجر: فتح الباري، ج ٣، ص ٢٣، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٣٥.

تفتحا واستعدادا وتهيؤا، وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيرا فيه[١٦٧].

فقراءة القرآن، في هذا الوقت، وحينما تتحقق مواطأة اللسان للقلب، وتفهم الآيات المتلوة، والنفاذ إلى عمق الشعور، تكون أكثر نَجَاعَة في تثبيت الرقة في القلب، يقول ابن مسعود: «لا تنثروه نثر الرمل، ولا تهذوه هَذَّ الشعر، قِفُوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب، ولا يكن همُّ أحدكم آخر السورة»[١٦٨].

٥- ويكون القرآن أكثر نجاعة في تحقيق هذا الغرض التربوي؛ (اكتساب الرقة، والتخلص من القسوة) إذا كان هناك قارئ حسن الصوت، خاشع القلب، رقيق الشعور، فاهم لما يقرأ، ومتأثر به، يستمع إليه الإنسان بتمعن، وتذوق، واندماج شعوري، فهذه طريقة تربوية مهمة فاعلة في تربية الرقة في القلب، وتصفيته من القسوة[١٦٩]. **وتأمل في الموقف الآتي:**

عن علقمة بن قيس؛ قال: كنت رجلًا قد أعطاني اللهُ حسْنَ الصوتِ بالقرآن، فكان ابن مسعود يُرْسِلُ إليّ، فأقرأ عليه القرآن، فكنت إذا فَرَغْتُ من قراءتي؛ قال: زدنا من هذا، فِدَاكَ أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حسن الصوت زين القرآن**»[١٧٠].

---

(١٦٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٦، مصدر سابق، ص ٣٧٤٦.

(١٦٨) رواه البغوي، انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٤، ص ٤٣١، وذكره ابن القيم في: زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ١، ص ٣٢٩.

(١٦٩) انظر في هذا: ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، من رقم ٧٤ – ١٠٦، ص ٩١ – ١٠٥ وتأمل فيه.

(١٧٠) في إسناده ضعف، وله شاهد بإسناد حسن، عن ابن عدي، انظر: الألباني: السلسلة الصحيحة، ج ٤، رقم ١٨١٥، وانظر: الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ١٠٠٢٣، ص ٨٢، ٨٣.
قلت: اقرأ «فصل في هديه ﷺ في قراءة القرآن، واستماعه، وخشوعه، وبكائه عند قراءته واستماعه، وتحسين صوته به، وتوابع ذلك» في: ابن القيم: زاد المعاد.. ج ١، ص ٤٦٣-٤٧٤.
والحديث قال الألباني فيه: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ١، مصدر سابق، رقم ٣١٤٤، ص ٦٠١، وأورد الألباني بعده حديثا نصه: «حسنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسْنًا». وقال: صحيح، والدارمي، وابن نصر في (الصلاة) والحاكم عن البراء. حديث رقم ٣١٤٥، ص ٦٠١

٦- وتكون قراءة القرآن، والاستماع إليه أكثر تربية للقلب، وأكثر تصفية للقسوة؛ إذا كانت قراءة لسور أو آيات عن مصير المذنبين، وأحوال ما بعد الموت، ومشاهد النار، والجنة، والموقف بين يدي الله، وأوصاف الله، ونعمه، وقصص الأنبياء، مع تخيل النفس كأنها تشاهد ذلك، وهو يحدث معها، وفيها، وأمامها .

لنتأمل، معا، فيما يلي :

- أخرج البخاري؛ عن جبير بن مطعم؛ قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي(١٧١). وأخرجه في التفسير بلفظ: «قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧] كاد قلبي أن يطير(١٧٢). وذلك بسبب ما فهمه وعقله، من مضمون الآيات، فانزعج قلبه، وطار إلى الله، واستقر في قلبه الإيمان، وجاء في رواية سعيد بن منصور: «فكأنما صُدِعَ قَلبِي، حين سمعت القرآن»(١٧٣).

- عن إبراهيم التيمي قال: قرأ الحارث بن سويد: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ فبكى، ثم قال: إن عذاب الآخرة لشديد(١٧٤).

- وأخرج ابن أبي الدنيا؛ أن عمر بن عبد العزيز قال لابنه: «اقرأ. فقال: ما أقرأ؟ قال: سورة (ق)، فقرأ، حتى إذا بلغ ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾ بكى. ثم

---

(١٧١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٧، رقم ٤٠٢٣، ص ٣٢٣.
(١٧٢) المصدر السابق، ج ٨، رقم ٤٨٥٤، ص ٦٠٣
(١٧٣) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٨ من الشرح .
(١٧٤) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، رقم ٨٩، ص ٩٨ .

قال: اقرأ يا بني.قال: ما أقرأ ؟ قال: سورة (ق).حتى إذا بلغ ذِكْرَ الموت؛ بكى أيضا بكاء شديدا، ففعل ذلك مرارا»(١٧٥).

٧- وقراءة القرآن تربي الرقة، والرحمة، والإيمان، والتقوى، في القلب، وتأخذ بمجامعه، وتسكب فيه عطاءاته، إذا كان القارئ (يحيا في جو القرآن)، يقول سيد قطب: «والحياة في جو القرآن لا تعني مدارسة القرآن، وقراءته، والاطلاع على علومه.. إن هذا ليس (جو القرآن) الذي نعنيه.. إن الذي نعنيه بالحياة في جو القرآن: هو أن يعيش الإنسان في جَوٍّ، وفي ظروفٍ، وفي حركةٍ، وفي معاناةٍ، وفي صراع، وفي اهتماماتٍ.. كالتي كان يتنزل فيها هذا القرآن، أن يعيش الإنسان في مواجهة هذه الجاهلية التي تعم وجه الأرض، اليوم، وفي قلبه، وفي همه، وفي حركته، أن (ينشئ) الإسلامَ في نفسه، وفي نفوس الناس، وفي حياته، وفي حياة الناس، مَرَّة أخرى في مواجهة هذه الجاهلية بكل تصوراتها، وكل اهتماماتها، وكل تقاليدها، وكل واقعها العملي، وكل ضغطها كذلك عليه، وحربها له، ومناهضتها لعقيدته الربانية، ومنهجه الرباني، وكل استجاباتها كذلك لهذا المنهج ولهذه العقيدة، بعد الكفاح والجهاد والإصرار.

هذا هو الجو القرآني الذي يمكن أن يعيش فيه الإنسان فيتذوق هذا القرآن، فهو في مثل هذا الجو نزل، وفي مثل هذا الخِضَمِّ عَمِلَ»(١٧٦).

٨- **والذي أخلص إليه مما سبق هو أن القرآن الكريم**: بتلاوته، وتدبره، والاستماع إليه، والصلاة به، منهج لتربية الرقة في القلب، والنفس والسلوك، والتخلص من القسوة؛ إذا تحقق القارئ أو المستمع له بالشروط الآتية:

- أن يقرأ، أو يستمع، القرآن؛ على أن الله يكلمه هو، لا غيره.

---

(١٧٥) المصدر السابق، رقم ٨٤، ص ٩٦ .

(١٧٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٢، ص ١٠١٦، ١٠١٧

- أن يؤمن إيمان جازما أن القرآن كلام الله الشافي من القسوة.

- أن يتفكر في المعاني والدلالات، ويقف عند كل منها، ويغرسها في قلبه، ويزرعها فيه .

- أن يتخيل بذهنه، وقلبه، ما تدل عليه الآيات .

- أن يتفاعل مع الآيات بوجدانه، ويحرك بها قلبه، ويتأثر شعوريا بدلالاتها، ويتذوقها، ويطلب حلاوتها .

- أن يجعل القرآن مِرآة له، فيقايس نفسه على الآيات، فيعرض نفسه على مقرراتها، فيجعلها ميزانا يزن به نفسه، ومعيارا يُقَوِّمُ به قلبه، وعقله، وشعوره، وأحواله، وأخلاقه، ومواقفه .

- أن ينزع إلى العمل؛ فيترك القرآن ينشئه، ويصبغه، ويصنعه، فيشكل أفكاره ورغباته، ومشاعره، وعواطفه، فتنشأ إرادة العمل، والهم بالعمل، فيغلي قلبه، بأعمال البر، فيغير ما بنفسه من تصورات وقيم وأخلاق، ومشاعر، وعادات، وسلوكيات، مما يخالف معطيات القرآن، في كل ذلك.

وبهذا يغسل القرآنُ من القلب رانَ القسوة، ويزرع فيه الرقة والرحمة والشفافية والإشراق .

٩- إن القرآن كتاب تربية القلب، وهذه التربية القرآنية للقلب تتطلب الاتصال بالقرآن يوما بعد يوم، بالشروط السابقة، وقد استخلص سيد قطب قاعدة تربوية مهمة من قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان :٣٢]، يقول في الظلال: «جاء هذا القرآن ليربي أمة، وينشئ مجتمعا، ويقيم نظاما. والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثر وانفعال؛ بالكلمة، وإلى حركة تترجم التأثر والانفعال إلى واقع».

«والنفس البشرية لا تتحول تحولا كاملا شاملا بين يوم وليلة، بقراءة كتاب كامل شامل للمنهج الجديد، إنما تتأثر يوما بعد يوم بطرف من هذا المنهج، وتتدرج في مراقيه رويدا رويدا، وتعتاد على حمل تكاليفه شيئا فشيئا(...) وهي تنمو كل يوم بالوجبة المغذية، فتصبح في اليوم التالي أكثر استعدادا للانتفاع بالوجبة التالية، وأشد قابلية لها، والتذاذا بها».

«ولقد جاء القرآن بمنهاج كامل شامل للحياة كلها، وجاء في الوقت ذاته بمنهاج للتربية يوافق الفطرة البشرية، مِن عِلم بها من خالقها، فجاء لذلك مُنَجَّمًا وفق الحاجات الحية للجماعة المسلمة، وهي في طريق نشأتها ونموها، ووفق استعدادها الذي ينمو يوما بعد يوم، في ظل المنهج التربوي الإلهي الدقيق، جاء ليكون منهج تربية، ومنهاج حياة، لا ليكون كتاب ثقافة يُقْرَأ لمجرد اللذة، أو لمجرد المعرفة. جاء لينفذ حَرْفا حرفا، وكلمة كلمة، وتكليفا تكليفا، جاء لتكون آياته هي (الأوامر اليومية) التي يتلقاها المسلمون في حينها؛ ليعلموا بها فور تلقيها، كما يتلقى الجندي في ثكنته أو في الميدان (الأمر اليومي) مع التأثر، والفهم، والرغبة في التنفيذ ومع الانطباع، والتكيف وفق ما يتلقاه».

من أجل هذا كله نزل القرآن مُفَصَّلا (...).

ولقد حقق القرآن بمنهجه ذاك خوارقَ في تكييف تلك النفوس التي تلقته مُرَتَّلا متتابعا، وتأثرت به يوما، يوما، وانطبعت به أثرا أثرا.

«فلما غفل المسلمون عن هذا المنهج، واتخذوا القرآن كتاب مَتَاعٍ للثقافة، وكتاب تعبد للتلاوة، فحسب، لا منهج تربية للانطباع والتكيف، ومنهج حياة للعمل والتغيير.. لم ينتفعوا من القرآن بشيء»[١٧٧].

(١٧٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٥، ص ٢٥٦٢، ٢٥٦٣.

هذه هي أسس منهج التربية القرآنيـة للقلـب الإنـساني، لا تحتـاج سـوى تأملها مرتين، والعمل بها .

جـ - التـفـكـر:

١ - **التفكر**: فعل العقل المتفكر، وهو إعمالُ الذهن، وتشغيله فـيما يعـرض عليه، أو فيما يراه الإنسان، وهو حركة للذهن، ينتقل بها من معلـوم لمجهـول، ويَعْبُرُ بها من مقدمة معطاة إلى نتيجة يستدلها، وهو قيمة مفروضة ملزمـة، إنـه (فريضة إسلامية)، وخاصية لكل عاقل، وأنا ـ هنا ـ أتناولهـا مـن حيـث هـي وسيلة لاكتساب رقـة القلـب، والاتـصاف بـاللين، والـتخلص مـن القـسوة والغلظة وأمية المشاعر .

٢- يقول ابن كثير، وهو يفسر قول الله تعالى، في صفة أولي الألبـاب، أي: العقول التي تدرك الأشـياء بحقائقهـا عـلى جلياتهـا، وتحـت قولـه سـبحانه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمـــران: ١٩١]، يقـــول(١٧٨): «أي: يفهمون ما فيها من الحكم الدالة على عظمة الخـالق، وقدرتـه وحكمتـه(...) ورحمته، وقال الشيخ أبو سـليمان الـداراني: إني لأخـرج مـن منـزلي؛ فـما يقـع بصري على شيء إلا رأيت لله عَلَيَّ فيه نعمة، ولي فيه عِبْرَة (...) وعـن الحـسن البصري أنه قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.وقال الفـضيل: قـال الحـسن: الفكرة: مرآة تريك حسناتك، وسيئاتك.وقال سفيان بـن عُيَيْنَـة: الفكـر نـور يدخل قلبك، وربما تمثل بهذا البيت:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عِبْرَة

قال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، ولا فهـم امـرؤ قـط إلا علم، ولا علم امرؤ قط إلا عمل. وقال عمر بن عبد العزيز: الكلام بـذكر

---

(١٧٨) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٤٣٨ .

الله - عز وجل - حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة، (...) وقال بشر ابن الحارث الحافي: لو تفكر الناسُ في عظمة الله تعالى ما عصوه، وقال الحسن: عن عامر بن عبد قيس: سمعت غير واحد (...) من أصحاب النبي ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان - أو: نور الإيمان - التفكر».

وأخرج ابن المبارك عن الحسن؛ قال: «إن من أفضل العَمَل: الوَرَعَ والتفكر. وأخرج عن عون بن عبد الله قال: قلت لأم الدرداء: أيّ عِبَادَةِ أبي الدرداء كان أكثر؟ قالت: التفكر والاعتبار. وأخرج عن محمد بن كعب القرظي، يقول: لأنْ أقْرَأَ في ليلتي، حتى أُصْبِحَ، بإذا زلزلت، والقارعة، لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما، وأتفكر، أحب إليّ من أن أهُذَّ القرآن، ليلتي، هَذًّا. أو قال: أنثره نثرا»(١٧٩).

فالتفكر سمة للمسلم، كما ينبغي أن يكون، وهو وسيلة مهمة لاكتساب الرحمة والرقة، يقول سفيان بن عُيَيْنَة: «التفكر مفتاح الرحمة؛ ألا ترى أنه يتفكر فيتوب»(١٨٠).

٣- ومجال التفكر، الذي نحدده هنا، هو التفكر المؤدي إلى رقة القلب، وسرعة التأثر الشعوري، وتوليد معرفة الله، ومحبته، والرغبة في طاعته، وفي ذلك يقول أبو بكر محمد بن حامد الترمذي:

«الفكرة على خمسة أوجه: فكرة في آيات الله وعلاماته، يتولد منها المعرفة .

وفكرة في آلاء الله ونَعْمَائِهِ، يتولد منها المحبة.

وفكرة في وَعْدِ الله وثوابه، يتولد منها الرغبة في الطاعة والموافقة.

وفكرة في وعيد الله وعقابه، يتولد منها الرهبة من المخالفة.

---

(١٧٩) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد...، أرقام ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ص ٩٦، ٩٧.

(١٨٠) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٧، ص ٣٠٦، وانظر هامش ص ٦٥ من كتاب ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء.

وفكرة في جفاء النفس في جنبِ إحسان الله إليها، يتولد منها الفكرة فيما سلف، والحياء من الله تعالى ذكره»(١٨١). وفي جانب مما سبق يقول صالح المُرِّيُّ: «للبكاء دواعي؛ بالفكرة في الذنوب، فإن أجابت على ذلك القلوب وإلا نقلتها إلى تلك الشدائد والأهوال، فإن أجابت على ذلك وإلا فاعْرِضْ عليها التقلب بين أطباق النيران»(١٨٢).

٤- وقد حَلَّلَ المحاسبي هذه الآلية العقلية، من زوايا عدة، فهو يقرر أن التتابع في الغفلة والقسوة يَحُولُ بيننا وبين الفكر في العاقبة، «فقد سترت الغفلة بيننا وبين أعمال الآخرة، وصَلَّبَتِ القسوة قلوبَنا على وعيد الله - عز وجل، وعَمَّى الرَّيْنُ بصائرنا عن ثواب الله - عز وجل، وعِقابِهِ، وأمْرِهِ، وأحكامِهِ؛ وذلك أنَّا عطَّلْنا قلوبنا من فِكر الآخرة، فغلبت عليها فِكَرُ الدنيا، فشغلتها، فنسينا أنفسَنَا؛ لأنَّا نسينا النَّظَرَ لها (...) فأول البلية: تعطيل القلوب من فكر الآخرة وذكرها. وعن ذلك: يكون السَّهْوُ، ثم النسيان، ثم الغفلة، ثم التضييع لأمر الله عز وجل، ثم مواريث السوء؛ من الرين والقسوة، اللذيْن يحجبان عن الآخرة، فنعوذ بالله من مواريث السوء على أعمال السوء(١٨٣).

«فنقطة البدء لتربية رقة القلب هي: التفكر، في المعاد، والذنوب، وفي حقوق الله - عز وجل، وفي القرآن»(١٨٤). ويحلل بعمق كيف يحقق المسلم الفكرَ في ذلك؛ وذلك بحضور العقل، واجتماع الهم؛ «لأن العبد إذا اجتمع هَمّهُ؛ تفكر، وإذا تفكر؛ نظر، وإذا نظر؛ أبصر»(١٨٥).

---

(١٨١) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٢٨١، ٢٨٢

(١٨٢) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، رقم ٤٦، ص ٧١، ٧٢ .

(١٨٣) المحاسبي: الرعاية لحقوق الله، ص ٥٣، ٥٤ .

(١٨٤) المصدر السابق، ص ٥٥ – ٦٨

(١٨٥) المصدر السابق، ص ٦٥

٥- ويمكن صياغة خريطة لمجالات التفكر التي تثمر وتنمي الرقة، وتُصَفِّي القسوة، فيما يلي:

- التفكر في عواقب الذنوب التي ارتكبها الإنسان، وفي موقفه للحساب، عند الله، على تفريطه، حسابا دقيقا، بميزان دقيق؛ ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] فيرق قلبه؛ رحمة لنفسه.

- التفكر في حالِهِ عند الموت، وخاتمته؛ هل سيلقى الله مؤمنا مسلما، فيبشره برَوْح وريحان،.. أم ماذا ؟ وهذا هو هَوْلُ المطلع؛ حين يطلع الإنسان على وجهة مصيره الأخروي النهائي .

- التفكر في حساب المَلَكَيْن في القبر، وهو حق لا ريب فيه، وتأمل ما ورد فيه من آيات، وأحاديث صحيحة، وهل سيكون من الذين سيثبتهم الله بالقول الثابت، أم من الذين يضلهم ؟ عياذا بالله من ذلك. ويتوهم نفسه، ويتخيلها بدقة، في لحظات الحصاد (قبض الروح)، ولحظات الضمة (دخول القبر)، ولحظات الضغطة، وساعة المحنة والوحدة، وساعة السؤال: من ربك، وما دينك، وما علمك، وماذا تقول في الرجل الذي بعث في الخلق أجمعين؟ وساعة الاطلاع على المصير النهائي: على المقعد من الجنة، أو من النار، ويجمع الآيات والأحاديث في ذلك، ويدرسها، ويدرس كتاب التوهم للمحاسبي، ومعاتبة النفس، له[١٨٦].

- التفكر في يوم القيامة؛ يوم البعث، والحشر، والموقف فيه للسؤال والحساب، والقصاص، والميزان، وأخذ الكتب، فآخذ بيمينه، فناج من النار، وآخذ بشماله، فمكردس على وجهه في النار، والشرب من حوض النبي ﷺ

---

(١٨٦) المحاسبي: معاتبة النفس، خصوصا من ص ٦٥ وما بعدها .

فشارب، ومطرود، والمرور على الصراط المضروب على ظهر جهنم، فناج سالم، وناج مخدوش، وهاو على وجهه في النار، وهل سيمر؟ والوقوف بين الجنة والنار، ولا يدري أيؤمر به إلى الجنة أم إلى النار؟ فيجمع مشاهد القيامة، ويدرسها، ويتمثلها، ويتوهمها، ويغرسها في عقله، وقلبه، ويستشعرها، ويجمع آيات القرآن، والأحاديث الصحيحة، ليحسن التفكر، والتوهم، والتمثل.

يقول ابن أبي الحواري: «فقلت لأبي سليمان: رجل ذكر القيامة، فمثل له الناسُ قد حشروا، وعليهم الثياب، قال: كذا توهمهم، ولو توهمهم يبعثون لرآهم عُرَاةً، إنما يُمَثِّلُ القلب على قدر ما يسمع الحديث.أو على قدر ما يتوهم»(١٨٧).

فالتفكر الصحيح في يوم القيامة ينبني على معرفة صحيحة بآيات القرآن، والأحاديث الصحيحة عن البعث بعد الموت، فيدرس كلام الله ورسوله في عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء «اليوم الآخر في ظلال القرآن، مشاهد القيامة في القرآن، كتاب الفتن والملاحم لابن كثير، أبواب الجنة والنار، والبعث، من كتب الحديث، مثل صحيح الترغيب..».

- التفكر في وقوف الإنسان بين يدي الله ليسأله، ويحاسبه، على النقير والقطمير، ليس بينه وبين الله ترجمان، ولا يرى إلا ما قدم، والجنة والنار، والقصاص؛ حتى يقتص للشاة التي ليس لها قرن، من الشاة القرناء، ويقول الكافر: يا ليتني كنت ترابا، فماذا نفعل سوى أن نتوب، ونرجع، ونرق، ونرحم؟

لنتأمل في التجربة الآتية: قال مُعَلّى الوَرَّاق: «كُنَّا عند مالك بن دينار، وهو يتكلم، فجاء أبو عبيدة الخواص، فأخرج مِن كُمِّهِ حَبْلَ لِيفٍ جَديد؛ في طَرَفِهِ

---

(١٨٧) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٩، ص ٢٧٠ .

عُرْوَتَان، فَجعل عُرْوَة في عُنُقِهِ، وعروة في عُنُق مَالِكٍ، ثم قال: يا مالك، عُدَّ أنَّا بين يدي الله، ما عَسَى أن نقول؟ فبكى القوم جميعا»(١٨٨).

ويقول الشيخ القدوة: «أدْن قلبك من الذكر، وذكِّرْهُ يوم النشور، وتفكر في القبور الدوارس، وتفكر كيف يَحشر الحق عز وجل جميع الناس، فيقيمهم بين يديه. إذا دُمْتَ على هذا التفكر؛ زَالَتْ قساوة قلبك، وصَفَا مِنْ كَدَرِهِ»(١٨٩).

- التفكر في نعيم الجنة، والتشوق لدخولها، وتوهم أنه دخلها، وأنه سيرى وجه الله، هناك، والتفكر فيما يؤدي إلى هذا النعيم، وهل هو يمارسه؟ والتفكر في عذاب النار، وأهوالها، وأحوال أهلها، والخوف أن يكون ممن يدخلها بقسوته، وظلمه، وغشمه، وذنوبه.

- التفكر في نعم الله عليه، وموقفه من الرب الرحيم المنعم. وفي آيات الله الكونية الدالة على عظمته، وفي معاني أسماء الله الحسنى، وإجرائها على القلب، وتذوقها، وهل عمل بمقتضى نعمه عليه، وأسمائه الحسنى؟

- التفكر في حقوق الله سبحانه عليه، وحقوق العباد، والخلائق، وهل أدى وَوَفَى بهذه الحقوق ؟

- التفكر في أخبار أرقاء القلوب وأحوالهم، وقراءة سيَرهم، أو الاستماع إليها .

- التفكر فيما يراه الإنسان في حياته اليومية، من أشياء وأحوال تذكر بالآخرة، وما يجري فيها، فيأخذ الشيء الذي يراه ويتأمله، ويَعْبُرُ منه بعقله وقلبه إلى الآخرة. ويتمثل حال الآخرة.على نهج النموذج الآتي:

- أخرج ابن أبي الدنيا، عن أبي الهيثم، بَيَّاع القصب، قال: مررت أنا

(١٨٨) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، رقم ٢٨٣، ص ٢٢٢ .

(١٨٩) عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص ١٨٢

وسعيد بن جبير، على بني الأشعث، وإذا هم على طنافِس، وعليهم ألوان الخز، فَسَلَّمَ عليهم، فجعلوا يقولون له: مرحبا بأبي عبد الله، ويسلمون عليه، اجلس، فَلَمَّا وَلَّى عنهم؛ بَكَى بكاء شديدا، فقلت: ما يُبكيك ؟ قال: إنني ذكرت الجنة ونعيمها وشبابها، حين رأيت هؤلاء(١٩٠).

– وأخرج أبو نعيم؛ من رواية أبي وائل الأسدي، قال: خرجنا مع عبد الله ابن مسعود، ومعنا الربيع بن خُثَيْم، فمررنا على حَدّادٍ، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة، فنظر إليها، فتمايل ليسقط، ثم إن عبد الله مضى كما هو حتى أتى على شاطئ الفرات على أتُون (مَوْقِدِ نار كبير)، فلما رآه عبد الله، والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣]؛ فَصُعِقَ الربيع (أغْمِي عليه من خوف النار) فاحتملناه، فجئنا به إلى أهله، قال: ورابَطه عبد الله إلى الظهر، فلم يُفِق، ورابطه إلى المغرب فأفاق، ورجع عبد الله إلى أهله»(١٩١).

– وكان هرم بن حيان (تابعي، ثقة، عابد، فاضل) وحممة الدوسي (صحابي جليل)، «إذا أصْبَحَا غَدَوَا، فَمَرَّا بأكْورَةِ الحدادين، كيف ينفح عليها، فيقعدان ويبكيان، ويستجيران الله من النار. ثم يأتيان أصحابَ الرياحين، فيقفان، فيسألان الله الجنة، ثم يدعوان بدعوات، ويفترقان»(١٩٢).

– وأخرج ابن أبي الدنيا؛ عن سفيان بن عُيَيْنَة، قال: كان عمر بن عبد العزيز يوما ساكتا، وأصحابه يتحدثون، فقالوا له: ما لك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟ قال: كنت مفكرا في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها ؟ وفي أهل النار؛

---

(١٩٠) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، رقم ٥٣، ص ٧٤، ٧٥ .

(١٩١) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ١١٠، ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ٦٦، ٦٧، ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، هامش ص ٧٨، ٧٩ .

(١٩٢) ابن أبي الدنيا: الرقة والبكاء، رقم ٢٩٨، ص ٢٣٠

كيف يصطرخون فيها (يصيحون ويستغيثون)، ثم بكى[١٩٣].

- وأخرج ابن المبارك عن أم الدرداء، أنه قيل لها: ما كان أكثر عمل أبي الدرداء؟ قالت: التفكر، قالت: نظر يوما إلى ثَوْرَيْن يَخُدَّان (يؤثران، ويَشُقَان) في الأرض، مستقلين بعملهما؛ إذْ عَنَتَ (وَهَن - ضعف، انكسر) (أحدهما)، فقام الآخر، فقال أبو الدرداء: في هذا تفكر، استقلا بعملهما واجتمعا، فلما عَنَتَ أحدُهما قام الآخر، كذلك المتعاونان على ذكر الله - عز وجل[١٩٤].

٦- وكنت عملت تجربة تربوية لمدة، كنت أخرج ومعي بعضُ أصحابي، بعد صلاة العشاء، يوما في الأسبوع، إلى شاطئ نهر، ننظر، ونتأمل، في الماء، والشجر، والسماء، والسكون، وخرير الماء، لمدة ربع ساعة، تقريبا، وكل واحد منا منفرد عن الآخر، ثم نجتمع، ويتحدث كل واحد فيما فكر فيه، ونعيد التفكير في كل ما حكيناه، فكنت أشعر أنني أقترب جدا من الله، ويتأثر قلبي بما تفكرنا فيه بعقولنا، وتذوقناه بمشاعرنا، ولا أزال أحِنّ إلى هذه التجربة، ولا زلت أجد حلاوَتَهَا. لقد تفكرنا في نعم الله، وآياته، ودلائل عظمتِه، ورحمته،.. إلخ، وهذا يعطيني برهانا حِسِّيًّا على أن التفكر آلية مهمة في تربية الرقة والرحمة والإيمان.

وما سبق كله يمكن ممارسته عبر الدرس الذاتي، والجماعي، والدورات الذاتية، والجماعية المخطط لها، لتربية الرقة، عبر التفكر في آيات، أو في أحاديث، أو في أفعال، أو في نعم الله وآلائه، لهذا الغرض، وبهدف أن تعقل قلوبنا ما تتفكر فيه، كما قال جبريل وميكائيل لسيدنا محمد: «اسمع سَمِعَتْ أذنُك، واعقل عَقَلَ قلبُك.. الحديث»[١٩٥].

---

(١٩٣) المصدر السابق، رقم ٦٤، ص ٨٢.

(١٩٤) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد، رقم ٨٧٢، ص ٣٠٢، ٣٠٣.

(١٩٥) رواه البخاري، من حديث طويل، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١٣، رقم ٧٢٨١، ص ٢٥٥، من الشرح، وسيأتي تخريجه كاملا في الفصل الأخير.

د- زيارة القبور وحضور الجنائز، وزيارة المرضى: بشهود قلبي وعقلي وتذكر لمصير الإنسان:

١- وهذه وسيلة تربوية فعالة، في تربية الرقة، واللين، والرحمة، فأولا، هي وصية رسول الله ﷺ وقد بين فيها العلة والثمرة، ثمرة المشي مع الجنائز، وثمرة زيارة القبور، فقد أخرج أحمد والحاكم؛ عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها؛ فإنها تُرِقُّ القَلْبَ وتُدْمِعُ العَيْنَ، وتُذكِّرُ الآخرة. ولا تقولوا هُجْرًا**»[١٩٦]. (أي: كلاما فاحشا..).

وفي رواية أحمد: «**نهيتكم عن زيارة القبور، ثم بَدَا لي أنها تُرِقُّ القَلْبَ، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، فزوروها، ولا تقولوا هُجْرًا**»[١٩٧].

ورواه الطبراني بسند فيه ضعيف (الرقاشي) وقد وُثِّقَ، بلفظ: «**ألا وزوروا القبور، فإنها تُرِقُّ القُلُوبَ..**»[١٩٨].

ورواه البيهقي؛ عن أنس؛ عن النبي ﷺ: «**فزوروها؛ فإنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، فزوروها، ولا تقولوا هجرا**»[١٩٩].

فقد صرح النبي ﷺ بأسباب دعوته لزيارة القبور، وهي: أنها ترق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة.

وهذه هي (العِبْرة) التي ذكرها النبي ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد؛ عن أبي سعيد الخدري؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإن فيها عِبْرَة..**»[٢٠٠].

---

(١٩٦) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٤٥٨٤، ص ٨٤١.

(١٩٧) المسند، ج ١١، رقم ١٣٤٢١، ص ١٩٤، ويشهد له رواية الحاكم، وروايات أخرى كثيرة.

(١٩٨) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٢، رقم ١٣٢٣٥، ص ٢٤٧.

(١٩٩) الإمام البيهقي: كتاب السنن الصغير، ج ١، رقم ١١٨٢، ص ٣٠٧، وأخرجه في السنن الكبرى (٤/ ٧٧).

(٢٠٠) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٢٦٨، ص ١٢٠، ١٢١.

وقد أخرج ابن ماجه؛ عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«زوروا القبور؛ فإنها تذكركم الآخرة»**[٢٠١]. وأخرج عن أبي هريرة قال: زار النبي ﷺ قبر أمه، فبكى، وأبكى مَنْ حَوْلَهُ، فقال: **«استأذنت ربي في أن أستغفر لها، فلم يأذن لي، واستأذنت ربي في أن أزور قبرها؛ فأذِن لي، فزوروا القبور، فإنها تذكركم الموت»**[٢٠٢].

ورواه مسلم، وفيه: **«فزوروا القبور؛ فإنها تذكر الموت»**[٢٠٣]. وفي رواية أبي داود: **«فإنها تذكر بالموت»**. وفي رواية للنسائي: **«فزوروها، ولتزدكم زيارتها خيرا»**[٢٠٤].

ورواه الترمذي عن بُرَيْدَة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«قد كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فقد أذِنَ لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها؛ فإنها تذكر الآخرة»**[٢٠٥]. ورواه أبو داود وفيه: **«... فإن في زيارتها تذكرة»**[٢٠٦].

٢- فزيارة القبور وسيلة لترقيق القلب؛ لأنها تذكر الموت، وتذكر الآخرة، وتؤثر في القلب، وتدمع العين، وتقف الإنسان على مصيره. وهذه الوسيلة نصحت أم الدرداء بممارستها؛ عندما شكا إليها رجل قسوة قَلْبِه، فقالت له: «اطلع في القبور، وجالس الموتى»، ففي ذلك تربية للرقة، وتخلص من القسوة، ومجالسة الموتى: صحبتهم في المقابر، للتذكر، والتمثل، والتوهم، والاعتبار.

---

(٢٠١) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، مكتبة المعارف، الرياض، رقم ١٢٨٥، ص ٣٦.

(٢٠٢) قال الألباني: صحيح، المصدر السابق، رقم ١٢٨٧، ص ٣٧.

(٢٠٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٣، رقم ٩٧٦، ص ٤٥٢.

(٢٠٤) سنن أبي داود، ج ٣، دار الفكر، رقم ٣٢٣٤، ص ١٧١. سنن النسائي، بشرح السيوطي، وحاشية السندي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج ٤، رقم ٢٠٣٤، ص ٦٧، ٦٨، وج ٧، رقم ٤٤٢٩، ص ١٦٧.

(٢٠٥) قال الترمذي: حديث بريدة حديث حسن صحيح، انظر: سنن الترمذي، ج ٢، دار الفكر، رقم ١٠٥٦، ص ٣٣٠.

(٢٠٦) سنن أبي داود، ج ٣، حديث رقم ٣٢٣٥، ص ١٧١.

ولنتأمل في الممارسة التربوية المقصودة الآتية:

عن محمد بن صالح التَّمار؛ قال: «كان صفوان بن سليم (الإمام، الثقة، الحافظ، الفقيه)، يأتي البقيع في الأيام، فيمر بي، فاتَّبَعْتُهُ ذاتَ يَوْم، وقلت: لأنْظُرَنَّ ما يَصْنَعُ، فَقَنَّعَ رَأسَهُ، وجَلَسَ إلى قبرٍ منها، فلم يَزَل يبكي حتى رَحِمْتُهُ، وَظَنَنْتُ أنه قَبْرُ بَعْضِ أهْلِهِ. ومَرَّ بي مَرّة أخرى، فاتبعتُهُ، فقعد إلى جنب قبر غَيْرِهِ، ففعل مثل ذلك، فذكرتُ ذلك لمحمد بن المنكدر، وقلت: إنما ظَنَنْتُ أنه قبر بَعْض أهله، فقال محمد: كلهم أهْلُه، وإخوته، إنما هو رَجُلٌ يُحَرِّكُ قَلْبَهُ.. بذكر الأمواتِ كُلَّمَا عَرَضَتْ له قَسْوَةٌ»(٢٠٧).

فهذا عالم فقيه يمارس هذه الممارسة التي يحللها ابن المنكدر، ويصل إلى البذرة التي نبتت منها، وهي أنه يفعل ذلك لتحريك قلبه، بذكر الموت والأموات، ليصفي القسوة من قلبه؛ كلما عرضت له.

وقال مالك بن مِغْوَل (ثقة): «قيل للربيع بن أبي راشد: ألا تجلس؟ فقال: إن ذكر الموت إذا فارق قلبي ساعة؛ فسد عليَّ قلبي»(٢٠٨).

وتذكر الموت يُدخل المسلم المتذكر، وغيره، في تجربة روحية قلبية، وخبرة عميقة، بحقيقة الإنسان، ومصيره، وتكسبه وعيا إنسانيا ببعده الروحي، والغيبي، إنها تجربة قلبية شعورية، يتجاوز بها الإنسان واقعه الدنيوي، المادي، إلى عالَـم سيلقاه، ويمر به، ويرتحل إليه، عالم ما بعد الموت، وما بعد الوجود المادي والكوني.

إن الإنسان يكتسب خبرة عميقة، خبرة شعورية، وعقلية، بذاته، وبعالمه، وبالمصير الإنساني، حين يدخل، بوعي وتأمل، في (تذكر الموت)، إنها رحلة في المصير، والسير الروحي إلى الله.

---

(٢٠٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٦٦، ٣٦٧.

(٢٠٨) الإمام أحمد: الزهد، رقم ٢٣٨٤، ص ٦٥٥، وإسناده صحيح إليه.

٣- وكنت فعلت ذلك بعض الأيام، أخذت كتاب (التوهم) للمحاسبي، وهو يتوهم بشكل مؤثر، وصحيح، غالبا، مصير الإنسان منذ الموت إلى يوم القيامة.. وذهبت إلى مكان مناسب بحيث لا يراني أحد من البشر، بين المقابر، عند قبر منها، كيفما اتفق، وكنت أقرأ كتاب التوهم، وأضع نفسي موضع الميت، وأتمثل نفسي بين الموتى، وأتخيل نفسي يحدث لها ما يرويه المحاسبي، فحدثت لي صحوة قلبية، وعقلية وشعورية، غريبة، وحياة، وحيوية، ورقة، ما زلت أجد لها أثرا في قلبي، فعلت ذلك مرتين، وكنت أخذت أصدقاء لي، نقرأ - معا- ونتخيل، في صمت القبور الناطق البليغ، وصحوة العقول، والقلوب.

ويمكن تكرار هذه التجربة التربوية، بأخذ مجموع أحاديث صحيحة عن الموت، وما بعده، حتى البعث، ودخول الجنة، أو النار، (من معارج القبول، الجزء الثاني - مثلا - أو من صحيح مسلم، الجزء الأخير- مثلا)، وتأملها، هناك، في صمت، وتمثل، وتخيل، وتوهم، ومعايشة ذوقية لهذه الخبرة؛ فإن هذه التجربة، بالخبرة الشعورية التي فيها، لو صاحبها وعي صحيح بعقيدة ما بعد الموت، والبعث، والجزاء، وعلاقة ذلك بالعمل الصالح والأخلاق الحسنة، هذه التجربة، بهذا الشرط، عامل تربوي فعَّال في (تحريك) القلب، وتخليصه من القسوة، وتكوين إرادة خَيِّرَة، فيه، إنها ستجعل القلب (يَغْلي) بالرقة وأعمال الرحمة، والبر، مما يُنَمِّي الفرد، والمجتمع، ويزكيهما في الخير.

٤- ويتكامل، مع هذه الوسيلة المربية للرقة، وسيلة ثانية؛ هي **زيارة المرضى**، وخصوصا المساكين، في بيوتهم، وفي المستشفيات، والمشي في الجنازات.

والحق: أنني ما زرت مريضا في عنبر من عنابر المستشفيات إلا وجدت قلبي يرق، ويلين جدا، وأحيانا أظل يومي متأثرا نفسيا بما شعرت، ورأيت، وربما أصابني بعضُ المرض بسبب التأثر، وكذلك يحدث عِنْدَمَا أحضر ميتا، أو أشترك في تغسيله، أو أمشي في جنازة، فربما أبكي مع أنني لا أعرف الميت،

فهي وسائل فعالة - وهي عبادات لله أيضا - لتربية الرقة، وتذكير الإنسان بمسيره، ومصيره، إنها تجاوُزُ القلبِ للحياة المادية، وارتحال واع نحو المصير الأخروي... وانسجام متناغم مع إنسانية الإنسان، المكون من روح وقلب وعقل ومشاعر وجسم واع.

ولعله - لهذا السبب - أمر الرسول ﷺ المؤمنين به، بذلك؛ أخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري؛ عن النبي ﷺ قال: «**عودوا المريض، وامشوا مع الجنائز؛ تذكركم الآخرة**»[٢٠٩]. ورواه البخاري في الأدب المفرد، وفيه: «**واتبعوا الجنائز تذكركم الآخرة**»[٢١٠].

وهذا دواء صحيح لقسوة القلب، أوصت به السيدة عائشة، فقد ذكر ابن الجوزي أن رجلا سأل عائشة: ما دواء قسوة القلب؟ فأمرته بعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وتوقع الموت[٢١١].

وهذه لمحة تربوية من السيدة المباركة أم المؤمنين؛ فتوقُّع الموت، في وقت تشييع الجنازة، هو الذي يُعطي هذه الوسيلة فاعليتها في تصفية القسوة، فهو يرى أمامه جنازة يشيعها إلى مصيرها، وهو يتوقع لنفسه نفس المصير الذي يراه، ويحدث نفسه به.

وتأمل فيما أخرجه أحمد عن عائشة أنها كانت تقول: «كان أسَيْد بن حضير من أفاضل الناس - وكان يقول: لو أني أكون كما أكون على أحوال ثلاث من أحوالي لَكُنْتُ؛ حين أقرأ القرآن، وحين أسمعه يُقْرَأ، وإذا سمعت خطبة

---

(٢٠٩) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١١٢٣، ص ٧٦.

(٢١٠) قال الألباني: صحيح، انظر: الإمام البخاري: الأدب المفرد، بتحقيق الألباني، رقم ٥١٨، ص ١٧٨، ورواه أحمد والبزار، وابن حبان في صحيحه، وقال الشيخ شعيب: إسناده قوي؛ ابن حبان؛ (٢٩٥٥)، وانظر: القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ٢، حديث رقم ٢١٦٠، ص ٣٩٨، وانظر: المسند، ج ١٠، رقم ١١٢٠٩، ص ١٠٣، بإسناد صحيح.

(٢١١) ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي): ذم الهوى، صححه وضبطه أحمد عبد السلام عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ٦٢.

رسول الله ﷺ وإذا شهدت جنازة، وما شهدت جنازة، قط، فحدثت نفسي بسوى ما هو مفعول بها، وما هي صائرة إليه»(٢١٢).

فحديث النفس بمشهد الجنازة ومصيرها، وما يفعل بها، وتوقع الموت، عند تشييعها، هو أسلوب تربوي مؤثر، لإزالة القسوة، وتربية الرقة في القلب، وتحريكه، وتبليغ الإنسان للتخلق بالفضائل.

ولا شك أن هذا الأسلوب مما يبرهن على الطبيعة الخاصة لتربية القلب.

وهذا الأسلوب يمكن أن يُمارَسَ؛ فرديا، وجماعيا، وضمن خطة متكاملة لتربية القلب الرقيق الرحيم.

هـ - مصاحبة ومجالسة أرقاء القلوب، والصالحين، والاستماع لكلامهم النافع:

١- تناولت من قبلُ آلية الصحبة المربية ودورها في التغيير القلبي، والخلقي، وأركز هنا على دورها في تربية الرقة، وإزالة القسوة، فالصحبة تشكل بيئة ثقافية، لها قيَمها وعُرْفُها، وجوها، والإنسان يتشرب ويمتص هذه القيم، والمشاعر... من خلال مشاركة أصحابه، والتفاعل معهم، وهكذا فالصحبة المتصفة بالرقة والرحمة، في كلامها وأخلاقها، ومعاملاتها، تؤثر في الصاحِب وتوجهه نحو الرقة، من خلال تثاقف الطباع، والتقاط المشاعر، والمحاكاة الوجدانية للانفعالات والأحوال، ومن خلال الأساليب الشائعة في جماعة الصحبة للثواب والعقاب، وهي أساليب تعزز الاتجاه العام السائد في جو الصحبة، وتُضْعِفُ، أو تنبذ ما سواه، فالصحبة آلية تربوية، وسَط ثقافي مرب، لا يستهان به، ومن هنا فإن الذي يريد اكتساب الرقة والرحمة؛ لتصبح خلقا لقلبه، وقيمة مطبقة، يمارسها، يَلزمه أمران: مفارقة، ومفاصلة القساة

(٢١٢) إسناده صحيح، رجاله وثقوا، كما قال الهيثمي، انظر: المسند، ج١٤، رقم ١٨٩٩٤، ص٣٨١.

والجفاة، ومصاحبة وموالاة ومجالسة الأرقاء، أي: أن ينخلع من بيئة القسوة، ويندمج في زمرة اجتماعية ثقافية رقيقة.

ولـمَّا شكا أحد المسلمين قسوة قلبه للشيخ حسن البنا، كما ذكرنا سابقا، في أوائل هذا الفصل، **نصحه بما يلي:**

«صحبة أهل لخشوع والتأمل، وملازمة أهل التفكر والتبتل، وملازمة هذا الصنف من الأتقياء الصالحين، الذين تتفجر جوانحهم بالحكمة، وتشرق وجوههم بالنور، و(تمتلئ) صدورهم بالمعرفة، وقليل ما هم، دواء ناجح، فاجتهد أن يكون لك من هؤلاء أصدقاء تلازمهم، وتؤوي إليهم، وتصل روحك بأرواحهم، ونَفَسَكَ بنفوسهم، وتقضي معهم معظم وقت الفراغ. واحذر من الأدعياء.وتَحَرَّ مَن ينهضك حالُه، ويدلك على الخير فعاله، ومَنْ إذا رأيتَهُ ذكرت الله».

«هذه الصحبة مِن أنفع الأدوية؛ فالطبع سراق، والقلب يتأثر بالقلب، وتستمد الروح من الروح، فاجتهد أن تجد لك من الأرواح الصالحة صاحبا»(٢١٣). فالصحبة الرقيقة تربية للرقة في القلب.

ولنتأمل في التوصيات الآتية:

- يقول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه: «اجلسوا إلى التوابين، فإنهم أرق شيء أفئدةً»(٢١٤).

- أما عون بن عبد الله فقال: «جالسوا التوابين؛ فإنهم أرق الناس قُلُوبًا»(٢١٥). وهو يُعَلِّلُ ذلك فيقول: «قلب التائب بمنزلة الزجاجة، يؤثر فيها جميعُ ما أصابها، والموعظة إلى قلوبهم سريعة، وهم إلى الرقة أقرب، فداووها

---

(٢١٣) حسن البنا: نظرات في التربية والسلوك، مرجع سابق، ص ١٥٠.

(٢١٤) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد، والرقائق، رقم ١٣٢، ص ٤٢.

(٢١٥) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٤، ص ٢٤٩، ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ٤٩.

(يعني: القلوب) من الذنوب؛ بالتوبة، فلرب تائب دعته توبتُه إلى الجنة حتى أوفدته عليها، وجالسوا التوابين؛ فإن رحمة الله إلى التوابين أقرب»(٢١٦). ويقول: «رأينا صَدَأَ القلوبِ إنما يكون من كَثْرَةِ غِيَرِ الذنوبِ، ورأينا جَلاءَهَا إنما يكون مِنْ قِبَلِ التوبة؛ حتى تَدَعَ القُلوبَ كالسيف النقي المرهف»(٢١٧). أقول: بل التوبة النصوح تجعل القلب كورق الورد، وقطرات الندى !

وإذا كان بشر الحافي يقول محذرا: النظر إلى البخيل يقسي القلب، أو النظر في وجه البخيل قساوة القلب، فإن جعفر بن سليمان يقول: «كنت إذا وجدت في قلبي قسوة غَدَوْتُ فنظرت إلى وجه محمد بن واسع»(٢١٨). وكان من أخشع الناس لله. وعند ابن الجوزي: «كنت إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع نظرةً».

٢- وقد تتابع خبراء التربية القلبية في تقرير هذا المعنى، يقول سهل بن عبد الله التسترى: «تَعَرَّضْ لرقة القلب بمجالسة أهل الذكر»(٢١٩). ويقول أبو سليمان الداراني: «تعرض لرقة القلب بمجالسة أهل الخوف»(٢٢٠). وتقول أم الدرداء: «طلبت العبادة في كل شيء، فما وجدت شيئا أَشْفَى لصدري، ولا أَحْرَى أن أصيب به الذي أريد مِنْ: مجالِس الذكر»(٢٢١).

وقد سُمِّيَ يحيي الجَلاءُ جَلاءً لسبب يقول عنه ذو النون المصري: «نحن سَمَّيْنَاهُ الجَلاءَ؛ كان إذا تكلم علينا جَلا قلوبَنَا»(٢٢٢)، وقال عون بن عبد الله:

---

(٢١٦) أبو نعيم: حلية الأولياء...، ج ٤، ص ٢٥٠، ٢٥١، ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ٥١.
(٢١٧) أبو نعيم: حلية الأولياء...، ج ٤، ص ٢٥٠.
(٢١٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ١٢٠، والنص في: ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج٣، ص١٥٣.
(٢١٩) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٤، ص ٤١.
(٢٢٠) المصدر السابق، ص ١٦٠، أبو نعيم: حلية الأولياء...، ج ٩، ص ٢٦٦.
(٢٢١) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٤، ص ٢٠٨.
(٢٢٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤٨.

«مجالس الذكر: شفاء القلوب»(٢٢٣).

٣- والمقصد أن مجالسة التوابين والخاشعين، وحضور مجالس العلم النافع والذكر الصحيح، هو تربية لرقة القلب، وتخليص له من القسوة، فإذا توفر هؤلاء، فحي هَلاّ بمجالستهم، وإلا فمجالسة الصالحين، في كتب السير، بديل تربوي مناسب، قال شقيق البلخي: «قيل لابن المبارك: إذا أنت صليت، لِمَ لا تجلس مَعَنَا ؟ قال: أجلس مع الصحابة والتابعين، أنظر في كتبهم وآثارهم، فما أصْنَعُ معكم ؟ أنتم تغتابون الناسَ»(٢٢٤).

٤- ويقول أحمد بن أبي الحواري: «إذا رأيت من قلبك قسوة؛ فجالس الذاكرين، واصحب الزاهدين، وأقلل مطعمك، واجتنب مرَادَكَ، وروِّض نفسك على المكارهِ»(٢٢٥).

وهذه الآلية هي التي جعلها الحسن البصري إجراء لتربية الرقة، وإزالة القسوة، عندما شكا إليه رجل قسوة قلبه قال: «أدنِه من الذكر. أي: ممن يُذكِّرُ»(٢٢٦). فإدناء ـ أي: تقريب، القلب ممن يذكر بالله واليوم الآخر، هو علاج يذيب قسوة القلب، فيلينه، ويرققه، ويعيد إليه الفطرة، فطرة الرقة والرحمة والشفقة.

٥- وقد أشار ابن الجوزي إلى ما يتعلق ببعض هذه الآلية، حين انتقد بعضَ ما يفعله الفقهاء، واعتبره من تلبيس إبليس عليهم، قال: «ومن ذلك: أنهم جعلوا النظر جُلّ اشتغالهم، ولم يمزجوه بما يرقق القلوب؛ من قراءة القرآن، وسماع الحديث، وسيرة الرسول ﷺ وأصحابه.

---

(٢٢٣) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٤، ص ٢٤١.
(٢٢٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٣٩٨ -٣٨١.
(٢٢٥) المصدر السابق، ج ٨، ص ٣٩٨.
(٢٢٦) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، ص ٢٥٥.



ومعلوم أن القلوب لا تخشع بتكرار إزالة النجاسة والماء المتغير، وهي محتاجة إلى التذكار والمواعظ لتنهض لطلب الآخرة. ومسائلُ الخلاف ـ وإن كانت من علم الشرع - إلا أنها لا تنهض بكل المطلوب.

«ومن لم يطلع على أسرار سير السلف، وحال الذي تمذهب له، لم يمكنهم سلوك طريقهم، وينبغي أن يعلم أن الطبع لص، فإذا ترك مع أهل هذا الزمان؛ سرق من طبائعهم، فصار مثلهم، فإذا نظر في سير القدماء؛ زاحمهم وتأدب بأخلاقهم، وقد كان بعض السلف يقول: حديث يرق له قلبي أحب إليَّ من مائة قضية من قضايا شريح. وإنما قال هذا؛ لأن رقة القلب مقصودة، ولها أسباب (..)».

«ومن تلبيسه عليهم: أن يحسن لهم ازدراء الوعاظ، ويمنعهم من الحضور عندهم، فيقولون: مَن هؤلاء ؟ هؤلاء قصاص!! ومراد الشيطان ألا يحضروا في موضع يلين فيه القلب، ويخشع، (...) وقد كان أحمد بن حنبل يقول: ما أحوج الناس إلى قاصّ صدوق»[(٢٢٧)].

قلت: هذه قاعدة تربوية مهمة: فتربية الرقة في القلب تتطلب: مجالسة المذكرين بالله، والابتعاد عن الخلافيات، ومطالعة سير أرقاء القلوب.

و - أكل الحلال، والإنفاق من الحَلال:

رأينا من قبل أن الأكل من حرام، والإنفاق من - وفي - حرام؛ يُقَسِّي القلْبَ، وإعمالا لمبدأ المعالجة بالضد، ومبدأ الدفع قبل الرفع، فإننا نقرر أن أكل الحلال، ونفقة الحلال، هي ممارسة فعالة لتليين القلب، وترقيقه، وتصفيته من القسوة، وسأكتفي بالنص الآتي، عن أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل،

(٢٢٧) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، تحقيق مجدي عبد الهادي صالح، إشراف مصطفى العدوي، ط ١، دار ابن رجب، المنصورة، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، ص ١٣٥، ١٣٦، ١٣٩.

الإمام، الجبل، الحر، قال أبو حفص عمر بن صالح الطرسوسي: «ذهبت أنا ويحيى الجَلاء (...) إلى أبي عبد الله، فسألتُه، وكان إلى جَنْبِهِ: بورَان، وزهير، وهارون الحَمَّال، فقلت: رحمك الله، يا أبا عبد الله، بِمَ تَلِينُ القلوبُ ؟ فأبصر إليَّ أصحَابُه، فغمزهم بعينه، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: يا بني، بِأكْلِ الحلال. فمررت كما أنا؛ إلى أبي نصر بشر بن الحارث، فقلت له: يا أبا نصر، بم تلين القلوب ؟ قال: ألا بذكر الله تطمئن القلوب، قلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله، فقال: هِيه، إيش قال لك أبو عبد الله؟ قال: بأكل الحلال. فقال: جاء بالأصْل. فمررت إلى عبد الوهاب بن أبي الحسن، فقلت: يا أبا الحسن، بم تلين القلوب؟ قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فقلت: فإني جئت من عند أبي عبد الله، فاحمرت وَجْنَتَاهُ من الفرح، وقال لي: إيش قال أبو عبد الله؟ فقلت: قال: بأكْل الحَلال. فقال: جاءك بالجَوْهَر، جاءك بالجوهر، الأصل كما قال»(٢٢٨).

وفي ترجمة أبي عبد الله الدّبّاس، حماد بن مسلم، الشيخ، القَدَم، أستاذ الشيخ القدوة عبد القادر الجيلاني: «وكان من أولياء الله أولي الكرامات، انتفع بصحبته خَلْق، (...) وكتبوا من كلامه نحو مائة جزء، وكان أمِّـيًّا(...) قد جاهد نفسه بأنواع المجاهدات، وزاول أكثر المهن والصنائع في طلب الحلال..»(٢٢٩).

والحاصل: أن أكل الحلال، وطلب الحلال، والإنفاق من حلال، يكسب القلب اللين والرقة، ويخلصه من القسوة والغِلْظَةِ، وذلك أن الحرص على ذلك هو تذكر مستمر لله، وللجزاء يوم الدين، مع كسب المال، وإنفاقه، واستحضار للمحاسبة عنه يوم القيامة، من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟ فيظل القلب في حال

---

(٢٢٨) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج ٩، ص ١٨٢.
(٢٢٩) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ١٩، ص ٥٩٤ – ٥٩٦.

تذكر وخشية لله، وإشفاق من الجزاء، فيحدث له ذلك رقة ولينا.

ز - الصوم لله، وتقليل الطعام:

١ - يقول الفضيل بن عياض: «ثلاث خِصَال تُقَسِّي القلبَ: كثرة الأكل، وكثرة النوم، وكثرة الكلام»(٢٣٠).

والتعود على الصوم، يحدث تفرغا للقلب، والعقل، ويساعد على التفكر، وتحصيل الرقة، يقول مظفر القرميسيني: «الجوع - إذا ساعدته القناعة - مزرعة الفكرة، وينبوع الحكمة، وحياة الفطنة، ومصباح القلب»(٢٣١).

ولهذا عندما شكا رجل قسوة قلبه إلى مالك بن دينار؛ قال له: «أدْمِنْ الصَّوْمَ؛ فإن وجدت قسوة؛ فأقل الطعام»(٢٣٢).

٢ - والحقُّ: أن الصوم؛ بأركانِهِ؛ (الإمساك عن الطعام والشراب، وشهوة الفرج، تعبدا لله، وإرضاء له وحده، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس)، وأخلاقه؛ (تفريغ القلب لله، وإمساك اللسان عن اللغو والرفث، والغِيبة، وقول الزور، وإيذاء الناس..)، ومكملاته؛ (قراءة القرآن، وذكر الله، الكرم، العطف على المساكين..)، الصوم بذلك، هو عبادة، وتربية ناجحة حقا للرقة في القلب، والتخلص من قسوته، ولهذا رغّب فيه رسول الله ﷺ لأسباب، منها السبب الآتي المتعلق بالقلب.

أخرج أحمد أن أعرابيا حَدّث عن رسول الله ﷺ قال: سَمِعْتُهُ يقول: «مَنْ سَرّهُ أن يَذهَبَ كثير مِنْ وَحَرِ صَدْرِهِ فلْيصُم شهر الصَّبْرِ، أو ثلاثة أيام من كُلِّ شهْر»(٢٣٣).

---

(٢٣٠) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ١٣.

(٢٣١) المصدر السابق، ص ٣٩٧.

(٢٣٢) ابن الجوزي: ذم الهوى، ص ٦٢.

(٢٣٣) إسناده صحيح، المسند، ج ١٥، رقم ٢٠٦١٥، ص ٣٠٦.

وأخرج النسائي؛ عن عمرو بن شرحبيل؛ قال: أَتَى رسولَ الله ﷺ رَجُلٌ (ثم ساق الحديث، وفي آخره) قال: «**أفلا أخبركم بما يُذهِبُ وَحَرَ الصَّدْر؟**» قالوا: بلى، قال: «**صيام ثلاثة أيام من كل شهر**»(٢٣٤). وفي رواية له: «**ألا أخبركم بما يُذهِبُ وَحَرَ الصَّدْر؟ صَوْمُ ثلاثة أيام من كل شهر**»(٢٣٥). وفي حاشية السندي على النسائي: «(وَحَرُ الصَّدْر)، بفتحتين - قيل: غِشه، ووساوسه، وقيل: حقده، وقيل: ما يحصل في القلب من الكدورات والقسوة، وينبغي أن يُرَادَ ها هُنَا: الحاصلة بالاعتياد على الأكل والشرب؛ فإن شَرْعَ الصَّوْمِ لِتَصْقِيل القلب»(٢٣٦).

فالصوم: تجلية، وتصفية، وصقل للقب من القسوة، وهي بعض أنواع الوَحَر.

٣- وقد شرح ابن رجب، في جامع العلوم والحكم، حديث المقدام بن مَعْدِ يَكْرِبَ؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما مَلأ آدمِيٌّ وعَاءً شرًّا مِنْ بَطْنٍ؛ بحسب ابن آدم أكَلاتٌ يُقِمْنُ صُلبَهُ، فإن كان لا محالة؛ فثلثٌ لطعامه، وثلث لشرابِهِ، وثلث لنَفَسِهِ**»، رواه أحمد والترمذي؛ وقال: حديث حسن، والنسائي وابن ماجة(٢٣٧). وفي أثناء شرحه ساق نصوصا كثيرة تتعلق بدور الاعتدال في الطعام والشراب في ترقيق القلب، ومنها(٢٣٨):

- قال المروزي (...): قلت لأبي عبد الله: يَجِدُ الرجلُ من قَلْبِهِ رقة وهو يَشْبَعُ؟ قال: ما أرى.

- وروى [ابن أبي الدنيا] بإسناده، عن محمد بن واسع؛ قال: مَنْ قَلَّ

---

(٢٣٤) الإمام النسائي: سنن النسائي، ج ٤، حديث رقم ٢٣٨٥، ٢٣٨٦، ص١٥٥.
(٢٣٥) المصدر السابق نفسه.
(٢٣٦) الإمام السندي: حاشية السندي على سنن النسائي، مصدر سابق، ص ١٥٥.
(٢٣٧) ابن رجب: جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، مصدر سابق، ص ٥٠٣.
(٢٣٨) المصدر السابق، ص ٥٠٤ - ٥٠٦.

طُعْمُهُ؛ فَهِمَ، وأفْهَمَ، وصَفَا، ورَقَّ، وإن كثرة الطعام ليُثْقِلُ صاحِبَهُ عن كثير مما يريد (...).

- وعن عمرو بن قيس قال: إياكم والبطنة فإنها تقسي القلب.

- وعن قُثَم العابد، قال: كان يقال: ما قل طُعْمُ امرئ قط؛ إلا رقَّ قلبهُ، ونَدِيَتْ عَيْناهُ..

- وروى أيضا بإسناده، عن أبي عمران الجَوْني، قال: كان يُقالُ: مَنْ أحب أن ينور له قلبه؛ فَلْيُقِلَّ طُعْمَهُ.

- وعن إبراهيم بن أدهم قال: من ضبط بطنه: ضبط دينَهُ، ومن مَلَكَ جُوعَه؛ مَلَكَ الأخلاق الصالحة، وإن معصية الله بعيدة من الجائع، قريبة من الشبعان، والشِّبَعُ يميتُ القلْبَ، ومنه يكون الفَرَح والمَرَحُ والضحك (...).

- وقال أبو سليمان الداراني: إن النفس إذا جاعت وعطشت؛ صَفَا القلبُ ورَقَّ، وإذا شبعت ورويت؛ عَمِيَ القلب (...).

- وقال الحسن بن يحيى الخُشَنِي: مَنْ أراد أن تَغْزُرَ دُمُوعهُ، ويرقَّ قلْبهُ، فليأكل ويشرب في نصف بطنِه. قال أحمد بن أبي الحواري: فحدثت بهذا أبا سليمان؛ فقال: إنما جاء الحديث: «ثلث طعام، وثلث شراب»، وأرى هؤلاء قد حاسبوا أنفسهم؛ فربحوا سدسا.

ولست أختار إلا حديث الثلث، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر، فإن في ذلك تربية فعالة للرقة في القلب، وتخلصا من القسوة، فإن زادت القسوة زدنا في الصوم، وقللنا في الطعام بما لا يضر بحق البدن، ولنجرب، ولنؤكد أن الجوع، هنا، هو الاختياري الحاصل بالصوم، أو بالتقليل من الطّعامِ.

وإذا اجتمع مع الصوم قراءة القرآن، وتفكر، وزيارة للمقابر، ومجلس مع أصحاب قلوب حية رقيقة، وذكر لله، بخشوع قلب، وحضور، وشعور، فقد رق القلب، ولان.

٤- وقد بين الحافظ المحدث، قطب الدين القسطلاني، أثر الصوم وثمراته، وفوائده، في القلب، يقول عن **حكمة الصوم**:

«فإنه مشتمل على فوائد عاجلة وآجلة: أما العاجلة: فتعظيم المعبود.. ورياضة النفس، وصيانة الفكر عن الخواطر الذميمة، وملاحظة معنى الجوع؛ فإنه طالب للخشوع، مانع من الهجوع، طارد للوقوع في الأمر الممنوع.

أما فضائله: فإنها متنوعة متعلقة بجهات.. الجهة الأولى: رفعة الدرجات في الجنان... الجهة الثانية: تكفير الخطيئات (...) الجهة الرابعة: تهذيب النفس برياضتها، وكسر سَوْرَة شهواتها (...) الجهة الثامنة: زجره عن الخواطر الذميمة الموقعة في المآثم المقيمة؛ إذ الجوع يكبح النفس بلجام الجفوة للهفوة الموجبة للغلظة والقسوة، والشبع مما يقودها إلى الطِّماح والجماح... ويوقعها في الجرأة والفظاظة، والانكباب على ارتكاب المناهي، والجوع يحسم مواد الفساد من هذه العلل، ويقللها (...) الجهة التاسعة: حثه على فعل الطاعات، وتحريضه على تحصيل المثوبات؛ لأن المعدة إذا خلت من الأغذية؛ ضَعُفَ من الجسد ما هو فيه من القوى النفسانية، وقويت منه الروحانية؛ فأشرق في القلب نور القدس، ولاح في الروح ضياء القدس، وخشعت الجوارح لفعل القربات، ولانت الجلود؛ لإتيانها بالطاعات، فأقبلت على خدمة الله تعالى بقلب منيب، وأعرضت عن عصيانه ومخالفته».

«**وأما ثمراته**؛ فأنواع: أحدها: صحة الأبدان. الثاني: سلامة الأذهان وتصحيح أفكارها... الثالث: نهضة القوة الحافظة وتقليل نسيانها، فإن كثرة الأكل تكثر الرطوبة في الجسد، وتوجب البلادة في الطبع، النوع الرابع: خفة حركة الأعضاء للطاعات؛ فإن الشبع يرخي الجسد، ويقتضي التثاقل عن العبادة، (...)، النوع السادس: رقة القلب، وغزارة الدمع... فإن الشبع مما يذهب نور العرفان، ويقضي بالقسوة والحرمان (...)، النوع العاشر: صيانة

جوارحه عن استرسالها في المخالفات، وهذا هو أعظم ثمرات الصوم، بل هو الأصل في تحقيق المعنى، فإن النفس إذا مسها ألم الجوع؛ ذلت وانقادت وأذعنت، واشتغلت بما هي فيه عن امتداد أملها إلى الفِكَر الدنية، فتسكن جوارحها عن الحركات الردية، وتمتنع عن انتهاك المحارم المُردية.. وهذا هو سر الصوم: ولأجل ذلك قيل:

إذا ما المرء صام عن الخطايا فكل شهوره شهرُ الصيام(٢٣٩)

والمربي المسلم يعي هذا، ويرشد أصحابه، ذاتيا، وجماعيا، وعبر خطط مقصودة، أن يصوموا، ليرقوا.. لله.

ح - العطف على اليتامى والمساكين، ومجالستهم وخدمتهم:

١- يقول الشيخ حسن البنا، في وصية لمن كان يبحث عن حياة قلبه ورقته: «ثم التفكير في هذا المجتمع الإنساني، واستطلاع مظاهر بؤسه وسعادته، وشقائه وهناءته، وعيادة المرضى في أسِرَّتِهم، ومواساة البائسين في نكبتهم، وتعرف الأسباب النفسانية لهذا الشقاء بين الناس؛ من جحود.. وظلم، وعدوان.. وأنانية.. هذه كلها ضربات على أوتار القلوب، تجمع شتاتها، وتُحيي مواتها. فاجتهد أن يكون في وجودك عزاءٌ للبائسين، ومواساة للمنكوبين، وليس أعمق أثَرًا في المشاعر من إحسانٍ إلى مضطر، أو إغاثةٍ لملهوفٍ، أو مشاركة لبائس حزين»(٢٤٠).

٢- وفي الحديث الذي صدرنا به هذا الفصل جعل النبيّ ﷺ دواء قسوة القلب محددا في رحمة اليتيم، وتقريبه منك، وإلْطَافَه؛ معاملته بالقول والفعل بلطف، ومسح رأسه، وإطعامه من طعامك، والجلوس معه، والأكل معه، وإطعام المسكين.

(٢٣٩) القسطلاني: مدارك المرام في مسالك الصيام، مصدر سابق، ص ٧٢ - ٨٠.
(٢٤٠) حسن البنا: نظرات في التربية والسلوك، مرجع سابق، ص ١٥٠، ١٥١.

فهذا كله يؤثر في القلب، فيلين قسوته، ويعمق مشاعره الإنسانية الحية.

ولنتأمل في الوقائع الآتية:

- أخرج النسائي في المجتبَى: «وكان رسول الله ﷺ يعود المساكين، ويسأل عنهم»(٢٤١).

- وأخرج البخاري عن أبي هريرة: «وكان أخير الناس للمساكين: جعفر ابن أبي طالب، كان ينقلب بنا، فيطعمنا ما كان في بيته، حتى إن كان لَيُخْرِجُ إلينا العُكَّةَ (علبة السمن) التي ليس فيها شيء، فيشقها، فنلعق ما فيها»(٢٤٢).

- وفي حلية الأولياء: كان علي بن الحسين (زين العابدين)، يحمل جِرَابَ الخبز على ظهرِهِ بالليل، فيتصدق به، ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الرب، عز وجل، فلما مات؛ وجدوه يَقُوتُ مائة أهْل بيتٍ بالمدينة، وإنه حين مات وجدوا بظهره آثارا مما كان يحمل بالليل الجُرُبَ إلى المساكين، قال عمرو ابن ثابت: «لما مات علي بن الحسين فَغَسَّلُوه، جعلوا ينظرون إلى آثار سوادٍ بظهره، فقالوا: ما هذا ؟ فقيل: كان يَحمِلُ جُرُب الدقيق، ليلا، على ظهْرِهِ، يُعْطِيهِ فُقَرَاءَ أهْل المدينةِ»(٢٤٣).

- ويقول سهل بن بشر: «كان إبراهيم (بن أدهم)؛ إذا صلى العشاء؛ وقف بين الدّور فنادَى بأعلى صَوْتِه: مَنْ يريد يَطْحَنُ؟ فكانت المرأةُ تُخْرِجُ القُفَّة، والشيخُ الكبيرُ، فَيَنْصِبُ الرَّحَى بين رجليه، فلا ينام حتى يطحن، بلا كِرَاءٍ، ثم يأتي أصْحَابَهُ»(٢٤٤).

- وفي الحِلْيَةِ: «كانت ابنةُ عَمٍّ لِعامر، يقال لها عُبَيْدة، ترى ما يَصْنَعُ عامر بنفسه، فتعالج له الثريد، فتأتيه به، فيخرج إلى أيتام الحي، فيدعوهم، فتقول:

---

(٢٤١) سنن النسائي، ج ٤، رقم ١٩٠٧، ص ٣١.

(٢٤٢) ابن حجر: فتح الباري..، ج ٧، رقم ٣٧٠٨، ص ٧٥، وج ٩، رقم ٥٤٣٢، ص ٥٥٧.

(٢٤٣) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٣، ص ١٣٥، ١٣٦.

(٢٤٤) المصدر السابق، ج ٧، ص ٣٧٢.

إنما عملتها لك بيدي لتأكلها؛ فيقول: أليس إنما أردتِ أن تنفعيني؟»(٢٤٥).

- وفي سيَر أعلام النبلاء؛ عن الشيخ القدوة عبد القادر الجيلاني؛ قال: «فتشت الأعمال كلها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطعام، أود لو أن الدنيا بيدي، فأطعمها الجياعَ. كَفِّي مثقوبة، لا تضبط شيئا، ولو جاءت ألفُ دينار؛ لَمْ أُبَيِّتْها...»(٢٤٦).

وقصدي أن أضع بعض المواقف العملية في إطعام الطعام لليتامى والمساكين، أمام قلوبنا، راجيا أن نستعيد تقاليد الكرام، الأرقاء، الرحماء، فإنها وسيلة فعالة لإشاعة الرقة والمرحمة في المجتمع الإنساني.

إن تربية الرقة في القلب ذات طبيعة خاصة، تقوم على ممارسات ذات تأثير في القلب، والشعور، وذات عائد إنساني، في المجتمع.

ط - ذكر الله؛ ابتغاء وجه الله، والإكثار من الاستغفار، والدعاء، بتضرع، أن يعيذنا الله من قسوة القلب، وأن يُقبل بقلوبنا إليه، وأن يرزقنا رقة القلب، ورحمته، ولينه:

يقول الشيخ البنا لتلميذه الباحث عن حياة قلبه ورقته: «فالقلوب بيد الله، وحده، يصرفها كما يشاء، فألح عليه في الدعاء أن يمد قلبك بالحياة، ويشرح صدرك بالإيمان، ويفيض عليك من برد اليقين،... وتخير لذلك أوقات الإجابة، وساعات السحر...»(٢٤٧).

وأخرج ابن حبان في الموارد، والطبراني في الصغير، والحاكم في المستدرك، من حديث أنس- رضي الله عنه- قال: كان نبي الله ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل(...) اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة، والعَيْلَةِ**

---

(٢٤٥) المصدر السابق، ج ٢، ص ٩٣.

(٢٤٦) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢٠، ص ٤٤٧.

(٢٤٧) حسن البنا: نظرات في التربية والسلوك، مرجع سابق، ص ١٥١.

والذلة والمسكنة»(٢٤٨). قال الشوكاني: «قوله: من القسوة: أي: قسوة القلب، وهي غلظته حتى لا يقبل الموعظة، ولا يخاف العقوبة، ولا يرحم مَنْ يستحق الرحمة»(٢٤٩).

وأخرج أحمد؛ بإسناد رجاله ثقات، ولكن فيه ضعف، عن كعب الأحبار؛ أن موسى - عليه السلام - كان يقول في دعائه: «اللهم لين قلبي بالتوبة، ولا تجعل قلبي قاسيا كالحجر»(٢٥٠).

وكان ميمون بن سِيَاهٍ يدعو: «اللهم يَسِّر لنا ما نخاف عسره، وسَهِّل لنا ما نخاف حُزُونتَهُ، وفَرِّج عنا ما نخاف ضِيقَهُ، ونفِّسْ عنا ما نخاف غَمَّهُ، وفرِّج عنا ما نخاف كَرْبَهُ»(٢٥١).

- اللهم أقبل بقلوبنا إليك؛ حتى نعرفك حَسَنًا، وحتى نعبدك حسنا، وحتى نَرْعَى عَهْدَكَ حسنا، واجذب قلوبنا إليك جَذبَةً لا ترجع بَعْدَهَا إلى أحَدٍ غَيْرِك.

وفي كتاب الزهد: «حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، قال: سمعت مالك بن دينار يقول في دعائه: اللهم أقبل بقلوبنا إليك حتى نعرفك حسنا، وحتى نرعى عهدك حسنا، وحتى نحفظ وصيتك حسنا، اللهم سَوِّمْنَا سَيُمَاءَ الإيمان، وألبسنا لباس التقوى، اللهم نتوب إليك قبل الممات، ونُلَقي بالسَّلام قبل اللزَام، اللهم انظر إلينا منك نظرة تجمع لنا بها الخيرَ كله، خير الدنيا وخير الآخرة، (ثم يقف مالك عن كلامه، فيقول: أتحسبون أني

---

(٢٤٨) صحيح، وصححه الحاكم على شرط الشيخين وأقره الذهبي، ورجال إسناد الطبراني رجال الصحيح، انظر: الشوكاني: تحفة الذاكرين، حديث رقم ٥٧٨، ص ٤٣٠، وأورده الألباني في صحيح الجامع الصغير، وقال: صحيح، انظره كاملا فيه، المجلد الأول، ط ٣، حديث رقم ١٢٨٥، ص ٢٧٦.

(٢٤٩) الشوكاني: المصدر السابق، ص ٤٣١.

(٢٥٠) الإمام أحمد: الزهد، النسخة المحققة، رقم ٣٥٠، ص ١٥٢.

(٢٥١) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج ٣، ص ١٠٧.

أعني خير الدنيا: الدينار والدرهم؟ لا، إنما أعني: العمل الصالح)، حتى ألقاك يوم ألقاك، وأنت عني راضٍ، رغبة ورهبة إليك، يا إله السماء وإله الأرض. قال: ثم يبكي بكاء خفيفا، فنبكي معه، رحمه الله»(٢٥٢).

- اللهم نعوذ بك من قسوة القلب، وجمود العين.

- اللهم ارزقنا رقة القلب، ودمع العين في رضاك، وبارك في قلوبنا.

ولو كان هذا الدعاء، ومثله، في الصلاة، وفي وقت الصيام، وفي السحر، وبيقين من القلب، وصدق، وإخلاص، وتضرع، وتثبت من القلب، وشعور بالحاجة والفقر إلى الله..؛ لكان أنجح في اكتساب الرقة.

والتضرع إلى الله، وسؤالُه أن يلين القلوب مبني على أصل عَقدي صحيح، بالإضافة لاتباع سنة النبي ﷺ وهو اعتقاد أن الله وحده، هو الذي يلين القلوب، أو يشددها ويقسيها بحكمته وعدله، تأمل في قول النبي ﷺ كما رواه ابن أبي شيبة في المغازي، وأحمد، والترمذي، وحَسَّنَهُ، والطبراني، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في الدلائل، والسنن، عن ابن مسعود، في حديث أسرى بَدْر، قال: فخرج رسولُ الله ﷺ: فقال: «**إن الله ليلين قلوبَ رجال فيه؛ حتى تكون ألين من اللين، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه؛ حتى تكون أشد من الحجارة...**»(٢٥٣).

فاللهم لين قلوبنا حتى تكون ألين من اللين: لذكرك، ولكتابك، وعلى عبادك الصالحين، وعلى أطفالنا ونسائنا وجيراننا.. آمين.

ي- تقليل الضحك وتقليل الكلام المُبَاح:

وهذه تربية بالضِّدِّ، ويعين على ذلك التأمل في قول عطاء بن أبي رَبَاح: «إن مَنْ قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام: ما عدا كتاب الله، أو أمْرًا بمعروف، أو

---

(٢٥٢) إسناده حسن. انظر الإمام أحمد: الزهد، (المحقق)، رقم ١٩٣٠، ص ٥٤٢.

(٢٥٣) انظر: الشوكاني: فتح القدير،.. ج ٢ ص ٤٦٨، ٤٦٩ مع هامش المحقق، رقم (١).

نَهْيًا عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لابد لك منها، أتنكرون أن عليكم حافظين، كِرَامًا كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ؟! أما يستحيي أحدكم لَوْ نُشِرَتْ صحيفتُه التي أمْلَى صَدْرَ نهارِهِ - وليس فيها شيء من أمر آخِرَتِهِ ؟»(٢٥٤).

وممارسة هذه الآلية تحتاج لمجاهدة؛ لضبط القلب واللسان. (وإذا هممت بالنطق بالباطل، فاجعل مكانه تسبيحا).

ك- ممارسة كل وسيلة تساعد على ترقيق القلب: مما هو مُبَاحٌ؛ مثل:

١- قراءة كتب في رقة القلب، وعن أرقاء القلوب؛ مثل: أحاديث الرقاق في صحيح البخاري ومسلم، وكتاب الرقة لابن أبي الدنيا، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وكتاب الزهد للإمام أحمد.. إلخ، يقول ابن الجوزي: «واعلم أن القلوب لا تبقى على صفائها، بل تصدأ فتحتاج إلى جلاء، وجلاؤها النظر في كتب العلم»(٢٥٥).

٢- قراءة أشعار رقيقة لشعراء أرقاء القلوب، مثل شعر ابن رواحة، ومروان حديد، ويوسف القرضاوي، ومقطوعات الشعر الرقيق مثل:

كان لي قلبٌ أعيش به ... ضاع مِني في تقلُّبِهِ
رَبِّ فارْدُدْهُ عَلَيَّ فقد ... ضاق صَدْري في تَطَلُّبِهِ
وأغِثْ ما دام بي رَمَقٌ ... يا غياثَ المستغيث به(٢٥٦)

ومثل:

تنفَّسَ الشَّوْقُ في قلبي فصَعَّدَهُ ... كما تنفَّسَ جَرْيُ الماءِ في العُودِ
الله يعلم أني من مُحِبِّهِ ... لَمْ أبْقِ شيئا وقدْ بَلَّغْتُ مَجْهُودِي(٢٥٧)

---

(٢٥٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٨٦.
(٢٥٥) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، مصدر سابق، ص ٣٧٤.
(٢٥٦) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ١٩٧.
(٢٥٧) الجنيد البغدادي: الأعمال الكاملة، مصدر سابق، ص ٣٢٠.

ومثل:

القلب محترقٌ، والدمع مُستبِقٌ والكرب مُجتَمِعٌ والصَّبْرُ مُفْتَرِقُ
كيف القرار على من لا قرارَ له مما جناه الهوى والشوقُ والقَلَقُ
يا رب إن كان شيء فيه لي فَرَجٌ فامْنُن عَليَّ به ما دام بي رَمَقُ(٢٥٨)

ومثل:

بِبَابِك لَنْ أغادِرَهُ ولَنْ أسْعَى إلى غَيْرِك
سَأنْسِجُ بالرضا ثَوْبي وأشرُفُ أنني عِندَك
وأهتف في جبين الصبح حين يقال مَن ربُّك؟
إلهي فالق الإصباح أشرف أنني عبدك

ومثل:

أحزان قلبي لا تزول حتى أبشر بالقبول
وأرى كتابي باليمين وتقر عيني بالرسول(٢٥٩)

وأمثال هذا، قراءة واستماعا. وخصوصا إذا كان من منشد رقيق القلب، ولا يظنن أحد أن قصد ذلك مخالف للشرع؛ يقول ابن الجوزي: ومن ذلك أشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين، تزعج القلوب إلى ذكر الآخرة، ويسمونها الزهديات، كقول بعضهم:

ومثل:

يا غاديا في غفلة ورائحا إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفا يستنطق اللهُ به الجوارحا
يا عجبا منك وأنت (مبصر) كيف تجتنب الطريق الواضحا

(٢٥٨) المصدر السابق، ص ٣٢٥ عن السَّرِي.
(٢٥٩) من شعر مروان حديد، وينشده بصوت شجي (أبو مازن).

فهذا مُبَاحٌ أيضـًا. وإلى مثله أشار أحمـد بن حنبل في الإباحة، فيما أنبـأنا بـه أبو عبد العزيز (...وساق السند)؛ سمعت أبا حامد الخلفاني يقول لأحمـد بـن حنبل: يا أبا عبد الله، هذه القصائد الرقاق، التي فيهـا ذكـر الجنـة والنـار، أي شيء تقول فيها ؟ فقال: مثل أي شيء ؟ قلت: يقولون:

إذا مـــا قـــال لي ربي　　　أما استحييت تعصيني

وتخفي الـذنب مـن خلقـي　　　وبالعـــصيان تـــأتيني

فقال: أعِدْ علي، فأعدت عليه.فقـام ودخـل بيتـه، ورد البـاب، فـسمعت نحيبه من داخل، وهو يقول: إذا ما قال لي ربي (...)

«عن عبد الله بن أحمد؛ قال: كنت أدعو ابن الخبازة؛ قـصائدي، وكـان يقـول ويُلَحِّن، وكان أبي ينهاني عن التغني، فكنت، إذا كان ابن الخبازة عنـدي، أكتمـه عن أبي؛ لئلا يسمع، فكان ذات ليلة عندي، وكان يغنـي، فعرضـت لأبي عنـدنا حاجة، وكنا في زقاق، فجاء فسمعه يغني، فتسمَّع، فوقع في سمعه شيء من قوله، فخرجت لأنظر؛ فإذا بأبي ذاهبا، وجائيا، فرددت الباب ودخلت، فلما كـان مـن الغد؛ قال لي: يا بني، إذا كان هذا؛ نعم الكلام، أو معناه »، ثم ساق ابن الجـوزي أخبارا، ثم علل الاستماع لهذه القصائد بقوله: «فإنها توجب الرقة والبكاء»[٢٦٠].

وهذا أصل في وسائل تربية القلب الرقيق، يمكن تسميته بالحداء المربي.

٣- البقاء في المسجد، في صَفَاءٍ، وذكر الله، لِبَعْض الوَقْـتِ، وتأمـل كيـف مارس النبي ﷺ هذه الوسيلة مع وفد ثقيف، أخرج أحمد عـن عـثمان ابـن أبي العاصي؛ أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ فأنزلهم بالمسجد؛ ليكون أرق لقلوبهم[٢٦١].

---

(٢٦٠) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، مصدر سابق، ص ٢٥٧، ٢٧٩، ٢٨٥.

(٢٦١) إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقـم ١٧٨٣٧، ص ٥٤٤، وأخرجـه أبـو داود: سـنن أبي داود، ج٣، رقم ٣٠٢٦، ص ٩٩.

والاعتكاف في بيوت الله، بشروطه وآدابه، يحقق هذا الغرض الأساسي، إنه أخذ مسافة من الدنيا، وأخذ مسافة من النفس؛ للتأمل، والتصفية، والذكر.

٤- الاستماع لأشرطة تتعلق برقة القلب، ولقصص التائبين، ولدروس من دعاة أرقاء مؤثرين في القلوب، مثل الأشرطة الخمسة لأحمد القطان، عن القلب، من كتاب إغاثة اللهفان.. إلخ.

ل - الكون المربي لرقة القلب:

وقد جربت ذلك، وكان، ولا يزال، له أثر قوي في ترقيق قلبي، مع كل ما سبق، مشاهدة الزهور، والأشجار، على مجاري الماء، والطيور، وجريان المياه، ونور القمر، وساعات الشروق، والصبح إذا تنفس، وبدأت أنفاس الحياة تدب في الكائنات، وساعات الأصيل، وأوقات نزول المطر.. إلخ، وعندما قرأت قول سيد قطب- الآتي - قلت: صدقت، يقول- رحمه الله:

«ومشاهد القمر، والليل حين يدبر، والصبح حين يسفِر (...) مشاهد مُوحية بذاتها، تقول للقلب البشري أشياء كثيرة، وتهمس في أعماقه بأسرار كثيرة، وتستجيش في أغواره مشاعرَ كثيرة (...) وقَلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد القمر حين يطلع، وحين يسري، وحين يغيب، ثم لا يعي عن القمر شيئا يهمس له به من أسرار هذا الوجود ! وإن وقفة في نور القمر، أحيانا، لتغسل القلب كما لو كان يستحم بالنور، وقَلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد الليل عند إدباره، في تلك الهَدْأةِ التي تسبق الشروق، وعندما يبدأ هذا الوجود كُلُّهُ يفتح عينيه ويفيق (...) ثم لا ينطبع فيه أثرُ هذا المشهد، وتدب في أعماقه خطرات رَفَّافَةٌ شَفَّافَة. وقَلَّ أن يستيقظ قلب لمشهد الصبح عند إسفاره وظهوره، ثم لا تنبض فيه نابضة من إشراق وتفتح، وانتقال شعوري من حال إلى حال، يجعله أشد ما يكون صلاحية لاستقبال النور الذي يشرق في الضمائر، مع النور الذي يشرق في النواظر.

والله الذي خلق القلبَ البشري يعلم أن هذه المشاهد بذاتها تصنع فيه الأعاجيب في بعض الأحايين، وكأنها تخلقه من جديد»(٢٦٢).

فلنخرج في رحلات قمرية، وللحقول، وللأنهار، وعند الشروق، وعند الغروب، ولحدائق الشجر، والطيور، والأسماك، والحيوانات، والزهور..؛ لنربي قلوبنا تربية قرآنية كونية.. رقيقة.لنفتح قلوبنا للعالم.

م - اجتناب الأماكن القاسية:

وهذا يلحق بالإجراء التربوي السابق، وذلك بالبعد عن الأماكن الصلبة، والقاسية، مثل الجبال، والبوادي الخالية من الواحات، والشجر والماء،.. فَكُنَى البادية والجبال قد تقسي القلب وتكسب الإنسان الجفاء القلبي والنفسي، فقد أخرج أحمد؛ عن البراء: (مَنْ بَدَا جَفَا). وأخرج الطبراني عن ابن عباس: «من بدا جفا، ومن اتبع الصيد غفل، ومن أتى أبواب السلطان افتتن»(٢٦٣). وروى أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي؛ عن ابن عباس: قال: قال رسول الله ﷺ: **«من سكن البادية جفا..»** (الحديث)(٢٦٤).

وأخرج أحمد؛ عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من بدا جفا ومن تَبِعَ الصيد غفل..»**(٢٦٥). وبدا: سكن البادية. جفا: صار جافيا، غليظا،

---

(٢٦٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٦، مصدر سابق، ص ٣٧٦٠.

(٢٦٣) قال الألباني في كليهما: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٦١٢٣، ٦١٢٤، ص١٠٥٥.

(٢٦٤) قال الألباني: صحيح، المصدر السابق، رقم ٦٢٩٦، ص ١٠٧٩.

(٢٦٥) قال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، خلا الحسن بن الحكم النخعي، وهو ثقة». مجمع الزوائد (٥/ ٢٤٦) انظر: القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج٢، رقم ١٣١٢، ص ١٢٩، ورواه أبو داود في السنن، رقم ٢٨٥٩، الجزء الثالث، ص ٣٠، ورواه النسائي في السنن، ج ٧، ص١٩٥، ١٩٦، والترمذي: السنن، ج٣، كتاب الفتن، حديث رقم ٢٢٦٣، بلفظ: «من سكن البادية جفا،..» وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، ص ١١٣، عن ابن عباس، والبيهقي في الشعب، رقم ٩٤٠٣، والشوكاني: فتح القدير، ج٢، ص٥٦١، ٥٦٢.

قاسيا؛ لتأثير البيئة الشديدة في قلبه، ولبعده عن مجالس العلم والوعظ، وأسباب الرقة، وتليين القلب. فالرحلات الخلوية لترقيق القلب يستحسن أن تتجه للحقول، والغابات الخضر، والحدائق المزهرة، والبحار والأنهار، والبساتين، وتجمعات الطيور، وأن تبتعد عن الجبال الخالية الجرداء من الشجر والطير، والزرع، وعن البوادي الخالية من الواحات.. وينابيع المياه.

ن - التدرب على التقمص الشعوري الوجداني:

وقد ذكرت في فقرة الأسباب أنه طريق للتخلص من أمية القلب، وقسوته، وتبلده.

والتقمص العاطفي (Empathy): هو تعمق لمشاعر وآلام الآخرين، وتواصل انفعالي معهم، وَتَلَبُّسٌ بمشاعرهم، وهو القدرة على معرفة الخبرات الذاتية لشخص آخر.ويقوم على تقليد بدني، ومحاكاة داخلية لاكتراب شخص آخر، مما يولد نفس المشاعر، وهو أساس للتعاطف (Sympathey) والمشاركة الوجدانية، والعطف على الآخرين.

والتدريب على التقمص يقوم على:

١- الاقتداء بالمتعاطفين: (رؤية الوَلَدِ- مثلا - لأبيه وأمه والكبار، يتعاطفون، ويستجيبون لمشاعر الآخرين، تدعوه للتأسي بهم).

٢- تفهم مشاعر الآخرين، وتقبلها.

٣- التزامن الانفعالي، والتناغم الذي ينقل للآخر الإحساس أن الذي يتناغم معه يدرك مشاعره، ويشاركه فيها، مما يؤدي إلى الترابط الانفعالي العميق.

٤- محاكاة شعور الآخر.

٥- تزامن الاستجابة: فالتقمص لا يحدث إلا إذا تزامنت استجابة الجسدين والنفسين، فالتقمص يتطلب التفتح الكافي لاستقبال الإشارات الخفية لمشاعر شخص آخر، ومحاكاتها لدى المخ الانفعالي. فالتقمص: تمثل

لآلام شخص؛ ضحية، مما يغير الذهن والعاطفة.

٦- يقوم التقمص على مبدأ أن الانفعالات مُعْدِيَة، وأننا نلتقط المشاعر من بعضنا البعض، عن طريق المحاكاة الداخلية، وتقليد مشاعر وانفعالات الآخر، واستيعابها، وفهمها، والإحساس بها، والاستجابة لها(٢٦٦).

لماذا لا نتقمص- إذن؟ لماذا لا نتلبس بآلام الآخرين؛ لنربي قلوبنا؟ لماذا لا نتأمل في معاناة ومحن الآخرين وننظر بمناظرهم الشعورية، في وقت آلامهم، ونرق لهم؟

سيأتي في الفصل الرابع مواقف للرسول ﷺ وللمؤمنين، تدل على روعة مبهرة، في ممارسة هذه القيمة، حتى مع حُمَّرَةٍ (طائر)، وحمار، وهرة، وكلب، ونَمْلَةٍ.. فكيف مع بشر؟!

انظر إلى طفل ضَرَبْتَهُ بقسوة، ونهرته، وأبكيته، وأجريت من عينيه الدموع، وجعلته يشهق من البكاء والألم المر، وضع نفسك مكانه، أحس بإحساسه، تألم بألمه، اشعر بشعوره.. ماذا تجد ؟ استمر.

س - هذا هو النهج الذي اخترته لتربية الرقة والرحمة في القلب، والتخلص الجذري من القسوة والغلظة. وبه يكتسب الإنسان قيمة من أهم القيم، ويحصل هدفا تربويا من أهداف تربية القلب في الإسلام.

وهذا الفصل هو نصف الطريق لتربية القلب الرقيق، والنصف الثاني هو الأكبر، ونتناوله في فصل مستقل هو الفصل الرابع: (تربية القلب الرقيق الرحيم)، مع جملة عظيمة من أحاديث القلوب.

ثامنا: خاتمة واستنتاجات

يتبين، من تحليل مادة هذا الفصل ما يأتي:

أ- أن القسوة والغلظة والتبلد مرض قلبي خطير، مؤثر في المشاعر،

---

(٢٦٦) دانيال جولمان: ذكاء المشاعر، مرجع سابق، ص ٢٠١ - ٢٢٧، ٢٣٦ - ٢٤٢.

والأفعال، والسلوكيات.وأن الرقة قيمة إسلامية مقابلة للقسوة.

ب - أن النبي ﷺ حث على التخلص من القسوة، وعلى التخلق والاتصاف بالرقة، وأن القسوة تمثل أشد عقوبة يصاب بها القلب، وأنها ذات خطورة متعددة الأبعاد.

جـ- أن الصالحين الراغبين في سلامة القلب، وصلاح الأخلاق، يحرصون على اكتساب الرقة، والتخلص من القسوة.

د - أن مفهوم القسوة يعني: الغلظة والجفاف، واليُبْس، والجمود، والصلابة، والجفاء، والتبلد الشعوري، وأمية القلب، والصمم الانفعالي، وفقدان الرحمة، والنداوة. ويعني: رقة الإحساس والشعور، والذوق.وأن للقسوة أعراضا في النفس والأخلاق، والعقل، في الفرد والمجتمع.

هـ - أن للقسوة أسبابا وعوامل ذاتية، وتربوية؛ ثقافية اجتماعية، تتحدد في نقض العهد والميثاق مع الله، وإشراب القلب حب الإثم؛ ظاهره وباطنه، وطول الأمد، والغفلة عن الوحي الإلهي، والموعظة، وانغماس هموم القلب في أودية الدنيا، والاسترسال في الأمل الدنيوي، دون ذكر الله، وذكر ما بعد الوجود، وذكر المصير والجزاء الأخروي، والثرثرة، وكثرة الكلام الفارغ من المنفعة، وكثرة الصياح والجدال، وكثرة الضحك والاسترسال فيه، وكثرة الأكل والتخمة والبطنة، وأكل الحرام، والإنفاق من الحرام، وصحبة قساة القلوب، والعيش في ثقافة قسوة، وفي بيئة قاسية.

و- أن هناك مبادئ أربعة لتربية رقة القلب، والتخلص من قسوته؛ وهي: الإيمان بإمكان اكتساب الرقة، وإزالة القسوة، ومبدأ اشتهاء وإرادة الاتصاف بالرقة، وبغض القسوة، ومبدأ المعالجة بالضد، ومبدأ المبادرة الفورية للمداواة واكتساب الرقة.

ز- أن هناك عوامل وآليات تربوية، ذاتية وجماعية، واجتماعية، لاكتساب الرقة والرحمة، والتخلص من القسوة والغلظة، وهي كلها تمارس بجهد ذاتي مشغوف باكتساب هذه القيمة، وهي: تجديد ميثاق الإيمان بالله؛ بتربية الإيمان وتجديده في القلب، إخراج حب المعصية من القلب، قراءة القرآن بالتفكر والتخشع والتأثر، والتكيف.التفكر، زيارة القبور وحضور الجنائز وتوقع الموت، وعيادة المرضى، مجالسة أرقاء القلوب والصالحين، والاستماع لكلامهم ووعظهم، أكل الحلال والإنفاق من الحلال، الصوم لله وتقليل الطعام، العطف على اليتامى والمساكين، وخدمتهم، ذكر الله، والدعاء والتضرع لله أن يرقق القلب، ويزيل القسوة، ويعيذنا منها، تقليل الضحك، وتقليل الكلام المباح والصياح والجدال، قراءة كتب الرقائق وسير الأرقاء، وأشعارهم، مثل ديوان هدية الحجاز لإقبال، الصلاة في المسجد، والمكث فيه لبعض الوقت بذكر وتفكر، الرحلات الخلوية القمرية، وللحقول، والأنهار.. مع تذوق جمال الكون، والتفكر في آلاء الله فيه، التقمص الوجداني المربي لرقة الشعور، والتعاطف مع ذوي المحن والكروب.

ح - أن اكتساب رقة القلب، والتخلص من قسوته، قيمة أساسية في منظومة قيم تربية القلب، وتعين هدفا تربويا أساسيا في منظومة أهداف التربية الإسلامية، عموما، وتربية القلب، خصوصا، وبناء عليه فهي تحتاج لاهتمام جديد، وتخطيط تربوي سليم؛ لإكسابها لكل مسلم ومسلمة، عبر الأسر، والمساجد، والدعاة، والدورات، ووسائل الاتصال، والكتاب،.. إلخ، ومن خلال توظيف الآليات التربوية السابقة، وإعمال المبادئ الأربعة لتربية رقة القلب.

ط - أن هذه القيمة تبين طبيعة تربية القلب المسلم ووجهته، إنها تربية إنسان حي القلب، حسّاس الشعور، رقيق الإحساس، ذي وعي قلبي،

فالشخص المسلم، الذي تربى هذه التربية، هو شخص رقيق القلب، عطوف، رحيم.

وإنني أهتم جدا بهذه القيمة؛ لأن قسوة القلب تعتبر علة خطيرة للتدين المغشوش، مثل تدين الخوارج، وبقاياهم، ومَنْ هُم على نهجهم، ممن يمارسون المغالاة، والقسوة، والعنف على عباد الله، المسلمين وغيرهم، فأحد عوامل العنف الرمزي والبدني، سواء في البيوت؛ (ضد الأطفال، ضد المرأة)، أو في المجتمع العام؛ (القتل، العنف ضد الجيران، السرقات، الاغتصاب، خشونة السلوك في المواصلات، صياعة كثير من الشباب، شغب بعض الطلاب، معاكسات الشوارع، قبح الكلام، لغة السباب والشتم.. إلخ)، أو في (بعض المتدينين)؛ (تكفير، تبديع، اغتياب - هجوم شرس على بعض الدعاة المسلمين،..)، إن كل هذه المظاهر التي تمارس، فعلا، للأسف، أحيانا، تَدَيُّنا! إنما تعود كلها إلى قسوة القلب، وافتقاد الرقة والرحمة، ومن هنا فإن تربية الرقة وتخليص القلب من القسوة هو عمل إصلاحي تربوي، في صميم تغيير ما بالأنفس، لتصحيح مسار (بعض الحركات) الإسلامية، عموما، ولبناء الشخصية المسلمة بناءً قلبيا سليما، وبالتالي: التوجه نحو العمل التغييري توجها رشيدا، على أساس صحيح.

ي - أن مسؤولية تربية قيمة الرقة مسؤولية ملزمة، على الآباء والأمهات في البيوت والعائلات، وعلى الدعاة والوعاظ في المساجد، والمدرسين في المدارس والجامعات، والإعلاميين، والشعراء، والكتاب، وطلائع التغيير والإصلاح الإسلامي الشامل، والمربين في التجمعات الإسلامية المتعددة، وعلى كل هؤلاء، أن يتأملوا هذا الفصل والفصلين الآتيين، وأن يعملوا بما فيها، أو بما يوافقها، في كل مناحي تعاملاتهم، وأن يشِيعُوا مضمونها؛ لبناء ثقافة رقة ورحمة يتشربها الناشئون، للوصول إلى مجتمع الرقة والرحمة

والتعاطف، المُتَخَلِّص من القسوة وأعراضها الخطيرة.

والحركة الإسلامية ـ بالذات ـ عليها واجب ملزم في التخطيط التربوي لإكساب رجالها ونسائها رقة القلب، من خلال برامج التربية الدائمة في فعالياتها التربوية، ومن خلال الدورات التربوية ـ دورة اليوم الواحد ـ ومن خلال الاعتكافات،.. إلخ، ومن خلال الفاعلين الثقافيين، أي: الدعاة والمدرسين المسلمين على وجه العموم.

ك - هذا الفصل جزء من تربية الرقة والرحمة في القلب.وله نصف ضروري نفصله في الفصل الرابع والخامس، بعون الله وتوفيقه.

تاسعا: أسئلة لتعميق الفهم، وتسهيل الممارسات:

١ - حَدِّد مفهوم القسوة، وأعراضَها؛ وخطورتها في الذات، والمجتمع.

٢- وضِّح كيف اهتم الصالحون بهذا المرض الخلقي الخطير؟ وكيف سعوا للتخلص منه ؟ هل لك تجربة تحكيها في هذا؟

٣- حَلِّل الأسباب الذاتية، والثقافية الاجتماعية، المسببة للقسوة. ثم اكتب قائمة بأسباب وعوامل القسوة، التي ترى أنها متحققة فيك.

٤- تخيّر شخصا (متدينا) ترى أنه يتحقق (بالقسوة) في جانب أو أكثر، ثم حلِّل شخصيته، محددا عوامل القسوة، ومظاهرها في هذه الشخصية.وبين حكم الله في ذلك.

٥- ما المبادئ الأربعة لتربية رقة القلب، والتخلص الناجح من القسوة؟ هل تلتزم بها ؟

٦- حدِّد ـ تفصيلا- الآليات التربوية لاكتساب الرقة.

٧- اكتب قائمة مفصلة بما تمارسه - فعلا - من هذه الأساليب والآليات التربوية، وناقشها مع نفسك، ومع بعض أصحابك المهتمين.

٨- هل تعرف شخصا تتحقق فيه الممارسة الصحيحة لهذه الأساليب التربوية المكسِبة للرقة؟ حددها كما تراها فيه.

٩- اشرح قول الحسن البصري: «إن الرجل لتبكي عيناه، وإنه لقاسي القلب»[٢٦٧].

١٠- ماذا يقصد القائل: «ميراث الذكر، لغير ما يوصل إلى الله: قسوة في القلب» ـ بهذا القول ؟ هل تجد شخصا يذكر الله بلسانه، أو يُعلِّم العلم، وهو قاسي القلب ؟ حدِّد السبب.

١١- اشرح قول الحسن البصري الآتي:

«حادثوا هذه القلوب بذكر الله، فإنها سريعة الدّثُور (البِلَى، والانمحاء، والتقادم) واقْدَعُوا (امنعوا) هذه الأنفس؛ فإنها طُلَعَة (كثيرة التطلع لإشباع شهواتها)، وإنما تنْزِعُ إلى شَرِّ غاية، وإنكم إن تطيعوها في كل ما تنزع إليه لا يُبْقِي لكم شيئا»[٢٦٨]. قال ابن الأثير: وفي حديث الحسن: «حادثوا هذه القلوب بذكر الله»، أي: اجلوها، واغسلوا الدَّرَنَ عنها، وتعاهدوها بذلك»[٢٦٩].

١٢- اسْتخرج كل حديث فيه لفظ القلب، أو الصدر، في هذا الفصل، وتفكر فيه، واحفظه، وبلِّغه لصاحب لك.

١٣- اسْتخرج كل دورة روحية، وكل تجربة، يمكن ممارستها، وعقدها؛ لاكتساب رقة القلب، وإزالة القسوة، من هذا الفصل، وحدد كيف تمارسها أنت، وكيف نمارسها في فعل تربوي جماعي.

---

(٢٦٧) عبد الله بن المبارك: كتاب الزهد والرقائق، رقم ١٢٧، ص ٤١.

(٢٦٨) المصدر السابق، رقم ٢٦٨، ص ٩١، ورواه ابن أبي الدنيا بتصحيفات وألفاظ مختلفة، انظر: ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس، رقم ٦٣، ص ٦٢.

(٢٦٩) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ١، ص ٣٥١.

١٤- ضع مخططا لدورة تربوية لمدة يوم واحد، لإكساب رقة القلب لمن يحضرها، مستخدما مادة هذا الفصل.

١٥- عَلِّق على قول المحاسبي: «وصلاح القلب: الرأفة والرقة، وفساد القلب: القسوة والغلظة»[٢٧٠].

١٦- ما الفكر التربوي المستخلص من هذا الفصل؟ «ماذا نربي؟ لماذا نربي؟ بماذا نربي؟ أين نربي؟ مَنْ يُرَبِّي؟ مَنْ نُرَبِّي؟ ما طبيعة تربية القلب الرقيق؟ ما دلالة ذلك في بيان وجهة الإسلام؟ ما مدى التزام واقعنا التربوي في الأسر، في المساجد، في المدارس.. إلخ، بهذه القيمة؟ ماذا تقترح لإصلاح واقعنا التربوي في الحركة الإسلامية، لممارسة تربية رقة القلب؟».

١٧- تذوق النص الآتي:

عن بلال بن أبي الدرداء؛ أنَّ أمَّهُ عُثَامَة، كُفَّ بَصَرُهَا، فدخل عليها ابنها يوما؛ وقد صلى، وقالت: أصليتم، أي بُنَـيّ ؟ قال: نعم. فقالت:

عُثامُ مَالِكِ لاهِيَهْ ... حَلَّتْ بدارك دَاهِيَهْ!
ابْكِ الصلاة لِوَقْتِهَا ... إن كنتِ يومًا باكيهْ
وابكِ القُرانَ إذا تُلِي ... قَدْ كنت يوما تالِيَهْ
تتلينه بتفكر ... ودموعُ عَيْنِكِ جارِيَهْ
فاليوم لا تتلينَه ... إلا وعندك تاليَهْ
لهفي عليكِ صبابَة ... ما عشتُ طولَ حَيَاتِيَهْ[٢٧١]

ما رأيك ؟

والحمد لله رب العالمين

---

(٢٧٠) المحاسبي: آداب النفوس، مصدر سابق، ص ١٥٣.

(٢٧١) إسناده حسن إلى عثامة، الإمام أحمد: الزهد، رقم ٩٥٨، ص ٣١٢.



الفصل الرابع

تربية
القلب الرقيق الرحيم

تربية القلب الرقيق الرحيم

أولا: نصوص الأحاديث النبوية:

أ - أخرج الإمام مسلم؛ عن قتادة، عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير، عن عياض بن حمار المُجاشعي؛ أن رسول الله ﷺ قال، ذات يوم في خطبته: **«ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني، يومي هذا؛ كل مال نَحَلْتُه عبدا: حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض؛ فَمَقَتَهُم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما ابتعثتك؛ لأبتليَك، وأبتليَ بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه نائما ويقظان، وإن الله أمرني أن أحرق قريشا، فقلت: رب، إذا يَثْلَغُوا رأسي؛ فيدعوه خُبْزَةً، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم؛ نُغْزِكَ، وأنفق؛ فسننفق عليك، وابعث جيشا؛ نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مُقْسِط مُتصدِّق مُوَفَّق، ورجل رحيم، رقيق القلب، لكل ذي قربى، ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له؛ الذين هم فيكم تبعا، لا يبتغون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يَخْفَى له طَمَعٌ، وإن دقَّ، إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي؛ إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك»**، وذكر البخل، أو الكذب، و**«الشِّنظير؛ الفاحش»**. وله روايات، ذكرها مسلم(١).

---

(١) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، مصدر سابق، رقم ٢٨٦٥، ص ٣٩٤ - ٣٩٨، وفي نسخة: **«لا يبتغون أهلا ولا مالا»**. وهي هكذا في: الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ٢٦٣٧، ص ٥١٤، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧ (المطبعة المصرية ومكتبتها)، ص ١٩٧ - ١٩٩.

وأخرجه أحمد؛ من طريق يحيى بن سعيد؛ ثنا هشام، ثنا قتادة، عن مطرف، عن عياض بن حمار، أن النبي ﷺ خطب، ذات يوم، فقال في خطبته: «**إن ربي، - عز وجل، أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني، يومي هذا، كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا. ثم إن الله- عز وجل، نظر إلى أهل الأرض؛ فمقتهم؛ عجميهم وعربيهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما ابتعثتك؛ لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه؛ نائما ويقظانا، ثم إن الله، عز وجل، أمرني أن أحرق قريشا، فقلت: يا رب، إذًا يثلغوا رأسي؛ فيدعوه خبزة، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، فاغزهم؛ نغزك، وأنفق؛ فسننفق عليك، وابعث جندًا؛ نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك. وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان، مقسط، متصدق، موفق، ورجل رحيم، رقيق القلب؛ بكل ذي قربى ومسلم، ورجل فقير عفيف متصدق. وأهل النار خمسة: الضعيف، الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبعًا، أو تبعاء - شك يحيى - لا يبتغون أهلًا ولا مالًا، والخائن، الذي لا يخفى عليه طمع، وإن دقَّ، إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك**». وذكر البخل، والكذب، والشِّنظير: الفاحش[٢]. ورواه أحمد من طريق عبد الرزاق؛ ثنا معمر، عن قتادة، عن مطرف.. وفيه: «**وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبع، لا يبتغون أهلًا ولا مالًا**»[٣]. ورواه أحمد، حدثنا عفان، حدثنا همام، ثنا قتادة، ثنا العلاء بن زياد العدوي، حدثني يزيد، أخو

---

(٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٧٤١٤، ص ٣٨٧، ٣٨٨.

(٣) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٥٤، ص ١٤٣، ورواه الطبراني: المعجم الكبير، مجلد ١٧، رقم ٩٨٧، ص ٣٥٨، ٣٥٩، ورقم ٩٩٢، ص ٣٦٠، ٣٦١، ورواه عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ١١، رقم ٢٠٨٨، ص ١٢٠، ١٢١

مطرف، قال: وحدثني عقبة، كل هؤلاء يقول: حدثني مطرف، أن عياض بن حمار، حدثه، أنه سمع النبي ﷺ يقول في خطبته: «**إن الله- عز وجل- أمرني أن أعلمكم ما جهلتم..**»، فذكر الحديث، وقال: «**الضعيف الذي لا زبر له، الذين هم فيكم تبع، لا يبتغون أهلا ولا مالا..**»، وقال: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان، مقسط، مصدق، موفق، ورجل رحيم، رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم، ورجل عفيف، فقير، متصدق**»(٤).

ب - أخرج الإمام مسلم، بإسناده، عن عمران بن حصين؛ قال: «وذكر الحديث.. وفيه: وكان رسول الله ﷺ رحيما، رقيقا». الحديث(٥)

وأخرج أحمد؛ عن مالك بن الحويرث؛ قال: أتينا رسول الله ﷺ ونحن شببة متقاربون، فأقمنا معه عشرين ليلة، قال: وكان رسول الله ﷺ رحيما رقيقا، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عمن تركنا في أهلنا، فأخبرناه، فقال: «**ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم..**»، الحديث(٦).

وأخرجه البخاري، عنه؛ وفيه: «فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله ﷺرقيقا..»(٧)، وفي رواية أخرى للبخاري: وكان رفيقا رحيما؛ فقال: «**ارجعوا إلى أهليكم، فعلموهم ومروهم..**». يقول ابن حجر(٨): «رقيقا؛ بقافين، وبفاء ثم قاف، ثبت ذلك عند رواة البخاري، على الوجهين، وعند رواه مسلم: بقافين، فقط، وهما متقاربان في المعنى المقصود، هنا» . وأخرجه مسلم، وفيه: وكان رسول الله ﷺ رحيما رقيقا، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا.

---

(٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٥٦، ص ١٤٣ - ١٤٤.
(٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٥، رقم ١٦٤١، ص ٣٩٠،٣٩١.
(٦) إسناده صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٥٣٥، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤.
(٧) ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١٣، رقم ٧٢٤٦، ص ٢٣١، والرواية التالية في المتن: ج ١٠، رقم ٦٠٠٨، ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .
(٨) المصدر السابق، ج ١٣، ص ٢٣٦ .

الحديث[٩].

جـ - أخرج الإمام أحمد، عن عائشة، من حديث طويل، قالت عائشة: «يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، لا يملك دمعه، وإنه إذا قرأ القرآن؛ بكى..»[١٠]. ورواه مسلم، عن عائشة، وفيه: «فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه..»[١١].

د - أخرج البخاري ومسلم؛ عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ **«أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبا، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل. والسكينة والوقار في أهل الغنم»** . وأخرجه البخاري، عنه، عن النبي ﷺ قال: **«أتاكم أهل اليمن، أضعف قلوبا، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية»**. كلاهما من لفظ البخاري[١٢]

وأخرج مسلم أن أبا هريرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وأضعف قلوبا..»** الحديث، وأخرجه، عنه، بلفظ: **«أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبا، وأرق أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية..»**[١٣].

وأخرجه عبد الرزاق، عنه، وفيه: **«أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوبا..»**[١٤].

---

(٩) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٢، رقم ٦٩٤، ص ٦٤٩، ورواه النسائي: سنن النسائي، ج ٢، رقم ٦٣٥، ص ٨.

(١٠) إسناده صحيح، المسند، ج ١٧، رقم ٢٣٩٤٣، ص ٢٢٠، وله روايات كثيرة في المسند.

(١١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٢، رقم ٤١٨، ص ٣٢٥، وفي حديث لمسلم عنها: «وكان رجلا رقيقا..» نفس المصدر، ص ٣٢٠.

(١٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٨، رقم ٤٣٨٨ ورقم ٤٣٩٠، ص ٩٨، ٩٩، إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، رقم ٨٢، ٨٤، ٨٩، ص ٢٩٨، ٣٠١.

(١٣) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، رقم ٨٩، ٩٠، ص ٣٠١، ٣٠٢.

(١٤) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ١١، رقم ١٩٨٨٨، ص ٥٢.

وأخرج أحمد؛ عن أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ : «**يقدم عليكم أقوام، هم أرق منكم قلوبا**» . قال: فقدم الأشعريون، فيهم أبو موسى الأشعري، فلما دنوا من المدينة؛ كانوا يرتجزون؛ يقولون:

غدا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه[١٥]

وأخرجه، أيضا، عن أنس؛ وفيه: «يقدم عليكم، غدا، أقوام، هم أرق قلوبا للإسلام منكم». وساق الحديث، قريبا من السابق، وزاد: «**فلما أن قدموا؛ تصافحوا، فكانوا هم أول من أحدث المصافحة**»[١٦]. وأخرجه عن أنس؛ بلفظ: «**يقدم عليكم أقوام، أرق منكم أفئدة..**»[١٧]. وفي رواية له: «**وهم أرق قلوبا منكم، وهم أول من جاء بالمصافحة**»[١٨].

وأخرجه أحمد؛ عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفقه يمان**»[١٩]. وفي رواية له، عنه: «**أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبا، وأرق أفئدة**»[٢٠].

وأخرج الطبراني؛ عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: «**أهل اليمن؛ أرق قلوبا، وألين أفئدة، وأسمع طاعة**»[٢١]. وأخرجه، عن ابن عباس؛ من حديث أهل اليمن: «**قوم رقيقة قلوبهم، لينة قلوبهم**»[٢٢].

---

(١٥) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٩٦٥، ص ٣٣٦ .
(١٦) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١٢٥٢٠، ص ٥٠٢ ، ٥٠٣ .
(١٧) إسناده صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٢٨٠٧، ص ٢٨.
(١٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٣١٤٥، ص ١١٧، وقال الألباني: صحيح، انظر: الأدب المفرد بتحقيق الألباني، رقم ٩٦٧، ص ٣٤٨.
(١٩) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٧، رقم ٧٢٠١، ص ٥٠ .
(٢٠) إسناده صحيح، المسند، ج ٧، رقم ٧٤٢٦، ص ٢٣٨، وانظر نفس الجزء رقم ٧٦١٦، ص ٣٦٥، ورقم ٧٧٠٩، ص ٤٣٩، والألباني: صحيح الجامع الصغير..، ج ١، رقم ٥٣، ٥٤، ص ٧١ .
(٢١) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ٢٥٣٠، ص ٤٩٦، وفي السلسلة الصحيحة برقم ١٧٧٥، والمجلد الثاني برقم ٥٢٧، ص ٤٣ ، ٤٤ .
(٢٢) الطبراني: المعجم الكبير، ج١١، رقم ١١٩٠٣، ص ٢٦٠، بأسانيد، أحدها رجاله رجال الصحيح .

ثانيا: تمهيد:

١- هذه أربع مجموعات من الأحاديث الصحيحة، عن الرحمة والرقة واللين، في القلب.

في المجموعة الأولى: يبين النبي ﷺ أن من أعمال أهل الجنة، وأسباب دخولها: رحمة القلب، ورقته، لكل ذي قربى ومسلم، مما يثبت أن رحمة القلب ورقته قيمتان ممدوحتان مستحبتان، يرغّب فيهما النبي ﷺ؛ ليربي في قلب المؤمن إدراكا لأثرهما، وحبا وشوقا للاتصاف بهما.

وفي المجموعة الثانية: إشارة قوية للنموذج الكامل لتطبيق خلق الرحمة والرقة والرفق والشفقة في الجنس البشري، وأنموذجها الإنساني، وهو النبي محمد رسول الله؛ ليقتدي به المسلم، ويتأسى.

وفي المجموعة الثالثة: بيان لاتصاف أرحم الأمة، بعد رسول الله؛ سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بقيمة الرقة، التي تبعثه على الخشوع في التلاوة، والتأثر العميق بالقرآن، فلا يملك دمعه وبكاءه، عند قراءة القرآن، والصلاة .

وفي المجموعة الرابعة: تنويه مقصود من النبي ﷺ بفئة مؤمنة من أهل اليمن، اتصفت، أكثر من غيرها، بلين القلب ورقته، وشدة محبة قلوبهم للإسلام، ولرسول الله، محمد، ولأصحابه، وفقه قلوبهم، وحكمتهم، وإيمانهم؛ ليتخذهم المسلمون أسوة في هذا الجانب.

٢- وهذا التنويه والمدح لهذه الفئة المؤمنة من أهل اليمن أسلوب تربوي؛ لتوجيه أنظار المؤمنين إلى أن هذه القيم: رقة القلب، لين القلب، فقه القلب، حكمة القلب، وإيمان القلب، هي قيم ممدوحة، محبوبة، مطلوب الاتصاف بها، من كل مسلم ومسلمة، فيبين النبي ﷺ النموذج المشع؛ ليتأسى المؤمنون، ويقتدوا؛ لأن هذا مما يحبه ويثني عليه، وهذا أسلوب تربوي؛ لتحريك إرادة القلب لممارسة هذه القيم.

٣- ونلاحظ أن روايات الحديث نسبت الرقة للقلب وللفؤاد، ونسبت اللين للقلب وللفؤاد، مما يدل على أن الرقة واللين وصفان للقلب، الذي هو الفؤاد .

وسنفصل ذلك، وكيف نربيه في القلب، في أول الفصل الخامس، بإذن الله.

٤- ونركز في هذا الفصل على الحديث الأول، فنقدم شرحا مختصرا له، ثم نحلل مفهوم الرحمة، وعلاقتها بالرقة، ثم نبين أن الله يخلق الرحمة في القلب، وهو الذي ينزعها منه، ثم نحلل أبعاد قيمة الرحمة، ونبين، أخيرا، كيف نكتسب هذه القيمة؟ وما الأساليب التربوية لتنميتها في القلب والاتصاف بها؟ وفي نهاية كل قيمة فرعية نبين كيف نتصف بها؟ ونختم الفصل بخلاصة استنتاجية، ونقدم أسئلة وأنشطة؛ لزيادة الفهم، وتسهيل الممارسات .

ثالثا: شرح مختصر لحديث: «إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم..»:

هذا حديث عظيم الشأن، وسأشرحه شرحا موجزا، ثم أفصل النص الخاص بقيمة الرحمة والرقة في الفقرات التالية.

أ- قول النبي ﷺ: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا»:

١- التعليم مقوم رئيس من مقومات الوظيفة التربوية للنبي ﷺ كما بينا في تمهيد هذا الكتاب، وهي تستهدف تنمية شخصية مسلمة؛ عقلا، وقلبا، وروحا، ونفسا، وجسما، وخلقا فرديا، واجتماعيا: في كل جوانب السلوك الاجتماعي، وبيئيا، وجماليا، وزمنيا، وسياسيا، ولغويا، واقتصاديا. أي: تغيير وجهة الشخصية الإنسانية في كل هذه الجوانب، بحيث تنطلق من الإيمان بالله، وعبادته وحده.

٢- ومقصدنا، هنا: بيان أن النبي ﷺ يمارس، في هذا الحديث، بأمر الله، تعليم المؤمنين به ما جهلوه، أو بعض ما جهلوه، لينقلهم إلى المعرفة، ومن ثم

إلى العمل بما عرفوه.

فالنبي ﷺ ينبه المؤمنين؛ بأداة التنبيه: (ألا)؛ لتلتفت إليه عقولهم، ليتنبهوا إلى تعليمه؛ لأنه تعليم مهم وضروري، إذ إن الله- سبحانه وتعالى- هو الذي أمر النبي ﷺ أن يعلم، فهو تعليم مفروض، بأمر الله، ومضمون هذا التعليم حيوي وضروري، ولذلك أكد الأمر بالتعليم بحرف: (إن)، وبين أن الذي أمر به هو (ربي)؛ الذي رباني، وزودني بكل ما ينميني، ويصلحني، ويكملني؛ عقلا، وخلقا، وقلبا، وروحا، وجسما، فرديا واجتماعيا، بيئيا وزمنيا، وجماليا، وسياسيا، في عالم الشهادة وعالم الغيب، دنيويا وأخرويا.

ومضمون أمر الله، هنا، هو أن يعلم النبي المؤمنين به ما جهلوه، أي: أن يكسبهم العلم الذي يزيل جهلهم، ويجعلهم بشرا عالمين، عارفين، واعين، مما أراد الله أن يعلمهم، في هذا اليوم، الذي خطب فيه، فعلمهم العلم الذي يأتي، بعد، في الحديث، وهو علم يتضمن عقائد صحيحة، وقيما ضرورية ملزمة، توجه المؤمنين في تصرفاتهم الفردية والاجتماعية.

٣- فقول النبي ﷺ: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم..**»؛ أي: انتبهوا، أيها المؤمنون، أن الله الذي خلقني، ورزقني ورباني، أوجب عليَّ أن أعلمكم؛ العلم الذي يزيل جهلكم، فيجعلكم متعلمين واعين، وذلك بأن أعطيكم علما، مما علمني الله بالوحي، (يومي هذا)؛ أي: في هذا اليوم الذي أخاطبكم فيه.

٤- فالتعليم واجب على كل عالم، وهذا التعليم يدل على رحمة الله بالأمة، ورحمة النبي بها، حيث قام بواجب التعليم أحسن قيام؛ لأن الجهل ظلمة، وقبح، وفساد وشر. والتعليم النافع: نور، وجمال، وإصلاح، وخير. وعلى كل عالم أن يقوم بالإنارة والتنوير، والإصلاح؛ بتعليم العلم والخير، فذلك فرض

كفاية على المسلمين[٢٣].

ب - قوله تعالى: «**كل مال نحلته عبدا حلال**»، وفي رواية أحمد: «**نحلته عبادي**»، أي: قال الله تعالى، فيما أمرني أن أعلمكم إياه: «**كل مال**»، وهذا مضاف ومضاف إليه، يشمل كل أنواع المال الذي يُتَملك، ويُتَمول، «**نحلته**»؛ أعطيته، ومنحته، عبدا من عبادي، مما لا حق فيه لأحد، وليس هناك سبب يحرمه، فهو حلال له، قال المازري: «والقصد: أن ما خلقه الله - سبحانه - في الأرض، وغيرها، مما ينتفع الناس به، فإنه حلال..»[٢٤].

ويقول النووي: «أي: قال الله - تعالى: كل مال أعطيته عبدا من عبادي، فهو له حلال، والمراد: إنكار ما حرموا على أنفسهم؛ من السائبة، والوصيلة، والبحيرة، والحامي، وغير ذلك، وأنها لم تصر حراما بتحريمهم. وكل مال ملكه العبد فهو له حلال؛ حتى يتعلق به حق»[٢٥]. فالله هو الذي يحل ويحرم، وقد أحل لعباده أن يتملكوا، ويتمولوا الأموال، فهي لهم حلال، وليس لهم أن يحرموا فيها بدون شرع، أو إذن، من الله؛ ماداموا تملكوها بطريق حلال، ولا يتعلق بهذه الأموال حق من حقوق الغير، فإذا كان الأمر كذلك؛ فالمال حلال له، ولا يصح تحريم شيء منه، سواء حرمه الإنسان على نفسه، أو حرمه عليه الآخرون، فالمال لا يصير حراما بتحريم الإنسان له، بل بتحريم الله وحده، فهو المشرع، ابتداء، لمصلحة العباد.

جـ - قوله تعالى: «**وإني خلقت عبادي حُنَفاءَ كلَّهم**»: هذا أصل عقدي مهم جدا لتصورنا للإنسان، وهو أن الله خلق كل إنسان حنيفا، أي: مائلاً عن

---

(٢٣) انظر تفصيل ذلك في: عثمان عبدالمعز رسلان: دستور المعلمين، ط ١، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، ٢٠٠٠م، الفصل الأول.

(٢٤) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، ص ٣٩٤.

(٢٥) الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧، ص ١٩٧.

الشرك إلى التوحيد، مستعدا لقبول الهداية، والاستقامة على دين الله، وهذه هي الفطرة، أي: الخِلقة التي خلقهم الله عليها؛ من توجه العقول لمعرفة الله، والإقرار به، كما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟**»(٢٦).

وأخرجه مسلم؛ من طريق الزهري، أخبرني سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرة، أنه كان يقول: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا، إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، وفي رواية لمسلم: «**ما من مولود يولد إلا وهو على الملة**». وفي رواية له: «**إلا على هذه الملة، حتى يبين عنه لسانه**». وفي رواية له: «**ليس من مولود يولد إلا على هذه الفطرة، حتى يعبر عنه لسانه**». وفي رواية له: «**من يولد يولد على هذه الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، كما تنتجون الإبل، فهل تجدون فيها جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها،...**»، وفي رواية له: «**كل إنسان تلده أمه على الفطرة، وأبواه، بعد، يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه،..**»(٢٧) الحديث.

وأخرجه أحمد بروايات، منها: «**ليس مولود يولد إلا على هذه الملة**»، وقال وكيع، مرة: «**على الملة**». ومنها: «**ما من مولود يولد إلا على هذه الملة، حتى يبين عنه لسانه، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يشركانه،..**» الحديث(٢٨).

---

(٢٦) هذه رواية البخاري، انظر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١١، رقم ١٣٨٥، ص٢٤٥، ٢٤٦

(٢٧) هذه الروايات كلها في: القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، رقم ٢٦٥٨، ص ١٤٦-١٤٨.

(٢٨) إسنادان صحيحان، المسند، ج ٧ (تحقيق أحمد محمد شاكر)، رقم ٧٤٣٦، ٧٤٣٨، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

ومنها: «**كل مولود ولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، مثل الأنعام؛ تنتج؛ صحاحا، فتكوى آذانها**»(٢٩).

فكل إنسان؛ ذكر وأنثى، يولد على الفطرة، على ملة الإسلام، فالطبيعة الإنسانية خلقها الله مستعدة للإيمان به. فالكفر ليس من ذات المولود، ولا هو من مقتضى الطبيعة الإنسانية، بل يحصل الكفر بسبب تربوي ثقافي اجتماعي، خارجي، فإن سلم الطفل من ذلك السبب الثقافي الاجتماعي؛ كان مهيئا ومستعدا، من ذاته، لقبول الإيمان والإسلام، والاستقامة عليه، وهذا هو رصيد الفطرة في النفس الإنسانية.

ولأهمية هذا المفهوم؛ أقبس بعض مقالات علماء الإسلام فيه، قال في إكمال المُعْلِم: «وقوله: ﴿**فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا**﴾؛ أي: أقم وجهك للدين الذي فطر الناسَ عليه، قيل: الجبلة التي جبلهم عليها؛ من: النهى؛ (العقل) لمعرفة الله، والإقرار به، (...) وقيل: معناها: الاستقامة؛ لأن الحنيف، عند بعضهم: المستقيم،.. والحنيفية: المستقيمة عن الميل لأديان أهل الشرك»(٣٠). وقال: «وأما قوله: «**بهيمة جمعاء**»؛ فالجمعاء: السليمة من العيوب، سميت بذلك؛ لاجتماع سلامة أعضائها، لا جدع فيها ولا كي، وكأنه ﷺ شبه السلامة التي يولد عليها المولود من الاعتقادات الفاسدة، بالبهيمة الجمعاء التي هي سليمة من العيوب، ثم يطرأ عليها العيب، بفعل يفعل فيها، كما يطرأ إفساد الاعتقاد على المولود بتربية يتربى عليها.

قال القاضي: وقوله: «**كما تنتج البهيمة (كما تلد البهيمة) بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**»؛ أي: مجتمعة الخلق، سالمة من النقص والتغيير، لم يلحقها جدع؛ وهو قطع الأذن، ولا غير ذلك، إلا بعد ولادتها، ومعنى قوله:

---

(٢٩) إسناده صحيح، المسند، ج ٧، رقم ٧٧٨٢، ص ٤٨٠، ٤٨١.

(٣٠) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، ص ٥٠٠.

«**تحسون**»؛ أي: تجدون، (...) يؤيد تأويل من تأول أن المراد بالفطرة، ها هنا: ما فُطر عليه العبد، في أصل خِلقته، وابتدائها، قبل معرفته بشيء من قِبَلِ بني آدم، من التهيؤ لقبول الهداية، والسلامة من ضد ذلك، حتى يدخل عليه من أبويه وقريبه، ومربيه، وقرينه، ما يغيره عن ذلك، ويحمله على ما سبق عليه في الكتاب، ويجعلانه يعمل بعمل أهل الشقاوة (...)، كما قال في الرواية الأخرى: «**حتى تكونوا أنتم تجدعونها**». والفطرة: أول الخلقة وابتداؤها، ويعضد هذا التأويل أيضا قوله في الحديث الآخر: «**حتى يعبر عنه لسانه**»(٣١).

وقد فصل ابن حجر القول في مفهوم الفطرة، وهذه خلاصة لما قال: «وأشهر الأقوال: أن المراد بالفطرة: الإسلام، قال ابن عبد البر: وهو المعروف عند عامة السلف،(...) قال (يعني: الطيبي): والمراد: تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو تُرك المرء عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن هذا الدين ثابت في النفوس، وإنما يُعدل عنه؛ لآفة من الآفات البشرية؛ كالتقليد. انتهى، وإلى هذا مال القرطبي، في المُفهِم، فقال: المعنى: أن الله خلق قلوب بني آدم مؤهلة لقبول الحق، كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلة للمسموعات والمرئيات، فما دامت باقية على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية؛ أدركت الحق، ودين الإسلام هو الدين الحق، وقد دل على هذا المعنى بقية الحديث؛ حيث قال: «**كما تنتج البهيمة...**»؛ يعني: أن البهيمة تلد الولد كامل الخِلقة، فلو ترك كذلك؛ كان بريئا من العيب، لكنهم تصرفوا فيه؛ بقطع أذنه، مثلا، فخرج عن الأصل، وهو تشبيه واقع، ووجهه واضح.

وقال ابن القيم: ليس المراد بقوله: «**يولد على الفطرة**»؛ أنه خرج من بطن أمه يعلم الدين؛ لأن الله يقول: ﴿**وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا**

---

(٣١) المصدر السابق، ج ٨، ص ١٥٠ ، ١٥١.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن المراد: أن فطرته مقتضية لمعرفة دين الإسلام ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار والمحبة، وليس المراد مجرد قبول الفطرة لذلك، (...)، وإنما المراد: أن كل مولود يولد على الإقرار بالربوبية، فلو خُلي وعدمَ المعارض؛ لم يعدل عن ذلك إلى غيره، كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه، من ارتضاع اللبن، حتى يصرفه عنه الصارف»[٣٢].

فالله، سبحانه وتعالى، خلق عباده حنفاء كلهم، أي: على الفطرة التي أشرنا إليها؛ خلقهم مستعدين، مهيئين، لمعرفته، والإقرار بربوبيته، وتوحيده، ومحبة ذلك، وإحلال ما أحله، وتحريم ما حرمه.

د - قوله تعالى: «**وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا**»، وفي رواية أحمد: «..**فأضلتهم عن دينهم**»؛ أي: إن الانحراف عن الفطرة لا يأتي من داخل القلب، ومن داخل الذات الإنسانية، فرصيد الفطرة فيهما يدعوها للاستقامة والاهتداء، بل يأتي بصارف خارجي؛ مؤثر تربوي ثقافي؛ هو شياطين الإنس والجن، من الفاعلين التربويين الثقافيين، الذين يجتالون العباد، ويضلونهم، فالشياطين؛ الفاعلون التربويون العَلمانيون والملحدون، يأتون الناس ويثقفونهم بثقافة تبعدهم، وتجليهم، بعيدا عن التوحيد، والاستقامة على شرع الله، هؤلاء الشياطين يضلون الناس بألوان التزييف والإغراء، والاستحمار اللفظي والفني، والإعلامي والثقافي؛ «**فاجتالتهم**»؛ أي: استخفتهم، فذهبوا بهم، وساقوهم، وأزالوهم، عما كانوا عليه من الفطرة الحنيفية، إلى ما أراده بهم هؤلاء؛ من الضلال والفسق، وتحليل الحرام، وتحريم

(٣٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٣، ص ٢٤٨، ٢٤٩

الحلال، والشرك بالله، حتى جالوا معهم في الباطل. وفي رواية: «**فاختالوهم**»؛ أي: حبسوهم عن دينهم، وصدوهم عنه، وتعاهدوهم في ذلك، ولازموهم، وراعوهم؛ وحفظوهم؛ حتى لا يرجعوا إلى التوحيد، والإيمان، وتحليل ما أحل الله، وتحريم ما حرم الله(٣٣).

فهؤلاء الفاعلون التربويون من شياطين الإنس والجن؛ لا يضلون الناس، فقط، وإنما يتعهدونهم ويحرسونهم، حتى يجولَ الناس معهم في الباطل، ولا يرجعوا إلى هداية الله، وهؤلاء الشياطين تضل الناس عن دين الله، وتجتالهم، وتحرم عليهم ما أحل الله، وتأمرهم بالشرك بالله، مما يدل على أن الشياطين، هنا، يدخل فيهم: الذين لا يحكمون بما أنزل الله، والذين يشرعون ما يخالف شرع الله، والذين يأمرون بالشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا، أي: حجة واضحة ذات سلطة فاعلة تلزم بالإيمان والمتابعة، والذين يربون الناس تربية تحرفهم وتبعدهم عن فطرة التوحيد والانقياد لما شرع الله.

هـ - قوله: «**وإن الله نظر إلى أهل الأرض؛ فمقتهم، عربهم، وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»، وفي رواية أحمد: «**عربيهم وعجميهم**»، أي: نظر الله إلى أهل الأرض، قبل بعثة النبي ﷺ فأبغضهم أشد البغض؛ لاجتيال الشياطين لهم، واتباعهم الطواغيت، ولشركهم بالله، وتحريمهم ما أحل الله، فمقتهم أشد المقت؛ إلا بقايا من أهل الكتاب، الذين تمسكوا بدينهم الحق، من غير تبديل(٣٤)؛ فعبدوا الله، من غير شرك، وأحلوا ما أحل لهم، وحرموا ما حرم عليهم، فهؤلاء مستثنون من المقت؛ لأنهم من عباد الله الحنفاء الموحدين الصالحين.

---

(٣٣) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، ص ٣٩٥، النووي: شرح صحيح مسلم، ج١٧، ص ١٩٧.

(٣٤) النووي: شرح صحيح مسلم، ج ١٧، ص ١٩٧، ١٩٨.

و - قوله- تعالى: «**إنما بعثتك؛ لأبتليك، وأبتلي بك**»، أي: قال الله - تعالى؛ موضحا طبيعة البعثة المحمدية: وأنها للابتلاء؛ للاختبار، فالله- تعالى- قال: «**يا محمد، إنما بعثتك رسولا؛ لتنقذ الناس من الانحراف عن الفطرة، وتخلصهم من سيطرة الشياطين، ومن حاكمية الطواغيت، التي تحل ما حرم الله، وتحرم ما أحل الله، وتأمر بالشرك بالله. وإنما تقوم بهذه المهمة؛ بالدعوة، والتبليغ المبين، والتعليم، والتزكية، والتربية، والجهاد؛ باللسان والقلم، والبيان والجَنان، واليد والمال، وهذا كله ابتلاء لك، ولمن آمن بك، وستكون عاقبة مواجهتك للطواغيت والمشركين والمنافقين، وقوى الاستعباد، والاستغلال، والاستحمار، وتزييف الوعي: أن يُنزلوا بك، وبمن آمن بك، المحنَ والزلازل. فاعلم أن هذا ابتلاء لك، ولمن آمن بك، فكما أنت ابتلاء لهم؛ فهم ابتلاء لك**»، فالمعنى: «لأمتحنك؛ بما يظهر منك؛ من قيامك بما أمرتك به؛ من تبليغ الرسالة، وغير ذلك؛ من الجهاد في الله حق جهاده، والصبر في الله تعالى، وغير ذلك. وأبتلي بك من أرسلتك إليهم، فمنهم من يظهر لإيمانه، ويخلص في طاعته، ومن يتخلف، ويتأبد بالعداوة والكفر، ومن ينافق. والمراد: أن يمتحنه؛ ليصير ذلك واقعا بارزا، فإن الله تعالى إنما يعاقب العباد على ما وقع منهم، لا على ما يعلمه قبل وقوعه»(٣٥).

فرسالة النبي محمد ﷺ لا تتحقق في واقع الأرض، إلا بدعوة وتربية، وعمل تغييري شامل، مغير في المجتمع، وبالتالي: إلا بمواجهة مع القوى المضادة التي تتصدى للدعاة المصلحين على منهاج النبوة، فهم، بعضهم لبعض، ابتلاء. هذه هي طبيعة هذا الدين؛ مواجهة مع أولياء الشيطان والطواغيت، في ممارسات واقعية، يتحقق بها الابتلاء؛ بالمحن والشدائد، ثم نصر الله؛ «**إنما ابتعثتك؛ لأبتليك، وأبتلي بك**»؛ فالعصمة لا تمنع المحنة.

---

(٣٥) المصدر السابق، ج١٧، ص ١٩٨.

ز- قوله: «**وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء، تقرؤه؛ نائما، ويقظان**»؛ أي: أنزلت على قلبك القرآن، كتابنا المجيد، كتاب دعوتك، وكتاب دولتك، الذي تنمي به الفطرة، وتخلصها من اجتيال الشياطين والطواغيت وتربية العَلمانيين والملحدين، وقوى الاستحمار الثقافي، والتنشئة اللادينية. وهو كتاب باق، لا يتغير، ولا يزول، ولا يفنى، بل هو محفوظ في الصدور، وغيرها، على مر الأزمان، لا يذهب ولا يتبدل، فقوله: «**لا يغسله الماء**»: «يحتمل أنه يشير إلى أنه أودعه قلبه، وسهل عليه حفظه، وما في القلوب لا يخشى عليه الذهاب بالغسل، ويحتمل أنه يريد الإشارة إلى حفظه وبقائه على مر الدهر، فكنى عن هذا بهذا اللفظ»(٣٦). أي: أن القرآن راسخ لا يزول، يبقى إلى أن يأمر الله برفعه، هو؛ حين لا يقال في الأرض: الله، الله؛ فيدرس الإسلام، كما يدرس وَشْيُ الثوب(٣٧).

فمنهج الدعاة إلى الإسلام ثابت، راسخ، باق، دائم، لا يزول، وعبر عن ذلك بهذا التعبير البلاغي المعجز؛ «**لا يغسله الماء**»، فهو طاهر، نظيف، مشرق بذاته، دائما، لا يمحى أبدا، إلى أن يأتي أمر الله، ففي هذه العبارة إشارة إلى أن القرآن خالد، وإلى استعصائه على عوامل المحو، لقد ضاعت كتب سابقة، أو تطرق إليها الغش، أما هذا القرآن؛ فقد تم حفظه؛ شكلا وموضوعا، معاني وحروفا، إن الصدور استوعبته، فهو يقرأ في كل زمان ومكان، لا يمحوه من القلوب شيء(٣٨).

---

(٣٦) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، ص ٣٩٥.

(٣٧) أخرج ابن ماجه عن حذيفة بن اليمان؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدرس الإسلام كما يدرس وشْيُ الثوب، حتى لا يدري ما صيام ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة ..**» الحديث، قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، جـ٣، رقم ٣٢٨٩، ص ٣٢٦، وفي صحيح الجامع الصغير، ج٢، رقم ٨٠٧٧، ص ١٣٤٢. والوَشْيُ: النقش.

(٣٨) محمد الغزالي: عِللٌ وأدوية، ط٢، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م، ص ٥٢.

وهذا الكتاب الذي أنزلته على قلبك؛ وحيا، عن طريق جبريل، جعلتك تقرؤه وأنت نائم؛ لأنه تنام عيناك، ولا ينام قلبك، وتقرؤه وأنت يقظان، خالصة لك من دون الناس، فهو محفوظ، متلو منك في حالة نوم عينيك، ويقظتك، تقرؤه في يسر وسهولة .

ح - قوله: «**وإن الله أمرني أن أحرق قريشا**»؛ أي: أمرني الله أن أصدع بالحق، الذي أنزله عليَّ، وأن أُسمع كفار قريش وطواغيتها ما يكرهون، من الحق، وأن أوقع في قلوبهم حريقا يتلهب، ويحرق الشرك من قلوبهم. أو أن أصدع بالحق فيهم، وأوبخهم على عدم إعمال عقولهم، وعلى اتباعهم التقاليد، وإلغاء عقولهم، وانحرافهم عن فطرة الإسلام. فقريش قد تصدت للإسلام، وأرصدت كل ما تملك لمحو الإسلام، فكلف الله رسوله محمدا أن يتصدى لهم، ولا يتهادن، ولا يتهاون، ولا يُدْهِن، في دحر هذا الانحراف، ولا يستكين، بل يأخذ زمام المبادرة؛ فيسمعهم الحق؛ الذي يكرهون، فيغيظ قلوبهم، وينال منهم، فتحترق قلوبهم؛ غيظا وكمدا، من صلابة هذا الرسول، وقوة الحق الذي معه، وإصراره على الدعوة إليه، والعمل به.

ط - قوله: «**فقلت: رب؛ إذا يثلغوا رأسي؛ فيدعوه خبزة**»؛ أي: قال النبي ﷺ حين أمره الله أن يحرق قريشا: يا رب، إذا صدعت بالحق، وحرقتهم؛ فإنهم، حينئذ، يثلغون؛ أي: يكسرون، ويشدخون؛ أي: يشقون رأسي، ويكسرونه، كما يشدخ الخبز، ويكسر، فيدعون؛ أي: يتركون رأسي مكسورة، كأنها خبزة مكسورة مهشمة.

ي - قال: «**استخرجهم، كما استخرجوك..**» إلى قوله: «**وقاتل بمن أطاعك من عصاك**»؛ أي: خذ زمام المبادرة، واستمر في الجهاد، وعاملهم بالمثل، وبعمل مكافئ؛ فكما اعتدوا عليك؛ رد عليهم الاعتداء، فاستخرجهم؛ أي: اعمل على إخراجهم، كما عملوا على إخراجك من أحب البلاد إليك،

واغزهم؛ غزوة بعد غزوة، حتى تزيل طواغيتهم، وتخلص الفطرة الإنسانية من هوان الانحراف، وحاكمية الطاغوت، وتحرر المستضعفين. اغزهم؛ نغزك؛ أي: نعنك على غزوهم، ونمدك بمددنا الذي لا يغلب، وجنودنا التي لا تهزم، وقوتنا التي لا تقهر، وأنفق على هذا الجهاد والغزو؛ وعلى من يحتاج من الفقراء والمساكين؛ فسننفق عليك. وأخرج الجند والجيش المؤمن؛ وابعثه في سبيل الله، للجهاد؛ نبعث خمسة جيوش، وجنوداً، مثلهم من الملائكة، وقاتل كل من خرج على طاعة الله، وطاعتك، بعد البلاغ، وإقامة الحجة الرسالية، ولم يتركوك تبلغ دعوة الله بحرية، واعتدوا عليك، أو على أمتك، قاتل هؤلاء العصاة والطواغيت، بمن أطاعك، وتربى على منهجك.

ك- قوله: **قال: «وأهل الجنة ثلاثة: ..»**، إلى قوله: **«ذو عيال»**؛ أي: يرث الجنة عبادُ الله الصالحون، ويستأهلها من اتصف؛ باطنا وظاهرا، بخصائص خلقية، هي: الحكم بالعدل، والتصدق، والسداد في حكم الله، والتوفيق من الله، واليقين، وأن يكون الإنسان رحيما رقيق القلب، لكل ذوي القربى، وبكل أقربائه، ولكل، وبكل المسلمين. فمسلم، في نص الحديث، مجرور، عطفا على ذي القربى، ومنها: العفة عن الحرام، والشبهات، وعن المسألة، مع كثرة العيال والجهد.

وموضوع هذا الفصل هو قوله: **«ورجل رحيم، رقيق القلب لكل ذي قربى، ومسلم»**، وفي رواية أحمد: **«بكل ذي قربى، ومسلم»**: وسيأتي ذلك مفصلا بكل أبعاده، بعون الله .

ل - قوله: **«وأهل النار خمسة..»**، إلى قوله: **«الفحاش»**: فالنار هي مستقر هؤلاء الخمسة:

١ - **«الضعيف الذي لا زَبْرَ لهُ»**، أي: ضعيف الشخصية، (الهَمَل)، الذي لا عقل له، الذي هو من السفهاء الرعاع، ليس له عقل يعقله، ويَزبُرُه؛ أي:

يمنعه مما لا ينبغي، فهو معطِّل لقواه العقلية، مقلد، تابع، في حالة تبعية عقلية دائمة، واستسلام إرادة، «**الذين هم فيكم تبعا**»؛ تبعا: حال، أي: حالتهم أنهم (همل)، تابعيون، «**لا يبتغون أهلًا ولا مالًا**»، أي: لا يطلبون أهلا ولا مالا، فهم أهل عطالة وبطالة، وفراغ يدوي، ونفسي، وعقلي. استهلكت البطالة أوقاتهم، فلا يسعون لأهل ولا لمال، ولا يطلبون تنمية أهل، ولا تنمية مال، إنهم همل وغثاء كغثاء السيل، عطلوا عقولهم، وضيعوا أوقاتهم، وعاشوا هملا تابعين، بلا عقول تفكر، ولا إيرادات تختار، ولا أهداف وطموحات دنيوية ولا أخروية، إنهم، كما في رواية لأحمد: «**تبعاء**»، جمع: تابع، مقلد، ماش وراء غيره، فهم، كما في رواية لأحمد، كذلك، (تبع)، إنهم أذناب، وليسوا رؤوسا في حق، أو لدنيا، إنهم أهل لنار جهنم.

٢- «**والخائن؛ الذي لا يخفى له طمع، وإن دق، إلا خانه**»: هذه صفة النوع الثاني من أهل النار، ناس لا تشغلهم أمانة، ولا توقفهم حدود، فهم يلتهمون ما تصل إليه أيديهم، من حقوق الآخرين، هذا النوع الخائن (لا يخفى)، أي: لا يظهر له طمع، وإن دق، أي: مهما صغر، إلا ارتكب الخيانة، ليشبع هذا الطمع التافه، إنه خبيث النفس، رديء القلب، يراقب الناس؛ فإن رأى شيئا يطمع فيه، وإن كان صغيرا، دقيقا؛ اختلسه، واختانه، وتحايل؛ ليحصل عليه بطريق الغش والخداع. فهذا نموذج فاجر القلب، غشاش، مكار، إنه أهل لنار جهنم.

٣- «**ورجل لا يصبح ولا يمسي؛ إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك**»: هذا النوع الثعلبي، الذي يصاحبك وهو يخادعك، ويمكر بك، عين عليك وعين على صيده، وأنت تثق فيه، وهو يخدعك، ويغشك؛ ليصل إلى أهلك، ليفعل فاحشة، أو شيئا مكروها، أو ليصل إلى مالك، ليسرق منه، مع أنك تأمنه، وتثق فيه، لكنه خبيث القلب، رديء النفس، إنه أهل لنار جهنم.

٤- والبخيل، أو الكذاب.

٥- (والشنظير)؛ الفحاش، السيئ الخلق، الذي يشتم أعراض الناس، ويشتط في سوء قوله وعمله.

هؤلاء الخمسة من أهل النار؛ هم قوم تغلب عليهم الآفات النفسية والقلبية؛ فتركتهم بلا خلق حسن، أو مسلك مستقيم، إنهم انحرفوا عن الفطرة، واجتالتهم الشياطين(٣٩).

وها نحن أولاء نواجه هؤلاء بتربية القلب الرحيم، وبتربية القلب الرقيق اللين، وبتربية القلب المؤمن السليم.

رابعا: أهمية قيمة الرحمة ومنزلتها من أهداف تربية القلب:

أ - جعل الله - تعالى، من أهل الجنة، الرجل الرحيم الرقيق القلب، لكل، وبكل، ذي قربى ومسلم. فالرحمة قيمة تُرضي الله، ومَن تخلق بها؛ يدخله الجنة، فهي قيمة عزيزة يحتاج أن يتصف بها كل مسلم ومسلمة؛ ليكونوا من أهل الجنة، ولينقذ نفسه من القسوة وغلظة القلب، ووحشية السلوك، وجلافة المعاملات؛ ليكون متميزا عن سلوك (الخوارج)، الذين جسدوا القسوة والغلظة ضد المسلمين الموحدين، أهل الإسلام، الذين قتلوا الإمام التقي النقي علي بن أبي طالب، والزاهد العابد، حافظ القرآن، المتجنب للفتن؛ عبد الله بن خباب، فيقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، يسفكون دم قارئ القرآن، ويتورعون عن تمرة لنصراني من أهل الذمة.

أخرج أبو عبيد؛ عن أبي مجلز؛ «أن عليا نهى أصحابه أن يبسطوا على الخوارج؛ حتى يحدثوا حدثا، قال: فأخذوا عبد الله بن خباب، فانطلقوا به،

---

(٣٩) انظر في شرح هذا الحديث: القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، ص ٣٩٤ - ٣٩٩، الإمام النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧، ص ١٩٧ - ٢٠٠ ، محمد الغزالي: علل وأدوية، مرجع سابق، ص ٤٨ - ٥٤ .

فمروا على تمرة ساقطة، من نخلة، فأخذها بعضهم، فألقاها في فيه، فقال له بعضهم: تمرة معاهَد، فبم استحللتها؟ فألقاها من فيه، ثم مروا بخنزير، فنفحه أحدهم بسيفه (ضربه ضربة خفيفة)، فقال له بعضهم: خنزير معاهَد؛ فبم استحللته؟ فقال لهم عبد الله بن خباب: ألا أدلكم على ما هو أعظم حرمة من هذا؟ قالوا: بلى، قال: أنا، قال: فقتلوه، قال: فبلغ ذلك عليا، فأرسل إليهم؛ أن أقيدونا بعبد الله بن خباب، فقالوا: كيف نقيدك بعبد الله؛ وكلنا قتله؟ فقال علي: أوَ كلكم قتله؟ قالوا: نعم، قال: الله أكبر، ثم أمر أن يبسطوا عليهم»(٤٠). يعني: يهجموا عليهم بالقتال.

وروى الطبراني في الكبير والأوسط؛ عن حميد بن هلال؛ قال: غزا عبادة ابن قرص الليثي غزاة له، فمكث فيها ما شاء الله، ثم رجع، حتى إذا كان قريبا من الأهواز؛ سمع صوت الأذان، فقال: والله ما لي عهد بصلاة جماعة من المسلمين منذ ثلاث، وقصد نحو الأذان؛ يريد الصلاة، فإذا هو بالأزارقة (وهم من الخوارج)، فقالوا له: ما جاء بك يا عدو الله ! فقال: ما أنتم إخواني؟! قالوا: أنت أخو الشيطان ! لنقتلنك ! قال: أما ترضون مني بما رضي به رسول الله ﷺ ؟ قالوا: أي شيء رضي به منك ؟ قال: أتيته وأنا كافر، فشهدت أن لا إله إلا الله، وأنه رسول الله، فخلى عني. فأخذوه فقتلوه!!

هذه القسوة قال عنها النبي ﷺ - فيما أنبأ به عن الخوارج، فيما رواه مسلم وغيره، عن أبي سعيد الخدري، من حديث قسمة المال على المؤلفة قلوبهم، قال: فغضبت قريش، فقالوا: أيعطي صناديدَ نجد ويدعُنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إني إنما فعلت ذلك لأتألفهم**»، فجاء رجل كث اللحية، مشرف الوجنتين، (عاليهما) غائر العينين، ناتئ الجبين، محلوق الرأس، فقال: اتق الله،

---

(٤٠) أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأموال، تقديم ودراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، ط ١، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، خبر رقم ٤٧٧، ص ٢٦٨ .

يا محمد، قال: فقال رسول الله ﷺ: «**فمن يطع الله، إن عصيته؟ أيأمنني على أهل الأرض، ولا تأمنوني؟**» قال: ثم أدبر الرجل، فاستأذن رجل من القوم في قتله؛ يرون أنه خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ: «**إن من ضِئْضِئِ هذا** (أصله، أو قبيلته)، **قوما يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدَعون أهل الأوثان، يمرقون** (يخرجون) **من الدين كما يمرق السهم من الرمِية**، (يعني: الصيد الذي دخل فيه السهم، ثم خرج من الجهة الأخرى، ولم يأخذ معه لحما، أو دما من الصيد المرمي)، **لئن أدركتهم؛ لأقتلنهم قتل عاد**»(٤١). وأخرجه أيضا، وفيه: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة (مرتفع الجبهة، عاليها)، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله، اتق الله، فقال: «**ويلك ! أوَ لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟!**» قال: ثم ولى الرجل، فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: «**لا، لعله أن يكون يصلي**». قال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه! فقال رسول الله ﷺ: «**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم**». قال: ثم نظر إليه وهو مقف (ذاهب)، فقال: «**إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يتلون كتاب الله؛ رطبا، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**». قال: أظنه قال: «**لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود**»(٤٢).

وأخرج مسلم عن زيد بن وهب الجهني أنه كان في الجيش الذين كانوا مع علي ﷺ الذين ساروا إلى الخوارج، فقال علي ﷺ أيها الناس، إني سمعت

---

(٤١) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٤، حديث رقم ١٠٦٤، ص ٦٠٦، ٦٠٧، وانظر: سنن النسائي، ج ٧، أرقام ٤١٠١، ٤١٠٢، ٤١٠٣، ص ٨٢ – ٨٤، سنن أبي داود، ج ٤، أرقام ٤٧٦٤، ٤٧٦٥، ٤٧٦٧، ٤٧٦٨ – ٤٧٧٠، ص ٢٥٧ – ٢٦٠، المسند، ج ١٠، رقم ١١٥٩١، ص ٢١٥، بإسناد صحيح.

(٤٢) القاضي عياض: المصدر السابق، ص ٦٠٧ – ٦٠٩.

رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج قوم من أمتي، يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم، وهو عليهم، لا تجاوز صلاتُهم تراقيَهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**»، (وساق الحديث إلى قول علي:) «والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم (يقصد الخوارج)، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله»، (وساق الخبر إلى نهايته..)(٤٣).

وأخرج الإمام أحمد؛ عن يزيد الفقير؛ قال: قلت لأبي سعيد الخدري: إن منا رجالا؛ هم أقرؤنا للقرآن، وأكثرنا صلاة، وأوصلنا للرحم، وأكثرنا صوما، خرجوا علينا بأسيافهم، فقال أبو سعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يخرج قوم يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»(٤٤).

فهؤلاء القوم، بهذا الاجتهاد في أنواع الطاعة، لكنها طاعة من الخارج، ولم تنبع من القلب، والقلب خال من الرحمة والرقة واللين والخشوع لله؛ إنها طاعة مغشوشة من قوم قساة القلوب، يفعلون فعل الكلاب بالمسلمين، ولذلك كانوا (كلاب النار)، كما أخرج أحمد؛ عن سيار؛ قال: جيء برؤوس من قِبَل العراق، فنصبت عند باب المسجد، وجاء أبو أمامة، فدخل المسجد، فركع ركعتين، ثم خرج إليهم، فنظر إليهم، فرفع رأسه، فقال: شر قتلى تحت ظل السماء؛ ثلاثا، وخير قتلى تحت ظل السماء مَن قتلوه، وقال: كلاب النار؛ ثلاثا، ثم إنه بكى، ثم انصرف عنهم، فقال له قائل: يا أبا أمامة، أرأيت هذا الحديث، حيث قلت: كلاب النار، شيء سمعتَه من رسول الله ﷺ أو شيء

(٤٣) المصدر السابق، رقم ١٠٦٦، ص ١١٨، ١١٩.

(٤٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٤٢٦، ص ١٦٣، ١٦٤

تقوله برأيك؟ قال: سبحان الله! إني، إذن، لجريء، لو سمعتُه من رسول الله مرة، أو مرتين، حتى ذكر سبعا؛ لخلت أن لا أذكره، فقال الرجل: لأي شيء بكيت؟ قال: رحمة لهم، أو من رحمتهم(٤٥).

وأخرجه أحمد؛ عن معمر؛ قال: سمعت أبا غالب يقول: لما أتي برؤوس الأزارقة، فنصبت على درج دمشق؛ جاء أبو أمامة، فلما رآهم؛ دمعت عيناه، فقال: «كلاب النار»؛ ثلاث مرات.. الحديث(٤٦)، وأخرجه ابن ماجه عنه.. وفيه: «كلاب أهل النار»(٤٧). وأخرج عن ابن أبي أوفى؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الخوارج كلاب النار»**(٤٨).

قال الحكيم الترمذي: «فالمؤمن: يستر، ويرحم، ويعطف، ويتوقى أن يلوم ويُعَيِّر، ويرجو من الله الرحمة، ويرجيه. وهذا المفتون: يهتك، ويعير، ويؤيس، ويقنط، ويكفر؛ فهذه أخلاق الكلاب، وتقولهم، كلبوا على عباد الله، ونظروا إليهم بعين البغضة والعداوة والملامة، فلما دخلوا النار؛ صاروا في هيئة أعمالهم؛ كلابا، كما كانوا على الموحدين في الدنيا؛ كلابا»(٤٩).

وإنما كانوا كلابا؛ لأنهم يعضون في المسلمين، هم عضاضون؛ لافتقادهم الرحمة والإيمان الحي والرقة، في القلب، كما أوضحنا في تحليلنا لأحاديث الخوارج، في أكثر من فصل في هذا الكتاب .

ومثل هذه القسوة والغلظة لا تزال موجودة، بأشكال مختلفة، ضد (مسلمين) من (مسلمين)؛ فهناك من قتل علماء مسلمين؛ مثل الشيخ الذهبي،

---

(٤٥) إسناده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٠٥١، ص ٢١٧، ٢١٨، مع هامش المحقق .

(٤٦) إسناده صحيح، المصدر السابق، رقم ٢٢٠٨٣، ص ٢٢٨ .

(٤٧) قال الألباني: حسن صحيح. انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١٤٦، ص ٧٦.

(٤٨) قال الألباني: صحيح، المصدر السابق، رقم ١٤٣، ص ٧٥ .

(٤٩) أبو عبدالله محمد الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج ١، ص ٣٤٦.

ومن يقتل مسلمين لهم حكم الإسلام، وهناك من يستحل سرقة المال، والكتب، وهناك من يضرب أولاده وزوجته، أو تلاميذه، بوحشية، وهناك من يبلغ (الأمن) ضد دعاة مسلمين، وهناك من يدبر المكائد لغيره من المسلمين، وهناك من يظل يسب في علماء مسلمين حقيقيين، ويكاد يفترس لحومهم. كل هؤلاء نعلمهم، ونسمعهم، ونسمع دعاواهم، (في إحياء الدين)؛ وقلوبهم تحتاج إلى إحياء، والأمر لله!

وهناك من يغتصب البريئات، ويقتل البنات، ويتوحش على الجيران، وهناك من يسجن الأبرياء، ويعتقل المسلمين، ويقيد الحريات، ويهتك الحرمات، وانتشرت ظواهر القسوة والعنف في بيوتنا، وشوارعنا، ومدارسنا، وفي عموم مجتمعاتنا، حتى أصبحت ظاهرة اجتماعية بين المتدين والعلماني والملحد، يغتاب بعضهم بعضا، و(يلعن) بعضهم بعضا، أحيانا على عدم إعفاء اللحية، أو على ارتداء ثوب ينزل تحت الكعبين، لغير بطر ولا مخيلة، أو على ارتداء المسلمة للخمار الشرعي، دون النقاب، أو على صلاة في مسجد به ضريح، مع استنكار الضريح الذي ليس في القبلة، أو على الإعذار بالجهل، الذي هو من مبادئ أهل السنة، وخالفهم في ذلك المعتزلة وبقاياهم، أو على عدم تكفير المعين؛ حتى تقوم عليه الحجة الرسالية التي يكفر تاركها، ويتبين له الحق..!!

قسوة وعنف في كل مكان، أصوات مرتفعة، وقلوب متباغضة، بين المسلمين، وبين من يتصدون للدعوة إلى (الإسلام)، حتى إلى بعضهم بعضا، ليس على عقيدة الإسلام، بل على (توافق الآراء)؛ التي قد تكون (أهواء مغلفة بغطاء شرعي)، وتشاتم الكثيرون، وتباغضت قلوب، وقسا بعضهم على بعض، وقطعت أرحام كانت موصولة، ولم يقيموا مكانها دين الله.

اكتب على النت: العنف الأسري، والعنف المدرسي، والعنف الاجتماعي،

وانظر ماذا يخرج لك من مآس وفظائع؟ فكيف المخرج التربوي لهؤلاء وهؤلاء؟ هنا تتأكد أهمية وضرورة تربية قيم الرحمة والرقة، ولين القلب، في كل مسلم، بكل مسلم، ولكل مسلم، ولكل ذي قربى، والرحمة العامة.

الدواء: هو إعادة تربية المسلمين؛ ليكتسبوا قيم الرحمة والرقة، في القلب والنفس والسلوك، وإكساب الناس، والدعاة، إلى الإسلام، وإكساب كل مسلم ومسلمة، قيم الرحمة والرقة؛ ليعرفوها، ويعقلوها، ويؤمنوا بها، ويحبوها، ويريدوها، ويطلبوها؛ بشوق، وعشق، ويمارسوها، ويكرروها، ويتعودوا عليها، ويتخلقوا بها، في ضمير القلب والسلوك، ليكونوا ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾[الفتح: ٢٩]، أرقاء القلوب، ليكونوا أتباع الرحمة المهداة، سيدنا محمد ﷺ.

ولكي نربي أنفسنا، وغيرنا؛ لنكتسب هذه القيم، التي تعيَن وتحدد أهدافا تربوية قلبية خلقية، مهمة وضرورية، فمن اللازم أن تتضح، وتتحدد المفهومات، والأبعاد الخاصة بهذه القيم بدقة، كما سيأتي، بعون الله.

ب ـ وأهمية قيمة الرحمة لا تظهر من خلال السياقين؛ التاريخي والاجتماعي، السابقين، فقط، وإنما تظهر أيضا من كونها طريقا للجنة، وكونها خاصية للنبي ﷺ ومن كونها واجبا إيمانيا وخلقا إسلاميا، ملزما، بدونه يكون الإنسان أقرب لسلوك كلاب النار، وسلوك الأشقياء، فلا تنزع الرحمة إلا من شقي، كما سنبين، بعون الله، في الفقرات الآتية.

خامسا: مفهوم الرحمة وعلاقتها بالرقة:

أ ـ لا رحمة بدون رقة، فيما يختص بالإنسان، يقول ابن منظور: «الرحمة: الرقة والتعطف،.. والرحمة: المغفرة.. وقال الله- عز وجل: ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾[البلد: ١٧]، أي: أوصى بعضهم بعضا برحمة الضعيف، والتعطف عليه،.. والرحمة في بني آدم، عند العرب، رقة القلب وعطفه،

ورحمة الله: عطفه وإحسانه ورزقه(٥٠). فالرحمة: رقة القلب؛ عاطفة شعورية تبعث على التعطف والتحنن على الآخر، يقول الراغب: «والرحمة: رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل، تارة، في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد، دون الرقة،.. الرحمة منطوية على معنيين: الرقة والإحسان»(٥١). «إذن، على المستوى البشري»، الرحمة لا تخلو عن رقة،.. تعتري (تصيب) الرحيم، فتحركه إلى قضاء حاجة المرحوم(٥٢).

وقد حلل القرطبي مفهوم الرحمة تحليلا جيدا؛ فهي إرادة فيض الخير والإنعام، وبالنسبة للإنسان هي الرقة والتعطف، فالرحمة: رقة وتعطف، يجود بها الراحم على المرحوم(٥٣).

ويقول الحكيم الترمذي:«وكل من رحمتَه؛ رق قلبُك له، ودعتك الرقة إلى الإحسان إليه، والعطف عليه، بدوام الإحسان، ومن أبخس حظه (أنقص) من الرحمة؛ غلظ قلبه، وصار فظا، فإذا غلظ قلبه؛ لم يرق لنفسه، ولا لأحد، من خلقه، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ...﴾ [آل عمران : ١٥٩]، فالشديد: يشدد على نفسه، في الأحوال، ويُعَسِّر، ويضيق، وكذلك على الخلق، فهو من نفسه في تعب، والخلق منه في أذى. واللين: لان قلبه، ورطب بماء الرحمة، وانتشف ماء الرحمة يبوسة نفسه، وأذهب حزازتها، وكزازتها، (انقباضها)، وأذهب قسوة قلبه، فمن لم يكن له وفارة حظ من الرحمة؛ وجدته حديد النفس، يابس الخلق، قاسي القلب؛ مكدود الروح، مظلم الصدر، عابس الوجه، منكر الطلعة، ذاهبا بنفسه؛ تيها وعظمة، غليظ الرقبة، سمين

---

(٥٠) ابن منظور: لسان العرب، ج ٣، دار المعارف، القاهرة، ص ١٦١١ – ١٦١٢

(٥١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ١٩١

(٥٢) أبو حامد الغزالي: المقصد الأسنى، في شرح أسماء الله الحسنى، مكتبة القرآن، القاهرة، ص ٦١

(٥٣) الإمام أبو عبدالله القرطبي: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ج ١، دار الصحابة، طنطا، ص٦٨ – ٨٢.

الكلام، عظيم النفاق، قليل الذكر لله – تعالى – ولدار الآخرة، ولهادم اللذات،.. هذه الرحمة التي وصفنا.. هي رحمة الإيمان، مأخوذة من الرحمة العظمى،.. فأوفرهم حظا من المعرفة بالله والعلم به؛ أوفرهم حظا من القربة، وأوفرهم حظا من الرحمة، فلما كان القلب أقرب إلى الله؛ كان ألين، وفؤاده أرق، وكلما تباعد القلب من الله؛ بمعصية يأتيها، كان قلبه أقسى، وأبعد من الرحمة»(٥٤).

ب ـ ونخلص من ذلك إلى أن مفهوم الرحمة يتضمن ما يلي:

١ ـ أن هناك نوعين متكاملين من الرحمة؛ رحمة العطف، التي قسمها الله بين خلقه، وهي رحمة خِلقية فطرية، في الآدمي والطير والوحوش والبهائم، فتلك رحمة العطف، التي بها يتعاطفون، ويشترك فيها البر والفاجر والولي والعدو، والنوع الثاني: هو الرحمة الناتجة عن الإيمان بالله، ومعرفته، وهي رحمة الإيمان. الأولى: رحمة تخص خاصة الإنسان، والثانية: رحمة عامة، ناتجة عن معرفة الله والإذعان له(٥٥)

٢ ـ وفي النوع الثاني؛ رحمة الإيمان، إذا قوي الإيمان بالله ومعرفته والتقرب إليه بفعل الخيرات؛ وُجدت ونمت إرادة فيض الخير العام، والتعطف، والرقة على عباد الله، وعلى خلقه؛ تعبدا لله بصفة الرحمة، وتخلقا بها، كما سيأتي، فتربية الإيمان بالله ومعرفته وتوحيده، هي تربية للرقة والرحمة والعطف.

٣ ـ وإذا وجدت إرادة الإنعام والرقة والإحسان والتعطف في القلب؛ نزع المؤمن بالله إلى فعل الرحمة، أي: إلى ممارسة الرقة، التي تحركه للعطف، والتحنن، والإنعام، على الآخرين، من البشر وباقي الخلائق.

٤ ـ إن الرقة جزء من مضمون الرحمة؛ فهي رقة وعطف وإحسان، فعطفها

---

(٥٤) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج ٢، ص ٥٦٣ – ٥٦٥.
(٥٥) المصدر السابق، ص ٥٦٥.

على الرحمة هو من عطف الخاص على العام؛ لبيان أهميته، والتأكيد عليه.

جـ ـ وهذا التصور لمفهوم الرحمة هو جزء من الوعي بقيمة الرحمة، الوعي والإدراك الذي يلزم أن يحصله ويكتسبه كل من يريد أن يتخلق بقيمة الرحمة وقيمة الرقة، من خلال الدرس الذاتي، والمدارسة الجماعية، والقراءة، والاستماع، والتعود.. إلخ.

سادسا: الرحمة قيمة يخلقها الله في القلب ويكتسبها المؤمن بالجُهد التربوي:

أ ـ هذه الرحمة، سواء هي رحمة العطف، أو رحمة الإيمان بالله؛ فطرية أو مكتسبة، هي من خلق الله ـ تعالى ـ في قلب الإنسان، فابتداء: الله هو الذي خلق الرحمة، وجعلها، وابتدأها، وقدرها؛ أخرج الإمام البخاري في باب (جعل الله الرحمة في مائة جزء)، بإسناده؛ أن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها؛ خشية أن تصيبه**»(٥٦). ورواه في الرقاق عن أبي هريرة؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله خلق الرحمة، يوم خلقها، مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة..**» الحديث(٥٧). وأخرجه مسلم عنه؛ ولفظه: «**إن لله مائة رحمة؛ أنزل منها رحمة واحدة، بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة**»(٥٨). وفي رواية لمسلم عن سلمان؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق، يوم خلق السموات والأرض، مائة رحمة، كل**

---

(٥٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١٠، رقم ٦٠٠٠، ص ٤٣١.

(٥٧) المصدر السابق، ج ١١، رقم ٦٤٦٩، ص ٣٠١.

(٥٨) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، رقم ٢٧٥١، ص٢٥٣.

رحمة طباق ما بين السموات والأرض، فجعل منها في الأرض رحمة، فبها تعطف الوالدة على ولدها، والوحش والطير؛ بعضها على بعض، فإذا كان يوم القيامة، أكملها بهذه الرحمة»(٥٩). وأخرج أحمد وأبو داود عن جندب ـ هو ابن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: جاء أعرابي فأناخ راحلته، ثم عقلها، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته، فأطلق عقالها، ثم ركبها، ثم نادى: اللهم ارحمني ومحمدا، ولا تشرك في رحمتنا أحدا. فقال رسول الله ﷺ: **«أتقولون: هذا أضل أم بعيره ؟ ألم تسمعوا ما قال ؟»** قالوا: بلى، قال: **«لقد حظرت، رحمة واسعة، إن الله - عز وجل - خلق مائة رحمة، فأنزل رحمة واحدة، يتعاطف بها الخلق، جنها وإنسها، وبهائمها، وأخر عنده تسعا وتسعين رحمة، أتقولون: هو أضل أم بعيره؟»**(٦٠).

فهذه الروايات تدل، وتنص، بوضوح، على أن الله هو الذي خلق الرحمة، وجعلها في الأرض، وأرسلها بين خلقه، وأنزلها، ومعنى: (جعل) و(خلق) يجوز أن يكون: اخترع، وأوجد، ويجوز أن يكون: قدر، فالله – تعالى- هو الذي يوجد أو يقدر الرحمة في قلب الإنسان(٦١).

ويبين النبي ﷺ أن الله هو الذي وضع وجعل الرحمة في قلوب الراحمين، من عباده، وهو الذي ينزعها؛ إذا شاء أن ينزعها، أخرج البخاري عن أسامة ابن زيد- رضي الله عنهما، قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابنا لي قبض

---

(٥٩) المصدر السابق، ص ٢٥٣، ٢٥٤

(٦٠) رواه أبو داود إلى قوله: «قالوا: بلى»، سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٨٨٥، ص ٢٩٣ – ٢٩٤، وأخرجه أحمد كاملا مع اختلاف يسير في اللفظ، بإسناد ضعيف لأجل أبي عبد الله الجُشمي، قالوا: مجهول الحال، وصححه الحاكم (٤/ ٢٤٨)، ووافقه الذهبي، انظر: المسند، ج ١٤، رقم ١٨٧٠٣، ص ٢٧٢، وأورده الهيثمي، وقال: رواه أحمد والطبراني ورجال أحمد رجال الصحيح، غير أبي عبد الله الجشمي، ولم يضعفه أحد، وهو في الكبير برقم ١٦٦٧، انظر: مجمع الزوائد، ج ١٠، رقم ١٧٦١٤، ص ٣٥٨.

(٦١) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١٠، ص ٤٣٢.

فأتنا، (وساق الحديث، وفيه:) فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي، ونفسه تتقعقع، قال: حسبته أنه قال: كأنها شَن (تخرج صوتا كأنه صوت القربة اليابسة القديمة)، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله؛ ما هذا؟ فقال: «**هذه رحمة؛ جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»(٦٢). وفي رواية له عنه: قال: «**هذه رحمة وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء**»(٦٣). وفي رواية له: قال: «**هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماءَ**»(٦٤).

فهذا الحديث يدل؛ نصا، على أن الله هو الذي جعل الرحمة، ووضع الرحمة، ويضعها، في قلوب عباده الرحماء، وأخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تُقَبِّلون الصبيانَ؟ فما نقبلهم! فقال النبي ﷺ: «**أَوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟**»(٦٥). أي: لا أقدر أن أجعل الرحمة في قلبك، بعد أن نزعها الله منه، فكيف أردها إلى قلبك؟ فالله هو الذي ينزع الرحمة من القلب، وهو الذي يردها إليه، وحده.

ونخلص من ذلك إلى: أن الرحمة يخلقها الله، ويقدرها، ويجعلها، في القلب، ويضعها فيه، وهو الذي ينزعها من قلوب الأشقياء. وهذه حقيقة تندرج في أصل الإيمان بالله الخالق البارئ المصور.

ب ـ وفي نفس الوقت تتحصل الرحمة في القلب، وتظهر آثارها في المشاعر

---

(٦٢) المصدر السابق، ج ٣، رقم ١٢٨٤، ص ١٥١.
(٦٣) المصدر السابق، ج ١٠، رقم ٥٦٥٥، ص ١١٨
(٦٤) المصدر السابق، ج ١١، رقم ٦٦٥٥، ص ٥٤١.
(٦٥) المصدر السابق، ج ١٠، رقم ٥٩٩٨، ص ٤٢٦، ورواه مسلم: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٧، رقم ٢٣١٨، ص ٢٨٢، والبخاري: الأدب المفرد، رقم ٩٠، وقال الألباني: صحيح، ص ٤٤.

والأقوال والأفعال، والأحوال، وملامح الوجه، وتصرفات الجوارح، أي: تصبح خلقا، وقيمة موجِّهة؛ بسعي الإنسان، وفعله، وكسبه التربوي، فالله أعطاه ذلك وقدره، وأقدره عليه؛ وذلك بأن يدرك معنى الرحمة، ويتذوق معناها وأهميتها، ويؤمن بها، ويحبها، ويشتهيها، ويريدها، ويطلبها؛ بقصد وعزم، ويسعى للتخلق بها، ويهم بالتعود عليها وممارستها، فيخلقها الله؛ حينئذ، في القلب والشعور، وفي الجوارح، وفي الأقوال والأفعال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد: ١٤]، فإذا آمن الإنسان بالرحمة، ورغب فيها واشتهاها، وأرادها وطلبها، وسعى في ممارستها، والتعود عليها، واجتهد في الاتصاف بها؛ فإن الله يخلقها في قلبه وينزلها فيه، ويكسبه إياها، وهذا هو مفهوم قاعدة ابن مسعود: «تعودوا الخير ما استطعتم؛ فإنما الخير بالعادة». وهذا يعني: أن خلق الله للرحمة في القلب وتغييره، وتحويله، من القسوة والعنف؛ إلى الرقة والرحمة؛ مبني على كسب الإنسان التربوي؛ على تربية الإنسان لخلق الرحمة في قلبه وسلوكه؛ إدراكا، وتصورا وفهما، وفقها لها، ووعيا بها، وإيمانا، ورغبة، واشتهاء، وحبا، وقصدا وطلبا لها، وتعودا وممارسة، وهذا كله، أيضا، بتوفيق الله وهدايته.

سابعا: الرحمة خُلق ملزم يتعبد به المؤمن لله ويتعامل به في العالم:

أ ـ مما سبق يتضح أن الرحمة قيمة توصل للجنة، ولرحمة الله للراحم؛ و«لا يرحم الله من عباده إلا الرحماء». وهذا المعنى مؤكد؛ مرارا، في فقه القيم، في الإسلام؛ بيانا وترغيبا، فقد أخرج البخاري أن أبا هريرة ﷺ قال: قبَّل رسولُ الله ﷺ الحسنَ بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرحم؛ لا يُرحم**»(٦٦). وأخرج مسلم في الصحيح، والبخاري في الأدب

---

(٦٦) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٩٧، ص ٤٢٦، ورقم ٦٠١٣، ص ٤٣٨، وأخرجه في=

المفرد، عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لا يرحم الناس؛ لا يرحمه الله- عز وجل**»(٦٧)، وفي لفظ للبخاري: «**لا يرحم الله من لا يرحم الناس**»(٦٨).

ففي هذين الحديثين يقرر النبي قاعدة عامة؛ هي أن الذين لا يرحمون غيرهم؛ لا يرحمهم الله، وهذا وعيد؛ يدل على أن الرحمة قيمة واجبة ملزمة، ومن لم يتصف بها؛ فهو معرض للوعيد بأن لا يرحمه الله، فترك الرحمة، إذن، كبيرة من الكبائر.

ب ـ وقد جاء الأمر بها في حديث أخرجه الترمذي وأبو داود، والبخاري في الأدب المفرد؛ عن عبد الله بن عمرو؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض؛ يرحمكم من في السماء..**» الحديث، قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح(٦٩)، وفي رواية أبي داود: «**ارحموا أهل الأرض؛ يرحمكم من في السماء**»(٧٠). وروى البخاري في الأدب المفرد؛ عنه: عن النبي ﷺ قال: «**ارحموا؛ ترحموا، واغفروا؛ يغفر لكم..**»(٧١).

ففي هذا الحديث يأمر النبي ﷺ المؤمنين بالرحمة، وسياق الأحاديث السابقة يدل على أن الأمر، هنا، للطلب الملزم، أي: للوجوب، فقيمة الرحمة

=الأدب المفرد عن أبي هريرة، رقم ٩١، ص ٤٤، قال الألباني: صحيح، وأخرجه دون القصة عن أبي سعيد، رقم ٩٥، ص ٤٥، ٤٦، قال الألباني: صحيح بما بعده .. إلخ، وأخرجه مسلم بلفظ: «**إنه من لا يرحم لا يرحم**»، إكمال المعلم، ج ٧، ص رقم ٢٣١٨، ص ٢٨٢.

(٦٧) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٧، رقم ٢٣١٩، ص ٢٨٢، فتح الباري...، ج ١٣، رقم ٧٣٧٦، ص ٣٥٨، البخاري: الأدب المفرد، رقم ٩٧، ص ٤٦، وقال الألباني: صحيح، وأخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح، انظر: سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩٢٩، ص ٣٧٠.

(٦٨) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٩٦، ص ٤٦ .

(٦٩) هذا لفظ الترمذي، انظر: سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩٣١، ص ٣٧١.

(٧٠) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٩٤١، ص ٣١١، ورواه أحمد بلفظ: «**ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء**»، قال محقق المسند: صحيح لغيره، حديث رقم ٦٤٩٤

(٧١) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٣٨٠، ص ١٣٣، ١٣٤

واجبة، يقول القاضي عياض: «ومن الرحمة: واجبة، وهي: كف الأذى عن المسلمين، وإغاثة الملهوف، وفك العاني، وإحياء المضطر، واستنقاذ الغريق والواقع في هلكته ..، ومن ذلك: سد خلة الضعفاء، والفقراء، من الواجبات، فهذا كله؛ من لم يؤد حق الله فيه؛ عاقبه الله، ومنعه رحمته، إذا أنفذ عليه وعيده، وإن شاء عفا عنه، وسمح له؛ بفضل رحمته وسعتها»(٧٢).

والذي ذكره عياض هو بعض أنواع الرحمة الواجبة، وسيأتي تفصيل أنواعها وأبعادها، في الفقرة الثامنة، التي نفصل فيها أبعاد قيمة الرحمة الواجبة، بعون الله .

فقيمة الرحمة قيمة واجبة ملزمة؛ من حيث إن الرسول أمر بها أمرا واجبا ملزما، ولأن من لم يرحم؛ فلا يرحمه الله، ولأن الرحمة طريق إلى الجنة، فالضمير الديني الخلقي في قلب المؤمن يلتزم بهذه القيمة؛ لأن الله ورسوله أمرا بها المؤمن. وهو يلتزم بها؛ لأن الرحمة إذا نزعت من قلب إنسان فهو شقي، فقد أخرج أحمد، والترمذي، وأبو داود، والبخاري؛ في الأدب المفرد، وغيرهم، عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ الصادق المصدوق، أبا القاسم، صاحب الحجرة ﷺ يقول: «**لا تُنزع الرحمةُ إلا من شقي**»(٧٣).

جـ- والمؤمن يلتزم بقيمة الرحمة، أيضا، لأنها خلق أساسي لأسوة المسلمين محمد ﷺ فقد ذكرنا أنه كان رحيما رقيقا، وقال الله تعالى له: ﴿**وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وأخرج مسلم عن أبي هريرة؛ قال: قيل: يا

---

(٧٢) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٧، ص ٢٨٣

(٧٣) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٧٩٨٨، ص ١١٤، وله روايات أخرى، منها: رقم ٩٩٠٢، بإسناد صحيح، المسند، ج ٩، ص ٣٥٥، ٣٥٦، ورقم ٩٩٠٧، بإسناد حسن، المسند، ج ٩، ص ٣٥٧، وقال الترمذي: هذا حديث حسن. سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩٣٠، ص ٣٧٠، ٣٧١. سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٩٤٢، ص ٣١١، وقال الألباني: حسن، انظر: الأدب المفرد، رقم ٣٧٤، ص ١٣٢، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، ورواه غيرهم، وانظر الألباني: تخريج مشكاة المصابيح (٤٩٦٨) .

رسول الله، ادع على المشركين. قال: «**إني لم أبعث لعانا؛ وإنما بعثت رحمة**»(٧٤)، وفي سنن الدارمي؛ عن أبي صالح؛ قال: كان النبي ﷺ يناديهم: «**يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة**»(٧٥). وروى البزار والطبراني؛ في الصغير والأوسط، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت رحمة مهداة**»(٧٦). وأخرج البخاري عن أنس؛ يقول: كان النبي ﷺ رحيما(٧٧).

وأخرج عبد الله بن الإمام أحمد من حديث شرح الصدر وغسل قلب النبي ﷺ حيث جاءه ملكان.. «**فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقها، فيما أرى، بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئا كهيئة العلقة، ثم نبذها، فطرحها، فقال له: أدخل الرحمة والرأفة، فإذا مثل الذي أخرج، شبيه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغد، واسلم، فرجعت بها، أغدو بها؛ رقة على الصغير، ورحمة على الكبير**»(٧٨).

فالمؤمن المحب لرسول الله، المتأسي به ﷺ يقتدي به في أخلاقه، ومنها خلق الرحمة. فالمصدر الثاني لالتزام المؤمن بقيمة الرحمة هو تأسيه بحبيبه محمد، الذي هو أولى به من نفسه ﷺ.

د ـ والمؤمن بالله يلتزم قيمة الرحمة، ويتخلق بها؛ لأنها صفة الله، في معناها اللائق به- سبحانه- فالله هو: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فمن صفاته الثابتة لذاته: الرحمة، قال الله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾

---

(٧٤) القاضي عياض: إكمال المعلم..، ج ٨، رقم ٢٥٩٩، ص ٦٩، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٣٢١، ص ١١٥.

(٧٥) انظر: الإمام الحافظ عبد الله عبد الرحمن الدارمي السمرقندي: سنن الدارمي، ج ١، دار الحديث، القاهرة، رقم ١٥، ص ١١، مع تخريج المحققين، ورواه البيهقي في الشعب موصولا عن حديث أبي هريرة (١٤٤٦)، وأورده التبريزي في مشكاة المصابيح، رقم ٥٨٠٠، وقال الألباني: صحيح.

(٧٦) مجمع الزوائد، ج ٨، رقم ١٣٩٤٠، ص ٤٦١، وقال الهيثمي: ورجال البزار رجال الصحيح.

(٧٧) قال الألباني: حسن، انظر: الأدب المفرد، رقم ٢٧٨، ص ١٠٢.

(٧٨) قال الهيثمي: رواه عبدالله، ورجاله ثقات، وثقهم ابن حبان، وقال محقق المجمع: وله شواهد انظرها في الصحيحة (للألباني)، رقم ١٥٤٥، مجمع الزوائد، ج ٨، رقم ١٣٨٤٣، ص٤٠٨.

[الحجر: ٤٩، ٥٠]، وأخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسـول الله ﷺ: «**لما قضى اللهُ الخلقَ؛ كتب في كتابه، فهو عنـده فـوق العـرش: إن رحمتـي غلبـت غضبي**»(٧٩). وفي رواية له: «**إن رحمتي تغلب غضبي**»، وفي أخـرى: «**إن رحمتـي سبقت غضبي**»(٨٠). ورواه مسلم بروايات، منها: عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال الله – عز وجل: «**سبقت رحمتي غضبي**»(٨١). قـال عيـاض: «الغلبـة، هنـا، والسبق؛ بمعنى، والمراد بها: الكثرة والشمول، كما يقال: غلب على فـلان حـب المال، أو الكرم، أو الشجاعة؛ إذا كان أكثر خصاله»(٨٢).

وقال الطيبي: «في سبق الرحمـة: إشـارة إلى أن قسـط الخلـق منهـا أكثـر مـن قسطهم من الغضب، وأنها تنالهم من غير اسـتحقاق، وأن الغضـب لا ينـالهم إلا باستحقاق؛ فالرحمة تشمل الشخص؛ جنينا، ورضـيعا، وفطـيما، وناشـئا، قبـل أن يصدر منه شيء من الطاعة، ولا يلحقه الغضب إلا بعد أن يصدر عنه من الذنوب ما يستحق معه ذلك»(٨٣). والمقصد: أن الرحمة صفة من صفات الله –عز وجـل– وأن ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسمائه الحسنى؛ التي من أحصاها؛ دخل الجنة(٨٤).

وهذه قاعدة تربوية وعقدية، مهمة جدا، قررها علماء أهل السنة من المسلمين، وهي مبنية على الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم، وغيرهما؛ عـن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسـعين اسـما؛ مائـة إلا واحـدا، مـن**

---

(٧٩) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣١٩٤، ص ٢٨٧.

(٨٠) فتح البـاري، ج١٣، رقـم ٧٤٠٤، ص٣٨٤، ورقـم ٧٤٢٢، ص٤٠٤، ورقـم ٧٥٥٣، ٧٥٥٤، ص٥٢٢.

(٨١) القاضي عياض: إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٥١، ص ٢٩٢

(٨٢) المصدر السابق نفسه.

(٨٣) ابن حجر: فتح الباري، ج ٦، ص ٢٩٢

(٨٤) انظر تفصيل ذلك في:

-أبي عبدالله القرطبي: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ج ١، ص ٦١ – ٩٣

-الإمام البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص ٦٩ – ٧٢.

-ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١٣، ص ٣٥٨ – ٣٦٠.

أحصاها؛ دخل الجنة»[٨٥]. وفي رواية للبخاري: «**لله تسعة وتسعون اسما؛ مائة إلا واحدة، لا يحفظها أحد؛ إلا دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**»[٨٦]. وفي رواية لمسلم: «**لله تسعة وتسعون اسما، من حفظها؛ دخل الجنة**»[٨٧].

فقاعدة الحفظ والإحصاء لأسماء الله الحسنى، قاعدة تربوية وإيمانية، قررتُها وفصلتها في فصل: (**تربية تجدد الإيمان في القلب**)، وأؤكد، هنا، على أنها قاعدة من قواعد التربية الخلقية، نص عليها أئمة أهل السنة والجماعة، وسأنقل، هنا، بعض ما قرروه فيها؛ توضيحا لهذه القاعدة التربوية الخلقية الخطيرة؛ التي تتعلق بمصدر القيم، وبأساس الالتزام الخلقي، وبمفهوم الحفظ والإحصاء لأسماء الله الحسنى:

ـ قال في إكمال المعلم: «وقيل: أحصاها؛ بمعنى: أطاقها.. وإطاقتها: حسن المراعاة لها، والمحافظة لحدودها، والتصديق بمعانيها، والعلم بها، ومقتضى كل اسم وصفة يستفاد منها، وتحقيقها. وقيل: إحصاؤها: العمل بها، والتعبد لله بمعنى كل اسم منها، والإيمان بما لا يقتضي تعبدا وعملا»[٨٨].

ـ وقال في فتح الباري: «قال الأصيلي: الإحصاء للأسماء: العمل بها، لا عدها وحفظها؛ لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق، كما في حديث الخوارج: «**يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم**»، وقال ابن بطال: الإحصاء: يقع بالقول، ويقع بالعمل؛ فالذي بالعمل: أن لله أسماء يختص بها؛ كالأحد، والمتعال، والقدير، ونحوها، فيجب الإقرار بها، والخضوع عندها، وله أسماء يستحب الاقتداء بها في معانيها؛ كالرحيم، والكريم، والعفو، ونحوها، فيستحب للعبد أن يتحلى بمعانيها؛ ليؤدي حق العمل بها، فبهذا يحصل

---

(٨٥) فتح الباري، ج ١٣، رقم ٧٣٩٢، ص ٣٧٧، إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٧٧، ص ١٧٥.
(٨٦) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٤١٠، ص ٢١٤.
(٨٧) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦٧٧، ص ١٧٥
(٨٨) المصدر السابق، ص ١٧٦

الإحصاء العملي، وأما الإحصاء القولي: فيحصل بجمعها وحفظها، والسؤال بها، ولو شارك المؤمنَ غيرُه في العد والحفظ؛ فإن المؤمن يمتاز عنه بالإيمان والعمل بها»(٨٩).

وقد أفاض ابن حجر في شرح مفهوم (أحصاها)، في الجزء الحادي عشر من فتح الباري؛ ومما قال: «وقال ابن بطال: طريق العمل بها: أن الذي يسوغ الاقتداء به، فيها؛ كالرحيم، والكريم؛ فإن الله يحب أن يرى حلاها على عبده، فليمرن العبدُ نفسَه على أن يصح له الاتصافُ بها، وما كان يختص بالله منها؛ كالجبار، والعظيم؛ فيجب على العبد: الإقرار بها، والخضوع لها، وعدم التحلي بصفة منها، وما كان فيه معنى الوعد؛ فقف منه عند الطمع والرغبة، وما كان فيه معنى الوعيد؛ فقف منه عند الخشية والرهبة، فهذا معنى: أحصاها وحفظها،(...) وقال ابن عطية: معنى أحصاها: عدها وحفظها، ويتضمن ذلك: الإيمان بها، والتعظيم لها، والرغبة فيها، والاعتبار بمعانيها،(...) وقال أبو نعيم الأصفهاني: .. هو العمل والتعقل بمعاني الأسماء، والإيمان بها..»(٩٠).

- ويقول الإمام ابن القيم، في مدارج السالكين: «كل اسم: فله تعبد مختص به؛ علمًا ومعرفةً وحالًا؛ وأكمل الناس عبودية؛ المتعبد بجميع الأسماء والصفات، التي يطلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر،(...) وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] والدعاء بها يتناول: دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد؛ وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها.

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو (عليم) يحب كل عليم،

---

(٨٩) فتح الباري، ج ١٣، ص ٣٧٨ .
(٩٠) المصدر السابق، ج ١١، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧، وانظر البيهقي: كتاب الأسماء والصفات، ص ١٧

(جواد) يحب كل جواد،(...) جميل يحب الجمال، عفو يحب العفو، وأهله، حيي يحب الحياء، وأهله، بر يحب الأبرار، شكور يحب الشاكرين، صبور يحب الصابرين، حليم يحب أهل الحلم»(٩١).

وهكذا يتخلق المسلم بصفة الرحمة التي يحبها الله الذي كتب على نفسه الرحمة ، ومقصدنا أن نقرر قاعدة خلقية تربوية تدفع المسلم للتخلق بمعالي الأخلاق، وهي قاعدة ترتكز على معرفة الله، والإيمان به، ومحبته، وموالاته، ومحبة ما يحب، فيتخلق المؤمن بمعاني أسماء الله الحسنى، مما يليق بالمؤمن منها، كما جاء في الشرح السابق، فهذا تعبد وإحصاء عملي لأسماء الله؛ التي هي أخلاق وقيم؛ في معانيها المناسبة للإنسان .

وتطبيقا لهذه القاعدة اهتم شراح الأسماء الحسنى بهذا الجانب الخلقي العملي، حتى يمكن استخراج «منظومة قيم للتربية الإسلامية من معاني أسماء الله الحسنى» من شروح هؤلاء الأئمة، ومما قاله القرطبي، في صفة الرحمة:(٩٢) «فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الله -سبحانه - هو أرحم الراحمين، وأنه متعبد بأن يسأله(...) ويعلم، أيضا، أنه متعبد بأن يرحم، وبأن يكون راحما ورحيما،(..) فينبغي أن تكون لك همة أن ترحم نفسك وغيرك، (...) فندب إلى الرحمة والعطف، على اختلاف أنواعها (...) وأشرفها: رحمة الآدمي، وإن كان كافرا، (...) فكن رحيما لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بغيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفقتك ورأفتك، والعصاة بدعوتك، والبهائم برعوتك ورفع عنفك. فأقرب الناس من رحمة الله: أرحمهم بخلقه، وقد دخلت الْبَغِيُّ الجنة بسقيها كلبا، فمن كثرت منه الشفقة على خلقه والرحمة على عباده؛ رحمه الله برحمته، وأدخله دار

---

(٩١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج ١، ص ٣١٦ .

(٩٢) أبو عبدالله القرطبي: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، ج ١، مصدر سابق، ص ٨٥ – ٩٢.

كرامته،(...) ومن رحمتك لنفسك: أن تطلب النجاة من النار، والفوز بالجنة؛ بتقوى الله، وحفظ حدوده، والعمل برضاه؛ وبأن توصف بأنك راحم؛ بأن ترحم مرة أو مرتين، ولا توصف بأنك راحم ورحيم؛ إلا بالمبالغة وتكرار الفعل».

«والخطاب الوارد عليك بأن تتصف بهذا الوصف؛ منه واجب عليك، وذلك في إنقاذ الغرقى، والهلكى، وسد الخلة المتعينة، ورد الرمق، وأشباه ذلك، ومنه خطاب ندب؛ فيما وراء الواجب؛ وصوره كثيرة، ومنه خطاب الإيثار (...) فمن انتهى إلى هذا المقام؛ استحق أن يُسَمَّى رحيما، ومن اقتصر على أداء الواجب؛ فهو راحم، ومن لم يصدر منه الفعل إلا مرة أو مرتين؛ فقد رحم، ولا يستحق واحدا من الوصفين (...) وبالجملة: فمن كمل إحسانه، وشمل خيره، وكثر عطفه على إخوانه، وإنعامه؛ كان قريبا من رحمة ربه».

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي: «حظ العبد من اسم الرحمن: أن يرحم عباد الله، تعالى، الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة، إلى الله؛ بالوعظ، والنصح، بطريق اللطف، دون العنف، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، لا بعين الإيذاء، وأن يكون كل معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه، فلا يألو جهدا في إزالتها، بقدر وسعه؛ رحمة لذلك العاصي، أن يتعرض لسخط الله- تعالى- ويستحق البعد عن جواره.

وحظه من اسم الرحيم: ألاَّ يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته، ولا يترك فقيرا في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده، ودفع فقره؛ إما بماله، أو جاهه، أو السعي في حقه؛ بالشفاعة إلى غيره، فإن عجز عن جميع ذلك؛ فيعينه بالدعاء، وإظهار الحزن، لسبب حاجته؛ رقة عليه وعطفا، حتى كأنه مساهم

له في ضره وحاجته»[٩٣].

ونخلص مما سبق إلى: أن الرحمة قيمة ملزمة، وخلق يتعبد به المؤمن لله، وأن لها مجالات وأبعادا، تشمل جميع مخلوقات الله، وهو ما أفصله في الفقرة الثامنة.

كما نخلص إلى حقيقة خلقية تربوية؛ هي أن تربية الرحمة تتطلب معرفة وإيمانا بصفة الله الرحمن الرحيم، وتذوق معناهما، والتعبد لله بذلك، والتخلق بما أمكن من معناهما، والتدرب على الاتصاف بهذه القيمة العظيمة، كما أشرت سابقا.

ثامنا: تفصيل جوانب وأبعاد محتوى قيمة الرحمة وتربيتها:

نتناول في هذه الفقرة أبعاد وجوانب مضمون قيمة الرحمة، المذكورة في الفقرة السابقة، وغير المذكورة، وهي جوانب تدل على أن قيمة الرحمة هي قيمة قيم؛ أي: تشكل منظومة قيم خلقية فرعية، فهي قيمة تتضمن قيما، وباستقراء الحديث النبوي تبين أنها تشمل القيم الآتية:

قيمة الرحمة بالوالدين، قيمة الرحمة بين الزوجين، قيمة رحمة الأولاد؛ رحمة الصغار من البنين والبنات، قيمة رحمة اليتيم والمسكين والضعفاء؛ (وسأشير إليها في نهاية هذه الفقرة، بعون الله)، قيمة رحمة الأقارب؛ (صلة الرحم)، قيمة الرحمة بعامة المسلمين، قيمة الرحمة بالناس عامة، قيمة الرحمة بالطير والبهائم وباقي كائنات الأرض، قيمة الرحمة في التربية. فهي عشر قيم، فالرحمة، في المفهوم والتطبيق الإسلاميين، عامة وشاملة، ويلزم إكسابها لكل مسلم ومسلمة، من خلال فعل التربية في المؤسسات التربوية في المجتمع، وأفصل ذلك فيما يلي:

---

(٩٣) أبو حامد الغزالي: المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، مصدر سابق، ص ٦٢.

أ- الرحمة بالوالدين؛ الأم والأب:

١- جاء في حديث هذا الفصل: «**وأهل الجنة ثلاثة:...، ورجل رحيم، رقيق القلب، لكل ذي قربى ومسلم**»، وفي رواية أحمد: «**رحيم رقيق القلب بكل ذي قربى ومسلم**»، وقوله: رجل؛ هو على التغليب، أي: أن الحكم ينطبق على النساء؛ أي: وامرأة رحيمة رقيقة القلب لكل، وبكل، ذي قربى ومسلم، ومسلمة؛ فكل حكم شرعي يعم الرجل والمرأة؛ ما لم ينص الشرع على خلاف ذلك، فالنساء شقائق الرجال في الأحكام، كما في أصل الخلقة، بالشرط المذكور.

٢- وأول، وأولى، ذي القربى: هم الأمهات والآباء، فالرحمة تتعلق بهم، وتتوجه إليهم، أولا؛ وذلك بتطبيق مفهوم الرحمة السابق، في معاملة الأبناء لهم، وهذا هو الإحسان بالوالدين، والبر بهما، وحسن الخلق معهما، والرقة لهما، والخضوع والتواضع والتذلل لهما، وطاعتهما في المعروف، وحسن الصحبة لهما بالأخلاق الحسنة، والمعاونة وحسن الأدب، والدعاء لهما بعد وفاتهما، وود أصدقائهما، وتذوق حلاوة هذه الرحمة ولذتها وجمالها، وخصوصا إذا كان لنا أولاد تعبنا في تربيتهم، وذقنا الكره في تنشئتهم، وخصوصا الأمهات؛ حملا، وولادة، وإرضاعا، وسهرا في الليالي، وفزعا من النوم من أجل راحة الصغار .. الخ .

٣- ومن هنا وصى الله الإنسان بوالديه إحسانا، وحسنا، وقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣،٢٤]، أي: تواضع لهما بفعلك، وتذلل لهما؛ بسبب الرحمة التي في قلبك لهما، ولا تقل لهما أدنى مراتب القول السيئ، وهو: أف، فبالأحرى، وبالأولى: لا تقل لهما أي قول سيئ فوق ذلك، ولا يصدر إليهما، منك، أي فعل قبيح،

وعاملهما في الدنيا أحسن معاملة، واحترمهما، وقل لهما القول الحر الكريم، وادع لهما بالرحمة، وتذكر تعبهما في سبيل تربيتك، وإخراجك شابا ورجلا ناضجا، ناجحا، وفتاة ناضجة، ناجحة، وأطعهما في المعروف، وجاهد فيهما، وَاسْعَ عليهما، وأنفق، وتأدب في حضرتهما، وفي غيابهما، واشكر لهما دائما؛ فهما السبب المباشر لوجودك في العالم ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان : ١٤]، فقم واشكر أمك، وأباك، وتذلل لهما، وأنت تشكرهما، ولا تتعال عليهما؛ كأنك أنت المنعم المتفضلُ، وإن كانا فارقا الحياة الدنيا؛ فزر قبريهما، وادع لهما، بالخير والرحمة، والعفو والغفران[٩٤]، ولا تفضل عليهما أي أحد آخر، مهما كان؛ لا نفسك، ولا زوجتك، ولا أولادك، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا؛ فاخرج.

٤ ـ وقد صحت أحاديث كثيرة، طيبة، في هذه القيمة، أذكر منها؛ للدرس والتفكر، والاعتبار، ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة؛ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق بحسن صَحابتي؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**ثم أبوك**»[٩٥]. وأخرجه مسلم، وفي أوله: «من أحق الناس..»[٩٦]. وأخرج مسلم عن أبي هريرة؛ قال: قال رجل: يا رسول الله، من أحق بحسن الصحبة؟ قال: «**أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك، أدناك**»[٩٧].

فهذا صحابي يسأل النبي ﷺ عن أحق الناس بحسن الصحبة، وفي رواية لمسلم: من أبر؟ فأجابه النبي بأن يبر أمه، ثم أمه، ثم أمه، ثم أباه، ثم الأقرب،

---

(٩٤) ارجع لتفسير آيات البر بالوالدين في سورة الأنعام، وسورة الإسراء، وسورة لقمان، وسورة الأحقاف..، انظر مثلا: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٤، ٣٥.

(٩٥) فتح الباري..، ج ١٠، رقم ٥٩٧١، ص ٤٠١ .

(٩٦) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٤٨، ص ٥ .

(٩٧) إكمال المعلم ج ٨، رقم ٢٥٤٨، ص ٦ .

فالأقرب، وأن يحسن صحبة الأم، ثم صحبة الأب.

والبر: حسن الخلق، وهذا أول الرحمة للأبوين، مع تقرير أن حق الأم في البر؛ حسن الخلق والصحبة، آكد من حق الأب، فللأم ثلاثة أمثال البر؛ لكثرة تحملها وتعبها معك، فهي التي حملت، ووضعت، وأرضعت، وربت، وسهرت، وليس للأب إلا الشركة في التربية والإنفاق، فحق الأم في الرحمة آكد من حق الأب، وحقهما في البر وحسن الصحبة آكد من حق بقية الأقارب، وهكذا يجب أن نشعر ونحس وتنبض قلوبنا .

٥- وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمرو؛ قال: قال رجل للنبي ﷺ: أجاهد؟ قال: «**لك أبوان؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**»(٩٨). أي: فأبلغ جهدك في برهما، والإحسان إليهما؛ فإن ذلك يقوم لك مقام قتال العدو، وهذا إذا لم يتعين الجهاد. ورواه مسلم بلفظ: جاء رجل إلى النبي ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحَيٌّ والداك؟**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**». وروى مسلم عنه؛ قال: جاء رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد؛ أبتغي الأجر من الله. قال: «**فهل من والديك أحد حي؟**» قال: نعم، بل كلاهما. قال: «**فتبتغي الأجر من الله؟**» قال: نعم. قال: «**فارجع إلى والديك؛ فأحسن صحبتَهما**»(٩٩).

وأخرج أبو داود عنه؛ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: جئت أبايعك على الهجرة، وتركت أبوي يبكيان، قال: «**ارجع؛ فأضحكهما كما أبكيتهما**». وأخرج أبو داود عن أبي سعيد الخدري؛ أن رجلا هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن، فقال: «**هل لك أحد باليمن؟**» فقال: أبواي. فقال: «**أذنا لك؟**» قال: لا. قال: «**ارجع إليهما؛ فاستأذنهما. فإن أذنا لك؛ فجاهد، وإلا؛**

---

(٩٨) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٧٢، ص ٤٠٣ .

(٩٩) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٤٩، وما بعده، ص ٧، ٨ .

فبرهما»[١٠٠]. وأخرج النسائي عن معاوية بن جاهمة السلمي؛ أن جاهمة جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئت أستشيرك. فقال: «هل لك من أم؟» قال: نعم. قال: **«فألزمها؛ فإن الجنة تحت رجليها؟»**[١٠١] وفي رواية: **«ألزمها؛ فإن الجنة تحت أقدامها»**[١٠٢]. وفي رواية: **«ألزم رجلها؛ فثم الجنة»**[١٠٣]. وفي رواية: **«فألزمها؛ فإن الجنة عند رجلها»**، وفي رواية الطبراني، بإسناد جيد: «.. **ألك والدان؟**» قلت: نعم. قال: **«ألزمهما؛ فإن الجنة تحت أرجلهما»**[١٠٤].

وأخرج عبد الرزاق عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ: **«نمت، فرأيتني في الجنة، فسمعت صوت قارئ، فقلت: من هذا ؟ فقالوا: حارثة بن النعمان»**، فقال رسول الله ﷺ: **«كذلك البر»**. قال: **«وكان أبرَّ الناس بأمه»**[١٠٥].

والأحاديث كثيرة صحيحة طيبة في هذا، وقد بين النبي ﷺ في بعض ما قصه على المسلمين؛ لتربيتهم، أن دعاء البار، الرحيم، بوالديه، مستجاب؛ (قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار، فانطبقت عليهم صخرة،.. إلخ)، وأن بر الأم مقدم على صلاة التطوع؛ إن تزامنا، وأن دعاء الأم مستجاب في ولدها؛ (قصة جريج)، (رواهما البخاري ومسلم).

٦ـ ورحمة وبر الخالة بمنزلة رحمة الأم وبرها؛ فقد أخرج البخاري وأحمد وأبو داود؛ عن البراء رضي الله عنه من حديث طويل، أن النبي ﷺ قال: **«الخالة بمنزلة**

---

(١٠٠) سنن أبي داود، ج ٢، رقم ٢٥٢٨، ٢٥٣٠، ص ٣٥٥، ٣٥٦، وأخرج الأول: البخاري: الأدب المفرد، رقم ١٩، ص ١٩، وقال الألباني: صحيح، وفيه: «ارجع إليهما..».

(١٠١) سنن النسائي، ج ٦، ص ٩، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي (٤/ ١٥١).

(١٠٢) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ١٢٤٩، ص ٢٦٩.

(١٠٣) قال الألباني: حسن، المصدر السابق، رقم ١٢٤٨، ص ٢٦٩.

(١٠٤) انظر: القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، المجلد الثاني، رقم ١٤٧٥، ص ١٨٢

(١٠٥) عبدالرزاق الصنعاني: المصنف، ج ١١، (كتاب الجامع)، رقم ٢٠١١٩، ص ١٣٢

الأم»(١٠٦). وأخرج الترمذي عن ابن عمر؛ أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله؛ إني أصبت ذنبا عظيما، فهل لي توبة؟ قال: «**هل لك من أم ؟**» قال: لا، قال: «**هل لك من خالة؟**» قال: نعم، قال: «**فبرها**»(١٠٧).

٧ ـ وهذه الرحمة لا تختص بالأبوين المسلمين، بل هي، أيضا، للأبوين المشركين؛ قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان :١٥]، وأخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما -قالت: أتتني أمي، وهي راغبة (يعني: في صلتي لها)، في عهد النبي ﷺ (يعني: في مدة صلح الحديبية مع قريش)، فسألت النبي ﷺ: آصلها؟ قال: «**نعم**». وأخرجه؛ عن عروة؛ عن أسماء؛ قالت: قدمت أمي، وهي مشركة، في عهد قريش ومدتهم؛ إذ عاهدوا النبي ﷺ مع أبيها، فاستفتيت النبي ﷺ فقلت: إن أمي قدمت، وهي راغبة ؟ قال: «**نعم، صِلي أمك**»(١٠٨). فانظر هذه الرحمة بالأبوين، حتى وهما مشركان! فالبراءة، والبراء من الشرك وأهله، لا يعني: القسوة، وعدم الرحمة، وسيأتي من هذا المعنى فوائد عزيزة، فعض عليها.

٨ ـ وتأمل في هذه الوقائع التطبيقية لقيمة الرحمة بالأبوين؛ حتى من الرضاع: أخرج أبو داود أن أبا الطفيل (صحابي) قال: رأيت النبي ﷺ يقسم لحما بالجِعِرانة، قال أبو الطفيل: وأنا يومئذ غلام أحمل عظم الجزور، إذ أقبلت امرأة، حتى دنت إلى النبي ﷺ فبسط لها رداءه، فجلست عليه، فقلت: من هي؟ فقالوا: هذه أمه التي أرضعته. وأخرج أبو داود أن رسول الله ﷺ كان جالسا يومًا، فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه، فقعد عليه، ثم

---

(١٠٦) فتح الباري...، ج ٥، رقم ٢٦٩٩، ص ٣٠٤، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩١١، ص ٣٦٢، وقال: وهذا حديث صحيح .

(١٠٧) سنن الترمذي، ج ٣، ص ٣٦٢ .

(١٠٨) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٧٨، ٥٩٧٩، ص ٤١٣ .

أقبلت أمه، فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر، فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام له رسول الله ﷺ فأجلسه بين يديه(١٠٩).

وتأمل في تعامل محمد بن سيرين؛ الجهبذ، الإمام، مع أمه؛ عن ابن عون؛ قال: دخل رجل على محمد، وهو عند أمه، فقال: ما شأن محمد؟ أيشتكي شيئا؟ قالوا: لا؛ ولكن هكذا يكون؛ إذا كان عند أمه.

وعن هشام بن حسان؛ قال: حدثني بعض آل سيرين؛ قال: ما رأيت محمد ابن سيرين يكلم أمه إلا وهو يتضرع(١١٠).

وكان عبد الله بن المبارك، إذا قدم همدان، يخضع لوالديه، ويعظمهما. وكان محمد بن المنكدر يضع خده على الأرض، ثم يقول لأمه: قومي؛ ضعي قدمك على خدي!(١١١).

وقال محمد بن المنكدر: بات أخي عمر؛ يصلي، وبت أغمز قدم أمي (أدلكها بيدي)، وما أحب أن ليلتي بليلته(١١٢)، يعني: أنه ظل يعبد الله بتدليك رجل أمه؛ ليخفف ألمها، ويريحها، بهذا التدليك، وكان يفضل هذا على صلاة الليل، في تلك الليلة، فما أجمل هذا الفقه! وما أرحم أهله!

والرحمة بالوالدين ـ مع ذلك ـ مشاعر عميقة تستغرق الوجدان والضمير الإنساني؛ شعور الاعتراف بالجميل، والتواضع، والحياء من التقصير، والخجل، والإكرام(١١٣)،.. إلخ.

٩ـ هذه هي قيمة الرحمة بالأبوين، مادامـا حيين في الدنيا، فإن مات أحدهما، أو كلاهما؛ فهناك رحمة أخرى تضاف؛ هي ما رواه مسلم عن عبد

---

(١٠٩) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٥١٤٤، ورقم ٥١٤٥، ص ٣٧٤، ٣٧٥ .

(١١٠) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ٢٧٣ .

(١١١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٨، ص ٣٨١.

(١١٢) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥٦ .

(١١٣) المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٥٩ .

الله بن دينار؛ عن عبد الله بن عمر؛ أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه عبد الله، وحمله على حمار، كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب، وإنهم يرضون باليسير! فقال عبد الله: إن أبا هذا كان وُدا؛ (صاحب محبة وحسن صحبة) لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أبر البر** (أحسن أنواع الخلق) **صلة الولد أهلَ وُد أبيه**»، ورواه مسلم، وفي آخره: «**إن من أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه، بعد أن يولي**»، وإن أباه كان صديقا لعمر(١١٤).

فمن رحمة الإنسان بأبويه؛ بعد موتهما: أن يحسن الولد والبنت صحبة أهل محبتهما، بعد أن يوليا؛ أي: يموتا، فإن حسن العهد من الإيمان، وهذا من حسن العهد، ومن رحمة الإنسان بوالديه: أن يزور قبريهما، ويدعو لهما، بالرحمة والمغفرة، ويستعيد ذكرياته معهما، ويتذوق معاناتهما معه، وأن يصل رحمه من جهة قرابتهما، وأن يتصدق عليهما، وأن ينفذ عهديهما.. إلخ، وهي صور من الممارسات تدل على فعل الرحمة، ورقة المشاعر نحو الأبوين(١١٥).

١٠ـ تربية قيمة الرحمة بالوالدين: إن اكتساب هذه القيمة وممارستها في الحياة الأسرية، والاجتماعية، من قِبَل الأولاد؛ الصغار والكبار، هدف تربوي أساسي من أهداف تربية القلب، والتربية الأسرية، ولكي نتحقق بذلك؛ فإنه ينبغي عمل ما يأتي:

١٠ـ ١: مبدأ المعرفة والوعي: أي: تحصيل تصور وإدراك صحيح ودقيق وواضح لهذه القيمة؛ مفهومها، وفرضيتها، وصورها التطبيقية، وفضلها

---

(١١٤) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٥٢، ص ١٥، ١٦، ورواه الترمذي وقال: هذا إسناد صحيح، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩١٠، ص ٣٦١. ورواه أبو داود، ولفظه: «**إن أبر البر صلة المرء..**»، سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٥١٤٣، ص ٣٧٤. وأخرجه غيرهم.

(١١٥) انظر: البخاري: الأدب المفرد، أرقام ٣٦ ـ ٣٩، ص ٢٦، القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ٢، أرقام ١٤٨٧ ـ ١٤٨٩، ص ١٨٥، ١٨٦.

وثوابها، وأهميتها الاجتماعية والبيئية، وترقيتها للضمير الإنساني، وذلك من خلال: دراسة الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، الصحيحة، فيها، وتطبيقات الصالحين لها؛ إما دراسة ذاتية، أو جماعية مشتركة، أو من خلال دورة تربوية، أو بالاستماع لخطب أو تسجيلات أهل العلم المختصين، أو بتوجيه الأبوين، أو المعلمِين، من خلال برنامج دراسي منظم، في الرحمة، وقد يمكن توظيف هذا الفصل في ذلك؛ لتكوين وتنمية وعي عقلي وقلبي صحيح بقيمة رحمة الوالدين، وإدراك كيفية ممارستها.

وقد يوظف أسلوب البحث؛ الفردي أو الجماعي؛ وأسلوب المسابقات، وتلخيص الكتب، والبحث في النت، والعصف الذهني، والندوات، والحوارات، وورش العمل.. إلخ، لتحصيل ذلك الوعي .

١٠ - ٢: مبدأ الإيمان، والحب، والقصدية: أي: تكوين وتنمية الإيمان القلبي، والشعور العاطفي بهذه القيمة، وحبها واشتهائها، وإرادتها، وطلبها، والقصد إليها، من خلال التأثر الشعوري والانطباع الوجداني، بالآيات والأحاديث، وسِيَر الرحماء، والتصديق بها، واليقين فيها، والخضوع لها، والرغبة القوية في التخلق بها، والاتجاه النفسي القوي نحو ممارستها، وإرادة الاتصاف بها، والانطباع بها. ويتحصل ذلك في القلب والشعور؛ من خلال: الدرس، والاستماع، والتفكر فيما سبق، ومن خلال الصلاة الخاشعة بآيات البر بالوالدين، أو الاستماع لقارئ خاشع لها، وللأحاديث النبوية، في رحمة الوالدين، والاستماع لعلماء أرقاء القلوب يتحدثون عن الرحمة، ومن خلال محاسبة النفس على مدى العمل بهذه القيمة، مع استحضار الوقوف بين يدي الله للحساب على ذلك، ومن خلال التفكر في آثار الرحمة بالوالدين في النفس والولد والآخرة، ومن خلال التعبد باسم الله الرحمن والرحيم، ومن خلال التأسي بالرسول ﷺ وأصحابه، والتابعين، في تنفيذ هذه القيمة؛ وذلك كله

من خلال: دورة تربوية، لتكوين وتنمية هذا الإيمان والحب والقصدية لقيمة الرحمة بالوالدين، ومن خلال دروس ومحاضرات وتسجيلات؛ في البيوت، أو المساجد، أو القنوات الفضائية، أو عبر النت، أو الاستماع لقصائد شعرية في رحمة الوالدين، .. إلخ.

وكل هذا؛ لتكوين الإيمان الذاتي، والرغبة والعشق الذي يتجه بالمسلم، ويحركه، ويدفعه، لممارسة هذه الرحمة بالوالدين، أي: تذويت قيمة الرحمة بالوالدين، وتحويلها إلى ضمير خلقي ذاتي. ومن الضروري أن ينتبه المربون في الأسر وغيرها، إلى هذا المبدأ؛ مبدأ تذويت القيمة، فمن هنالك نبدأ؛ من تربية إرادة الرحمة بالوالدين، وعشقها.

١٠ - ٣: مبدأ التعود والممارسة والشروع الفوري في العمل بها: أي: البدء الفوري في تنفيذ صور الرحمة المذكورة للأبوين، فنحن نتعلم ما نفعله، لا ما نسمعه، أو نقرؤه، أو نقوله، فقط، فالفعل يرقينا ويربينا، نحن نتعلم الرحمة بممارسة الرحمة، كما نتعلم الكتابة بالكتابة؛ والسباحة بالسباحة، فنحن نتعلم الخير بالتعود، طبقا لقاعدة ابن مسعود: «تعودوا الخير؛ فإنما الخير بالعادة»، «**وعلموهم الخير؛ فإنما الخير عادة** »، (سيأتي تخريج ذلك)، وهذا أصل تربوي في الأسرة، وفي تربية الصغار والكبار، فيشرع المسلم، فورا، في ممارسة رحمة الوالدين، ويكرر تطبيق وتنفيذ صور الرحمة بالوالدين، حتى يتعودها، وتصبح الرحمة بالوالدين خلقا له؛ ويستثمر المسلم كل الفرص الممكنة والمتاحة؛ للتدرب والتعود، على رحمتهما؛ فيذهب لتقبيل يد أمه، وأبيه، ويقوم بخدمتهما، ومعاونتهما بإجراءات عملية ملموسة، ويتكلم معهما بأدب، ويخضع لهما، ويتضرع إليهما، ويبادر إلى تنفيذ أوامرهما، وطلباتهما، ويدعو لهما.. إلخ. حتى تصبح هذه القيمة (عادة سلوكية سلسة)، تصدر عنه بسهولة، ويرتاح لفعلها، فتصبح خلقا وصفة مميزة له.

وللأبوين، هنا، دور مهم في تعويد أولادهما على ممارسة هذه القيمة؛ بممارستهما للرحمة مع والديهما، فيتشرب الأولاد هذا الخلق كما يتنفسون الهواء، فللقدوة أثر خطير في حث الصغار على فعل القيمة. إنها مشجع قوي.

١٠ - ٤: مبدأ التعزيز والتشجيع: وهذا التعود يتطلب تقوية للنفس، وتشجيعا لها، وترغيبَ وتشجيعَ المربين المسلمين لمن يربونهم، في ممارسة الرحمة بالوالدين، وهذه يتطلب أن يتذكروا ثواب العمل بهذا الخلق عند الله، وأن يثني المربي على من يعمل بها، وأن يقدم المربي حوافز معنوية ومادية للأكثر عملا بها.

١٠ - ٥: مبدأ الثقافة المربية، ومبدأ القدوة المشعة: فإشاعة ثقافة مربية في البيئة التي ينشأ فيها المتربي أمر ضروري ليتشرب الإنسان الخلق المطلوب من خلال تلقائية الحياة والأفعال، فيتعلم الخلق كما يتعلم اللغة؛ بالمعايشة؛ والمشاركة في صنع الجو الاجتماعي؛ وهذا يتطلب أمرين:

الأول: أن يكون هناك قدوات مشعة بسلوكها، وممارستها لهذه القيمة؛ فتَعامُلُ الأبوين برحمة مع آبائهم وأمهاتهم، هو في ذاته، يشع نورا ورحمة على الأبناء، ويدفعهم لرحمة أبويهم. وتعامل الدعاة والمربين والخطباء، مع آبائهم؛ بالرحمة، يجعل لكلامهم رصيدا قويا في نفوس المستمعين .

والثاني: إشاعة ثقافة الرحمة؛ من خلال أجهزة التثقيف، ووسائل الاتصال، والقنوات الفضائية، ومن خلال الدعاة في المساجد، ومن خلال قراءة الكتب، والمجلات، في البيوت، ومن خلال تذوق الدعاة والأبوين للرحمة، ومن خلال الأشعار والقصص، والمسلسلات، والأفلام، عن رحمة الأبوين، ومن خلال الدرس والتوجيه في المدرسة، وكلمة الصباح، وخطبة المسجد، ومقالة المجلة، والروح العام في الشارع والمجتمع، وتوجيه الأطفال وعموم المسلمين لحفظ قصائد مختارة عن رحمة الوالدين، ومن خلال

المسابقات، وتقديم حوافز مشجعة على ممارسة قيمة الرحمة بالأبوين.

وهذا كله مما ينبغي أن يتحقق في الوسط الدعوي والحركي، وفي الوسط الأسري، والاجتماعي، والثقافي، والإعلامي؛ مما يدفع إلى ممارسة القيمة وتذوقها. ويمكن عمل أسبوع رحمة الوالدين في المساجد، والقنوات الفضائية، وفي المدارس، والجامعات، والجمعيات والنقابات، والحركات الإسلامية، لإشاعة ثقافة الرحمة بالوالدين، ورصد جوائز تقدم في احتفال شعري، عن رحمة الوالدين لأحسن راحم لأبويه؛ لتشجيع الرحماء.

ب ـ قيمة الرحمة بالأقارب؛ صلة الرحم:

١ ـ جاء في حديث هذا الفصل: «**ورجل رحيم، رقيق القلب، لكل - بكل - ذي قربى، ومسلم**»، ومن رحمة ذي القربى: صلة الرحم، والرحم: اسم يطلق على الأقارب، وهم: مَن بينه وبين الآخر نَسَب، سواء كان يرثه أم لا، سواء كان ذا محرم أم لا(١١٦). وقال في إكمال المعلم: «هي القرابة والنسب، واتصال مخصوص، تجمعه رحمُ والدة، فسمي ذلك الاتصال بها..، والعق: الشق، كأنه قطع ذلك النسب، الذي يصلهم به..»(١١٧). والصلة، هنا، تعني: العطف، والحنان، والرحمة،.. ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة، على الجملة، وقطعها: كبيرة، ولكن الصلة درجات؛ بعضها فوق بعض. وأدناها: ترك المهاجرة، وصلتها، ولو بالسلام،.. وهذا بحكم القدرة على الصلة، وحاجتها إليها، فمنها ما يتعين ويلزم، ومنها ما يستحب ويرغب فيه(١١٨).

٢- **وصلة الرحم: حق القرابة**، والله، تعالى، يقول: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الإسراء : ٢٦]، وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قال:

---

(١١٦) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤١٤ .
(١١٧) القاضي عياض: إكمال المعلم، ج ٨، ص ١٩
(١١٨) المصدر السابق، ص ٢٠

«إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه؛ قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم؛ أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، يا رب، قال: فهو لكِ». قال رسول الله ﷺ: «**فاقرؤوا، إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾** [محمد:٢٢]»(١١٩).

وأخرج البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**إن الرحم شُجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته**». وأخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: «**الرحم شُجنة، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته**»(١٢٠).

وأخرج مسلم عن عائشة؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني؛ وصله الله، ومن قطعني؛ قطعه الله**»(١٢١). وأخرج البخاري، في الأدب المفرد، ومسلم، عن عائشة - رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: «**الرحم شَجنة من الله، من وصلها؛ وصله الله، ومن قطعها؛ قطعه الله**»(١٢٢). وأخرج البخاري في الأدب المفرد: عن أبي العنبس؛ قال: دخلت على عبد الله بن عمرو، في الوهط، يعني: أرضا له بالطائف - فقال: عطف لنا النبي ﷺ إصبعه، فقال: «**الرحم شُجنة من الرحمن، من يصلها؛ يصله، ومن يقطعها؛ يقطعه، لها لسان طلق، ذلق؛ (فصيح، بليغ)، يوم القيامة**»(١٢٣).

وأخرج الترمذي، والبخاري في الأدب المفرد وغيرهما - وهذا لفظ الترمذي - عن أبي سلمة؛ قال: اشتكى أبو الرداد، الليثي، فعاده عبد الرحمن

---

(١١٩) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٨٧، ص ٤١٧، ورواية مسلم قريبة منها، إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٥٤، ص ١٩، ورواه البخاري في الأدب المفرد، بإسناد صحيح، كما قال الألباني: الأدب المفرد، رقم ٥٠، ص ٣٠.

(١٢٠) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٨٨، ٥٩٨٩، ص ٤١٧.

(١٢١) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٥٥، ص ١٩

(١٢٢) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٥٥، ص ٣٢.

(١٢٣) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٥٤، ص ٣٢.

ابن عوف، فقال: خيرهم وأوصلهم، ما علمت، أبا محمد، فقال عبد الرحمن: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله، تبارك وتعالى: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها؛ وصلته، ومن قطعها؛ بتته**». قال أبو عيسى الترمذي: حديث سفيان، عن الزهري: حديث صحيح. قلت: وهو الذي ذكرته(124).

فالرحم تقوم، وتستعيذ بالله من القطيعة، والله، تعالى، يُرضي الرحم؛ بأن يصل من وصلها، ويقطع من قطعها، فالرحم تتكلم، وتدعو الله، وتأخذ بالعرش، لشدة تضرعها، وتقول: من وصلني؛ وصله الله. والقطيعة: إفساد في الأرض، وتقطيع للعلاقات الاجتماعية. والرحم شجنة من الرحمن، قال ابن حجر: «وأصل الشجنة: عروق الشجر المشتبكة، والشجَن ـ بالتحريك ـ واحد الشجون، وهي طرق الأودية، ومنه قولهم: (الحديث ذو شجون)، أي: يدخل بعضه في بعض. وقوله: «من الرحمن»؛ أي: أخذ اسمها من هذا الاسم».. والمعنى: أنها أثر من آثار الرحمة، مشتبكة بها، فالقاطع لها؛ منقطع من رحمة الله. وقال الإسماعيلي: معنى الحديث: أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن، فلها به عُلقة، وليس معناه: أنها من ذات الله، تعالى الله عن ذلك.

قال القرطبي: الرحم التي توصل: عامة وخاصة، فالعامة: رحم الدين، وتجب مواصلتها؛ بالتوادد، والتناصح، والعدل، والإنصاف، والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة. وأما الرحم الخاصة: فتَزيد: النفقة على القريب، وتفقد أحوالهم، والتغافل عن زلاتهم. وتتفاوت مراتب استحقاقهم من ذلك، كما في الحديث الأول من كتاب الأدب (الأقرب فالأقرب)، وقال ابن أبي جمرة: تكون صلة الرحم بالمال، وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة

---

(124) انظر: سنن الترمذي، ج 3، رقم 1914، ص 363، 364، وقال الألباني: صحيح، انظر: الأدب المفرد، رقم 53، ص 31، 32.

الوجه، وبالدعاء، والمعنى الجامع: إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر، بحسب الطاقة»[١٢٥].

وأصل صلة الرحم: شعور بالرقة والعطف والحنان تجاه أقاربنا، يدفع لفعل ذلك كله.

٣ـ وصلة الرحم المذكورة قيمة واجبة ملزمة؛ من تركها؛ فقد ارتكب خطيئة كبيرة، تدخله تحت وعيد الله، فقد أخرج مسلم، عن محمد بن جبير بن مطعم؛ أن أباه أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة قاطع رحم**»[١٢٦]. ورواه البخاري بلفظ: «**لا يدخل الجنة قاطع**»[١٢٧]. ورواه مسلم، والترمذي، بهذا اللفظ، وفيهما: قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني: قاطع رحم[١٢٨]. قال ابن حجر: وفي الأحاديث الثلاثة: تعظيم أمر الرحم، وأن صلتها: مندوب مرغب فيها، وأن قطعها من الكبائر؛ لورود الوعيد الشديد فيها[١٢٩]. قلت: فتكون صلتها: فرضا لازما، وليس مندوبا، فقط.

٤ - وقد يقع أن يصل الإنسانُ رحمَه؛ ولكن أقرباءه يسيئون إليه، فيريد أن يعاملهم بالمثل، بأن يقطع رحمه؛ فيسيء إليهم؛ كما أساؤوا هم إليه، وهذا خطأ؛ لأن صلة الرحم لا تعني المعاملة بالمثل، فالواصل لرحمه ليس هو المكافئ، أي: الذي يتعامل مع قرابته بالمثل، فإن أحسنوا؛ يحسن، وإن أساؤوا؛ يسيء، لا، هذا ليس خلقا؛ بل هو منفعية، ومصالح بمصالح، فالخُلق، هنا، هو: أن تصل الرحم، وإن قاطعك أقاربك، وأساؤوا إليك؛ أخرج البخاري

---

(١٢٥) فتح الباري...، ج ١٠، ص ٤١٨ .

(١٢٦) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٥٦، ص ٢٠، ورواه البخاري: الأدب المفرد، رقم ٦٤، ص ٣٥، وهو صحيح .

(١٢٧) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٨٤، ص ٤١٥ .

(١٢٨) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٥٦، ص ١٩، ٢٠، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩١٦، ص ٣٦٤، ٣٦٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح .

(١٢٩) فتح الباري، ج ١٠، ص ٤١٩ .

والترمذي، وغيرهما، عن عبد الله بن عمرو؛ عن النبي ﷺ قال: «**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل: الذي إذا قطعت رحمه؛ وصلها**»[١٣٠].

وأخرج عبد الرزاق، عن عمر؛ موقوفا، ليس الوصل: أن تصل من وصلك، ذلك القصاص، ولكن الوصل: أن تصل من قطعك[١٣١].

فصلة الرحم: ليست أن تكافئ قريبك بمثل فعله، ولكن بالتفضل عليه، إنها خلق للقلب، وليست معاملة تجارية. ولهذا قال النبي ﷺ «**أفضل الصدقة: على ذي الرحم الكاشح**»[١٣٢]. أي: الذي يضمر لك عداوته في كَشحِه، يعني: خصره، وباطنه، وهو في معنى: «**وتصل من قطعك**».

وفي هذا المعنى أخرج مسلم، عن أبي هريرة: أن رجلا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة، أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلُم عنهم، ويجهلون علي، فقال: «**لئن كنتَ كما قلتَ؛ فكأنما تُسِفّهم المَلّ**، (تسقيهم الرماد الحار، أو ترمي به في وجوههم) **ولا يزال معك من الله ظهير عليهم؛ ما دمت على ذلك**»[١٣٣].

قال عياض: «يريد: أنك؛ بإحسانك إليهم؛ تخزيهم، وتحقرهم في أنفسهم، وتبلي قلوبهم؛ برؤيتهم حسن فعلك معهم، وقبح مكافأتهم، فهم من الخزي، عند أنفسهم، كمن يُرمَى في وجهه التراب والرماد المحمي، ونكاية القلوب؛ كمن سُقِيَ الجمر، أو الرماد المحمي، أو أن ذلك الذي يأكلونه من رفدك،

---

(١٣٠) المصدر السابق، رقم ٥٩٩١، ص ٤٢٣، الترمذي: سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩١٥، ص ٣٦٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح .

(١٣١) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٢٣ .

(١٣٢) قال الألباني: صحيح، وأورده بلفظ: «**أفضل الصدقةِ الصدقة..**»، صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ١١١٠، ص ٢٤٩، رواه أحمد والطبراني عن أبي أيوب وعن حكيم بن حزام. والطبراني والحاكم وابن خزيمة عن أم كلثوم بنت عقبة، وانظر: القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ٢، رقم ١٥١٠، ص ١٩١ ، ١٩٢

(١٣٣) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٥٨، ص ٢١، ٢٢، ورواه البخاري في: الأدب المفرد، قال الألباني: صحيح، رقم ٥٢، ص ٣١ .

وإحسانك؛ كمن يأكل ذلك، ويحرق به أحشاءه. وأما قوله: «**ولا يزال معك ظهير من الله عليهم**»؛ أي: معين، وكاف لأذاهم. وقوله: «**وأحلم عنهم، ويجهلون**»؛ أي: يسبونني. والجهل: القُبح من القول، في مثل هذا»(١٣٤).

٥- ورحمة الأقارب: **قيمة خلقية**، من أخلاق الضمير، والسلوك، فلا تختص بالأقارب المسلمين الصالحين، فقط، بل تشمل العصاة من الأقارب، كما هو واضح من الحديث السابق، وتتسع لتشمل الأقارب الكفار؛ إن وُجِدوا، روى البخاري، عن عمرو بن العاص؛ قال: سمعت النبي ﷺ جهارا، غير سر، يقول: «**إن آل أبي**» - قال عمرو: في كتاب محمد بن جعفر: بياض- «**ليسوا بأوليائي، إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»، زاد عنبسة بن عبد الواحد، عن بيان، عن قيس، عن عمرو بن العاص؛ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ولكن لهم رحِم؛ أَبُلُها بِبِلالها**». يعني: أصلها بصلتها(١٣٥). فهؤلاء المشار إليهم بآل أبي (..فلان) من غير المسلمين، ليسوا بأوليائي، ولكن أقربائي، وذوو رحم مني، وإني أصل هذه القرابة، قال ابن حجر: «ووقع في شرح المشكاة: المعنى: أني لا أوالي أحدا بالقرابة، وإنما أحب الله، تعالى؛ لما له من الحق الواجب على العباد، وأحب صالح المؤمنين، لوجه الله، تعالى، وأوالي من أوالي؛ بالإيمان والصلاح، سواء كان من ذوي رحم، أو لا، ولكن أرعى لذوي الرحم حقهم؛ لصلة الرحم. انتهى. وهو كلام منقح(١٣٦).

وأخرج مسلم عن أبي هريرة؛ قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[الشعراء : ٢١٤]، دعا رسول الله قريشا، فاجتمعوا، فعم وخص، فقال: «**يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد شمس، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني**

---

(١٣٤) إكمال المعلم، ج ٨، ص ٢٢

(١٣٥) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٩٠، ص ٤١٩ .

(١٣٦) المصدر السابق، ص ٤٢١ .

عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار. يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار؛ فإني لا أملك لكم من الله شيئا، غير أن لكم رحما؛ سأبلها ببِلالها»(١٣٧). ورواه أحمد؛ وفيه: «**إلا أن لكم رحما؛ سأبلها ببلالها**»(١٣٨)، وفي رواية للنسائي: «**ولكن بيني وبينكم رحم؛ أنا بالُّها ببِلالها**»(١٣٩).

ومعنى أَبُلُّها: قال أبو عمر: «ويقال: بللت رحمي بَلا، وبِلالا؛ قال الأصمعي: أي: وصلتها، وندَّيتها بالصلة، وإنما شبهت قطيعة الرحم بالحرارة، تطفأ بالبرد..، وقال الهروي: البلال: جمع بلل، كجمل وجمال»(١٤٠). وهذا الضبط: أوجه؛ قال ابن حجر: «فإنه من البِلال؛ جمع: بلل،.. والبلال: بمعنى: البلل، وهو النداوة، وأطلق ذلك على الصلة، كما أطلق اليبس على القطيعة؛ لأن النداوة من شأنها تجميع ما يحصل فيها، وتأليفه، بخلاف اليبس؛ فمن شأنه التفريق. وقال الخطابي: بللتُ الرحمَ بَلا، وبللا، وبلالا؛ أي: ندَّيتُها بالصلة.. فشُبهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلُها بالمَاء، الذي يطفئ ببرده الحرارة، ومنه الحديث: «**بُلوا أرحامكم، ولو بالسلام**». وقال الطيبي وغيره: شَبَّه الرحمَ بالأرض، التي؛ إذا وقع عليها الماء؛ وسقاها، حق سقيها؛ أزهرت، ورُئيت فيها النضارة، فأثمرت المحبةَ والصفاءَ، وإذا تُركت بغير سقي؛ يَبِسَت، وبطلت منفعتها، فلا تثمر إلا البغضاءَ والجفاءَ...

وقال الطيبي: في قوله: (ببلالها)؛ مبالغة بديعة؛ وهي مثل قوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾؛ أي: زلزالها الشديد، الذي لا شيء فوقه، فالمعنى: أبلها بما

---

(١٣٧) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٣٤٨، ص ٥٩٢ .

(١٣٨) المسند، ج ٨، رقم ٨٧١١، ص ٤٠٠، وسنن النسائي، ج ٦، رقم ٣٦٤٤، ص ١٨١

(١٣٩) سنن النسائي، ج ٦، رقم ٣٦٤٥، ص ١٨١

(١٤٠) إكمال المعلم، ج ١، ص ٥٩٢، ٥٩٣ .

اشتُهِرَ وشاع، بحيث لا أترك منه شيئا»(١٤١).

وهكذا فإن النبي ﷺ كان يصل رحمَه، حتى الذين كانوا غير مسلمين، وليسوا له بأولياء، ومن هنا نفهم قوله ﷺ: «**رحيم، رقيق القلب؛ لكل ذي قربى، ومسلم**»، فعطَفَ المسلمَ على ذي قربى، وهو يقتضي المغايرةَ، فذو القربى؛ قد لا يكون مسلما، ومع ذلك يرحمه المسلمُ، ويرق له، كما يذكر النبي ﷺ.

ونستنتج من هذا التحليل مبدأ مهما؛ هو التمييز بين: مفهوم الولاء، ومفهوم البر وحسن الخلق، وصلة الرحم، الأول: خاص بالمسلمين، والثاني: يعم المسلمين والكافرين من ذوي القربى، فهما مفهومان متمايزان.

ونقرر: أن حديث عمرو بن العاص مهم جدا؛ لأنه يدل على أن هذا الحكم قائم، ومطبق، بعد صلح الحديبية، وأنه لم يُنسَخ الحكم المتضمن في حديث أبي هريرة، وكلا المعنيين واحد فيهما، فالخطاب عن المشركين في حديث عمرو؛ الذي أسلم بعد صلح الحديبية، وكذلك هو في حديث أبي هريرة، عن كثير من المشركين، ومع ذلك: يؤكد النبي ﷺ أنه سيبل رحمه ببلالها، ويصل قرابته من المشركين.

فتأمل هذا؛ لتستوعب عظمة قيمة الرحمة في المفهوم والتطبيق الإسلاميين.

٦ـ تربية قيمة الرحمة بالأقارب:

إكساب هذه القيمة الواجبة، لكل مسلم ومسلمة، فرض تربوي إسلامي؛ في الأسرة، والمسجد، والكتاب، والمدرسة، وحركات البعث الإسلامي، وعموم الفعاليات التربوية في المجتمع المسلم، وإكساب، واكتساب، هذه القيمة، يعني: تطبيق المبادئ التربوية الضرورية لإكساب أية قيمة وتنميتها؛ وأهمها، هنا:

٦- ١: مبدأ إدراك القيمة والوعي بها: أي: أن يتصورها المسلم تصورا

---

(١٤١) ابن حجر: فتح الباري...، ج ١٠ ص ٤٢٢، ٤٢٣.

صحيحا، ويعقلها، ويدركها إدراكا دقيقا واعيا، فيدرك معناها ومفهومها، وصورها الإجرائية التطبيقية، وأدلة وجوبها، وفضلها، وثوابها، وآثارها الاجتماعية؛ وذلك من خلال التثقف والدرس الذاتي، بالقراءة والاستماع المتفكر لآيات وأحاديث صلة الرحم، ومن خلال البحث والدرس الجماعي، ومن خلال توجيه الأبوين، والدعاة؛ في المساجد، والقنوات الفضائية، ومن خلال الاستماع للتسجيل المناسب ولموقع النت المناسب، ومن خلال حضور دورة تربوية في رحمة الأقارب، والصلوات الجماعية بآيات صلة الرحم، والاشتراك في مسابقات بحثية عن هذه القيمة.

٦- ٢: **مبدأ تذويت قيمة الرحمة بالأقارب**: أي: تنمية الإيمان القلبي والشعور العاطفي، والتذوق الوجداني، وتنمية الرغبة والعشق، والاهتمام الذاتي، وشهوة الاتصاف والتخلق، بهذه القيمة، من خلال دراسة ما سبق، وخاصة: دراسة أبواب: صلة الرحم؛ من كتاب: الأدب، في صحيح البخاري، والأدب المفرد؛ له، وكتاب: البر والصلة والأدب من صحيح مسلم، والترغيب في صلة الرحم من المنتقى من الترغيب والترهيب، ودراسة كبيرة: قطيعة الرحم من الزواجر عن اقتراف الكبائر؛ للهيثمي، وعمل دورة تربوية للشباب والفتيات عن ذلك، مع التأثر والانطباع العاطفي، والتذوق لآثار صلة الرحم في النفس والقلب، والشعور، والعمر، والعلاقات الإنسانية، والاجتماعية، ولآثار قطيعة الرحم؛ في الدنيا والآخرة، من المصادر المذكورة؛ بما ينمي الإيمان بها، ويربي إرادة صلة الرحم، والرغبة فيها، ويدفع المسلم، بعشق، لممارستها، مع استصحاب المسلم، دائما، أن الله هو الذي يأمر المؤمن بها(١٤٢).

---

(١٤٢) ويمكن دراسة آيات صلة، أو قطيعة الرحم، من التفاسير المربية – مع الصلاة الخاشعة في السحر، مع قارئ خاشع الصوت، رقيق القلب، بهذه الآيات.

٦- ٣: مبدأ التعود والممارسة الفورية لصلة الرحم: أي: أن يتمرن الإنسان المسلم؛ الصغير والكبير، الذكر والأنثى، ويتعود على رحمة أقاربه، بأن يقوم، فورا، بزيارتهم، وتفقد أحوالهم، والسلام عليهم، والمشاركة مع والديه في ذلك، واستثمار الأعياد، والأفراح، والأحزان، لزيارتهم، ومشاركتهم وجدانيا، وتكرير ذلك، لترسيخ قيمة الرحمة بالأقارب في النفس، وتحويلها إلى عادة وحال للنفس، يفرح المسلم بفعلها، بدلا من الوقوف عند حد التصور الذهني، والشهوة القلبية، فنحن نتعلم ما نفعله، ونشارك في ممارسته، فيمارس المسلم رحمة الأقارب في واقع علاقاته، بسهولة وفرح، وتذوق قلبي وروحي، وإدراك واع لدورها في تدعيم شبكة العلاقات الاجتماعية في المجتمع المسلم.

٦- ٤: مبدأ الوسط الثقافي المربي، والتشجيع: أي: إشاعة ثقافة رحمة، ووسط اجتماعي صانع لقيمة الرحمة بالأقارب، وصائغ لها، ومشجع عليها، وللحركات الإسلامية، وللأسر، وللدعاة، ولقيادات الثقافة في المجتمع، دور مهم في إكساب المنتمين والمتأثرين، هذه القيمة، من خلال صنعهم لثقافة الرحمة، ورفضهم وتجنبهم لثقافة العنف والقسوة، والانعزال الاجتماعي، من خلال الممارسة المنظمة لرحمة الأقارب، والمحاسبة الأسبوعية للمنتظمين والمتأثرين، على ذلك، والدروس والمحاضرات والندوات، والدورات التربوية المبرمجة ، المنظمة، المخطط لها، لتوعية وتشجيع المنتظمين بهذه القيمة، وترغيبهم في تطبيقها، ودعوة أئمة المساجد، وكتاب المقالات، ومذيعي ومقدمي البرامج في القنوات الفضائية، وأصحاب مواقع النت، لتناول رحمة الأقارب، بالتحليل، والبحث الميداني، لمعرفة واقع تطبيق هذه القيمة، وكيف نوجدها في القلوب، وكيف ننميها، وعمل أسابيع ثقافية ولقاءات شعرية للتوعية بقيمة رحمة الأقارب، ورصد وتقديم جوائز لأحسن من يمارسها،

وأن يكون الكبارُ مطبقين وممارسين لهذه القيمة مع أقاربهم، ليشعوا بسلوكهم على من يربونهم، في العائلات والأسر والحركات الإسلامية .

وكل ذلك يوجد بيئة ثقافية، داخل الأسرة، والمسجد، والمجتمع، والحركات، وخارجها، تُشْرَب ثقافة الرحمة بالأقارب، وتشجع على ذلك، وتثيب عليه، مما يوفر الدواعي النفسية في الأولاد، وفي عموم الناس، لتطبيق وممارسة رحمة الأقارب، وإدماجها في ضميرهم الخلقي.

جـ- قيمة الرحمة بالصغار، والبنات، على وجه الخصوص:

وهي قيمة إيمانية مكتسبة، تعتمد على استعداد فطري، وتعني: العطفَ، والشفقة، واللين والرقة، والشعور بالحنان، على العيال والصغار، من الذكور والإناث، والتعامل بالرفق معهم، وعدم الشدة عليهم، وعدم القسوة، وعدم التضييق عليهم في المرح واللعب، والترويح، وتعني: تقبيلهم، ومعانقتهم، ومضاحكتهم، وملاعبتهم، والبر بهم، وحسن تأديبهم، وملاطفتهم، والسماح لهم باللعب، والتحنن عليهم، وعدم إيذائهم، إلا بقدر الضرورة، ولغرض تربوي صحيح.

وفي كل ذلك جاءت الأحاديث النبوية الصحيحة؛ قولا، وفعلا، تبرهن على أهمية هذه القيمة، وآثارها الاجتماعية والتربوية. وسأذكر منها ست مجموعات تعطينا تصورا صحيحا، دقيقا، عن قيمة الرحمة بالصغار والصبيان.

١ - المجموعة الأولى:

قال البخاري: «باب رحمة الولد، وتقبيله، ومعانقته، وقال ثابت؛ عن أنس: «أخذ النبي ﷺ إبراهيم، فقبله، وشمه».. (وساق أحاديث، منها:) عن أبي قتادة؛ قال: «خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى، فإذا ركع؛ وضعها، وإذا رفع؛ رفعها». ومنها: أن أبا هريرة ﷺ قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي؛ جالسا،

فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبلت منهم أحدا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يَرحم؛ لا يُرحَم**»(١٤٣). ورواه أحمد، وفيه: يقول: «بينا نحن في المسجد جلوس؛ خرج علينا رسول الله ﷺ يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع، وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ وهي صبية، فحملها على عاتقه، فصلى رسول الله ﷺ وهي على عاتقه، يضعها؛ إذا ركع، ويعيدها على عاتقه؛ إذا قام، فصلى رسول الله ﷺ وهي على عاتقه، حتى قضى صلاته، يفعل ذلك بها»(١٤٤). وفي رواية لأحمد: «وإذا قام من سجوده؛ أخذها، فأعادها على رقبته».

قال ابن القيم: «وفيه: الرحمة بالأطفال، وفيه: تعليم التواضع ومكارم الأخلاق، وفيه: أن مس الصغيرة لا ينقض الوضوء»(١٤٥).

وأخرج البخاري، عن عائشة - رضي الله عنها- قالت: أقبلت فاطمة تمشي، كأن مشيتها مشي النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: «**مرحبًا يا ابنتي**»، ثم أجلسها عن يمينه، أو عن شماله.. (١٤٦)، الحديث.

وأخرج البخاري في الأدب المفرد، عن عائشة، أم المؤمنين - رضي الله عنها - قالت: ما رأيت أحدا من الناس كان أشبه بالنبي ﷺ كلاما، ولا حديثا، ولا جِلسة؛ من فاطمة. قالت: وكان النبي ﷺ إذا رآها قد أقبلت؛

---

(١٤٣) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٥٩٩٦، ٥٩٩٧، ص ٥٢٦، وأخرج الحديث الثاني مسلم في الفضائل، إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٣١٨، ص ٢٨٢، والترمذي: السنن، ج ٣، رقم ١٩١٨، ص ٣٦٥.

(١٤٤) إسناده، والذي يليه، صحيحان، المسند، ج ١٦، رقم ٢٢٤٨٣، ورقم ٢٢٤٨٨، ص ٣٦٠، ٣٦١.

(١٤٥) ابن قيم الجوزية: تحفة المودود بأحكام المولود، مكتبة الصفا، القاهرة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م، ص ١٥١.

(١٤٦) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣٦٢٣، ص ٦٢٧، وفي الأدب المفرد، رقم ١٠٣٠، ص ٣٧١، بإسناد صحيح.

رحَّب بها، ثم قام إليها، فقبلها، ثم أخذ بيدها، فجاء بها حتى يُجلسَها في مكانه، وكانت؛ إذا أتاها النبي ﷺ رحبت به، ثم قامت إليه، فقبلته[١٤٧]».. وفي (باب الرجل يقبل ابنته)؛ عن عائشة، أم المؤمنين، قالت: «ما رأيت أحدا كان أشبه؛ حديثا، وكلاما، برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه؛ قام إليها، فرحب بها، وقبَّلها، وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها؛ قامت إليه، فأخذت بيده، فرحبت، وقبَّلته، وأجلسته في مجلسها، فدخلت عليه في مرضه الذي تُوفي، فرحب بها، وقبلها[١٤٨]».

وأخرج ابن أبي الدنيا، عن نافع؛ قال: كان ابن عمر؛ إذا لقي ابنه سالما؛ قبله، ويقول: شيخ يقبل شيخا[١٤٩].

وقال البخاري: (باب وضع الصبي على الفخذ)(..)، عن أسامة بن زيد- رضي الله عنهما - كان رسول الله ﷺ يأخذني، فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن بن علي على فخذه الآخر، ثم يضمهما، ثم يقول: «**اللهم ارحمهما؛ فإني أرحمهما**»[١٥٠]، وفي رواية لأحمد: «**ثم يضمنا**»[١٥١].

وأخرج أبو داود، عن البراء، قال: دخلت مع أبي بكر؛ أول ما قدم المدينة، فإذا عائشة؛ ابنته، مضطجعة؛ قد أصابتها حمى، فأتاها أبو بكر، فقال لها: كيف أنت يا بنية؟ وقبل خدها[١٥٢].

وأخرج البخاري، عن أنس بن مالك ﷺ قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على

---

(١٤٧) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٩٤٧، ص ٣٣٥، ٣٣٦.

(١٤٨) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٩٧١، ص ٣٤٩، ورواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن، غريب من هذا الوجه، وقد رُوي هذا الحديث من غير وجه عن عائشة، سنن الترمذي، ج٥، رقم ٣٨٩٨، ص ٤٦٦، ٤٦٧، ورواه أبو داود: السنن، ج ٤، رقم ٥٢١٧، ص ٣٩٦.

(١٤٩) ابن أبي الدنيا: كتاب العيال، رقم ١٤٧، ص ١٦٤.

(١٥٠، ١٥١) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠٠٣، ص ٤٣٤، ثم المسند، ج١٦، رقم ٢١٦٨٤، ص ٩٦، بإسناد صحيح.

(١٥٢) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٥٢٢٢، ص ٣٩٧.

أبي سيف، القين (الحداد)، وكان ظئرًا، (زوجته مرضع) لإبراهيم -عليه السلام- (ابن الرسول ﷺ)، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم، فقبَّله، وشمه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيم يجود بنفسه (يخرج الروح)، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: «**يا بن عوف، إنها رحمة**»، ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك، يا إبراهيم، لمحزونون**»(١٥٣).

وقد أخرج مسلم هذا الحديث عن أنس؛ قال: «ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ قال: «كان إبراهيم مسترضَعا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت، وإنه ليدَخن، وكان ظِئرُه قينا، فيأخذه، فيقبله، ثم يرجع»(١٥٤). ويروي مسلم إحدى هذه الزيارات، يقول أنس: فانطلق؛ يأتيه، واتبعتُه، فانتهينا إلى أبي سيف، وهو ينفخ بكيره، قد امتلأ البيت دخانا، فأسرعتُ المشيَ بين يدي رسول الله ﷺ فقلت: يا أبا سيف، أمسك؛ جاء رسول الله ﷺ، فأمسَكَ، فدعا النبيُّ ﷺ بالصبي، فضمه إليه، فقال ما شاء الله أن يقول.. الحديث(١٥٥). ومعنى: فضمه إليه: اعتنقه، واحتضنه في حنان.

وأخرج ابن ماجه؛ عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال للحسن: «**اللهم، إني أحبُّه؛ فأحبَّه، وأحبَّ من يحبه**». قال: وضمه إلى صدره(١٥٦).

وأخرج أحمد؛ بإسناد حسن، عن يعلى العامري، أنه جاء حسن وحسين رضي الله عنهما يستبقان إلى رسول الله ﷺ فضمهما إليه، وقال: «**إن الولد**

---

(١٥٣) فتح الباري...، ج ٣، رقم ١٣٠٣، ص ١٧٢، ١٧٣.

(١٥٤) إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٣١٦، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(١٥٥) المصدر السابق، رقم ٢٣١٥، ص ٢٨٠، ورواه البخاري في الأدب المفرد، وفيه: (فيعتنقه ويشمه)، وقال الألباني: صحيح، انظر: الأدب المفرد، رقم ٣٧٦، ص ١٣٢

(١٥٦) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١١٦، ص ٦٤.

مَبْخَلَة، مَجْبَنَة..»(١٥٧). وفي مسند أبي يعلى، عن أبي سعيد، أن النبي ﷺ قال: «**الولد ثمرة القلب، وإنه مجبنة، مبخلة، محزنة..**»(١٥٨). فالولد: محبوب القلب، وغاية القلب، ومنى القلب، وخلاصة القلب، فإذا كان القلب شجرة خضراء مثمرة؛ فإن الولد هو ثمرة هذه الشجرة، فهو عصارة القلب. وأخرج أحمد عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى سوق بني قينقاع، متكئا على يدي، فطاف فيها، ثم رجع، فاحتبى في المسجد، وقال: «**أين لَكاع؟ ادعوا لي لكاعا**»، فجاء الحسن- عليه السلام - فاشتد حتى وثب في حَبوته، فأدخل فمَه في فمه، ثم قال: «**اللهم إني أحبه؛ فأحبه، وأحب من يحبه**» ثلاثا، قال أبوهريرة: ما رأيت الحسن إلا فاضت عيني، أو دمعت عيني، أو بكت. شك الخياط(١٥٩) (شيخ أحمد).

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة؛ قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في طائفة من النهار، لا يكلمني، ولا أكلمه، حتى جاء سوقَ بني قينقاع، ثم انصرف، حتى أتى خِباء فاطمة، فقال: «**أَثَمَّ لُكع ؟أثم لكع؟**»، يعني: حَسَنا، فظننا أنه إنما تحبِسُه أمه لأن تغسله، وتلبسه سِخابا، فلم يلبث أن جاء يسعى، حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أحبه؛ فأحبه، وأحبب من يحبه**»(١٦٠). وأخرج مسلم، عن البراء بن عازب؛ قال: رأيت الحسن بن علي على عاتق النبي ﷺ وهو يقول: «**اللهم إني أحبه؛ فأحبه**».

قال عياض ما ملخصه: اللكع، هنا، الصغير، ويشبه أن يكون أراد النبي ﷺ في الحسَن بن علي ذلك، على طريق الممازحة، والتدليل. وقوله: «فظننا أن أمه

(١٥٧) المسند، ج ١٣، رقم ١٧٤٩٢، ص ٤١٧.
(١٥٨) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، ج ٢، رقم ٧١٦٠، ص ١٢٠٢ من الطبعة الثالثة.
(١٥٩) إسناده صحيح، المسند، ج ٩، رقم ١٠٨٣٥، ص ٥٩٤.
(١٦٠) إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٤٢١، ص ٤٣٢.

تحبسه؛ لأن تغسله، وتلبسه سِخابا»، السخاب، هنا، قلادة من القرنفل والمسك، قال عياض: «فيه: استحباب النظافة والتجمل في جميع الأمور،(...) وتنظيف الصبيان، وتربيتهم، وجواز لبسهم القلائد والسخب، والعود،(...) وقوله: «حتى اعتنق كل واحد منهما صاحبه»؛.. فيه: ما كان عليه السلام من حسن الخلق والعشرة، والتواضع، وحبه للحسن، وحمله له، ورحمته للصبيان والرجال»(١٦١).

ويتبين من تحليل أحاديث هذه المجموعة: أن الرحمة بالعيال والصبيان تظهر في سلوكيات إجرائية، وممارسات مع الأطفال والصبيان والأولاد؛ ذكورا، وإناثا، وهي: تقبيلهم، واحتضانهم؛ بحنان، وضمهم إلى الصدر، وحملهم، وشمهم، وإجلاسهم على الفخذ، والكلام اللطيف معهم، وتدليلهم، والسؤال عنهم، والحزن القلبي على الألم الذي يصيبهم.

وفي المجموعة الثانية نتبين صورا سلوكية أخرى للرحمة بالصغار.

٢ـ المجموعة الثانية:

أخرج أحمد، عن أبي ليلى؛ أنه كان عند رسول الله ﷺ وعلى بطنه الحسن، أو الحسين ـ شك زهير ـ قال: فبال، حتى رأيت بوله على بطن رسول الله، ﷺ، أساريع، قال: فوثبنا إليه، قال: فقال – عليه الصلاة والسلام: «**دعوا ابني، ولا تفزعوا ابني، قال: ثم دعا بماء فصبه عليه،..**» الحديث ، وفي رواية ثانية لأحمد: فقال: «**دعوا ابني، لا تفزعوه؛ حتى يقضي بوله، ثم أتبعه الماء..**» الحديث ، وفي رواية: كنا عند النبي ﷺ فجاء الحسن بن علي يحبو، حتى صعد على صدره، فبال عليه، قال: فابتدرناه؛ لنأخذه، فقال النبي ﷺ: «**ابني، ابني**»، قال: ثم دعا بماء فصبه عليه(١٦٢).

---

(١٦١) المصدر السابق، ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ .

(١٦٢) الرواية الأخيرة بإسناد حسن، والأوليان بإسناد صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٩٥٧، ١٨٩٥٨، ١٨٩٦٠، ص ٣٧٠، ٣٧١ .

وأخرج أحمد، عن أبي هريرة؛ قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العِشاء، فإذا سجد؛ وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا رفع رأسه؛ أخذهما بيده، من خلفه، أخذا رفيقا، ويضعهما على الأرض، فإذا عاد؛ عادا، حتى قضى صلاته، أقعدهما على فخذيه، قال: فقمت إليه، فقلت: يا رسول الله، أردهما. فبرقت برقة (أضاءت السماءُ الطريقَ بالبرق)، فقال لهما: «**الحقا بأمكما**». قال: فمكث ضوؤها حتى دخلا ، وفي رواية: «**حتى دخلا على أمهما**»(١٦٣).

وأخرج أحمد والنسائي والبيهقي في الكبرى؛ وهذا لفظ أحمد؛ عن عبد الله ابن شداد، عن أبيه؛ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ في إحدى صلاتي العشي؛ الظهر أو العصر، وهو حامل الحسن، أو الحسين، فتقدم النبي ﷺ فوضعه، ثم كبر للصلاة، فصلى، فسجد بين ظهراني (في أثناء) صلاته سجدة، أطالها، فقال: إني رفعت رأسي فإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، فرجعت في سجودي، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة؛ قال الناس: يا رسول الله، إنك سجدت بين ظهراني صلاتك هذه سجدة قد أطلتها، فظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه قد يوحى إليك ؟ قال: «**فكل ذلك لم يكن، ولكن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته**»(١٦٤). ومعنى ارتحلني: اتخذني راحلة له؛ بالركوب على ظهري.

وأخرج النسائي عن عبد الله بن بريدة؛ عن أبيه؛ قال: كان النبي ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - وعليهما قميصان أحمران، يعثران فيهما، فنزل النبي ﷺ فقطع كلامه، فحملهما، ثم عاد إلى المنبر، ثم قال: «**صدق الله:**

---

(١٦٣) إسناده صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، المسند، ج ٩، رقم ١٠٦٠٧، ١٠٦٠٨، ص ٥٣٠، ٥٣١ .

(١٦٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٩٧٥، ص ٤٢٣، ورواه النسائي، سنن النسائي، ج ٢، رقم ١١٤١، ص ١٦٣ ، ١٦٤، والبيهقي: السنن الكبرى، ج ٢، حديث رقم ٣٤٢٣، ص ٥٣٢، ٥٣٣، وسنده صحيح متصل .

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾، رأيت هذين يعثران في قميصيهما، فلم أصبر حتى قطعت كلامي، فحملتهما»[١٦٥]. قال السندي، في حاشيته على النسائي: «يعثران:.. يمشيان مشي صغير، يميل في مشيه، تارة إلى هنا، وتارة إلى هنا؛ لضعفه في المشي، فحملهما؛ من كمال ما وضع الله، تعالى، فيه ﷺ من الرحمة»[١٦٦].

وتدل هذه المجموعة الطيبة من الأحاديث على: أن الرحمة للصغار والأطفال، تتجلى مع ما سبق، في سلوكيات رحيمة، في التعامل معهم؛ حين يفعلون أفعالا، ويتصرفون تصرفات، قد تغضب، وتبعث على الضيق، وتخرج على المعتاد، والمألوف، هذه التعاملات الرحيمة تتحدد في: الرفق بهم، والحنو والعطف عليهم، والحرص على عدم إيصال أذى أو ضرر إليهم، وعدم إفزاعهم، وضبط غضبنا نحوهم، والصبر، وتحمل الأذى منهم؛ لأنهم صغار، ومن حقهم أن نحنو عليهم، ونرحمهم، ونعلمهم برفق؛ إذا عثروا أو غلطوا أو أساؤوا في شيء، فهم لا يقصدون؛ فالحسن يبول على بطن النبي، فيتركه حتى يقضي بوله، والحسن يرتحل ظهره الشريف، وهو ساجد، فيطيل السجود حتى ينزل (براحته)، إنها سلوكيات رحيمة، وتعاملات رفيقة رقيقة، مع الصغار، وتصرفاتهم التي قد يضيق لها صدر الحليم، وقد تدعو لرد فعل عنيف أو شديد، عند غير الرحماء.

٣ـ المجموعة الثالثة:

أخرج أحمد وابن ماجه؛ وهذا لفظه، عن يعلى بن مرة؛ أنهم خرجوا مع النبي ﷺ إلى طعام دعوا له، فإذا حسين يلعب في السكة، قال: فتقدم النبي ﷺ أمام القوم، وبسط يديه، فجعل الغلام يفر، ها هنا، وها هنا، ويضاحكه النبي ﷺ حتى أخذه، فجعل إحدى يديه تحت ذقنه، والأخرى في فأس رأسه

---

(١٦٥) سنن النسائي، ج ٣، رقم ١٤١٣، ص ٧٥، ٧٦، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد، سنن الترمذي، رقم ٣٧٩٩، ص ٤٢٩.

(١٦٦) حاشية السندي، على هامش: سنن النسائي، ج ٣، ص ٧٥، ٧٦.

(ما بين وسط الرأس والقفا)؛ فقبله، وقال: «**حسين مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا، حسين سبط من الأسباط**»(١٦٧). وفي رواية أحمد: «**فوضع إحدى يديه تحت قفاه، والأخرى تحت ذقنه، فوضع فاه على فيه؛ فقبله**»(١٦٨).

وأخرج مسلم، عن أنس بن مالك؛ قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا؛ وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، قال: أحسبه قال: كان فطيما، قال: فكان؛ إذا جاء رسول الله ﷺ فرآه؛ قال: «**أبا عُمَير، ما فعل النُّغَير؟**» قال: فكان يلعب به(١٦٩). والنغير: تصغير نُغَر، وهو طائر صغير، قال عياض: «وفيه: ما كان عليه السلام من الخلق الحسن، والعِشرة الطيبة، مع الصغير والكبير، والانبساط إلى الناس»(١٧٠).

وأخرج أبو داود، عن أنس بن مالك؛ قال: كان رسول الله ﷺ يدخل علينا، ولي أخ صغير، يكنى أبا عمير، وكان له نغر يلعب به، فمات، فدخل عليه النبي ﷺ ذات يوم، فرآه حزينا، فقال: «**ما شأنه؟**» فقالوا: مات نغره، فقال: «**أبا عمير، ما فعل النغير؟**»(١٧١).

وتأمل فيما رواه أحمد والبزار، عن أنس؛ قال: «كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار، فإذا جاء إلى دور الأنصار؛ جاء صبيان الأنصار حوله، له، فيدعو لهم، ويمسح رؤوسهم، ويسلم عليهم،.. الحديث»(١٧٢). إنها صحبة الرحمة،

---

(١٦٧) قال الألباني: حسن، وفي الصحيحة برقم (١٢٢٧)، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١١٨، ص ٦٤، ٦٥

(١٦٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٧٤٩١، ص ٤١٦، ٤١٧، وحسَّن جزأه الأخير؛ الترمذي: سنن الترمذي، ج ٥، رقم ٣٨٠٠، ص ٤٣٩ .

(١٦٩) إكمال المعلم، ج٧، رقم ٢١٥٠، ص٢٦، ورواه البخاري، فتح الباري، ج١٠، رقم ٦١٢٩، ص٥٢٦.

(١٧٠) نفس المصدر السابق، والصفحة، من الإكمال .

(١٧١) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٩٦٩، ص ٣٢٠ .

(١٧٢) من حديث قال عنه الهيثمي: رواه أحمد والبزار .. ورجالهما رجال الصحيح، الهيثمي: المجمع، ج ٨، رقم ١٢٧٥٣، ص ٧١، ٧٢.

بين محمد، رسول الله، وأصدقائه الصغار؛ أطفال المدينة.

وأخرج البخاري، عن عائشة؛ قالت: «كنت ألعب بالبنات، عند النبي ﷺ وكان لِيَ صواحِبُ يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل؛ يتقَمَّعن منه (يتغيبن، ويدخلن من وراء الستر)، فَيَسَرِّبُهن إلي (يرسلهن)، فيلعبن معي»(١٧٣). ورواه مسلم، عن عائشة؛ «أنها كانت تلعب بالبنات، عند رسول الله ﷺ..» الحديث، وفي رواية لمسلم: «كنت ألعب بالبنات، في بيته، وهن اللُّعَب»(١٧٤). وروى النسائي عن عائشة: «... ودخل علَي، وأنا بنت تسع سنين، وكنت ألعب بالبنات»(١٧٥).

وأخرج أبو داود، عن عائشة؛ قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، أو خيبر، وفي سَهوتها (رف، أو طاقة،) سِتر، فهبت الريح، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة؛ لـُعَب، فقال: «**ما هذا يا عائشة؟**» قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسا له جناحان مِن رقاع، فقال: «**ما هذا الذي أرى وسطهن؟**» قالت: فرس، قال: «**وما هذا الذي عليه؟**» قالت: جناحان، قال: «**فرس له جناحان؟!**» قالت: أما سمعتَ أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟! قالت: فضحك رسول الله ﷺ حتى رأيتُ نواجذه(١٧٦).

وأخرج مسلم، عن عروة بن الزبير؛ قال: قالت عائشة: والله لقد رأيت رسول الله ﷺ يقوم على باب حجرتي، والحبشة يلعبون بحرابهم في مسجد رسول الله ﷺ يسترني بردائه، لكي أنظر إلى لـَعِبهم، ثم يقوم مِن أجلي، حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدُروا قدرَ الجاريةِ الحديثة السن، حريصة على اللهو. وفي رواية لمسلم: «فإما سألت رسول الله ﷺ وإما قال: «**تشتهين تنظرين؟**»

---

(١٧٣) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦١٣٠، ص ٥٢٦ .
(١٧٤) إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٤٤٠، ص ٤٤٧ .
(١٧٥) سنن النسائي، ج ٦، رقم ٣٣٧٨، ص ٩١ .
(١٧٦) سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٩٣٢، ص ٣٠٨ .

فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي على خده، (...) حتى إذا مللت؛ قال: «حسبُكِ؟» قلت: نعم، قال: «فاذهبي». وفي رواية لمسلم: أنها قالت لِلـعَّابين: وددت أني أراهم! قالت: فقام رسول الله ﷺ وقمت على الباب، أنظر بين أذنيه وعاتقه، وهم يلعبون في المسجد»(١٧٧)، ورواه أحمد بروايات، وفيها: «فاقدروا قدر الجارية، الحديثةِ السن، الحريصةِ على اللهو»(١٧٨).

وأخرج أحمد؛ قال: حدثنا مكي، حدثنا الجعيد، عن يزيد بن خصيفة، عن السائب بن يزيد؛ أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقال: «**يا عائشة، أتعرفين هذه؟**» قالت: لا، يا نبي الله، فقال: «**هذه قَينة بني فلان، أتحبين أن تغنيَكِ؟**» قالت: نعم، قال: «**فأعطاها طبقا، فغنتها**»، فقال النبي ﷺ: «**قد نفخ الشيطان في مِنخرَيها**»(١٧٩).

ونخلص من هذه المجموعة الطيبة من الأحاديث الصحيحة: أن الرحمة بالصبيان والبنات، تعني ـ مع ما سبق : ترك الحرية لهم؛ ليلعبوا، ويلهوا، ويمرحوا، ويفرحوا، وقتا كافيا، فلا نحجر، ولا نضيق عليهم، في ذلك، سواء لعبوا في البيوت، أو في الطرقات، أو في ساحات الملاعب المخصصة للَّعِب، وسواء لعبوا ألعابا فردية أو جماعية، بلـُعَب، أو بغير لعب؛ فهذا حق لهم، وحاجة نفسية ضرورية من حاجات نموهم النفسي، والجسمي، والعقلي، والاجتماعي، الرشيد السليم، وهو بُعد من أبعاد الرحمة بهم، يجب ممارسته معهم، وتفعيله؛ لجدواه النفسية والتربوية، فهو يشعر الولد والبنت بالبهجة والمرح والفرحة والراحة، والترويح عن النفس، والمتعة، ويجدد نشاط الأولاد، ويربيهم، وينميهم تنمية نفسية سليمة سوية.

---

(١٧٧) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ٨٩٢، ص ٣٠٨ – ٣١٠ .
(١٧٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٧، رقم ٢٥٢٠٩، ص ٥٧١ .
(١٧٩) هذا إسناد صحيح رجاله ثقات كلهم، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٦٦٠، ص ٢٨٦

وهـذا أمـر ضروري يلـزم التنبـه لـه؛ في الأسر والمـدارس، والكتاتيـب، والمساجد، وكل مؤسساتنا التربوية، والأهلية، في المجتمع المسلم؛ والحركـات الإسلامية.

وليس، فقط، أن نسمح لهم باللعب واللهو، أوقات مناسـبة، بـل، أيضـا، بأن نشاركهم لَعِبَهم، أحيانـا، وأن نشـعرهم باهتمامنـا بـما يلعبـون، وفرحنـا بذلك، وحرصنا على أن يلعبوا، ويمرحـوا، ويلهـوا؛ كـما فعـل النبـي ﷺ في الأحاديث السابقة؛ مع الحسـين، في السـكة، ومـع أبي عمـير؛ في بيتـه، ومـع عائشة، في بيت الرسول نفسه ﷺ.

إنها سيرة تربوية مدهشة، راعاها السـلف المربـون الصـالحون، ففـي كتـاب (العيال)؛ عن الحسن؛ أنه دخل منزله، وصبيان يلعبون فوق البيت، ومعـه عبـد الله؛ ابنه، فنهاهم، فقال الحسن: **دعهم؛ فإن اللعبَ ربيعُهم**. وأخـرج البخـاري، في الأدب المفرد، وابنُ أبي الـدنيا في كتـاب العيـال، عـن إبـراهيم؛ قـال: كـانوا يرَخصون للصبيان في اللعِب كله، إلا بالكلاب. وأخرج في كتاب العيـال، عـن يحيى الغساني؛ قال: لا تـُحزنوا ابني؛ فإن الفرحة تـُشِبُّ الصبيَّ(١٨٠).

٤ ـ المجموعة الرابعة:

أخرج أحمد، عن عائشة؛ أن أسـامة بـن زيـد عثـر بأَسـكُفَة - أو: عتبـة - الباب، فشُج في جبهته، فقال لي رسول الله ﷺ: «**أميطي عنـه، أو نحـي عنـه، الأذى**»، قالت: فتقذرته، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يمصه، ثم يمجه. وقال رسول الله ﷺ: «**لو كان أسامة جارية؛ لكسوته، وحليته؛ حتـى أُنَفِّقَـه**»(١٨١).

وفي رواية لأحمد: «لحليتها، ولكسوتها؛ حتى أنفقهـا»(١٨٢). وفي روايـة لابـن

---

(١٨٠) ابـن أبي الـدنيا: كتـاب العيـال، مصـدر سـابق، رقـم ٥٩٠، ٥٩٤، ٥٩٧، ص ٣٣٥ - ٣٣٧، والبخاري: الأدب المفرد، خبر رقم ١٢٩٧.

(١٨١) إسناده حسن، المسند، ج ١٨، رقم ٢٥٧٣٧، ص ٧٤.

(١٨٢) إسناده حسن، المسند، ج ١٧، رقم ٢٤٩٦٣، ص ٥٠٥.

ماجه: فجعل يمص عنه الدم، ويمجه عن وجهه، ثم قال: «**لو كان أسامة جارية؛ لحليته، وكسوته؛ حتى أنفقه**»(١٨٣).

وأخرج البخاري، في الأدب المفرد، (باب الوالدات رحيمات)، عن أنس ابن مالك؛ جاءت امرأة إلى عائشة - رضي الله عنها - فأعطتها عائشة ثلاث تمرات، فأعطت كل صبي لها تمرة، وأمسكت لنفسها تمرة، فأكل الصبيان التمرتين، ونظرا إلى أمهما، فعمدت إلى التمرة، فشقتها، فأعطت كلَّ صبي نصف تمرة، فجاء النبي ﷺ فأخبرته عائشة، فقال: «**وما يُعجِبُكِ من ذلك؟ لقد رحمها الله؛ برحمتها صبييها**»(١٨٤).

وأخرج البخاري، عن أبي هريرة؛ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجل، ومعه صبي، فجعل يضمه إليه، فقال النبي ﷺ: «**أترحمه؟**» قال: نعم، قال: «**فالله أرحم بك، منك به، وهو أرحم الراحمين**»(١٨٥).

وتحليل هذه الأحاديث يبين: أن من صور الرحمة بالصغار والعيال: العطف والشفقة والتحنن عليهم، وإعطاءهم ما ينفعهم، والإنفاق عليهم، وإيثارهم، ودفع، ورفع الأذى عنهم، وتحمل الأذى من أجل راحتهم، والحزن على ما يصيبهم، والشعور بالحب نحوهم، وقد أخرج النسائي، عن معاوية بن قرة؛ عن أبيه ﷺ؛ أن رجلا أتى النبيّ ﷺ ومعه ابن له، فقال له: «**أتحبه؟**» فقال: أحبك الله كما أحبه، فمات، ففقده، فسأل عنه، فقال: «**ما يسرك ألاَّ تأتي بابا من أبواب الجنة إلا وجدته يسعى؛ يفتح لك؟**»(١٨٦).

---

(١٨٣) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٢، رقم ١٦٢٠، ص ١٥٧

(١٨٤) قال الألباني: صحيح، انظر: الأدب المفرد، رقم ٨٩، ص ٤٤ .

(١٨٥) قال الألباني: صحيح، انظر: الأدب المفرد، رقم ٣٧٧، ص ١٣٢ (باب رحمة العيال) .

(١٨٦) سنن النسائي، ج ٤، رقم ١٨٧٠، ص ١٨، ورواه مفصَّلا برقم ٢٠٨٧، ص ٨٨، وأخرجه أحمد بإسناد صحيح، المسند، برقم ١٥١٦٨، ١٩٨٥٢، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٠٠٧ م) وفي تخريج مشكاة المصابيح برقم ١٧٥٦ .

٥ ـ المجموعة الخامسة:

ومن صور الرحمة الواجبة للصغار: التسوية بينهم في المعاملة، والمنح، والأعطيات، والبر، والقبل، والتربية؛ فهذا حقهم، أولا، وله أثر خلقي، واجتماعي، ونفسي، قوي، فيهم، ثانيا؛ أخرج أحمد، وهذا لفظه، والنسائي، عن النعمان بن بشير، قال: حملني أبي؛ بشير بن سعد، إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، اشهَد أني قد نحلت النعمان كذا وكذا؛ شيئا سماه، قال: فقال: «**أكلَّ ولدِكَ نحلتَ مثلَ الذي نحلت النعمان؟**» قال: لا، قال: «**فأشهد غيري**». ثم قال: «**أليس يسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟**» قال: بلى، قالَ: «**فلا؛ إذن**»(١٨٧). وأخرجه أحمد والنسائي؛ وفيه: فقال رسول الله ﷺ: «**يا بشير، ألك ابن غير هذا؟**» قال: نعم، قال: «**فوهبت له مثلَ ما وهبت لهذا؟**» قال: لا، قال: «**فلا تُشهدني؛ إذن؛ فإني لا أشهد على جَور**»(١٨٨). وفي رواية لأحمد: فقال: «**رويدك؛ أَلَك ولد غيره ؟**» قال: نعم، قال: «**كلَّهم أعطيتَه كما أعطيته؟**» قال: لا، قال: «**فلا تشهدني؛ إذا، فإني لا أشهد على جور، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم**»(١٨٩).

وأخرجه أحمد، أيضا، من طريقين؛ وفي الأولى: «**أليس يسرك أن يكونوا لك في البر واللطفة سواء؟**» قال: بلى، قال: «**فأشهد على هذا غيري**». وفي الثانية: «**إن لهم عليك من الحق أن تعدل بينهم، كما أن لك عليهم من الحق أن يَبَروك**»(١٩٠).

---

(١٨٧) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٨٢، ص ١٥١، سنن النسائي، ج ٦، رقم ٣٦٨٠، ص ١٩٠

(١٨٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٧٩، ص ١٥٠ ، ١٥١، النسائي: السنن، ج ٦، رقم ٣٦٨١، ص ١٩١، باختلاف يسير جدا في اللفظ، ورواه بلفظ أحمد، رقم ٣٦٨٢، ص ١٩١

(١٨٩) إسناده حسن، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٨٥، ص ١٥٢، ١٥٣

(١٩٠) إسناد الأولى: صحيح، والثانية: حسن، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٢٩١، ص ١٥٥، وروى مثله الطبراني: المعجم الكبير، مجلد ٢٤، رقم ٨٤٥، ص ٣٣٨، وفيه (كما أن لك من الحق عليهم..).

وروى أحمد، عن النعمان بن بشير؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم، اعدلوا بين أبنائكم**»، وفي لفظ لأحمد: «**قاربوا بين أبنائكم**»؛ يعني: سَوُّوا بينهم(١٩١). وفي رواية للنسائي: فقال: «**هل لك بنون سواه ؟**» قال: نعم، قال: «**سَوِّ بينهم**»(١٩٢).

وفي كتاب العيال: عن الشعبي، قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله ﷺ: «**اعدلوا بين أبنائكم في النُّحل؛ كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البر واللطف**». وفيه: عن إبراهيم؛ قال: كانوا يستحبون أن يسووا بين أولادهم، حتى في القُبَل(١٩٣). وفيه: عن الحسن؛ مرسلا، وله شاهد حسن، قال: بينا رسول الله ﷺ، يحدث أصحابه؛ إذ جاء صبي حتى انتهى إلى أبيه في ناحية القوم، فمسح رأسه، وأقعده على فخذه اليمنى، قال: فلبث قليلا، فجاءت ابنة له، حتى انتهت إليه، فمسح رأسها، وأقعدها في الأرض، فقال رسول الله ﷺ: «**فهلا على فخذك الأخرى؟**»، فحملها على فخذه الأخرى، فقال ﷺ: «**الآن عدلتَ**»(١٩٤).

ويشهد لهذا ما رواه البزار عن أنس، بإسناد جيد، والبيهقي، عنه؛ ففي تحفة المودود، لابن القيم: وقد ذكر البيهقي عن أنس؛ أن رجلا كان جالسا مع النبي ﷺ فجاء بني له، فقبله، وأجلسه في حجره، ثم جاءت بنية؛ فأخذها، فأجلسها إلى جنبه، فقال النبي ﷺ: «**فما عدلتَ بينهما**». وكان السلف يستحبون أن يعدلوا بين الأولاد في القُبلة(١٩٥). وفي رواية البزار، عنه؛ أن

---

(١٩١) إسنادهما صحيح، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٣٦٤، ١٨٣٦٣، ص ١٧٦ ، ١٧٧

(١٩٢) سنن النسائي، ج ٦، رقم ٣٦٨٦، ص ١٩٢.

(١٩٣) ابن أبي الدنيا: كتاب العيال، مصدر سابق، رقم ٣٥، ص ١١٢، ورقم ٣٧، ص ١١٣.

(١٩٤) المصدر السابق، رقم ٣٦، ص ١١٣، ورجاله رجال الصحيح، لكنه مرسل، يشهد له ما رواه البيهقي والبزار عن أنس.

(١٩٥) ابن قيم الجوزية: تحفة الودود بأحكام المولود، مصدر سابق، ص ١٥٦، وقال محققه في تخريج الحديث السابق: صحيح، رواه البيهقي في الشعب (٦/ ٤١٠)، وصححه العلامة الألباني، رحمه الله، في السلسلة الصحيحة؛ (٢٨٨٣/ ٢٩٩٤).

رجلا كان عند النبي ﷺ فجاء ابن له فقبله، وأجلسه على فخذه، وجاءت بنية له، فأجلسها بين يديه، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا سويت بينهم**»(١٩٦).

فتأمل: كيف عقَّب الرسولُ على عدم تقبيل هذا الرجل لابنته، كما قبل ابنه الذكر؟ وجعل ذلك السلوك عدمَ عدل وتسوية بين ولديه، وأن هذا منكر؛ يجب تغييره؛ وذلك لما للعدل، المعنوي والمادي، والعاطفي، من أثر عظيم في التربية النفسية السوية للأولاد.

ويتبين من هذه الأحاديث: أن من حق الأولاد على الآباء: أن يعدلوا بينهم، وأن يقاربوا، ويسووا بينهم في المعاملة، وفي العطايا والهبات، وفي القبلة واللطف، والضم إلى الصدر (الحضن)، وبسط الوجه، والبسمة، والإنفاق، والكلام، وعموم البر، على الذكور والإناث.

وهذه الصور من الرحمة مهمة جدا في التربية الوالدية، (أسلوب العدل الشامل في التربية الوالدية)، وقد بين النبي ﷺ أثرها الخلقي الاجتماعي في الأولاد؛ في علاقاتهم بآبائهم؛ فإن بررنا الأولاد ورحمناهم؛ بالتسوية والعدل بينهم؛ وهم صغار؛ برونا ورحمونا، ولطفوا بنا، ونحن كبار. وهذه التسوية والعدل، فيما ذكرناه، تكون في التربية العائلية، في البيت، وفي المدرسة، وفي المسجد، وفي الكتاب، وفي الأندية، وفي تجمعات الأولاد في الفعاليات التربوية في الحركات الإسلامية... إلخ.

فالمربون، في كل تلك الفعاليات التربوية، يجب أن يكون لهم خلق رحيم رقيق عادل، حساس، نحو الظلم؛ لأهمية ذلك في البناء النفسي السوي للأولاد، وفي تصفية عوامل الحقد والتنافس المَرَضي في نفوسهم، وفي إشاعة

---

(١٩٦) ابن أبي الدنيا: كتاب العيال، ص ١١٣، هامش المحقق، ص ٣، تحت الحديث رقم ٣٦.
أقول: اقرأ باب العدل بين الأولاد والتسوية بينهم، في هذا الكتاب، ص ١١٢ – ١١٦.

ثقافة رحمة وعدل وتسوية بينهم، وتعزيز الشعور بأن التطبيق الإسلامي للرحمة حقيقة واقعة في العالم، من خلال سلوكيات الرحمة والعدل والتسوية في التربية والمعاملة؛ وممارسة المربين لهذه المعاملات الرحيمة هي تربية بالقدوة والفعل لهذه القيمة في قلوب الصغار.

ولهذا كانت الرحمة بالصغار خلقا مميزا في المجتمع المسلم الذي رباه الرسول، كما في المجموعة الآتية من الأحاديث .

٦ ـ المجموعة السادسة:

وبصفة عامة، يقول الرسول ﷺ فيما رواه البخاري، في الأدب المفرد، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من لم يرحم صغيرَنا، ويعرف حق كبيرنا؛ فليس منا**». وروى عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا؛ من لم يعرف حق كبيرنا، ويرحم صغيرنا**». ورواه، عن أبي أمامة؛ قال: «**من لم يرحم صغيرنا، ويجل كبيرنا؛ فليس منا**». ورواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص: «**ليس منا؛ من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا**»(١٩٧).

وأخرجه أحمد، عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ : «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا**». ورواه عنه؛ بلفظ: «**ليس منا من لم يعرف حق كبيرنا، ويرحم صغيرنا**». وبلفظ: «**ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويرحم صغيرنا**»(١٩٨).

وروى الترمذي، من طريق محمد بن إسحق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا**». حدثنا هناد، حدثنا عبدة، عن محمد بن إسحاق؛

---

(١٩٧) روى ذلك البخاري: الأدب المفرد، باب فضل الكبير، وباب رحمة الصغير، أرقام ٣٥٣، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٣، وكلها بأسانيد صحيحة، ص ١٢٥، ١٢٦، ١٢٩

(١٩٨) أسانيدها صحيحة، المسند، ج ٦، أرقام ٦٧٣٣، ٦٩٣٥، ٦٩٣٧، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

نحوه، إلا أنه قال: «**ويعرف حق كبيرنا**». ثم قال الترمذي: وحديث محمد بن إسحق، عن عمرو بن شعيب: حديث حسن صحيح. ثم قال الترمذي: قال بعض أهل العلم: معنى قول النبي ﷺ: «**ليس منا**»؛ يقول: ليس من سنتنا، ليس من أدبنا(١٩٩).

وهذه الرحمة تتأكد مع البنات، الصغيرات؛ فهن المؤنسات الرقيقات الغاليات، ويكفينا، هنا، ما رواه أحمد، بإسناد جيد، عن جابر بن عبد الله؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كن له ثلاث بنات؛ يُؤويهن، ويرحمهن، ويكفلهن، وجبت له الجنة، البتة**»، قيل: يا رسول الله، فإن كانت اثنتين؟ قال: «**وإن كانتا اثنتين**». قال: فرأى بعض القوم أن لو قال: واحدة؛ لقال: «**واحدة**»(٢٠٠).

ونختم هذه الفقرة بمدح الرسول ﷺ لصالح نساء قريش؛ فلماذا مدحهن؟ عن ابن عباس، من حديث، أن النبي ﷺ قال: «**إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل؛ صالح نساء قريش؛ أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل بذات يده**»(٢٠١). وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خير نساء ركبن الإبل؛ نساء قريش؛ أحناه على ولد في صغره، وأرأفه بزوج على قلة ذات يده**»(٢٠٢). وعن أم هانئ بنت أبي طالب، قالت: خطبني رسول الله ﷺ فقلت:

---

(١٩٩) سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٩٢٧، ص ٣٦٩، ٣٧٠، وللحديث روايات عند أحمد، وعند أبي داود، انظر: سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٤٩٤٣، ص ٣١١، وانظر: ابن أبي الدنيا: كتاب العيال، أرقام ١٨٤ – ١٨٨، ص ١٨١ – ١٨٣

(٢٠٠) قال الهيثمي: وإسناد أحمد جيد، المجمع، ج ٨، رقم ١٣٤٩١، ص ٢٨٧.

(٢٠١) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ١، رقم ٢٩٢٦، ص ٣١٨.

(٢٠٢) ابن قيم الجوزية: تحفة المودود بأحكام المولود، مرجع سابق، ص ١٥٣ – ١٦٧، وأنصح بدراسة هذا الكتاب كله، وقراءة كتاب العيال لابن أبي الدنيا؛ (أبواب: تعليم الصبيان الصلاة، تعليم الصبيان القرآن، تعليم الرجل أهله، وتعليم ولده وتأديبهم، باب اللعب للصبيان، باب في تعليم العلم للأصاغر.. وغيرها).

ما بي عنك رغبة، يا رسول الله، ولكن لا أحب أن أتزوج وبني صغار، فقال رسول الله ﷺ: «لم؟ خير نساء ركبن الإبل؛ نساء قريش؛ أحناه على طفل في صغره، وأرعاه على بعل في ذات يده»(٢٠٣). أحناه: أكثر حنوا، وشفقة ورأفة .

٧ـ رحمة الصغار بالتربية الوالدية المسؤولة:

ومن رحمة الصغار: أن نؤدبهم، ونعلمهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، وأن ننقذهم من الجهل والشر والبطالة، بأساليب رحيمة في التربية الوالدية، وبأن نحمل قيم الرحمة بهم، وأن نشعر بمسؤوليتنا التربوية نحوهم، وأكتفي، هنا، بما قرره ابن القيم في كتابه: تحفة المودود؛ وكلامه يحتاج لتأمل وتفكر ودرس، قال:

«(**الباب الخامس عشر؛ في وجوب تأديب الأولاد، وتعليمهم، والعدل بينهم**)، قال الله- تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]، قال علي ﷺ: علموهم وأدبوهم، وقال الحسن: مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير. وفي المسند وسنن أبي داود، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**» [حديث حسن] (...) وقال عبد الله بن عمر: أدب ابنك؛ فإنك مسؤول عنه: ماذا أدبته؟ وماذا علمته ؟ وهو مسؤول عن برك، وطواعيته لك. وقال سعيد ابن منصور: حدثنا حزم، قال: سمعت الحسن، وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾[الفرقان: ٧٤]، فقال: يا أبا سعيد، ما هذه القرة الأعين ؟ أفي الدنيا، أم في الآخرة ؟ قال: لا، بل، والله، في

---

(٢٠٣) إسناده حسن، ورواه في الشعب (٨٦٦٢)، وابن أبي الدنيا في العيال، ص ٣٢٩، ٣٣٤، وسنده حسن، وانظر: البيهقي: السنن الكبرى، ج ٣، ص ٣٥١، وروى الطبراني في الكبير عن ابن مسعود: «تعودوا الخير فإنما الخير بالعادة، وحافظوا على نياتكم في الصلاة »، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، المجمع، جـ ٢، رقم ٢٥٧٨، ص ٢٦٨.

الدنيا. قال: وما هي؟ قال: والله، أن يُرِيَ اللهُ العبدَ من زوجته، من أخيه، من حميمه، طاعة الله،.. والله ما من شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدا، أو والدا، أو حميما، أو أخا، مطيعا لله - عز وجل(...)، وقال بعض أهل العلم: إن الله، سبحانه، يسأل الوالد عن ولده، يوم القيامة، قبل أن يسأل الولد عن والده، فإنه كما أن للأب على ابنه حقا، فللابن على أبيه حقاً(...) .

فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه، وتركه سدى؛ فقد أساء إليه غاية الإساءة. وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قبل الآباء وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه، فأضاعوهم؛ صغارا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم؛ كبارا، كما عاتب بعضهم ولدَه على العقوق، فقال: يا أبت، إنك عققتني؛ صغيرًا؛ فعققتك؛ كبيرًا، وأضعتني؛ وليدًا؛ فأضعتك؛ شيخًا،(...).

ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج: الاعتناء بأمر خلقه، فإنه ينشأ على ما عوده المربي في صغره؛ من حرَد وغضب، ولجاج، وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش، وحدة، وجشع، فيصعب عليه، في كبره، تلافي ذلك، وتصير هذه الأخلاقُ صفات وهيئات راسخة له،..، ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم؛ وذلك من قبل التربية التي نشأ عليها، ولذلك يجب أن يتجنب الصبي ـ إذا عقل ـ مجالس اللهو، والباطل،.. وسماع الفحش، والبدع، ومنطق السوء؛ فإنه؛ إذا علق بسمعه؛ عسر عليه مفارقته في الكبر، وعز على وليه استنقاذه منه، فتغيير العوائد من أصعب الأمور، يحتاج صاحبه إلى استجداد طبيعة ثانية، (...).

وينبغي لوليه: أن يجنبه الأخذ من غيره غاية التجنب؛ فإنه؛ متى اعتاد الأخذ؛ صار له طبيعة، ونشأ بأن يأخذ، لا بأن يعطي. ويعوده البذل والإعطاء، وإذا أراد الولي أن يعطي شيئا؛ أعطاه إياه؛ على يده، ليذوق حلاوة الإعطاء، (يعني: أن المربي يعطي من يربيه الصدقة ليتصدق بها نيابة عنه)،

ويجنبه الكذب والخيانة،.. ويجنبه الكسل، والبطالة، والدعة، والراحة، بل يأخذه بأضدادها، ولا يريحه إلا بما يُجِم نفسَه، وبدنَه للشغل، فإن للكسل والبطالة عواقبَ سوء، ومغبة ندم، وللجِد والتعب عواقب حميدة (...)، ويعوده الانتباه آخر الليل، (...) فمن اعتاد ذلك؛ صغيرا؛ سهل عليه؛ كبيرا. ويجنبه فضول الطعام والكلام والمنام،.. فإن الخسارة في هذه الفضلات،.. ويجنبه مضار الشهوات المتعلقة بالبطن والفرج، غاية التجنب، فإن تمكينه من أسبابها والفسح له فيها؛ يفسده فسادا يعز عليه بعده صلاحه.

وكم ممن أشقى ولده، وفلذة كبده، في الدنيا والآخرة، بإهماله، وترك تأديبه، وإعانته له على شهواته، ويزعم أنه يكرمه، وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه، وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه وحفظه في الدنيا والآخرة.

وإذا اعتبرتَ الفسادَ في الأولادِ؛ رأيتَ عامته مِن قِبَل الآباء .

والحذر، كل الحذر، من تمكينه من تناول ما يزيل عقله؛ من سُكر، وغيره، أو عِشرة من يُخْشَى فسادُه، أو كلامه له، أو الأخذ في يده، فإن ذلك الهلاك كله، ومن سهل عليه ذلك؛ فقد استسهل الدياثة، ولا يدخل الجنة ديوث، فما أفسد الأبناءَ مِثلُ تفريطِ الآباء وإهمالهم واستسهالهم شررَ النار بين الثياب، فأكثر الآباء يعتمدون، مع أولادهم، أعظم ما يعتمد العدو الشديد العداوة مع عدوه، وهم لا يشعرون، فكم من والد حرم ولدَه خيرَ الدنيا والآخرة، وعرضه لهلاك الدنيا والآخرة!

وكل عواقب تفريط الآباء في حقوق الله، وإضاعتهم لها، وإعراضهم عما أوجب الله عليهم؛ من العلم النافع، والعمل الصالح؛ حرمهم الانتفاع بأولادهم، وحرم الأولاد خيرهم ونفعهم لهم؛ هو من عقوبة الآباء.

ويجنبه لبس الحرير؛ فإنه مفسد له، ومخنث لطبيعته، (...) والصبي؛ وإن لم

يكن مكلفا، فوليه مكلف، لا يحل له تمكينه من المحرم؛ فإنه يعتاده، ويعسر فطامه عنه (...) فإن الصبي، وإن لم يكن مكلفا؛ فإنه مستعد للتكليف (...).

ومما ينبغي أن يُعتَمَدَ: حالُ الصبي، وما هو مستعد له، من الأعمال، ومهيأ له منها، فيعلم أنه مخلوق له، فلا يحمله على غيره، ما كان مأذونا فيه؛ شرعا، فإنه؛ إن حمله على غير ما هو مستعد له؛ لم يفلح فيه، وفاته ما هو مهيأ له؛ فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ، واعيا، راغبا، فهذه من علامات قبوله وتهيئه للعلم؛ فلينقشه في لوح قلبه؛ ما دام خاليا؛ فإنه يتمكن فيه، ويستقر، ويزكو معه. وإن رآه بخلاف ذلك، من كل وجه، وهو مستعد للفروسية وأسبابها، من الركوب، والرمي، واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم، ولم يخلق له؛ مكنه من أسباب الفروسية والتمرن عليها؛ فإنه أنفع له وللمسلمين، وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك، ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة من الصنائع، مستعدا لها، قابلا لها، وهي صناعة مباحة، نافعة للناس؛ فليمكنه منها. هذا كله: بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه؛ فإن ذلك ميسر على كل أحد»(٢٠٤).

ولنتأمل في المقولات الآتية، في المسؤولية التربوية للوالدين:

أخرج مسلم، والبيهقي، عن ابن أبي عتيق؛ قال: تحدثت أنا والقاسم بن محمد عند عائشة- رضي الله عنها - حديثا، وكان القاسم رجلا لحانة، وكان لأم ولد، فقالت له عائشة: ما لك لا تتحدث كما يتحدث ابن أخي هذا ؟ أما إني قد عَلِمتُ من أين أتيت؟ هذا أدبته أمه، وأنت أدبتك أمك(٢٠٥)، ..

---

(٢٠٤) ابن قيم الجوزية: تحفة المودود بأحكام المولود، مصدر سابق، ص ١٥٣ – ١٦٧، وأنصح بدراسة هذا الكتاب كله، وقراءة كتاب العيال لابن أبي الدنيا؛ (أبواب: تعليم الصبيان الصلاة، تعليم الصبيان القرآن، تعليم الرجل أهله، وتعليم ولده وتأديبهم، باب اللعب للصبيان، باب في تعليم العلم للأصاغر ... وغيرها).

(٢٠٥) السنن الكبرى، ج ٣، رقم ٥٠٣٧، ص ٣٣٠، وهو في مسلم برقم ٥٦٠ .

وأخرج البيهقي، عن القاسم؛ قال: قال عبد الله: حافظوا على أبنائكم في الصلاة، ثم تعودوا الخير؛ فإنما الخير بالعادة. وأخرج عن أبي الأحوص؛ عن عبد الله؛ قال: حافظوا على أولادكم في الصلاة، وعلموهم الخير؛ فإنما الخير عادة(٢٠٦).

وأخرج عن عثمان الحاطبي (ثقة، صدوق)، قال: سمعت ابن عمر يقول لرجل: أدب ابنك؛ فإنك مسؤول عن ولدك: ماذا أدبته؟ وماذا علمته؟ وإنه مسؤول عن برك وطواعيته لك(٢٠٧).

وهكذا فمن خلق المسلمين: أن يرحموا الصغار بحسن تربيتهم لهم، ومن رحمة الكبار بالصغار: أن يربوهم، وألا يشتدوا عليهم في التأديب والتعليم، فقيمة الرحمة تتجلى في تربية الرحمة، ورحمة التربية.

إن قيمة الرحمة تلزمنا بإعادة صياغة فعل التربية، وعملياتها، في كل مؤسساتنا التربوية؛ في الأسرة، والمدرسة، والكتاب، والمسجد، والمعهد، والجامعة، والنادي، وكل فعاليات التربية في الحركات الإسلامية؛ لتكون تربية أولادنا وتلامذتنا قائمة على الرحمة، لا على القهر والقسوة، أو العنف والشدة، والعَسف والسطوة، والاستبداد، وهذا ما أتناوله في المجموعة الثامنة من أحاديث الرحمة، وتعقيبنا عليها، بفضل الله وبرحمته، في الفقرة الآتية.

٨ ـ تربية الرحمة لا تربية القهر والعَسف والاستبداد:

تناولت هذا البعد في قيمة الرحمة مع الأولاد والصغار، والتلاميذ، في كتابي: دستور المعلمين، وأقول، هنا: إن النبي ﷺ حدد وجهة التعليم

---

(٢٠٦) كلاهما: حسن لغيره، البيهقي: السنن الكبرى، ج ٣، رقم ٥٠٩٤، ٥٠٩٥، ص ٣٥٠ .

(٢٠٧) إسناده حسن، ورواه في الشعب (٨٦٦٢)، وابن أبي الدنيا في العيال، ص ٣٢٩، ٣٣٤، وسنده حسن، وانظر: البيهقي: السنن الكبرى، ج ٣، ص ٣٥١، وروى الطبراني في الكبير عن ابن مسعود: «تعودوا الخير فإنما الخير بالعادة، وحافظوا على نياتكم في الصلاة »، قال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، المجمع، ج ٢، رقم ٢٥٧٨، ص ٢٦٨

والتربية؛ فهي: تربية قائمة على (الإحسان)، و(التيسير)، و(الرحمة)، سواء كانت تربية والدية في الأسرة، أو تربية في المدرسة، أو في الكتاب، أو في المسجد، أو في الجامعة، أو في أي وسيط تربوي؛ في الحركة الإسلامية، أو في المجتمع الأهلي.

وهذه مجموعة من الأحاديث الصحيحة تبين لنا ما نقصده من هذه الوجهة التربوية:

أخرج الإمام مسلم، من حديث طويل، عن عائشة؛ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم يبعثني مُعَنِّتًا، ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا ميَسِّرًا**»(٢٠٨). فهو معلم ميسر، لا يوقع أصحابَه في العَنَت؛ وهو الضيق والحرج والمشقة، والعسر، فلا هو معَنِّت، ولا هو متعنت في نفسه؛ فقلبه سليم، ونفسه سليمة، متعافية، ومشاعره وعواطفه سليمة سوية، وأصل العنَت: الشدة، وإدخال المشقة، أي: لم يبعثني بهذا لغيري، ولا في خاصة نفسي. وأخرجه أحمد بلفظ: «.. **إن الله، عز وجل، لم يبعثني مُعَنِّفًا، ولكن بعثني معلمًا ميسرًا**»(٢٠٩).

فهو لا يعلم بالعنف، أو الشدة، بل بعثه الله؛ ليعلم باليسر، والرحمة، والرعاية، ولهذا أوصى الذين كان يبعث بهم للتعليم والذين كان يعدهم للتربية، معه، ومن بعده، بهذه القيمة؛ الرحمة، والتيسير، في التعليم؛ أخرج مسلم، عن أبي بردة، عن أبيه (أبي موسى الأشعري)، أن النبي ﷺ بعثه، ومعاذا، إلى اليمن، فقال لهما: «**بِشرا، ويسرا، وعلما، ولا تنفرا**»، وأراه قال: «**وتطاوعا**»، وفي رواية لمسلم: «**ادعوا الناس، وبشرا ولا تنفرا، ويسرا، ولا تعسرا**»(٢١٠).

---

(٢٠٨) إكمال المعلم، ج ٥، رقم ١٤٧٨، ص ٣٤ .

(٢٠٩) إسناده صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٤٤٥٢، ص ٤٧١ .

(٢١٠) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ١٧٣٣، ص ٤٦٣ .

فالتعليم الناجع الفعال: هو تعليم التيسير، والرحمة، والجذب، وليس تعليم العنف، والتنفير، والتعسير. وقال أحمد: حدثنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا سفيان، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«علموا، ويسروا، ولا تعسروا، وإذا غضبت؛ فاسكت، وإذا غضبت؛ فاسكت، وإذا غضبت؛ فاسكت»**(٢١١)، وفي رواية، له، عنه: **«علموا، ويسروا، ولا تعسروا، وإذا غضب أحدكم؛ فليسكت»**(٢١٢). فوجهة التعليم، في المنظار الإسلامي، هي: الرحمة، والتيسير، وعدم التعسير والتعنت والعنف.

إن المعلم، في التصور الإسلامي، هو مثل الوالد الرحيم، من حيثُ حرصُه على نفع تلامذته، ومن حيث شفقته وعطفه، ومحبته، ورعايته، ورحمته بهم، ومن حيث لينه ورقته، وعذوبته، وحنانه، وبهذه المشاعر، والقيم، وحدها، نحسن التعليم، وهذا ذاته ما يبينه الحديث الذي أخرجه أحمد، عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنما أنا لكم: مثل الوالد؛ أعلمكم»**(٢١٣).

فالمعلم الماهر في التعليم، حقا، يجري تلامذته مجرى بنيه؛ في الحرص على مصلحتهم، وفي الرحمة والشفقة والرعاية.

وأخرج مسلم، وهذا لفظه، وأحمد والنسائي؛ قال أبو رفاعة: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله، رجل غريب، جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه ؟ قال: فأقبل عليَّ رسول الله ﷺ وترك خطبته، حتى انتهى إلي، فأتي بكرسي، حسبت قوائمه حديدا، قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته، فأتم آخرَها(٢١٤).

---

(٢١١) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٣، رقم ٢٥٥٦، ص ١٥٦

(٢١٢) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٢، رقم ٢١٣٦، ص ٥٣٨، ونفس المصدر، ص ١٠٠

(٢١٣) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ٧، رقم ٧٤٠٣، ص ٢١٢، ورواه النسائي، السنن، ج ١، رقم ٤٠، ص ٢٩

(٢١٤) إكمال المعلم، ج ٣، رقم ٨٧٦، ص ٢٨١. المسند، ج ١٥، رقم ٢٠٦٣١، ص ٣١١، بإسناد صحيح.

فتأمل هذا الموقف التربوي الكامل، وما فيه من حسن التعليم، والرحمة، والرعاية، والرفق، والإقبال على المتعلم، والاحترام الشديد لحاجته وشخصيته.

وقد أخرج أحمد، عن صحابي من أهل البادية؛ فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله[٢١٥]. فالمعلم الناجح؛ الفعال في تعليمه، يعطف على المتعلم، ويأخذ بيده.

إن التعليم، ذاته، هو موقف رحمة، موقف إنقاذ من الجهل، أو سوء الخلق، أو النقص في مهارة نافعة، أو في عادة حسنة، أو سلوك سليم. فالمعلم الحق: هو المعلم الرحيم بمتعلمه، الذي يقبل عليه، وإليه، ويأخذ بيده؛ وهذا له معنيان: الأول: يمسك بيده؛ حنانا ورقة، والثاني: معنى مجازي؛ أي: يعينه، ويساعده على الارتفاع عن سفح الجهل، والجهالة، إلى القمة السامقة؛ إنه موقف رحمة؛ حسيا ومعنويا.

ولنتأمل في الموقف التربوي التالي: أخرج مسلم، عن معاوية بن الحكم السلمي؛ قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثُكلَ أمـِّياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟! فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يُصَمِّتونني، لكني سكتُّ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي؛ ما رأيت معلما، قبله، ولا بعده، أحسن تعليما منه؛ فوالله ما كَهَرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس؛ إنما هو التسبيح، والتكبير، وقراءة القرآن**»[٢١٦]. وفي رواية النسائي: فلما انصرف رسول الله ﷺ دعاني، بأبي وأمي هو، ما ضربني، ولا كهرني، ولا سبني، ما

---

(٢١٥) إسناده صحيح، المسند، ج ١٥، رقم ٢٠٦١٧، ص ٣٠٦، ورقم ٢٠٦٢٤، ص ٣٠٩.
(٢١٦) إكمال المعلم، ج ٢، رقم ٥٣٧، ص ٤٦٢، ٤٦٣.

رأيت معلما، قبله ولا بعده، أحسن تعليما منه..[٢١٧]. قال السندي: أي: ما انتهرني، ولا أغلظ لي في القول، أو: ولا استقبلني بوجه عبوس[٢١٨]. وقال، في الإكمال: فيه: سيرة رسول الله ﷺ في التعليم؛ من الرفق بالجاهل، وترك الغضب عليه؛ إذا لم يقصد مخالفة. وقوله: فوالله ما كهرني؛.. الكَهر: الانتهار،.. قال القاضي: وقيل: الكهر: العبوس في وجه من تلقاه[٢١٩].

فقيم التعليم الناجع تتضمن قيمة الرحمة، التي تتجسد، وتتشخص، في سلوكيات تربوية، موقفية، مع المتعلمين، هي: سلوكيات المربي الرحيم؛ ومنها: الرفق، والشفقة، والعطف، والرعاية، والتيسير، واللين، والإقبال على المتعلم، وعدم انتهاره، أو العبوس في وجهه، وعدم ضربه أو سبه أو شتمه، وعدم الإعنات له، ومعه، ونبذ العنف والقسوة والشدة في معاملته وتأديبه، سواء كان العنف: رمزيا؛ لفظيا، نفسيا، بدنيا أو ماديا[٢٢٠].

هذا هو التعليم الذي يؤثر في تلاميذنا وأولادنا، ويغيرهم نحو الأحسن. التعليم الذي يغير ما بالأنفس؛ من عقائد وتصورات، وقيم وأخلاق، وعواطف ومشاعر وانفعالات، وعادات، واتجاهات. التعليم الذي يحول الشخصيات، فعلا؛ تعليم المحبة والجذب، والرحمة، هو الذي يربي الفكر والتفكير، والخلق الحسن، والعادات الحسنة، والمشاعر الرقيقة، والأذواق الجميلة، والميول والاتجاهات النفسية التواقة للسمو، والملكات الراسخة في العلم الذي نعلمه، والمهارة التي نكسبها.

أما تربية القهر والعنف والقسوة؛ فهي تربية الوأد، تربية القتل النفسي؛

---

(٢١٧) سنن النسائي، ج ٣، رقم ١٢١٢، ص ١٢ ، ١٣

(٢١٨) الحاشية على المصدر السابق، ص ١٣

(٢١٩) إكمال المعلم، ج ٢، ص ٤٦٢.

(٢٢٠) انظر تفصيل قيمة الرحمة والرعاية في: د. عثمان عبد المعز رسلان: دستور المعلمين، ط ١، دار البشير للثقافة والعلوم، طنطا، ٢٠٠٠ م.

قتل الإبداع؛ قتل التفكير المبدع، والإرادة التواقة لإضافة الجديد النافع، إن تربية القهر والقسوة هي (مجزرة للأبرياء)، أو (مخرطة لهم)، ومعتقل، ومحبس، يعوق النمو والاكتمال الإنساني. إنها جريمة نرتكبها في حق أبنائنا وبناتنا، وتلاميذنا.

ولم أجد أفضل من عبد الرحمن بن خَلدون يبين لنا خطورة تربية القهر والقسوة، وأهمية تربية الرحمة والحب والرأفة لتحقيق الكمال الإنساني، وهذا بيان مجتزأ من لفظه: وأصله: أن الإنسان: ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه، فالذي ألفه في الأحوال؛ حتى صار خلقا وملكة وعادة؛ تَنزل منزلة الطبيعة والجبلة، واعتبر ذلك في الآدميين؛ تجده كثيرا صحيحا. والله يخلق ما يشاء(٢٢١).

ثم يبين أن معاناة الناس للشدة والقهر مُفسِدة للبأس والشجاعة فيهم، وذاهبة بالمنفعة منهم؛ فإن كانت المِلكة (يعني: التصرف على الناس، والسلطة عليهم؛ سواء سلطة السياسة والحكم، أو سلطة الأبوين، أو سلطة المعلم)، رفيقة وعادلة، لا يُعَانَى منها حكم، ولا منع وصد؛ كان الناس من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم (...)، وأما إذا كانت المِلكة وأحكامُها؛ بالقهر والسطوة والإخافة؛ فتكسر، حينئذ، من سَورة بأسهم، وتذهب المنعة عنهم؛ لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهَدة، (...) وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب؛ فمُذهِبة للبأس بالكلية؛ لأن وقوع العقاب، به، ولم يُدافِع عن نفسه؛ يكسبه المذلة؛ التي تكسر من سورة بأسه، بلا شك. وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية، أُخِذَت من عهد الصبا؛ أثرت في ذلك بعضَ الشيء؛ لِمُرَبَّاهُ على المخافة والانقياد (...)، وتجد، أيضا، الذين يعانون الأحكامَ ومِلكتَها، من لدن مُرَباهم، في التأديب والتعليم، في الصنائع والعلوم والديانات؛ ينقص ذلك (يشير إلى القهر والسطوة

---

(٢٢١) ابن خلدون: المقدمة، ج ١، ص ٦٠.

والشدة في التعليم) من بأسهم كثيرا، ولا يكادون يدفعون عن أنفسهم عاديَة، بوجه من الوجوه، وهذا شأن طلبة العلم، المنتحلين للقراءة والأخذ عن المشايخ والأئمة، الممارسين للتعليم والتأديب في مجالس الوقار والهيبة، فيهم هذه الأحوالُ، وذهابُها بالمنعة والبأس(٢٢٢).

ثم يبين ابنُ خلدون أن التربية الناجعة تكون بتربية الوازع من النفس؛ بترسيخ الإيمان.. إلخ، وبأن لا ينبغي للمعلم والمؤدب أن يضرب أحدا من الصبيان، في التعليم، فوق ثلاثة أسواط، .. إلخ؛ وإلا أثرت تربية القهر في ضعف نفوسهم(٢٢٣).

ثم يبين أثَرَ تربيةِ القهر والشدة في حصول مذلة النفس، والقابلية للتبعية والانقياد للغير؛ لأن المذلة تكسر قوة النفس؛ فيعجز الإنسانُ عن المدافعة، فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة، واعتبر ذلك في بني إسرائيل؛ (حين دعاهم موسى لدخول الأرض المقدسة؛ فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، وخافوا، وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَاعِدُونَ﴾) وما ذلك إلا لما أنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة (...)؛ بما حصل فيهم من خلُق الانقياد، وما رَئِموا (تعودوا) من الذل للقِبط؛ أحقابا (...) فأقصَروا عن ذلك، وعجزوا؛ تعويلا على ما في أنفسهم من العجز عن المطالبة؛ لما حصل لهم من خُلُق المذلة (...) والمذلة عائقة..(٢٢٤).

فتربية القهر تعود الأولادَ والتلاميذ على خلق المذلة، وتفقدهم القدرةَ على المقاومة والمدافعة والمطالبة، والتحرر الإنساني، وهذا تفسير تربوي نفسي للظاهرة الاستبدادية في المجتمع.

---

(٢٢٢) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٠.
(٢٢٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٦١.
(٢٢٤) المصدر السابق، ج ١، ص ٦٩.

ثم يبين ابن خلدون أن تربية القهر تؤدي إلى الكسل الحضاري، ونقصان الإنسانية، بكلام علمي رائع، حقا، يقول: والسبب في ذلك، والله أعلم، ما يحصل في النفوس من التكاسل؛ إذا مُلِكَ أمرُها عليها، وصارت؛ بالاستعباد، آلة لسواها، وعالة عليهم؛ فيقصُرُ الأملُ، ويضعُفُ التناسلُ. والاعتمارُ: إنما هو عن جِدَّةِ الأمل، وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية، فإذا ذهب الأملُ؛ بالتكاسل، وذهب ما يدعو إليه من الأحوال (...)؛ تناقص عمرانُهم(...) وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، (...) فأصبحوا مُغَلَّبين لكل مُتَغَلِّب، وطُعمة لكل آكِل، (...)، وفيه، والله أعلم، سِر آخرُ؛ وهو أن الإنسانَ رئيس بطبعه، بمقتضى الاستخلاف الذي خُلِق له، والرئيس؛ إذا غُلِبَ؛.. وكُبِح عن غاية عزه؛ تكاسل، حتى عن شِبَع بطنه، ورِي كبده، وهذا موجود في أخلاق الأناسي (...)، وإنما هي طبيعة في الإنسان؛ إذا غُلب على أمره..[٢٢٥].

ثم يبين أن إرهاف الحَد؛ يعني: القسوة والعَسف، والشدة والعنف، يربي صفات خبيثة، فإرهاف الحد يشمل الناسَ والمتعلمين: بالخوف والذل؛ فيلجأ الإنسان إلى الكذب والمكر، والخديعة، فيتخلق بذلك، فيفسد خلقه، والتعسف يحمل الوجود على ما ليس في طبعه، والمحمود هو التوسط[٢٢٦].

ثم يبين أن القسوةَ فساد للنفس الإنسانية؛ لأن الإنسان؛ إنما هو إنسان؛ باقتداره على جلب منافعه، ودفع مضاره، واستقامة خلقه للسعي لذلك[٢٢٧]، والذي تربى في القهر؛ لا يقدر على دفع المضار؛ بما فقد من خلق الشجاعة والبأس؛ بالمُرَبَّى في قهر التأديب والتعليم، فهو، لذلك، عيال

---

(٢٢٥) المصدر السابق، ج ١، ص ٧٣.
(٢٢٦) المصدر السابق، ج ١، ص ٩٥.
(٢٢٧) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٠.

وعالة على غيره، كما أن تربية القهر فساد نفسي؛ بسبب ما تلوثت به النفس من العوائد، وإذا فسد الإنسان في قدرته، ثم في أخلاقه، ودينه؛ فقد فسدت إنسانيته، وصار مسخا على الحقيقة(٢٢٨).

ثم يعقد فصلا مهما جدا؛ في (**أن الشدة على المتعلمين مُضِرة بهم**)؛ يقول فيه؛ معللا لهذا الضرر:

«وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضِر بالمتعلم، ولا سيما في أصاغر الوُلد؛ لأنه من سوء المِلكة، ومن كان مُرَباه بالعَسف والقهر من المتعلمين (...)؛ سطا به القهر (اعتدى عليه القهر بشدة)، وضيق على النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخُبث؛ وهو التظاهر بغير ما في ضميره؛ خوفا من انبساط الأيدي بالقهر، عليه، وعلمه المكر والخديعة، لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقا، وفسدت معاني الإنسانية التي له؛ من حيثُ الاجتماعُ والتمدن، وهي: الحَمِية، والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالا على غيره في ذلك، بل: وكسلت النفسُ عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل؛ فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، (...) وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر، ونال منها العَسفُ، واعتبره في كل من يُملَك أمرُه عليه، ولا تكون المِلكة الكافلة له رفيقة به، وتجد ذلك فيهم؛ استقراء، (...) فينبغي للمعلم في مُتَعَلِّمِه، والوالِدِ في وُلدِهِ ألا يستبد عليهم في التأديب»(٢٢٩). وهذا هو الأسلوب الناجع في التربية الوالدية الفعالة.

٩ـ مبادئ اكتساب المربين والكبار لقيمة الرحمة بالصغار:

هذه هي قيمة الرحمة، في مجالها الخاص بالأطفال الصغار، والتلاميذ، ولها

---

(٢٢٨) المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٠.

(٢٢٩) المصدر السابق، ج ١، ص ٣٤٧.

صور سلوكية وآثار نفسية وتربوية عميقة، وهي تحتاج منا لإعادة دراسة وتأمل؛ بقصد العمل؛ فنهاية الفكرة بداية العمل. واكتساب هذه القيمة، من المنظار التربوي، يتطلب إعمال المبادئ الآتية:

٩-١: مبدأ الوعي بالقيمة: أي: اكتساب رؤية وتصور واضح وإدراك عقلي، بأبعاد الرحمة بالصغار، ومفهومها، وصورها التطبيقية، وأهميتها في التربية، والتعامل مع الصغار، وفي السلامة النفسية للأجيال الناشئة، وفي الممارسة الصحيحة للتربية الوالدية، فاكتساب هذا التصور ضروري لكل أب وأم، ولكل معلم ومعلمة، ولكل من يتعامل مع الصغار؛ لكي يحسن هؤلاء تطبيق هذه القيمة، بإدراك ووعي، لمضمونها، وآثارها.

ومن الضروري تربية الوالدين؛ ضمن برامج التربية الوالدية، وتربية المعلمين؛ ضمن برامج تدريبهم الدوري، ليفهموا ويعوا معطيات هذه القيمة.

فإكساب هذا التصور لهؤلاء يتطلب برامج ودورات تربوية ومحاضرات، وحوارات، وورش عمل، للآباء والمعلمين، في المساجد، والمدارس، والجامعات، والنقابات، والأحزاب، وباقي مؤسسات المجتمع الأهلي، والفضائيات، وفي وسائط التربية والحوار داخل فعاليات الحركة الإسلامية؛ لمدارسة هذه القيمة، وتحصيل وعي صحيح، بها وبكيفية تطبيقها، عند الرسول ﷺ، وفي مجالات التربية الوالدية والعامة، والحياة العائلية، والاجتماعية، وتتبع ومناقشة المادة الفكرية المعروضة في مواقع النت، الخاصة بالتربية الوالية، وأسلوب القسوة في هذه التربية، مناقشة ودراسة مدى تضمين مواثيق حقوق الطفل لأبعاد الرحمة بالصغار، ومدى تطبيقنا لها في ممارساتنا لها، ومناقشة ومدارسة واقع العنف والقسوة مع الأطفال، وفي الأسرة، والمدرسة، والمساجد، وغيرها، وكيف نواجه العنف مع الصغار

بسياسة الرحمة في التربية، والتعامل العلائقي والتواصل مع الصغار. مع التركيز، في ذلك النشاط التثقيفي كله، على التحليل، وتحصيل وعي نقدي، مدرك للسياق الاجتماعي والثقافي، المنتج لهذه الممارسات، وعلى اكتساب التصور الصحيح للرحمة بالصغار.

٩- ٢: **مبدأ تذويت الرحمة بالصغار**: أي: تحويلها من تصور ذهني، إلى ضمير حي في القلب، وإلى شعور نابض في الوجدان، وإلى إيمان. فإذا كان التصور الواضح الدقيق المقنع المؤثر، لهذه القيمة، ضروريًّا؛ فإن تنمية الإيمان بها، والرغبة القوية فيها، والشهوة والحب والعشق لها، والاتجاه والانعطاف نحوها، وإرادة الاتصاف بها، والنزوع إلى ممارستها في العائلة والمدرسة، مع الصغار والتلاميذ، هو أكثر أهمية وضرورية؛ من أجل الممارسة الواقعية لهذه القيمة، والقصد إليها بعشق واشتهاء، فمن هنا نبدأ.

وتنمية هذا الإيمان، وهذه الرغبة، وهذه الإرادة، وهذا العشق، وهذا الاشتهاء، يتطلب، مع المدارسة السابقة، تذوق هذه القيمة، واعتبار مآلات تطبيقها، وإدراكاً متأثرًا، ووعيًا بآثارها في الواقع النفسي والاجتماعي، والتفكر المتأمل في تطبيقات الرسول لها، بأبعادها المختلفة، من خلال دورة جماعية، أو برنامج تثقيف ذاتي، ينصب على معطيات هذا المبحث، وعلى دراسة الكتب التي تناولت تطبيق هذه القيمة؛ مثل: أخلاق النبي؛ لأبي الشيخ الأصبهاني، وكتاب العيال؛ لابن أبي الدنيا، والشمائل، لابن كثير، وللترمذي، ودستور المعلمين؛ للمؤلف.. إلخ. وبالقراءة النقدية الفاحصة للسياق الاجتماعي الذي نحياه مع صغارنا، ومن خلال الحوارات الناضجة بين الآباء والأمهات، والأولاد، والمعلمين وخبراء التربية، حول واقع هذه القيمة، في المساجد، والنقابات التعليمية، وندوات النقابات والمدارس وجمعيات أولياء الأمور، والقنوات الفضائية، وفعاليات الحركات الإسلامية ومؤسسات

المجتمع الأهلي، بهدف تكوين وتنمية إيمان بأهمية ممارسة الرحمة بالصغار.

٩-٣: مبدأ التعود والممارسة والفعل الفوري:

وهذا وذاك، وحده، لا يربي فينا قيمة الرحمة بالصغار، بل يبني قاعدة عقلية، وبيئة نفسية، لنمو هذه القيمة فينا، أما اكتسابها، فعلا، فيتطلب ممارسة قاعدة ابن مسعود في تربية الخير «تعودوا الخير؛ فإنما الخير بالعادة» أي: التعود، والممارسة الواقعية، والتدرب، والانخراط الفعلي في أعمال الرحمة بالصغار، وممارسة صورها المذكورة، فعلا، وفورا، مع أبنائنا وبناتنا، وتلاميذنا، من حولنا؛ في المنزل، والحارة، وفي الشارع، وفي المدرسة، وفي الكتاتيب، والمساجد، وفي كل ساحات الفعل التربوي مع الأطفال؛ في الأندية، والملاعب... إلخ، وفي مواقع العمل التي تشغل الصغار، وبأن نشرع، فورا، بكسر الحواجز القاسية بيننا وبين الأطفال، وأن نتخلى عن- ونفارق- أساليب الحب الغشيم للصغار، فنربي بالتهذيب، لا بالتعذيب، ونتعامل بالحب الصحيح لا بالحب الغشيم، وبأن نحمل أنفسنا على التزام صور الرحمة بصغارنا، حتى تصبح خلقا، وصفة مميزة لنا؛ فنحن نتربى بما نفعله، لا بما نقرؤه أو نسمعه أو نقوله، فقط.

٩-٤: مبدأ القدوة والتأسي:

ويعين على ما سبق: التأسي بالرسول ﷺ في رحمته بالصغار، وأن نتكلف نحن الرحمة، حتى وإن أغضبنا الصغار، والتأسي بالمربين الصالحين من حولنا، وأن نكون نحن قدوات لأبنائنا.

٩-٥: مبدأ إشاعة ثقافة الرحمة:

أي: تشكيل وتنمية ثقافة رحمة، وإشاعتها، حتى يتشربها الصغار والكبار، بالمعايشة، ويتنفسوها، في الأسرة، والمدرسة، والمسجد، والتلفزة، والكتاب، والمجلة، والأشرطة، والسي دي، والنت، ومن خلال: الكلمة والصورة،

والقصيدة، و النشيد، والخطبة، والمحاضرة، والندوة، والمسلسل، والفيلم، والمسرحية، والحوار، وعبر أفلام الكرتون، ومن خلال النفر القدوة الذين يشعون الرحمة في المجتمع، ويربون بأحوالهم قبل كلامهم، ومن خلال المعاملة، والرأي العام، ونشر وتعميم محتوى هذا الفصل ...إلخ.

٩ - ٦: مبدأ تصفية ثقافة العنف والقسوة:

وحسب تجربتي: فإن الرحمة بالأولاد وبالصغار، بصورها السابقة، عاطفة قوية في الفطرة الإنسانية، غير أن الإنسان قد يمارس القسوة عليهم في حالة الغضب، أو لاعتقاد أن القسوة عليهم أسلوب تربوي نافع لهم؛ بسبب شيوع أفكار ضالة مضلة، وقاتلة، توجهنا في سلوكنا مع أولادنا وتلاميذنا، مثل: «اكسر للبنت ضلعاً؛ يطلع لها ٢٤ضلعاً»، أو «عقل الولد في ظهره»، وأشباه هذه المعتقدات الباطلة، وأحيانا بسبب ممارستنا للحب الغشيم.

وهذا وذاك وذلك: خطأ، وخطر، يجب تصفية العقل والنفس والسلوك من آثاره ومخلفاته؛ فنحن، بهذه الأساليب، نبني حوائط صد بيننا وبين أولادنا. ويمكن عقد دورة تربوية لمناقشة آثار هذه الأساليب التربوية الخطرة على نفسيات الأولاد، يدلي فيها الآباء والأبناء بآرائهم في مكاشفة حية حرة مربية.

ومن الضروري مواجهة غضب الذات إزاء تصرفات الصغار، والسيطرة على هذا الغضب، بحيث نكظمه، ولا ننفذه، فما أكثر الضرر والعناء النفسي الذي نسببه لصغارنا؛ بسبب لحظات غضب تطفئ عقولنا، وتغطي أو تهزم قوة الخير فينا؛ لهذا يلزم برنامج علاج ذاتي؛ فردي أو جماعي، لكبح أو تهذيب الغضب، عند أولياء الأمور السريعي الغضب، والعنيفي الغضب، بحيث نربي ونهذب ونروض، ونجوع هذا النمر الهائج فينا؛ شيئا، فشيئا. ويمكن تصميم برنامج لترويض وتهذيب وكبح الغضب، وتطبيقه، ضمن برامج تربية القلب الرحيم، الموجهة للمربين والآباء .

ومن اللازم تغيير مفهوم التربية بالذراع القوية، والشدة، فهذه ليست تربية؛ بل هي عنف ضد الصغار، وهذا يتطلب الاشتراك في دورات تربوية لمعرفة وإدراك الأساليب الصحيحة في التربية الوالدية والمدرسية، ومفاهيم العقاب، وحدود العقاب البدني، ومتى، وكيف، نمارسه ؟

ومع ممارسة هذا وذاك؛ لا بد، فورا، من برنامج علاج تعويضي للرحمة بمن أسأنا إليهم، يمارسه الأب والأم والأستاذ، مع الصغار الذين نهروهم وقهروهم، حتى ولو كان الصغار قد أخطؤوا، فالخطأ ليس مسوغا للقهر، وأساس البرنامج التعويضي لرحمة الصغار: أن نعتذر إليهم، وان نطلب مسامحتهم وغفرانهم، حتى لا يقتصوا منا يوم القيامة، وأن ندخل الله والدار الآخرة في حسابنا ونحن نتعامل مع الصغار، وأن نعدهم بعدم العنف أو القسوة، معهم، ثانية، وأن نفي بوعدنا لهم، وأن نأخذهم في رحلة ترفيهية تفرج عنهم كروبهم، وأن نمارس الأبوة والأمومة الرحيمة الحانية معهم .

وعلينا نحن الكبار، أن ندخل أنفسنا في حساب مع الذات، أن نقف مع أنفسنا نحن؛ لنسأل: ألسنا نحن الذين نحتاج إلى تربية؟ وإلى أن نخرج من سجن ذواتنا وأنانيتنا، واعتقادنا أن أولادنا ملكية خاصة لنا، أو أنهم مجرد امتداد لوجودنا نحن، إلى فضاء الإيمان بأنهم بشر مكرمون، ذوو شخصيات واستقلال، وحق في التسيير الذاتي، وأنهم في حاجة للحب الرحيم، لا للحب الغشيم.

ونحن الكبار، أيضا، في حاجة إلى أن ننظر بمنظار أولادنا، وأن نتقمصهم؛ وجدانيا، ونضع أنفسنا موضعهم، لنشعر بمشاعرهم، ونسأل: ماذا لو أهنا نحن؟ ماذا لو كانت هذه القسوة والوحشية والإهانة معنا، وتمارس ضدنا؟ إن خمس دقائق من هذا التقمص الشعوري لوجدان أولادنا وانفعالاتهم، كفيلة بتغيير سلوكنا معهم. لو أننا نحس بأحاسيس الإنسان!

وبهذا كله نصير رحماء بأولادنا وتلاميذنا وبناتنا، وأصدقائنا الصغار.

د ـ قيمة الرحمة بجميع المسلمين والشفقة عليهم:

١ـ يصف الله المؤمنين بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]: فالمؤمنون يحب بعضهم بعضا، ويرحم بعضهم بعضا، وينصر بعضهم بعضا، ويعطف بعضهم على بعض، أخرج البخاري عن النعمان بن بشير؛ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم؛ كمثل الجسد؛ إذا اشتكى عضو؛ تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**»(٢٣٠). وأخرجه مسلم في (باب تراحم المؤمنين، وتعاطفهم، وتعاضدهم)؛ بلفظ: «**مثل المؤمنين؛ في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى**». وأخرج عن النعمان بن بشير؛ قال: قال رسول الله، ﷺ: «**المسلمون كرجل واحد؛ إن اشتكى عينُه؛ اشتكى كلُّه، وإن اشتكى رأسُه؛ اشتكى كلُّه**»(٢٣١).

فالإيمان بالله، والإسلام له، والعقيدة الصحيحة؛ في الله ورسوله واليوم الآخر؛ يدمج المؤمنين والمسلمين في بعض، ويحولهم إلى كيان اجتماعي عضوي واحد، إلى زمرة اجتماعية تتجسد جسدا واحدا، إن اشتراك المؤمنين في الإيمان بالله وبالإسلام، واستسلام القلب لله، والطمأنينة الشعورية بذلك؛ يدفعهم للخروج من دوائرهم الذاتية إلى تكوين شبكة علاقات شعورية واجتماعية، والدخول في زمرة اجتماعية؛ يشعر بعضها ببعض؛ زمرة القلب الواحد، المتعارفة الأرواح، المتعاونة، المتحابة، المتراحمة، المتعاطفة، المتآلفة، المتكافلة، المتساندة، المتعاضدة، المتناصرة، التي يوالي بعضها بعضا؛ زمرة الأمة الواحدة؛ التي يصوغ، ويسود، كيانَها التعاطفُ الشعوري، والتناصر، والتعاون،

---

(٢٣٠) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠١١، ص ٤٣٨.

(٢٣١) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٨٥، ص ٥٦ (الحديثان معا).

والتضامن، والتماسك، والتفاعل، والتراحم؛ لأنه يصوغهم الإيمان المشترك، والحب المشترك، مما يجعلهم أمة فاعلة في حركة التاريخ، وصناعة الحياة.

هذا هو فعل العقيدة الإسلامية؛ حين تخالط بشاشتُها القلوبَ، حقا، يقول سيد قطب، في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٦٣]: «ولقد وقعت المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله، والتي لا تصنعها إلا هذه العقيدة، فاستحالت هذه القلوب النافرة، وهذه الطباع الشموس، إلى هذه الكتلة المتراصة، المتآخية، الذلول بعضها لبعض، المحب بعضها لبعض، المتآلف بعضها مع بعض، بهذا المستوى الذي لم يعرفه التاريخ (...) إن هذه العقيدة عجيبة فعلا، إنها؛ حين تخالط القلوب؛ تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب، التي تلين جاسيها، وترقق حواشيها، وتندي جفافها، وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق؛ فإذا نظرة العين، ولمسة اليد، ونطق الجارحة، وخفقة القلب؛ ترانيم من التعارف والتعاطف، والولاء والتناصر، والسماحة والهوادة، لا يعرف سرَّها إلا من ألف بين هذه القلوب، ولا تعرف مذاقَها إلا هذه القلوب»(٢٣٢).

هذه المحبة والرحمة هي التي تبني الأمة، وتدفعها لممارسة دور فاعل في صنع القوة الاجتماعية، وصياغة التاريخ، وبهذا، وحده، تولد الأمة، ويولد المجتمع الإسلامي العضوي، (البنيان المرصوص) الاجتماعي، وتتحقق الفاعلية التاريخية، والحضارية للأمة المسلمة، هذا هو البنيان المشار إليه في الحديث المتفق عليه؛ عن أبي موسى؛ عن النبي ﷺ قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان؛ يشد بعضه بعضا، ثم شبك بين أصابعه**»(٢٣٣). فهنا ثلاثة تشبيهات؛

---

(٢٣٢) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٣، ط ٣١، ص ١٥٤٨

(٢٣٣) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠٢٦، ص ٤٥٠، ورواه مسلم؛ إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٥٨٥، ص ٥٦.

تشبيه المسلمين بالجسد الواحد، وبالرجل الواحد، وبالبنيان المتماسك الذي يشد بعضه بعضا، قال ابن أبي جمرة: الذي يظهر: أن التراحم والتوادد والتعاطف، وإن كانت متقاربة في المعنى، لكن بينها فرق لطيف؛ فأما التراحم؛ فالمراد به: أن يرحم بعضُهم بعضَهم؛ بأخوة الإيمان، لا بسبب شيء آخر، وأما التوادد؛ فالمراد به: التواصل الجالب للمحبة؛ كالتزاور، والتهادي، وأما التعاطف؛ فالمراد به: إعانة بعضهم بعضا(٢٣٤).

والتمثيل بالجسد؛ هو بالنسبة إلى علاقة أعضائه، بعضها ببعض، ووجه الشبه فيه: التوافق في التعب والراحة؛ حيث إن أعضاء الجسد؛ إذا اشتكى عضو منها مرضا وألما؛ (تداعَى)؛ أي: دعا بعضُها بعضا إلى المشاركة في الألم، والمشاركة بالسهر؛ لأن الألم يمنع النوم، وفقد النوم يجلب حرارة الجسد التي تضر به، وقد شبه النبي ﷺ المؤمنين بالجسد؛ لأن الجسد أصل؛ كالشجرة، وأعضاؤه كالأغصان، فإذا اشتكى عضو من الأعضاء؛ اشتكت الأعضاء كلها، كالشجرة؛ إذا ضُرب غصن من أغصانها؛ اهتزت الأغصان كلها، بالتحرك والاضطراب(٢٣٥).

إن الإيمان بالله؛ حين تخالط بشاشتُه (حلاوته) القلوبَ؛ ينمي مشاعر حية نحو كل مؤمن؛ مشاعر الحب والرحمة، فينبعث الإنسان المؤمنُ للتعاون، والتناصر، والموالاة، ويربط مصيره بمصير كل مؤمن في العالم، ويصير غصنا في الشجرة الإسلامية، غصنا حساسا، مثمرا، يهتز ويضطرب؛ إذا أصيب غصن آخر بضرر أو أذى.

والتشبيه بالرجل الواحد؛ هو بيان للتماسك الشعوري العاطفي والاجتماعي، بين المؤمنين، فالمؤمنون، حقا، يندمجون اندماجا وجدانيا؛ يصيرون به كجسد رجُل واحد؛ يشعرون بمشاعر مشتركة، ويتكلمون لغة

---

(٢٣٤) فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٣٩ .

(٢٣٥) المصدر السابق، ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ .

اجتماعية واحدة، مشتركة، يرحم بعضهم بعضا، ويفرح بعضهم لبعض، ويألم، ويحزن، بعضهم لألم، ولحزن بعض، فالمؤمن، من أهل الإيمان، بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان؛ كما يألم الرأس لما في الجسد، كما صح في الحديث، فإذا اشتكى الجسد ألما؛ أصيب الرأس بالوجع.

ومن هنا يتحقق مفهوم البنيان؛ فهم كالبنيان، يشد بعضه بعضا، وهذا هو وجه التشبيه؛ أي: يعاون بعضهم بعضا، ويمد بعضهم بعضا، ويشد من أزره، ويتماسك معه، ويتراص، ويتساند، ويتضامن، في الأمور الدنيوية والأخروية، فينصر الأخ أخاه، في حضوره وغَيبته، ويدعو له بظهر الغيب، ويبدد فيه ما يملك؛ لينصره، ويكفيه ضيعته، ويكثره، ويشد ويزيد في قوة أخيه، (ثم شبك بين أصلبعه)؛ وهذا بيان لوجه الشبه، أيضا، أي: يشد بعضهم بعضا مثل هذا الشد[٢٣٦]، ويُكَوِّنُ بعضُهم مع بعض (شبكة علاقات) اجتماعية، متماسكة، متلاحمة، متينة، (فتشبيك) النبي بين أصابعه؛ هو بيان لما ينبغي أن تكون عليه (شبكة) العلاقات بين المسلمين.

ففي هذه الأحاديث الرائعة البيان؛ «تعظيم حقوق المسلمين، والحض على تعاونهم، وملاطفة بعضهم بعضا»[٢٣٧]. وقال، في الإكمال: وتمثيله- عليه الصلاة والسلام- في ذلك بالبنيان، وفي الحديث الآخر: بالجسد، (..) تمثيل صحيح، وتقريب للأفهام، في إظهار المعاني في الصور المرئية، فيجب على المسلمين امتثال ما حض (..) عليه من ذلك، والتخلق به[٢٣٨].

٢- وأساس الرحمة بالمسلمين هو ذلك الحب والشعور الذي ذكرناه، والرحمة بين المؤمنين والمسلمين لها صور سلوكية وتطبيقات عملية عديدة، ذكرنا بعضها في الفقرة السابقة، ولها صور أخرى؛ منها:

---

(٢٣٦) المصدر السابق، ص ٤٥٠.

(٢٣٧) المصدر السابق، ص ٤٣٩

(٢٣٨) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ٨، ص ٥٦، ٥٧.

٢- ١: **أن يعين بعضهم بعضا**، وينصره، ويستره، ويستر عليه، ويرد غيبته، ولا يغتابه، ..إلخ، أخرج مسلم، عن سالم، عن أبيه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**المسلم: أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يُسلِمُه**؛ (أي: لا يخذله، ولا يتخلى عنه؛ في وقت أزمته ومحنته)، **مَن كان في حاجة أخيه؛ كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كُربة؛ فرج الله عنه، بها، كربة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلما؛ ستره الله يوم القيامة**»(٢٣٩). وسيأتي تفصيل هذا في فصل كامل بعنوان: (تربية القلب المؤمن الملتزم بمكارم الأخلاق)، بعون الله.

٢- ٢: **ومن صور الرحمة بالمسلمين**: تنحية الأذى عن طريقهم؛ فالنبي ﷺ يربي المؤمنين بالقصة؛ ليعملوا بهذه الصورة السلوكية؛ عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ : «**مر رجل بغصن شجرة، على ظهر طريق، فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين؛ لا يؤذيهم، فأدخِلَ الجنة**»، وفي رواية لمسلم: «**بينما رجل يمشي بطَريق؛ وجد غصن شوك على الطريق، فأخره** (نحاه، ووضعه جانبا)، **فشكرَ اللهُ له؛ فغفر له**»، وفي رواية لمسلم: «**لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة؛ في شجرة قطعها من ظهر الطريق، كانت تؤذي الناس**»، وفي مسلم، عن أبي برزة؛ قال: قلت: يا نبي الله، علمني شيئا أنتفع به، قال: «**اعزل الأذى عن طريق المسلمين**»(٢٤٠). ويقاس على الأذى المذكور: تعلية الصوت على جيرانك، والغِيبة لهم، والبص عليهم، ... إلخ .

٢- ٣: **ومن صور الرحمة بالمسلمين**: التخفيف عليهم، في صلاة الجماعة، فعموما كان النبي، ﷺ، «يحب ما يخفف عنهم»، أي: عن أمته، ولا يثقل عليهم(٢٤١)، فكان يخفف عليهم في صلاة الجماعة؛ مراعاة للصغير، والكبير،

---

(٢٣٩) المصدر السابق، ج ٨، رقم ٢٥٨٠، ص ٤٩ .

(٢٤٠) المصدر السابق، ج ٨، رقم ٢٦١٨، ٢٦١٩، ص ٩٧ .

(٢٤١) أخرجه البخاري والبيهقي وغيرهما عن عائشة، انظر السنن الكبرى للبيهقي، ج٣، رقم ٤٤٠١، ص ١١٨

والمريض، والأم، أخرج مسلم، عن أبي هريرة؛ أن النبي ﷺ قال: «**إذا أم أحدُكم الناسَ؛ فليخفف؛ فإن فيهم الصغير، والكبير، والضعيف، والمريض، فإذا صلى وحده؛ فليصل كيف شاء**». وأخرج مسلم، عن عثمان بن أبي العاص الثقفي؛ أن النبي ﷺ قال له: «**أم قومك**»، (وساق الحديث، وفيه): «**فمن أم قوما؛ فليخفف؛ فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة، وإذا صلى أحدكم وحده؛ فليصل كيف شاء**». وأخرج مسلم، عن أنس؛ قال أنس: كان رسول الله ﷺ، يسمع بكاء الصبي مع أمه، وهو في الصلاة، فيقرأ بالسورة الخفيفة، أو بالسورة القصيرة. وأخرج مسلم، عن أنس؛ قال: قال رسول الله ﷺ : «**إني لأدخل الصلاة، أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي؛ فأخفف؛ من شدة وجد أمه به**»(٢٤٢). وفي رواية للبيهقي: «**إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي؛ فأتجوز في صلاتي؛ مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه**»(٢٤٣). وفي رواية للبيهقي: «**فأسمع بكاء الصبي؛ فأتجوز؛ كراهية أن أشق على أمه**». أخرجه البخاري وغيره. وأخرج أحمد، عن أنس؛ أن النبي ﷺ سمع بكاء صبي، في الصلاة؛ فخفف، فظننا أنه خفف من أجل أمه؛ رحمة للصبي(٢٤٤). وأخرج؛ بإسناد حسن، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ جوز، ذات يوم، في صلاة الفجر، فقيل: يا رسول الله، لمَ جوزتَ؟ قال: «**سمعت بكاء صبي؛ فظننت أن أمه معنا تصلي، فأردت أن أفرغ له أمه**»(٢٤٥).

٢- ٤: ومن صور الرحمة بالمسلمين: هذه الصور التطبيقية:

ـ عن عكرمة؛ عن ابن عباس؛ قال: لأن أعول أهل بيت من المسلمين،

---

(٢٤٢) إكمال المعلم، ج ٢، أرقام ٤٦٧، ٤٦٨، ٤٧٠، ص ٣٨٣ - ٣٨٥ .

(٢٤٣) سنن البيهقي، ج ٢، حديث رقم ٤٠٤١، ص ٧٦٢، صحيح، وهو متفق عليه .

(٢٤٤) إسناده صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٢٨١٢، ص ٢٩ .

(٢٤٥) إسناده حسن، المسند، ج ١١، رقم ١٣٦٣٥، ١٣٦٣٦، ص ٢٥١، ٢٥٢، ويدرس باب (ما على الإمام من التخفيف)، البيهقي: السنن الكبرى، ج ٣، ص ٤٠٨ - ٤١٥، (من رقم ٥٢٦٠ - ٥٢٨٠).

شهرا؛ أو جمعة، أو ما شاء الله، أحب إلي من حجة بعد حجة، ولَطبق بدانق (عُشر درهم)، أهديه إلى أخ في الله؛ أحب إلي من دينار أنفقه في سبيل الله، عز وجل(٢٤٦).

ـ وشتم رجل ابنَ عباس؛ فقال: إنك لتشتمني، وفِيَّ ثلاثُ خصال؛ إني لآتي على الآية من كتاب الله، عز وجل، فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم، وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين؛ يعدل في حكمه، فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبدا، وإني لأسمع أن الغيث (المطر النافع)، قد أصاب بلدا من بلدان المسلمين، فأفرح به، وما لي فيه من سائمة(٢٤٧)؛ (ماشية ترعى).

ـ ويقول الحسن البصري: يقول أحدهم: أحج، أحج، قد حججت؛ صِل رحما، نفِّس عن مغموم، أحسِن إلى جار(٢٤٨).

وهكذا نرحم المسلمين؛ في كل مكان، وخاصة المكروبين؛ من أهل فلسطين، وأمثالهم، وفقراء المسلمين، في كل أنحاء العالم، من خلال دعم خيري، مخطط، منظم، دائم، بعيد المدى.

ـ ويقول سفيان الثوري: كان زبيد (بن الحارث، اليامي، تابعي)، إذا كانت ليلة مطيرة؛ أخذ شعلة من النار، فطاف على عجائز الحي، فقال: ...تريدون نارا؟ فإذا أصبح؛ طاف على عجائز الحي، فقال: ألكم في السوق حاجة؟ أتريدون شيئا؟

ـ قال أحمد بن مهدي: جاءتني امرأة ببغداد، ليلة من الليالي، فذكَرت أنها من بنات الناس، وأنها امتُحِنت بمحنة، وأسألك بالله، أن تسترني، فقلت: وما محنتك ؟ فقالت: أكرِهتُ على نفسي، (يعني: اغتُصِبتُ)، وأنا حبلى،

---

(٢٤٦) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ١، ص ٣٤١ .
(٢٤٧) المصدر السابق، ص ٣٣٩، وأخرجه الطبراني بإسناد، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، انظر: المعجم الكبير، ج ١٠، رقم ١٠٦٢١، ص ٢٦٦ .
(٢٤٨) الإمام أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، ص ٢٥٠

وذكرتُ للناس أنك زوجي، وأن ما بي من الحبل منك، فلا تفضحني، استرني سترك الله. فسكتُّ عنها، ومضت، فلم أشعر حتى وضَعَت، وجاء إمام المحلة، في جماعة الجيران، يهنئوني بالولد، فأظهرتُ لهم التهلل، ووزنت، في اليوم الثاني، دينارين، ودفعتهما إلى الإمام، فقلت: أبلغ هذه إلى تلك المرأة؛ لتنفقه على المولود، فإنه سبق ما فرق بيني وبينها، فكنت أدفع في كل شهر دينارين، وأوصله إليها بيد الإمام، وأقول: هذه نفقة المولود، إلى أن أتى على ذلك سنتان، ثم تُوُفي المولود، فجاءني الناس يعزوني، فكنت أظهر لهم التسليم، والرضا، فجاءتني المرأة ليلة من الليالي، بعد شهر، ومعها تلك الدنانير، التي كنت أبعث بها بيد الإمام، فردتها، وقالت: سترك الله كما سترتني، فقلت: هذه الدنانير كانت صلة مني للمولود، وهي لكِ؛ لأنك تربينه؛ فاعملي فيها ما تريدين(٢٤٩). هذا هو خلق المسلم؛ يرحم، ويستر.

٣ـ **وهذه هي الرحمة بالمسلمين، والشفقة عليهم،** قيمة للقلب، وشعور في الضمير، شجرة حب تظلل على جميع المسلمين؛ من الجار القريب، إلى أبعد مسلم ومسلمة، في هذا العالم، فالمسلمون، من غانا إلى فرغانة، ومن طنجة إلى جاكرتا، في كل هذا المحور: كالجسد الواحد الحي.

يا أخي في الهند أو في المغربِ ... أنا منك، أنت مني، أنت بي

لا تسل عن عنصري، عن نسبي ... إنه الإسلامُ؛ أمي، وأبي

إخوة، نحن به، مؤتلفون

٤ـ تربية قيمة الرحمة بالمسلمين في القلب المسلم:

ذكرت التحليل السابق، والصور العملية السابقة للرحمة بالمسلمين؛ ليتكون تصور عقلي واضح لهذه القيمة، حتى يحسن القارئ العملَ بها؛

---

(٢٤٩) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٤، ص ٥٦.

ليدخلَ الجنة، فهي فرع لقيمة الرحمة والرقة المذكورتين في حديث هذا الفصل؛ «ورجل رحيم رقيق القلب لكل ـ بكل ـ ذي قربى، ومسلم».

وتربية هذه القيمة في قلب المسلم والمسلمة يتطلب الأعمال التربوية الآتية:

٤ ـ ١ ـ مبدأ الوعي بالقيمة، وتعقلها: أن يكتسب، وأن نُكسِب، كل مسلم ومسلمة، تصورا سليما واضحا، ووعيا محددا دقيقا، عن قيمة الرحمة بالمسلمين؛ عن مفهومها، ومضمونها، وأهميتها، وأدلتها، وصورها العملية، وآثارها في القلب، وفي المجتمع، ليتعقلها المسلم، ويحللها، ويدرك أبعادها، وذلك من خلال: الدرس والتثقف الذاتي، ومن خلال الدرس والتثقيف الجماعي، بدراسة آيات القرآن، وأحاديث الرسول عن الرحمة بالمسلمين، ودراسة التجارب العملية في ممارستها، ومن خلال محاضرات وندوات، وخطب، ودروس، ودورات تربوية، تحلل هذه القيمة، وتدرس أبعادها، وسياقها الاجتماعي، ومدى الالتزام بها في الواقع، ودراسة وتعميم مضمون هذا الفصل، عبر الفضائيات والنت، وخطب الجمع، وعبر أفلام، ومسلسلات، وملصقات.. إلخ، وتوجيه الوالدين والمربين والمعلمين لدراسة محتوى هذه القيمة، من خلال الدرس الذاتي، والدورات التربوية، وورش العمل، والأبحاث، والحوارات النقاشية...إلخ، وتبيين الأساليب الوالدية لتربية هذه القيمة في الأولاد، وذلك كله لتكوين وتنمية وعي صحيح، واقتناع عقلي، وتصور واضح، لها، في الأسر، والمساجد، والمدارس، والفعاليات التربوية للحركة الإسلامية، والجمعيات الأهلية والنقابات، والفضائيات، ... إلخ؛ لنصل بهذا الوعي إلى عقول ووجدانات كل أفراد الأمة.

٤ ـ ٢: مبدأ تذويت القيمة: أي: أن يكتسب كل مسلم ومسلمة إيمانا بقيمة الرحمة بالمسلمين، أي: «يقينا قلبيا فيها، وتصديقا بها، وخضوعا لها؛ لأن الله ورسوله أمرا بها، وشعورا عاطفيا بها،... إلخ» ورغبة فيها، واشتهاء لها،

واتجاها ذاتيا نحو العمل بها، ومحبة وإرادة لها، وقصدا وعزما على ممارستها، ووازعا داخليا للاتصاف بالرحمة بالمسلمين. أي: أن نتجه بالدرس والوعي الذهني بالرحمة إلى التأثر الروحي، والانطباع النفسي، بهذه القيمة، وإرادة التخلق بها، والرغبة في ممارستها. تكوين وتنمية هذا الإيمان وهذه الرغبة..؛ لتكون الرحمة بالمسلمين جزءا من الضمير الخلقي الذاتي في قلب كل مسلم ومسلمة؛ وذلك من خلال: الدراسة المتأثرة والمؤثرة في القلب، والمكونة لشعور ورغبة قلبية فيها، ونفور قلبي واشمئزاز من القسوة والعنف على أي مسلم ومسلمة، رمزيا وماديا، ومن خلال عرض النماذج القدوة المشعة في ممارسة الرحمة بالمسلمين، وبيان أن الرحمة بهم جزء من عقيدة الولاء ومفهوم الأمة المسلمة الواحدة، وأنها طريق للجنة، وأساس لفعالية الأمة في حركة التاريخ، وصناعته، وإعادة صنع القوة الاجتماعية، لإحداث التغيير المجتمعي المنشود، ودراسة أحاديث الترغيب الصحيحة في الرحمة والأخوة بين المسلمين، وقد تناولتها في فصلين من كتابنا هذا؛ «تربية القلب المعلق بالمساجد، المتآخي في الله، وتربية القلب المؤمن الملتزم بمكارم الأخلاق»، فليدرسها المسلم بهمة كهمة عمار وسلمان. ويمكن عقد دورة تربوية ليلية لهذه المهمة؛ محاضرة عن هذه القيمة، وخواطر ونقاشات عنها، وصلوات خاشعة بآياتها، وورد محاسبة عن الالتزام بها، وورد أحاديث عنها، وعهد جدي على الالتزام بها، وخروج في الأسبوع التالي لتطبيق بعض صور الرحمة بالمسلمين.

فإذا تكون الإدراك العقلي الواضح، والإيمان، والشهوة القلبية الراغبة، الشاعرة، العاشقة للرحمة بالمسلمين؛ وابتدأ الانطباع النفسي بها؛ تكون النزوع النفسي لممارسة هذه الرحمة، وحدثت قصدية ذاتية، وتوجه إرادي لفعل وممارسة الرحمة بالمسلمين؛ لأنه قد تكون ونما، في القلب، ضمير خلقي، حي، مؤمن، بالرحمة.

٤ـ٣: مبدأ فعل القيمة، والتعود عليها: وهنا يأتي دور تربية الذات، والتربية الوالدية، للأولاد، وتربية المعلمين؛ فرسان الرحمة، لتلاميذهم؛ من خلال (الفعل)، فنحن نتعلم ما نفعله، ونكرر ممارسته، لا ما نسمعه، أو نقوله، أو نقرؤه، فقط، هنا تأتي تربية التعويد، منذ الصغر، وفي الكبر، نحن نتعلم الرحمة بالرحمة، بفعل أعمال الرحمة، بالتربي على ممارسة صور الرحمة، بالمسلمين، بالانخراط العملي، والمعايشة الفعلية، والاشتراك في توسيع دائرة التطبيق العملي لها؛ وذلك بأخذ الأولاد والتلاميذ، ومن نربيهم، وأنفسنا، وإدخالهم، عمليا، في ممارسة فورية لصور الرحمة المذكورة؛ عزل الأذى عن الطريق، تنفيذ حملة لتنظيف الطرق والشوارع، عيادة مرضى الحي، والفقراء، تنظيم قوافل محدودة العدد؛ لمساعدة الفقراء والعجزة من المسلمين، إقراض محتاجين، بلا ربا، المشاركة في معرض خيري لدعم المنكوبين، جمع تبرعات لتوصيلها للمنكوبين والمجاهدين المحتاجين، المساعدة الطوعية في إطفاء حريق، إرسال رسائل تنويرية لمن يمارسون القسوة على المسلمين، عقد مؤتمرات عن أهمية الرحمة بالمسلمين، إرسال رسائل للأمة ومقدمي البرامج الفضائية لتناول هذه القيمة بالتحليل والدرس المعمق، بيان أن الاعتقال للأبرياء قسوة وظلم.. إلخ، فيمارس المسلم الصغير والكبير، هذه الصور وغيرها؛ متذوقا لها، مكررا، لها، بهمة، وفرح، وقصد، ونهوض ذاتي، حتى تصبح عادة، وعملا معتادا، وصفة راسخة، وحالا للنفس، وملكة صالحة، وضميرا ذاتيا، للفرد، وهنا يأتي دور الأب المربي الفاهم، والمعلم الفارس، الذي يدارس ويمارس، ويوجه للوعي والسعي، ويدرس ويؤسس، وينفذ قاعدة ابن مسعود: «تعودوا الخير؛ فإنما الخير بالعادة» .

٤ـ ٤: مبدأ التأسي بالقدوات، وإشاعة ثقافة الرحمة بالمسلمين: إن مما يعين على التعود على خلق الرحمة وجودَ النفر القدوة؛ الذين يشعون بسلوكهم

الرحيم، وبوعيهم، وبهممهم، وببذرهم للكلمات المربية للرحمة، ويكظمون غيظهم، ويقبضون على الجمر، ويصنعون طريق الرحمة بالمسلمين؛ بالمشي عليه، وينادون؛ بأحوالهم، فيجذبون الأمة من حولهم، بالحب، لممارسة الرحمة، هؤلاء يمثل وجودهم مكونا أساسيا للوسط الثقافي المربي للرحمة في الناس، فأين الأب الرحيم؟ والأم الرحيمة؟ والأستاذ الرحيم؟ والإمام الرحيم؟ والحاكم الرحيم؟ والداعية الرحيم؟ والأخ الرحيم؟ والجار الرحيم؟

كما يعين على تربية الرحمة: إشاعة ثقافة الرحمة؛ في الأسرة، والعائلة الممتدة، والشارع، والمسجد، والمدرسة، والكُتاب، والأندية، والنقابات، ومن خلال الخطبة والشريط، والمحاضرة، والندوة، والكتاب، والمقال، والدرس، والدورة، والملصق، والفيلم، وفعاليات الحركة الإسلامية، والجمعيات الأهلية، والبرنامج الفضائي، والنت، والاتصال الشخصي عبر الهواتف النقالة،.. إلخ، تعميم ثقافة رحمة من خلال الكلمة، والنغمة، والإشعاع السلوكي، يتشربها الصغير والكبير، ويحيا من خلالها، وبها، حتى نصبح، فعلا، كالجسد الواحد، بالأفعال، نكون كالبنيان، يشد بعضه بعضا.

إن هذه الرحمة هي علامة الإيمان الحي، الحق، الفاعل، في القلب؛ يقول أبو الخير الأقطع التيناني: «القلوب: ظروف؛ (يعني: أوعية، وأواني)؛ فقلب مملوء؛ إيمانا؛ فعلامته: الشفقة على جميع المسلمين، والاهتمام بما يهمهم، ومعاونتهم؛ بما يعود صلاحه عليهم. وقلب مملوء؛ نفاقا، فعلامته: الحقد، والغل، والغش، والحسد»[٢٥٠]. ويقول طلحة بن مصرف: «إني أكره أن يعلم الله من قلبي غلا على المسلمين»[٢٥١].

هـ ـ قيمة الرحمة العامة بالناس:

١ ـ هذه قيمة لكل مسلم؛ فأهل الجنة، منهم الرجل الرحيم، والمرأة

---

(٢٥٠) أبو عبد الرحمن السُلمي: طبقات الصوفية، ص ٣٧١ .

(٢٥١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ١٩٢

الرحيمة، وقد قدمت، في أول الفقرة: (سابعا) من هذا الفصل، أحاديث، منها: «**ارحموا أهل الأرض؛ يرحمكم من في السماء**». ومنها: «**من لا يرحم الناس؛ لا يرحمه الله**»(٢٥٢). وهو عند الطبراني، بلفظ: «**من لا يرحم من في الأرض؛ لا يرحمه من في السماء**»(٢٥٣). وهذا يدل، نصا، على أن الرحمة لا تخص المسلمين، بل تعمهم وغيرهم، قال ابن بطال: «فيه الحض على استعمال الرحمة لجميع الخلق، فيدخل المؤمن والكافر والبهائم»(٢٥٤). وقد ذكرت شيئا من ذلك في صلة الرحم المشرك.

٢ـ وهنا نصوص نبوية صحيحة صريحة في الحض على استعمال الرحمة العامة؛ فالنبي؛ حين سئل أن يلعن المشركين؛ قال: «**لم أبعث لعانا؛ إنما بعثت؛ رحمة**». وقد ذكرته من قبل. **ولنفكر؛ معتبرين في النصوص النبوية الآتية:**

عن أبي موسى، رفعه، قال: «**لن تؤمنوا حتى تراحموا**»، قالوا: كلنا رحيم، يا رسول الله، قال: «**إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه؛ ولكنها رحمة الناس؛ رحمة العامة**». قال ابن حجر: أخرجه الطبراني، ورجاله: ثقات(٢٥٥). فشرط كمال الإيمان الواجب: هو أن نتراحم؛ بأن تصدر منا أفعال الرحمة بالناس؛ مؤمنهم

---

(٢٥٢) ورواه الطبراني بست روايات، انظر: المعجم الكبير، ج ٢، رقم ٢٢٣٨ – ٢٢٤٣، ص ٢٩٧، ٢٩٨، ورواه بأرقام ٢٢٩٧ – ٢٣٠١، ص ٣١٢، ٣١٣، وفيه: «**من يرحم الناس رحمه الله**»، وبأرقام ٢٣٨٧ – ٢٣٩٠، ص ٣٣٣، وغير ذلك، وأورده الهيثمي عن ابن مسعود بلفظ: «**من لم يرحم الناس لم يرحمه الله**»، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وإسناده حسن، مجمع الزوائد، ج٨، رقم ١٣٦٧٧، ص٣٤٢.

(٢٥٣) رواته ثقات، وله شواهد، ورواه أبو داود، وأحمد، والترمذي، والحميدي، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه العراقي، انظر: المعجم الكبير، ج ٢، رقم ٢٤٩٧، ص ٣٥٥، ورواه بإسناد رجاله رجال الصحيح، بلفظ: «**ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء**»، نفس المصدر، رقم ٢٥٠٢، ص ٣٥٦، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد عن جرير.. ثم قال: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد، ج ٨، رقم ١٣٦٧٢، ص ٣٤١.

(٢٥٤) ابن حجر: فتح الباري، ج ١٠، ص ٤٤٠.

(٢٥٥) المصدر السابق، ص ٤٣٨، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد، مجلد ٨، رقم ١٣٦٧١، ص ٣٤٠، ٣٤١.

وكافرهم؛ رحمة العامة؛ ولهذا ترجم البخاري في الصحيح: (باب رحمة الناس والبهائم)(٢٥٦).

وفي نوادر الأصول: قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة إلا رحيم**»، قالوا: يا رسول الله، كلنا يرحم، قال: «**ليس رحمة أحدكم خويصته، (يعني: أهله وولده)، ولكن حتى يرحم العامة**»(٢٥٧). وأخرج هناد، في الزهد، وأبو يعلى، في مسنده، أن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده، لا يضع الله رحمته إلا على رحيم**»، قالوا: كلنا رحيم، قال: «**ليس برحمة أحدكم صاحبه؛ يرحم الناس كافة**»(٢٥٨). وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة. وقد جعل النبي ﷺ من أسباب الفلاح أن يكون في قلب الإنسان رحمة للبشر؛ فقال: «خاب عبد وخسر؛ لم يجعل الله في قلبه رحمة للبشر»(٢٥٩). هذا هو قلب المسلم المفلح الناجح؛ رحيم بالبشر. وفي رواية لحديث أبي موسى الأشعري، السابق، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لن تؤمنوا؛ حتى تحابوا، ألا أدلكم على ما تحابون عليه؟..**» الحديث، وفيه: «**لا تدخلوا الجنة؛ حتى تراحموا**»، قالوا: بلى، يا رسول الله، كلنا رحيم، قال: «**إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه؛ ولكن رحمة العامة**»(٢٦٠). هذا هو التوجيه الخلقي الإسلامي لقلوب المسلمين.

٣ ـ ورحمة عامة الناس من غير المسلمين، لها صور سلوكية عديدة؛ منها: الشعور نحوهم بعاطفة إنسانية، ورقة، ورغبة في هدايتهم، والإشفاق عليهم،

---

(٢٥٦) المصدر السابق، ص ٤٣٧.

(٢٥٧) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج ٢، ص ٥٦٥ (النسخة التي أرجع إليها منزوعة السند).

(٢٥٨) وقال الهيثمي في المجمع: «رواه أبو يعلى، ورجاله وثقوا، إلا أن ابن إسحق مدلس»، مجمع الزوائد، ج ٨، رقم ١٣٦٧٣، ص ٣٤١، قلت: الحديث حسن بشواهده.

(٢٥٩) قال الألباني: حسن، صحيح، الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، رقم ٣٢٠٥، ص ٦١١.

(٢٦٠) قال الهيثمي: رواه الطبراني، وفيه عبد الله بن صالح، وقد وُثق، وضعفه جماعة، مجمع الزوائد، ج٨ رقم ١٢٧٣١، ص ٦٤، قلت: الحديث حسن، يشهد له ما ذكرته من روايات سابقة.

والبر؛ حسن الخلق، في المعاملة معهم، واللطف، وحسن الجوار لهم، وعدم إيذائهم، بغير حق، وبغير سبب مشروع، وعدم الشعور نحوهم بأية قسوة، أو ضغينة، لحقد نفسي، وعدم تعذيبهم، والمبادرة بغوث ملهوفهم، وإعانة محتاجهم، ومساعدة فقيرهم، والدفاع عن مظلومهم.. إلخ. قال مسلم، في باب (الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق): عن هشام بن حكيم بن حزام، قال: مر بالشام على أناس، وقد أقيموا في الشمس، وصُب على رؤوسهم الزيت، فقال: ما هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج. فقال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا**». وفي رواية لمسلم: قال: مر هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط، بالشام، قد أقيموا في الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا**»، وزاد، في حديث جرير: قال: وأميرهم، يومئذ، عمير بن سعد، على فِلَسطين، فدخل عليه، فحدثه، فأمر بهم؛ فخُلوا[٢٦١]

فالصحابي؛ هشام بن حكيم يرحم الأنباط؛ وهم نصارى، من فلاحي العجم، وقد عجزوا عن أداء الجزية، فأنكر تعذيبهم، ودخل على الأمير، وحدثه بما سمع من رسول الله، وأقنعه؛ حتى أطلقهم وحررهم؛ وهكذا يصبح الحديث النبوي محرضا ضد الظلم، ومرجعية إدانة وثورة ضد الاضطهاد والإذلال.

إن الرحمة بغير المسلمين: موقف، موقف إسلامي حيوي، موقف التزام رسالي، إيماني، لا يقبل المساومة فيه أو عليه، حتى لو أدى ذلك إلى نفي المسلم، أو سجنه؛ فسلامة الجسد لا تساوي، ولا تسوغ، تشويه المنهج، ولا المساس بالمبدأ.

---

(٢٦١) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٦١٣، ص ٩٢، ٩٣.

٤ ـ وهذا هو موقف عامر بن عبد الله، أحد كبار التابعين، قال عنه سفيان ابن عيينة: اشترى عامر بن عبد الله بن الزبير نفسه من الله، تعالى، ست مرات، وقال معن بن عيسى: سمعت أن عامر بن عبد الله ربما خرج بالبَدرة (الصرة) فيها عشرة آلاف درهم؛ حتى يقسمها، فما يصلي العشاء ومعه منها درهم(٢٦٢). يقول أحد معاصريه؛ الذين أدركوا سبب نفيه من العراق، إلى الشام: مر رجل من أعوان السلطان، وهو يجر ذِميا، والذمي يستغيث به، قال: فأقبل على الذمي؛ فقال: أديت جزيتك؟ قال: نعم، فأقبل عليه، فقال: ما تريد منه؟ قال: أذهب به يكسح دار الأمير، قال: فأقبل على الذمي، فقال: تطيب نفسك له بهذا؟ قال: يشغلني عن ضيعتي، قال: دعه، قال: لا أدعه، قال: دعه، قال: لا أدعه، قال: فوضع كساءه، ثم قال: لا تُخفَر ذمة محمد ﷺ، وأنا حي، قال: ثم خلصه منه. قال: فتراقى ذلك حتى كان سبب تسييره، (يعني: نفيه). وفي رواية: أن عامر بن عبد الله مر، في الرحبة، وإذا ذمي يُظلَم، فألقى عامر رداءه، ثم قال: لا أرى ذمة الله تخفر، وأنا حي، فاستنقذه. (هكذا تتحول قيمة الرحمة، ويتحول الحديث النبوي، إلى محرض على الثورة الاجتماعية،) نتابع: فلما نفذ قرار النفي؛ ماذا حدث؟ قال سعيد الجريري: لما سُيِّرَ عامر بن عبد الله؛ شيعه إخوانه، وكان بظهر المربد، فقال: إني داع؛ فأمنوا، قالوا: هات؛ فقد كنا نشتهي هذا منك، قال: اللهم من وشى بي، وكذب علي، وأخرجني من مصري، وفرق بيني وبين إخواني، اللهم ! أكثر ماله، وولده، وأصح جسمه، وأطل عمره(٢٦٣). ما أروع هذه الرحمة ! الرحمة بالنصراني، وبالمسلم العاصي! إنها خلق عام شامل عظيم!

وتأمل في صورة الرحمة بالناس، الآتية: عن طارق بن شهاب؛ أن رجلا

---

(٢٦٢) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٣، ص ١٦٦

(٢٦٣) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ٩١ .

كان به جُدَري، فخرج إلى البادية، يطلب دواء، فلقي رجلا، فنعت لـه الأراك (شجر السواك، أو ثمره) يطبخه- أو قال: ماء الأراك- بأبوال الإبـل، وأخـذ عليه: ألا يخبر به أحدا، ففعل، فبرأ، فلما رآه الناس؛ سألوه؛ فأبى أن يخـبرهم، (بسبب العهد الذي أخذه عليه البدوي) فجعلوا يأتون بالمريض، فيلقونه على بابه، فسأل ابنَ مسعود (يعني: الرجل الـذي شُـفي، ويعـرف دواء الجـدري، سأل ابن مسعود؛ عن عدم إخبار الناس بهذا الدواء بسبب ذلك العهد) فقال: لقد لقيتَ رجلا ليس في قلبه رحمة لأحد، انعته للنـاس(٢٦٤). (يعنـي: صـف الدواء للناس.) وعلى أمثال هذه الصور نقيس، ونحيا بالرحمة بخلق الله.

٥ ـ تربية قيمة الرحمة العامة بالناس:

المسلم الحق غنيٌّ القلـبِ بالرحمـة العامـة، فهـي خـُلق لـه؛ لأنـه متفـتح الوجدان، سليم القلب والنفس، لا يتعامل مع الناس بقلـب مـريض بالعقـد النفسية، بل هو صحيح القلب والسلوك، مَر بعملية تربية خلقية عميقة، حتى أخرجه الله (للناس)؛ للرحمة، لا للقسوة، فهو منفـتح القلـب والـوعي، تجـاه الآخر، تتعدى رحمتـُه وسماحته وإحسانه لكل الناس.

والتربية التي تخرج هذا القلـب المسـلم الـرحيم بالنـاس، تتحقـق بـإعمال المبادئ التربوية الآتية:

٥ ـ ١ : مبدأ الوعي بالقيمـة: أي: تنميـة تصـور عقـلي صـحيح، ودقيـق، وواضح، ومحدد، لقيمة الرحمة العامة، ومضمونها، وتغذيـة العقـل بـما ينمـي الوعي بها، بأن يدرس، أو يدرس له، المعطيات السابقة عن قيمة الرحمة العامة بالناس، وبخاصة الأحاديث النبوية، والتطبيقات العملية لقيمة الرحمة العامة، بأسلوب ينور عقلـه، وقلبـه، وينمـي فكـرا صـحيحا بمفهومهـا، وصـورها التطبيقية، وأدلتها، وآثارها في النفس والقلب والمجتمع، وعلاقتهـا بالتعامـل

---

(٢٦٤) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ٨، رقم ١٦٠٤٤، ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

الرشيد بين المسلم والمسيحي، وتأسيس المواطنة، في المجتمعات متعددة الأديان على مفهوم الرحمة العامة، وتأسيس علاقة المسلم المطيع بالمسلم العاصي، ودورها في حل مشكلة المواطنة يبن المختلفين؛ دينيا، وثقافيا.. إلخ، وحل كثير من مشكلات التعامل بين مواطني المجتمع الواحد،.. إلخ.

وقد ينمى هذا الوعي من خلال الدرس والتثقف الذاتي، للمعطيات السابقة، وما يكملها، ومن خلال الدورة التربوية الجماعية، وعبر المحاضرات، والندوات، والأشرطة، والخطب، والقراءة، وورش العمل لمناقشة واقع تطبيق هذه القيمة، وآثارها في التضامن الاجتماعي،.. إلخ.

٥ ـ ٢: مبدأ تذويت الرحمة العامة: أي: تحويلها من معرفة ذهنية، إلى إيمان دافئ، ودافق، بها، بحيث يتيقن المسلم بها، ويحبها، ويشتهي الاتصاف بها، ويريدها، ويفرح بممارستها، وتصبح جزءا من ضميره الخلقي، فينطبع بها شعوريا، وينفعل بها قلبيا، وتصوغ عواطفه، أي: تربية الإيمان بالرحمة، وإرادتها، في القلب، من خلال الدراسة المؤثرة في القلب، التي تنطبع في النفس، وتذوق آيات وأحاديث الرحمة العامة، وآثارها في النفس والمجتمع، والآخرة، وتأمل سير وتطبيقات الأنبياء والصالحين للرحمة العامة، مما ينمي في القلب حب الاتصاف بها، وشهوة التخلق بها، فيتشكل وازع جواني يدفع المسلم، ذاتيا، للممارسة العملية للرحمة مع الناس، عاصيهم وطائعهم، مسلمهم وغير مسلمهم، ما لم يكن هناك ظلم أو اعتداء على مسلم .

وهنا يأتي دور التربية الوالدية، ودور المربي الواعي، ودور الدعاة والخطباء، ودور الفضائيات، والدورات التربوية في الحركات الإسلامية،.. إلخ، في تكوين هذا الإيمان، وهذه الإرادة، من خلال تعليمهم المقنع المؤثر، وبذرهم للكلمات المربية للرحمة العامة في قلوب المسلمين.

ويمكن توظيف النشيد الشجي، والفيلم التمثيلي، والبحث التحليلي؛

للترغيب في فعل هذه الرحمة وممارستها.

٥ ـ ٣: مبدأ التصفية الثقافية: وتنمية إرادة الرحمة العامة بالناس؛ غير المسلمين، يستلزم تصفية المفهوم الغلط عن الولاء والبراء، فقد رأينا، سابقا، أن البراء من المشرك والكافر لا يعني عدم الرحمة والبر بهما؛ ما لم يعتديا على مسلم، فالرحمة بالمشرك والبر به خلق إسلامي أصيل، يتعامل به المسلم مع الذمي، ومع المشرك، ومع كل الناس.

وهذه التصفية ضرورية، لتخليص الضمير المسلم من معوق ثقافي داخلي؛ وذلك بدراسة أحاديث الرحمة العامة، وتطبيقاتها، السابقة، التي تدفع المسلم دفعا للتخلق بالرحمة العامة، وبدراسة عقيدة الولاء والبراء، من خلال النصوص والتطبيقات النبوية، وتشكيل الوعي من خلالها هي، لا من خلال التصورات المسبقة.

وهذه التصفية يجب أن تتم عبر كل الوسائط التربوية، في الأسرة، والمدرسة، و.. إلخ، وعبر كل الأساليب التربوية، عبر الكلمة، والفيلم، والمحاضرة، والقدوة، ..إلخ.

٥ ـ ٤: مبدأ التربية بالفعل والتعود: أي: الانخراط الفوري المباشر، في أعمال الرحمة بالناس، فالإنسان ابن عوائده، وما يفعله ويتعود عليه، فيتعود من نربيه على ممارسة الرحمة بمواطنيه، وجيرانه، من غير المسلمين؛ وبإخوانه العصاة من المسلمين، فيشعر بإنسانيتهم، ويشفق عليهم، ويوصل الخير إليهم، ويدعو لهم بالهداية والصلاح، ويعاونهم في بعض أعمالهم، ويقف معهم في أزماتهم وشدائدهم، في مرض أحدهم، أو وفاة، أو مصاب، .. إلخ، ويحافظ على هذه الممارسة حتى تصبح الرحمة العامة خلقا أصيلا فيه، يمارسه بسهولة.

وينتهز الفرص والمناسبات اليومية لممارسة هذه الرحمة؛ في وسائل المواصلات، وفي أوقات الكوارث، والمرض والوفاة، والحريق، والمطر الشديد، والزلازل، والفيضانات، ..إلخ؛ ليمارس الرحمة العامة، فأمام المسلم، في عالم اليوم، فرص ثرية؛ ليثبت أنه رحمة في العالم، وللعالم، وليثبت أن نبيه محمدا رحمة للعالمين، كيف؟ عن طريقك أنت، أيها المسلم المعاصر! وليثبت وجوده الإسلامي الصحيح، فهو الذي ابتعثه الله؛ ليخرج الناس من عبادة الناس، إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن الجور والعَسف والقسوة، إلى العدل والرحمة والرأفة. كيف نبرهن على أننا كذلك، فعلا، ونحن لا نمارس أفعال الرحمة ؟ هنا يأتي دور الوالدين والأساتذة والدعاة،.. إلخ، ليدمجوا أنفسهم ومن يربونهم، في هذه الأعمال وما يشبهها، فنحن نتعلم ما نفعله، لا ما نسمعه، أو ما نتكلم به، فقط.

٥- ٥- مبدأ التشجيع والتعزيز: وعلى الآباء والأمهات دور مهم في تعويد أولادهم وبناتهم على هذه الرحمة العامة، وتشجيعهم على ممارستها، وإثابتهم؛ ماديا ومعنويا، كلما مارسوا هذه القيمة مع أبناء الجيران، واستهجان ما يصدر منهم من سلوكيات قسوة مع أبناء الجيران والحي.. وكذلك في المدرسة، والكتاب، والمسجد، ورياض الأطفال، وفعاليات التربية في الحركات الإسلامية.

٥ - ٦: مبدأ الوسط الثقافي المربي، ومبدأ القدوة: أي: إشاعة ثقافة الرحمة العامة؛ من خلال الكلمة، والحال، والفعل، والقدوة، والصورة، والحركة، والنغمة، والإيقاع، في الأسرة، والمدرسة، والمسجد، والكتاب، ووسائل الاتصال الثقافي، والتثقيف، والكتاب، والمقال، والنت، والفضائيات، والمسرح، والقصة، والمهرجانات الشعرية، والأغنية والنشيد، والتسجيلات، والدورات التربوية الليلية الشجية، وورش العمل، والمحاضرات الموجهة

لأولياء الأمور، والمعلمين، وإذاعة المدرسة، وصحافتها، ونـدواتها، وأنشـطة الجامعات، والأندية الرياضية والثقافية، والنقابات، وباقي مؤسسات المجتمع الأهلي، نوظف ذلك كله لنبث خطاب الرحمة العامة عبر إبداعاتنا ومبتكراتنـا الثقافية والفكرية التي توصل قيمة الرحمة بالناس في أسلوب مقنع مـؤثر؛ ممـا يكون وينمي وسطا ثقافيا مربيا، يتشربه كل (مواطن)، مسـلم وغـير مسـلم، يدفعهم دفعا للإيمان بالرحمة العامة، وإرادتها، وحبها، والعمل بها، وتحويلهـا إلى مقوم من مقومات الضمير الخلقي الذاتي في قلب المسلم المعاصر على وجه الخصوص.

و ـ قيمة الرحمة بالطيور والحيوانات والحشرات وباقي الكائنات:

هذه القيمة من قيم الرحمة، أنموذج، وبرهـان آخـر، لأخلاقيـة الضـمير في القلـب المسـلم، إنـه يفعـل ويسـلك في الحيـاة؛ إرضـاء لوجـه الله، واحترامـا للكائنات التي خلقها الله، في العالم، فهي مخلوقات الله، مثله، فهـما مشـتركان في المخلوقيـــة، لله، وفي العبـــادة لـــه، ويســـبحان الله، ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]، فالمؤمن يتعامل مع كائنـات البيئـة ، مـن حولـه، تعـاملا خلقيـا رحيما، يقوم على قاعدة الاعتراف بحقها في الوجود والحياة، من حيث هي أمـم مقدرة أمثالنا؛ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، فهذه الدواب، والطيـور، والحشـرات.. ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، أيهـا البشـر، لهـا حـق الوجود والحياة والرحمة، والاحترام، مثلكم، سخرناها لكم؛ للمنفعة، والجمال، لا للقسوة والتعذيب، وسوء الاستعمال. قال الهيثمي، في (باب ما جـاء في لطـم خدود الدواب، وضربهن): وعن عبيد الله بن زياد، عن ابني بُسر ؛ السـلميين، قال: دخلتُ عليهما فقلت: يـرحمكما الله، الرجـل منـا يركـب دابتـه، فيضـربها بالسوط، ويكفحها باللجام؛ هل سمعتما من رسول الله ﷺ في ذلك، شيئا؟ فإذا امرأة قد نادت من جوف البيت: أيها السائل، إن الله، عز وجـل، يقـول: ﴿وَمَا مِن

دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾، فقالا: هذه أختنا، وهي أكبر منا، وقد أدركت رسول الله ﷺ(٢٦٥).

مِن هذا المنطلق العقدي والشعوري، الراقي للغاية، والذي يشكل منطلقا إيمانيا عميقا (لفلسفة) بيئية تقدمية مرقية، جاء الخطاب النبوي، والممارسة الإسلامية، يربيان في المسلم قيمة الرحمة بأمم الأرض؛ من الطيور، والحيوانات، والحشرات، ويدفعانه دفعا، بوازع ديني عميق، للاتصاف والتخلق بها.

إننا نجد النبي ﷺ يستخدم القصة والمثل، والخبرة المباشرة، والموعظة، والحوار، والترغيب، والتعقيب المباشر، والتوجيه المؤثر، الذي يصحح خطأ الممارسة، وضرب المثل العملي بالممارسة الفعلية للرحمة بالطيور والحيوانات، نجد النبي ﷺ استخدم ذلك كله، مرارا، ليربي المسلم تربية قلبية تنمي فيه الرحمة بالكائنات؛ تصورا، واعتقادا، وإيمانا، وحبا، وإرادة، وشعورا، وممارسة عملية في واقع البيئة الطبيعية والاجتماعية. وفي هذه الفقرة أورد مجموعات صحيحة من الأحاديث والممارسات النبوية، التي توجه المسلمين نحو فعل الرحمة بكائنات الله، فمن خصائص المسلم المؤمن، الذي هو من أهل الجنة، أنه (رحيم)، أي: يمارس الرحمة، بكثرة، ويتخلق بها مع خلق الله.

١ـ أخرج أحمد، عن سهل بن الحنظلية؛ صاحب رسول الله ﷺ حديثا، وفيه: وخرج رسول الله ﷺ في حاجة، فمر ببعير (جمل)، مناخ على باب المسجد، من أول النهار، ثم مر به آخر النهار، وهو على حاله، فقال: **«أين صاحب هذا البعير؟»** فابتغي، فلم يوجد، فقال رسول الله ﷺ: **«اتقوا الله في هذه البهائم، ثم اركبوها؛ صحاحا، واركبوها؛ سمانا»**(٢٦٦). ورواه أبو داود،

---

(٢٦٥) رواه أحمد، ورجاله ثقات، مجمع الزوائد، ج ٨، رقم ١٣٢٢٤، ص ١٩٩

(٢٦٦) إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٧٥٥٧، ص ٤٤٠ .

عنه؛ قال: مر رسول الله ﷺ ببعير، وقد لحق ظهرُه ببطنه، قال: «**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة؛ فاركبوها؛ صالحة، وكلوها؛ صالحة**»(٢٦٧). ووجد ناقة، معقولة، متروكة بلا علف، فطلب صاحبَها، وقال له: «**أفلا تتقي الله، تعالى، فيها ؟ ! إما أن تعلفها، وإما أن ترسلها حتى تبتغي لنفسها**» (٢٦٨). فالنبي يستنكر ترك البعير والناقة، بلا أكل، أو علف، حتى لحق ظهر البعير ببطنه؛ من الهزال والجوع، وأمر المسلمين أن يتقوا الله في هذه البهائم، فيرحموها؛ بإطعامها، وإراحتها، وسيأتي مثل هذا الموقف.

وأخرج أحمد، عن يعلى بن مرة؛ من حديث، قال: وكنت عنده؛ جالسا، ذات يوم، إذ جاءه جمل؛ يُخَبِّبُ (يسرع)، حتى صَوَّبَ بجرانه (نزل، وأناخ بصدره)، بين يديه، ثم ذَرَفت عيناه، (بكى الجملُ بالدموع)، فقال: «**ويحك! انظر؛ لمن هذا الجمل؟ إن له لشأنا**». قال: فخرجتُ ألتمس صاحبَه، فوجدته لرجل من الأنصار، فدعوته إليه، فقال: «**ما شأن جملك هذا؟**» (..) قال: لا أدري، والله، ما شأنه؟ عملنا عليه، ونضحنا عليه، حتى عجز عن السقاية، فائتمرنا، البارحة، أن ننحره، ونقسم لحمه، قال: «**فلا تفعل، هبه لي، أو بعنيه**». فقا : بل هو لك، يا رسول الله(٢٦٩). وفي رواية لأحمد: وجاء بعير، فضرب بجرانه إلى الأرض، ثم جرجر حتى ابتل ما حوله، فقال النبي ﷺ: «**أتدرون ما يقول البعير؟ إنه يزعم أن صاحبه يريد نحره**»، فبعث إليه النبي ﷺ فقال: «**أوَاهِبُه أنت لي؟**» فقال: يا رسول الله، ما لي مال أحب إلي منه، قال: «**استوص به معروفا**». فقال: لا جرم، لا أكرم مالا لي كرامتَه، يا رسول الله(٢٧٠). وفي رواية ضعيفة الإسناد، في مسند أحمد، يشهد لها ما سبقها، هنا،

---

(٢٦٧) سنن أبي داود، ج ٢، دار الفكر، بيروت، رقم ٢٥٤٨، ص ٣٦٣ .

(٢٦٨) رواه الطبراني وإسناده جيد، المجمع، ج ٨، رقم ١٣٧٤٦، ص ٣٥٩، ٣٦٠.

(٢٦٩) إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٧٤٧٧، ص ٤١١، ٤١٢ .

(٢٧٠) إسناده صحيح، المسند، ج ١٣، رقم ١٧٤٨٩، ص ٤١٥، ٤١٦ .

وما يتلوها، هنا، قال، في حديثه: بينما نحن نسير معه، إذ مررنا ببعير، يُسنَى عليه، فلما رآه البعيرُ؛ جرجر، ووضع جِرانَه، فوقف عليه النبي ﷺ فقال: «**أين صاحب هذا البعير؟**» فجاء، فقال: «**بعنيه**». (وساق الحديث، وفيه): أمَا إذ ذكرت هذا من أمره؛ فإنه شكا كثرة العمل، وقلة العلف، فأحسنوا إليه. ورواه أحمد، بإسناد صحيح، وفيه: قال: «**ما لبعيرك يشكوك؟ زعم أنك سانيه** (تسقي عليه)، **حتى إذا كبر؛ تريد أن تنحره!**» قال: صدقتَ، والذي بعثك بالحق نبيا، قد أردت ذلك، والذي بعثك بالحق، لا أفعل(٢٧١).

وأخرج أبو داود، عن عبد الله بن جعفر؛ قال: أردفني رسول الله ﷺ خلفه، ذات يوم، فأسر إلي حديثا، لا أحدث به أحدا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله ﷺ لحاجته، هدفا أو حائش نخل، قال: فدخل حائطا؛ (حقل عنب أو نخل)، لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي ﷺ حن، وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ، فمسح ذِفْرَاه، فسكت، فقال: «**من رب هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟**» فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي، يا رسول الله، قال: «**أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتدئبه**»(٢٧٢). الذفرى: مؤخر الرأس، من ناحية القفا، وهو موضع العرَق. والحائش: جماعة النخل الصغار. تدئبه: تكده وتتعبه. وأخرج أحمد، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؛ أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أنزع في حوضي، حتى إذا ملأته لأهلي؛ ورد علي البعير لغيري؛ فسقيتُه؛ فهل لي، في ذلك، من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**في كل ذات كبد حَرَّى: أجر**»(٢٧٣). حرى: شديدة

---

(٢٧١) الحديث الأول في المسند، ج ١٣، رقم ١٧٤٩٥، ص ٤١٨، والثاني: إسناده صحيح، المسند، ج١٣، رقم ١٧٤٩٧، ص ٤١٩ .

(٢٧٢) سنن أبي داود، ج ٢، رقم ٢٥٤٩، ص ٣٦٣، وأخرجه، بدون قصة الجمل، مسلم، وابن ماجه بإسناد صحيح .

(٢٧٣) إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٧٠٧٥، ص ٤٨٦ .

العطش، عطشت؛ حتى يبست من العطش.

وأخرج أحمد، وابن ماجه، وهذا لفظه؛ عن سراقة بن جعشم؛ قال: سألت رسول الله ﷺ عن ضالة الإبل (التائهة)، تغشى (تنزل، تأتي)، حياضي؛ قد لطتها (طينتها، أصلحتها)، لإبلي؛ فهل لي من أجر؛ إن سقيتها؟ قال: «**نعم، في كل ذات كبد حَرى: أجر**»(٢٧٤).

ولنتأمل في الحديث الآتي: أخرج ابن حِبان، عن مالك بن نَضلة ﷺ قال: أتيت النبي ﷺ فقال: «**هل تنتج إبل قومك؛ صحاحا، فتعمد إلى الموسى، فتقطع آذانها، وتشق جلودها، وتقول: هذه صُرم (مقطوعة) فتحرمها عليك وعلى أهلك؟**» قلت: نعم، قال: «**فكل ما آتاك الله حِل، ساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أشد من موساك**»(٢٧٥). وفي رواية للطبراني: «**وموسى الله أحد من موساك**» (٢٧٦).

وقف أمام هذه الحالة: عن معاوية بن قرة، قال: كان لأبي الدرداء جمل، يقال له: الدَّمُون، فكان؛ إذا استعاره منه رجل؛ قال: لا تحمل عليه إلا طاقته، فلما كان عند الموت؛ قال: يا دمون، لا تخاصمني عند ربي؛ فإني لم أكن أحمل عليك إلا ما كنت تطيق(٢٧٧). **الله! الله!**

وهكذا، فإن تقوى الله تتجلى في سلوك عملي، رحيم في التعامل مع

---

(٢٧٤) قال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٢٩٨٧، ص ٢١٩، وانظر: المسند، ج ١٣، رقم ١٧٥١١، ورقم ١٧٥١٤، ورقم ١٧٥١٧، بأسانيد صحاح، ص ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٥.

(٢٧٥) قال الشيخ شعيب في تخريج الإحسان: إسناده صحيح، ابن حبان (٥٦١٥)، وانظر القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ١، رقم ٥٧٦، ص ٣٢٣ مع الهامش، وانظر: مجمع الزوائد، ج ٤، رقم ٦٠٢٧، ص ٤٠.

(٢٧٦) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٩، تحقيق: حمدي عبد الحميد السلفي، رقم ٦٠٨، ٦٠٩، ص ٢٧٧، ٢٧٨، ورواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٤ / ١٨١).

(٢٧٧) الحافظ ابن أبي الدنيا: كتاب الورع، تحقيق وتعليق: مسعد عبد الحميد محمد السعدني، مكتبة القرآن، القاهرة، ٢٠٠٥ م، رقم ١٧٩، ص ٦١، (وفي سماع معاوية من أبي الدرداء كلام).

البهائم، ومنها الجمال، وذلك برحمتها؛ بإطعامها، وسقيها، وإراحتها، وعدم إرهاقها في العمل، والعطف عليها؛ حين عطشها، بسقيها الماء، حتى لو لم يكن الإنسان مالكا لها، ولا يعرف صاحبها. والحزن، والتألم الشعوري للأذى الواقع على هذا الحيوان. وتأمل، معي، في هذه الوصية التي قدمها الرسول ﷺ عن سوادة بن الربيع؛ قال: أتيت النبي ﷺ فسألته؛ فأمر لي بذود، ثم قال لي: «**إذا رجعت إلى بيتك؛ فمرهم فليحسنوا غذاء رِبَاعِهِم، ومرهم فليقلموا أظفارهم؛ لا يغيظوا بها ضروع مواشيهم؛ إذا حلبوا**»(٢٧٨). وفي رواية: «**لا يخدشوا**»، وفي أخرى: «**لا يعقروا**».

إنها الرحمة الرقيقة بالبهائم.

٢ـ أخرج البخاري، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**بينما رجل راكب على بقرة؛ التفتت إليه، فقالت: لم أخلق لهذا؛ خلقت للحراثة، قال: آمنت به، أنا وأبو بكر، وعمر..**» الحديث، ورواه، عنه، قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: «**بينما رجل يسوق بقرة؛ إذ ركبها، فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا؛ إنما خلقنا للحرث**». فقال الناس: سبحان الله! بقرة تتكلم !فقال: «**فإني أومن بهذا؛ أنا وأبو بكر وعمر. وما هما ثم..**» الحديث، ورواه عنه، بلفظ: «**وبينما رجل يسوق بقرة؛ قد حمل عليها؛ فالتفتت إليه؛ فكلمته؛ فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكني خلقت للحرث. فقال الناس: سبحان الله!..**» الحديث(٢٧٩).

فاستعمال البقرة، لغير الحرث والزراعة، خروج عن الرحمة؛ لأن هذا هو

---

(٢٧٨) رواه أحمد وإسناده جيد، المجمع، ج ٨، رقم ١٣٧٤٤، ص ٣٥٩، والرباع = جمع رُبَع، وهو ما يولد من الإبل في الربيع، أو ما يولد في أول النتاج، وإحسان غذائها: ألاّ يستقصى جلد أمهاتها، إبقاء على اللبن ليتغذى به الصغار من الرباع، وانظر: مجمع الزوائد ج ٥، رقم ٨٨٦١، مع الهامش، ورقم ٩٣٢٧، ص ٤٧١، لا يعبطوا: لا يعقروها ويدموها بالعصر.

(٢٧٩) فتح الباري، ج ٥، رقم ٢٣٢٤، ص ٨، فتح الباري..، ج ٦، رقم ٣٤٧١، ص ٥١٢، فتح الباري، ج ٧، رقم ٣٦٦٣، ص ١٨

المعتاد، بالإضافة إلى أنها تذبح، ويؤكل لحمها، ويستخدم لبنها،.. إلخ، فالنبي ﷺ يستخدم القصة للإيحاء بأن الإثقال على البقرة؛ فيما لم تخلق له، حسب عادة الناس، هو ظلم لها، وتعد عليها، يجب إنكاره، كما أن ضربها وركوبها؛ هو اعتداء عليها، وخروج بها عما لم تخلق له.

٣ ـ أخرج مسلم، عن جابر؛ أن النبي ﷺ مُر عليه حمار قد وسم في وجهه؛ فقال: «**لعن الله الذي وسمه**»(٢٨٠).

وفي رواية أحمد: «**لعن الله من فعل هذا**»(٢٨١). ورواه أحمد، عن جابر بن عبد الله؛ قال: مر النبي ﷺ بحمار قد وسم في وجهه، يدخن منخراه، فقال رسول الله ﷺ: «**من فعل هذا؟ لا يَسِمَنَّ أحد الوجه، ولا يَضْرِبنَّ أحد الوجه**»(٢٨٢).

ورواه أبو داود، عن جابر؛ أن النبي ﷺ مُر عليه بحمار، قد وسم في وجهه، فقال: «**أما بلغكم أني لعنت من وسم البهيمة في وجهها، أو ضربها في وجهها؟**» فنهى عن ذلك(٢٨٣). والوسم: هو الكي بالنار؛ لإحداث سمة، أو علامة في الحيوان.

وأخرج مسلم، عن ابن عباس؛ يقول: ورأى رسول الله ﷺ حمارا موسوم الوجه، فأنكر ذلك،..، قال: «فوالله لا أسمه إلا في أقصى شيء من الوجه، فأمر بحمار له، فكوي في جاعرتيه، فهو أول من كوى في الجاعرتين»(٢٨٤). وهما: حرفا الورك، المشرفان، مما يلي الدبر. فالحمار؛ حمال الأثقال والمحامل، كائن حي محترم؛ يجب احترام وجهه، فلا يكوى عليه، ولا يضرب، ومن

---

(٢٨٠) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ٢١١٧، ص ٦٤٤

(٢٨١) إسناده صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٤٠٩٦، ص ٣٧٢.

(٢٨٢) إسناده صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٤٣٩٦، ص ٤٥٥ .

(٢٨٣) سنن أبي داود، ج ٢، رقم ٢٥٦٤، ص ٣٦٨، وانظر: عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، كتاب الجامع، ج ١١، رقم ١٧٩٤٩، ص ٤٤٤ .

(٢٨٤) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ٢١١٨، ص ٦٤٤

فعل ذلك؛ فهو ملعون، فقيمة الرحمة قيمة تمارس مع كل كائنات العالم. وليس هذا مع الحمار فقط؛ بل مع البهائم الأخرى، حتى مع الجمال؛ عن طلحة بن عبيد الله، قال: مر على رسول الله ﷺ ببعير قد وسم في وجهه؛ فقال: «**لو أن أهل هذا البعير عزلوا النار عن هذه الدابة!**» فقلت: لأسِمَنَّ في أبعد مكان من وجهها، قال: «**فوسمت في عجب الذنب**»(٢٨٥).

٤ ـ قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، ثنا ابن لهيعة، ثنا زبان، عن سهل بن معاذ، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وقوف على دواب لهم، ورواحل، فقال لهم: «**اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق..**» الحديث(٢٨٦). ورواه من طريق الليث بن سعد، قال: حدثني يزيد بن أبي حبيب ، عن ابن معاذ بن أنس، عن أبيه، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رسول الله ﷺ قال: «**اركبوا هذه الدواب سالمة، وابتدعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي**». ورواه من طريق الليث، حدثني زبان بن فائد..(٢٨٧).

فمن رحمة الدواب: ألا نركبها، وهي واقفة، من غير داع .

٥ ـ أخرج الطبراني، عن عبد الله بن عمرو، قال: مر رسول الله ﷺ برجل يحلب شاة، فقال: «**أي فلان، إذا حلبت؛ فأبق لولدها؛ فإنها من أبر الدواب**»(٢٨٨).

وأخرج البخاري، في الأدب المفرد، عن معاوية بن قرة، عن أبيه؛ قال: قال رجل: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة فأرحمها، أو قال: إني لأرحم الشاة أن

---

(٢٨٥) رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، المجمع، ج ٨، رقم ١٣٢٣٩، ص ٢٠٤

(٢٨٦) إسناده حسن؛ ابن لهيعة: ثقة؛ حسن الحديث في المتابعات، وصَرَّح بالتحديث، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٥٦٦، ص ٢٥٣

(٢٨٧) المصدر السابق، أرقام ١٥٥٧٦ ـ ١٥٥٧٨، ورقم ١٥٥٨٣، ورقم ١٥٥٨٧، ص ٢٥٥ ـ ٢٥٨.

(٢٨٨) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجال الكبير رجال الصحيح، غير عبد الله بن جبارة، وهو ثقة، المجمع، ج ٨، رقم ١٣٧٤٣، ص ٣٥٩ .

أذبحَها؛ قال: «**والشاة، إن رحمتها؛ رحمك الله**» مرتين [٢٨٩]. وأخرج البخاري، في الأدب المفرد، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من رحم، ولو ذبيحة؛ رحمه الله؛ يوم القيامة**» [٢٩٠].

وتأمل في الحديث الذي أخرجه مسلم، وأحمد، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، وغيرهم، عن شداد بن أوس، قال: ثنتان حفظتهما من رسول الله، ﷺ؛ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء؛ فإذا قتلتم؛ فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم؛ فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**». وفي رواية للنسائي: «**وليحد أحدكم شفرته، ثم ليرح ذبيحته**». وفي رواية له: «**وإذا ذبحتم؛ فأحسنوا الذِّبحة (..) وليرح ذبيحته**» [٢٩١].

ما أجمل هذا ! فأحسنوا الذبحة! اجعلوها ذبحة حسنة، جميلة، متقنة، رحيمة، ارحموا الذبيحة، أريحوها، لا تعذبوها، فهي ذات كبد رطبة، هي خلق مثلكم، يحس، ويتألم، ويبكي بغير دموع! فأريحوها! ما أروع هذا! وما أجمله! «**وليرح ذبيحته**». إن الذي يذبح هو إنسان حساس، رحيم، يتعاطف مع ذبيحته، رقيق المشاعر، يشعر بهذا الذي يقوم بذبحه؛ إني لأرحم الشاة وأنا أذبحها، والشاة؛ إن رحمتها؛ رحمك الله.

وفي مجمع الزوائد، عن ابن عباس؛ قال: مر رسول الله ﷺ على رجل واضع رجله على صفحة شاة، (على عنقها)، وهو يحد شفرته، وهي تلحظ إليه

---

(٢٨٩) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٣٧٣، ص ١٣١ ، ١٣٢، ورواه أحمد بإسناد صحيح، المسند، ج ١٢، رقم ١٥٥٢٩، ص ٢٤٢، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير والصغير (..)، ورجاله ثقات، ج ٤، رقم ٦٠٢٩، ص ٤١ .

(٢٩٠) قال الألباني: حسن، الأدب المفرد، رقم ٣٨١، ص ١٣٤، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات،«**من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله**»،ج ٤، ص ٤١، رقم٦٠٣١.

(٢٩١) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ١٩٥٥، ص ٣٩٥، المسند، ج ١٣، رقم ١٧٠٤٩، ص ٢٦٨، بإسناد صحيح، سنن أبي داود، ج ٣، رقم ٢٨١٥، ص ١٣ ، ١٤، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٢٥٨٥، وقال الألباني: صحيح، ص ٩٤، سنن النسائي، ج ٧، رقم ٤٤١١، ٤٤١٢، ٤٤١٣، ٤٤١٤، ص ١٦٤

ببصرها، قال: «**أفلا قبل هذا ؟ أو يريد أن يميتها موتتين**»(٢٩٢).

٦ـ أخرج البخاري، عن هشام بن زيد، قال: دخلت مع أنس على الحكم ابن أيوب، فرأى غلمانا، أو فتيانا، نصبوا دجاجة؛ يرمونها، فقال أنس: نهى النبي ﷺ «**أن تُصبر البهائم**»(٢٩٣).

تصبر: تحبس؛ لترمى حتى تموت، أي: تمسك، وتجعل هدفا؛ غرضا، يرمى حتى تموت، ففيه تعذيب لها، وهي، بهذا، تصير ميتة؛ لا يحل أكلها(٢٩٤).

وأخرج البخاري، عن ابن عمر أنه دخل على يحيى بن سعيد، وغلام من بني يحيى رابط دجاجة يرميها، فمشى إليها ابن عمر حتى حلها، ثم أقبل بها وبالغلام معه، فقال: ازجروا غلامكم عن أن يصبر هذا الطير للقتل؛ فإني سمعت النبي ﷺ «**نهى أن تصبر بهيمة، أو غيرها، للقتل**».

وأخرج عن سعيد بن جبير، قال: كنت عند ابن عمر، فمروا بفتية، أو بنفر، نصبوا دجاجة يرمونها، فلما رأوا ابن عمر؛ تفرقوا عنها، وقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن النبي ﷺ «**لعن من فعل هذا؟**» وأخرج عن ابن عمر: لعن النبي ﷺ «**من مثل بالحيوان**»(٢٩٥).

وفي رواية مسلم عن سعيد بن جبير، قال: مر ابن عمر بفتيان من قريش، قد نصبوا طيرا، وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر؛ تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من

---

(٢٩٢) رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح، وفي مجمع الزوائد عن ابن عباس، قال: «مر رسول الله..»، ج ٤، ص ٤٢، رقم ٦٠٣٣.

(٢٩٣) فتح الباري، ج ٩، رقم ٥٥١٣، ص ٦٤٢، ورواه مسلم، إكمال المعلم، ج ٦، رقم ١٩٥٦، ص ٣٩٦، وانظر: سنن أبي داود، ج ٣، رقم ٢٨١٦، ص ١٤، وسنن النسائي، ج ٧، رقم ٤٤٣٩، ص ١٦٩

(٢٩٤) حاشية السندي على سنن النسائي، ج ٧، ص ١٦٩.

(٢٩٥) فتح الباري، ج ٩، رقم ٥٥١٤، ورقم ٥٥١٥، ص ٦٤٢، ٦٤٣.

فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا [٢٩٦]. وأخرج النسائي، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا**»[٢٩٧]. ورواه الترمذي، بلفظ: نهى رسول الله ﷺ أن يتخذ شيء فيه الروح غرضا [٢٩٨]. أي: هدفا ترمونه، أو ترمون إليه؛ لأن هذا تعذيب، وقسوة، فهو حرام.

وأخرج النسائي، عن عبد الله بن جعفر، قال: مر رسول الله ﷺ على أناس، وهم يرمون كبشا بالنبل، فكره ذلك، وقال: «**لا تمثلوا بالبهائم**»[٢٩٩].

نتبين من هذه الأحاديث صورة أخرى لرحمة الحيوانات والطير؛ وذلك بعدم حبسها، وبعدم اتخاذها هدفا يرمى حتى تموت،؛ فهذه قسوة ووحشية، وتعذيب لكائنات العالم، ينفر منه الشعور المؤمن، ويرفضه.

٧ ـ أخرج البخاري، في الأدب المفرد، عن عبد الله؛ أن النبي ﷺ نزل منزلا، فأخذ رجل بيض حُمَّرَة، (هي نوع من الطيور)، فجاءت ترف على رأس رسول الله ﷺ فقال: «**أيكم فجع هذه ببيضتها؟**» فقال رجل: أنا يا رسول الله، أنا أخذت بيضتها، فقال النبي ﷺ: «**اردد؛ رحمة لها**»[٣٠٠]. وأخرج أبو داود عن عبد الرحمن بن عبد الله، عن أبيه، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة، معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تـُعَرش، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها**»[٣٠١].

---

(٢٩٦) إكمال المعلم، ج ٦، رقم ١٩٥٨، ص ٣٩٧، ورواه النسائي، ج ٧، رقم ٤٤٤١، ص ١٧٠ .
(٢٩٧) سنن النسائي، ج ٧، رقم ٤٤٤٣، ٤٤٤٤، ص ١٧٠ .
(٢٩٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، سنن الترمذي، ج ٣، رقم ١٤٨٠، ص ١٥١
(٢٩٩) سنن النسائي، ج ٧، رقم ٤٤٤٠، ص ١٧٠
(٣٠٠) قال الألباني: صحيح، الأدب المفرد، رقم ٣٨٢، ص ١٣٤
(٣٠١) سنن أبي داود، ج ٢، رقم ٢٦٧٥، ص ٤٠٦ .

وأخرج أبو داود، عن عامر الرَّام، من حديث، وفيه: فبينا نحن عنده؛ إذ أقبل رجل عليه كساء، وفي يده شيء، قد التف عليه، فقال: يا رسول الله، إني لما رأيتك؛ أقبلت إليك، فمررت بِغَيْضَة شجر، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن، فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت على رأسي، فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائي، فهن أولاء معي، قال: «**ضعهن عنك**»، فوضعتهن، وأبت أمهن إلا لزومهن، فقال رسول الله ﷺ: «**أتعجبون لِرُحْم أم الأفراخ فراخها؟!**» قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: «**فوالذي بعثني بالحق، لله أرحم بعباده من أم الأفراخ بفراخها، ارجع بهن حتى تضعهن من حيث أخذتهن، وأمهن معهن**». فرجع بهن[٣٠٢].

وأخرج النسائي، عن عمرو بن الشريد، يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من قتل عصفورا؛ عبثا؛ عج إلى الله، عز وجل، يوم القيامة، يقول: يا رب، إن فلانا قتلني؛ عبثا، ولم يقتلني لمنفعة**»[٣٠٣]. عج: رفع صوته.

وأخرج أحمد والنسائي، والحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي، والبيهقي، في الكبرى، وغيرهم، عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: «**من ذبح عصفورا؛ أو قتله، في غير شيء**»، قال عمرو: أحسبه قال: إلا بحقه؛ سأله الله عنه يوم القيامة. ورواه عنه أحمد، بلفظ: «**من قتل عصفورا، بغير حقه؛ سأله الله عنه يوم القيامة**». قيل: يا رسول الله، وما حقه ؟ قال: «**يذبحه ذبحا، ولا يأخذ بعنقه فيقطعه**»[٣٠٤].. فالحديثان يدلان على احترام كل ذي روح من

---

(٣٠٢) المصدر السابق، ج ٣، رقم ٣٠٨٩، ص ١٢٢

(٣٠٣) المصدر السابق، ج ٧، رقم ٤٤٤٦، ص ١٧٠، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (٤/ ٢٣٣).

(٣٠٤) قال شاكر في الأول: إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٥٥٠، ص ١٢١، وقال في الثاني: إسناده صحيح، المسند، رقم ٦٥٥١، ص ١٢٢، وانظر القرضاوي: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ١، رقم ٥٧٦، ٥٧٧، ص ٣٢٢، ٣٢٣، مع الهامش، فهو مهم جدا.

الطيور والحيوانات، ومنع إيذائه، أو العبث به، أو قتله إلا لغرض صحيح مشروع، وتأمل هذه الفتوى؛ عن الأوزاعي، عن القاسم: «أنه كره صيد الطير؛ أيام فِراخِه»(٣٠٥). وقال مطرف بن عبد الله: «إن الله، عز وجل، ليرحم برحمة العصفور، فأصاب حُمْرَة؛ فقال: لأتصدقن اليوم بك على فراخك، فأرسلها»(٣٠٦).

وأخرج ابن المبارك، في الزهد، وأبو نعيم، في الحلية، من طريق المبارك بن فضالة؛ قال: سمعت الحسن يقول: أخبرني أبو الأحوص، قال: دخلنا على عبد الله بن مسعود، وعنده بنون له، غلمان كأنهم الدنانير؛ حسنا، فجعلنا نتعجب من حسنهم، فقال عبد الله: كأنكم تغبطون بهم؟ قلنا: والله، إن مثل هؤلاء يغبط بهم الرجل المسلم، فرفع رأسه إلى سقف بيت له، قصير، قد عشش فيه الخطاف، وباض، فقال: والذي نفسي بيده؛ لأن أكون قد نفضت يدي عن تراب قبورهم؛ أحب إلي من أن يخر عش هذا الخطاف؛ فينكسر بيضه(٣٠٧).

وأخرج أبو نعيم، والذهبي، عن بشر بن منصور السليمي (الذي اختفى سفيان الثوري عنده، ومات في داره) قال: «مات سفيان في هذا البيت، وكان ها هنا بلبل لابني، فقال: ما بال هذا الطير محبوس؟ لو خلي عنه؟! فقلت: هو لابني، وهو يهبه لك، قال: فقال: لا، ولكني أعطيه دينارا، قال: فأخذه، فخلى عنه، فكان يذهب فيرعى، فيجيء بالعشي، فيكون في ناحية البيت، فلما مات سفيان؛ تبع جنازته، فكان يضطرب على قبره، ثم اختلف، بعد ذلك، ليالي، إلى قبره، فكان، ربما، بات عليه، وربما رجع إلى البيت، ثم وجدوه ميتا عند قبره، فدفن معه في القبر، أو إلى جنبه(٣٠٨).

---

(٣٠٥) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ٣، ص ٤٦.
(٣٠٦) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١، ص ٢١٠
(٣٠٧) ابن المبارك: الزهد، رقم ٨٨٠، ص ٣٠٧، أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١، ص ١٣٣.
(٣٠٨) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٧، ص ٥٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٢٦٦

وتدل هذه المجموعة الطيبة من الأحاديث على أن رحمة الحيوانات والطيور، تعني- مع ما سبق- عدم فجع هذه الطيور؛ بحبسها، أو أخذ بيضها، أو أولادها، أو صيدها؛ حالة كون أولادها صغارا، بل نصح النبي ﷺ، بعدم ذبح ولد الناقة حتى يصير بَكرا، فهو ينصح من استفتاه عن الفَرَع؛ وهو ذبح أول ما تلده الناقة؛ تقربا إلى الله، فقال: «**حق، فإن تركته حتى يكون بَكْرا؛ فتحمل عليه في سبيل الله؛ أو تعطيه أرملة، خير من أن تذبحه؛ فيلصق لحمُه بوَبَره؛ فتكفِئَ إناءك، وتُوَلِّهَ نَاقتَك**»(٣٠٩). ما شاء الله! خير من أن توله ناقتك! أي: تصيبها بالوَلَه؛ وهو: الانفجاع، والألم، والوجيعة، والحزن، أي: تفجعها بولدها، كأنها إنسانة، أم، حنون، رقيقة المشاعر نحو وليدها الوحيد، بِكرها، البَكر. إنها مشاعر القلب المسلم الحق، نحو كائنات الله وزنابقه.

٨ ـ أخرج البخاري ومسلم، وأحمد، عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**غُفِر لامرأة مومسة؛ مرت بكلب على رأس رَكِي (بئر) يلهث، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغُفِر لها بذلك**». هذا لفظ البخاري، وأحمد(٣١٠).

وأخرج البخاري ومسلم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**بينما كلب يطيف بركية، كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها؛ فشقته، فغفر لها به**». البغي: الفاجرة، الموق: الخف. وفي رواية مسلم: «**فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به**». وفي رواية لمسلم: «**أن امرأة بغيا رأت كلبا، في يوم حار، يطيف ببئر، قد أدلع لسانه؛ من العطش، فنزعت**

---

(٣٠٩) سنن النسائي، ج ٧، رقم ٤٢٢٥، ص ١٢٠

(٣١٠) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣٣٢١، ص ٣٥٩، المسند، ج ٩، رقم ١٠٥٦٩، بإسناد صحيح، ص٥١٩، وج ٩، رقم ١٠٥٣١، ص ٥٠٩ .

له بموقها، فغفر لها»[٣١١]. أدلع: أخرج، ولهث.

وأخرج البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق؛ اشتد عليه العطش، فوجد بئرا، فنزل فيها؛ فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى؛ من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي كان بلغ بي، فنزل البئرَ، فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب؛ فشكر اللهُ له، فغفر له**». قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرا؟ فقال: «**في كل ذات كبد رطبة أجر**». وفي لفظ مسلم: «**.. ثم أمسكه بفيه حتى رقي (..) وإن لنا في هذه البهائم لأجرا؟**» فقال: «**في كل كبد رطبة أجر**»[٣١٢]. أي: في كل ذي حياة. وهذا في سائر الحيوان والطير. فرحمتها، والإحسان إليها: طاعة لله، وصاحبها مأجور، وذنبه مغفور، وسيئاته مكفرة عنه.

وأخرج البخاري، وهذا لفظه، ومسلم وأحمد، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**عُذِّبت امرأة في (أي: بسبب) هرة، حبستها؛ حتى ماتت؛ جوعا، فدخلت فيها النار، قال: فقالوا - والله أعلم: لا أنتِ أطعمتها، ولا سقيتها؛ حين حبستها، ولا أنتِ أرسلتها؛ فأكلت من خشاش الأرض**»[٣١٣]. وفي لفظ لمسلم: «**حشرات الأرض**». وفي لفظ لمسلم: «**عُذبَت امرأة في هرة؛ سجنتها، حتى ماتت، فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها وسقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض**»[٣١٤]. والخشاش: هوام الأرض، وحشراتها؛ مثل: الفأرة، وصغار

---

(٣١١) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣٤٦٧، ص ٥١١، إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٢٤٥، ص ١٨١.
(٣١٢) فتح الباري، ج ١٠، رقم ٦٠٠٩، ص ٤٣٨، إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٢٤٤، ص ١٨٠، ١٨١.
(٣١٣) فتح الباري، ج ٥، رقم ٢٣٦٥، ص ٤١، ج ٦، رقم ٣٣١٨، ص ٣٥٦، ورقم ٣٤٨٢، ص ٥١٥.
(٣١٤) إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٢٤٢، ص ١٧٨، والرواية السابقة، ص ١٧٩، وهي رواية في المسند، ج ٩، رقم ٩٤٥٠، بإسناد صحيح، ص ٢٢٣، ورواه أحمد بأسانيد صحاح عن أبي هريرة.

الطير، ونحوها. وهذه المرأة عذبت في النار؛ بسبب قسوتها على الهرة؛ لأن هذا كبيرة ارتكبتها ولم تتب منها.

وأخرجه أحمد بروايات صحاح، ومنها: «**دخلت امرأة النار في هر، أو هرة، ربطتها؛ فلا هي أطعمتها، ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض، حتى ماتت في رباطها؛ هُزلا**»[٣١٥].

وتأمل في فتوى أبي قتادة: «لا بأس بالوضوء من فضل الهرة؛ إنما هو من عيالي»[٣١٦]. وأخرج البيهقي، عن عكرمة، قال: لقد رأيت أبا قتادة يقرب طَهورَه إلى الهرة؛ فتشرب منه، ثم يتوضأ بسؤرها. وأخرج البيهقي عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال، في الهرة: «**إنها ليست بنجس؛ هي كبعض أهل البيت**». وأخرج البيهقي، عن عكرمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله، ﷺ: «.. **الهر من متاع البيت**»[٣١٧]. وعن أبي قتادة؛ أن النبي ﷺ قال: «**السنور من أهل البيت، وإنه من الطوافين أو الطوافات عليكم**»[٣١٨].

وبدراسة هذه الروايات نعرف من أين أخذ أبو قتادة فتواه الرحيمة. فالرحمة بالحيوانات الأليفة ـ بخاصة ـ تعني، أيضا، اعتبارها فردا من أفراد العائلة.

٩ـ أخرج البخاري ومسلم وأحمد، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرِج من تحتها، ثم أمر ببيتها؛ فأحرق، بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة**

---

(٣١٥) إسنادها صحيح، المسند، ج ٩، رقم ١٠٤٤٩، ص ٤٩٠ .

(٣١٦) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج ١، رقم ٣٥٠، ص ١٠٠

(٣١٧) قال محققه: صحيح لغيره، السنن الكبرى، ج١، ص٤٨٦، رقم ١١٦٤، ورقم ١١٦٥، ص٤٨٧، ج١، حسن لغيره، صحيح بطرقه وشواهده، ورقم ١١٧٧، ج١، ص٤٩١، حسن لغيره.

(٣١٨) أخرجه أحمد وأبو داود، وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ٣٦٩٤، ص ٦٨٨، وفي صحيح أبي داود برقم ٦٧

واحدة!»(٣١٩). الجهاز: المتاع.

وأخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي وأبو داود؛ أن أبا هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قرصت نملة نبيًّا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أن قرصتكَ نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح الله؟!**»(٣٢٠). فهذه أمم مطلوب بقاؤها. إنها كائنات حية تسبح الله.

وتأمل: قال القاضي عياض: «ذكر أهل الأخبار: أن عدي بن حاتم رُئي وهو يفت الخبز للنمل، فقيل له في ذلك، فقال: إنهم جيران، ولهم حرمة. وهذا من فضل كرم حاتم، وجوده الموروث»(٣٢١).

ونختم هذه الفقرة بقول القشيري، في معنى المحسن، في قوله، تعالى: ﴿**مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ**﴾ [التوبة: ٩١]؛ قال: هو الذي يقوم بحقوق ما نِيط به أمرُه، فلو كان طير في حكمه؛ وقصر في علفه؛ لم يكن محسنا(٣٢٢).

١٠ـ هذه المجموعات الحديثية السابقة هي نماذج لقيمة الرحمة بالحيوانات والطيور والحشرات، ويلحق بها: الشجر، والورد، والزروع، وسائر النباتات غير المؤذية للإنسان، بل رحمة البيئة نفسها؛ وتأمل الحديث الآتي: أخرج أبو داود، وغيره؛ عن عبد الله بن حُبشِي؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**من قطع سِدرة** (وهي شجرة النبق)؛ **صَوَّبَ الله رأسَه في النار**». ورواه البيهقي، عن معاوية

---

(٣١٩) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣٣١٩، ص ٣٥٦، إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٢٤١، ص ١٧٦ ، ١٧٧، المسند، ج ٩، رقم ٩٧٦٣، ص ٣١٥، ورواه أبو داود: السنن، ج ٤، رقم ٥٢٦٥، ص ٤١٠ ، ٤١١، ورواه النسائي: السنن، ج ٧، رقم ٤٣٥٩، وزاد: «**فإنهن يسبحن**»، ص ١٥٠

(٣٢٠) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣١٩، ص ١٥٤، إكمال المعلم، ج ٧، رقم ٢٢٤١، ص ١٧٦، المسند، ج٩، رقم ٩٢٠١، ص ١٤٤، بإسناد صحيح، سنن النسائي، ج ٧، رقم ٤٣٥٨، ص ١٥٠، سنن أبي داود، ج ٤، رقم ٥٢٦٦، ص ٤١١ .

(٣٢١) إكمال المعلم، ج ٧، ص ١٧٧.

(٣٢٢) الإمام القشيري: لطائف الإشارات، تحقيق إبراهيم بسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ج٢، ص٥٤.

ابن حيدة؛ بلفظ: «**قاطع السدر؛ يصوب الله رأسه في النار**». ويبين النبي ﷺ كيف أن الفاجر؛ إذا مات، يكون مستراحا منه، قال: «**مستريح، ومستراح منه؛ العبد المؤمن: يستريح من نصب الدنيا وأذاها؛ إلى رحمة الله، تعالى، والعبد الفاجر: تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب**». ويقول أبو داود، في الحديث الأول: يعني: من قطع سدرة، في فلاة، يستظل بها ابن السبيل والبهائم؛ عبثا وظلما، بغير حق يكون له فيها؛ صوب الله رأسه في النار. وهذا توجه سليم يتطابق مع قيمة الرحمة، ومع اتجاه الإسلام في الحرص على سلامة البيئة.

وهذه النماذج تبرهن على: أن الإسلام دين رحمة لإنقاذ العالم كله، دين يرحم العالم كله، ويربي المؤمنين به على الرحمة الشاملة، ويدفعهم دفعا؛ للحياة في بيئة صديقة، يسالمون كائناتها، ويرحمونهم، ويرحمونها؛ يرحمون الجمال، والبقر، والغنم، والحمير، والكلاب، والقطط، والنمل، والنحل، والهدهد، والعصافير والدجاج، واليمام والبلابل، والخطاطيف، والضفادع، وسائر الطيور والحيوانات، وسائر الأشجار والنباتات، التي لا تؤذي؛ بكل صور الرحمة التي شرحناها، سابقا.

١١ـ تربية قيمة الرحمة بالحيوانات والطيور والحشرات، والأشجار، وباقي الكائنات:

كيف نحول هذه الأفكار الحية النافعة، والتصورات الإسلامية، إلى أعمال وسلوكيات؟ وإلى عادات؟ أي: إلى أخلاق وممارسات رحمة بهذه الكائنات ؟ هذا هو المشروع التربوي؛ من حيث هو جزء من التربية الخلقية، والتربية البيئية، والتربية القلبية، لكل مسلم ومسلمة، وخلاصته، هنا:

١١ـ ١ : مبدأ الوعي بالقيمة: أي: أن يكتسب كل مسلم ومسلمة؛ صغيرا

أو كبيرا، التصورات السابقة عن الرحمة بالحيوانات والشجر، وباقي الكائنات؛ ليدركوا مفهوم الرحمة بها، ومضمونها، وصورها التطبيقية، ونماذجها، وآثارها، وثوابها؛ في الدنيا والآخرة، وفي النفس والبيئة، ويتعقلوا أدلتها، ويتفكروا في مضمونها، وآثارها، وواقع ممارستها، في السياق الاجتماعي، ويدركوا مدى الحاجة إليها، وذلك من خلال: التثقف الذاتي؛ بالقراءة، والاستماع، والحوار، والتثقف الجماعي؛ بحضور المحاضرات، والدروس والخطب، والندوات، والدورات، وورش العمل، والمهرجانات الشعرية، وحملات حماية البيئة، ..إلخ. واهتمام الأسر والمدارس، والجامعات؛ من خلال المقرر والنشاط والكلمات.. إلخ، والمساجد، والكتاتيب، والقنوات الفضائية، ومواقع النت، والإعلام المقروء والمسموع، والأندية الثقافية، والمسرح، والسينما، والمسلسلات، بنشر وإيصال المضمون السابق إلى كل مسلم ومسلمة، عبر كل فاعليها الثقافيين، من آباء وأمهات، ومعلمين ومعلمات، ..إلخ.

١١ـ ٢: مبدأ تذويت القيمة: أي: أن نتوجه؛ من خلال كل ما سبق، إلى تكوين وتنمية إيمان قلبي، وشعور وإحساس، بقيمة الرحمة بالحيوانات والأشجار والكائنات، وتذوق معناها، والتأثر الوجداني، به، والتلذذ بروعتها وجمالها الخلقي، وروائع آثارها في الإحساس بجمال الحياة، وعظمة الإسلام الذي أمر بها، وتأمل آثارها في البيئة والمشاعر، وعمران الحياة الطبيعية؛ مما يؤدي إلى حب هذه القيمة، وإرادتها، وطلبها، والرغبة في الاتصاف بها، وقصدها، والنزوع الذاتي، لممارستها، وعشق مشغوف بالاتصاف بصفة الرحمة التي يحبها الله الرحيم، والتي تبعثنا على التعاطف الوجداني، مع أمم الأرض، أمثالنا، مما يزيل أمية مشاعرنا نحو هذه الكائنات؛ وذلك من خلال الانطباع الوجداني بالمضمونات السابقة، في أثناء دراستها، والاستماع إليها، وتثبيت

معنى أن الله يحبها، ورسوله يريدها، واهتمام كل الفاعلين الثقافيين بتثبيت هذه المعاني في قلوب من يربونهم، وشعور هؤلاء المربين الفعلي بها ..إلخ.

١١ـ ٣: مبدأ التعود والممارسة، وتكرار الفعل: أي: الدخول الفوري والفعلي في ممارسات حية مباشرة، متكررة، لأفعال الرحمة بالحيوانات والكائنات، فمن حولنا: طيور، وحيوانات، وحشرات، وشجرات، ونباتات، فلنأخذ؛ فورا، أنفسنا، ومن نربيهم، الآن، لتقديم بعض الطعام، والماء، لواحد من هذه الأمم؛ ليمامة أو حمامة، أو عصفور، أو كتكوت، أو كلب، أو قط، أو نملة، لنأخذ قطعة خبز أو سكر، ونفتتها للنمل الذي يسكن بجوارنا،.. إلخ، ولنكف، فورا، عن ضرب القطط، أو حبس العصافير،.. ولنتعود، ولنعود أولادنا، على إطعام الطير، والحيوان، وتقديم الشراب لها، وعلى عدم إرهاق البهائم في الشغل، وعدم زجرها، أو ضربها.. إلخ، ولنقم برش الشجر والزرع بالماء، وتشذيبه؛ بحب وإحساس بالصداقة، ولنحافظ على الأشجار والورد، برقة وحب، وحنان، وعلينا أن ندفع أولادنا لفعل ذلك، وأن نشجعهم، ونثيبهم عليه..

ومن ذلك: زيارة حدائق الحيوانات؛ لهدف غير الترويح؛ بل زيارة تعاطف وجداني، وشعور بالأسى، لهذه الطيور والحيوانات، التي حبست؛ بغير حق؛ لتحويلها من أمم أمثالنا، إلى (فرجة) و(ألاعيب لمتعة بني الإنسان)، والتساؤل، معي: يا ترى! هل تحتج هذه الحيوانات والطيور، وتعترض، علينا، وعلى قسوتنا؛ بهذا الصمت، وهذه النظرات الرهيبة، لوجوهنا؟ ووجودنا؟ ماذا لو كنا نحن مكانها؟ أليست أمما أمثالنا؟ لم حرمناها من بيئاتها وأهلها، وأصحابها؟

ومن ذلك: أن تأخذ أنفسنا، وأولادنا، ومن نربيهم، لنحيا، يوما، كل شهر، أو كل نصف عام، مع كائنات الحقول والحدائق، مع زنابق الله؛ لنشارك

هذه الكائنات مهرجان الحياة، النابضة بالحياة، لنسمع ثغاء الشياه، ونهيق الحمير، وزقزقات العصافير، وهديل الحمام، ونقيق الضفادع، والدحلب، وهفهفات الفراشات، وخرير المياه، ورفرفات الشجر، وحفيف الأغصان، وهمسات البرسيم، وإغواءات الورود، .. إنها روعة ودهشة، ومتعة، للشعور بالحياة، في الحياة، وتربية للقلب؛ تبعث فيه الرحمة بكائنات الله وزنابقه.

هل تعاطفتَ، مرة، مع حمار مضطهد، حتى سماه الأفوه الأودي، مع الوتد الذي يربط فيه، بالأذلين.

ولا يقيم على ضيم ؛ يراد به إلا الأذلان؛ عَيرُ الحي، والوتِد

هذا ـ على الخَسف ـ مربوط برمته وذا يُشَج؛ فلا يرثي له أحد

فمن يرثي، معي، لهذا الحمار الصابر، حمال الأثقال، وآلام العصي، وسخرية الساخرين! ومن يتعاطف، ويأسى، معي، مع شجرة يقطع قاطع رأسها، ويتذكر، أنه، عند قطعها، يصوب الله رأسه في النار!

إن تربية القلب ـ في الإسلام ـ توقفنا أحياء في قلب العالم، منفتحين على جميع كائنات الله وزنابقه، ثائرين، مع رسول الله، ضد وسم حمار بالنار، وضرب وجهه، وضد قطع شجرة تنفع الناس، ولو في صحراء، وماذا أقول عن الإنسان ؟ ينبغي تربية الكل!

١١ ـ ٤ : مبدأ القدوة، ومبدأ إشاعة ثقافة الرحمة بالحيوانات والطيور والشجر: ومن المهم، ونحن نربي أولادنا وتلاميذنا، أن يرونا، نحن، ممارسين للرحمة مع كائنات الله، إن هذه الرؤية ترسخ الإيمان بهذه الرحمة في قلوبهم، وتدفعهم لفعلها، حبا لمن يربونهم، أو تقليدا لهم، فالكبار، بفعلهم، يربون الصغار، ويشعون النور عليهم، ويقنعونهم أن ممارسة الرحمة أمر واقعي ممكن. وممارسة الكبار والمربين لهذه الرحمة قاعدة أساسية لإشاعة ثقافة الرحمة بالحيوانات والشجر، وثقافة الرحمة هي الوسط الذي ينشأ فيه الناشئون،

فيتشربونه، ويعيشونه، وبالتالي: يكتسبونه، ويتكون هذا الوسط من خلال أفعالنا، ومن خلال ما نمارسه من فعاليات ثقافية؛ من أشعار، وأدب، ومسرح، ومقالات، وكتب، ومذاعات، وندوات، وبرامج فضائية، ورسائل نت، وهواتف نقالة، وخطب جمعة، وكلمات الصباح، وحملات التثقيف، وأسابيع الرحمة بالبيئة، ومسابقات، ومهرجانات تكريم للأكثر رحمة بالبيئة وكائناتها، وإذاعة أناشيد وأغان، عنها، وتعليق ملصقات في البيوت ..إلخ. إن هذا كله ضروري لتربية الرحمة البيئية في قلوب الناس. ومن هنا يتأكد دور الآباء؛ عبر التربية الوالدية، ودور المعلمين، والمفكرين، والدعاة، والشعراء، والمذيعين، والسياسيين، وأعضاء جمعيات المجتمع الأهلي، والنقابات، والحركات الإسلامية.. إلخ، في نشر ثقافة الرحمة بالكائنات؛ عبر كل الوسائط التثقيفية في المجتمع.

ز ـ تعقيب وإشارة للرحمة باليتامى والمساكين وعموم الضعفاء:

١ ـ إن ما سبق كان بيانا لأبعاد قيمة الرحمة، وفروعها، والتي تمثل شجرة طيبة مثمرة، أصلها راسخ في القلب، وغصونها تظلل الإنسان والطيور والبهائم والحشرات، والشجرات، وباقي الكائنات.

فالرحمة: قيمة قيم؛ أي: أنها تمثل، في ذاتها، منظومة قيمية، ذات فروع، مثمرة، يانعة، هي: الرحمة بالوالدين، الرحمة بين الزوجين، الرحمة بالأولاد الصغار، والعيال، والتلاميذ وعموم المتعلمين، رحمة اليتامى والمساكين والضعفاء، رحمة الأقارب وذوي الأرحام، الرحمة بعامة المسلمين؛ مطيعهم وعاصيهم، الرحمة بعموم الناس كلهم، رحمة البهائم والطيور والحشرات، والأشجار والنباتات، رحمة الإنسان ذاته، بذاته، والتي يكفي فيها قول الله، تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] ، وقوله، تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] ، وقول النبي ﷺ:

«إن لبدنك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا،..»، وقوله: **«خذوا من الأمر ما تطيقون،..»** إلخ.

٢ ـ وهذه المنظومة تشمل قيما لضبط المؤاخاة بين المسلمين، وضبط المواطنة بين المسلم والنصراني في مجتمعاتنا، وضبط العلاقة بين المسلم والبيئة، الطبيعية، وضبط العلاقة بين الزوجين، وبين الأب والأم والأولاد، وبين المسلم وأقاربه، وبين المعلمين والتلاميذ. وإذا تخلق المسلم بهذه المنظومة القيمية؛ كان من أهل الجنة، ورحم الأرض، وأهل الأرض، وصار أهلا لرحمة الله.

٣ ـ تأكيد الرحمة باليتيم والمسكين وعموم الضعفاء، وهي قيمة فرعية تدخل ضمن الرحمة بالصغار، وبالمسلمين، ولكن النبي ﷺ خصها بمزيد تأكيد، وقد تناولتها في فصل تربية القلب الرقيق، وأكتفي، هنا، بذكر هذه الأحاديث النبوية الرائعة:

ـ في سنن ابن ماجه، وابن حبان، وفي مسند أحمد، أن النبي ﷺ قال: **«اللهم، إني أحَرج حق الضعيفين؛ اليتيم، والمرأة»**. وفي رواية: **«إني أحرج عليكم حق الضعيفين...»**(٣٢٣)؛ أي: أحذر تحذيرا أكيدا، وأزجر زجرا بليغا، وألحق الحرج؛ الإثم، بمن ضيع حق اليتيم والمرأة، وأحذر من ذلك بشدة.

ـ أخرج الطبراني، عن أبي الدرداء، أن النبي ﷺ قال: **«أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم، وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك؛ يلن قلبك، وتدرك حاجتك»**. ورواه الخرائطي، بلفظ: **«أدن اليتيم منك، وألطفه، وامسح برأسه، وأطعمه من طعامك؛ فإن ذلك يلين قلبك، ويدرك**

---

(٣٢٣) إسناده صحيح، المسند، ج٤، ص ٤٣٩، وابن ماجه؛ في سننه، ج٢، ص١٢١٣، رقم ٣٦٧٨. وقال الألباني: «حسن»، السلسلة الصحيحة (١٠١٥)، وابن حبان في صحيحه، ج١٥، ص٣٧٦، رقم ٥٥٦٥.

حاجتك». وأخرجه أحمد، والبيهقي في الشعب، عن أبي هريرة؛ بلفظ: «**إن أردت أن يلين قلبك؛ فأطعم المسكين، وامسح رأس اليتيم**»(٣٢٤).

ـ وأخرج الطبراني، في الأوسط، عن عائشة، ومسلم، عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «**أنا وكافل اليتيم، له أو لغيره، في الجنة، والساعي على الأرملة والمسكين؛ كالمجاهد في سبيل الله**»(٣٢٥).

ـ وأخرج أبو داود، والبيهقي، وغيرهما، عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «**ابغوني الضعفاءَ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم**». أي: اطلبوا محبتي برحمة الضعفاء، وفي حديث: «**هل تنصرون إلا بضعفائكم؟؛ بدعوتهم وإخلاصهم**»(٣٢٦). وعن سهل بن حنيف، أن النبي ﷺ كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم(٣٢٧). وهكذا يمارس المسلم؛ اتباعا لرسول الله، الرحمة بجميع الضعفاء، وتتكامل في شخصيته كل أبعاد قيم الرحمة.

تاسعا: منظومة أساليب تربوية لتربية الرحمة في القلب والسلوك:

أ ـ تنمية الوعي بقيمة الرحمة: القيم:

تربية، والتربية: تنمية ذات عمليات محددة؛ تهيئة البيئة الصالحة للنمو، محبة الشخص الذي نربيه، والقيمة التي نربيها، غرس، وتغذية، وإمداد بكل ما ينمي ويكبر، ويعظم الشيء الذي نربيه، الحماية من كل المعوقات، والأضرار،

---

(٣٢٤) إسناده ضعيف، قاله الأرناؤوط وآخرون، المسند، ج٢، ص٢٦٣، رقم ٧٥٦٦، والبيهقي في الشعب، رقم ١١٠٣٤، وقال الهيثمي في المجمع (٨٢١٨): «رواه الطبراني، وفي إسناده من لم يسم، وبقية مدلس».

(٣٢٥) الإمام مسلم في صحيحه، ج٤، ص٢٢٨٦، رقم ٢٩٨٢، الطبراني في الأوسط، ج٢، ص٥٠، رقم ١٢١٥.

(٣٢٦) أبو داود: السنن، ج٢، ص٣٨، رقم ٢٥٩٤، وقال الألباني: صحيح، والبيهقي: السنن الكبرى، ج٦، ص٣٣١، رقم ١٢٦٨٤.

(٣٢٧) الإمام القشيري: لطائف الإشارات، ج ٢، ص٥٤.

الرعاية المستمرة، تحفيز المتربي لينمو من داخله، وتنمية الاستعداد لتعلم الرحمة... إلخ، ومن أهم عمليات تربية قيمة الرحمة: تزويد، وتغذية وإمداد العقل والقلب بالتصور الصحيح، والمفهومات الفكرية الواضحة المحددة عن قيم الرحمة، المراد إكسابها، واكتسابها، والاتصاف بها، حتى يتكون إدراك ووعي واضح محدد، ودقيق ومتميز، لمضموناتها، وأبعادها، وصورها التطبيقية، ولأصلها، وفروعها، ومصدر إلزاميتها الخلقية، وأدلتها، وآثارها، في النفس والشعور، والحياة الاجتماعية، والبيئية، وحاجة الواقع إليها.

وتكوين وتنمية هذا الوعي والإدراك العقلي المقنع، والمؤثر، يقوم على (درس) هذه القيمة، و(تعلمها)، وتحليلها، وتحصيل ذلك يكون عن طريق:

١ـ التثقف الذاتي المبرمج: الذي يخصص زمنا كافيا محددا؛ أسبوعا، مثلا، لدراسة هذا الفصل، وفهمه، واستيعاب عناصره، وتحليلها، وتصور دلالاتها الذاتية والاجتماعية، والبيئية، بتخطيط برنامج تثقيف ذاتي، في قيم الرحمة، وحمل الذات على إنجازه، في المدة المحددة، وتقويم ما تم إنجازه، وللمربي الموجه، دور مهم، هنا، لتوجيه المتربين في التخطيط والتنفيذ لبرنامج التثقف الذاتي، ولأسلوب (التثقف بالنظير) منفعة حقيقية، فالمرء على دين خليله، فليختر المسلمُ النظيرَ، أي: الصديق، الواعي الذي يرشده، ويعينه، في هذا الطريق.

٢ـ دورات تربوية تخصص لقيم الرحمة: تدرس فيها المعطيات السابقة، بدقة، وتحلل في (حوارات مشتركة)، ويصلى بآيات الرحمة، مع قارئ خاشع، وتأثر وانطباع شعوري، مع جمع ودراسة وتأمل أحاديث الرحمة في هذا الفصل، ومن الضروري تنظيم برامج تربية والدية، وبرامج للمعلمين، وكل الفاعلين التربويين؛ لإكسابهم مضمون قيم الرحمة التي يحتويها هذا الفصل.

٣ـ التقويم الذاتي والجماعي: من خلال جدول مراجعة ومحاسبة، تثبت فيه فروع قيمة الرحمة، وتحت كل فرع: صوره السلوكية، المذكورة، هنا، والممكنة،

وذلك في نهر خاص، أو (خانة)، على اليمين، وفي الخانة الثانية: (أفهم هذه الصورة)؛ وتحتها نهران: نعم، لا، وأمام كل صورة للرحمة: يضع علامة: صح (✓)، إن كان يفهمها، وعلامة: غلط (✗)؛ إن كان لا يفهمها، وفي الخانة الثالثة: (أشعر بأهمية هذه الصورة)، وتحتها نهران: نعم، لا، وفي الخانة الرابعة: (أشتهي ممارسة هذه الصورة)، وتحتها نهران: نعم، لا، وفي الخانة الخامسة: (أمارس هذه الصورة)، وتحتها نهران: نعم، لا. وهكذا، يحسب حجم ما فهمه، وحجم ما يشعر به، وحجم ما يشتهيه، وحجم ما يمارسه، فعلا، ويحسب ما له وما عليه، بدقة إحصائية؛ تصورًا، وإيمانًا، وشعورًا، ورغبةً، وسلوكًا. ويمكن طبع هذا الجدول، ويوزعه المربون على من يربونهم، خلال دورة تربوية لمدة أسبوع، مثلا، ويهتم الجميع بتقويم أنفسهم، وتحسين سلوك الرحمة عندهم؛ في جو روحي، واهتمام جاد، وحرص على التغير نحو الأحسن.

٤ـ **التثقيف العام**: من خلال تنظيم، وحضور، دروس ومحاضرات، في المساجد والأندية، والمدارس والبيوت، والنقابات، وباقي مؤسسات المجتمع الأهلي، يحاضر فيها أئمة وعلماء ومثقفون، ومعلمون، من خلال برامج منظمة، ومتسلسلة، ومتعاقبة، تغطي قيم الرحمة، بهدف التحليل، والتوضيح، والإقناع، والتأثير، والتحفيز، بالأدلة الموثقة، والتحليل الناقد، والإسقاط على الواقع الاجتماعي.

٥ـ **ومن التثقيف العام**: تنظيم الاستماع لأشرطة في الرحمة؛ (كاسيت، وفيديو، وسي دي،) في البيوت والمساجد، والمدارس والأندية، والنقابات... إلخ، وتوظيف كلمات الصباح، ومقالات الصحافة المدرسية، وكلمات المعلمين، وخواطر بعد الصلوات، ومجلات حائط في البيوت والمساجد، وطبع أحاديث الرحمة، على شكل ملصقات، ومطويات، تعلق في البيوت والمساجد وأماكن تجمع الناس، وطبع الجدول السابق، وتوزيعه، للتطبيق عليه.

٦ـ **تنظيم حملة تثقيف عام**: يدعى فيها بعض كتاب المقالات، ومقدمو البرامج في القنوات الفضائية، وأصحاب المدونات، ومواقع النت، وأئمة المساجد... إلخ، لتناول قيم الرحمة، في سلاسل متتابعة، بحيث يصل مضمون هذا الفصل لأكبر عدد من المسلمين وغير المسلمين، مع تحفيزهم المقنع لتطبيق ما يستمعون إليه، وتوظيف الحركة والصورة والنغمة والحوار؛ للإقناع والتأثير. والمربي الواعي والمخطط التربوي الفاهم يستثمر الفرص الزمانية، لإطلاق هذه الحملات التنويرية؛ يوم الجمعة، شهر رمضان، أيام الحج، خطب عقود الزواج،... إلخ.

ويتم تقويم هذا البعد التربوي؛ (تنمية التصور الواعي الصحيح المقنع المؤثر الواضح عن الرحمة)، من خلال قائمة أسئلة محددة عن: المفهوم، والمضمون، والأهمية، والصور والأبعاد، والأدلة، والآثار، وحاجة الواقع؛ من أجل التأكد من تحقق الإدراك الواعي الصحيح بالرحمة عند المسلم والمسلمة.

ب ـ تذويت قيم الرحمة:

أي: تنمية الإيمان بها، وحبها، وإرادة الاتصاف والتخلق بها، في قلب الإنسان المسلم، وذلك من خلال:

١ـ غرس معطيات هذا الفصل، من خلال التثقف السابق، في القلب، والعمل على تحويله إلى (إيمان)، بالرحمة، أي: (تذويت الرحمة)، وتحويلها إلى (ضمير)، في القلب، ضمير راسخ، حي، فاعل، في الوجدان، ببرمجة قلبية؛ من خلال: التركيز على الإلزام الإيماني بها، وأنها خلق ملزم، يأمر به الإيمان، وأنها طريق للجنة، والتركيز على آثارها في النفس والمجتمع والبيئة، وعلى ضرورتها في تطوير الواقع المجتمعي.

٢ـ تأمل ما ورد فيها من قصص، وأحاديث، وتجارب عملية، من الصالحين المحبوبين، وترغيبات إلهية ونبوية؛ لتنمية الرغبة فيها، والعشق لها،

والتأثر بها، والانطباع بها. والحق: أن دراسة مقررات هذا الفصل؛ بتذوق، واستشعار قلبي، لآثاره، وتذوق جماله، وحلاوته، كاف لإثمار الإيمان والرغبة فيها، وتربية عشق الاتصاف والتخلق بها، وإرادة العمل بكل صورها السلوكية، وأبعادها.

٣ـ التركيز على تطبيق جدول المراجعة الذاتية، والتقويم الذاتي، المذكور، سابقا، مع التنبه لملء خانة: هل أشعر بأهمية وحلاوة هذه الصورة من الرحمة، أم لا ؟ وأن يتم ذلك؛ فرديًا ودوريًا، عقب صلاة خاشعة.

٤- ممارسة التعبد باسم الله: الرحمن الرحيم، فيعي القلب المسلم، هذا الوصف، ويتعلق به، ويتخلق بدلالته، التي تليق به، ويتحقق؛ عمليا، بالرحمة؛ ليكون رحيما، فيرحمه الله، الرحيم، الذي يحب كل رحيم، كما بينا في هذا الفصل، مع التذوق، وإشعار القلب بالمعاني، ويمكن عمل وظيفة يومية، لمدة عشرة أيام، يقول فيها المسلم، مع نفسه، لنفسه: الله رحيم، الله رحمن، الله يحب كل رحيم، ويتأمل المعنى، ويرسخه في قلبه، ويكرره.

٥- ممارسة الدعاء والتضرع الخاشع من القلب، وباليقين، أن يرزقنا الله التخلق بالرحمة، والشفقة على خلق الله، والدعاء للمرضى والمضطهدين من المسلمين.. إلخ، فالدعاء؛ بتأثر، وبيقين، وبتثبت من القلب، وبإلحاح، وبشعور بالحاجة، المدعو بها؛ أسلوب تربوي، نافع ومؤثر في القلب، جدا، فهو يعمق المعنى في القلب، ويعمق الشعور بالحاجة إليه، ويثبت المعاني في الوعي، ويجمع الهمة على التحول إلى القيمة المدعو بها. وفي دعائه: يستمد العون من الله على العمل بها. ويمكن ممارسة الدعاء بعد الصلوات، وفي قيام الليل، وفي الدورات التربوية، وفي الاعتكافات، وفي السجود... إلخ.

٦- مطالعة القلب لممارسة الرسول ﷺ الرحمة المهداة، لخلق الرحمة، بجميع صورها؛ القولية، والعملية، والشعورية، فهو، بحق، الأسوة الحسنة

للرحمة، بل هو الرحمة المهداة، للعالمين، فيحقق المؤمن، أولا، إيمانه بالرسول، ويعرف سيرته، ويحبه،؛ فإذا تحقق ذلك، انتقل القلب، تلقائيا، إلى متابعته، والتأسي بأخلاقه، فيثب المسلم المحب للرسول، وثبة الحب، فينتقل من أخلاقه، هو، إلى أخلاق الرسول، ويتبعه، بقدر الممكن.

وهذا أصل عظيم في التربية الخلقية للمسلم، أعني: تقليد المحبوب، الذي يؤمن المسلم أنه أفضل إنسان، وهو النبي، محمد ﷺ. وهذا جهد ذاتي؛ من جهة، وجهد جماعي، من جهة ثانية، عبر التوجيه التربوي، في الأسر، والمساجد، وفي الحركات الإسلامية؛ عبر دوراتهم ولقاءاتهم التربوية. وهذا الأصل يتطلب دراسة مفصلة لسيرة الرحمة النبوية في كل مجالاتها، التي درسناها في هذا الفصل؛ عبر برنامج تربوي يخصص لهذا الأصل.

جـ ـ التعود؛ والممارسة الفعلية الفورية للرحمة:

أي: فعل الخلق؛ مرة، بعد مرة، وتكرار ممارسته، حتى يرسخ في النفس، ويصبح خلقا معتادا لها، بالأداء العملي الفوري للصور السلوكية للرحمة؛ أي: الانخراط الفعلي في الممارسة الفردية والجماعية؛ بنية، وعزيمة، وإرادة ناهضة، قاصدة، لفعل الرحمة؛ بأبعادها، وصورها: الرحمة بالأم، الرحمة بالأب، الرحمة بين الزوجين، رحمة الأولاد والصغار، والتلاميذ، رحمة اليتامى والمساكين وضعفاء الناس ومحاويجهم، وأطفال الشوارع، والمعاقين، رحمة الأقارب، رحمة المسلمين، الرحمة العامة بكل الناس، رحمة الطيور والبهائم والحشرات، والأشجار، وسائر الكائنات. وحولنا، قطعا، نوع أو أكثر من هؤلاء، بإمكاننا أن نمارس معه صورة أو أكثر للرحمة. إننا نتعلم ما نفعله، لا ما نقوله، وما نسمعه؛ فالفعل: يربينا ويرقينا .

وهنا يأتي دور الفاعلين التربويين، الأب والأم، والأستاذ، وإمام المسجد، وشيخ الكتاب، والداعية المربي في الحركات الإسلامية، والنظير المربي، ...إلخ،

للتوجيه نحو الممارسة، وتحقيق القدوة في هذا المجال.

وعملية الممارسة هي التي تجعل القيمة (خلقا)، وترسخه في الذات، وتنميه، وتكبره، فهي التي تدربنا، وتعودنا على أفعال الرحمة، وتزود إحساسنا وشعورنا وإيماننا بها، وتعمق وترسخ رغبتنا فيها، وكلما مارسنا صور الرحمة؛ كبرت، ونمت، وعظمت، في قلوبنا، وتحولت إلى ملكة راسخة، وخلق سلس ميسور، فنحن نتعلم الرحمة بممارسة الرحمة، كما نتعلم الكتابة بممارسة الكتابة، والسباحة بمزيد من السباحة.

وليس المهم أن نمارس الرحمة ممارسة آلية، بل نمارسها ونحن نعيها، ونتذوقها، ونشعرها قلوبنا، بحيث تصدر عنا أفعالها بسهولة، وبلا تكلف، وبحب، وتذوق، وإثراء للروح، وتفتح قلبي، لتصبح عادة؛ تعلمناها، وعرفناها، وصحبناها، وخلقا نتمتع به، ونتذوقه، ونحن نفعله، كما نتذوق قصيدة جميلة راقية المشاعر، وهذا يتطلب:

١- الجدية في عمل وتطبيق جدول المحاسبة والتقويم الذاتي، المشار إليه، لتمييز ما نمارسه، مما لا نمارسه، لنشرع، فورا، في ممارسة ما لا نمارسه، من قيم الرحمة، وصورها.

٢- تخطيط وتنفيذ أسبوع، أو أسابيع الرحمة، نقصد فيها قصدا متعمدا إلى ممارسة كل صور الرحمة السابقة، مصحوبة بدروس ومحاضرات، ومسابقات، وأبحاث، وجوائز تشجيعية، بشكل جماعي، نحدد فيه الصور الغائبة للرحمة، لممارستها في هذه الدورة التدريبية العملية على الرحمة، وذلك على مستوى البيت والمسجد، بإشراف إمامه، وعلى نطاق مشروع للقرية، أو الحي، أو مركز الشباب، أو مشروع حركي تربوي، أو المدرسة، أو الجامعة، أو مراكز وقصور الثقافة، أو أندية الطفل، أو البرامج ذات الجماهيرية على الفضائيات، والنت، ويمكن عمل هذه الأسابيع للتعود على الرحمة، والتدرب على

ممارستها، والتوعي، ونشر ثقافة الرحمة، والتذوق، والتحفيز، ودفع الهمم، والتشجيع،..، تمارس فيها الدعوة بالكلمة، والنشيد، والأغنية، والشعر، والمسابقة، وتوزيع الجوائز.. إلخ، وعقد ورش نقاش، ومحاسبة، ونقد ذاتي، بعد انتهاء دورة الرحمة؛ ماذا فعلنا؟ وماذا استفدنا؟ ما المميزات؟ وما العيوب؟ وما آثار هذا النشاط في قلوبنا؟ وسلوكنا؟

٣- وجود النفر القدوة؛ الذين يشعون بسلوكهم، الرحيم، ويعلمون بأحوالهم وهممهم، قبل أقوالهم، وبمواقفهم، قبل ملافظهم، ويجذبون الآخرين؛ بحلاوة سلوكهم، ليتأسوا بأفعالهم، وأحوالهم، وأقوالهم، وهممهم. ومن الضروري توفر هذه القدوات في الأسرة، والمسجد، والمدرسة، والكتاب، ومناشط الحركة الإسلامية.. إلخ؛ فهذه القدوات هي التي تشع ثقافة الرحمة في صميم الواقع، وتقنع الناشئين بأن الرحمة خلق واقعي يمكن تعلمه وممارسته. والشخص القدوة هو الذي يمارس، ويفعل الخلق قبل أن يدعو إليه، ويأخذ نفسه بتطبيقه قبل أن يوصي غيره به، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ...﴾ [هود: ٨٨] .

٤- التثقف بالنظير، أي: الصحبة المربية المشجعة الموجهة نحو التزام قيم الرحمة، فهذه الصحبة ـ مع النفر القدوة، وحملات التثقيف العام بالرحمة ـ هي التي تغذي ثقافة الرحمة، وتنشئ الوسط الثقافي المربي للرحمة .

د ـ التخلص من القسوة والغلظة، والتخلق بالرقة واللين، وحساسية الشعور:

وهذه عملية ضرورية لتربية الرحمة، وقد تناولتها في الفصل الرابع؛ تربية القلب الرقيق، ولها تكميل في الفصل الخامس، بعون الله.

وبهذه العمليات؛ بهدوء، وتركيز، واستمرارية، وفي محاضننا، ووسائطنا، التربوية؛ وفعالياتنا، التثقيفية؛ نربي مسلما رحيما، ومسلمة رحيمة القلب، ليكونوا

قدوات مشعة للرحمة في المجتمع، تعمل على نقله من ثقافة القسوة والعنف، إلى ثقافة الرحمة؛ فتتوسع دوائر الرحمة، وتنحصر وتضيق ثقافة القسوة.

عاشرا : خاتمة واستنتاجات:

أ ـ لقد برهنا، بالنص، والوقائع، على أن قلب المسلم الحق رحيم، كبير، وأنه؛ بتطبيق هذه القيم، فإن المسلم يعتبر (مخلص) العالم، ومنقذ البشر والطير والبهائم، وباقي الكائنات، من القسوة والوحشية، والفساد، فالمسلم ذو قلب رحيم رقيق، عطوف، شفوق، محسن، باذل للخير؛ حين تتربى فيه قيم الرحمة.

فاكتساب قيم الرحمة، وإكسابها للمسلمين، تشكل (منظومة أهداف للتربية)، ذات أبعاد معرفية، وقلبية انفعالية، وجدانية، ومهارية سلوكية، يلزم ممارسة العمليات التربوية السابقة؛ لاكتسابها.

ومما يعين على ذلك، ونركز عليه في هذه الخاتمة: أن نتأسى بالنماذج العملية، التي تعمدت إيرادها، بدءا من المثل الأعلى للرحمة؛ سيدنا محمد ﷺ الرحمة المهداة للعالم، فالإيمان بمحمد، رسول الله ﷺ ومعرفة سيرته وسنته، ومحبته، ولين القلب له، والحنين والشوق إليه، يجعل قلوبنا تثب وثبة شعورية وناهضة، وإرادية، لفردوس الرحمة، فالإيمان والمحبة قوة جاذبة نحو أخلاق المحبوب، فمحبة قلوبنا لمحمد رسول الله، تجذبنا جذبا لممارسة قيم الرحمة، فلا ترجع إلى قسوة أو غلظة أبدا.

ب ـ فقيم الرحمة تنعكس في غايات وأهداف تربوية؛ تحكم وتوجه الخطط التربوية في الحركة الإسلامية، والوسائط التربوية كلها في مجتمعنا، أو هكذا يجب أن يحدث، وإلا؛ كانت التربية فادحة النقص، وكانت الشخصية الناتجة عنها شخصية مشوهة منحرفة. وهي أهداف تربوية تتعلق بكل شعبة من شعب الرحمة؛ أن يكون المسلم رحيما بأبويه، أن يكون رحيما بزوجه، أن يكون رحيما بأولاده، وبالصغار، وبالتلاميذ، وباليتامى، وبالضعاف، والمساكين، أن

يكون رحيما بكل المسلمين، أن يكون رحيما رحمة عامة، فيرحم كل البشر من غير المسلمين، أن يكون رحيما بالطير والبهائم والحشرات والشجر والنبات وباقي كائنات العالم.

وتنعكس هذه الأهداف في أساليب وطرائق تعامل اجتماعي وتربوي، رحيمة، ذوات مزاج لطيف، ونكهة جمالية، وروحية خاصة، تعامل مع الوالدين، وبين الزوجين، ومع الأولاد والصغار، والتلاميذ، والكبار، والضعاف، وعامة المسلمين والنصارى، والعصاة، والكفار، والبهائم، والطير، والشجر، والحشرات، والنباتات، وباقي الكائنات،.. أسلوب تعامل مفعم بالرحمة، وبذل المعروف للعالم، يقوم على الرقة والإحسان، والوعي الشعوري، لا على القسوة والعنف والجلافة والبلادة الشعورية، فالنموذج الإسلامي السلوكي؛ الجواني والبراني، ليس هو نموذج (الخوارج)، وإنما هو نموذج (محمد بن عبد الله؛ رسول الله ﷺ)، الرحيم، الرقيق، أرحم الناس بالناس، الرحمة التي أهداها الله الرحيم للبشر.

جـ- والتربية - في المنظار الإسلامي - هي تربية الرحمة والرأفة، لا تربية القهر والعسف، والاستبداد. وتعامل المسلم مع كائنات البيئة، من حوله، هو تعامل الصديق، الرحيم، الحساس، المراعي لحقوق الجوار لمن هم أمم أمثالنا، وهكذا؛ هذه هي وجهة الإسلام، ووجهة المسلم، ووجهة التربية الإسلامية.

د - واكتساب المسلم لقيم الرحمة يتم عبر عمليات تربوية، أشرت إليها، مع كل قيمة من قيمها، ونؤكد أن هذا الاكتساب يستلزم (تنمية ثقافة الرحمة) في المجتمع، من خلال الأفعال والأقوال، ثقافة يتشربها الصغار والكبار، ويتنفسونها، من خلال ممارساتنا الرحيمة، وطرائق تعاملاتنا، نحن، مع بعضنا، ومع الآخرين، ومع أولادنا .. إلخ، وإنكارنا على كل سلوك قاس، أو غليظ، أو وحشي، وتشجيعنا لكل سلوك رحيم، وأن نتخلص من عوامل

وأسباب القسوة، ورواسبها الثقافية والشعورية، في القلب والوعي والشعور، كما بينا ذلك في الفصل الرابع.

هـ ـ وهذا الفصل، والذي قبله، متكاملان، ويمثلان وحدة واحدة، ولكنها غير مكتملة، فلها ثلث باق في فصلين قادمين؛ هما: فصل: تربية آنية الله في الأرض؛ القلوب المؤمنة اللينة، الصلبة الإيمان، الصافية اليقين، وفصل: تربية القلوب التي تحن إلى رسول الله، محمد ﷺ وهما الفصلان التاليان، مباشرة، وعلى التوالي، بعون الله. والحمد لله .

حادي عشر: أسئلة وأنشطة تربوية لتعميق الفهم وتحسين الممارسة:

١ ـ قم بعمل مصفوفة لقيم الرحمة، وتحت كل قيمة: حدد صورها السلوكية، واحسب مجموع القيم والصور السلوكية للرحمة، ثم تفكر، وتأمل في كل منها، وتذوقها، واستشعر آثارها؛ إذا تم تطبيقها.

٢ ـ استخدم المصفوفة السابقة في عمل (جدول تقويم ذاتي)، ومراجعة، ومحاسبة، ذي أربعة أنهر؛ أو خانات، واكتب في النهر الأول: القيم، وصورها السلوكية، مع تعريف محدد لكل قيمة، ولكل صورة، وفي النهر الثاني: أدرك المعنى؛ وأفهمه؛ نعم، لا، وفي النهر الثالث: أشعر بالقيمة وأريدها وأشتهيها؛ نعم، لا، وفي النهر الرابع: أمارس القيمة؛ نعم، لا، أحيانا. ثم احسب القيم الفرعية التي تطبقها فعلا، وخذ قرارك العلمي، والنفسي والسلوكي.

٣ ـ قم بإعداد قائمة بصور السلوك القاسي المضاد لكل فرع من قيم الرحمة، من خلال ملاحظاتك لسلوكك الشخصي، ولأبناء الشارع الذي تسكن فيه، وقائمة أخرى بصور الرحمة، في كل بعد من أبعادها، كما تلاحظها، في واقعك، وواقع من حولك، ثم قارن، وبين دورك في التغيير.

٤ ـ ما مفهوم الرحمة؟ وما أبعادها؟

٥ ـ قدم أربعة براهين على أن الرحمة خلق إسلامي ملزم، وضروري في واقعنا الاجتماعي والبيئي.

٦ ـ استخرج جميع الأحاديث النبوية الصحيحة في هذا الفصل، وحاول حفظها، وصنفها إلى: أحاديث قصصية، وأحاديث قولية تقريرية، وأحاديث فعلية، عن وقائع وممارسات، واحسب كل صور التطبيق المذكورة فيها، وأضف إليها صورا ممكنة، من عندك، للرحمة.

٧ ـ تأمل، وانتبه: يقول النبي ﷺ في فئة من الناس؛ عن عبد الله بن عمرو ابن العاص؛ قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيخرج أناس من أمتي، من قِبَل المشرق، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج منهم قرن** (جيل)؛ **قطع، كلما خرج منهم قرن؛ قطع، حتى عدها زيادة على عشرة** (كذا) **مرات؛ كلما خرج منهم قرن؛ قطع، حتى يخرج الدجال في بقيتهم**»(٣٢٨). رواه أحمد، وفي لفظ له: «**يخرج قوم من قِبَل المشرق، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما قُطِع قرن؛ نشأ قرن، حتى يخرج في بقيتهم الدجال**»(٣٢٩). وأخرج ابن ماجه، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**ينشأ نشء، يقرؤون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرن؛ قطع**»، قال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلما خرج قرن؛ قطع، حتى يخرج في عراضهم الدجال**»(٣٣٠). وأخرج ابن ماجه، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن بعدي، من أمتي، أو سيكون بعدي، من أمتي، قوما؛ يقرؤون القرآن، لا يجاوز حلوقهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ثم لا يعودون فيه،**

---

(٣٢٨) إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٨٧١، ص ٣٤٨، ٣٤٩.

(٣٢٩) إسناده صحيح، المسند، ج ٦، رقم ٦٩٥٢، ص ٤١٣، ٤١٤.

(٣٣٠) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١٤٤، ص ٧٥، ٧٦، وقال البوصيري: هذا إسناد صحيح، احتج البخاري بجميع رواته، انظر: الشهاب أحمد بن أبي بكر البوصيري: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج ١، رقم ٦٧، ص ٨٤.

هم شرار الخلق والخليقة»[(٣٣١)].

في ضوء قيم الرحمة، وفي ضوء ما درسناه عن هذه الفئة، في هذا الفصل، حدد السلوكيات المميزة لها، وبين علتها الحقيقية المذكورة في هذه النصوص.

هل توجد فيك؟ هل تعض في مسلم نطق الشهادتين، وأقر بالإسلام وصار له حكم المسلمين؟

ينص الحديث على لأن لهؤلاء وجودًا مستمرًا، وليسوا فئة تاريخية انتهت، فهل ترى لهم وجودا فيمن تعرفه؟ وما صور السلوك التي تميز هؤلاء؟ وما نوع التدين الذي يمارسونه؟ هل هو تدين سليم صحيح، صالح، رحيم، مؤسس على قلب واع، حساس رقيق؟ هل هو تدين ناقص؟ هل هو تدين مغشوش؛ براني، شكلاني يقف عند حدود المظهر المبهر، والكلمات الكبيرة التي لا تجاوز الحلق والحنجرة، ولا ترسخ في القلب؛ فتصوغ المشاعر؟ حدد موقعك، أنت، على هذا المتصل التديني، وخذ قرارك الفوري.

٨ ـ كُلفت بتخطيط (دورة تربوية)، لمدة يوم، أو ليلة، من صلاة المغرب حتى شروق شمس اليوم التالي، موضوعها: تربية قيم الرحمة في القلب والسلوك؛ حدد: الأهداف التربوية لهذه الدورة، والأنشطة المعرفية؛ (دروس، خواطر، مناقشات، وحوارات، تفكرات، مشاهدة لسي دي، بالصورة والصوت والحركة، عن الرحمة)، وحدد: الأنشطة والممارسات العملية؛ (صلوات خاشعة بآيات الرحمة، قراءة وتأمل لأحاديث الرحمة، أدعية بالرحمة، لحظات محاسبة عميقة للذات)، وحدد الأنشطة البَعدية؛ (تقويم بَعدي لآثار الدورة في القلب، تعهد بممارسة صور الرحمة كلها، لمدة أسبوع متواصل؛ لتدعيم الأهداف التربوية للدورة)، وحدد إجراءات تنفيذ الدورة؛ (إعلام الأشخاص المختارين، تحديد المحاضرين، وإعلامهم، تحديد وقت، ومكان

---

(٣٣١) صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج ١، رقم ١٤٠، ص ٧٤ .

الدورة،.. إلخ).

٩ ـ بين أثر دراسة قيم الرحمة، في هذا الفصل، في تغيير تصورنا عن طبيعة التربية الإسلامية في الأسرة؛ (التربية الوالدية) والكُتاب، والحضانة، والمدرسة، والمسجد، والفضائيات، وفعاليات الحركة الإسلامية؛ التربوية. وبين أثرها في تطوير حياتنا الأسرية العائلية، للأدفأ، والأعمق، والأرحم. وبين أثرها في تنمية سلوكنا البيئي الصحيح نحو كائنات الله وزنابقه في الطبيعة.

١٠ ـ هل يعني مفهوم البراء من المشركين الغلظة والقسوة على مواطنينا من غير المسلمين؟ وعلى إخواننا من المسلمين المقصرين؟ فصِّل إجابتك، وبرهن عليها بالدليل.

١١ ـ قم بإعداد خطة لندوة عن الرحمة، في مدرسة ثانوية، وأخرى في الجامعة.

١٢ ـ قم بإعداد ثلاثة دروس؛ كتابيا، في ضوء هذا الفصل، عن قيم الرحمة، تلقيها في مسجد، ودرس واحد لتلاميذ المرحلة الابتدائية، ولمدرسة إعدادية، ومحاضرة لطلاب كليات التربية، وسلسلة محاضرات للوالدين؛ ضمن دورة للتربية الوالدية.

١٣ ـ كم مرجعا استخدمه المؤلف في هذا الفصل ؟ هل ترى أن المؤلف أطال في هذا الفصل، بلا داع؟ أم أن الموضوع يستحق ذلك؟

١٤ ـ كم قصة أوردها المؤلف في هذا الفصل ؟ هل يمكنك عقد اجتماع أسري، مع زوجك، وأولادك، لتحكي لهم بعض هذه القصص الواقعية ؟ لم لا تنفذ ذلك ؟

١٥ ـ في ضوء هذا الفصل: حدد طبيعة الإسلام، وطبيعة المسلم، وما

موقفك الحقيقي من هذه الطبيعة ؟

١٦ ـ تذوق الواقعة الآتية: ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص؛ لما أراد التوجه إلى الإسكندرية؛ لقتال من بها من الروم، أمر بنزع فسطاطه (= خيمة القيادة)، فإذا فيه يمام قد فرَّخ، فقال عمرو بن العاص: لقد تحرم منا بِمُتَحَرَّم، فأمر به؛ فأقِر كما هو، وأوصى به صاحبَ القصر..[٣٣٢]. بين دلالة هذه الواقعة، ما أثرها في بناء مدينة الفسطاط؟ هل الرحمة، فعلا، تعمير في العالم؟ لماذا؟ هل قرأتَ مقالة مصطفى صادق الرافعي، عن هذه الواقعة، في كتابه: وحي القلم؟ ما رأيك؟

١٧ ـ استخرج من هذا الفصل:

ـ قيما للتربية المدنية؛ للتعامل مع غير المسلمين، في مجتمعك.

ـ قيما للتربية الأسرية، لتعامل الزوجين مع بعضهما، وتعامل الوالدين مع الأولاد، وتعامل الأولاد مع والديهم، والتعامل مع البنات، ومع الأقارب، وقيما للتربية الوالدية.

ـ قيما للتربية البيئية؛ للتعامل مع كائنات البيئة.

ـ قيما للتربية الاجتماعية؛ للتعامل مع المسلمين، والناس، في المجتمع.

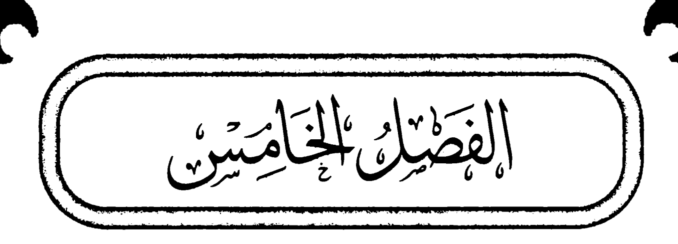
ـ قيما تربوية؛ للتعامل مع التلاميذ.

ثم: قم؛ إن كنت مدرسًا، بفحص محتوى المقرر الذي تدرسه، أو النشاط التربوي الذي تمارسه، وقومه؛ في ضوء القيم التي استخرجتها، واحكم على المقرر، وانقده. وقوّم مقترحاتك العلمية والعملية. ثم: قم بنقد أهداف وأساليب التربية الوالدية والمدرسية، في ضوء قيم هذا الفصل.

والحمد لله رب العالمين

---

(٣٣٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ط ١، سلسلة صفحات من تاريخ مصر، رقم (١٠)، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، ص ٦١



قلوب الصالحين
تربية القلوب اللينة الرقيقة
الصافية اليقين الصلبة الإيمان

آنية الله في أهل الأرض
قلوب الصالحين
تربية القلوب اللينة الرقيقة الصافية اليقين الصلبة الإيمان

أولا : نص الحديث النبوي:

أ -أَخْرَجَ الطبراني عن أبي عُتْبَةَ الخَوْلاَني أن النبي ﷺ قال: «**إن لله تعالى آنيةً مِن أَهْلِ الأرضِ، وآنِيَةُ رَبِّكُمْ قُلُوبُ عِبَادِهِ الصالحين ؛ وأحَبُّها إِليه أَلْيَنُها وأَرَقُّهَا**»(١).

ب- وأخرج الإمام أحمد في الزهد؛ قال : حدثنا عبد الله بن الحارث، حدثني ثور بن يزيد؛ عن خالد بن معدان قال: «**إن لله تبارك وتعالى في الأرض آنية، وأحب آنية الله إليه: ما رق منها وصفا. وآنيةُ الله في الأرض قلوب عباده الصالحين**»(٢).

جـ- أورد الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ :«**إن لله تعالى في الأرض أَوَاني، أَلَا وهي القلوب، فأحبها إلى الله: أرقها وأصفاها وأصلبها. أرقها لِلإِخْوَانِ، وأصفاها من الذنوب، وأصلبها في ذات الله. فمن كان له قلب صالح تحنن اللهُ عليه**»(٣).

---

(١) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، وزيادته: الفتح الكبير، ج١، ط ٣، رقم ٢١٦٣، ص٤٣٢. وفيه: «.. وأَحَبُّها: أَلينها وأرقها» عن أبي عنبة، وأَوْرَدَهُ في الصحيحة برقم ١٦٩١، وقال العراقي في تخريج الإحياء: «أخرجه الطبراني من حديث أبى عتبة الخولاني (...) وإسناده جيد» انظر: إحياء علوم الدين، ج٢، ط الشعب، ص ٩٥٦، وأورده العراقي ثانية، وقال: «فيه بقية بن الوليد، وهو مدلس، لكنه صرح فيه بالتحديث» نفس المصدر، ص ١٣٦٣ هامش رقم ٣، وص ١٣٦٤، هامش رقم (١) .

(٢) إسناده صحيح متصل إلى خالد بن معدان: عبد الله بن الحارث: ثقة، وثور حافظ ثبت في الحديث، لكنه قدري، وهذا لا يضر السند، وخالد فقيه كبير، ثبت، مهيب، مخلص، يرسل عن الكبار، انظر: الإمام أحمد: كتاب الزهد، ص ٣٦١، وقال في النسخة المحققة: صحيح إلى خالد بن معدان، كتاب الزهد، ط دار ابن رجب، رقم ٢٣٠٧، ص ٦٣٧.

(٣) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج٢، ص ٥٢٩ (النسخة التي أرجع إليها نُسْخَةٌ منزوعة السند) .

وأورد الحكيم الترمذي في الفروق: «**إن لله أواني في الأرض... إلخ**» بدون الجملة الأخيرة، وزاد: «**طُوبَى لِمنَ رُزِقَهُ**»[٤]. أي: رَزَقَهُ اللهُ الإيمانَ الصّلبَ .

د- وقال علي ﷺ : «إن لله تعالى في أرضه آنية؛ وهى القلوب فأحبها إليه تعالى: أرقها، وأصفاها، وأصلبها؛ ثم فسره فقال : أصلبها في الدين، وأصفاها في اليقين، وأرقها على الإخوان»[٥].

ثانيا : تمهيد :

يؤكد هذا الحديث بإسناده الحسن المرفوع، والصحيح الموقوف، أن القلب المؤمن الذى اتصف بمقومات الإيمان، له منزلة كبيرة عند الله؛ إذا تَخَلَّقَ بمنظومة قيم هي: الرقة واللين، والصفاء، والصلاح والعبادة لله، وهذه القيم -إذن - هي (غايات) تربوية تَسْتَلْزِمُ عمليات تربوية لاكتسابها، والتخلق بها، حتى تكون هذه القلوب أَهْلًا لِعَطَاءِ الله وفيضه ورحمته، وأنواره، فمن أهداف تربية القلب أن يكون رقيقًا لينًا، صافيًا، من الذنوب، وصافيا في اليقين، صالحا، عابدًا لله وحده، فإذا كان كذلك؛ كان من أحب القلوب إلى الله.

وأتناول هذا الحديث في النقاط الآتية: مفهوم آنية الله، وشروط حب الله لها، ثم أفصل القيم المتَضَمَّنة في هذا الحديث، وأبين في كلِ قيمة كيف نُربّيها.

ثالثا: مفهوم آنية الله وشروط حب الله لها:

أ- الآنية:

جمع إناء، والأواني: جمع الآنية، والإناء هو ما يوضع فيه الشيء[٦]، ولله - سبحانه- آنية في أرضه، أو في أهل الأرض، يضع فيها ما يحب من معرفة وعلم، وحكمة، ونور، ورحمة، وعطاء، واللامُ في قوله: لله؛ هي للاختصاص، فهي آنية مخصوصة وخاصة لله، فهي له وحده، دون غيره، وقد أكد هذا

---

(٤) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ١٠٤.

(٥) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ١٣٥٥.

(٦) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٢٩.

الاختصاص بحرف التوكيد (إنّ)، ولذلك أضافها إليه في قوله: «وآنية ربكم...» في الحديث المرفوع، وفي الموقوف على خالد بن معدان: «آنية الله» فهي آنية ربكم؛ الخالق، السيد، المربي، الرازق، المالك، الآمر المطاع، المشرِع، الوهاب، المصلح لكم، وهو الله، فهي آنية الله الحَنَّانِ، المنان، لا آنية الشيطان، التي يخطر فيها، ويلقي وساوسه وخواطره، وإلقاءاته، آنية الله، لا آنية القوى الاستحمارية ولا آنية الطواغيت، ولا آنية أجهزة الاستحمار المظلمة للوعي، والمزيفة للإدراك، التي تصب عبر بَرَامِجِها ومناهجها في التربية والاتصال والتثقيف، والفنون، أَشْكَالًا مِنَ المعرفة الزائفة، ليست هي آنية ذلك، بل هي، لأنها آمنت، وتحررت من هيمنة هذه القوى، أصبحت آنية الله، خاصة بالله، منورة، مشرقة، واعية، عارفة، حكيمة، غنية، آنية داعية، شاعرة، مكافحة ضد كل إرادة لتزييفِها، مجاهدة ضد من يريد مَلْأَها بما هو ضد الحق، والصواب، والخير، فاستنقذت نفسها من الاستعباد لغير الله، وتحررت، فَصَارت خالصة: لله، منسوبة إليه، فيحق لها الفرح والاعتزاز بذلك النَّسَب، وتلك الإضافة، وسيأتي مزيد بيان عن مَفْهُومِ الوعاء، في فقرة آنية مهمة عِنْدَ حديثنا عن محور يقين الدعاء.

ب- شروط اكتساب هذه القلوب لمحبة الله:

هذه الآنية هي قلوب عباده الصالحين؛ فَقَلْبُ الإنسانِ يَصيرُ إناء؛ وعاء؛ مَحَلًا لعطاء الله؛ للعلم الصحيح، وزيادة الخير، والهُدَى، والرحمة، والمعرفة، وشهود معاني أسمائه وصفاته، الحسنى، ومعاني كلامه، ونية الخير، وعزيمة الرشد، ولذة الأنس به، والشوق إلى لقائه، والرضا به، وذوق حلاوة الإيمان به، وانفساح وانشراح الصدر لهدايته.. ومحبة نبيه، ودينه- إذا اتصف- أولا- بصفتين رئيستين:

الأولى: عبادة الله وحده، والعبودية له، فيذل له، ويخضع له، ويخدمه،

ويطيعه، بكمال حب، ورضا، ويتوجه لله وحده بكل نية، وقول وعمل، فلا يتخذ غير الله ربا، ولا وليًا، ولا يبتغي غير الله حكمًا، وسيأتي بيان ذلك مفصلا في فصل (تجديد الإيمان وتربية في القلب).

الثانية: الصلاح: أي: أن يكون فاعلًا للخير، والنفع، متخلصًا من الشر، والإثم وحب الفساد، والخلل فلا يبغي الفَسَادَ في الأرض، ولا يفعل الضر، ولا يَسْعَى في الأرض بالفساد، فقلبه صالح، وكلامه صالح، وفعله صالح، وعواطفه ومشاعره صالحة، وعلاقاته صالحة، يطيع الله، في ذلك كله، فصلح لأن يكون عبدًا الله وحده، صالحًا لشهود معاني أسماء الله الحسنى، صالحًا لعبادته، لأنه يريد الله، فأراده الله، ورضي عن الله ربًّا، فرضيه الله له عبدًا صالحًا، تَأَسَّى بالصالحين، وهم أنبياء الله، وأولياؤه، الذين آمنوا به، وعملوا الصالحات، والخيرات، فعبدوا لله، وعَمَّرُوا في الأرض، وأَحْسَنُوا إلى عباد الله، ومخلوقاته.

فإذا كان القلب كذلك؛ أصبح محلا لكرامة الله، أصبح إناء من آنية الله، في أهل الأرض، يضع الله فيه رحمته، ويوقد فيه مصباحه، وينوره بأنوار من عنده، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠] (وللإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة والمجاهدة: نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده) وهم عباده الصالحون الذين آمنوا به، صِدْقًا، وعبدوه على شرط الصحة والإخلاص وجاهدوا فيه، فالله يهديهم، ويربي الإيمان والخير في قلوبهم.

جـ- قيم القلب المحبوب لله:

هذه القلوب العابدة الصالحة يحبها الله، لكنه يحب بعضها أَكْثَر من بعض، والقلوب التي يحبها الله أكثر هي التي تَرَبَّتْ، فاتصفت وتخلقت بثلاث قيم أساسية أخرى؛ وهي: أن تكون رقيقة لينة، وأن تكون صلبة في الحق، في ذات الله، في الدين، في الإيمان، فلا تساوم، ولا تبيع دينها، وأن تكون صافية في اليقين، وصافية مِنَ الذنوب؛ إرادة وفِعْلا.

وكل واحدة من هذه القيم تحدد، وتُعَيّنُ هدفا تربويًا عامًا أساسيًا للقلب، وأتناول كلا منها، في فقرة، تحدد مضمونها، وتشير إلى إمكانات وأساليب تربيتها.

رابعًا: قيم القلوب الأكثر محبوبية لله:

١-أن تكون رقيقة لينة:

جاء في الحديث: «**وأحبها إليه: أَلْيَنُها وأرقها**» وفي الموقوف على خالد: «وأحب آنية الله إليه: ما رَقَّ منها، وصفا».

وفي موقوف علي: «فأحبها إليه تعالى: أرقها (...) ثم فسره (...) وأرقها على الإخوان» وهذا ترغيب قوي في رقة القلب ولينه، فلا تكون قاسية وَلاَ غليظة، ولا جامدة، ولا خَشِنة، ولا جافية، ولا جِلْفَةً، ولا فظةً، فَيرِقُّ لله، وتلين لكلامه، وترق وتلين لمحمد رسول الله، وحديثه، وسنته، وترق وتلين لإخوانه المسلمين، وترق لكل ذي قربى، ومسلم، وترق وتلين لكل ذي مصيبة ومجروح في الأرض، وترِقُّ للبهائم، والطيور، والحشرات، ولمخلوقات الله، التي تشكل البيئة الطبيعية التي نحْيا فيها، إذا أُصِيبَتْ بشيء، فقلب المؤمن الصالح العابد لله، الذي يحبه الله أكثر من غيره، هو القلب الرقيق اللين، لكل هؤلاء، فينصبغ كلامه، وسلوكه، وتعاملاته، مع كل هؤلاء بالرقة واللين، والذوق، وجمال المشاعر.

وأبين هذه القيمة فيما يلي:

أ-مفهوم رقة القلب ولينه؛ وبعض نماذجها الحية:

١- الرِقَّة هي شفافية القلب، والشعور، والعاطفة، وسرعة التأثر القلبي بما يقرأ، ويسمع، ويرى، ويحس، ويذوق، فهي ذوق جمالي وشعوري، قد يؤدي إلى سرعة التأثر حتى البكاء، ونزول الدموع.

يقول ابن منظور: «الرقيق: نقيض الغليظ والثخين، والرقة: ضد الغِلَظ(...) وَرَق جِلْدُ العِنَب: لَطُفَ، وأَرَقَّ العِنَبُ: رق جلْدُه وكَثُر ماؤه (...) وعيش رقيق الحواشي: ناعم، (...) والمراد بالرقة: ضد القسوة والشدة (...) والرَّقَّةُ: كل أرضٍ إلى جَنْبِ وادٍ، ينبط عليها الماء، أيام المَدِّ، ثم ينحسر عنها الماءُ فتكون مكرمة للنبات (...) ورقرقتُ الثوبَ بالطيب؛ أجريتُه فيه (...) وكل شيء له بَصِيص وتلألؤ: فهو رَقْرَاقٌ (...) وترقرق: جرى جريا سَهْلا (...) وجارية رَقراقة، كأن الماء يجري في وجهها (...) وترقرقت عَيْنُهُ: دمعت(...) وترقيق الكلام: تحسينه(...) وتَرَقَّقْتُ له: إذا رق له قلبُك»(٧).

فمفهوم الرقة - إذن، هو لطافة القلب، والشعور، ونعومته، وكثرة عاطفته، والسهولة والانبساط، والاستواء النفسي، ونداوة القلب، وتأثره، وجمال الإحساس، وثراء الشعور.

ويضيف الراغب: «فمتى كانت الرقة في جسم: تضادها الصَّفَاقَةُ (...) ومتى كانت في نفس تضادها الجَفْوَةُ والقسوة (...) والرقراقة: الصافية اللون»(٨).

فالرقة : هي اللين والصفاء النفسي: وسرعة التأثر، وغزارة الشعور، وعمق الإحساس بالجميل والقبيح، والخير والشر، وعدم الجمود العاطفي، ويبوسة الإحساس، وصلابته، والتحرر من أمية المشاعر.

٢- وفي تحليل الحكيم الترمذي لهذا المفهوم؛ يقول(٩): «فالرقة لفؤاد طَهُرَ من الذنوب، وصفا مِنَ الأخلاق الدنية، (...) فإنما يلين القلبُ بالرحمة، ويرق الفؤاد بالرأفة، فإذا تراكمت سحائب الشهوات ورَيْنُ الذنوبِ على قلب

---

(٧) ابن منظور: لسان العرب، ج ٢، دار المعارف، ص ١٧٠٦ - ١٧٠٨.
(٨) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٢٠٠.
(٩) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، مصدر سابق، ص ١٥٥ - ١٥٧.

العَبْدِ؛ فإنما يتراكم على هذا الفؤاد، فَيَغْلُظُ ويشتد، فإذا تاب، ورفض هذه الشهوات؛ انقشعت هذه السَّحائِبُ، وصُقِلَ القلب (...) عاد القلب إلى اللين، والفؤاد إلى الرقة، قال الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[آل عمران : ١٥٩]؛ فإنما يغلظ القلب ويقسو مِنْ بُعدِ الرحمة، ويَرْطُبُ ويلين من حلول الرحمة به (...) وإنما رَقَّ القَلْبُ؛ للنور الذي عمل فيه وأحرق كثافته وغِلَظَهُ حتى صارت (...) رقيقة صافية نيرة، فنفذ بصره في كل شيء من أمورِهِ، فما كان من تلكِ الأمور بموضع الرحمة: رحم أهلها، ورَقَّ لهم، وبكى، فهو شبيه بالجَزَع، وليس بِجَزَعٍ، ولكنه رِقَّةٌ؛ لأن ذلك الأمر محل الرحمة من الله، فأبصر الرحمة بنوره، ورق فؤاده؛ فلم يَحُلْ بينه وبين البصر، فرحم وبكى، وعَمِل عَمَلَ أَهْلِ الرحمة. ولو تراكم على فؤاده ظلمةُ الشهوة لغلظ الفؤاد.. ولَحُمَ، وسَمُنَ، فكان فظا غليظ القلب (...) والفظاظة هي الخشونة؛ تصير كالمِنشارِ؛ لها أَضْراسٌ، وحِدَّةٌ، فإذا عملت بأضراسها على شيء؛ قطعته» ويضيف الترمذي[١٠]: «والرقة: لعبد ذكر ذنوبه، فذكر العقوبة، فرق فؤاده؛ لما ورد على النفس من ذكر خوف العقوبة(...) فتلك المخافة عملت على الفؤاد حَتّى رق الفؤاد، وذَابَ غِلظُهُ، فإن بكى؛ فذلك بكاء رقة» .

ويقول عن اللين: «فاللين: لعَبْدٍ ساكن النفس، مستوي الطبع، سهل الخُلُق، سَمْح الغَريزَةِ، عطوف القلب، واسع الصدر، رقيق الفؤاد»[١١].

ويقول: «فالشديد يُشَدّد على نفسه في الأحوالِ، ويُعَسّر، ويضيق، وكذلك على الخَلْقِ؛ فهو مِنْ نفسِه في تعب، والخلق منه في أذى .

---

(١٠) المصدر السابق، ص ١٩٧.

(١١) المصدر السابق، ص ٣٢٣.

«واللّيِّنُ: لانَ قَلْبُه، ورَطُبَ بماء الرحمة، وانتشف ماءُ الرحمة يُبُوسَـةَ نَفْسِه، وأَذْهَبَ حزازتها وكزازتها، وأذهب قسوة قلبه»(١٢).

٣- وتعطينا السيدة عائشة، رضي الله عنها، وَصْفًا لأبيها الصّديق ﷺ، فتخصه بهذه القيمة، وتصفه بهذا الخلق، أخرج الإمام أحمد عن عائشة- من حديث طويل: «قالت عائشة: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، لا يملك دَمْعَهُ، وإنه إذا قرأ القرآن؛ بَكَى»(١٣). ورواه مسلم عنها، وفيه: «فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق؛ إذا قرأ القرآن لا يملك دَمْعَهُ..»(١٤). وفي رواية لمسلم عن عائشة: «وكان رجلًا رقيقًا..»(١٥).

يقول المازري: «أي: رقيق القلب، كثير الخشية، سريع الدمعة (...) وهو بمعنى قوله: «رجل أَسِيف» (...) يعني: سريع الحزن والبكاء»(١٦).

فَرِقَّةُ الْقَلْبِ، كما يُجسدُها الصديق أبو بكر ﷺ، هي امتلاء القلب بخشية الله، وسرعة التأثر الشعوري، واستجابة النفس لما تقرأ، أو تَسْمع، أو ترى، فيحزن، أَوْ يبكي تأثرا.

٤- وقد أثنى النبي ﷺ كثيرًا على أهل اليمن الذين جاء وفدهم إليه، ووصفهم بهاتين القيمتين (رقة القلب، واللين) ومَدْحُ النبِّي لهم هو تربية لهم ولباقي المسلمين، إنه أولًا يشجعهم على التمسك بهاتين الصفتين المحدودتين، وثانيًا: يوجه انتباه المسلمين إلى النموذج القدوة؛ ليتأثروا به ويلتزموه.

وقد ذكرنا بعض هذه الأحاديث في فصل سابق، ونُعِيدُ هنا هذه الأحاديث لنتأملها في سياق مخصوص بأهمية رقة القلب ولينه.

---

(١٢) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج ٢، مصدر سابق، ص ٥٦٤.
(١٣) إسناده صحيح، المسند، ج ١٧، رقم ٢٣٩٤٣، ص ٢٢٠.
(١٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٢، رقم ٤١٨، ص ٣٢٥.
(١٥، ١٦) المصدر السابق، ص ٣٢٠.

أخرج البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: «**أتاكم أهلُ اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا. الإيمان يمانٍ، والحكمة يمانية. والفخر والـخُيَلاءُ في أصحاب الإبل، والسكينة والوقارُ في أهلِ الغنم**» وفي رواية للبخاري عنه: «**قال: أتاكم أهلُ اليمن: أضعف قلوبًا، وأرق أفئدة، الفقه يمان، والحكمة يمانية**» .

وأخرجه مسلم عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**جاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وأضعف قلوبًا...**» الحديث، وأخرجه عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبًا، وأرق أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية**»[١٧].

وأخرج أحمد عن أنس؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**يَقْدُمُ عليكم أَقْوَامٌ، هم أرق منكم قلوبًا**» قال: فقدم الأشعريون، فيهم أبو موسى الأشعري، فَلَمَّا دَنَوْا من المدينة كانوا يرتجزون، **يقولون: غدا نلقى الأحبة محمدًا وحِزْبَه**[١٨].

وأخرجه أحمد عن أنس، وفيه: «**يقدم عليكم، غدًا، أقوام، هم أرق قلوبًا للإسلام منكم**» وساق الحديث قريبًا من السابق، وزاد: «فلما أن قَدِمُوا؛ تصافحوا، فكانوا هم أول مَنْ أحدث المصافحة»[١٩].

وأخرجه عن أنس بلفظ «يقدم عليكم أقوام أرق منكم أفئدة» وفي رواية له«وهم أرق قلوبا منكم وهم أول من جاء بالمصافحة»[٢٠].

وأخرجه أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أتاكم أَهْلُ اليمن؛**

---

(١٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٨، رقم ٤٣٨٨، ورقم ٤٣٩٠، ص ٩٨- ٩٩. إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، رقم ٨٢، ٨٤، ٨٩، ص ٢٩٨، ٣٠١، ورقم ٩٠، ص ٣٠٢.

(١٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٩٦٥، ص ٣٣٦.

(١٩) إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١٢٥٢٠، ص ٥٠٢- ٥٠٣.

(٢٠) إسناد كل منهما: صحيح، المسند، ج ١١، رقم ١٢٨٠٧، ص ٢٨، ورقم ١٣١٤٥، ص ١١٧.

هم أرق أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفقه يمان»(٢١).

وأخرج الطبراني عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أهل اليمن؛ هم أرق أفئدة، الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفقه يمان**»(٢٢). وفي صحيح الجامع بلفظ: «**أرق قلوبًا، وألين أفئدة...**».

وأخرج الطبراني عن ابن عباس من حديث: «...**وَجاء أهل اليمن**».

فقال رجل: يا رسول الله، وما أهل اليمن؟ قال: «**قوم رقيقة قلوبهم، لينة قلوبهم، الإيمان يمان، والفقه يمان**»(٢٣).

وفي سنن الدارمي عن ابن عباس: وقال رسول الله ﷺ: «.. **وجاء أهل اليمن، هم أرق أفئدة..**»(٢٤).

فأهل اليمن، الذين وفدوا على رسول الله، وأثنى عليهم، واهتم بهم، وبشر بهم صحابته، كانوا يتصفون بهذه القيم: رقة القلب، ولين القلب، فهم أرق وألين قلوبًا من غيرهم، للإسلام، وأنجع طاعة، وأكثر استجابة لأمر الله، لأنها قلوب فيها : الإيمان، وفيها الفقه، والحكمة، فلذلك هم أَسْرَعُ طاعة لله ولرسوله، وهم رقيقو المشاعر، يتأثرون بسرعة، وهم حميمو العلاقة والصداقة والمودة، حتى أنهم لما اقتربوا من المدينة ثار شوقهم، وتلهفهم لرؤية ولقاء رسول الله وحزبه المؤمنين، فارتجزوا شعرًا، يعبر عن محبة قلوبهم، ورقتها،

---

(٢١) إسناده صحيح، المسند، ج ٧ (تحقيق أحمد شاكر)، رقم ٧٢٠١، ص ٥٠، وانظر المسند، ج ٧، أرقام ٧٤٢٦، ٧٦١٦، ٧٧٠٩، وانظر الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج ١، رقم ٥٣، ورقم ٥٤، ص ٧١.

(٢٢) قال في مجمع الزوائد: «وإسناده حسن» (١٠/ ٣١ رقم ١٦٦٢٥ بلفظ (أرق وأنجع طاعة.. إلخ)، انظر. الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٧، حققه حمدي عبد المجيد السلفي، دار إحياء التراث العربي، رقم ٨٢٣، ص ٢٩٨، وانظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد١، رقم ٢٥٣٠، ص ٤٩٦، وقال: حسن.

(٢٣) الطبراني: المعجم الكبير، ج ١١، رقم ١١٩٠٣، ص ٢٦٠.

(٢٤) الدارمي: سنن الدارمي، رقم ٧٩، ص٣٨.

ولينها لرسول الله، وأصحابه، ولما التقوا بهم، تصافحوا معهم، وللمصافحة دلالة اجتماعية وعاطفية، فقلوبهم الرقيقة اللينة انعكست في موقف اجتماعي أَخَوِي حميم.

وقد فَسَّرَ الأئمة مفهوم هذه القيم؛ يقول عياض: «ومعنى: أرق أفئدة، وقلوبًا، وألين، وأضعف»: متقارب، وكلها راجع إلى ضِدّ القسوة والغِلَظِ، وذلك أن مَن رق قلبه ولان؛ قَبِل المواعظ، وخضع (...) وسارع إلى الخير، وصفى للإيمان والفقه والحكمة. بخلاف مَنْ قَسا قلبه، وغَلُظ، وكَثُفَتْ حُجُبُ الكبر والفخر والعُجب عليه.

«وقد يكون ذكر القلوب والأفئدة- هاهنا- بمعنى واحد (...) وقد يكون بينهما فرق (...) فوصف القلب باللين والضعف، والفؤاد بالرقة؛ أي: أن قلوبهم أسرع انعطافًا وتقبلًا للإيمان مِن غيرها، إذ أفئدتها أرق وأصفى لقبول الإيمان والحكمة، وأقل حُجُبا وأغْشِيةً مِنْ غيرها، وقد تكون الإشارة بلين القلوب إلى خفض الجناح، ولين الجانب، والانقياد، والاستسلام لله، وترك الغلو، وهذه صفة الظاهر، والإشارة برقة الأفئدة إلى الشفقة على الخلق، والعطف عليهم، والنصح لهم، وهذه صفة الباطن، وكأنه أشار إلى أنهم أحسن أخلاقًا: ظاهرًا وباطنًا .

«وقد تكون الإشارة بلين القلوب ورقة الأفئدة إلى كثرة الخوف والانزعاج للمواعظ والأذكار»[٢٥].

أقول: في روايات الحديث التي ذكرتها -هنا- وصف أفئدتهم بأنها (أرق) ست مرات، وبأنها (ألين) مرتين، وهذا يدل على أن الفؤاد يرق، ويلين، ويوصف بالرقة واللين، ولذلك قال في حديث عقبة بن عامر عند الطبراني: **«أرق وألين أفئدة»**.

---

(٢٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، ص ٣٠١- ٣٠٢.

ووصف قلوبهم بأنها (ألين) مرتين، وبأنها (أضعف) مرتين، وبأنها (أرق) أربع مرات، فدل هذا على أن القلب يوصف باللين والرقة، ولذلك جاء في حديث ابن عباس: «**رقيقة قلوبُهم، لينة قلوبهم**»، فاللين والرقة، إذن، وصفان وخلقان لكيان واحد، يعبر عنه مرة بالقلب، ومرة بالفؤاد، فَقَوْلُ عياض: «وقد يكون ذكر القلوب وأفئدة - هاهنا - بمعنى واحد» هو القول الأصح، والأوصاف التي ذكرها هي للقلب، حين يتعلق فعله بالجوانية والباطن، والسريرة، وهي للقلب حين يتعلق فعله بالظاهر، والعلانية، والفعل الاجتماعي.

ولنرجع لأقوال الأئمة في تحليل المفهوم، يقول أبو عمرو بن الصلاح: «المشهور: أن الفؤاد هو القلب، فعلى هذا يكون كرر لفظ القلب بلفظين، وهو أَوْلَى من تكريره بلفظ واحد (...) وأما وصفها باللين والرقة والضعف؛ فمعناه: أنها ذات خشية واستكانة، سريعة الاستجابة والتأثر بقوارع التذكير، سالمة من الغلظ والشدة والقسوة»[٢٦].

فالقلب؛ إذا رق ولان؛ نفذ القول إلى عمقه؛ يقول الخطابي: «وإذا كان القلب لينا عَلِقَ كل ما يصادفه»[٢٧].

٥- هذه هي قيمة رقة القلب ولينه، فإذا تحقق القلبُ بها، وتخلق بأبعادها المذكورة في التحليل السابق، كان أكثر محبوبية لله، فالقلب الأحب لله، هو الألين، والأرق، أي : الأكثر تأثرا وشعورًا ولطافة، وحسنًا، وشفافية، ورحمة، وعطفًا، ونَدَاوة، وخَيْرًا... إلخ، فهو إناءُ الله، ومحل عطائه، ومهبط أَنْوَارِهِ، وفرقانه، ورحمته، وإشراقاته، ومدده .

ب- تربية القلب الرقيق اللين:

قيمة الرقة واللين تتطلب عمليات تربوية لتحويلها من مفهوم ذهني،

---

(٢٦) صحيح مسلم بشرح النووي، ج ٢ (ط مَنَاهل العرفان - بيروت)، ص ٣٣- ٣٤.
(٢٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ٨، ص ١٠٠.

وتصور عقلي إلى معشوق ومشتهى قلبي، مرغوب فيه، ومقصود إليه، ومراد مطلوب الوجود، وفعل متعود عليه، يصدر في صور سلوكية ملاحظة، كالتي ذكرناها في الفصل الحالي، والفصل السابق. فما الطريق التربوي لذلك ؟

١- أول العمليات التربوية اللازمة للاتصاف بالرقة واللين، هي التي تُكَوِّنُ وتُنَمِّي التصورَ العقلي الصحيح، الواضح، والرؤية العلمية الدقيقة، لمفهوم الرقة، واللين، في العقل والقلب، بحيث يتصورها تصورًا صحيحًا، محددًا، دقيقًا، فَيُدْرِكُ مفهوم الرقة، واللين، وحكمهما، وصورهما، وأدلتهما من الحديث الصحيح، وآثارهما في القلب، والخُلُق، وفي العلاقات الإنسانية الاجتماعية، وفضلها عند الله تعالى، بحيث يقتنع الإنسان، ويرى هذه القيمة حَسَنَةً جميلة، ويُعْجَبُ بها. وتحصيل هذا الهدف المعرفي العقلي الخاص بالرقة يتحقق بدراسة المعطيات الواردة في هذا الفصل، والفصلين السابقين، عن القسوة، والرحمة، وبدراسة كتب محددة تتناول هذه القيمة، مثل كتاب الرقة لابن أبي الدنيا، وكتاب الرقاق من صحيح البخاري، والتفكر فيما يدرسه، وفي ذنوب الإنسان، وفي مصيره بعد الموت، وفي الجزاء الذي أعده الله له، وفي آفاق الكون، والنفس، والنعم، وفي سِيَرِ الأرقاء، وبالاستماع المتأثر والمتفكر لأحاديث الرقة، ولأشرطة صحيحة المضمون مثل شريط ختم القرآن للشيخ محيسن، وأشرطة القطان عن القلب، وأمثال هذا. وقد يمكن عقد (دورة تربوية قلبية) لليلة واحدة تخصص لدراسة هذه القيمة، والتعبد بالآيات والأحاديث الخاصة بها ومحاسبة النفس على التخلق بها، ولحفْزِ الهمة.

وقد يمكن عمل (جدول تقويم ذاتي)، تحدد فيه صور الرقة واللين، والرحمة المذكورة في هذا المبحث، في قائمة يراجع المسلم نفسه عليها، لينظر: هل يتصور كُلًا منها تصورًا صحيحًا، ويعرف أدلتها، وفضلها، وهل يرغب فيها، ويريد الاتصاف بِهَا.

(والمدارسة الجماعية) لما ذكرناه في الرقة والرحمة، والقسوة، أسلوب تربوي ناجع؛ من خلال المحاورة، والسؤال والجواب، والبحث المشترك، والمناقشة، والمراجعة؛ لتحصيل الفهم السليم، والتصور الدقيق، والاقتناع، والإدراك الواعي بهذه القيمة، وخصوصًا إذا كان في مجموعة المدارسة أحد الفاهمين السالكين، الذين على فقه، وحكمة، وقد يمكن عمل (برنامج تثقيف ذاتي) لمدة يومين لدراسة كل ما يتعلق بالرقة واللين.

ويمكن توظيف خطبة الجمعة، ودروس المساجد، لهذا الهدف، وكذلك برامج الفضائيات الإسلامية، ومواقع على النّت.

٢- أما العملية التربوية الضرورية للاتصاف بالرقة واللين، فهي العملية التي تنمي الإيمان بالرقة واللين، وتنمي الرغبة واشتهاء الرقة، ومحبة الاتصاف بها، من عمق القلب، بحيث تخالط هذه المحبة مشاعر المسلم، فالمحبة أصل كل إرادة وحركة في الوجود، وبدونها لا يوجد فعل وحركة، فالحب أصل الإرادة، والإرادة أصل الحركة، والحركة أصل العمل والممارسة. وينشأ الحب من رؤية القيمة، ومعرفتها، والعلم بها وبحسنها، ومن تذوق هذه المعرفة بالقلب والشعور؛ أي: بغرس المعرفة في القلب؛ فتثمر المحبة والإرادة والطلب، والقصد، والعزم الجازم، والنهوض الشعوري للاتصاف والتخلق بالقيمة.

فأصل هذه العملية التربوية هو استشعار ما نعرفه عن الرقة، وفضلها، وثوابها، ومنزلتها، عند الله، بالقلب، أن نُشْعِرَها قلوبنا، ونتذوق جمالها وحسنها، ونندمج فيما نَدْرسُهُ، ونعرفه، بمشاعرنا، ونتخيل حب الله لنا وأن قلوبنا صارت آنية الله، ينزل فيها رحمته، ويجعل فيها عطاءه.

فالدرس العلمي سبيل لإثمار الرغبة والحب، والشوق، والتشهي للاتصاف، وتربية إرادة الرقة، فهو شرط ضروري، لكنه لا يكفي وحده، بل يلزم شرط «الإيمان» بالرقة واللين، أي: التصديق الجازم لما ندرسه ونعرفه عن

الرقة، تصديقًا تذعن له قلوبنا، وتخضع، وتَنْقَاد له، وتستسلم للعمل به. وهذا سر ذكر النبي ﷺ لوصف: «**الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية**» فالفقه معرفة بفهم، وتعقل واعتبار، والحكمة معرفة خُلُقية مُوَجِّهة للسُّلُوكِ، نَحْو الخير والرشد، والإيمان تصديق جازم بما عرفناه، وعلمناه من الوحي؛ أي: مِنْ أَمْرِ الله، وخَبَرِهِ، تصديقًا يستلزم الخضوع والانقياد، فهو إذعان للحق على سبيل التصديق الجازم .

هذه هو تذويت قيمة رقة القلب ولِينه.

والعملية التربوية الثانية تنبني على الأُولَى، وتترقى بها إلى القلب، لترسخ المعرفة في القلب وتتمكن، وتثبت، يقينًا، وتصديقًا بأن الرقة خير، جميل، ورحمة، وعبادة لله، وصلاح للنفس وللعلاقات الإنسانية.

وقد تتم هذه العملية في أثناء عملية الإمداد العلمي والمعرفي السابقة، بل يلزم ذلك، شيئًا فشيئًا، حتى يتكون، وينمو وازع داخلي قوي يدعو للتخلق الذاتي بالرقة واللين والرحمة، والرأفة، أَيْ : يصبح في القلب واعظ وموجه ذاتي، يحب ويرغب ويتجه نحو الرقة، ويدفعنا لممارسة صورها مع أنفسنا وأهلينا، وجيراننا، ومع خلق الله، وكائنات الله، ومع كتاب الله، ومع رسول الله، ومع حديثه ومع الدروس العلمية، ومع كل ما لنا، ومَنْ لَنَا بِهِ علاقة.

وقد تنمو شهوة الاتصاف بالرقة ؛ إذا (عرف) الإنسان أنها طريق للجنة، «**وأهل الجنة ثلاثة.. ورجل رحيم، رقيق القلب..**»، وكما أخرج مسلم عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير**»[٢٨].

أي: في رقتها، وفي هيبتها لله، وخشيتها، وحَذَرها، فهي كالطائر الحذر، الذي يرى له في كل اتجاه شَرَكًا يأخذه، وفي سرعة تأثرها بالوعظ، وفي توكلها على الله[٢٩].

---

(٢٨) إكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٨٤٠، ص ٣٧٣.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٣٧٣ وصحيح مسلم بشرح النووي، ج ١٧، ص ١٧٧.

وإذا عرف أن الرقة طريق لأن يحبه لله، وأنها خلق رسول الله، الذي كان رقيقًا رحيمًا، وخلق أبي بكر، وأصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم، وأنها تجعل القلب يلين لذكر الله، وتخشع لله. ويَلْطُف، ويتصف بالذوق، والتأثر بالجمال، والقبح، وتَجْعَلُ القلب واعيًا، بعيدًا عن الغلظة، والقسوة، والجفوة، والجلافة، والبلادة، والفظاظة.. فإذا (عرف) الإنسان هذا، واقتنع به، (وتذوق) هذه المعرفة، واستشعر حلاوتها، واستطعمها، وتلذذ بها، و(آمن) بصدقها، وحقيتها..فإنه (يتكون وينمو) في داخله (دافع الرقة) (وإرادة) الاتصاف بها، والتخلق بها.

وقد يمكن استخدام (جدول التقويم الذاتي) لقيمة الرقة واللين، لتعزيز هذه العملية التربوية، فأمام كل صورة سلوكية للرقة يفكر المسلم: هل أُحِبُّ الاتصاف بها..؟ هل أشتهيها؟ لماذا؟ هل أنا مؤمن بها؟ لماذا؟

ويمكن استخدام (آلية تأمل النموذج المحبوب) والتربية بالإشعاع السلوكي، والحب، لتربية هذه القيمة، فتأمل خلق الرقة عند سيدنا محمد، وسيدنا عيسى، وعند سيدنا أبى بكر، وغيرهم من عظماء الناس، هو عامل تربوي مهم، مع استصحاب الحب لهم، ورغبة التأسي بهم، (بنبع مِنْهُ) الميل للرقة، والرغبة فيها، وإرادة الاتصاف بها، والتعود عليها.

٣- والعملية التربوية الثالثة هي: «الترقق» الفِعلي، أي: الدخول في أعمال الرقة؛ وممارسة صورة أو أكثر للرقة؛ بدفع الذات لكي ترق؛ مع كلام الله، مع حديث رسول الله، مع الدرس العِلمي، لكي ترق مع الغريب، والضعيف، واليتيم، والمسكين، وكل ذي حاجة، أو وَجَع، الدخول في عمل من أعمال الرقة، والاستمرار في ممارسته حتى يتعود الإنسان الرقة، ويصبح رقيقًا، سريع التأثر الشعوري، وذا ذوق جمالي .

والمربي المسلم الواعي يكلف مريد الرقة بأعمال الرقة، وهو يبين له مفهومها وصورها، وفضلها، فالممارسة هي أفضل وأنجع أسلوب للتخلق بالقيمة، وتكوين (عادة) فِعْلها بِيُسْر وسهولة.

ويمكن الشروع- الآن – في زيارة مريض، أو الجلوس مع مسكين، ويمكن أخذ (نصف جنيه) لإعطائه لمحتاج، ويمكن قراءة سورة من القرآن؛ بتأمل وتخشع وإخبات، ويمكن رفع اليدين بدعاء ضارع لله، ويمكن توبيخ النفس على عدم تأثرها بذكر الله، ويمكن تذكر الذنوب السالفة، وعقاب الله عليها إذا لم نتب،.. إلخ كل هذا، وغيره، ممارسات يمكن فعلها من الآن، لتربية قيمة الرقة، وتعويد الذات عليها.

٤- واكتساب الرقة يوجب ممارسة عمليات تربوية لتصفية القسوة والغِلظْة والرَّيْن، من القلب، ليتفرغ لخلق الرقة واللين والرحمة والرأفة. وقد بينا سبيل ذلك في الفصول السابقة.

٥- وهناك فعل تربوي، ضروري، لتعزيز وتدعيم اكتساب الرقة، والرحمة، وهو أن نفرح بممارسة الرقة، وبنية الرقة، وأن نحزن ونستاء إذا نوينا القسوة، أو مارسنا القسوة، هذا فعل تعزيزي وتدعيمي لخلق الرقة، في القلب، وهو فعل من أفعال (الضمير) المؤمن اليقظ، كما فصَّلناه في فصل (تربية واعظ الله في قلب المؤمن) (وهو الفصل الثاني من هذا الكتاب) .

وتعزيز وتدعيم قيمة الرقة يتطلب، مع هذا العامل الذاتي الداخلي، (تشرب ثقافة الرقة)، من خلال وسط ثقافي، يحيا فيه من يربي الرقة في قلبه، وسط يشجع الرقة، ويَسْتَهجْن القسوة، من خلال الوجود في (زمرة اجتماعية رقيقة) حساسة، شاعرة، مرهفة القلوب، فالقلوب تتثاقف، وتتلاقح من خلال المعاشرة، والمصاحبة، والطبيعة التلقائية الحميمة للعلاقات داخل الزمرة الاجتماعية، فإن كانت الصحبة يغلب عليها الرقة واللين، تأثر القلب

المصاحب؛ فَرَق ولان، شيئًا فشيئًا، وقليلاً قليلاً، والعكس صحيح؛ فتعزيز سلوك الرقة يتطلب تغذيته بمادة الرقة، بكلامها، ومشاعرها، وسلوكياتها، بعلاقات الرقة، وكلام الرقة، أي: يتطلب (مُناخًا، وثقافه رقة)؛ أي: مصاحبة أرقاء، ينتقون أطايب الكلام كما ينتقي الناسُ أطايب الثمر، ويرقون، ويتعاملون بخلق الرقة. فالحياة مع هؤلاء، وفي الوسط الثقافي الناشئ من تفاعلاتهم، هو شرط تربوي لتدعيم التخلق بالرقة، وممارسة صورها السلوكية، على الأقل في (مرحلة التربي)، وهذا يتطلب البحث عن شخص رقيق، لمصاحبته ومجالسته، وزيارته، ومصادقته، ومدارسة الرقة مَعَهُ.

ويعين في آلية التعزيز المعنوي الرمزي الثقافي هذه ؛ مصاحبة سير الأرقاء، وقد اهتم علماؤنا بذلك، فهذه السير حفظت موروثنا العلمي الثقافي، الحيوي، حفظت (حَيَوات) الممارسين، وحركتهم في الحياة، ومصَاحبتُهم هي تربية، بشرط الحب، والرغبة في التأسي، والاهتمام، والاقتناع.

والمقصد- هنا- أن مصاحبة سير الأرقاء، آلية مهمة لتعزيز وتدعيم اكتساب قيمة الرقة، وتأكيد نفسي أن هذا الاكتساب تحقق عِنْد آخرين، يمكن أن يتحقق معنا أيضًا، ومن هنا نقترح مدارسة سير الأرقاء من كتب؛ مثل صفة الصفوة، وحلية الأولياء، وسير أعلام النبلاء، وطبقات الصوفية للسلمي، وكتاب الرقة لابن أبي الدنيا، وسير الصحابة، وسير الفقهاء من كتب الطبقات، وسير الزهاد، مع الحذر الشديد من أي قول أو تصرف يخالف سنة سيدنا محمد ﷺ، وأقترح دراسة كتاب (الاستقامة)، لابن تيمية، وهو ضروري، لمن يقرأ في هذه الكتب المهمة لأنها جمعت الصحيح، والحسن، والضعيف، والموضوع أحيانًا.

والأفضل أن يكون هناك (مُرَبّ فَقِيه) ينتقي سيرًا منتخَبة من سير الأرقاء، في هذه الكتب وغيرها، لتكون نماذج يصاحبها الراغب في اكتساب الرقة، ليتثقف، أي: يتهذب، ويتربى، بِمُطَالَعَتِها.

٦- فإذا مارسنا هذه العمليات التربوية؛ رجعنا إلى (جدول التقويم الذاتي)، وربما قبل إتمام الممارسة، ومعها، وفي أثنائها، وأخذنا مسافة من أنفسنا لنحدد موقفنا أمام كل صورة للرقة؛ هل مارسنا – هل نمارس- هذه الصورة؟ هل نمارسها: دائمًا، أحيانًا، نادرا ؟ لماذا ؟ وبهذا نحدد موضعنا السلوكي، وموقفنا من قيمة الرقة؛ لنحكم على أنفسنا: هل يحبنا الله- أم لا؟ هل نحن آنية الله- أم آنية إبليس؟

٧- إتمام هذه العمليات التربوية يهدف إلى أن نحقق هدفنا التربوي الأساسي: أن تكون قلوبنا رقيقة. فإذا حققنا ذلك، فما علينا إلا الاستمرار في الممارسة، والاستقامة على هذا الخلق، والدوام عليه، حتى آخر لحظة، من حياتنا في الأرض.

خامسًا : قيم القلوب الأكثر محبوبية لله :

٢-أن تكون صُلْبَةَ الإيمان، في ذات الله تعالى:

أ- أي: أن يكون متمسكًا بدينه، قوي الأخذ به، فلا يُدَاهِنُ فيه، ولا يُمَايِنُ، ولا يُلاَيِنُ، ولا يُصَانِعُ، وَلاَ يُسَاومُ عليه، ولا يَتَنَازَل عن أي جُزْءٍ مِنْه، ولا يُهَادن الطواغيتَ والظالمين، ولا يركن إليهم، ولا يميل إليهم، ولا يخون مَبْدَأ، أو يُظْهِرُ خِلاَفَ ما يُبْطِن، مهما كانت المُغْرِياتُ، والمعوقات. فهي قوة القلب في ذات الله تعالى؛ بقوة سلطان الله في قلب المؤمن، وتَوَقُّدِ نُورِهِ فِيهِ[٣٠].

وهذه الصلابة هي كفاء العقيدة الحقة في قلب المؤمن؛ لأن السلطان في القلب هو لله وحده، يقول سيد قطب في خلال قول الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [النحل: ١٠٦] يقول[٣١]: «ذلك أن

(٣٠) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، مصدر سابق، ص ١٢٢.
(٣١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٩٦، ٢١٩٧.

العقيدة لا يجوز أن تكون موضع مساومة، وحسابًا للربح والخسارة. ومتى آمن القلب بالله؛ فلا يجوز أن يدخل عليه مؤثر من مؤثرات هذه الأرض، فللأرض حساب، وللعقيدة حساب، ولا خلاف، وليست العقيدةُ هَزْلًا، وليست صفقة قابلة للأخذ والرد، فهي أعلى من هذا وأعز، ومِنْ ثَمَّ كان هذا التغليظ في العقوبة، والتفظيع للجريمة.

واستثنى مِن ذلك الحكم الدامغ مَنْ أُكْرِه وقَلْبُه مطمئن بالإيمان، أي: مَنْ أظهر الكفر بلِسانه، نجاة لروحه مِنَ الهَلاَكِ، وقَلْبُه ثابت على الإيمان، مُرْتَكِنٌ إليه، مطمئن به (...).

وقد أبى بعضُ المسلمين أن يظهروا الكفر بلِسانهم، مؤثرين الموت على لَفْظَةٍ باللسان؛ كذلك صَنَعت سُمية أم ياسر، وهي تُطْعَنُ بالحَرْبة في موضع العِفَّةِ حتى تموت، وكذلك صنع أبو ياسر، وقد كان بلال - رضوان الله عليه، يفعل المشركون به الأفاعيل حتى لَيَضَعُوا الصخرة العظيمة على صدره، في شدة الحرّ، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم - وهو يقول: أحد. أحد. ويقول: والله، لو أعلم كلمة هي أَغْيَظُ لكم منها؛ لَقُلْتُهَا.

وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري؛ لما قال له مُسَيْلِمة الكذاب: أتشهد أن محمدًا رسول الله، فيقول: نعم. فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع! فلم يزل يقطعه إربا إربا، وهو ثابت على ذلك (...) ذلك أن العقيدة أمر عظيم لا هوادة فيه ولا ترخص، وثمن الاحتفاظ بها فادح، ولكنها ترجحه في نفس المؤمن، وعند الله. وهي أمانة لا يؤتمن عليها إلا مَنْ يَفْديها بحياته. وهانت الحياة، وهان كل ما فيها مِن نعيم».

إن الصلابة، هنا، تَعْنِي: الرسالية، والمبدئية، والصفاء السلوكي، والنقاء الحركي، والإيمان بالدعوة كلها، وعدم النزول عن أي جزء منها، والتطابق بين الجواني والبَرَّاني، والشجاعة والجراءة، وقوة القلب وثباته، بصولة سلطان

الله فيه، في مواجهة الباطل. إنها إبراهيمية النَّزْعَةِ؛ فإبراهيم الخليل يسكن قلب المؤمن، ويدخل به إلى مواطن الأوثان والأنداد والطواغيت، يواجهها بشجاعة، ليقرر سُلْطان الله وحده، ويقتحم النيران، ولا يتنازل عن ذرة حق. النار تُؤَجَّجُ له، وهو آمن، بأمان الله، مطمئن القلب، عليه السكينة، يقول: حسبنا الله، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر: ٣٦] السّكين تُسَنُّ لرقبته، وهو يَسُن الخير في الناسِ .

صلابة القلب في ذات الله؛ في سبيل الله؛ في سبيل رضاه وحده، هي نزعة إبراهيمية خليلية، وهى نزعة مؤمِنِ آل فرعون، ومؤمن يس، ونزعة مؤمني السحرة؛ نزعة التحدي، والمقاومة العنيدة للباطل، والمواجهة الصلبة له، في شرف وكرم؛ ﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه]. إن هذا المشهد إعلان لحرية القلب البشري، باستعلائه على قيود الأرض، وسلطان الأرض، وعلى الطمع، في المثوبة والخوف من السلطان، وما يملك القلب البشري أن يجهر بهذا الإعلان القوي إلا في ظلال الإيمان. فإذا تحققت حقيقة الإيمان في النفس، وحقيقة الحق في القلب، فإنهما تُصْبِحانِ أقوى من حقيقة القوى المادية التي يستعلي بها الباطل ويصول بها الطغيان(٣٢).

إن صلابة القلب المؤمن تبدأ بتهذيب الخوفِ في جوانحنا، وتحطيم الطواغيت في نفوسنا، وتحدي الباطل مهما كان جبروته؛ ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] وتحرير الإرادة تحريرًا كاملًا، إنها نزعة الغلام المؤمن الذي واجه جبروت أصحاب الأخدود، والنار ذات الوقود، لم يتنازل عن إيمانه، بَلْ تحدى الملك وجنوده؛ باطمئنان المؤمن .

---

(٣٢) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، ص ٢٣٤٣، ٢٣٤٤.

الصلابة في ذات الله، وفي الدين، هي سلوك إيماني للمؤمنين قبلنا، كان يُؤْتَى بالمؤمن فيشق له في الأرض ثم يؤتى بالمِنْشَارِ، فيوضع على مَفْرِقِ رأسه، فيشق نصفين، ما يرده ذلك عن دين الله؛ أخرج البخاري عن خباب بن الأرت؛ قال: شَكَوْنَا إلى رسول الله ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تسْتَنْصِرُ لنا، ألا تدعو اللهَ لنا؟ قال: **«كان الرجل فيمن قبلكم، يُحْفَرُ له في الأرضِ، فَيُجْعَلُ فيه، فيجاء بالمنشار؛ فيوضع على رأسه، فيشقق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشَّطُ بأمشاط الحديد؛ ما دون لحمه، مِنْ عظم أوْ عَصَب، وما يصده ذلك عن دينه. والله، ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت؛ لا يخاف إلا الله، والذئب على غَنَمه، ولكنكم تستعجلون»**(٣٣).

وفي رواية للبخاري: **«وما يصرفه ذلك عن دينه»**، إنه لا ينصرف عن دينه، برغم هذه الوحشية.

إنها صلابة محمد رسول الله، الذي أوذي في الله، وأُخيف في الله، فقام لله، وما قَعَدَ، وثبت وقاوم، وتحدى، وغالب، حتى أنفذ أمر الله، وبلغه، وطبقه، **لنتأمل؛ في هذه المواقف:**

- عن عقيل بن أبي طالب قال: جاءت قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك يأتينا في أفنيتنا، وفي نادينا، فيسمعنا ما يؤذينا به، فإن رأيت أن تَكُفَّهُ عنا؛ فافْعَل، فقال لي: يا عقيل، التمس لي ابْنَ عَمّك، فأخرجته(...) فأقبل يمشي معي (...) حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال له أبو طالب: يا بن أخي، والله ما علمت، إن كنت لي لمطاعًا، وقد جاء قوْمك يزعمون أنك تأتيهم في أفنيتهم، وفي ناديهم، تسمعهم ما يؤذيهم، فإن رأيتَ أن تكف عنهم؛ فَحَلَّق ببصره إلى السماء؛ فقال: **«والله ما أنا بأقدر أن أَدَعَ ما بُعِثْتُ**

---

(٣٣) فتح الباري، ج ٦، حديث رقم ٣٦١٢، ص ٦١٩ وج ٧، رقم ٣٨٥٢، ص ١٦٥ (قريبا منه).

به مِنْ أنه يُشعلَ من هذه الشمس شُعْلَةً من نار» فقال أبو طالب: والله ما كذب ابْنُ أخي قط، ارجعوا راشدين(٣٤).

وأخرج أحمد عن عروة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو؛ قال(٣٥): «قلت له: ما أكثر ما رأيتَ قُرَيْشًا أصابتْ من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر مِن عَدَاوته؟ قال: حَضَرْتُهُمْ، وقد اجتمع أشرافهم يومًا في الحِجْر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط، سَفَّهَ أَحْلاَمَنَا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمْرٍ عظيم، أوْ كما قالوا.

قال: فبينما هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مَرّ بهم طائفا بالبيتِ، فلما مَرّ بهم غمزوه ببعض ما يقول، قال: فعرفتُ ذلك في وجهه، ثم مَضى؛ فلما مر بهم الثانية؛ غمزوه بمِثلِها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة، فغمزوه بمثلها، فقال: «**أتسمعون، يا معشر قريش، أما والذي نَفْسُ محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح**» فأخذت القومَ كلمتُه، حتى ما منهم رجل إلا على رأسه طائر واقع، حتى أن أشدهم فيه وصاة قبل ذلك؛ لَيَرْفَؤُه [يعنى: يُسَكّنُه] بأحسن ما يجد من القول، حتى أنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم، انصرف راشدا، فوالله ما كُنْتَ جهولا، فانصرف رسولُ الله ﷺ حتى إذا كان الغَدُ؛ اجتمعوا في الحِجْر، وأنا معهم، فقال بعضهم، ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه حتى إذا بَادَأَكُمْ بما تكرهون؛ تركتموه، فبينما هم في ذلك؛ إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما

(٣٤) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والكبير (...) وأبو يعلى باختصار من أَوَّلِهِ، ورجال أبى يعلى رجال الصحيح، مجمع الزوائد، ج ٦، ط دار الفكر، رقم ٩٨٠٩، ص ٩٠٨.

(٣٥) قال الهيثمي: في الصحيح طرف منه. رواه أحمد، وقد صرح ابن إسحق بالسماع، وبقية رجاله رحال الصحيح. انظر: المصدر السابق، حديث رقم ٩٨١٢، ص ٩- ١٠.

كان يبلغهم مِن عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول الله ﷺ: «**نعم أنا الذي أقول ذلك**» قال : فلقد رأيت رجلًا منهم أخذ بمجمع ردائه؛ وقام أبو بكر دونه (...) ثم انصرفوا عنه..» .

وخرج يريد مكة، عام الحديبية، يريد زيارة بيتِ الله الحَرَام، وساق الهَدْي، ومعه ألف وسبعمائة رجل، «وخرج رسول الله ﷺ حتى إذا كان بِعَسْفَان؛ لقيه بشر بن سفيان الكعبي؛ فقال : يا رسول الله، هذه قريش، قد سمعت بمسيرك، فخرجت معها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون اللهَ ألاَّ تدخلها عليهم عَنْوَة أبدا، وَهذا خالد بن الوليد في خيلهم، قد قَدِمُوا إلى كُراعِ الغميم، فقال رسول الله ﷺ: «**يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناسِ، فإن أصابوني كان الذي أرادوا؛ وإن أَظْهرني اللهُ عليهم؛ دخلوا في الإسلام، وَهُمْ وافِرون. وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ والله، إني لا أزال أُجَاهِدُهم على الذي بعثني اللهُ له؛ حتى يظِهرَهُ الله، أوْ تنفرد هذه السالفة**»(٣٦) أي : أموت .

فهو التمسك بالحق، والجهاد في سبيله حتى النصر، أو الموت في سبيل الله، إنها صلابة تستقر في القلب، وتوجه السلوك، وتخط الحركة الثابتة في عالم الواقع.

ـ صلابة أبي ذر، الذي قال لمن استفتاه في (عَطَاءِ) الحاكم؛ أي: حكم أَخْذِ المال من الحاكم؛ فقال: «خذه؛ فإن فيه اليوم معونة. فإذا كان ثمنًا لدينك فَدَعْهُ»(٣٧). إذا كان رشوة عن الدين؛ فلا تأخذوه.

---

(٣٦) رواه أحمد بإسناد حسن، وفيه ابن إسحق؛ عَنْعَنَ، ولكنه توبع عليه، انظر: المسند، ج ١٤، رقم ١٨٨١٢، ص: ٣٠٣- ٣٠٤ وصرح بالتحديث في رواية الطبراني: المعجم الكبير، ج ١٦، ص ٩، وانظر زاد المعاد، ج ٣، ص ٢٦٠.

(٣٧) إسناده صحيح، المسند، ج ١٥، رقم ٢١٣٦٢، ص ٥٣٨.

ـ صلابة عبد الله بن عمر «عن نافع أن معاوية بعث إلى ابن عمر بمائة ألف، فلما أراد أن يبايع ليزيد؛ قال: أرى ذلك أراد، إن ديني عندي إذًا لرخيص»[٣٨]. إنه يرفض مائة ألف، في مقابل أن يبايع ليزيد؛ ويخالف الأصل الإسلامي في اختيار الحاكم، وهو الشورى، والبيعة الحرة، ورضا جمهور الأمة، يرفضها ويُغَالي بدينه.

ولكن قومًا يبيعونه رَخِيصًا جدًا، يبيعون دينهم بعرض من الدنيا، قال الحسن البصري: «والله، لقد رَأَيْناهُمْ، صُوَرًا ولا عقول، أجسامًا ولا أحلام، فَرَاشَ نارٍ، وذُبّانَ طمَعٍ، يَغْدُونَ بدرهمين، ويروحون بدرهمين، يبيع أحدُهم دينَه بِثَمَن العَنْزِ»[٣٩].

رحمك الله أبا سعيد، بل يبيع أحدُهم دينَه وشرفه بكرسي جِلد، أو خشب!!

إن الصَّلابة في الدين هي اعتزاز به وثبات عليه، واستهانة بكل عقبة في سبيل نصرته، والقيام بأمره.

أخرج البخاري عن معاوية ﷺ، يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يَزَالُ مِنْ أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم مَنْ خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهُمْ أمر الله وهم على ذلك**»[٤٠]. قيام بأمر الله حتى يأتي الموت، أو النصر، بعزة وشرف.

فالعقيدة، والدينّ، والإيمان، هو هُوِية المؤمن، وشرفه، وكرامَتُه، وعِرْضُه، يقول الحسن البصري: «اتقوا هذه الأهواء المضلة، البعيدة من الله، التي جِمَاعُها الضلالة (...) مَنْ أصابها أضلته، ومَنْ أصابَتْهُ قتلته.

---

(٣٨) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ج ١، ص ٢٥١.
(٣٩) إسناده صحيح للحسن، المسند، ج ١٤، رقم ١٨٣١٧، ص ١٦٢.
(٤٠) فتح الباري، ج ٦، رقم ٣٦٤١، ص ٦٣٢.

يا بن آدم، دينَك، دينَك؛ فإنما هو لحمك ودمُك، إن يَسْلَمْ لك دينُك؛ يسلم لك لحمك ودَمُك، وإن تَكُن الأخرى؛ فنعوذ بالله؛ فإنها نار لا تُطْفَأ، وجرح لا يبرأ، وعذاب لا ينفد أبدًا، ونفس لا تموت»(٤١).

ب- ومِن أفضل التجارب البشرية التي توضح مفهوم الصلابة في ذات الله، بالإيمان، تجربة الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، وما صنعه في (المحنة)؛ حيث سُجِنَ، وعُذِّبَ بالسّياط، وخُلِعَ بالمخالع، حتى خُلِعَ كتفه، ويده، وهُدِّد مِرارًا بالقتل، وظل في التعذيبِ حتى أُغْمِيَ عليه، لكي يتكلم بشيء يخالف دين الله، وَيُرضي مُلُوك بنى العباس؛ (المأمون، والمعتصم، والواثق)، فرفض بإباء وعزة، وصبر، وصلابة، في ذات الله، وما تنازل عن أي شيء مِن دين الله، ثم هو يقول: «والله، لقد أعْطَيْتُ المجهود من نَفْسِي، ولوددت أن أنجو من هذا الأمر كفافا؛ لا عَلَيَّ، ولا لي»(٤٢).

يقول ابنه أبو الفضل صالح: « وأخبرني رجل حَضَرَهُ، قال: تفقدته في هذه الأيام، وهم يُنَاظرونه ويكلمونه، فما لحن في كلمة، وما ظَنَنْتُ أن أحدا يكون في مثل شجاعته، وشدة قَلْبِه»(٤٣).

يقول الحافظ الذهبي، في ترجمةِ أحمد بن حنبل من تاريخ الإسلام(٤٤): «وقال علي بن المديني: إن الله أعز هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة، وبأحمد بن حنبل؛ يوم المحنة (...) وقال محمد بن نصر الفَرَّاء: سمعت أبا عُبَيْد يقول: أحمد بن حنبل إمامُنا، إني لأتزين بذكره، (...) وقال أبو خيثمة : ما رأيت مثل أحمد بن حنبل؛ ولا أشد قلبًا منه .

---

(٤١) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٢، ص ١٤٥ . ورواه أحمد من أول قوله: ابن آدم، دينكَ، دينكَ ..إلخ مع اختلاف يسير، في اللفظ، كتاب الزهد، ص ٢٦٩- ٢٧٠.

(٤٢، ٤٣) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ٩، ص ٢٠٣ وتفصيل أوسع في: أبى الفضل صالح بن أحمد بن حنبل: سيرة الإمام أحمد بن حنبل (محنة أبي عبد الله)، تحقيق المستشار فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الدعوة، إسكندرية ص ٥٢- ٦٥.

(٤٤) نقلها، كلها أحمد شاكر في طلائع المسند، ج ١، ص ٧٤- ٧٦.

وقال علي بن خشرم: سمعت بشر بن الحارث، وقد سئل عَنْ أحمد بن حنبل؛ فقال: أنا أُسْأَلُ عن أحمد؟! إن أحمد أُدْخِلَ الكِيرَ فخرج ذهبا أَحْمَرَ (...) وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال أصحاب بشر بن الحارث- حين ضُرِب أحمد في المحنة: يا أبا نصر، لو أنك خرجْتَ؛ فقلت: إني على قول أحمد بن حنبل! فقال بشر: أتريدون أن أقوم مقام الأنبياء!» .

جـ- يقول د/ يوسف القرضاوي:

تالله ما الطغيان يهزم دعوة أبدًا	وفي التاريخ بِرٌّ يميني
ضَعْ في يَدَيّ القَيْدَ، أَلْهِبْ أَضْلُعِي	بالسَّوْطِ، ضع عُنُقِي على السّكِينِ
لن تستطيع حِصَارَ فِكْرِي سَاعَةً	أَوْ نَزْعَ إيماني، ونورَ يقيني
فالنورُ في قلبي، وقلبي في يدي	ربي، وربي حافظِي ومُعِيني
سأعيش مُعْتَصِما بِجَبْلِ عقيدتي	وأموت مُبْتَسِمًا ليحيا ديني

د- ولا يُتَصور للصلابة وجود بدون الابتلاء بالشدائد، فهي موقف المؤمن في الأزمة والشدة والألم، إنها قوة الإرادة وانتصارها على المحن، وهذا موضوع طويل، نكتفي منه بتأمل قول النبي ﷺ: «**أشد الناسِ بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتَلَى الرجُلُ على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شُدّد عليه في البلاء**»(٤٥).

فالصلابة وعدم المداهنة تدخل المسلم الصالح في كير المحنة، ليخرج ذهبًا خالصا، ولؤلؤا.

هـ- هذه هي الصلابة في دين الله، في ذات الله، وهي قيمة من قيم القلب المؤمن، فكيفَ نكتسب هذه القيمة؟

إن اكتساب الصلابة في الدين هو قرار إيماني قلبي، واختيار إنساني، أولا، هل هو رسالي، صاحب مبدأ، يطابق موقفُه قولَه وعقيدته؟ وهذا القرار

(٤٥) أخرجه البخاري معلقا، فتح الباري، ج ١٠، كتاب المرضى، ص ١١١.

والاختيار ينتجان، تلقائيا، من قوة الإيمان، فتربية هذه القيمة هي عَيْنُها تربية الإيمان في القلب، وسيتم تفصيل هذا في فصل(تربية تجدد الإيمان في القلب) بعون الله . لكني أضيف هنا نقاطًا، تمثل معالم عن طريق تربية قيمة الصلابة في دين الله في قلب المؤمن:

١-**المعلم الأول**: تنمية تصور صحيح عن هذه القيمة، وأبعادها المعرفية، والوجدانية والسلوكية، وعلاقة ذلك بمفهوم الابتلاء، والصبر، والثبات، والإيمان بالقدر.. (اجمع آيات الابتلاء، والصبر، والإيمان بالقدر، للقرضاوي، وكتاب التوكل على الله- له.. وادرس أحاديث هذه القيم في الترغيب والترهيب..) .

٢-**المعلم الثاني**: دراسة وتحليل خبرات الصلابة في ذات الله، وتأملها، والاعتبار بها، ويمكن عَقد (دورات تربوية) لهذا الغرض بهدف تفهم هذه القيمة وإثارة الرغبة فيها، وتنمية شهوة القلب لها، وإرادتها (والقلب يهوي ويتمنى، والقلب يشتهي..) ويدرس في هذه الدورات معطيات هذا المبحث، وسير وخبرات سيدنا نوح وإبراهيم، وشعيب، وسيرة الغلام المؤمن، وسيرة مؤمني السحرة، ومؤمن آل فرعون، ومواقف من سيرة خبيب وخباب، وأبى ذر، وبلال، وعمر، وابن مظعون وابن عمر، وعبد الله بن حذافة السهمي، والحسين، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وابن المبارك، وسفيان الثوري، وابن حنبل، وحسن البنا، وبديع الزمان سعيد النورسي، وغيرهم مع تفكر، واعتبار، ومُقَايَسَة وتمثل، وتذوق.

٣-**المعلم الثالث**: استخدام أسلوب المشهد (السيناريو) والتدريب الخائلي، أي: عمل سيناريو يتخيل فيه المسلم أنه يواجه موقفا يُسَاوَمُ فيه على دينِهِ مقابل مبلغ من المال، أو منصب، أو شهرة في الصحافة أو التلفزة، والفضائيات، ويتخيل موقفه إذا رفض التنازل عن مَبَادِئِه، وماذا سيفعل : لَوْ سُجِنَ، أو عُذّبَ،

أو أُبعد عن وظيفته؟ ويتخيل أنه يقاوم، ويَسْتَدْعِي خِبْرَةَ إبراهيم، وخبرات مَنْ بعده مِنَ الأبرار، وسيد الأخيار، ويقوي إرادته، ويثبت نَفْسَهُ ويستدعي إيمانَه بأن ما يصيبه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ما قدره الله كائن، حتما، وأنه لا ينفع حذر من قدر، وأن من آمن بالقدر أَمِنَ مِنَ الْكَدَرِ، ويتخيل أنه ثَبَتَ وانتصر في موقفه، وأنه أصبح أسوة لغيره، وحقق انتصارا لدينه، وأنه لقي ربه، وأنه ضحك له، وأنه أدخله في دار كرامته، ومَتّعَهُ بالنظر إلى وجهه الكريم، ولقاء محمد الحبيب ﷺ. ويتخيل السيناريو المعاكس، حتى نهايته، ويأخذ قراره، ويحدد موقفه. فالإنسان: موقف.

٤-**المعلم الرابع**: تصفية القلب من مشاعر الخوف من غير الله. وسأشير لذلك في فصل (تربية القلب الكريم الحر) بإذن الله.

٥-**المعلم الخامس**: عمل جدول تقويم ذاتي، لقيمة صلابة الإيمان، حيث تسجل قائمة بصور الصلابة لكل من ذكرناه في هذا المبحث، ويحدد المسلم موقفه: هل يمارسها، لو تعرض لمثلها؟ ولماذا ؟

٦- **المعلم السادس**: ولا شك أن تنمية شهوة الصلابة أمر أساسي لممارسة صلابة الإيمان، وتنمية هذه الشهوة يكون، بالإضافة لفعل المُدَارَسَةِ، والدورة التربوية، وأسلوب المشهد، وتحليل الخبرات، والتقويم الذاتي، عن طريق: تذوق سير نخبة مختارة من الراسخين في فعل هذه القيمة؛ (إبراهيم الخليل، مؤمنو السحرة، خباب، عبد الله بن حذافة السهمي، مواقف من السيرة النبوية، سيدنا الحسين، أحمد بن حنبل، ابن تيمية... إلخ) وتعمقها وجدانيا، والاندماج فيها، وتذوقها، ودرس آثار صلابتهم في حركة التاريخ، وتبين ما أعده الله لهم من ثواب عظيم بسبب وفائهم بكلمات الله، وإتمامهم لدينهم، وصلابتهم، وعدم مهادنتهم للباطل، والإيمان بأن الصلابة طريق لمحبة الله للمسلم... إلخ.

فمثل هذا الاندماج، والتذوق، والتأثر، يربي، فِعْلًا، شهوة وإرادة الصلابة في ذات الله.

٧- **المعلم السابع:** لا يمكن ممارسة الصلابة في الله، بدون اليقين...، فهي نتاج، وثمرة اليقين الجازم في الله، ودينه، ورسوله، واليوم الآخر، فتربية اليقين، هي تربية الصلابة، وهو ما أتناوله في المبحث التالي.

سادسًا: قيم القلوب الأكثر محبوبية لله:

٣-أن تكون صافية من الذنوب، وصافية في اليقين:

القيمة الثالثة- لكي يكون القلب أكثر محبوبية لله- هي الصفاء، الصفاء في اليقين، وقد جاء هذا الوصف في حديث خالد بن مَعْدَان: «وأحب آنية الله: مَا رقَّ مِنها وصَفَا..» وفي قول علي: «فأحبها إليه: أرقها، وأصْفاها، وأصلبُها. ثم فَسَّرها فقال: (...) وأصفاها في اليقين» وفي حديث سهل بن سعد: «وأصْفاها من الذنوب» وأتناول هذه القيمة القلبية في النقاط الآتية:

أ- مفهوم الصفاء:

١ - الصفاء: هو خلوص الشيء، ونقاؤه من أي شَوْبٍ، أو عَيْبٍ، فصفاء القلب من الذنوب هو نقاء القلب من حب الخطيئة، وباطن الإثم، والشر، ونقاؤه وخلاصه، وتطهره، وتصفيته، وتفريغه من الإصرار على الذنب، وقد كان النبي ﷺ يدعو: **«وَنقّ قلبي من الخطايا، كما نَقَّيْتَ الثوبَ الأبيضَ من الدَّنَسِ»**(٤٦).

---

(٤٦) جزء من حديث رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، عن عائشة بهذا اللفظ المذكور، انظر: فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٣٦٨، ص ١٧٦ وإكمال المعلم، ج ٨، رقم ٢٧٠٦، ص ٢٠٢، سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٤٧٧، ص ١٩٣، صحيح سنن ابن ماجه، ج ٣، رقم ٣١١٠، ص٢٥٥- ٢٥٦.

أي: خَلِّصْهُ، وصَفِّهِ من الخطيئة، ونظفه، من حبها وشهوتها، والإصرار عليها، ومن إرادتها وفِعلِها. ورواه البخاري بلفظ: «..كَمَا يُنَقَّى»[٤٧]. والنَّسَائي بلفظ: «**وأَنْقِ قلبي من الخطايا كما أنقيت الثوب الأبيض من الدَّنَسِ**»[٤٨].

ورواه البخاري بلفظ: «**اللهم نقني من الخطايا كما يُنَقَّى الثوبُ الأبيض من الدَّنسِ**»[٤٩].

وفي رواية عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يتعوذ بقوله: «**اللهم اغسل قلبي بماء الثلج والبرد..**» وذكر الحديث.

وقد وقع في هذه الأحاديث سؤال النبي رَبَّهُ أن يَغْسِلَ عنه الخطايا بماء، الثلج والبَرَد، أو بالماء والثلج والبَرَدِ؛ مبالغةً في الإنقاء والمحو، حيث يغسل القلب من الخطايا بثلاثة أشياء مُنْقِيَة، فَيُنَقَّى، ثم يباعد بينه وبين الخطايا كما يباعد بين المشرق والمغرب، فهذا هو غاية صفاء القلب من الذنوب، ومحو آثارها منه، وهذا الدعاء مهم من أدعية القلوب.

٢- ويقول ابن تيمية، في نص جامع: «واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم مع خُبْثِ قلوبهم، والنصارى يَدَّعُونَ أنهم يطهرون قلوبهم، مع نجاسة أبدانهم، والمسلمون يطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعا»[٥٠].

وقد تناولت جوانب من مفهوم صفاء القلب من الذنوب في فصول: «قلوب تنكر الفتن» «تربية القلوب المصقولة» وفصل: «تربية القلب المخمور».

---

(٤٧) فتح الباري، ج ١١، رقم ٦٣٧٥، ص ١٨١.

(٤٨) سنن النسائي، ج ٨، رقم ٥٤٦٦، ص ١٩١.

(٤٩) عن أبي هريرة، فتح الباري، ج ٢، رقم ٧٤٤، ص ٢٢٧، والرواية التالية رواها البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٥٨٩) والبيهقي في السنن الكبرى، الجزء الأول، ط دار الحديث، رقم ٩، ص ٧٢.

(٥٠) شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بَدلَ دين المسيح، ج ١، دار ابن الهيثم، ٢٠٠٣م، ص ٤١٥.

٣- وأما صفاء اليقين: فهو خلوصه من الشك، والتردد، والظنون، والوهم، وسكونه وطمأنينته، بالحق، وسيزداد هذا المفهوم وضوحًا؛ لأننا نتناوله – هنا- بتفصيل؛ لأهميته في تربية القلب .

ب- منزلة اليقين وأهميته:

١-قال البخاري: «وقال ابن مَسْعُود: اليقين: الإيمان كله»(٥١).

قال ابن حجر في شرحه: «هذا التعليق طرف مِن أثر وصله الطبراني بسند صحيح، وبقيته: والصبر نصف الإيمان (...) وفي الإيمان، لأحمد، من طريق عبد الله بن عكيم عن ابن مسعود أنه كان يقول: اللهم زِدْنا إيمانًا ويقينًا، وفقها» وإسناده صحيح (...) إن مرَادَ ابنِ مسعود: أن اليقين هو أصل الإيمان، فإذا أيقن القلب؛ انبعثت الجوارح كلها للقاء الله بالأعمال الصالحة، حتى قال سفيان الثوري: لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي؛ لطار اشتياقًا إلى الجنة، وهربًا من النار»(٥٢).

وقال ابن رجب مثل هذا في شرحه لكتاب الإيمان من صحيح البخاري؛ قال: «وقد جعله ابن مسعود الإيمان كله (...) إنما مراده: أن اليقين هو أصل الإيمان كله، فإذا أيقن القلب بالله، وملائكتِه وكتبه،ورسله، واليوم الآخر، انبعثت الجوارح كلها للاستعداد للقاء الله تعالى بالأعمال الصالحة، فنشأ ذلك كله عن اليقين.

قال الحسن البصري: ما طُلبت الجنة إلا باليقين، ولا هُرب من النار إلا باليقين، ولا أُدّيت الفرائض إلا باليقين. ولا صبر على الحق إلا باليقين...إلخ»(٥٣).

---

(٥١) فتح الباري، ج ١، ص ٤٥.

(٥٢) المصدر السابق، ص ٤٨.

(٥٣) الحافظ زين الدين أبو الفرج بن رجب الحنبلي: كتاب الإيمان من فتح الباري شرح صحيح البخاري من موقع الدرر السنية، ص ٧، ٨ .

٢-ويبين ابن القيم منزلة اليقين، فيقول: «وهو مِن الإيمان، بمنزلة الروح من الجسد (...) وإذا تزوج الصبر باليقين؛ ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال تعالى- وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤] (...) فاليقين: روحُ أعمالِ القلوب، التي هي روح أعمالِ الجوارح، وهو حقيقة الصديقية.

وروى خالد بن يزيد، عن السفيانين؛ عن التيمي؛ عن خيثمة؛ عن عبد الله ابن مسعود؛ عن النبي ﷺ؛ قال: «**لا تُرْضِيَنَّ أحدا بسخط الله، ولا تَحْمَدَنَّ أحدا على فضل الله، ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك الله؛ فإن رزق الله لا يسوقُه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كَرَاهية كاره، وإن الله، بعدله وقِسْطِه جعل الرَّوْحَ والفَرَح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحَزَن في الشك والسَّخَطِ**» (...) ومتى وصل اليقينُ إلى القلب؛ فامتلأ نورا وإشراقا، وانتفى عنه كل رَيْبٍ وشك، وسخط، وهم وغم، فامتلأ محبة لله، وخوفا منه، ورضا به، وشكرا له، وتوكلا عليه، وإنابة إليه، فهو مادة جميع المقامات، والحامل لها(...) واليقين يحمله (أي: يَحْمِلُ المؤمنَ الموقن) على الأهوال، وركوب الأخطار، وهو يأمر بالتقدم دائما. فإن لم يُقارنه العِلمُ؛ حَمَل على المعاطب، و«العلم» يأمر بالتأخر والإحجام. فإن لم يصحبه اليقين؛ قعد بصاحبه عن المكاسب والغنائم (...) .

«قال صاحب المنازل- رحمه الله- (اليقين: مَرْكَبُ الآخِذِ في هذا الطريق...): لما كان اليقين هو الذي يحمل السائر إلى الله، كما قال أبو سعيد الخراز: العِلم ما استعملك، واليقين: ما حملك؛ سماه مركبا يركبه السائر إلى الله؛ فإنه لولا اليقين ما سار ركب إلى الله، ولا ثبت لأحد قَدَمٌ في السلوك إلا به»(٥٤).

(٥٤) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج ٢، دار الحديث القاهرة، ص ٤١٣ – ٤١٧.

٣- فاليقين هو المحرك، والحامل للسير في طريق الله، فهو قوة دافعة، محركة للسلوك الرباني، وهو قوة نفسية تثمر الراحة والفرح، والحركة لله، فهو خير كله وهو خير ما ألقي في القلب، وهو أعظم من العافية، عن أبي بكر رضي الله عنه؛ أنه قام على المنبر، ثم بكى، فقال: قام فينا رسولُ الله ﷺ، عام أول على المنبر، ثم بكي، فقال: «**سلوا الله العَفْو والعافية، فإن أحدا لم يُعْطَ بَعْدَ اليقين خيرا من العافية**»(٥٥).

وقد جاء في الحديث: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد»(٥٦).

فهو سبب للنجاة والصلاح (إصلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين)، وفي حديث رواه أحمد، ورجاله ثقات أن رسول الله ﷺ قال: «..**بخ بخ لخمس من لقي الله مستيقنا بهن؛ دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، والجنة والنار، والبعث بعد الموت، والحساب**»(٥٧).

٤-واليقين شرط لدخول الجنة؛ إذا حقق الإنسان التوحيد؛ أخرج أحمد عن معاذ بن حبل، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ما مِنْ نَفْسٍ تموت، وهي تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، يرجع ذَاكَ إلى قلب مُوقِنٍ؛ إلا غفر الله لها**»(٥٨).

وفي رواية ابن ماجه؛ عن معاذ بن جبل؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من نفس تموت، تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، يرجع ذلك إلى قلب**

---

(٥٥) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، ورواه أحمد في المسند، وقال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج ١، رقم ٥، ٦، ١٠، ١٧، وانظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ٢، رقم ٢١١٦، ص ٣٨٥، وفي صحيح الجامع: «**وسلوا الله اليقين والمعافاة فإنه لم يؤت أحد بعد اليقين خيرا من المعافاة**» المجلد الثاني، رقم ٤٠٧٢، ص ٧٥١ وقال الألباني: صحيح.

(٥٦) حسن، رواه الديلمي في مسند الفردوس(٦٨٣٥) عن معاوية بن حيدة، وابن أبي الدنيا وحسنه الألباني في : صحيح الجامع الصغير، ج ٢، ط ٣، حديث رقم ٦٧٤٦، ص ١١٤٢ من رواية عبد الله بن عمرو، وقد أخرجه الألباني أيضًا: بلفظ« **صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل**». وقال: حسن، صحيح الجامع، ج٢، رقم ٣٨٤٥، ص ٧٧.

(٥٧) انظر : مجمع الزوائد، ج ١، رقم ١٤٥، ص ٢٠٧.

(٥٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢١٨٩٧، ص ١٦٠، ١٦١.

مُوقِنٍ، إلا غفر اللهُ لها»(٥٩).

وهو في صحيح الجامع، باللفظ الأول، وفيه : «**يرجع ذلك إلى قلب موقنٍ، إلا غفر الله لَهُ**»(٦٠).

وأخرجه أحمد عن معاذ بلفظ: «**ما على الأرض نفس تموت لا تشرك بالله شيئا؛ تشهد أني رسول الله، يرجع ذاكم إلى قلب موقن؛ إلا غُفِرَ لها**»(٦١).

وفي رواية لأحمد بإسناد صحيح: سمعتُه يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله مُخْلِصا من قلبه؛ أو يقينا من قلبِه، لم يدخل النار، أو دخَلَ الجنة**»، وقال مرة: «**دخل الجنة ولم تمسسه النار**».

فمغفرة الله للنفس مرتبة على شهادة التوحيد، وتحقيقه، وعدم الشرك بالله، ويقين القلب بذلك، وبالرسالة، لأن اليقين يحمل الإنسان الموحد لفعل مقامات الإيمان، وأخلاق التوحيد.

وكفى بهذا دافعا لتعلم اليقين، وتربيته في القلب .

٥- ولهذه الأهمية قال أبو سليمان الداراني: «كل قلب فيه شك فهو ساقط». وقال: «لو شك الناسُ كلهم في الحق، ما شككت فيه وَحْدِي»(٦٢).

ويقول القشيري: «وسؤال اليقين من الله، والحيلة في رد الخواطر المشكلة دَيْدَنُ المتعرفين»(٦٣). وصفة أساسية للعارفين وعلماء الآخرة.

---

(٥٩) قال الألباني: حسن صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج٣، رقم ٣٠٧٨، ص ٢٤٤.

(٦٠) قال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، مجلد ٥، ط١، رقم ٥٦٦٩، ص ١٨٦. وفي الصحيحة برقم ٢٢٧٨.

(٦١) إسناده صحيح، المسند، ج ١٦، رقم ٢١٨٩٩، ص ١٦١ والذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٥، ص ٣٠٦ حيث أورد رواية لهذا الحديث، وأورد المحقق رواية عن أحمد، قال شعيب الأرنؤوط: وإسناده صحيح، هامش رقم (١)، ص ٣٠٦ وهو الآتي بَعْدُ في المتن.

(٦٢) أبو نعيم : حلية الأولياء، ج ٩، ص ٢٥٦ [كلا النصين] .

(٦٣) القشيري: لطائف الإشارات، المجلد الأول، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٢٠١.

جـ - مفهوم اليقين ودرجاته:

١-يقول ابن منظور: «اليقين: العِلْمُ وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر (...) واليقين: نقيض الشك»(٦٤).

ويقول الراغب: «اليقين من صفة العلم؛ فوق المعرفة والدراية، وأَخَوَاتِها، يقال: علم يقين، ولا يقال: معرفة يقين، وهو سُكُون الفهم مع ثبات الحكم»(٦٥).

وهذا هو مفتاح مفهوم اليقين: علم + فهم + سُكُون واستقرار هذا الفهم+ ثبات الحكم المتضمن في الفهم.

ويقول في حاشية الجمل: «والإيقان: إتقان العلم بالشيء، بنفي الشَّك والشبهة عنه. ولذلك لا يُسَمّى علمه تعالى يقينًا؛ أي: يعلمون علمًا قطعيا مُزيحًا لما كان أهل الكتاب عليه من الشكوك والأوهام»(٦٦).

٢- ويقول الجنيد: «اليقين: هو استقرار العلم الذي لا ينقلب، ولا يحول، ولا يتغير في القلب»(٦٧).

فاليقين في أي شيء هو: علم قطعي مبني على البرهان والدليل القاطع، بهذا الشيء، وثبات هذا العلم، واستقراره في القلب. وقيل: «اليقين: هو المكاشفة، وهو على ثلاثة أوجه: مكاشفة في الأخبار، ومكاشفة بإظهار القدرة، ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان. ومُرَاد القومِ بالمكاشفة: ظهور الشيء للقلب بحيث تصير نِسْبته إليه كنسبة المرئي إلى العين، فلا يبقى معه

---

(٦٤) ابن منظور : لسان العرب، ج ٦، دار المعارف، القاهرة، ص ٤٩٦٤.

(٦٥) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٥٥٢.

(٦٦) سليمان بن عمر العجيلي الشافعي الشهيد بالجمل: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الجزء الأول، ط دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ص ٢٤وهو من تفسير قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ أول البقرة.

(٦٧) ابن القيم، مدارج السالكين ج ٢، ص٤١٥.

شك ولا ريب أصلا، وهذا نهاية الإيمان، وهو مقام الإحسان»[٦٨].

وقال النهرجوري: اليقين: «مشاهدة الإيمان بالغيب»[٦٩].

وهذا مُتَعَلَّقٌ واحد لليقين؛ وهو اليقين في عالم الغيب المبرهن عليه في الكتاب والسنة الصحيحة؛ وهذا مثل قول الحسين بن على بن يزدانيار: «اليقين: النظر بعين القلب إلى ما وعد الله، وادخره»[٧٠].

وهذا جزء من اليقين في الآخرة: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤] فاليقين: رؤية القلب للحقائق.

٣- ويُعْطينا الوَرَّاقُ تحليلا جيدًا لمفهوم اليقين، يقول أبو بكر الوراق: «اليقين: على ثلاثة أوجه: يقين خَبَرٍ، ويقين دَلاَلَةٍ، ويقين مشاهدة.

يريد بيقين الخبر: سكون القَلْبِ إلى خَبَرَ المخبِرِ، وتوثقه به.

وبيقين الدَّلالة: ما هو فوقه، وهو أن يقيم له- مع وثوقه بصدقه - الأدلة الدالة على مَا أخبر به. وهذا كَعَامَّة أخبار الإيمان والتوحيد والقرآن، فإنه سبحانه، مع كونه أصدق الصادقين، يقيم لعباده الأدلة والأمثال والبراهين على صِدق أخباره؛ فيحصل لهم اليقين من وجهين؛ من جهة الخبر، ومن جهة الدليل، فيرتفعون من ذلك إلى الدرجة الثالثة؛ وهي (يقين المكاشفة)؛ بحيث يصير المُخْبَر به- لقلوبهم- كالمرئي لعيونهم، فنسبة الإيمان بالغيب - حينئذ- إلى القلب، كنِسْبَةِ المرئي إلى العين. وهذا أعلى أنواع المكاشفة؛ وهي التي أشار إليها عامر بن عبد قيس في قوله: لو كُشِفَ الغِطَاء ما ازددت يقينًا»[٧١].

٤-ويقول الحكيم الترمذي، في شرح حديث معاذ السابق: «والقلب

---

(٦٨) المصدر السابق نفسه.

(٦٩) أبو عبد الرحمن السُّلَمِي: طبقات الصوفية، ص ٣٨٠.

(٧٠) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج ١٠، ص ٣٦٤.

(٧١) ابن القيم : مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤١٦ - ٤١٧.

الموقن- الذي وصفه رسول الله ﷺ - هو القلب الذي استقر لربه، واطمأن بحكمه، وقنع بقِسْمَتِهِ، وانقاد لأمره، وشخصت عيناه إلى رحمته، وقد أيس من كل شيء إلا رحمته، فهو الذي إذا قالها [يعني: شهادة التوحيد] هدمت ذنوبه؛ لأنه صادق في قوله.

وإنما سُمّيَ اليقين يقينًا؛ لاستقراره في القلب، وهو النور، يقال في اللغة: يَقَنَ الماءُ في الحُفْرَةِ؛ أي: اسْتَقَرَّ. فإذا استقر النور؛ دام، وإذا دام صارت النفس ذات بصيرة، فاطمأنت (...) وإنما استقر اليقين في القلب؛ لأن العبد جاهد نفسه في الله حق جهاده، على الصدق والْيقظَةِ من خُدَعِها، والتحرز مِن آفاتها.. فاستغاث بالله تعالى.. فقذف النور في قلبه، ففلق تلك الظلمات التي ركدت في صدره عَلَى قَلْبِهِ، فانكشف الغطاء، وصار أمر الملكوت له مُعَايَنَةً بقلبه»(٧٢).

فإن الله هو نور كل شيء، وهداه، وهو الذي فلق الظلماتِ نورُهُ، يقول الحكيم: «فاليقين هو استقرار النور في القلب، وذلك أن نور الإيمان في القلب، والشهوات بظلمتِها وفوران دخانها، متراكمة على القلب، قد أظلمت الصدور، وحالت بين عَيْنَي القلب وبين رؤية أمور الغيب، فهو مُقِرٌّ بالغيب؛ من الجنة والنار، والحساب، وأهوال الموقف، وتدبير الله تعالى في دنياه، إلا أن نفسه تُشَبِّه عليه بخدعها؛ لأنها لم تصر له كالمعاينة وليس الخبر كالمعاينة؛.. فاليقين استقرار القلب بذلك النور»(٧٣). فاليقين هو شمس تشرق في القلب، لا تغيب.

إن شَمْس النهار تَغْرُبُ بالليلِ وشَمْسَ القلوب ليست تَغِيبُ

وهو بصر القلب، إنه يبصر بنور اليقين. وهذا هو يقين الدلالة، ويقين

(٧٢) الحكيم الترمذي: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، ج ١، ص ٢٢٩، ٢٣٠.
(٧٣) المصدر السابق، ج ١، ص ٤٠٧.

المشاهدة وحضور النور في القلب، وهو يقين المكاشفة الذي ذكرته سابقًا؛ فاليقين: علم مستقر في القلْبِ، ثابت بالبرهان، مرئي للقلب، فهو معرفة وبصيرة وسكينة، ينزلها الله على قلوب، وفي قلوب، المؤمنين: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٤] ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٢٦] تَقُولُ: سكن: هدأ، وثبت بعد تحرك، وسكن إلى: استراح واستأنس، والسكينة: الطمأنينة، والاستقرار والرزانة، وزوال الرعب والخوف، وسكون القلب، وهدوؤه، وثَلَجُه، واستقراره، وهو شاهد صاحٍ، متأدب، قائم بصفات العبودية، بلا شعور بالمشقة، وبلا معارضة لحكم الله، وقبول ما يرد من الله برضا وسرور.. فهي ما يُسَكِّن قلب المؤمن، ويؤمِّنُه، ويثبته، يقول القشيري: «السكينة: ما يسكن إليه القلب من البصائر والحُجَج، فيرتقي القلب عن حَدِّ الفكرة إلى روح اليقين، وثَلجَ الفؤاد؛ فتصير العلوم ضرورية...»(٧٤).

وهو تَخلُّص من الشكوك، والترددات، وتجويزات الظنون واحتمالات الأوهام كما يقول القشيري: «وحقيقة اليقين: التخلص عن تردد التخمين، والتَّفَصِّي عن مُجَوَّزاتِ الظنون»(٧٥).

يقول ابن رجب: «واليقين: هو العلم الحاصل للقلب بعد النظر والاستدلالِ، فيوجب قوة التصديق حتى يَنْفِي الريب، ويوجب طمأنينة القلب بالإيمان، وسكونه، وارتياحه به»(٧٦).

فاليقين هو فقه القلب بالله، ومعرفته به، وبآياته، وباليوم الآخر، وبصيرته، وعلمه، وإخلاصه، وانبعاثه ليقوم بأحكام الله عز وجل، عن ثقة وسكون، واطمئنان، فهو حقيقة العلم، وهو ما يستقر في القلب، ويبطن فيه، فيحييها،

---

(٧٤) القشيري: لطائف الإشارات، ج ٣، ط ٤، ص ٤١٩.

(٧٥) القشيري: المصدر السابق، ج ١، ص ٥٨.

(٧٦) ابن رجب الحنبلي: شرح كتاب الإيمان، من: فتح الباري شرح صحيح البخاري، موقع الدرر السنية، ص ٧.

وينورها، ويقويها على العمل بما يحب الله، «وفي وصية لقمان لابنه: يا بني، لا يُسْتَطَاعُ العمل إلا باليقين، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يقصر عامل حتى ينقص يقينهُ (...) واليقين على ثلاث مقامات: يقين معاينة.. والعالم به خبير، وهو للصديقين والشهداء، ويقين تصديق واستسلام، وهذا في الخبر، فالعالم به مخبر مُسَلِّم، وهذا يقين المؤمنين، وهم الأبرار (...) اليقين الثالث: هو يقين ظن، يقوى بدلائل العلم والخبر وأقوال العلماء.. ويضعف بفقد الأدلة، وصمت القائلين،.. وهذا يقين الاستدلال.. وكل موقن بالله عز وجل فهو على علم من التوحيد، والمعرفة له، ولكن علمه ومعرفته على قدر يقينه، ويقينُه من نحو صفاء إيمانه وقوته، وإيمانُه على معنى معاملتِه، ورعايته (...) واليقين هو الإقدام على الأشياء ببصيرة وتمكين، والقطع بالأمر على علم وخُبْرٍ»[٧٧].

٥- وقد حَلَّلَ رباني الأمة؛ شيخ الإسلام ابن تيمية مفهوم اليقين، ودرجاته، في رسالة له؛ أجاب فيها عن هذا السؤال: «سئل شيخ الإسلام أبو العباس أحمد ابن تيمية- رحمه الله- عن قوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، و﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] و﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥] فما معنى كل مقام منها؟ وأي مقام أعلى؟ فأجاب[٧٨]: «الحمد لله رب العالمين.

للناسِ في هذه الأسماء مقالات معروفة؛ منها: أن يُقَالَ: «علم اليقين»: ما علمه بالسماع والخبر، والقياسِ والنَّظَرِ، و«عَيْن اليقين»: ما شاهده وعاينه بالبصر، و«حق اليقين»: ما باشره، ووجده، وذاقه، وعَرَفَه بالاعتبار.

فالأول: مِثْلُ مَنْ أُخْبِرَ أن هُنَاك عَسَلًا، وصَدَّقَ الـمُخْبِرَ، أو رأى العَسَلِ، فاستدل على وجوده.

---

(٧٧) أبو طالب محمد بن علي بن عطية المكي: قوت القلوب في معاملة المحبوب عز وجل، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، ص ١٥٣- ١٥٥.

(٧٨) أبو العباس أحمد ابن تيمية الحراني: مجموع الفتاوى، المجلد العاشر، ص ٣٦٣- ٣٦٦.

والثاني: مثل مَنْ رأى العسل وشاهده، وعايَنَهُ، وهذا أعلى، كَمَا قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ المُخْبَرُ كالمُعَايِنِ**» .

والثالث: مثل مَنْ ذاق العَسَلَ، ووجد طعمه وحلاوتَهُ، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله.

ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم مِنَ الذوق والوجد، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ثلاث مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان..**»، وقال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان مَنْ رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولًا**».

« فَالناسُ، فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه، مِنْ حلاوة الإيمان وطعمه، على ثلاث درجات:

الأولى: مَنْ علم ذلك، مثل : مَنْ يخبره به شيخ له؛ يصدقه، أو يَبْلُغُه ما أَخْبَرَ به العارفون عن أنفسهم، أو يجد مِنْ آثار أَحْوَالِهِم ما يدل على ذلك .

والثانية: مَنْ شاهَدَ ذلك وعايَنَهُ؛ مِثل: أن يُعَايِن مِنْ أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين، ما يَعْرِفُ به مَوَاجِيدَهُمْ وأذواقَهُمْ، وإن كان هذا في الحقيقة، لم يُشَاهِدْ ما ذاقوه، ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه، لكن هو أبلغ مِن المُخْبَرِ، والمستدل بآثارهم.

والثالثة: أن يحصل له مِن الذوق والوجد في نَفْسِهِ، ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ؛ لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة، في الجنة، في مثل هذا الحال؛ إنهم لفي عَيْش طيب. وقال آخرِ: إنه ليمر على القلب أوقات يرقص فيها طَرَبا، وقال الآخر: لَأَهْلُ الليلِ في ليلهم أَلَذُّ مِن أَهْلِ اللهو في لَهْوِهِمْ.

والناسُ؛ فيما أُخْبِروا به مِنْ أَهْلِ الآخرة- على ثلاث درجات:

إحْدَاها: العِلْمُ بذلك، لِمَا أخبرتْهُم الرُّسُل، وما قام من الأدلة على وجود ذلك .

الثانية: إذا عاينوا ما وُعِدُوا بِهِ من الثواب والعقاب، والجنة والنار .

والثالثة: إذا باشروا ذلك، فَدَخل أهل الجنة الجنة، وذاقوا ما كانوا يوعدون. ودخل أهل النِار النارَ وذاقوا ما كانوا يوعدون .

فالناسُ، فيما يوجد في القلوب، وفيما يوجد خارج القلوب، على هذه الدرجات الثلاث. وكذلك في أمور الدنيا، فإن مَنْ أُخْبِرَ بالعِشق أو النكاح، ولم يره، ولم يذقه، كان له علم به، فإن شاهده، ولم يذقْه، كان له مُعَايَنَةٌ، فإن ذاقه بنفسِهِ كان له ذوق وخبرة به، ومَنْ لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته، فإن العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب، وأَمَّا معرفة الحقيقة؛ فلا تحصل بمجرد العبارة، إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المُعَبَّر عنه، وعرفه، وخبره. ولهذا يُسَمَّوْن أهل المعرفة؛ لأنهم عرفوا بالخبرة والذوق، ما يعلمه غَيْرُهم بالخبر والنَّظَرِ.

وفي الحديث الصحيح: (أن هرقل، ملك الروم، سأل أبا سفيان بن حرب، فيما سأله عنه من أمور النبي ﷺ قال: فهل يرجع أَحَدُهُمْ عَنْ دينه؛ سَخْطَةً له؛ بَعْدَ أن يدخل فيه؟

قال: لا. قال: وكذلك الإيمانُ؛ إذا خالطت بشاشَتُه القَلْبَ؛ لا يَسْخَطُه أحد (رواه البخاري، في بدء الوحي، رقم ٧، عن ابن عباس) فالإيمان إذا باشر القلب؛ وخالطته بشاشَتُه (حلاوته)، لا يسخطه القلب، بل يحبه ويرضاه، فإن له من الحلاوة في القلب، واللذة، والسرور والبهجة، ما لا يمكن التعبير عنه لمن لم يَذُقْهُ .

والناس متفاوتون في ذوقه، والفرحُ والسرورُ الذي في القلب: له من البشاشة، ما هو بحسبه، وإذا خالطت القلب؛ لم يسخطه (...) .

والمقصود هنا أن أهل الإيمان يجدون بسبب محبتهم لله ولرسوله من حلاوة الإيمان ما يناسب هذه المحبة (...) ومن ذلك: ما يجدونه مِن ثمرة التوحيد والإخلاص، والتوكل والدعاء، لله وحده، فإن الناسَ في هذا الباب على ثلاث درجات:

منهم مَن علم ذلك؛ سَمَاعًا واستدلالا. ومنهم مَنْ شاهد وعاين ما يحصل لهم. ومنهم مَنْ وَجَدَ حقيقة الإخلاص والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجَرّب مِنْ نفسِه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم، وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة، أو يدفعوا عنه مضرة؛ فإنه يُخْذَل مِن جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يَبْذُل لهم من الخِدمة والأموالِ، وغيرِ ذلك، ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم؛ فلا ينفعونه؛ إمّا لعجزهم، وإما لانصراف قلوبهم عنه.

وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به، مخلصًا له الدين، أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب رحمته. فمِثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء له، ما لم يذق غيره. وكذلك مَنْ ذاق طعم إخلاص الدين لله، وإرادة وجهه، دون ما سواه؛ يجد مِن الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده مَنْ لم يكن كذلك» انتهى.

فابن تيمية يرى أن اليقين يتعلق بما يوجد في القلب، وما يوجد خارج القلب، من أمور الإيمان بالله، وبالغيب والآخرة، ومن أمور عالم الشهادة في الدنيا، وأنه يتعلق بالإدراك، والوعي، والعلم، ويترقى مِنَ العِلم المستند إلى تصديق المُخْبِرِ (يعني: يقين الخبر)، أو الاستدلال من مقدمات مُشاهَدة أو معلومة، إلى العلم المستند إلى المعاينة والمشاهدة والرؤية، ثم إلى العلم المستند إلى الخِبرة، والوجد، والذوق. وهذا هو حق اليقين، أي: ثابته، وخالصه، وأصوبه وأصدقه.

فاليقين يُتَعَلَّم، ويتربى، ويتنامى، ويتزايد، كما سيأتي، بعون الله.

٦-أمّا تلميذه العلامة ابن القيم، فقد شرح هذه الدرجات في مدارج السالكين:

فالدرجة الأولى: علم اليقين: وهي تقتضي قَبُولَ شرع الله، ودينه المنزل، فنتلقاه بالقبول، والانقياد، والإذعان، والتسليم، والتعبد، وقبول الإيمان بالغيب، وأمور الآخرة، والقيامة، والبرزخ، ونعيمه وعذابه، فقبول هذا كله إيمانًا وتصديقًا، هو اليقين؛ بحيث لا يخالجه- في القلب- شبهة، ولا شك، ولا تَنَاسٍ ولا غفلة عنه، فإن الغفلة تضعف اليقين، والشك يُهْلكه.

والوقوف على أسماء الله وصفاته، وأفعاله، وحقوقِه، مِن إخلاص العمل لله، وعبادته وحده، فاليقين هو الوقوف على ما قام بالحق- سبحانه وتعالى- من أسمائه وصفاته وتوحيده .

فمتعَلَّقُ اليقين، في هذه الدرجة: هو عِلْمُ الأمر والنهى [اليقين في الشرع]، وعلم الأسماء والصفات والتوحيد [اليقين في الله]، وعلم المعاد واليوم الآخر.

والدرجة الثانية: عَيْنُ اليقين: والفرق بين عِلم اليقين، وعَيْن اليقين، كالفرق بين الخَبَر الصادق والعيَانِ، وحقُّ اليقين فوق هذا .

وقد مُثِّلَتِ المراتب الثلاثة بمن أخبرك أن عنده عَسَلًا، وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه، فازددت يقينا، ثم ذُقْتَ مِنْهُ. فالأول: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين. وعَيْن اليقين هو إدراك علمي قائم على الشهود، يستغني به صاحبه عن طلب الدليل؛ لأن المدلول مُشَاهَدٌ له؛ حيث أدركه بكشفه، وظهوره، فأي حاجة به إلى الاستدلال؟ فهو يستغني بالعِيان عن الاستدلال، وهذه هي البينة التي يجدها المؤمن الصادق في قلبه فيقول: إني على بينة من ربي.

والمعرفة التي تحصل لصاحب هذه الدرجة هي: شهود يُفْضِي إلى المعلوم بحيث يكافح بصيرتَه وقلبَه مكافحة، ويواجهه مواجهة.

والدرجة الثالثة: حق اليقين: وهذه الدرجة – فيما يختص بالإيمان، بعالم

الغيب، والمعاد، والآخرة.. لا تُنَالُ في هذه الدنيا إلا للرسل والأنبياء، فنبينا محمد ﷺ رأى بعينه الجنة والنار، وموسى عليه السلام سمع كلام الله، منه إليه، بلا واسطة، وكلمه تكليما.

نعم يحصل لنا حَق اليقين، من مَرْتَبة أقل، وهي :ذوق ما أخبر به الرسولُ، ﷺ، مِن حقائق الإيمان المتعلقة بالقلوب، وأعمالها؛ فإن القلب إذا باشرها وذاقها؛ صارت في حقه: حق اليقين. وأما في أمور الآخرة والمعاد، ورؤية الله؛ عيانا، وسماع كلامه، حقيقة، بلا واسطة، فحظ المؤمن منه، في هذه الدار؟ الدنيا، الإيمان، وعلم اليقين، أما حق اليقين فيتأخر إلى وقت اللقاء وحق اليقين – في المستوى الذي يمكن إدراكه في عالم الشهادة، هو الذي يحمل المؤمن، ويجعله يطير إلى الله ويذيقه لذة الطاعة لله، وحلاوتها، فتصير له كأنفاسِ الرُّبَى، ونَسَائم الربيع، وكالماء للسمك.

وهذا أمر يرجع التحاكم فيه إلى الذوق، والشعور، فلا تُسْرِع إلى إنكارٍ، وأحوال الصحابة مطابقة لهذا(٧٩).

٧- وقد حلل الغزالي هذا المفهوم، وأضاف إضافات رائعة بحق، فقال خلاصته:

أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين، فإن اليقين هو رأس مال الدين، «اليقين الإيمان كله» فلابد من تعلم علم اليقين، أعني: أوائله، ثم ينفتح للقلب طريقه، ولذلك قال خالد بن معدان: «تعلموا اليقين». ومعناه: جالسوا الموقنين، واستمعوا منهم علم اليقين، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوي يقينهم، واليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات، فلابد من فهم اليقين أولًا، ثم الاشتغال بطلبه وتعلمه، فإن ما لا تفهم صورته؛ لا يمكن طلبه؟ واليقين يطلق على معنيين: الأول: نفي الشك،

---

(٧٩) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ج ٢، ص ٤١٨ – ٤٢٢.

والمعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه، ولا يتصور الشك فيه، فهو تصديق قائم على البرهان الحسي أو العقلي أو الخبري الوجداني، أو الاعتقادي، والمعنى الثاني ثمرة المعنى الأول: فاليقين الثاني هو استيلاء هذه المعرفة وغلبتها على العقل والقلب، والنفس، فهو تصديق برهاني، وغلبة ذلك التصديق على القلب والنفس حتى يكون اليقين هو الغالب المتحكم المتصرف، ويكون مهيمنًا، وواضحًا، وجليا وقويا في القلب.

فمثلًا : الموت لا شك فيه، فهذا يقين الموت عند عامة الناس، ولكن هذا اليقين قد لا يستولي على القلب والنفس، فيكون الإنسان ضعيف اليقين في الموت، ولا شك أن الناس مشتركون في القطع بالموت، ولكن فيهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له، وكأنه غير موقن له، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه، بالاستعداد له، ولم يغادر فيه متسعًا غيره، فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين.

والعناية بتقوية اليقين وتعلمه تنصرف إلى المعنيين جميعا؛ نفي الشك، ثم تسليط اليقين على القلب، وعلى النفس والعقل، حتى يكون هو الغالب المتحكم المتصرف المستولي عليها، المثمر للأخلاق الحسنة، والأعمال الرفيعة. ومعرفة متعلقات اليقين ومجاريه وفيما يطلب اليقين؛ ضرورية؛ فما لم نعرف ما يطلب فيه اليقين لم نقدر على طلبه، وتحصيله وتعلمه. وجميعُ ما ورد به الشرع هو في مجاري اليقين ومتعلقاته، ومن ذلك التوحيد، فإذا استولى يقين التوحيد على القلب غلب عليه التوكل والرضا والتسليم لله، فصار موقنا بريئا من الحقد والحسد وسوء الخلق، ومن ذلك الثقة في أن الله هو الرزاق، وأن الرزق منه، وما قدره له سيأتيه، فإذا غلب هذا اليقين على القلب أجمل الإنسان في الطلب؛ ولم يشتد شرهه وتأسفه على ما فاته، وأثمر هذا اليقين أخلاقًا حميدة، وكذلك اليقين في الثواب والعقاب- فكل عمل خير أو شر عليه جزاء، ثواب

أو عقاب، فإذا استولى هذا اليقين على القلب أثمر صدق المراقبة والتقوى والتحرز عن السيئات، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد، والتشمير أبلغ، وكذلك اليقين بأن الله مطلع عليك وشاهد لهواجس ضميرك، وخفايا فكرك، فإذا استولى هذا اليقين أثمر التأدب مع الله، والتعظيم له، وعمارة باطنه، والحياء، والانكسار، والاستكانة والخضوع له، وجملة من الأخلاق المحمودة والطاعات الرفيعة.. هكذا فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة، وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان وهذه الطاعات كالثمار، والأنوار، المتفرعة من الأغصان، فاليقين هو الأصل والأساس(٨٠).

هذا هو مفهوم اليقين، ودرجاته، ولا أعقب عليه، بل أترك الأمر لإعادة القراءة، والتفكير، ومراجعة القلب، وتذوق هذه الحقائق.

د- مُتَعَلَّقات اليقين، ومحاوره، وتربية كل منها:

يكون اليقين في كل شيء يمكن أن يُعْلَم، سواء داخل القلب، أو خارجه، في عالم الشهادة، أو الغيب ولكن نركز - هنا - على خمسة مُتَعلِّقاتٍ، ترتبط بيقين القلب، وتربية القلب، ونحن نسميها محاور اليقين، وهي موضوعات اليقين، وما ينصب عليه اليقين، في القلب:

١ - **المتعلق الأول: اليقين في الله؛ والعلم به**؛ وجودًا، وأَسْمَاءَ حُسْنَى، وصفاتٍ وأفْعَالًا، وتوحيدا وولاء وتعبدا له وحده، وأنه لا إله إلا هو، بأن (يَشْهَدَ) ويُحْضِرَ في قلبه، أنه لا إله إلا هو: ولا رب إلا هو، ولا حاكم ولا حَكَمَ إلا هو، وأن الرزق منه.. إلخ، فيعلم علمًا قائمًا على البرهان، حاضرًا في قلبه، ومهيمنا عليه معنى حقيقة التوحيد، وكلمة الحق، ويتيقنها، ويثبتها في عقله ووعيه، وشعوره، وقلبه، ونفسِه، فمن فعل ذلك؛ دخل جنة اليقين، والقربة في الدنيا، وجنة الرضوان والنعيم والرؤية في الآخرة، أخرج مسلم

---

(٨٠) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين، ج ١، كتاب الشعب، ص ١٢٢ - ١٢٧.

عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وهو يَعْلَمُ أنه لا إلـه إلا الله؛ دخل الجنة**»، وفي مسلم؛ عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله، لا يَلْقَى اللهَ بهما عبد؛ غَيْرَ شاكٍّ فيهما؛ إلا دخل الجنة**».

وأخرج مسلم من حديث طويل، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له؛ وأعطاه نعليه: «**اذهب بنعلي هاتين، فَمَن لَقِيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله، مستيقنا بها قلبه، فبشره بالجنة**».. الحديث(٨١).

فاليقين الذي يتعلق بالله؛ علما لا شك فيه، وشهودا نشهد به، هو الذي يشير إليه الرسول ﷺ في حديث عمر عن سؤال جبريل عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه..**»، فهي رؤية لله كالعيان، هذا هو اليقين الذي نريد أن يكون في القلب المؤمن، بحيث يحصل العلم الحق الصحيح بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وتدبيره، وقدره في العالم، وحقوقه، وتوحيده، وإخلاصه،.. في القلب، علمًا قائمًا على البرهان والدليل القاطع، ويعقد قلبه على هذا العلم، ويستقر فيه، هذا العلم، ويذعن له، ويسكن إليه، ويطمئن. وسوف أفصل هذا في فصل (تربية تجدد الإيمان في القلب).

ويرَبّى هذا اليقين في القلب: بدراسة وتدبر، والتفكر في دلائل القرآن وحججه على إثبات الألوهية والربوبية، وقراءة وتدبر الأدلة والآيات الكونية على ذلك، والتفكر في آفاق النفس والطبيعة، وهذا هو منهج القرآن في تربية اليقين في الله، فتدرس سورة يونس، وسورة الأنعام، وسورة الرعد، وسورة يس، مَثَلًا، وتعقد ساعات لتتفكر في الدلائل الكونية، بمنهج القرآن الذي يخاطب العقل، والقلب والشعور، معًا.

وتدرس كتب صحيحة تثبت الألوهية بالأدلة، مثل (كُبْرى اليَقِينيات

---

(٨١) انظر الأحاديث الثلاثة في: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج ١، رقم ٤٣، ص ٢٥٣، ورقم ٤٤ ص ٢٥٦، ورقم ٥٢ ص ٢٦٣- ٢٦٤.

الكونية) لسعيد رمضان البوطي، (الله يتجلى في عصر العلم)، (العلم يدعو إلى الإيمان)، (الله جل جلاله) لسعيد حوّى، (قصة الإيمان) للجسر، وأمثال ذلك.

ولنتأمل في النص الآتي: « أخرج أبو الشيخ عن خليفة العبدي قال: لو أن الله تبارك وتعالى لم يُعْبَدْ إلا عن رؤية؛ مَا عبده أحد، ولكنْ: المؤمنون تفكروا؛ في مجيء هذا الليل إذا جاء، فملأ كل شيء، وغطى كل شيء، وفي مجيء سلطان النهار إذا جاء فمحى سلطان الليل، وفي السحاب المسخر بين السماء والأرض، وفي النجوم، وفي الشتاء والصيف، فوالله، مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق ربهم تبارك وتعالى حتى أيقنت قلوبهم بربهم»[٨٢].

فتربية اليقين في الله تكون بالمدارسة، والتفكر في كلام الله عن الله، وكلام رسوله عنه، وفي آياته في الكون والنفس وفي قراءة القرآن.. وفي التدبر، فرديًا، وجماعيًا، وفي مجالسة أهل اليقين في الله.. فتعلم اليقين في الله يكون بطلب العلم بالله، وهو يوجد عند الموقنين، أي: بمجالستهم، والاستماع منهم.

ويمكن عقد (دورة تربوية) لليقين في الله: يُدْرس فيها آيات قرآنية عن الله، ويُصَلِّى بها، ويستمع إليها، وتخصص ساعة للتفكر في آيات الله الكونية...، ويدرس هذا المبحث... فكل ذلك يربي اليقين في الله، مع أهل اليقين في الله.

ومما يعين على تربية اليقين في الله، التفكر في الأذان، وترديده، مع المؤذن، من القلب، فقد أخرج مسلم (رقم ٣٨٥). وأبو داود والنسائي عن عمر بن الخطاب ﷺ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا قال المؤذن: الله أكبر، الله أكبر؛ فقال أحدكم: الله أكبر الله أكبر، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ثم قال: أشهد أن محمدًا رسولُ الله، قال: أشهد أن محمدًا رسول الله، ثم قال:**

---

(٨٢) الشوكاني: فتح القدير، ج ٢، ص ٦٠٠.

حي على الصلاة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: حي على الفلاح؛ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: الله أكبر الله أكبر، قال: الله أكبر، الله أكبر، ثم قال: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا الله مِن قلبه دخل الجنة»(٨٣).

فهذه ممارسة يومية تكرر خمس مرات، يردد التوحيد من قلبه، بتفكر وتيقن وإخلاص.. وهكذا ينمو اليقين في الله، ويثبت، ويتأكد، وهو يخرج التوحيد من قلبه.

وكذلك يفعل مع سيد الاستغفار، لاحظ شرط اليقين فيه، فقد أخرج أحمد والبخاري والنسائي والحاكم عن شداد بن أوس، أن الرسول ﷺ قال: **«سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوء (أقر وأعترف) لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . مَنْ قالها مِن النهار؛ مُوقنا بها، فمات من يومه، قبل أن يُمْسِي، فهو مِنْ أهل الجنة، ومَنْ قالها من الليل، وهو مُوقِنٌ بها، فمات قبل أن يصبح؛ فهو من أهل الجنةِ»**(٨٤).

وهكذا بهذه الممارسات اليومية يتربى يقين التوحيد في الله، ويكون الله بمعرفته، وحبه،.. في قلب المؤمن؛ إناء الله.

٢-**المتعلق الثاني لليقين: يقين الرسالة**؛ أي: اليقين في الرسالة المحمدية، والحقيقة النبوية المحمدية، وأن شرع الإسلام الذي أُوحِي إليهِ، هو الحق، والصدق، الذي يلزم الانقياد له، أي: تحصيل اليقين في نبوة ورسالة محمد ﷺ، وأنه رسول الله، حقًا وصدقًا ويقينًا، وأنه الإنسان الكامل، حقًا وفعلًا، وصدقًا

---

(٨٣) وانظر: صحيح الجامع الصغير، ج١، حديث رقم ٧١٤، ص ١٨٤ وسنن أبي داود (٥٢٧) والسنن الكبرى للبيهقي، ج ١، ط دار الحديث، القاهرة، حديث رقم ١٩٢٦، ص ٧٦٦- ٧٦٧.

(٨٤) انظر: صحيح الجامع الصغير، رقم ٣٦٧٤، ص ٦٨٥.

ﷺ وعقد القلب على ذلك، وشهود ذلك بعين القلب وبصيرته، والخضوع لهذه الحقيقة، والعيش بها طوال العمر، ويتحصل ويتعلم هذا اليقين بالدراسة العلمية المتفكرة لسيرته وسنته ودعوته، وتأمل القرآن، وأنه كلام الله حقًا، الذي أنزل على قلب محمد النبي الأمي، ودراسة الأحاديث الصحيحة، التي تبرهن جميعًا على أنه فعلًا رسول الله، ودراسة شمائله، وأخلاقه، ومعجزاته، ودلائل نبوته، التي تحققت فعلًا، وحدثت في عالم الواقع، ووصلت إلينا بالطرق المتواترة والمشهورة.. ودراسة الكتب التي تناولت سيرة الرسول محمد ﷺ، وكونه أعظم رجل في العالم، وأنه رسول الله، حقًا ؛ مثل: (كتاب المعجزات الأحمدية) من كليات رسائل النور لبديع الزمان سعيد النورسي، و(الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لابن تيمية، (والنبأ العظيم)، و(المدخل للقرآن الكريم) لمحمد عبدالله دراز، و(الوحي المحمدي) لرشيد رضا و(الرسول) لسعيد حوّى، و(محمد في التوراة والإنجيل والقرآن) للمهتدي إبراهيم خليل، و(الظاهرة القرآنية) لمالك بن نبي، و(السيرة النبوية) لابن كثير، وبحوث الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، لزغلول راغب النجار .

وأهم وسيلة لتربية يقين الرسالة هو مصاحبة الرسول ﷺ في سيرته، وأخلاقه، ومعجزاته، وسنته، والصلاة والسلام عليه من القلب.. وغرس ذلك وزراعته في القلب، فيعايش القلب، ويعيش مع هذا النبي العظيم؛ وهو يدرس (زاد المعاد في هدي خير العباد) لابن القيم، و(السيرة النبوية) لابن كثير، وابن هشام، و(الرحيق المختوم) للمباركفوري، و(الشفا) للقاضي عياض، و(الأنوار في شمائل النبي المختار) للبغوي، و(المعجزات الأحمدية) للنورسي.. إلخ .

ودراسة مقررات القرآن عن الحقيقة المحمدية، مثلًا: سورة الأحزاب، وسورة الفتح، وسورة الضحى، وسورة الكوثر، وسورة الشرح... والصلاة

بها، والاستماع المتفكر إليها من قارئ خاشع كالشيخ صديق المنشاوي.. والارتباط المستمر بحديث رسول الله، مثل: مصاحبة رياض الصالحين، وصحيح الترغيب والترهيب، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم.. إلخ .

ولنتأمل في هذه القاعدة التي يقررها ابن تيمية، ويستدل لها، يقول- رحمه الله: «لا يتم التوحيد لله، والشهادة له بالوحدانية والإيمانُ به إلا بالإيمان بِالرسالة (...) ومَن لم تكن الشهادة بالرسالة داخلة في ضِمْنِ قَلْبِهِ بالشهادة بالألوهية؛ فليس بمؤمن. وفي مثل هذا جاء الحديث المتفق عليه في الصحيحين؛ عن أسماء؛ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه أُوحِيَ إِلَيَّ أنكم تُفْتَنُون في قبوركم مثل أو قريبا مِن فِتنةِ الدَّجَّال، يؤتى الرجل في قبره، فيقال: مَا عِلْمُكَ بهذا الرجل الذي بُعِث فيكم؟ فأما المؤمن، أو الموقِنُ؛ فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فآمنا به، واتبعناه.وأما المنافق، أو المُرْتابُ؛ فيقول: آه، آه، لا أدري، سمعت الناسَ يقولون شيئًا، فَقُلْتُهُ**»[(٨٥)].

ورواه البخاري في كتاب الجمعة من الصحيح؛ وفيه: «**وإنه قد أوحي إلي أنكم تفتنون في القبور، مِثْلَ- أو قريب – من فتنة المسيح الدجال: يُؤْتَى أَحَدُكم فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن – أو قال: الموقن- شك هشام – فيقول: هو رسول الله، وهو محمد ﷺ جاءنا بالبينات والهُدَى، فآمنا، وأجبنا، واتبعنا وصدقنا، فيقال له: نم صالحا، قد كنا نعلم إن كنت لتؤمن به..**»[(٨٦)].

ورواه في كتاب الكسوف وفيه: «.. **يُؤْتَى أَحَدُكم؛ فيقال له : ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن، أو: الموقن (...) فيقول: محمد رسول الله جاءنا**

(٨٥) ابن تيمية: كتاب الاستقامة، مصدر سابق، ص ٢٧٩، ٢٨٠ والحديث رواه البخاري؛ كتاب العلم، رقم ٨٦ ورواه مسلم، كتاب الكسوف، رقم ٩٠٥.

(٨٦) انظر : بدر الدين بن بهادر الزركشي: شرح صحيح البخاري، المسمى بالتنقيح شرح الجامع الصحيح، ج ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، حديث رقم ٩٢٢، ص ٣٨٩- ٣٩١.

بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له: نم صالحًا، فقد علمنا إن كُنْتَ لموقنا.. وأما المنافق.. الحديث»[٨٧].

وأخرج أحمد عن عائشة بإسناد صحيح، من حديث طويل: «فأما فتنة القبر؛ فبي تُفْتَنُون، وعَنّي تُسْألون؛ فإذا كان الرجل الصالح؟ أُجْلِسَ في قبره، غير فزع، ولا مَشْعُوفٍ (مفزوع جدًا) ثم يُقَال له: فيم كُنْتَ؟ فيقول: في الإسلام. فيقال : ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله، جاءنا بالبينات من عند الله عز وجل، فصدقناه، فيفرج له فرجة قِبَل النار، فينظر إليها يحطم بَعْضُها بعضا، فيقال له: انظر إلى ما وقاك الله عز وجل، ثم يُفْرج له فرجة إلى الجنة فينظر إلى زهرتها، وما فيها، فيقال له: هذا مقعدك منها، ويقال: على اليقين كُنْتَ، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله؟ وإذا كان الرجل السوء؛ أُجْلِسَ في قبره فزعا مَشْعُوفا فيقال له: فيم كنت؟ فيقول: لا أدري، فيقال: ما هذا الرجل الذي كان فيكم؟ فيقول: سمعت الناس يقولون قولا، فقلت كما قالوا. فتفرج له فُرْجَة قِبَلَ الجنة، فينظر إلى زهرتها وما فيها، فيقال له: انظر ما صرف الله عز وجل عَنْكَ، ثم يفرج له فرجة قبل النار، فينظر إليها يحطم بعضها بعضا، ويقال له: هذا مقعدك منها، كُنْتَ على الشك، وعليه مُتّ، وعليه تبعث إن شاء الله. ثم يعذب»[٨٨].

فاكتساب اليقين في رسول الله- محمد- ورسالته، والإيمان به واتباعه، والحياة عليه حتى الموت منجاة للمؤمن الموقن من عذاب القبر، فاليقين في

---

(٨٧) المصدر السابق، حديث رقم ١٠٥٣، ص ٥٦٨- ٥٦٩.

(٨٨) إسناده صحيح، المسند، ج ١٧، حديث رقم ٢٤٩٧٠، ص ٥٠٦- ٥٠٨ وقال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط ٣، حديث رقم ١٣٦١، ص ٢٨٩- ٢٩٠ وصححه المنذري، انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب ج ٢، رقم ٢٢٣٠، ص ٤١٨- ٤١٩ وأورده الهيثمي وسكت عنه، وقال محققه: بإسناد صحيح، مجمع الزوائد، ج ٣، رقم ٤٢٦٥، ص ١٦٩- ١٧٠.

الرسول ورسالته يخرج المسلم من التبعية للجهلة، وينجيه من فتنة القبر، ومن النار.

ولا شك أن هذين الحديثين يدفعان المسلم إلى تعلم اليقين، بالمدارسة لما ذكرتُه سابقًا، وبالممارسة للصلاة والسلام على رسول الله.. فيعمل لنفسه برنامجًا تثقيفيًا يدرس فيه آيات القرآن عن الرسول، ويدرس الكتب التي ذكرتها، ويحضر دورات تربوية لتعليم وتربية اليقين في رسول الله ﷺ.. باهتمام وجد.

وسوف أتناول شيئًا من ذلك في الفصل السادِسِ (تربية القلب الذي يحن إلى رسول الله محمد ﷺ) وفي فصل (تربية تجدد الإيمان في القلب).

٣-المتعلق الثالث لليقين: اليقين في المعاد والجزاء.. والآخرة، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، أي: اليقين فيما أخبر الله به، وأخبر به رسولُه، عن عالم الغيب، وما بعد الموت، والبعث والحشر، والسؤال، والحساب، والميزان والصراط، والجزاء، والجنة وما فيها من نعيم، والنار وما فيها من عذاب أليم.. فيحصل العلم بذلك، بالدليل الصحيح الثابت، ويقره في قلبه، ويثبته بدراسة النصوص القرآنية عن البعث والقيامة والجزاء (اليوم الآخر في ظلال القرآن – مشاهد القيامة في القرآن... مثلا)، وأحاديث النبي ﷺ عن البعث وأدلته (مثلًا حديث ابن المنتفق)، وتحقيق مفهوم علم اليقين، وعين اليقين في ذلك- الإيمان باليوم الآخر، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[البقرة: ٤] واليقين بالآخرة، بلا تردد ولا تأرجح في هذا اليقين؛ هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحِسّ المغلقة، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب، بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ما له في هذا الوجود، ومن يشعر أن حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء، وأن الحياة الحقيقية إنما هي هُنَالِك، وراء هذا الحيز المحدود.

وحقيقة البعث والحساب والجزاء في الدار الآخرة من مقومات العقيدة الأساسية التي جاء بها الإسلام ويقوم عليها بناؤه بعد التوحيد، والتي لا يقوم هذا الدين- عقيدة وتصورًا وخلقًا وسلوكًا وشريعة ونظامًا – إلا عليها وبها.

ومنهج الحياة الذي أنزله الله، يقوم كله على حقيقة الألوهية، وحقيقة الحياة الآخرة، ومن هنا كان التوكيد على حقيقة الآخرة؛ لأنها حقيقة، ولأن اليقين بها ضرورة لاستكمال إنسانية الإنسان ؛ تصورا واعتقادا وخلقًا وسلوكًا، وشريعة ونظاما؛ فعقيدة الآخرة، واليقين فيها هي التي لا يصلح قلب ولا تصلح حياة إلا بها، ولا تستقيم نفس ولا تستقيم حياة إلا بملاحظتها، ولا شيء يثبت النفس في الأحداث وتقلبات الأحوالِ إلا اليقين في الآخرة، فهي خير للذين يؤمنون، ويثبتون على الحق في وجه الزعازع، والفتن، ويمضون، لا يتلفتون، مطمئنين، واثقين، ملء قلوبهم اليقين(٨٩).

وعقيدة الآخرة الراسخة في ضمير القلب هي سعة في النفس، وامتداد في الحياة، ضرورية في تكوين النفس البشرية ذاتها، لتصلح أن تناط بها وظيفة العبادة والإعمار والاستخلاف في الأرض، وضرورية لضبط النفس عن شهواتها الصغيرة، ومطامعها المحدودة، وضرورية لتفسح مجال الحركة، فلا تيأس، ولا تقعد عن فعل الخير، والقيادة إلى الخير، حين تواجهها الفتن والتضحيات الأليمة... وهي ضرورية لتوسيع مجال الإدراك الإنساني.. إلخ، لذلك كله كان التوكيد شديدًا على عقيدة الآخرة في دين الله، كله.

ومن هنا كان من الواجب التربوي تربية يقين الآخرة في القلب وتقويته وتحكيمه فيه، والخضوع لسلطانه؛ من خلال تلاوة وتعلم آيات القرآن عنها

---

(٨٩) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، المجلد الأول، ص ٤١ والمجلد الثاني، ص ١٠٦٨ – ١٠٧١، والمجلد الثالث، ص ١٣٨٧.

(أول سورة الأنبياء، أول سورة الحج، سورة الواقعة... إلخ) وتعلم دراسة حديث الرسول عنها.

ومن خلال التأسي بسيدنا إبراهيم الخليل حيث طلب من الله تعالى أن يريه بالتجربة كيف يحيى الله الموتى؟ مع أنه كان مؤمنا يقينا بأن الله يبعث الموتى، لكنه أراد أن (يطمئن قلبُه) ببرهان عياني تجريبي، ليحقق عين اليقين، ويبين سبب طلبه من الله بقوله : ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة: ٢٦٠] روى ابن جرير بسنده الصحيح إلى سعيد بن جبير قال: قوله: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ ؛ أي: يزداد يقيني. وعن مجاهد؛ قال : لأزداد إيمانًا إلى إيماني. وإذا ثبت ذلك عن إبراهيم- عليه السلام- مع أن نبينا ﷺ قد أُمِر باتباع مِلتِهِ - كان كأنه ثبت عن نبينا ﷺ ذلك»(٩٠).

وقد قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]. فطريق تربية اليقين هو معاينة الدليل ورؤية الآيات والشواهد والدلائل الكونية في السموات والأرض، بالتفكر والتأمل والاعتبار، فهذا سبيل تربوي قطعي لتزويد اليقين في القلب، عقد له مسلم بابا في صحيحه، وفيه: باب زيادة طمأنينة القلب بتظاهر الأدلة (...) عن أبي هريرة؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**نَحنُ أحق بالشك من إبراهيم؛ إذ قال:** ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾» [البقرة: ٢٦٠] الحديث(٩١).

فإبراهيم مؤمن بحق، ولكن يريد الانتقال من العلم النظري بالبعث والجزاء، وإحياء الموتى، إلى العلم العياني الضروري القائم على دليل العيان، والمعاينة، والخِبْرَةِ التجريبية الحِسّية (بكيفية إحياء الله للموتى) وليس بالقدرة

---

(٩٠) فتح الباري، ج ١، ص ٤٧.

(٩١) إكمال المعلم، ج ١، رقم ٢٣٨، ص ٤٦٤- ٤٦٥.

على الإحياء ذاته، فهو قد حقق الإيمان بها؛ زيادة في اليقين وطمأنينة القلب،وسكون النفس، فقد كان له (إيمان) و(علم) بالوقوع،فأراد علما ثانيا بكيفية إحياء الموتى ومشاهدته، ليزداد يقينًا بالخبرة التجريبية والمشاهدة العيانية، لتحقيق الاطمئنان، لأن له عقلًا رشيدًا يبحث عن يقين المعرفة، عن أعلى درجات المعرفة واليقين، الممكنة، وينبغي أن نكون نحن ـ المسلمين ـ على مِلتِهِ فنؤسس إيماننا على العلم المبني على البرهان، بكل ما أمكننا من البراهين.

وقول النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**» هو نفي للشك عن سيدنا إبراهيم، وإبعاد للخواطر الضعيفة عن أن تظن بسؤاله وطلبه – ذلك- شكا فيما سأل، أي: نحن موقنون بالبعث وإحياء الموتى، وإبراهيم هو قدوتنا وإمامُنَا في ذلك، ونحن لم نشك، فهو أَوْلَى ألا يشك، فلو شك إبراهيم في ذلك لكنا أوْلى بالشك. وهذا مِن أَدب وتواضع سيدنا محمد ﷺ[٩٢].

وما سبق يربي داعية، ودافعة تربية اليقين في الآخرة في القلب، ينمي شهوة اليقين في الآخرة، ويدفع المسلم والمسلمة لتربية اليقين في القلب بشكل منظم ومستمر.. عن طريق:

دراسة آيات وسور القرآن وأدلته في البعث والجزاء ومشاهد القيامة؛ من خلال برنامج ذاتي للدراسة المتأنية لهذا الآيات والسور (مشاهد القيامة ـ اليوم الآخر في ظلال القرآن...إلخ)، ومن خلال دورات تربوية جماعية، ليلية، يجمع فيها بين الدراسة، والصلاة، والتفكر في اليوم الآخر.. ومن خلال استماع محاضرات ودروس في ذلك المحور.

- دراسة مجموع أحاديث الرسول ﷺ عن البعث والجزاء... ومحاولة حفظها والتمعن فيها، فيدرس على وجه الخصوص كتاب (البعث وأهوال يوم القيامة) من المنتقى من الترغيب والترهيب، ١١٧ حديثا، وما ثبتت

---

(٩٢) انظر: المصدر السابق، ص ٤٦٥.

صحته من كتاب (البعث) من مجمع الزوائد للهيثمي، المجلد العاشر، وكتاب (الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة) لصديق حسن خان، وأحاديث البعث من مسند أحمد، وبالذات: حديث ابن المنتفق(٩٣).. إلخ .

- الدخول في دورة تربوية جماعية، لمدة أسبوع متواصل، لتعميق اليقين في الآخرة، لتكون من الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤].

- الاستمرار في قراءة ورد القرآن وورد الحديث، وكلما جئنا على آية أو حديث يتعلق بالآخرة.. تأملناه وثبتناه في القلب، مع رجوع الدارس لكتب: (معارج القبول) الجزء الثاني، (ودراسات قرآنية) لمحمد قطب، وما ذكرناه سابقًا.

- مواصلة الدعاء لله أن يزيد يقيننا في الآخرة؛ وأن يجعل تفاصيل الآخرة في قلوبنا، حية صاحية مضيئة، تملأ قلوبنا.

٤- المتعلق الرابع لليقين: اليقين في حقائق الوحي ومقرراته المتضمنة في آيات القرآن وصحيح السنة، بكل أبعادها العقدية والخلقية، والتعبدية والتشريعية والسياسية والاقتصادية... إلخ. وهذا هو اليقين بآيات الله ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فيحصل العلم اليقيني بذلك كله، بالبرهان الذي لا شك فيه، ويقرر ذلك في قلبه، ويثبته، ويزيل كل شبهة، ويدفع، ويرد كل افتراء، ويخلص دينه من كل بدعة وأي انتقاص، ويطمئن إلى شمول الإسلام، ويستقر عليه، في قلبه وعقله، ونفسه من خلال الدرس العلمي للقرآن الكريم ولهذه الجوانب، من سوره، ومن أحاديث النبي الكريم، ومن سيرته، وسيرة الخلفاء الراشدين المهديين، والبرهنة على ذلك، والتفكر فيه، تفكرًا قائمًا على الاعتبار، من خلال برنامج تثقيف ذاتي منظم،

---

(٩٣) انظر هذا الحديث برواياته، في مسند أحمد، ج ١٢، أرقام ١٦١٢٦ إلى ١٦١٥٨، ص ٤٨٠-٤٩١.

بصير لدروس في القرآن الكريم تتناول محاور القرآن، ودروس من السنة، ودراسة كتب مختارة عن الإسلام مثل: (الإسلام) لسعيد حوى، (الحل الإسلامي) (٤ أجزاء) للقرضاوي، (خصائص التصور الإسلامي) لسيد قطب، وعامة كتب القرضاوي، ومحمد قطب وخصوصًا: (لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة)... ودراسة تفسير آيات مثل ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٣٧][٩٤].

وتلقى عقيدته وفكره وقيمه واتجاهاته كلها عن الحياة والكون.. والمجتمع.. إلخ من القرآن والسنة، وهو موقن بشمول المنهاج الإسلامي وحقيقته، وصلاحه المستمر للتطبيق في كل مجالات وشؤون الحياة.

٥- المتعلق الخامس لليقين: اليقين في إجابة الله للدعاء والتضرع من القلب: فقد أخرج الترمذي والحاكم بسند حسن عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**ادعُوا اللهَ، وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ**»[٩٥]. فدعاء الله يكون عن يقين قلب، وعن وعي، وعن قصد واهتمام.

وقد أخرج أحمد عن عبد الله بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**القلوب أوعية، وبعضها أَوْعَى مِن بعض، فإذا سألتم الله- أيها الناس- فاسألوه، وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل**»[٩٦].

---

(٩٤) انظر: سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٣، ص ١٧٨٥- ١٧٩٤.

(٩٥) الترمذي: السنن، ج ٥، حديث رقم ٣٤٩٠، ص ٢٩٢ وقال الألباني: حسن، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج ١، ط٣، حديث رقم ٢٤٥، ص ١٠٨ وهو في الصحيحة برقم ٥٦٤.

(٩٦) قال أحمد شاكر: إسناده صحيح، انظر: المسند،ج٦، حديث رقم ٦٦٥٥ وصححه في عمدة التفسير، ج ١، ص ٢٠٣، وقال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن. انظر: مجمع الزوائد ج ١٠، رقم ١٧٢٠٣، ص ٢٢٢ وقال المنذري: رواه أحمد بإسناد حسن. انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج ١، رقم ٩٢٨، ص ٤٥٦، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف، المسند، رقم ٦٦٥٥. قلت: الحديث له شاهد يحسنه، ويشهد لجزئه الأخير حديث أبي هريرة السابق.

وهذا الحديث يقرر ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: أن القلوب أوعية ؛ جمع وعاء، والوعاء هو الإناء الذي يعي أي: يحوي ويحفظ ما يوضع فيه ويحيط به، فالقلب وعاء يُمَلأ بالحق، أو الباطل، فشبه القلوب بالأوعية والأواني، فقلب الكافر منكوس، ومعكوس، لا يدخل فيه شيء من العلم والهدى والنور، وقلب المنافق مكسور ما يُلقى فيه من أوله وأعلاه، يخرج من أسفله، وقلب المؤمن إناء صحيح غير مَنْكوس يدخل فيه الإيمان ويبقى، وهنالك قلب صافٍ، وقلب مُكَدَّر غير نظيف.

وهناك إناء من ذهب، ومن فضة، ومن نحاس، ومن حديد، ومن فخار، ومن زجاج، وهناك إناء فيه نور، وآخر فيه ظلمة، وهناك قلب فيه الله، وقلب فيه إبليس.

وهناك إناء يسع كذا، وآخر ضيق، فقلب المؤمن إناء، وعاء الله، يملؤه الله بالإيمان، والمعرفة، والعلم، والحب، والخشية، واليقين، والعزم، والهمة العالية، وإرادة فعل الخير، والشوق إليه، والصفح والسماحة والرحمة، والرقة.. يملؤه من كل خير ينفع في الأرض، فهو وعاء يمتلئ بماء العلم ونور الهدى، والحق، مثل الوادي الطيب، الخصب، النقي التربة، حين ينزل عليه المطر الكثير فتشرب التربة الخِصبَةُ هذا الماء، وتقبله، وتتفتح له، وتستوعبه، وتختلط به، وتنصبغ به، وتنبت الكلأ والعُشب والزرع المثمر، كما قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري وغيره: «**مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل غيث كثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير،(...) فذلك مُثَل مَن فقه في دين الله؛ فَعَلِم وعَلَّمَ..**».

فالقلب المؤمن وعاء الله، يقبل هدى الله، وعلم الوحي، فيستقر فيه الحق والخير، والنور، وإرادة النفع للناس، وهذا مثل ما قال الله تعالى: ﴿**فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا**﴾[الرعد: ١٧]، فكل وادٍ يحمل من الهدى، والعلم، والخير بقدره، فكلما

وسعنا قلوبنا وفسحناها لله وعطاءاته من الهدى والنور، والفرقان، والأنس، والمعرفة.. امتلأ القلب وزاد ما فيه، من خير وهدى، ونور، ومعرفة، وهذا هو ما ينفع الناس في المجتمع، والكائنات في العالم.

فالقلوب كالأودية، وكالأواني، والأوعية، والنبي ﷺ قال عن ذلك العلم: «**العلم علمان: فعلم في القلب، فذلك العلم النافع، وعلم على اللسان، فذلك حجة الله على ابن آدم**»(٩٧).

فالقلب وِعَاء للعلم والهدى، والمعرفة، فيدرك العلم إدراكا صحيحا، ويفهمه، ويتيقنه بالأدلة، ويحيا به ويسلك على أساسه، ويستشعره في قلبه، ويكيف به مشاعره وعواطفه ويصبغ به وجدانه، وكل عبادة من عباداته، فهو يعي العلم، ويشعر به، ويشعره نفسه، وعن أبي ذر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليمًا، ولسانه صادقًا، ونفسه مطمئنة، وخليقته مستقيمة، وجعل أذنه مستمعة، وعينه ناظرة (...) وقد أفلح من جعل قلبه داعيًا**»(٩٨).

واعيا لماذا ؟ لأي شيء..؟ واعيا لله ومعرفته.. فهو قلب فيه الله.. وعطاءات الله .

ولا تعجب من هذا.. فهو كلام سلفي دقيق، سنترك ابن تيمية يشرحه لنا بأسلوبه هو.. فهنا أصل ينبغي التفطن له، وهو أن القلوب آنية وأوعية.. آنية الله وأوعية الله.. يُحِل ويضع فيها معرفته، ومحبته، ونوره، وهُداه، ولهذا يصح أن يقول المؤمن: الله في قلبي، وما في قلبي غير الله، ولندرس نصوص ابن تيمية

---

(٩٧) الدارمي: سنن الدارمي، ج ١، ط دار الحديث الأولى، ٢٠٠٠م، رقم ٣٦٤، ٣٦٥، ص ٩٨. وقال محققاه: صحيح، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٨٩ حديث رقم ٢٧٠). وقال المنذري في الترغيب: رواه الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه بإسناد حسن، ورواه ابن عبد البر... عن الحسن مرسلًا بإسناد صحيح، وفي الهامش: وقال السمهودي: إسناده حسن، انظر: المنتقى من الترغيب والترهيب، ج١، رقم ٥٥، ص ١١٧.

(٩٨) قال الهيثمي: رواه أحمد وإسناده حسن. مجمع الزوائد، ج ١٠، رقم ١٧٧٢١، ص ٤٠١.

الآتية، ففي رده على النصارى بَيّن حقائق عظيمة فيما يحل في قلب المؤمن من معرفة الله، ونوره، وذكره، يقول(٩٩):

«وعندهم أن الله يحل في الصالحين، وهذا مذكور عندهم (...) في المزمور الرابع من الزبور، يقول داود- عليه السلام - في مناجاته لربه: «وليفرح المتوكلون عليك إلى الأبد، ويبتهجون، وتحل فيهم، ويفتخرون (...) هذا يراد به حلول الإيمان به، ومعرفته، ومحبته، وذكره، وعبادته، ونوره، وهداه، وقد يعبر عن ذلك بحلول المِثال العِلمي.. فهو سبحانه له المثل الأعلى في قلوب أهل السموات والأرض، ومن هذا الباب ما يرويه النبي ﷺ عن ربه قال: «**يقول الله: أنا مع عبدي؛ ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه**» [البخاري ١٣/ ٥٠٨].

فأخبر أن شفتيه تتحرك له، أي: باسمه، وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «**عبدي مرضت فلم تعدني، (...) فلو عدته لوجدتني عنده**» ولم يقل: لوجدتني إياه، وهو عنده، أي : في قلبه، والذي في قلبه: المثال العلمي.. وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب (...) فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به..**» وفي رواية: «**فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشى..**».

وقوله: «**فبي يسمع**» مثل قوله: «**ما تحركت بي شفتاه**» يريد به المثال العلمي.. فيكون الله في قلبه، أي: معرفته، ومحبته، وهداه، وموالاته، وهو المثل العلمي، فبذاك الذي في قلبه يسمع ويبصر ويبطش ويمشى، والمخلوق إذا أحب المخلوق، أو عَظّمه أو أطاعه، يعبر عنه بمثل هذا، فيقول: أنت في قلبي(...).

---

(٩٩) شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ج ١، ص٥٢٨- ٥٣٠، ص ٥٥٠- ٥٥٤.

ومِـنْ عَجَبِـي أني أَحِـنُّ إلـيهم   وأَسَأَلُ عَنْهُمْ مَنْ لَقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وتطلبهم عيني وهم في سـوادها   ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

ومن تصور هذه الأمور تبين له أن لفظ الحلـول قـد يعـبر بهـا عـن معنـى صحيح، وقد يعبر بها عن معنى فاسد.

بل أبلغ من ذلك: يطلق لفظ الحلول والاتحاد ويراد به معنى صحيح، كـما يقال: فلان وفلان بينهما اتحاد، إذا كانا متفقين فيما يحبـان ويبغـضان ويواليـان ويعاديان، فلما اتحد مرادهما ومقصودهما؛ صار يقـال: همـا متحـدان، وبيـنهما اتحاد. ولا يعني بذلك، أن ذات هذا اتحدت بذات الآخر كاتحاد النار والحديد، والماء واللبن، أو النفس والبدن.

وكذلك لفظ الحلول والسكنى والتخلل، وغير ذلك، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني   وبذا سُمى الخليـل خلـيلا

والمتخلل مسلك الروح منه: هو محبته لـه، وشـعوره بـه، ونحـو ذلـك، لا نفس ذاته، وكذلك قول الآخر:

سـاكن في القلـب يعمـره   لـست أنـساه فـأذكره

والساكين في القلب هو مثاله العلمي، ومحبته ومعرفته، فتـسكن في القلـب معرفته، ومحبته، لا عين ذاته، وكذلك قول الآخر:

إذا سـكن الغـدير عـلى صـفاءٍ   وجُنِّـب أن يحركـه النـسيم
بـدت فيـه الـسماء بـلا امْـتِرَاءٍ   كذلك الـشمس تبـدو والنجـوم
كـذاك قلـوبُ أربـاب الـتجلي   يُـرى في صـفوها اللهُ العظـيمُ

وقد يقال: فلان ما في قلبه إلا الله، وما عنده إلا الله، يراد بذلك: إلا ذكـره ومعرفته، ومحبته، وخشيته، وطاعته، وما يشبه ذلك، أي: لـيس في قلبـه مـا في قلب غيره من المخلوقين، بل ما في قلبه إلا الله وحده.

ويقال: فلان ما عنده إلا فلان؛ إذا كان يلهج بذكره، ويفضله على غيره.

وهذا باب واسع، مع علم المتكلم والمستمع أن ذات فلان لم تحل في هذا، فضلًا عن أن تتحد به (...).

كما يقال: إن الله في قلوب العارفين وحالٌّ فيهم، والمراد به حلول معرفته، والإيمان به ومحبته، ونحو ذلك. وقد تقدم شواهد ذلك، فإذا كان الرب في قلوب عباده المؤمنين، أي: نوره ومعرفته، وعُبِّر عَنْ هذا بأنه حالٌّ فيهم، وهم حالُّون في المسجد؛ قيل: إن الله في المسجد وحال فيه بهذا المعنى، كما يقال: الله في قلب فلان، وفلان ما عنده إلا الله، كما قال النبي ﷺ: «... **فلو عدته لوجدتني عنده**».

ومعلوم أن ذات الله تبارك وتعالى ليست الذي في قلبه، بل في قلبه المثال العلمي ومعرفته، ومحبته (...) فيقول من ليس بغالط: الله في قلب فلان، وفلان ما عنده إلا الله، ومَنْ أراد الله فليذهب إلى فلان، وليس مرادهم أن ذات الله في قلبه، بل مثاله العِلمي ومعرفته وذكره، ومحبته، وأنه لا يعبد إلا الله، ولا يرجو إلا إياه، ولا يخاف إلا إياه، ولا يعمل إلا لله، ولا يأمر إلا بطاعته، فيفنى بعبادته عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه؟ وبمحبته عن محبة ما سواه» انتهى.

ويقول ابن تيمية(١٠٠): «وما يحل في قلوب المؤمنين من معرفة الرب والإيمان به هو قائم بقلوبهم، محتاج إليه، (...)

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥] قال أبي بن كعب: مثل نوره في قلب المؤمن.

وأما المؤمنون: فإن الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، ونوره، وهداه يحل في قلوبهم، وهو المثل الأعلى والمثال العلمي».

---

(١٠٠) ابن تيمية: الجواب الصحيح.. الجزء الثاني، ص ١٥٥- ١٨٥.

ويقول ابن رجب[١٠١]: «لا يزال هذا الذي في قلوب المحبين المقربين يقوى حتى تمتلئ قلوبهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيره، ولا تستطيع جوارحهم أن تنبعث إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومن كان حاله هذا؛ قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد: معرفته، ومحبته، وذكره، وفي هذا المعنى الأثر الإسرائيلي المشهور: «يقول الله: ما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن (...) فمتى امتلأ القلب بعظمة الله تعالى محَا ذَلِكِ مِنَ القلب كل ما سواه، ولم يبق للعبد شيء من نفسه وهواه، ولا إرادة إلا لما يريده منه مولاه، فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق؛ نطق بالله، وإن سمع؛ سمع به، وإن نظر نظر به، وإن بطش بطش به،..» .

هذا هو القلب المؤمن، وعاء الله، وإناء الله.. فهو مملوء به.. وبذكره، ومعرفته، وكَلاَمِه.

والحقيقة الثانية: هي أن القلوب ليست متساوية في كم ونوع ما تمتلئ به من الهدى والعلم والمعرفة والإيمان والخير واليقين والنور.. إلخ .

فهناك قلوب أوْعَى من قلوب، أي: أُكثر امتلاء، وخصبا، ووعيا، وإدراكا وبصيرة، وإيمانًا، وخيرًا، ومعرفة، وأُنْسا.. إلخ .

فقلب محمد ﷺ هو أوعى قلب، فهو أفضل قلب، وخير قلب، وأعرف قلب بالله، وأعقل قلب.. وأقرب قلب إلى الله.. كما سنفصل في الفصل الثلاثين الذي هو مِسْك هذا الكتاب بعون الله، وهو أشرح وأفسح قلب بالإسلام والإيمان والإحسان والرحمة، واليقين، وحب الخير للناس، أخرج أحمد عن عبد الله بن مسعود قال: إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خَيْرَ قلوبِ العِبَادِ، فاصطفاه لنفسِهِ، فابتعثه برسالتِهِ، ثم نظر في قلوب العباد، بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابِهِ خير قلوب العِبَادِ،

(١٠١) ابن رجب : جامع العلوم والحكم، ص ٤٣٤- ٤٣٥.

فجعلهم وُزَرَاء نبيه، يُقَاتلون على دينه، فما رَأَى المسلمون حَسَنًا فهو عند الله حَسَنٌ، وما رآه المسلمون سيئًا فهو عند الله سيئ»(١٠٢).

والمقصد: أن بعض القلوب خير من بعض، وأوسع، وأوعى، وهذا يشير إلى حقيقة مهمة هي: إمكانية توسيع القلب، وإثرائه، وإغنائه، وجعله أكثر امتلاء باليقين والإيمان، والخير، والنور، والمعرفة، والتوحيد، والشكر، والذكر، والرحمة، والرقة،.. إلى آخر قيم ومقامات القلب، المؤمن المحسن. عن طريق التفكر، والتعلم، وتوسيع المعرفة، والتزود من فعل الخير، وقصد البر، والحب، والرغبة في الصلاح والإصلاح، والتفتح بالمرحمة لخلق الله، وبتزويد اليقين، والاستكثار من الأدلة وبيانات الحق، وبالتعرض لرحمة الله، والدعاء في السحر، والتضرع والتمسكن بين يدي الله، وبالمبادرة لعمل الخير والطاعات لله، فكلما فعل المؤمن طاعة لله، زاد في قلبه نور.. وانشرح الصدر وانفسح، وبإحلال معرفة الله والإيمان به، والأنس به.. في القلب.

فهذا كله.. وما يلحق به يشرح الله به الصدر، ويوسعه، ويملأ به القلب، بالتوحيد والمعرفة، والإيمان والعلم، والهدى والتوكل.. وينشطه لذلك، ويبعثه في الخير.. ويعينه عليه.

ويمكن أن يضيق القلب فلا يتسع لشيء من ذلك؛ ولا يخلص إليه شيء من الإيمان، ولا ينفذ فيه شيء مما ينفعه، وينفع الناس، فيصير قلبًا ضيقًا كَالْحَرَجَة «وقد سأل عمر بن الخطاب رجلًا من الأعراب، من أهل البادية...: ما الحرجة؟ فقال: هي الشجرة، تكون بين الأشجار، لا تصل إليها راعية، ولا وحشية، ولا شيء، فقال عمر: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من الخير»(١٠٣).

---

(١٠٢) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، رقم ٣٦٠٠، عمدة التفسير، ج ١، ص ٧٢١، هامش رقم (٢).

(١٠٣) أحمد شاكر: عمدة التفسير، ج ١، ص ٧٢٢.

فالطريق لجعل القلب أُكثر وعيا؛ أي: إدراكًا وحفظًا، وإحاطة، وبصيرة، وامتلاء بالإيمان والمعرفة والخير والحياة، هي تربية التوحيد في القلب، وبالتعلم، والتفكر، وبإرادة الخير، وبالتضرع والدعاء، والتزام الأخلاق الحسنة. لنتأمل فيما رواه أحمد عن ابن عباس، قال(١٠٤): قال ﷺ: «**من أنظر مُعْسِرًا، أوْ وَضَعَ له؛ وقاه الله مِنَ فَيح جهنم، ألا إن عَمَلَ الجَنَة حزن** (صعب) **بِرَبْوَة** (مكان مرتفع يتطلب بذل الجهد)؛ **ثلاثا، ألَا إن عمل النار سَهْلٌ بشهوة. والسعيد مَنْ وُقِي الفتن، وما مِن جَرْعَةٍ أحب إلى الله مِن جَرْعة غيظ، يكظمها عَبْدٌ، وما كظمها عبد لله إلا مَلَأَ لله جَوْفَه** (قلبه وباطنه) **إيمانًا**»، قال ابن كثير: «انفرد به أحمد، وإسناده حسن، ليس فيه مجروح، وَمَتْنُهُ حسن» .

وكل هذا يعطينا أَمَلًا في تغيير قلوبنا وجعلها أمْلَأَ وأوْعَى، وقد أفلح من جعل قلبه واعيًا لله، وما علينا إلا بذل المجهود، وسوف يعطينا الله من عين الجود.. فيربي في قلوبنا اليقين، ويعظم فيها الخير.

أما الحقيقة الثالثة في هذا الحديث: فهي أن الله لا يستجيب دعاء عَبْد يدعوه. وهو غافل القلب، لاهٍ، عن معنى دعائه وعمن يدعوه، وعن الآخرة، فيدعوه باللسان وقلبه ساه، لاه، خال من اليقين، فارغ من المعرفة به، والحضور أمامه.. يدعو الله وبينه وبين دعائه قفة طعام.. وينادي من مكان بعيد.

يشعر أن قلبه صخرة، حطها السيل من عَلٍ.. فاستقرت جامدة صلدة في صدره..!!

ولهذا نبهنا الرسول ﷺ في الحديثين السابقين على هذا الأصل.. نصحًا منه لنا، وشفقة علينا، ورحمة بنا، وحرصًا على ما ينفعنا، فقال: «**فإذا سألتم الله- أيها الناسُ- فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة**» وذلك لأن الله (لا يقبل دعاء من ظهر قلب غافل لاه).

(١٠٤) المصدر السابق، ص ٣٦٩ والمسند، حديث رقم ٣٠١٧.

أي: ربوا اليقين في الله، وأنه المالك، القادر، المجيب، المعطي، كاشف الضر، الذي لا يتعاظمه شيء فالملك ملكه، والأمر أمره، وهو مع عبده إذا ذكره ودعاه، وتحركت له شفتاه، وهو قريب، يسمع ويرى، ويجيب دعوة مَنْ دعاه، عن أنس أنه حَدّث أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني**»(١٠٥).

وتربية اليقين في إجابة الله للدعاء مبنية على تربية التوحيد والإيمان، فالدعاء هو العبادة، وأكتفي هنا بنقل تفسير ابن كثير، لقوله الله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال في عمدة التفسير(١٠٦): «رَوَىَ الإمامُ أحمد: عن أبي مُوسَى الأشعري؛ قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غَزَاةٍ، فجعلنا لا نَصْعَدُ شَرفا (مكانًا مرتفعا)، ولا نهبط واديا؛ إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فَدَنا منا، فقال: «**يا أيها النَّاسُ، أَرْبِعُوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنما تدعون سميعا بصيرا، إن الذي تدعون أقربُ إلى أحدكم من عُنُق راحلته**» أخرجاه في الصحيحين، وبقية الجماعة، بنحوه، وروى الإمام أحمد، (ورواه مسلم بنفس اللفظ) عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا دعاني**».

وروى أيضًا عن أبي هريرة (ورواه البخاري في الأدب المفرد، ورواه معلقًا في صحيحه) أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «**قال الله: أنا مع عبدي ما ذكرني، وتحركت بي شفتاه**» قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ**﴾ [النحل: ١٢٨]، وكقوله لموسى وهارون، عليهما السلام: ﴿**إِنَّنِى**

---

(١٠٥) رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد، ج ١٠، رقم ١٧٢٠٤، ص ٢٢٣، قلت: ورواه أحمد ومسلم.

(١٠٦) أحمد شاكر: عمدة التفسير، ج ١، ص ٢٠٢.

مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦]، والمراد من هذا: أنه تعالى لا يخيب دعاء داعٍ ولا يشغله عَنْه شيء، بل هو سميع الدعاء، ففيه ترغيب في الدعاء، وأنه لا يضيع لديه تعالى؛ كما روى الإمام أحمد (...) عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه، يسأله فيهما الخير، فيردهما خائبتين**» ورواه أبو داود والترمذي، وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه» ا. هـ.

تربية اليقين في الدعاء بالتفكر في هذا كله، وفى آيات، وأحاديث الدعاء في مظانها وقبوله، ومحبته، وتعقله، وتصديقه، والتيقن فيه وممارسته، يثمر اليقين القوي في إجابة الدعاء، وأن الله مع عبده، حين يدعوه، فيزداد يقينًا، فيثبت في وقت المحن، ويتشجع، ولا يبالي بأي أذى، أو أية صعوبة، مثل إبراهيم الخليل، حين واجه أباه، وقومه، وطاغية عصره، النمروذ، وواجه (الجحيم) وهو يقول بقلبه ولسانه: حسبي الله ونعم الوكيل، ومثل مؤمني السحرة، ومؤمن آل فرعون، وآسية، وماشطة ابنة فرعون، حين واجههما فرعون عصرهما، ومثل محمد وأصحابه حين واجهوا طواغيت الأرض. إن اليقين يحول الدعاء إلى زاد ثوري حركي لا ينفد.

هـ- المبادئ العامة لتربية اليقين في قلب المسلم والمسلمة:

بهذه المُتَعَلَّقَاتِ الخمسة، وبتحقيق مفهوم اليقين، ودرجاته، فيها، يتحقق صَفَاءُ اليقين، الذي هو القيمة الثالثة لقلوب عباد الله الصالحين، آنية الله في الأرض، قيم الرقة واللين، والصلابة في ذات الله، والصفاء من الذنوب، والصفاء في اليقين، وهي التي تَجعل القلب أكثر محبوبية من الله تعالى، فيها يصير صاحب إناء الله محبوبا لله؛ الذي قال: «**فإذا أحببتُهُ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبْصِرُ بِهِ، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها،**

ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه...»[١٠٧].

وإذا أحبه الله نادى جبريل في السماء بهذه المحبة، أخرج البخاري عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب اللهُ عبدا؛ نادى جبريلَ: إن الله يحب فلانا فأحِبَّهُ، فيحبه جبريل، فينادي جبريلُ في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في أهل الأرض**»[١٠٨].

فتميل القلوب إليه، ويقبل الناسُ عليه، فيرضى عنه ساكن السماء وساكن الأرض.

فهذه القيم ذوات منزلة سامية، تستدعي من المسلم أن يسعى لاكتسابها والاتصاف بها، والمجاهدة من أجلها ليكون قلبه رقيقًا لينًا على المسلمين، وصلبًا في الدين، فلا يساوم عليه، ولا يتنازل عن جزء منه أبدًا، وصافيًا نقيًا من باطن الإثم وظاهره، وصافيا في اليقين في الله ورسوله، وآياته، ودينه، والبعث والجزاء، والقضاء والقدر، وإجابة الدعاء.

١ - وهذا اليقين بدرجاته ومتعلقاته يتفاضل في القلوب، ويزداد ويقوى، أي: يَتَرَبَّى، وينمو، ويزيد بكثرة التفكر في آيات الله في ملكوت السموات والأرض، والاعتبار بها، تدبر هذه الآيات:

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾[الأنعام:٧٥] فرؤية آيات الملكوت بالعقل وبصيرة القلب تربي اليقين فيه.

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾[الذاريات: ٢٠، ٢١] فالله يحثنا على أن نبصر آياته في الأرض وفي الأنفس.. لنحقق اليقين، فهو يتربى بكثرة التفكر والبحث وكثرة الأدلة وتضافرها وقوتها وظهورها.. فاليقين

---

(١٠٧) عن أبي هريرة؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى، قال: مَنْ عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب..**» الحديث، وانظر شرحه الممتاز في: ابن رجب: جامع العلوم والحكم، ص ٤٢٩-٤٤١.

(١٠٨) فتح الباري، ج ١، رقم ٦٠٤٠، ص ٤٦١.

بكل متعلقاته يزداد بذلك، وقد بَيَّنْتُ مع كل مُتَعَلَّق كيفية مختصرة لتربيته، قال في فتح الباري: «والأظهر المختار: أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر (التفكر) وتظاهر الأدلة، (...) ويؤيده أن كل أحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل، حتى أنه يكون في بعض الأحيان الإيمانُ أعظم يقينًا وإخلاصًا وتوكلا مِنْهُ في بعضها، وكذلك في التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها»(١٠٩).

فإذا صفا اليقين؛ خالطت بشَاشةُ الإيمان هذا القلب، كما قال هرقل لأبي سفيان: «وسألتكَ: أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أنْ: لَا، وكذلك الإيمان، حين تخالط بشاشَتُه القلوبَ»(١١٠).

وفي رواية ابن إسحاق: «وكذلك حلاوة الإيمان؛ لا تدخل قلبًا فتخرج منه»(١١١). والبشاشة: الانشراح والحلاوة.

والقصد أن نقرر أن تربية اليقين تكون بكثرة التفكر، وكثرة الأدلة، والترقي في منازل العبادة والتوحيد، وعقد الصحبة مع أهل اليقين، والاستماع لكلامهم، والدراسة لآيات الله، وأحاديث رسوله، في كل متعلق لليقين، والصلاة بهذه الآيات، وتذوق كل متعلق، وعقد القلب عليه، ودراسة نخبة مختارة من الكتب العلمية الصحيحة التي تربي اليقين، وقد ذكرت بعضها، ومنها أيضًا: (فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد)، كتاب (الإيمان) للزنداني، (معارج القبول) بجزءيه للحكمي، (ركائز الإيمان) لمحمد قطب، (لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة) لمحمد قطب، (دراسات قرآنية)، له، وكتابه: (لا يأتون بمثله)، وكتب القرضاوي: (الإيمان والحياة)، (المرجعية الإسلامية

---

(١٠٩) فتح الباري، ج ١، ص ٤٦.

(١١٠) البخاري، كتاب بدء الوحي، في فتح الباري، ج ١، رقم ٧، ص ٣٢ ورواه برقم ٥١، وزاد: «لا يسخطه أحد» ص ١٢٥.

(١١١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج ١، ص ١٦٢.

العليا)، (شمول الإسلام)، وغيرها، و(خصائص التصور الإسلامي)، و(مقومات التصور الإسلامي) لسيد قطب، وكلها كتب قيمة رَبَّتْ يقيني، ونفعني الله بها، وتتبع أية بادرة شك، بالبحث والدرس، والاستدلال، والانتقال منه، إلى مرحلة الذوق، والاعتبار، والبيان، والشعور.

ومن المهم النافع التعاون على إنجاز ذلك، بالدرس الفردي، والبرامج الجماعية.. والليالي الربانية، والذكر، ومداومة تلاوة القرآن بالتفكر، ومدارسة حديث رسول الله، وسيرته ﷺ، ومصاحبة سير أعلام الموقنين ومعايشة أهل اليقين، وصحبتهم. وتدبر النص التربوي الآتي للغزالي، وهو نص عليه نور، بحق، يقول: «فلابُد مِن تَقْوِيته وإذباته [في القلب والنفس] حتى يترسخ ولا يتزلزل، وليس الطريق في تقويته وإثباته أن يتعلم صنعةَ الجدل، والكلام، بل يشتغل بتلاوة القرآن، وتفسيره، وقراءة الحديث ومعانيه، ويشتغل بوظائف العبادات، فلا يزال اعتقاده يزداد رسوخا بما يقرع سمعه من أدلة القرآن وحججه، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث وفوائدها، وبما يسطع عليه من أنوار العبادات.. وبما يسري إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسيماهم، وسماعهم، وهيئاتهم في الخضوع لله عز وجل، والخوف منه، والاستكانة له، فيكون أول التلقين كإلقاء بَذْرٍ في الصَّدْرِ، وتكون هذه الأسباب كالسَّقْي والتربية له، حتى ينمو ذلك البذر ويقوى ويرتفع شجرة طيبة، راسخة، أصلها ثابِت، وفَرعها في السماء»(١١٢).

فلنطبق هذا الأصل التربوي في كل متعلق من متعلقات اليقين .

٢- والآليات التربوية السابقة- وحدها - لا تربي اليقين في القلب، **فهذه التربية، تحتاج- أولا - إلى تنمية شهوة، وداعية، وإرادة الاتصاف باليقين؛** شهوة اليقين في الله، وفي الرسول وفي القرآن، وفي اليوم الآخر...، وهذه

---

(١١٢) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ج١، ص ١٦٢.

الإرادة التي تدعو إلى طلب اليقين والبحث عَنْه، هذه المحبة التي تولد الرغبة في اليقين تنبع من معرفة أهمية ومنزلة اليقين، معرفة عميقة، وتذوقها بالقلب، فيتطلع القلب للاتصاف بها؛ وذلك من خلال الآليات السابقة، ودراسة مضمون هذا المبحث، والتأمل فيه، ومن خلال: محاسبة النفس والتقويم الذاتي لها: هل هي ترغب في كل متعلق لليقين وفى كل درجة من درجاته؟ هل تشتهي أن يتخلق القلب به؟ وأن يكون الله ومرادات الله في القلب؟ أم هل تقبل أن تعيش على الأوهام والظنون، وعموميات المعارف دون برهان، ودون ذوق، وعرفان؟

ويساعد على ذلك دراسة آيات القرآن في محاور اليقين، وأحاديث الرسول المذكورة هنا، ومنزلة اليقين في كتاب (مدارج السالكين)، وسيرة إبراهيم الخليل، وسيدنا محمد، وسيدنا أبي بكر الصديق، والحسن البصري، والثوري، والداراني، والإمام أحمد بن محمد بن حنبل، وغيرهم، والكتب التي تناولت اليقين مثل: (اليقين) لابن أبي الدنيا، وأمثال هذا مما ينمي شهوة اليقين في القلب.

وهذا كله من خلال برامج فردية، وجماعية، ومن خلال دروس الفضائيات ومواقع النّت.. إلخ .

٣- مصاحبة أهل اليقين: آلية تربوية مهمة؛ فالقلوب تتثاقف، ويتعلم بعضها من بعض، فصحبتهم تورث في القلب الرغبة في الاتصاف باليقين، وتحث النفس على التأمل والتفكر، والتذوق، ومباشرة وسائل تربية اليقين: الدرس، والتفكر، والتضرع لله والدعاء، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وصحبة السيرة النبوية.. إلخ.

كما أن صحبتهم عامل مساعد في إزالة أي ضعف أو أية شبهة أو شك قد يعرض للقلب أو العقل، فيسألهم ويحاورهم، ويبحث معهم، ويسترشد

منهم، عن كتاب أو فكرة تزيل الشبهة، وتثبت اليقين، أو تزيد الاطمئنان.

وعليه أن يتخذ إبراهيم الخليل قدوة له في ذلك، فهو قد سأل الله أن يريه كيف يحيى الموتى، ليطمئن قلبه، والحمد لله.

٤- **جَدْوَلَةُ اليقين، ومراجعة القلب عليه بالتقويم الذاتي**: أي: تحويل المضمون السابق إلى جدول للتقويم الذاتي للتخلق بقيم اليقين، فيقوم بعمل قائمة بمفردات ومتعلقات اليقين، ودرجات كل متعلق، من علم اليقين إلى حق اليقين، وأساليب تنمية وتزويد (تربية) كل متعلق، في كل درجة. ثم يحدد الباحثُ عن اليقين موقفه في النهر المقابل: هل يفهم.. أم لا؟ وفي النهر الثالث: هل يرغب فى الاتصاف أم لا؟ وفي النهر الرابع: هل يمارس هذا الأسلوب أم لا؟ وفي الخامس يحدد: هل عَزَمَ على ممارسة ما لم يمارسه، أم لا؟ ويحدد موقفه العملي، ويشرع - فورًا - في الاستدراك.

٥- **الممارسة الفعلية لمتعلقات اليقين**: أي: أن يتعمق أدلة كل منها، ويذوقها، ويشعرها نفسه، ويباشرها بقلبه، ويترقى من الدليل إلى المدلول عليه، ويشاهده بعين قلبه، ويشعره قلبه، ويستطعمه، ويتطلع إلى الأعلى- دائمًا- من شهود العين إلى شهود العقل إلى شهود القلب، ويشرع فورا في عمل برنامج تثقيف ذاتي، في كل متعلق، ينفذه بصرامة وثبات، ويتعاون مع صديق صدوق له في ذلك.

٦- **عقد ثلاث دورات تربوية قلبية مخصصة لليقين**، بهدف: تنمية تصور صحيح عن اليقين، ودرجاته، ومتعلقاته، ومنزلته، وثمراته، وفضله عند الله، وتنمية رغبة الاتصاف باليقين، وتنمية العزم على ممارسة اليقين، والشروع في تنفيذ بعضها في نفس الدورات (مثل التلاوة - الدعاء...).

وتحقيق أهداف هذه الدورات يتطلب دراسة دقيقة لمحتويات هذا المبحث، والمواقف المذكورة فيه للبحث عن اليقين، ومواقف ممارسة اليقين (سيدنا

إبراهيم، سيدنا أبو بكر الصديق)، كما يتطلب عبادة مشتركة، تتعلق بتربية اليقين؛ صلاة بآيات اليقين، تلاوة سور وقراءتها جماعيًا، ممارسة أدعية وتضرع تتعلق بأبعاد اليقين، محاضرات عن اليقين، تطبيق جدول التقويم الذاتي لتصحيح الذات، تخصيص نصف ساعة للتفكر في أدلة البعث بعد الموت تفكيرًا منظمًا، إعطاء وإلقاء خواطر عن التفكر السابق بعد صلاة الفجر، تناصح وتواصٍ باستكمال مقومات اليقين، استكمالًا ذاتيًا في باقي أيام الأسبوع أو الشهر، توزيع ورد اليقين: لحفظه، ودراسته، والتفكر فيه، والعمل بمقتضاه، وهو عشر آيات قرآنية، عن كل متعلق وثلاثة أحاديث صحيحة في كل متعلق.

٧- **الدعاء والتضرع لله**: فالدعاء سلاح تربوي فعال، يثبت المعنى المطلوب ويركزه في القلب، وهو عبادة يقينية من جهة أخرى، فهو ممارسة لليقين في الله، وقدوتنا هو سيدنا إبراهيم ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] وعملا بدعاء ابن مسعود عن عبد الله بن عكيم، أن ابن مسعود كان يدعو: «اللهم زِدْني إيمانًا ويقينًا وفهمًا- أو قال: عِلْمًا»[(١١٣)].

٨- **نشر وتعميم ثقافة اليقين الحق في الأمة**: من خلال ما يسمع ويعلق في البيوت، ومن خلال خطب ودروس المساجد، ومن خلال توجيه الفضائيات الإسلامية لتناول هذه القيم، في سلاسل علمية جذابة، ومن خلال إنجاز أشرطة فيديو، وكاسيت، وسيديهات تتناول هذه المتعلقات لليقين ومن خلال مقالات الصحف والمجلات الإسلامية، والندوات في المدارس والجامعات، والأشعار والأناشيد، حتى في الأفراح الخاصة بالمسلمين، حتى تكون ثقافة يقين ينشأ فيها الناشئون، ويتربى عليها المسلمون، ويتشربها العطشى الباحثون

---

(١١٣) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير (٨٥٤٩) وإسناده حسن، مجمع الزوائد، ج ١٠، رقم ١٧٤٣٧، ص ٢٩٦.

عن اليقين.

٩- يجب – ضرورة- التركيز على أن اليقين هو فيما يتعلق بالإيمان والدين وَالوحي، أما ما يتعلق بالعلوم الطبيعية، وما هو مِن قبيل الآراء والنظريات، فالبحث فيها عن اليقين وارد، لكنه ليس شرطًا من شروط علومها، فالاحتمالية والنسبية أمر معلوم ومقبول في مثل هذه الجوانب.

١٠- **وأختم فأقول**: لكي يتم تربية اليقين بحق، يلزم التنبه لأمر هو أن اليقين قوة حاملة دافعة للتقدم والترقي، فهو فكرة حياة، يحمل على ركوب الأهوالِ، ومغالبة الشدائد، ومصادمة الزلازل، ومقارعة الفتن، فتربية اليقين في القلب هي تربية للإنسان الشهيد المجاهد، الحريص على الحياة الحرة العزيزة، أو الموت الحر الكريم.

إن تربية اليقين تدخل معرفة الله وحبه في القلب وتخرج منه إبليس ! تدخل الرسول في القلب، وتخرج منه الهوى، تدخل القرآن ودين الحق في القلب، وتخرج منه شهوات الغي، ورذالات العلمانيين، تدخل اليوم الآخر، وتخرج الجحود والهمود من القلب.. تدخل النور في القلب، وتطرد الظلمة، تدخل العلم في القلب، وتطرد الجهالة ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

سابعًا: خاتمة ونتائج:

يتبين من التحليل السابق جملة من الحقائق المتعلقة بالقلب وتربيته:

١- الله سبحانه له آنية وأوعية في الأرض، وهي قلوب عباده الصالحين، فهي أواني الله في أهل الأرض، فالقلب هو وعاء وإناء، وظرف وموضع وكل يضع الله فيه رحمته، ونوره ومعرفته، وفضله ومحبته... ثم يفيض القلبُ على الجوارح آثار هذه العطاءات، والأمداد الربانية، فتظهر على الوجه واللسان، وفي الأقوال والأفعال والأحوال، ومن هنا يحرص القلب المسلم على أن يكون

إناء الله، لا غيره، وعلى أن يوسع هذا القلب ليعي أكثر من غيره.

٢- إن الله- سبحانه- يحب هذه القلوب، وحبه لبعضها أكثر من حبه لبعضها الآخر، وأحب القلوب الصالحة العابدة له- إلى الله هي التي تتصف بالرقة واللين على المسلمين، والصفاء من الذنوب، والصلابة في الدين، والرسالية التي لا تقبل المساومة على أي شيء من دينها، والصفاء في اليقين.

٣- إن تجريد العبادة لله، والصلاح، والرقة، واللين، والصفاء من الذنوب، وصفاء اليقين، والصلابة في ذات الله، هي قيم محبوبة لله، وهي تحدد وتُعَيّن أهدافا وغايات تربوية للقلب، أي: تشكل استراتيجية لتربية القلب تتطلب خططا وأساليب تربوية لاكتسابها؛ أي: ليصل القلب إلى أن يكون عابدا لله، صالحًا، رقيقًا، لينًا على الإخوة المسلمين، صافيا من الذنوب، نقيًا، صافيًا في اليقين بكل محاوره، صلبًا في الدين .

هذا هو القلب الذي يريده الإسلام، والذي يريد تحقيق المشروع التربوي الإسلامي الذي يجب أن تجند له طاقات الحركة والفعالية التربوية الإسلامية. وهذه هي الشخصية التي يريدها الله، قلبها إناء الله، ووعاء الله، إنه فيه الإيمان والعبادة والصلاح، والخير، والرحمة والرقة واللين والصفاء واليقين في الله، ودينه، وكتابه ورسوله، واليوم الآخر . هذا هو ضمير المسلم الحق.

٤- واكتمال شخصية المسلم، والمسلمة، لا يتحقق إلا باكتساب هذه الأهداف التربوية؛ قيم القلب، بحيث يتصورها تصورا واضحًا صحيحًا مبرهنًا عليه، ومقتنعا به، ويرغب فيها، ويميل إليها، وينعطف نحوها بمشاعرها، ويحبها، ويشتهيها ويقصدها قصدًا، ويعزم عليها، أي: يُذَوِّتُها، ويدمجها في ضميره، وبحيث يمارسها في صورها السلوكية، فتشكل جزءا من ضميره الإيماني الخلقي الذي يشعره بالمسؤولية نحو فعل هذه القيم .

فيعظه من داخل قلبه، ويوجه مسيرته ببوصلة اليقين، في خضم الحياة،

حيثما كان، أي: أن تتحول (معرفة) هذه القيم، إلى حكمة يـذوقها، ويخبرهـا، ويستشعرها، ويستطعم بشاشتها، ويعمل بها.

٥- إن كل واحدة من هذه القيم لها عمليات تربويـة ضروريـة للاتـصاف بهـا: عمليـات تغذيـة وإمـداد، وعمليـات حمايـة ووقايـة، وعمليـات رعايـة مستمرة، واهتمام، وهي أنشطة تتنوع من عمليات ونشاطات لاكتساب المعرفة والقناعة بهذه القيم، فيعرفها، ويستوعبها ويذكرها ويتفكر فيها، ويقتنـع بهـا، وعمليات تذويت، لاكتساب الرغبة فيها، والمحبة لها، والاشتهاء لها (والقلب يهوى ويتمنى- والقلب يشتهي) والعزم الإرادي الجازم عَلَى فعلها، والشعور القـوي، بالحاجـة إليهـا، والعطـش لهـا، وعمليـات للتعـود عـلى ممارسـتها، وتذوقها. وقد بينت شيئًا من تلك العمليات في أثناء التحليـل الخـامس بكـل قيمة منها.

٦- إننا لا نفصل قيم هـذا الفـصل عـن قـيم الرحمـة والرقـة في الفَـصْلين السابقين، ولا قيم لـين القلـب فى الفـصل القـادم، فهـي كلهـا وحـدة قيميـة واحدة، ومنظومة قيمية متسقة، للقلب المسلم، فالرقة- مثلًا- هـي جـزء مـن الرحمة، وهما معًـا لا يتحققـان مـع وجـود القـسوة، والـتخلص مـن القـسوة والغِلظة طريق ناجع واصل مؤد إلى الرحمة والرقة واللين والصفاء، واليقين... فهي (منظومة)، بين أجزائها علاقات تأثير وتأثر، وتداخل وتلازم، وتفاعـل. إنها نسق قيمي واحد يتميز به المسلم الحق.

٧- إن الرقة واللين لا تعني (الميوعة) في التدين، بل هي رقة القلب المؤمن الموقن الصافي، الصلب في ذات الله، الرسالي الشهيد الذي يفدي دينـه بروحـه ودمه.

هي رقة ورحمة، ولين، وصفاء تجعله غزير الدمعة في جوف اليـل، خاشـع

القلب، سريع التأثر لمنظر وردة جميلة، وسريع البكاء؛ رحمة لطفل يتيم، وفي نفس الوقت تجعله مصمما على كلمة الحق، ثابتًا في موقفه، على المبدأ، الذي آمن به، يقف في وجه العالم كله؛ لو وقف العالم كله ضد كلمة الله. فالمؤمن إبراهيمي محمدي، صديقي النزعة والموقف. والإيمان موقف لكن هذه الصلابة في الدين، ليست صلابة جوفاء، ليست صلابة قالب وشكل، وخشب، إنها صلابة قلب فيه نور الله، وهداه، ومعرفته، وتقواه، وذكره وابتغاء رضاه، صلابة مفعمة بالحكمة والعبرة والبصيرة، صلابة قلب يعمره الله، وكتاب الله، ورسول الله.. يقول كما قال الجنيد:

حاضر في القلب يعمره — لست أنساه فأذكره
غاب عن سمعي وعن بصري — وسويداء القلب تبصره
فهو مولاي ومُعْتَمَدي — ونصيبي منه أوفره

قلب يناجى الله:

إن قلبا أَنْتَ سَاكِنُهُ — غير محتاج إلى السُّرُج
وجهك المأمول حجتنا — يوم يأتي الناسُ بالْحُجَجِ

صلابة مفعمة باليقين المؤسس على البرهان، وعلى الخبرة، والذوق الشعوري، ومخالطة بشاشة الإيمان لِذرات القلب ومشاعره.

٨- إن القضية التربوية المهمة ليست أن نقرأ، وندرس ونفكر، أو نتكلم، أو نكتب في هذه القيم، فقط، بل الأساس والأصل أن ننتقل من الوعي إلى السعي، ومن التدريس إلى التأسيس، ومن المدارسة إلى الممارسة، ومن الذهن إلى التذوق والوَجْد والوجود والشعور، والحياة. والحمد لله .

ثامنًا: أسئلة وأنشطة لإثراء الفهم وتسهيل الممارسة وحسن التطبيق:

١- بين علاقة قيم هذا الفصل بقيم الرحمة والتخلص من القسوة في الفصلين السابقين، وبقيم لين القلب لرسول الله محمد ﷺ في الفصل

السادس، وبقيم فصل تربية القلوب (الفصل الثامن) .

٢- قم بإعداد وتجهيز منظومة أو مصفوفة قيم لتربية القلب من خلال تفريغ محتويات هذا الفصل في جدول قيمي، ووزع صورًا منه على من تحب.

٣- استخدم الجدول القيمي السابق، لإعداد جدول تقويم ذاتي، يتضمن أربعة أنهر: الأول: للقيم، وتحت كل قيمة صورها السلوكية المذكورة في هذا الفصل والتي قد تضيفها من فهمك. وفي النهر الثاني: تحدد: هل تفهم كل واحد منها أم لا؟ وفي النهر الثالث: هل تشتهي الاتصاف بها أم لا؟ وفي الرابع: هل تمارس كل واحدة أم لا؟

٤- استخدم الجدول السابق لتقويم ذاتك، وثلاثة ممن تحبهم وتعرفهم من المسلمين، وتعاونوا على تطوير قلوبكم .

٥- حلل ثم حدد المقصود بالمفهومات الآتية: الرقة- الصلابة- الصفاء من الذنوب- الصفاء في اليقين .

٦- قم بإعداد محاضرة عن أهمية اليقين، ومحاوره ومتعلقاته وأساليب اكتسابها، وبين علاقة ذلك بتربية الضمير المؤمن، ومدى حاجة المسلمين المعاصرين لذلك.

٧- طُلِب منك التخطيط (لدورة تربوية) في موضوع (آنية الله في أهل الأرض)، حَدِّد - في جدول مكتوب: الأهداف: المعرفية والوجدانية والسلوكية العملية، للدورة، والنشاط المعرفي العلمي، والتعبدي، الذي يؤدي إلى اكتساب هذه الأهداف، وجدول التقويم الذاتي الذي يستخدم ويطبق في نهاية الدورة، والأنشطة البَعْدِية التي تدعم أهداف الدورة، بما فيها ورد اليقين الذي توزعه، ليفسر، ويمارس بعد الدورة .

٨- قم بعمل (حاشية) و(هوامش) على مبحث (الصلابة)؛ هات النصوص الكاملة لما ذكرته من نماذج وأضف مواقف أخرى، تركتُها اختصارًا

(مثلًا: موقف ماشطة ابنة فرعون، موقف آسية امرأة فرعون، موقف أبى بكر الصديق أيام الردة، الموقف المذكور في سورة إبراهيم، موقف عبد الله بن حُذَافة السهمي) .

٩- ما رأيك الصريح في كتابة المؤلف لهذا الفصل؟ هل ترى أنه جاء بجديد في الموضوع ؟

١٠- أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أبي هريرة؛ قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَ القومُ الأَزْد؛ طيبة أفواههم، بَرَّةٌ أيمانُهم، نقية قُلُوبُهُم**»(١١٤).

بَرَّ في يمينه: صَدَقَ. لماذا مدح النبي ﷺ المؤمنين من قبيلة الأَزْدِ؟ اشرح قوله:« نقية قلوبهم» في ضوء المعنى الأول لصفاء القلب.

١١- حلل الموقف الآتي، ثم بين دَلاَلَتَهُ في تربية اليقين: «أخرج عبد الرزاق [٢٠٥١٢] ، وابن سعد [٣/ ٢٤٩] وابن جرير [١٤/ ١٢٢] وابن أبي حاتم [٩/ ٨٣]، والحاكم وصححه، على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي [٢/ ٣٥٧] والبيهقي [٨/ ٢٠٨]، وابن عساكر [٤٣/ ٣٧٣]؛ من طريق أبي عبيدة ابن محمد بن عمار عن أبيه؛ قال: أخذ المشركون عمار بن ياسر، فلم يتركوه حتى سبَّ النبي، وذكر آلهتهم بخير، فتركوه، فلما أتى النبي ﷺ قال: «**ما وراءك؟**» قال: شر، ما تُرِكْتُ حَتّى نِلْتُ منك، وذكرتُ آلهتهم بخير. قال: «**كيف تجد قلبك؟**» قال: مطمئنا بالإيمان. قال: «**إن عادوا فعد**». فنزلت: ﴿**إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ**﴾ [النحل: ١٠٦] قال: **ذاك عمار بن ياسر**(١١٥).

١٢- تذوق الموقف الآتي: ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حُذَافة السهمي (صحابي ﷺ) أنه أسرته الروم، فجاؤوا به إلى ملكهم، فقال له: تنصر، وأنا أشركك في ملكي، وأزوجك ابنتي. فقال له: لو أعطيتني جميع ما

---

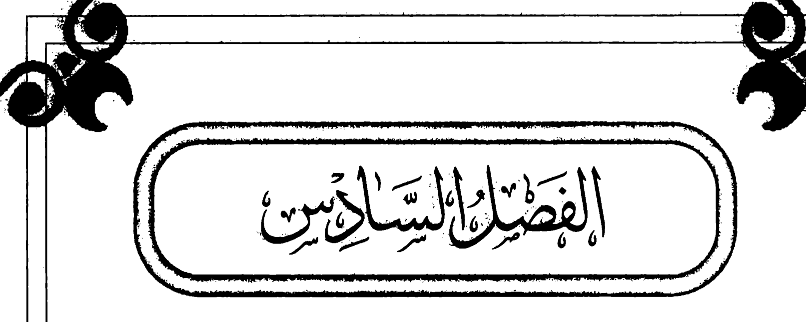
(١١٤) إسناده صحيح، المسند، ج ٨، رقم ٨٦٠٠، ص ٣٦٥.

(١١٥) الشوكاني: فتح القدير، ج ٣، ص ٢٧٤.

تملك وجميع ما تملكه العرب على أن أرجع عن دين محمد ﷺ طرف عين؛ ما فعلتُ. فقال: إذن، أقتلك! فقال: أنت وذاك، قال: فأمر به فَصُلِب، وأمَرَ الرماة فرموه قريبا من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية، فيأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم أمر بقِدْر، أو بكرة من نحاس، فَأُحْمِيَتْ، وجاء بأمير من المسلمين فألقاه، وهو ينظر، فإذا هو عظام تَلُوحُ. وعرض عليه فأبى، فَأَمَر به أَنْ يُلْقَى فيها، فَرُفِع في البكَرة ليُلْقَى فيها، فبكى، فطمع فيه، ودعاه، فقال: إني إنما بكيتُ لأن نفسي هي نفس واحدة تُلْقَى في هذه القِدر، الساعَةَ في الله، فأحببت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب في الله. وفي رواية أنه سجنه، ومنع عنه الطعام والشراب أيامًا ثم أرسل إليه بخمر ولحم خنزير، فلم يقربه، فاستدعاه، فقال : ما منَعك أن تأكل؟ فقال: أما إنه قَدْ حَلّ لي، ولكن لم أكن لأشمّتك فيَّ، فقال له الملك: فَقَبّل رأسِي، وأنا أُطْلِقُكَ. فقال: تطلق معي جميع أسارى المسلمين. فقال: نعم. فقبل رأسه، فأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده . فلما رجع؛ قال عمر بن الخطاب ﷺ: حَقّ على كل مسلم أن يُقَبّل رأسَ عبد الله بن حُذَافة. وأنا أبدأ. فقام، فقبل رأسه رضي الله عنهما[١١٠٦].

وبعد أن تتذوق هذه الواقعة، بين دلالتها في تربية الصلابة في الدين.

(١١٠٦) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٤، ص ٢١٩٦ - ٢١٩٧



الفصل السادس

تربية القلوب التي تلين وتحن إلى رسول الله محمد ﷺ

تربية القلوب التي تلين وتحن
إلى رسول الله محمد ﷺ

وَمِـنْ عَـجَـبٍ أَنِّي أَحِــنُّ إِلـيْهِــم ... وأَسْــأَلُ شَوْقًا، عَنْهم، وهُــمْ مَعِـي!
وتَطْلُـبُهم عَيْنِـي، وهــم فِي سَـوَادِهَا ... ويشكو النَّوَى قَلْبِي وهُمْ بين أَضْـلُعِي!

* * *

أحِــنُّ بــأطْرافِ النَّـــهَارِ، صَـــبَابَةً ... وفي الليْلِ يَدْعُونِي الهَــوَى فَأجِـيبُ
وأيامُنــا تَفْــنَى، وشَوْقِـــي زَائِـــدٌ ... كَـأنَّ زَمَـان الـشَّوْقِ ليْـس يـَغِيبُ
فيَــا سَــاكِنِي أَكْنَــافِ طَيْبَــةَ كُلُّكــم ... إلى القَلبِ مِنْ أجْلِ الحَبِيبِ حَبِيـبُ

كان موضع هذا الفصل بعد فصل (تربية تجدد الإيمان في القلـب)، لكنـي نقلته هنا لأنه يتضمن بعدا من أبعاد قيمة رقة القلب ولينـه، أي: رقـة القلـب ولينه وحنينه لرسول الله ﷺ، فتتكامل قيمة اللين والرقة في منظومـة متتابعـة، ولأن قيمة لين القلب للرسول، هي ثمرة مـن ثمـرات اليقـين في رسـول الله، فألحقت الثمرة بالشجرة، حيث تناولت اليقين في الفـصل الخـامس، وأتنـاول هنا في السادس ثمرة اليقين فيه، وهو لين القلب وحنينه للرسول ﷺ.

وقدمته هنا متعجلا لاندفاع قلبي نحو رسـول الله ﷺ وحبـا لـه، وشـوقا إليه، وحنينا، فعجلت إلى ذكره ومحبته.

وقدمته لأن الأمة في أمس الحاجة إليه، وقد ثارت وغضبت لتعدي بعض الكفار من (الدنمارك) ومن الدول الغربية الأخرى - بالرسوم الوقحة - عـلى السيد الرسول محمد ﷺ وغضبت الأمة غضبة حق أثلجت صدري بقـدر مـا آذاه الكافرون[1] بموقفهم من نبي الله محمد ﷺ، فقدمت هذا الفـصل شـكرًا

---

(١) انظر: باسم خفاجي: لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لعلاقة الغـرب بنبـي الإسـلام، ط١، كتـاب البيان، مجلة البيان، الرياض، السعودية، رمضان ١٤٢٧هـ - أكتـوبر ٢٠٠٦م، ويـدرس كـل هـذا الكتاب.

لله، ولينظر المسلمون فيه، ويربوا الحنين في قلوبهم، واللين لرسول الله ﷺ.

وهذا الفصل له استكمال خاص بتربية عقيدة الإيمان بالرسول ﷺ؛ نصف شهادة التوحيد، وهو ركن فصلناه في فصل (تربية تجدد الإيمان في القلب) والحمد لله.

أَيْنَ الذين بِنَارِ حُبِّكَ أرْسَلُوا	الأنوار بين مَحَافِلِ العُشَّاقِ
سَكَبُوا الليالي في أنَينِ دموعهم	وتَوضؤوا بمَدَامِعِ الأشْوَاقِ؟!

أولا: نص الخطاب النبوي:

أ- قال أحمد: حدثنا حيوة؛ ثنا بقية، ثنا محمد بن زياد، حدثني أبو راشد الحبراني قال: أخذ بيدي أبو أمامة الباهلي، قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أبا أمامة، إن من المؤمنين من يلِينُ لي قلبُه**»(٢).

ب- وأخرج الإمام مسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من أشد أمتي لي حُبًّا ناس يكونون بعدي، يودُّ أحدُهم لو رآني بأهله وماله**»(٣). وفي لفظ: «**إن أناسا من أمتي، يأتون بعدي، يود أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله**»(٤).

جـ- وأخرج البخاري عن أبي هريرة؛ عن النبي ﷺ قال: «**وليأتين على أحدكم زمان لأن يراني أحَبُّ إليه من أن يكون له مثل أهْلِهِ ومَالِهِ**»(٥). وأخرجه مسلم في باب (فضل النظر إليه ﷺ، وتمنيه) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحب إليه من أهله وماله معهم**»(٦). قال أبو إسحاق: المعنى فيه

---

(٢) إسناده صحيح، المسند، ج١٦، رقم ٢٢٢٠٠، ص ٢٦٤، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح؛ انظر: مجمع الزوائد، ج١، حديث رقم ٢٢٥، ص ٢٣١.

(٣) إكمال المعلم، ج٨، رقم ٢٨٣٢، ص ٣٦٣ ، مسند أحمد، ج٩، رقم ٩٣٦٦.

(٤) الألباني: صحيح الجامع الصغير، مجلد١، ط٣، رقم ٢٠٠٨، ص ٤٠٣، وإسناده حسن.

(٥) فتح الباري، ج٦، رقم ٣٥٨٩، ص ٦٠٤.

(٦) إكمال المعلم، ج٧، رقم ٢٣٦٤، ص ٣٣٦.

عندي: لأن يراني- معهم - أحب إليه من أهله وماله، وهو عندي مقدم ومؤخر(٧)، يعني: كلمة «معهم».

وأخرجه أحمد عن أبي هريرة بلفظ: «**والذي نفس محمد بيده، ليأتين على أحدكم يوم؛ لأن يراني، ثم لأن يراني؛ أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله**»(٨).

د- وأخرج الإمام أحمد عن أبي عبد الرحمن الجهني قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ، طَلَعَ راكبان، فلما رآهما قال: «**كِنْديان مِذْحجيان**»، حتى أتياه، فإذا رجال من مِذْحَج، قال: وساق الحديث إلى قوله: ثم أقبل الآخر حتى أخذ يده ليبايعه، قال: يا رسول الله، أرأيت من آمن بك، وصدقك، واتبعك ولم يرك؟ قال: «**طوبى له، ثم طوبى له، ثم طوبى له**» قال: فمسح على يده، فانصرف(٩).

وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري؛ عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال له: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك، قال: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى؛ لمن آمن بي ولم يرني**» الحديث(١٠).

وأخرج أحمد، عن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**طوبى لمن آمن بي، ورآني، مرة، وطوبى لمن آمن بي، ولم يرني سبع مرارٍ**»(١١).

---

(٧) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٨) إسناده صحيح، المسند، ج٩، رقم ٩٧٥٦، ص ٣١٣ ورقم ١٠٤٩٩، ص ٥٠١ – ٥٠٢ بإسناد صحيح.

(٩) إسناده صحيح، المسند، ج١٣، رقم ١٧٣٣٠، ص ٣٦١ – ٣٦٢.

(١٠) إسناده حسن، المسند، ج١٠، رقم ١١٦١٣، ص ٢٢٣ ، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، ط٣، رقم ٣٩٢٣، ص ٧٢٨.

(١١) إسناده صحيح، المسند، ج١٠، رقم ١٢٥١٦، ص ٥٠١ ، ورواه أحمد عن أبي أمامة بإسناد صحيح، المسند، ج١٦، رقم ٢٢٠٣٨، ص ٢١٣ – ٢١٤ ورقم ٢٢١٧٨، ص ٢٥٦ بإسناد صحيح، مع تقديم وتأخير، وانظر: صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، رقم ٣٩٢٤، ص ٧٢٨ ، ٧٢٩.

ورواه أحمد عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال: «**طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى سبع مرات، لمن لم يرني، وآمن بي**»(١٢).

هـ- وأخرج مسلم عن أبي هريرة، من حديث، قال: «**وددت أنا قد رأينا إخواننا**» قالوا: أو لسنا إخوانك - يا رسول الله؟ قال: «**أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بَعْدُ...**» الحديث(١٣).

وأخرج أحمد عن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وددت أني لقيت إخواني**»، قال: فقال أصحاب النبي ﷺ: أو ليس نحن إخوانك؟ قال: «**أنتم أصحابي، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني**»(١٤).

وأخرج أحمد عن أبي مُحَيْرِيز قال: قلت لأبي جمعة؛ رجل من الصحابة، حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال: نعم، أحدثكم حديثا جيدا؛ تَغَدَّيْنَا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح، فقال: يا رسول الله، أحد خير منا؟ أسلمنا معك، وجاهدنا معك؟ قال: «**نعم، قوم يكونون من بعدكم، يؤمنون بي، ولم يروني**»(١٥).

ثانيا: إطار عقدي فكري لفهم قيمة الحنين ولين القلب لمحمد ﷺ:

أ- كل محب صادق، يشتاق إلى لقاء محبوبه، ويحن قلبه إلى رؤيته، ويلين قلبه لكلامه، ويتطلع لمشاهدته:

وَحَدَّثْتَنِي يا سعد عنها فزدتني حَنِينِا فَزِدْنِي من حديثك يا سَعْدُ

والمسلم الصادق المؤمن بالله، وبرسول الله محمد ﷺ صاحب اليقين الصافي في هذا الإيمان، يحب الرسول، ويحن قلبه إليه، وإلى كلامه، وسماع

---

(١٢) إسناده صحيح، المسند، ج١٦، رقم ٢٢١١٥، ص ٢٣٧، ٢٣٨.

(١٣) إكمال المعلم، ج٢، رقم ٢٤٩، ص ٤٨، ٤٩.

(١٤) إسناده صحيح، المسند، ج١٠، رقم ١٢٥١٧، ص ٥٠٢، وأورده مختصرا في صحيح الجامع الصغير، مجلد ٢، رقم ٧١٠٨، ص ١١٩٥، وقال: صحيح.

(١٥) إسناده صحيح، المسند، ج١٣، رقم ١٦٩١٤، ص ٢٢٠، ٢٢١.

نغمته، وإلى رؤيته، ويشتاق لذلك، ويلين قلبه له، يقول عثمان بن مظعون- أول ما آمن واستمع إلى القرآن: «فذاك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمدا»(١٦). فحين يستقر الإيمان في القلب فإنه يحب محمدا ﷺ، ويلين له، حتى يكون أحب إلى قلبه من نفسه، ووالده وولده، وأهله أجمعين، ويشتاق إليه، ويود لو تحقق له هذا الشوق، ورآه، وسمع نغمته، حتى لو أنفق كل ماله، وفقد كل أولاده، وأهله في سبيل الوصول إلى حضرة الرسول محمد ، ليراه، ويسمع كلامه، فهو يحبه أكثر من نفسه، وأهله، وأكثر من ولده، وأكثر من ماله، وأكثر من الناس أجمعين.

فلين القلب لسيدنا محمد ﷺ، وحنينه وشوقه إليه، قيم قلبية تنشأ وتتولد من جماع أربع عمليات عقلية، وقلبية؛ هي(١٧):

١- معرفة النبي محمد ﷺ معرفة صحيحة، ومتكاملة، من كلام الله -تعالى- عنه، في القرآن الكريم، ومن حديث الرسول ﷺ عن نفسه، ومن دراسة سيرته دراسة دقيقة، تذوقية من المصادر الموثقة المفصلة، ومن دراسة شمائله، ودلائل نبوته، وخصائصه، ومن مصاحبته الروحية، فهذه المعرفة هي البذور والجذور لشجرة المحبة واللين والحنين للرسول ﷺ، فمن لم يزرع البذور كيف يحصد الزروع والثمار، ومن لم يعرف الرسول ﷺ كيف يحبه ويحن إليه؟ فالمؤمن إذا عرف رسول الله أحبه، وإذا أحبه مال إليه، ولان قلبه إليه، ووجد حلاوة الإقبال عليه، وبقي له حوله دَنْدَنَةٌ.

فثمرة المعرفة المحبة، وثمرة المحبة الإقبال القلبي نحو المحبوب.. وهل رأيت حبيبا يكره لقاء حبيبه؟

٢- تحقيق الإيمان، واليقين الصافي، القلبي، بالرسول ﷺ: أي: التصديق

---

(١٦) قال الهيثمي: رواه أحمد، والطبراني (في الكبير) وشهر: وثقه أحمد وجماعة، وفيه ضعف لا يضر، وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد، ج٧، رقم ١١١١٩، ص ١٣٧.

(١٧) سيأتي تفصيل هذه الأركان الأربعة في فصل (تربية تجدد الإيمان في القلب) بفضل الله.

الجازم المستقر بحقيقة نبوته، وبكل ما جاء به، جملة وعلى الغيب، والإذعان والاستسلام والطاعة، والاتباع لما جاء به؛ أمرا وخبرا، والانقياد لأمره، وحكمه، والتحاكم إلى ما جاء به، والتسليم له، والرضا والسرور به.

٣- حب القلب له، ولدينه، ولكل ما يحب، حبا يفوق كل حب آخر غير حب الله- تعالى، وهو من معين حب الله، حبا ينتج آثاره، ويثمر ثمراته في القلب، والنفس، من الميل العاطفي له، والشوق لرؤيته، والحنين إليه، وهذا هو موضوع هذا الفصل.

٤- نصرة دينه، وموالاة المؤمنين به، وبغض من يعاديه، وإعلان البراءة منهم، وإظهار البغض والعداء لهم.

فلين القلب وحنينه لسيدنا محمد ﷺ ليس فعلا عاطفيا مهوما؛ ليس دروشة فارغة، بل هو ثمرة للدرس، والإيمان، واليقين، والحب، وملاقاة الروح للروح، إنه تعارف روحي، وتآلف خلقي، هو ثمرة للدرس العميق لسيرته وحديثه، وأخلاقه، ومنهجه، والإيمان اليقيني العميق برسالته، وشخصيته، والحب العارف العميق له، من هنا ينشأ الحنين القلبي له، وينشأ الميل ولين القلب له ﷺ.

ب- والأحاديث المذكورة في هذا الفصل تبرهن على هذا الإطار، فهم يؤمنون به، (طوبى لمن آمن بي) ويصدقونه ويتيقنون فيه، ويتبعونه، ويودون رؤيته، وتلين قلوبهم له، والنبي ﷺ ذاته، يود لو رأى إخوانه، وهم الذين آمنوا به، وصدقوه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، واشتاقوا لرؤيته،ولانت قلوبهم له، وحنوا إليه، فهو- بأبي هو وأمي- يود، ويحب لو رأي إخوانه، المسلمين هؤلاء، ويلين لهم قلبه هو، كما جاء في رواية الطبراني: «**يا أبا أمامة، إن من المؤمنين من يلين له قلبي**»[١٨]، فهي علاقة وجدانية قلبية شعورية عبر

---

(١٨) المعجم الكبير، حديث رقم ٧٤٩٩، وقال الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله ثقوا، انظر: مجمع الزوائد، ج١٠، رقم ١٧٩٩٣، ص ٤٨٨.

الزمان، تجتاز أمداء الزمن، بين قلوب مؤمنة، متعارفة، متحابة، يحن بعضها لبعض، ويود بعضها رؤية بعض، فهي علاقة قلوب وأرواح، متآلفة، متعارفة، هي أرواح وجنود مجندة من القلوب التي تعارفت عبر الزمان.

وهذا التعارف الروحي نشأ عن الدرس، والمعرفة الواعية الصحيحة العميقة التي خالطت مشاعر القلب، فذاقتها، وانغرست فيه، برسول الله محمد ﷺ وهذا الميل القلبي، والحنين، ولين القلب له، هو ثمرة المعرفة به، والإيمان به، واليقين فيه، والشهادة، والشهود، بالعقل والذوق والشعور، والقلب، والفعل بأنه رسول الله ﷺ حقا وصدقا.

جـ- ويكون الإنسان المؤمن أشد حبا، ويكون القلب أشد لينا وحنينا لسيدنا رسول الله ﷺ إذا كان قد رآه، وصحبه، ثم غاب عنه، وهذا ما حدث للصحابة، وأنبأ به سيدنا أبو هريرة: «**ليأتين على أحدكم يوم ولا يراني، ثم لأن يراني أحب إليه من أهله، وماله**».

فعلاقة المؤمن بالرسول ﷺ هي علاقة فذة، علاقة المعرفة، والإيمان، واليقين، والمحبة، واللين، والرقة، وحنين القلب، هي علاقة ندية، رقيقة عذبة، كأنفاس الربا، وأوراق الورد، وسوسنات الأودية، والصبح إذا تنفس، علاقة متبادلة عبر الزمان، بين أناس يأتون بعده ﷺ من أمته، يؤمنون به، ولم يروه، يود أحدهم لو اشترى رؤيته له ﷺ بأهله، وولده، وماله، فِدًى له الكُلُّ، (لي، مَا بَقِيتُ، حَوْلَكَ دَنْدَنَةٌ).

ثالثا: بيان قيمة اللين في حديث أبي أمامة:

ولأن الأحاديث المذكورة صريحة المعنى، واضحة الدلالة على ما ذكرناه، فإني أقتصر - في هذه الفقرة - على بيان الحديث الأول، بعد أن أقرر أن لهذه العلاقة فضلا عظيما، فالذين تحققوا بها: طوبى لهم، أي: الحياة الطيبة لهم في الدنيا والبرزخ، والآخرة؛ حيث يدخلون الجنة، دار الطيبين، ويستظلون تحت

شجرة (طوبى) الرائعة، ويرون حبيبهم ﷺ وهم إخوان رسول الله، الذين يود رؤيتهم، فأي فضل وراء ذلك؟ فما المعنى المتضمن في حديث أبي أمامة؟

أ- أخذ النبي ﷺ بيد أبي أمامة ﷺ، وهذا دليل على أن قلب أبي أمامة يلين لرسول الله ﷺ، أي: يرق له، وينعطف نحوه، ويشتاق لرؤيته، ودليل على أن قلب الرسول يلين لأبي أمامة، وهذا الأخذ باليد تواصل بدني، يعكس التواصل الروحي والقلبي.. فهي أخذة حنان وحنين، وحب، وحياة شعور.

ولهذا أخذ أبو أمامة بيد التابعي الذي بلغه هذا الحديث، والموقف، لقد صنع أبو أمامة موقف لين ومحبة وحنين مع التابعي كذلك، ولهذا من المهم أن نعبر بلغة البدن، عن لغة القلوب.

ب- ثم قال أبو أمامة: فقال: «**يا أبا أمامة، إن من المؤمنين من يلين لي قلبه**» فليس أي قلب يلين لمحمد رسول الله ﷺ، بل هو «**من المؤمنين**» فطريق تربية اللين والحنين القلبي لمحمد رسول الله ﷺ، هو تربية الإيمان به في القلب، والإيمان معرفة يقينية وتصديق جازم، وإذعان وانقياد، ومحبة وشوق، ونصرة واتباع، من هؤلاء المؤمنين من يلين قلبه للرسول ﷺ، فحتى ليس كل المؤمنين تلين قلوبهم له، بل منهم، فبعضهم يلين قلبه له، فطوبى له، طوبى له، طوبى له.

جـ- إن لين القلب للرسول هو جزء من رقة القلب المؤمن، ولينه، وهما قيمتان تجعلان القلب أكثر محبوبية لله، كما بينا في الفصل السابق، وهذا من أسرار إلحاقنا هذا الفصل بذاك، فمفهوم الرقة هو مفهوم اللين، لكن اللين له إضافات، يقول ابن منظور: «اللين: ضد الخشونة»(١٩). ويضيف الراغب: «يستعار للخلق، وغيره من المعاني، فيقال: فلان لين، وفلان خشن.. وقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]؛ فإشارة إلى إذعانهم للحق، وقبولهم له..»(٢٠).

---

(١٩) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص ٤١١٧.

(٢٠) الراغب الأصفهاني: المفردات، ص ٤٥٧.

فلين القلب لمحمد رسول الله ﷺ هو: رقته له، وإذعانه للحق الذي أوحي إليه، وقبوله له.

ويعطينا الحكيم الترمذي إضاءات لمفهوم اللين، يقول: «فاللين: لعبد صافي القلب، جيد الطبع، مستو، فهو سهل الخلق، لين، هين، فاللطف لَيَّنَه، والجود سَهَّلَ خُلُقه،.. فهذا وَلِيُّ الله»(٢١). ويضيف في موضع ثان بأن اللَّيِّن: «عَطُوف القلب، واسع الصدر، رقيق الفؤاد»(٢٢).

فلين القلب المؤمن لرسول الله ﷺ: هو صفاؤه من ناحيته، واستواؤه على الإيمان به، ومحبته، ورقته، وانعطافه، نحو شخص الرسول ودينه وأخلاقه، وحب استماع كلامه، واتباع سنته، وزيارة مسجده، والصلاة في روضته، والصلاة عليه.

والخلاصة: أن لين القلب للرسول ﷺ هو فعل قلبي ينشأ عن المعرفة به، والإيمان به، واليقين فيه، والمحبة العميقة له، فيحن إلى رؤيته، ويشتاق له، ويذعن لكلامه، ويرق له، ويقبله بسماحة صدر، واستسلام، ويود لو رآه، حتى لو أنفق كل ماله، وفقد كل ولده وأهله، في سبيل هذه الرؤية لحبيبه رسول الله ﷺ، فرؤيته إياه أفضل عنده وأحظى من أهله وماله.

رابعا: تحقق اللين والحنين للرسول ﷺ:

وهذا الميل واللين والحنين قد تحقق حقا؛ ليس فقط في الصحابة ﷺ أجمعين، بل في كائنات غير بشرية؛ في جذع نخلة كان يخطب عليها، وفي شجرة، وفي بعير، وهكذا فمحمد رسول الله ﷺ، تحبه الكائنات وتحن إليه، لأنها - بإلهام الله - تعرف منزلته، وقدره، فتحن إليه، وتستجيب لأمره، ودعوته، وسأختصر هنا اختصارًا.

(٢١، ٢٢) الحكيم الترمذي: الفروق ومنع الترادف، ص ٣٠١، ٣٢٣.

أ- أخرج البخاري، عن ابن عمر- رضي الله عنهما: «كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر؛ تحول إليه، **فحن الجذع**، فأتاه فمسح يده عليه»(٢٣).

وأخرجه عن جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، (وساق الحديث إلى قوله) فجعلوا له منبرا، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ، **فضمه إليه، يئن أنين الصبي الذي يسكن**، قال: «**كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها**»(٢٤).

وأخرجه أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ، كان يخطب إلى جذع، قبل أن يتخذ المنبر، فلما اتخذ المنبر، **وتحول إليه، حَنَّ عليه، فأتاه فاحتضنه، فَسَكَن**، قال: «**ولو لم أحتضنه لَحَنَّ إلى يوم القيامة**»(٢٥).

وأخرجه البخاري عن أنس بن مالك، أنه سمع جابر بن عبد الله- رضي الله عنهما - يقول: (وساق الحديث وفي آخره) **فسمعنا لذلك الجِذْع صوتا كصوت العِشَار**، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها، فسكنت(٢٦).

ورواه أحمد عن أنس، وفيه: **أنه سمع الخشبة تحن حنين الوالد**، قال: **فما زالت تحن، حتى نزل** رسول الله ﷺ عن المنبر، فمشى إليها، **فاحتضنها**، فسكنت(٢٧).

---

(٢٣) فتح الباري، ج٦، رقم ٣٥٨٣، ص ٦٠١.

(٢٤) المصدر السابق، رقم ٣٥٨٤، ص ٦٠١ - ٦٠٢.

(٢٥) قال شاكر: إسناده صحيح، المسند، ج٣، رقم ٢٢٣٦، ص ٢٩، ٣٠ ونفس الجزء، رقم ٢٤٠٠، ص ٩٦ ورقم ٣٤٣٠، ص ٤٤١ ٤٤٢ بإسنادين صحيحين، ورواه الطبراني: المعجم الكبير، ج١٢، رقم ١٢٨٤١، ص ١٤٥، ورواه الطبري اللالكائي وقال: إسناده صحيح على شرط مسلم، يلزمه إخراجه، انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج١، دار البصيرة، حديث رقم ١٤٧١، ص ٧٠٠ - ٧٠١.

(٢٦) فتح الباري، ج٦، رقم ٣٥٨٥، ص ٦٠٢، وفتح الباري، ج٢، رقم ٩١٨، ص ٣٩٧.

(٢٧) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٣٢٩٦، ص ١٦٠.

وأخرج الطبري اللالكائي عن أنس، وفيه: فلما قعد نبي الله ﷺ، على المنبر، **خار الجذع كخوار الثور، حتى ارتج المسجد لخواره؛ حزنا على النبي** ﷺ فنزل النبي من المنبر، **فالتزمه وهو يخور**، فلما التزمه رسول الله ﷺ، سكن؛ ثم قال: «**والذي نفسي بيده، لو لم ألزمه؛ لم يزل هكذا إلى يوم القيامة**» حزنا على رسول الله ﷺ، **فأمر رسول الله ﷺ به فَدُفِنَ**، إسناده صحيح على شرط مسلم، يلزمه إخراجه، وأخرجه ابن خزيمة(٢٨).

وأخرج ابن ماجه عن جابر بن عبد الله؛ قال: (وساق الحديث، وفيه): «ثم اتخذ منبرا، قال: فحن الجذع، قال جابر: حتى سمعه أهل المسجد، حتى أتاه رسول الله ﷺ، فَمَسَحه فَسَكَن، فقال بعضهم: لو لم يأته لَحَنَّ إلى يوم القيامة»(٢٩).

وفي رواية النسائي عن جابر: «فلما صنع المنبر، واستوى عليه؛ اضطربت تلك السارية، **كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد**، حتى نزل إليها رسول الله ﷺ **فاعتنقها فسكتت**»(٣٠). قال السندي: كحنين الناقة؛ أي: باكية، كصوت الناقة، وهذا من المعجزات الباهرة جدا(٣١).

وفي رواية أحمد عن جابر: «حَنَّتْ حنين الناقة إلى ولدها، فأتاها، فوضع يده عليها، فسكنت»(٣٢).

وفي رواية له عن جابر: «قال: فَأَنَّ الجِذْعُ (...) كما يئن الصبي..»(٣٣).

---

(٢٨) الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، خرجه: نشأت كمال المصري، المجلد الأول، دار البصيرة، إسكندرية، رقم ١٤٧٢، ص ٧٠١.

(٢٩) قال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١١٧٢، ص ٤٢٥، وهو في السلسة الصحيحة برقم ٢١٧٤.

(٣٠، ٣١) سنن النسائي، ج٣، رقم ١٣٩٦، ص ٧١ ، وحاشية السندي على سنن النسائي، نفس الصفحة.

(٣٢) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٤٠٥١، ص ٣٥٩.

(٣٣) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٤١٤٠، ص ٣٨٤.

وأخرجه ابن ماجه، عن أبي بن كعب، وفيه: «فلما أراد رسول الله ﷺ أن يقوم إلى المنبر؛ مر إلى الجذع الذي كان يخطب إليه، فلما جاوز الجذع، **خَارَ؛ حتى تصدع وانشق**، فنزل رسول الله ﷺ، **لما سمع صوت الجذع**، فمسحه بيده، حتى سكن، ثم رجع إلى المنبر، فكان إذا صلى؛ صلى إليه، فلما هدم المسجد وغُيِّرَ أخذ ذلك الجذعَ أبيُ بن كعب، وكان عنده في بيته، حتى بَلِيَ..»(٣٤). خار: صاح وبكى.

قال الترمذي: «وفي الباب: عن أنس، وجابر، وسهل بن سعد، وأبي بن كعب، وابن عباس، وأم سلمة»(٣٥).

قال شاكر في شرح الترمذي: «وفي الباب أحاديث كثيرة، وصحح كثير من العلماء بالسنة حديث حنين الجذع، وهو من الأحاديث المتواترة، لوروده عن جماعة من الصحابة من طرق كثيرة تفيد القطع بوقوع ذلك»(٣٦).

وقال شاكر، في شرحه على المسند: وحنين الجذع من المعجزات الكونية الثابتة لرسول الله ﷺ بالتواتر القطعي (...) قال الحافظ ابن كثير، في التاريخ: باب حنين الجذع؛ شوقا إلى رسول الله ﷺ، وشفقا من فراقه، وقد ورد من حديث جماعة من الصحابة بطرق متعددة تفيد القطع عند أئمة هذا الشأن، وفرسان هذا الميدان، (...) ثم ختم الباب بما روى أبو حاتم الرازي؛ عن عمرو ابن سواد؛ قال: «قال لي الشافعي: ما أعطى الله نبيا ما أعطى الله محمدا ﷺ، فقلت له: أعطى عيسى إحياء الموتى؟ فقال: أعطى محمدا الجذع الذي كان يخطب إلى جنبه، حتى هيئ له المنبر، فلما هُيِّئ له المنبر؛ حن الجذع حتى سُمِعَ صوتُه، فهذا أكبر من ذلك»(٣٧).

---

(٣٤) قال الألباني: حسن، انظر: صحيح سنن ابن ماجه، ج١، رقم ١١٦٩، ص ٤٢٣ – ٤٢٤.

(٣٥، ٣٦) سنن الترمذي، ج٢، رقم ٥٠٥، ص ٤٢؛ متنا وشرحا.

(٣٧) المسند، ج٣، ص ٢٩، وفي كلام الشافعي انظر أيضا: فتح الباري، ج٦، ص ٦٠٣، وابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ط دار الفكر، بيروت، ص ٥٢٥.

وقال ابن حجر، في الفتح: في حديث أنس: «**والذي نفسي بيده، لو لم ألتزمه لما زال هكذا إلى يوم القيامة**» حُزْنا على رسول الله ﷺ، ثم أمر به فدفن: وأصله في الترمذي دون الزيادة، ووقع في حديث الحسن عن أنس: كان الحسن إذا حدث بهذا الحديث؛ يقول: يا معشر المسلمين، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ، شوقا إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه (...) وفي حديث سهل بن سعد عند أبي نعيم: «فقال: ألا تعجبون من حنين هذه الخشبة؟! فأقبل الناس عليها، فسمعوا من حنينها، حتى كثر بكاؤهم»(٣٨).

وروى الطبري اللالكائي كلام الحسن، ولفظه: «يا عباد الله، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه بمكانه من الله - عز وجل - وأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه»(٣٩). وساقه ابن كثير أيضا عن دلائل النبوة للبيهقي، وفيه: «الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه، أو ليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه؟»(٤٠).

وما أصدق قول الحسن، فالجذع يحن ويشتاق للنبي ﷺ، ويحزن، ويبكي بكاء الصبي، ويئن، ويصيح، ويبكي بكاء الوالد على ولده، وبكاء الناقة العشراء التي تحن، وهي الحامل في شهرها العاشر، وقاربت الولادة، وينفعل النبي ﷺ لهذا الحديث المعجز، فينزل ويحتضن الجذع ويضمه بحنان إلى صدره، ويعتنقه، ويُسَكِّنه كما يسكن الصبي الذي يبكي؛ بحنان وطبطبة، إنها صلة حميمة مع هذا الكائن الشجري الذي يحب النبي ﷺ ويحب كلامه، ويحزن على فراقه، ويشتاق إليه فينفطر (قلبه)، ويحن إليه ويئن، ويبكي ويصيح كأنه يقول: آه! فكيف بنا ولنا عقول، وقلوب وأرواح ومشاعر!!.

---

(٣٨) فتح الباري، ج٦، ص ٦٠٢.

(٣٩) الطبري اللالكائي: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، مجلد١، رقم ١٤٧٣، ص ٧٠٢، وساق مثله ابن كثير، البداية والنهاية، ج٤، ص ٥١٩.

(٤٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٢، ص ٦١١ – ٦١٢.

ب- وها هي ذي شجرة؛ تجيب، وتستجيب؛ أخرج أحمد عن أنس بن مالك، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ، ذات يوم، وهو جالس؛ حزينا، قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، قال: فقال له: ما لك؟ قال: فقال له: فعل بي هؤلاء وفعلوا، قال: فقال له جبريل عليه السلام: أتحب أن أريك آية؟ قال: «**نعم**»، قال: فنظر إلى شجرة من وراء الوادي، فقال: ادع بتلك الشجرة، فدعاها فجاءت تمشي، حتى قامت بين يديه، فقال: «**مرها فلترجع**»، فأمرها، فرجعت إلى مكانها، فقال رسول الله ﷺ: «**حسبي**»(٤١).

وأترك هذا المحور؛ لأنه مغري جدا لأتجه إلى حنين الصحابة والتابعين لرسول الله ﷺ ولين قلوبهم له، واشتياقهم إليه، وسأسوق ما حَدَّثَ به أنس، معبرا عن الموقف القلبي للصحابة، رضي الله عنهم جميعا، نحو رسول الله ﷺ حين وصل إلى المدينة، وحين رفع إلى الرفيق الأعلى، وموقفهم بعد ذلك.

جـ- أخرج أحمد عن ثابت، قال أنس: ما شَمَمْتُ شيئا؛ عنبرا قط، ولا مِسْكًا قط، ولا شيئا قط أطيب من ريح رسول الله ﷺ ولا مسست شيئا قط؛ ديباجا ولا حريرا؛ ألين مَسًّا من رسول الله ﷺ قال ثابت: فقلت: يا أبا حمزة، ألست كأنك تنظر إلى رسول الله ﷺ وكأنك تسمع إلى نَغَمَتِه؟ فقال: بلى، والله، إني لأرجو أن ألقاه يوم القيامة، فأقول: يا رسول الله، خويدمك!!(٤٢).

وأخرج أحمد: حدثنا أبو سعيد؛ ثنا المثنى، قال: سمعت أنسا يقول: قَلَّ ليلة تأتي عليَّ إلا وأنا أرى فيها خليلي عليه السلام، وأنس يقول ذلك وتدمع عيناه(٤٣).

وعن يحيى بن الحارث الذّمَاري، قال: لقيت واثلة بن الأسقع، فقلتُ:

---

(٤١) إسناده صحيح، المسند، ج١٠، رقم ١٢٠٥١، ص ٣٦١.

(٤٢) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٣٢٥٠، ص ١٤٦.

(٤٣) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٣٢٠٠، ص ١٣١ ، وقال الهيثمي: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد، ج٧، رقم ١١٧٦٦، ص ٣٧٧.

بايعتَ بيدك هذه رسول الله ﷺ؟ فقال: نعم، قلت: أعطني يدك أقبلها، فأعطانيها فقبلتها(٤٤).

وفي مجمع الزوائد عن عبد الرحمن بن رزين، عن سلمة بن الأكوع؛ قال: بايعت النبي ﷺ، بيدي هذه، فَقَبَّلْنَاها، فلم ينكر ذلك، قلت: في الصحيح منه البيعة، رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات(٤٥).

وأخرج أحمد عن محمد بن المنكدر قال: دخلت على جابر بن عبد الله، وهو يموت، فقلت له: أقرئ رسول الله ﷺ مِنِّي السلام(٤٦)، وهو في ابن ماجه بلفظ: اقرأ على رسول الله ﷺ السلام، قال البوصيري: هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، إلا أنه موقوف. قلت: هذا قول تابعي يعبر فيه عن حنين قلبه واشتياقه لرسول الله ﷺ، وليس حديثا، فهو قول صحيح السند(٤٧).

وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي أنه قال: كنت أبيت عند رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: «**سل**»، فقلت: يا رسول الله، أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «**أو غير ذلك؟**» قلت: هو ذاك، قال: «**فأعني على نفسك بكثرة السجود**».

وفيه عن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال: «**وما أعددت للساعة؟**» قال: حب الله ورسوله ﷺ، قال: «**فإنك مع من أحببت**»، قال أنس: فما فرحنا – بعد الإسلام – فرحا أشد من قول النبي ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**»، قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله ﷺ، وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم(٤٨).

---

(٤٤) قال محقق الزوائد: رواه الطبراني في الكبير (٢٢/ ٩٤) وابن الأعرابي في كتاب القبل (ص ٢٢) بإسناد صحيح، مجمع الزوائد، ج٨، رقم ١٢٧٩٨، ص ٨٤ مع الهامش.

(٤٥) مجمع الزوائد، ج٨، رقم ١٢٧٩٩، ص ٨٥ ، ورواه في الكبير أيضا، برقم ١٠٤٨٣ .

(٤٦) إسناده صحيح، المسند، ج١٠، رقم ١١٦٠٠، ص ٢١٨ – ٢١٩.

(٤٧) انظر: الشهاب البوصيري: مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، ج١، رقم ٥١٣، ص ٤٦٩ .

(٤٨) إكمال المعلم، ج٨، حديث رقم ٢٦٣٩، ص ١١٩ – ١٢٠ .

وأخرج الطبراني في الصغير والأوسط، وأبو نعيم في الحلية والضياء المقدسي في صفة الجنة؛ عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إليّ من نفسي، وإنك لأحب إليّ من أهلي ومالي، وإنك لأحب إليّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك؛ فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] (٤٩).

ففي هذه المجموعة يعبر أنس، والصحابي الذي حدثت عنه عائشة- رضي الله عنهم- وثابت وابن المنكدر، وغيرهم عن حبهم لرسول الله ﷺ، وشوقهم لرؤيته، ومرافقته، ولين قلوبهم له، «لقد كان الأمر يشغل قلوبهم وأرواحهم(...) أمر الصحبة في الآخرة، وقد ذاقوا طعم الصحبة في الدنيا، وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم ﷺ» (٥٠).

بل كان الحب والحنين يدفع المؤمنين أن يتمسكوا بأي شيء من رسول الله ﷺ، بشعرة من شعره الطيب، المبارك، أو بفردة نعل من نعليه الشريفين...إلخ، وأكتفي بما يأتي فقط.

قال رجل لعبيدة السلماني: إن عندنا من شعر رسول الله ﷺ شيئا من قبل أنس بن مالك، فقال: لأن يكون عندي منه شعرة أحب إليّ من كل صفراء (الذهب) وبيضاء على ظهر الأرض (٥١). وفي سير أعلام النبلاء: أعطى ولد

---

(٤٩) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن عمران العابدي، وهو ثقة، مجمع الزوائد، ج٧، رقم ١٠٩٣٧، ص ٦٣ - ٦٤، وقال ابن كثير عن رواية الضياء: «لا أرى بإسناده بأسا». وانظر: الشوكاني: فتح القدير، مجلد ١، ص ٧٧٤ مع هامش المحقق.

(٥٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد ٢، ج٥، ط٣١، ص ٧٠٠.

(٥١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٤، ص ٤٢ - ٤٣ وانظر: تعليق الذهبي على ذلك.

الفضل بن الربيع أبا عبد الله- أحمد بن حنبل - وهو في الجب ثلاث شعرات؛ فقال: هذه من شعر النبي ﷺ، فأوصى أبو عبد الله عند موته أن يجعل على كل عين شعرة، وشعرة على لسانه، ففعل به ذلك عند موته(٥٢).

د- أما حال أهل المدينة، وحال جميع الصحابة، حين قدم عليهم رسول الله ﷺ، وحين توفي فَأَدَعُ أنسا- رضي الله عنه- يروي حالتهم الوجدانية، كما هي، حيث يعبر عنها أنس ﷺ تعبيرا بديعا، أخرج أحمد عن أنس، في حديث الهجرة: «فما رأيت يوما قط أنور ولا أحسن من يوم دخل رسول الله ﷺ، وأبو بكر المدينة، وشهدت وفاته، فما رأيت يوما قط أظلم ولا أقبح من اليوم الذي توفي رسول الله ﷺ فيه»(٥٣).

وأخرج أحمد والترمذي، وابن ماجه، عن أنس؛ قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة؛ أضاء من المدينة كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ، أظلم من المدينة كل شيء، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»(٥٤).

وفي رواية الترمذي: «وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وإنا لفي دفنه، حتى أنكرنا قلوبنا» قال أبو عيسي: هذا حديث صحيح غريب(٥٥).

وأخرج أحمد عن أنس قال: «وشهدته ﷺ يوم دخل علينا المدينة، فلم أر يومًا أضوأ منه، ولا أحسن منه، وشهدته ﷺ يوم مات، فلم أر يومًا أقبح منه»(٥٦).

---

(٥٢) المصدر السابق، ج١١، ص ٣٣٧.

(٥٣) إسناده صحيح، المسند، ج١٠، رقم ١٢١٧٤، ص ٣٩٥.

(٥٤) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٣٢٤٥، ص ١٤٥، وقال الألباني: صحيح، صحيح سنن ابن ماجه، ج٢، رقم ١٣٣٢، ص ٥٤ – ٥٥.

(٥٥) سنن الترمذي، ج٥، رقم ٣٦٣٨، ص ٣٥٥ ، وقال ابن كثير: وإسناده على شرط الصحيحين، انظر: البداية والنهاية، ج٤، ص ٢٥٥.

(٥٦) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٣٤٥٦، ص ٢٠٣.

ورواه أحمد عنه قال: «شهدته ﷺ يوم دخل المدينة، فما رأيت يومًا قط، كان أحسن ولا أضوء من يوم دخل علينا فيه، وشهدته ﷺ يوم مات، فما رأيت يومًا كان أقبح، ولا أظلم، من يوم مات فيه»(٥٧).

ولا شك أن سيدنا أنسا يُعَبِّرُ عن حال قلوب الصحابة حينما دخل عليهم رسول الله ﷺ المدينة، فأشرقت قلوبهم بالفرحة، والسرور، وابتهجوا به، وأضاءت المدينة، ونورت، وخرج الكبار، والصغار، والبنات، من فوق السطوح، يقولون: جاء رسول الله ﷺ، جاء محمد.. وكان أحسن يوم على الإطلاق، وهذا في الأساس حال قلبي، فلما مات سيدنا رسول الله ﷺ، انقطع النور الحسي وبقي لهم لين القلوب، وحنينها إليه، وليس هذا في الصحابة فقط، بل في كل مؤمن صادق محب لرسول الله ﷺ، إلى يوم لا يبقى مسلم يقول: الله، الله، تقول عبدة بنت خالد بن معدان: ما كان خالد يأوي إلى فِراشٍ إلا وهو يذكر من شوقه إلى رسول الله ﷺ، وإلى أصحابه من المهاجرين والأنصار، يسميهم، ويقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحن قلبي، طال شوقي إليهم، فعجل ربي قبضي إليك، حتى يغلبه النوم(٥٨).

وتأمل الخبر الآتي: أخرج البيهقي عن الوليد بن مسلم (إمام ثقة) قال: «سألت مالك بن أنس، عن السنة في الأذان، فقال: ما تقولون أنتم في الأذان؟ وعمن أخذتم الأذان؟ قال الوليد: فقلت: أخبرني سعيد بن عبد العزيز وابن جابر، وغيرهما، أن بلالا لم يؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ وأراد الجهاد، فأراد أبو بكر منعه وحبسه، فقال: إن كنت أعتقتني لله فلا تحبسني عن الجهاد، وإن كنت أعتقتني لنفسك أقمت، فخلى سبيله، فكان بالشام، حتى قدم عليهم عمر بن الخطاب الجابية، فسأل المسلمون عمر بن الخطاب أن يسأل لهم بلالا

(٥٧) إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٣٩٩٦، ص ٣٤٢.

(٥٨) القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ج٢، ص ٢١، وانظر وادرس حتى ص ٢٤.

يؤذن لهم، فسأله، فأذن لهم يوما، أو قالوا: صلاة واحدة، قالوا: فلم ير يوما كان أكثر باكيا منهم يومئذ حين سمعوا صوته؛ ذكرا منهم لرسول الله،.. الحديث» (٥٩).

وهذا البكاء من الحنين ولين القلب ورقته لرسول الله ﷺ.

هـ- ولما قدم الرسول ﷺ من تبوك، خرج الناس لتلقيه، وخرج النساء والصبيان، يقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا ... جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ... مرحبا يا خير داع

فلما أشرف على المدينة قال: هذه طابة، وهذا أُحُد، جبل يحبنا ونحبه، فلما دخل عليه العباس قال: يا رسول الله، ائذن لي أمتدحْك، فقال رسول الله ﷺ: قل، لا يُفْضِضُ الله فاك، فقال:

من قَبْلِها طِبْتَ في الظلال ... وفي مُسْتَوْدَع حيث يُخْصَفُ الوَرَقُ
ثم هبطتَ البلاد لا بَشَرٌ أنتَ ... ولا مضغة ولا عَلَقُ
بل نطفة تركب السَّفِينَ وقد ... أَلجَم نَسْرًا وأهله الغَرَقُ
تُنْقَلُ من صَالِبٍ إلى رحم ... إذا مَضَى عالم بدا طَبَقُ
حتى احتوى بيتُك المهيمن ... من خِنْدِف عليا تحتها النطُقُ
وأنت لما ولدت أشرقت الأرض ... وضاءت بنورك الأُفُقُ

---

(٥٩) صحيح، وقال محقق السنن الكبرى للبيهقي: أخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ٤٧٠) وسنده صحيح إلى مالك والوليد بن مسلم، وهما إمامان، السنن الكبرى، للبيهقي، ج١، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨م، رقم ١٩٧٤، ص ٧٨٥.

فنحن في ذلك الضياء وفي النور وسبل الرشاد نَخْتَرِقُ(٦٠)

ولما هجا أبو سفيان بن الحارث - قبل أن يُسْلِم لله - رسول الله ﷺ، قال حسان قصيدته العصماء، ومنها:

عَفَت ذات الأصابع فالجِواءُ إلى عذراء منزلها خَلاءُ
تَظَلُّ جِيادُنا مُتِمَطِّراتٍ تُلَطِّمُهُنَّ بالخمر النساءُ
وقال الله قد أرسلت عبدا يقول الحق إن نَقَعَ البلاءُ
ألا أبلغ أبا سفيان عنِّي مُغَلْغَلَةً، فقد برح الخفاءُ
هجوتَ محمدًا فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاءُ
أتهجوه، ولستَ له بِكُفءٍ؟! فَشَرُّكُما لخيركما الفداءُ
هجوت مباركا بَرًّا، حَنِيفًا أمينَ الله، شِيمتُه الوفاءُ
أمَنْ يهجو رسولَ الله منكم ويمدحه، وينصره سواءُ؟
فإن أبي ووالده وعِرْضِي لعرض محمد منكم وِقَاءُ(٦١)

وقال في النبي ﷺ:

وأحسنُ منك لم تَرَ قط عيني وأجمل منك لم تلد النساءُ
خُلِقتَ مُبَرَّأً من كل عيب كأنك قد خُلِقتَ كما تشاءُ(٦٢)

ولما توفي الرسول ، قال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وقد أسلم وحسن إسلامه:

أرِقْتُ فبات ليلي لا يزول وليل أخي المصيبة فيه طُولُ

---

(٦٠) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج٣، ص ٤٨٢ – ٤٨٣.

(٦١) ديوان حسان بن ثابت، سلسلة الذخائر، ١٧١، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ٢٠٠٨م، ص٧١ – ٧٧.

(٦٢) المصدر السابق، ص ٣٧١.

وأسعدني البكاء، وذاك فيما أصيب المسلمون به قليل

لقد عَظُمت مصيبتنا وجَلَّت عشية قيل قد قبض الرسول

وأضحت أرضنا مما عَرَاها تكاد بنا جوانبها تَمِيلُ

فَقَدْنَا الوحي والتنزيل فينا يروح به ويغدو جَبْرَئيلُ

وذاك أحق ما سالت عليه نفوس الناس أو كَرَبَتْ تَسيلُ

نبي كان يجلو الشك عَنَّا بما يُوحَى إليه وما يقولُ

ويهدينا فلا نخش ضلالا علينا والرسولُ لنا دليلُ

أفاطم إن جزعت فذاك عذر وإن لم تجزعي ذاكِ السبيلَ

فقبر أبيك سيد كل قبر وفيه سيد الناس الرسول

و- يقول محمد إقبال في ديوان (رموز نفي الذات) عن الحبيب محمد ﷺ(٦٣):

إن في قلبك محبوبا ثوى أقبلَنْ أُنبِيك عن هذا الجوى

حبه في القلب نور أسْفَرا للثريا يرتقي منه الثرى

ترب نَجْدٍ منه قد خَف وضاء طار وجدا مُصْعِدا نحو السما

مهجة المسلم مَثْوَى المصطفى عزة المسلم ذِكْرَى المصطفى

خَلَوَات في حراء خَلَقا أُمَّةً منها، وحُكْما مُشْرِقا

كم ليال قد قضاها سَاهِدًا فحبا الأمة مُلْكًا خَالِدًا

سيفه في الحرب قَطَّاعُ الحديد عينُه في الذكر بالدمع تجود

سيفه (آمين) تمحو الظالمين حين يدعو الحقَّ بالنصر المبين

---

(٦٣) محمد إقبال: ديوان الأسرار والرموز، ترجمه نظما: عبد الوهاب عزام، قدم له، وأكمله نثرا: د.سمير عبد الحميد، دار الأنصار، القاهرة، (ديوان رموز نفي الذات معه) ص ١٩ – ٢٣ مع تصرف يسير.

سننا في كَوْنِنَا قد جَدَّدَا ومن الماضيين مُلْكًا بَدَّدَا
فتح الدنيا له مفتاح دين عَقُمَتْ عن مِثْلِه أم السِّفين
استوى مَوْلى لديه وغلام هو والعبد سواء في الطعام

***

أُسِرَت في غزوة بنتُ الجوادْ مَنْ علا طيًّا بجدواه وَسَادْ
رِجْلُها في القيد، والرأسُ حَسِيرْ مُطْرِق في ذلة الطرف الحَسيرِ
بُرْدَةً ألقى عليها ساترا إذ رأى وجها ورأسا حاسرا
نحن أعْرَى في الورى من أُخْتِ طيئْ ليس يكسونا لدى الأقوام شيءْ
هو في الدنيا علينا ساتر وهو في الحشر إلينا نَاظِرُ

***

حُبه ثار بعودي الصامِتِ أَلْفَ لَحْنٍ في فؤادي الساكِتِ
ما حَدِيثي عن ولاء واشتياق قد بكى جذع مَوَاتٌ للفِرَاق

***

أحْكِم الحُبَّ بتقليد الحبيبْ لتنالَ القُرْبَ من رب مجيبْ
في حِرَاءِ القلب فاقعد خاليا وإلى الحق فَهَاجِرْ راضيًا
اقْوَيَنْ بالحق، ثم ارجع لديْكْ واحطمنَّ اللات والعُزَّي لديْكْ
اقْوَيَنْ بالحب في سلطانه وابتغ الجلوة في (فارانِه)
تظفرنْ بالقرب يا ذا السائل وتكن تفسير (إني جاعلُ)

خامسا: تربية الحنين القلبي ولين القلب لرسول الله ﷺ:

أ- لين القلب وحنينه؛ أي: توقانه، واشتياقه لسيدنا محمد رسول الله ﷺ،

قيمة من قيم تربية القلب المسلم، وهو- في نفس الوقت- قيمة ناتجة من قيم كبرى أخرى؛ إذا اتصف بها الإنسان، وتذوقها، وهي قيم: الإيمان بأن محمدا رسول الله ﷺ، ومحبته، ورقة القلب، ولينه، وهي كلها طرق لمحبة الله، ومؤهل لعطاء الله، وفيوضاته الرحمانية على القلب.

وهي قيمة تُعَيِّنُ وتُحَدِّدُ هدفا تربويا قلبيا للمسلم، في أي زمان ومكان، وهو هدف تربوي استراتيجي ملزم، يجب اكتسابه واتصاف القلب المؤمن به؛ لإقامة الصلة القلبية والروحية والعاطفية بينه وبين رسول الله محمد ﷺ. فالرسول محمد ﷺ، نبي الله هو مركز توحيد وتجميع للقلوب المؤمنة، فهي تلتقي على معرفته، واليقين فيه، والإيمان به رسولا، ومحبته، والشوق إليه، والانعطاف نحوه، والحنين إليه، والتحاكم لشرعه، والانقياد لحكمه، والرضا به، وحب كلامه، ورقة القلب له، ورغبة التأسي به، فيشكل المؤمنون به شبكة روحية من العلاقات الوجدانية برسول الله ﷺ، فتتوزع عليهم أنوار الإيمان والمحبة.

ب- واكتساب المسلم لهذه القيمة- الحنين ولين القلب للحبيب محمد ﷺ- له متطلبات تربوية توصل إليه، إذا أداها، ومارسها المسلم:

١- **المتطلب الأول**: متطلب معرفي؛ أي: أن يكتسب المسلم معرفة صحيحة حية برسول الله ﷺ، بحيث يعرف شخصيته، وسيرته، وأخلاقه، ومعجزاته، ورسالته، وحديثه، ونتائج حركته التغييرية في التاريخ البشري، فيعرف المرسل، والرسالة، والرسول، وحركة الرسول بالرسالة لتغيير ما بالأنفس، وتغيير العالم، وصنع حركة التاريخ، والتغيير الاجتماعي، ويعرف حياته الروحية مع الله، وحياته الخلقية مع الناس والكائنات، ويعرف حياته الدعوية والتربوية لصياغة الناس، ويعرف حياته الأسرية والعائلية مع نسائه، ومع أولاده، ومع أقاربه، وحياته الاجتماعية مع جيرانه، ومع المؤمنين به، ومع

الكافرين به، ويعرف حياته السياسية وكيف أقام المجتمع المسلم والدولة المسلمة، وكيف قاد، وكيف جاهد..؟ ويعرف كيف تكلم، وكيف أكل، وكيف شرب، وكيف تزوج، وكيف سالم، وكيف حارب، وكيف ربي وعلم، وكيف غير الناس، وحول البدو إلى صناع حضارة لا مثيل لها في ترقية الإنسان وأنسنته؟ وكيف أحدث أكبر حركة تحول في المجتمع الإنساني؟ يعرف ذلك وما يرتبط به، من خلال الدرس العلمي لرسالته، وسيرته، من خلال برنامج تثقيف ذاتي جاد للقرآن والحديث والسيرة، يأخذ نفسَه به.

وأنا عندما أردت ذلك: درست كل آيات القرآن عنه لأعرف الحقيقة المحمدية من كلام الله عنها، ودرست أحاديث البخاري ومسلم، وأحمد، وكل ما صح عن رسول الله ﷺ، وثبت عنه، بهدف أن أعرف محمدا من خلال حديثه هو، وممارسته هو، فكنت وأنا أدرس مسند أحمد، والمعجم الكبير للطبراني- مثلا- أجمع أحاديثهما عن سيرة الرسول ﷺ، وحياته بكل أبعادها ومقوماتها الخاصة والعامة، وأخلاقه، كلها، ومعجزاته، ودلائل نبوته، إلخ، وأتأمل ذلك كله، وأدرس جوانب دعوته، وحركته، وشبكة علاقاته، وقيمه الموجهة، فأشعر بعظمة هذا النبي ﷺ، في كل هذه الجوانب، وتصيبني الدهشة، من تعدد وتداخل هذه الأبعاد، وشمولها، وكمال سلوكه في كل اتجاه، فتدمع العين أحيانا، وتنهال الأفكار بمشروعات كتب، ومحاضرات عن الرسول ﷺ والرسالة.

ودرست الشفا للقاضي عياض، والأنوار في شمائل النبي ﷺ المختار للبغوي، والشمائل للترمذي، والشمائل والدلائل لابن كثير، ودلائل النبوة للماوردي، وآداب المعيشة وأخلاق النبوة من إحياء علوم الدين، والأدب المفرد للبخاري، وكتب بدء الوحي وعلامات النبوة، والمناقب، والمغازي، من صحيح البخاري، وكتاب الفضائل من صحيح مسلم، وكتاب المعجزات

الأحمدية للنورسي،...إلخ، دراسة خاصة متأنية لأعرف أخلاق هذا الرسول من قريب، وكنت أتذوق ما أقرأ، بعد أن لا أدخل عقلي وقلبي إلا ما هو صحيح ثابت بالسند الصحيح، إليه.

ودرست كتب السنن: النسائي، وابن ماجه، والترمذي، وأبي داود، والبيهقي الكبرى، والسنن الصغير، والدارمي، والموطأ، وكتب ابن أبي الدنيا.. والترغيب والترهيب، وجامع الأصول، وصحيح الجامع الصغير.. إلخ لأعرف ماذا قال؟ وما جوانب دعوته،...

ودرست سيرة ابن هشام (مرتين) وسيرة ابن كثير (في البداية والنهاية - وهي مهمة جدا - مرتين)، والترجمة النبوية من تاريخ الإسلام للذهبي، ومن الطبقات الكبرى لابن سعد، وما كتبه ابن الجوزي وابن تيمية عن الرسول ﷺ، والرحيق المختوم، وسيرة خاتم النبيين للندوي، وخاتم النبيين لمحمد أبي زهرة، وفقه السيرة للغزالي، والبوطي، والمنهج الحركي للسيرة النبوية للغضبان، والرسول لسعيد حوى، والجزء الأول من إمتاع الأسماع للمقريزي، ونور اليقين، ونبي البر... إلخ.

ودرست كل ذلك بحب وقصد لأزداد معرفة بالرسول ﷺ، وحبا له، فأزداد شوقا إليه، وحنينا، ودرست كتب باحثين عقليين عنه، فدرست عبقرية محمد للعقاد وعامة كتبه، وحياة محمد لهيكل، وسيرة الرسول ﷺ لمحمد فريد وجدي، ومحمد لكارين آرمسترونج (مستشرقة بريطانية تعيش في أمريكا..) وما كتبه أحمد ديدات...إلخ.

ودرست ما كتبه علماء العقيدة عن الرسول ﷺ، مثل كتاب السنة لابن أبي عاصم، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للطبري اللالكائي، ومختصر سيرة الرسول لمحمد بن عبد الوهاب، وركائز الإيمان لمحمد قطب، والنبوة والأنبياء، ودرست زاد المعاد، أكثر من مرة،... والوحي المحمدي

لرشيد رضا، والمدخل إلى القرآن الكريم، لدراز، وكتب لا أحصيها، لأعرف كل شيء، وأي شيء عن هذا الرجل الأمة، وكنت أفكر، وأقارن، فأشعر بعظمة شخصيته، وضخامة أبعادها، وضخامة إنجازاتها، إنه الإنسان الحقيقي الكامل، وقلت ما قاله الشاعر:

وكنت أطالب الدنيا بحب فكنتَ الحُبَّ وانقطع الكلامُ

وقرأت ودرست- تقريبا- ما كتبه كل شعراء المسلمين قديما وحديثا تعبيرا عن وجدهم نحو رسول الله محمد ﷺ، الذي بلغ العلا بكماله، وكشف الدجى بجماله، وحسنت جميع خصاله ﷺ، وهكذا انتهيت من دراساتي وقراءاتي، بكل موضوعية، وكنت أنفعل أحيانا كثيرة- قلبيا- في أثناء هذه الدراسات ولازلت أدرس فأكتب قصائد شعرية، فكتبت (هجرة) (حنين) (خجل) (شم النسيم) (حب الرسول)، وهذه الأخيرة طويلة أذكر منها:

رسول الله في قلبي يحدثني عن الحب
فأشعر أنني قلق ومدهوش من الذوب
فيلبسني من التوقان ثوبا أيما ثوب
وأشعر أنني لولاه أشبه ذرة الترب
فأصعد في سماء الحق أشهد لذة الأوب
وأعرفه، وأنصره وأتبعه على الدرب
وقلبي كله شغف لرؤيته على القرب
تحن إليه أعضائي ووجداني على الغيب
فأملأ باطني أَلَقًا بسيرة طيب القلب
ويطرب كل وجداني ويَسْرَحُ في المدى الرحب
من العلياء والأخلاق والعرفان والحب

وأشـهد أنـه المبعـوث بالرحمـات مـن ربي
فـأهفو نحـو حـضرته أعظمـه مـن القلـب
وأرسـمه عـلى قلبـي وأقـرؤه عـلى الغيـب
فـيملأ نـوره قلبـي ويأخـذني إلى ربي
فـأشرب مـن منابعـه صفاء الأنس والقـرب
وأسـمعه يحـدثني بأشـواق عـن الـرب
ويـسقيني مـن التوحيـد صـفوا دونـا شـوب
فـأذكره مـن الأعـماق ذكرا مـدهش الـضرب
وأرفـض كـل طـاغوت وأعلـن ضـده حـربي
رسـول الله في قلبـي يحـدثني عـن الحـب
ويـدعوني مـن الأعـماق عش حـرا مـن القلـب
فأسـمعه وأتبعـه برغم الهـول والـصعب
حبيـب الله، يـا مختـار يـا نـورا عـلى الـدرب
أنـا مـن بـين خـلاني أحبـك خـالص الحـب
أنـا يـا طيـب الأخـلاق ما عنـدي سـوى حبـي
أنـا الخـالي مـن الأعـمال والمنقـوع في الكـرب
أنـا خطـأ مـن الأخطـاء مثـل بقيـة العُـرْبِ
وصَـيْدِي كلـه صَـدَفٌ وطيري غاص في الجب
وألفـاظي بهـا عَـرَجٌ تعـاني وحـشة الـتُّرْبِ
فهـل يـا خـالق، الإنـسان تقبلنـي مـع الـصحب
وتـدخلني جنـان الحـب تـسقيني مـن العـذب
وتمـسح كفـك البيـضاء أحزانـا عـلى القلـب

سـيفنى كـل مـا فينـا ولا يبقى سـوى الحـب
فبـارك في محبتنـا لخـير الخلـق يـا ربي
ويـا مـولاي صَـلِّ عليـه واغـسلني مـن الـذَّنْبِ

وما أريده للقارئ: أن يجعل لنفسه برنامجا ذاتيا جادا منظما، ليعرف من خلاله هذا الرسول الذي يؤمن بأنه رسول الله ﷺ، وسيصل بعون الله وفضله إلى أفضل مما وصلت إليه، ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

فإذا اجتمع مع هذا الدرس العلمي المبرمج، المنظم، اهتمام قلبي برسول الله ﷺ، وصلاة وسلام عليه من القلب، وتذوق لحلاوة حديثه، وعميق معجزاته، وأخلاقه، وتكامله في كل جوانب الإنسانية، فإن الحنين يتولد، واللين ينشأ وينمو، وسيشتد شوقه لكلامه، ومسجده، وروضته، وكل حديث من أحاديثه.. والحمد لله.

وتأمل في قول ابن رجب: «وأما محبة الرسول ﷺ: فتنشأ عن معرفته، ومعرفة كماله، وأوصافه، وعظمة ما جاء به، وينشأ ذلك من معرفة مُرْسِلِه، وعظمته...إلخ»(٦٤).

٢- وإذا كانت الآلية السابقة فردية ذاتية تنشأ عن الاهتمام الذاتي، والتثقيف الذاتي، فإن ثمة آلية مهمة هي الدرس الجماعي، فمن المهم تنظيم سلاسل محاضرات ودروس، عن جوانب السيرة النبوية والشمائل والدلائل المصطفوية، وجوانب الرسالة المحمدية، فهذا جزء من تربية الإيمان والتوحيد، وإني لأعجب: كيف تنظم الدروس والمحاضرات وتسجل الأشرطة في عقيدة التوحيد- وهذا حق- دون عقيدة الرسالة؟ أليست شهادة التوحيد جزأين؟ شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا رسول الله؟ ولابد

---

(٦٤) ابن رجب الحنبلي: شرح كتاب الإيمان، من صحيح البخاري، الجزء الأول من فتح الباري لابن رجب، ص ٢٨ (موقع الدرر السنية على الشبكة الدولية).

منهما معا؟

إن تنظيم دروس ومحاضرات مكثفة ومستمرة في سيرة الرسول وأخلاقه، ودلائل نبوته، وجوانب شخصيته، هو فرض تربوي حيوي، مثل فرض تعليم العقيدة في الله وأسمائه وصفاته، وحقوقه، فتجمع الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة عن الجوانب السابقة، وحقوق المصطفى وواجبنا نحوه، وتدرس جماعيا، وتسجل، وتعمم على المسلمين، في الفضائيات، وعلى النت، والسيديهات، والفيديو، وفي خطب الجمع، والمجلات، والصحف.. والندوات.. ليعرف المسلمون كل شيء عن رسولهم العظيم، وتختار كتب لتدرس في حلقات خاصة في داخل الحركات الإسلامية، وفي بيوت أهل العلم، وفي دروس جماعية عامة، وعلى فضائيات، عن سيدنا محمد، وأنا أرشح لذلك: أحاديث السيرة من كتب الحديث الصحيح، وكتاب الشفا للقاضي عياض، وكتاب الأنوار في شمائل النبي المختار ﷺ للبغوي، والشمائل والدلائل لابن كثير، وكتاب الفضائل من صحيح مسلم، وكتاب أخلاق النبوة من إحياء علوم الدين، والسيرة النبوية لابن كثير، وكتاب الأدب المفرد للبخاري، والوحي المحمدي لرشيد رضا، والمعجزات الأحمدية للنورسي، والمدخل إلى القرآن الكريم لمحمد دراز.

٣- وثمة آلية ثالثة لتحصيل هذا الهدف التربوي المعرفي المؤثر في القلب؛ هي دورة تربوية عن الحنين لمحمد رسول الله ﷺ ذات ثلاثة محاور:

الأول: محور درسي معرفي، تلقى فيها محاضرات معمقة عن مواقف من السيرة النبوية، ويدرس فيها كتاب أخلاق النبوة من إحياء علوم الدين (مع تحقيق أحاديثه)، وقد جربنا ذلك، وما أعظم ثمرته المباركة، أو أي كتاب بديل.

الثاني: صلاة تهجد بسور الأحزاب والفتح والقلم والمزمل والضحى

والشرح والكوثر، بخشوع، مع مجلس قرآني جماعي، تفسر فيه الآيات بشكل سهل ومختصر للمساعدة على التدبر، لنفس هذه السور.

الثالث: مجلس تذوق لحديث أو اثنين من الصحيح، يعقبه صلاة وسلام على رسول الله، من القلب، ثم لحظات تخيل أن الأخ المسلم التقى برسول الله ﷺ، ورآه- بأبي هو وأمي، وفداه نفسي وروحي!

وتخيل أننا التقيناه يوم القيامة فهل يسقينا من حوضه، أم يقول: سحقا سحقا.. اللهم استرنا يوم العرض الأكبر – آمين.

جـ- والمتطلب التربوي الثاني لاكتساب حنين القلب ولينه لرسول الله محمد ﷺ: هو تربية شهوة الحنين إليه، والرغبة في التخلق الجواني بهذه القيمة، أي: تربية إرادة الحنين له، وشهوة الشوق إلى رؤيته، أي: تذويت قيمة اللين والحنين للرسول الأمين ﷺ، بدلا من كونها في الذهن فقط، وطبقا لتجربتي الخاصة فإن الدرس المنظم من خلال الآليات التربوية السابقة، إذا تناغم معها الاهتمام الجاد، والحرص على الاتصاف، وعلو الهمة، والتذوق الوجداني، فإنه يثمر بتلقائية هذا الشوق، والرغبة وإرادة الاتصاف، بل يثمر الحنين بشكل تلقائي، فما أظن أحدا فيه الحد الأدنى للإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ، يعرف محمدا هذه المعرفة، إلا ويحبه، فعلا، ويشتاق لرؤية أكمل إنسان في التاريخ، وأنبل رجل في العالم.

ومن العوامل التي تثمر هذا الحنين، وتولد إرادة الاتصاف به، التركيز على معرفة فضل هذه القيمة، وأثرها في شخصية المسلم؛ في قلبه، وروحه، وعاطفته، وشعوره، وأخلاقه، وفي حياته الدنيا، وآخرته، وعلى الأقل، يدرك محبة الله لمن يحب رسوله ﷺ، ويذوق حقيقة أن الرسول يود رؤيته وملاقاته، يا الله! سيدنا محمد يود أن يرى إخوانه، الذين آمنوا به، ولم يروه، ونحن، والله، نود رؤيته، أود لو التقيت به وأقول له: يا رسول الله! عثيمين، الخطاء ابن

الخطاء، يود مسح نعليك بفمه، وتقبيل قدميك! ووالله كم وددت أن أعمل خادما في مسجده الشريف، ويقول الناس: انظروا إلى الحب! جعل (دكتورا) في الجامعة، يعمل (خادما) في المسجد!!

فمعرفة هذه الآثار، وتذوق قول النبي: «**طوبى، سبع مرات، لمن آمن بي ولم يرني**»، هذه المعرفة والتذوق، حين يتلذذ بها المسلم، تثمر رغبة قوية، وجذبة من جذبات الحق، والحب، والإقبال الروحي، تُرْبِي وتزيد على أعمال مائة سنة، يقول النصراباذي: «جذبة من جذبات الحق تُرْبِي على أعمال الثقلين»(٦٥).

ومن العوامل التي تثمر هذا اللين والحنين - حسب تجربتي - تذوق شعر الحنين لرسول الله ﷺ، ومدائحه، إنها تسهم جدا في تربية الحنين والشوق إلى رؤيته ﷺ، سواء من خلال التذوق بالقراءة، أو الاستماع للقصائد، أو للحداء المربي، وقد كنت أهتم بهذا، وتذوقت شعر حسان وكعب بن زهير وابن رواحة والجعدي، والبوصيري (مع الرفض التام وبصراحة لأبياته التي فيها خروج عن التوحيد بأي شكل)، وشعر شوقي وغنيم، وإقبال، ومحمود أبي الوفا، وعبد الله شمس الدين، ومروان حديد، وكمال وحيد والأميري....إلخ وأشعار كثيرة دندن بها المسلمون الهنود وغيرهم، وابتهل بها مسلمون، وأصبحت تراثا شعبيا مثل:

يا راحلين إلى منى بقيادي ... شوقتم يوم الرحيل فؤادي

سرتم وسار دليلكم يا وحشتي ... والشوق أرقني وصوت الحادي

فإذا وصلتم سالمين فبلغوا ... مني السلام إلى النبي الهادي

ومثل أنشودة يا طَيْبَة، وتوشيح (فايت على الورد) وأنشودة:

---

(٦٥) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية، ص ٤٨٨.

أحـــزان قلبـــي لا تـــزول حتـــى أبـــشر بـــالقبول

وأرى كتـــابي بـــاليمين وتقـــر عينـــي بالرســـول

إن تذوق المسلم واستماعه، وقراءته، وحفظه إن استطاع، لهذه الأشعار، هو سبيل تربوي لتنمية إرادة الحنين لسيدنا رسول الله ﷺ، بشرط تخليص كل قصيدة من أي غلو، أو خروج على توحيد الله، ومن المهم توظيف الحداء التربوي في ذلك فتنزل أنشودة أحزان قلبي، ويا طيبة، وفي محمد بلغ الكون العظيم غايته (لأبي الوفاء وإنشاد أبي مازن) وفايت على الورد (توشيح للنقشبندي)... إلخ، تحمل على الهواتف النقالة، وتسمع أحيانا، وترسل بها رسائل للمحبين.. وتحمل على الحواسب الآلية، ويستمع إليها.

وعمل ندوات شعرية ومهرجانات (محترمة) لإلقاء قصائد في حب الرسول ﷺ، ونشر مجموعات شعرية لعدد من الشعراء مثل مجموعة: لماذا نحبه؟...إلخ.

كل هذا يولد الحنين للرسول ﷺ، كما جربت وذقت، ويدفع دفعا للانحياز إلى ما عاش من أجله الرسول ﷺ.

ومما يربي هذا الحنين واللين القلبي للرسول ﷺ: الاطلاع على سير وأحوال المشتاقين لرسول الله ﷺ، فهذا الاطلاع على الحال، مؤثر جدا في تراسل الأحوال، وانتقال أثر الحال إلى النفس والقلب، وقد جمع عياض في (الشفا) قدرا يكفي المسلم، وفي هذا الفصل قدر آخر، مهم، وفي سير أعلام النبلاء وحلية الأولياء، وصفة الصفوة.. إلخ قدر طيب يمكن أن يجمع، ويوظف في الدورات التربوية..

ووالله إن دراسة حنين الجذع لرسول الله ﷺ، هو وحده كاف لتفجير ينابيع القلب حنينا وشوقا لمحمد رسول الله ﷺ، لقد فعلت هذه المعجزة

بقلبي الأفاعيل(٦٦).

وتأمل في هذه المقولة المزلزلة للقلب: يقول الإمام مالك عن أيوب السختياني: «وحج حجتين، فكنت أرمقه، ولا أسمع منه، غير أنه كان إذا ذكر النبي – بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي ﷺ، كَتَبْتُ عنه»(٦٧).

د- والمتطلب التربوي الثالث: هو تعزيز الحنين للرسول ﷺ في القلب، فإذا أحكم المسلم المتطلبين التربويين السابقين، فإن اللين والحنين سيربو في قلبه لرسول الله ﷺ، ولرؤيته، ولكلامه وأخلاقه واتباع منهجه، والتحاكم إليه، والصلاة عليه.. والنصرة له، واتباع النور الذي أنزل معه... أي: أنه يصبح ممارسا فعليا للحنين، متصفا به، هذه الممارسة في نفسها آلية تربوية تعزز الاتصاف، وتثبت القيمة، وتدعم التخلق، وتحوله إلى حال قلبي (معتاد) يصدر عن القلب بسهولة.

تدبر قول الغزالي، وهو قول حق: «فجميع ما تحتمله النفس والجوارح من الصفات؛ لا سبيل إلى اكتسابه إلا بالتكلف والتصنع أولا، ثم يصير بالعادة (التكرار المستمر) طبعا، وهو المراد بقول بعضهم: العادة طبيعة خامسة، فكذلك الأحوال الشريفة، لا ينبغي أن يقع اليأس منها، عند فقدها، بل ينبغي أن يتكلف اجتلابها بالسماع وغيره، فلقد شوهد في العادات من اشتهى أن يعشق شخصا، ولم يكن يعشقه، فلم يزل يردد ذكره على نفسه، ويديم النظر إليه، ويقرر على نفسه الأوصاف المحبوبة، والأخلاق المحمودة فيه، حتى عشقه، ورسخ ذلك في قلبه رسوخا خرج عن حد اختياره.. فكذلك حب الله ـ تعالى ـ والشوق إلى لقائه (...) وغير ذلك من الأحوال الشريفة (مثل الحنين للرسول ﷺ، ولين القلب له) إذا فقدها الإنسان فينبغي أن يتكلف اجتلابها

---

(٦٦) ادرس باب حنين الجذع؛ شوقا إلى رسول الله، وشفقا من فراقه، في: ابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ط دار الفكر، ص ٥١٧ – ٥٢٥.

(٦٧) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٦، ص ١٧.

بمجالسة الموصوفين بها، ومشاهدة أحوالهم، وتحسين صفاتهم في النفس،.. وبالدعاء والتضرع... إلخ»(٦٨).

وبالممارسة يتحول الحنين إلى عادة سلوكية وخلق ذاتي، أي: أنه تم تذويته، وإدماجه في الذات، وجعله جزءا من الهوية الذاتية، للإنسان المؤمن، جزءا من (عرضه) و (شرفه) وكينونته وضميره.

هذا الاتصاف بالحنين ولين القلب للرسول ﷺ ينتج عن العمليات التربوية السابقة، لكنه يحتاج لتدعيم وتعزيز، جواني وبراني، أما التدعيم الجواني فينشأ ويتحقق بالانشراح والفرح، ببشاشة الحنين لمحمد رسول الله ﷺ والشوق إليه، فيفرح ويسر؛ إذا حن قلبه، ولان لكلام النبي ﷺ، وطاعته، فهذا دليل على أنه مؤمن حقا، فيحدث التدعيم الذاتي، والتعزيز الداخلي لقيمة اللين والحنين، ويغتم ويحزن لأنه لم يلن لحديث سمعه، أو لذكر اسمه، أو أحس أنه بينه وبين الرسول حائط صد، أو لم يصل ويسلم عليه، أو لخلو قلبه من الشعور نحوه بالحب،.. إلخ، فهذا الحزن والغم يولد فيه رغبة للتغيير الإيجابي نحو الصفة الحسنة، وهي حنين القلب ولينه للنبي ﷺ.

وهناك عمليتان تعزيزيتان أخريان:

الأولى: الدخول في زمرة جماعية تحن لرسول الله، وتشتاق لرؤيته، أو تشتاق وتشتهي أن تحن للرسول ﷺ، فيسمع منهم، ويتدارس معهم، وينمون جميعا في الحب والحنين، ويتفتحون معا في هذه القيمة العظيمة من قيم القلب المؤمن، فمن أسباب تعزيز الحنين في قلب المسلم مجالسة الصالحين المشتاقين، فمن جالس شخصا سرت إليه صفاته من حيث لا يدري.

والعملية التعزيزية الثانية: عمل جدول تقويم ذاتي لقيمة الحنين لرسول الله ﷺ، فيعد قائمة ذات أربعة أنهر، في الأول: يثبت عناصر الحنين ولين

---

(٦٨) الغزالي: إحياء علوم الدين، ج٢، ص ١١٦٧ – ١١٦٨.

القلب له: أعرف رسول الله ﷺ، أؤمن برسول الله ﷺ، أتيقن في رسول الله ﷺ، أحب رسول الله ﷺ، أحب ما يحب رسول الله ﷺ، أوالي رسول الله ﷺ، أنصر رسول الله ﷺ، أحن لرؤية رسول الله ﷺ، يلين قلبي لكلام رسول الله ﷺ، وسنته، أتحاكم إلى رسول الله ﷺ، أنقاد لحكم رسول الله ﷺ، أشتاق لتطبيق سنة وشرع رسول الله ﷺ.

وفي النهر الثاني: أمام كل عبارة مما سبق: أفهم – لا أفهم.

وفي النهر الثالث: اشتهي ممارستها – لا أشتهي.

وفي النهر الرابع: أتصف لا أتصف، ويحدد أمام كل عبارة موقفه بالضبط، ويشرع في استدراك النقص وتكميل الموجود، فتحصيل الكمال في هذه القيمة مطلوب شرعا، والله الهادي والموفق.

هـ- وهناك آلية تربوية تعبدية مع ما سبق؛ **هي الدعاء والتضرع**؛ وقد كان ابن مسعود ﷺ يدعو: «اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفد، وقرة عين الأبد، ومرافقة نبيك محمد في أعلى جنان الخلد»، فلم لا ندعو بهذا الدعاء، فالدعاء- في ذاته- جمع للهم، وتركيز للعاطفة في موضوع الدعاء، فهو وسيلة تربوية مهمة تجعل الداعي يستشعر (المعنى) الذي يسأله، ويطلبه من الله، ويرغب في الاتصاف به؛ إنه (تربية في العمق)، لم لا ندعو في السجود وفي السحر: اللهم ارزقني معرفتك ومعرفة رسولك، والإيمان بك وبرسولك، وارزقني اليقين فيك، وفي رسولك، وحبك وحب رسولك، اللهم أسألك الشوق إلى لقاء رسولك، ولذة النظر إلى وجهك، وإلى رسولك، اللهم ارزق قلبي اللين له، ولسنته، والحنين والاشتياق إليه، يا أرحم الراحمين، اللهم اجمعني به في مستقر رحمتك، واحشرنا في زمرته، وتحت لوائه، واسقنا من حوضه المورود بيده الشريفة شربة لا نظمأ بعدها أبدا، واسقنا اللهم، من شراب محبته، والشوق إليه، اللهم ارزقني مرافقة حبيبك محمد في أعلى جنان الخلد، آمين، وأمثال ذلك، مما يفتح الله به على قلبك.. ولكل قلب حاجة، والله

يحب أن يسأل ويجيب دعوة المضطرين.

و- استحضار النبي ﷺ في القلب، والإكثار من ذكره، وتعداد فضائله، وخصائصه، ومعجزاته ودلائل نبوته، وتعريف الناس والنفس بسنته، وسيرته، وتعليمهم إياها، وتذكيرهم بمكانته، ومنزلته، وحقوقه، وذكر صفاته، وأخلاقه، وما كان من أمور دعوته، وسيرته، والتمدح بذلك شعرا، ونثرا... فإن المسلم كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضاره في قلبه، واستحضار محاسنه، ومعانيه الجالبة لحبه، تضاعف حبه له، وتزايد شوقه وحنينه إليه، واستولى على جميع قلبه، وإذا أعرض عن ذكره، وإحضار محاسنه، في قلبه، نقص حبه من قلبه وبدأ الحنين والشوق يتلاشى من قلبه، ولا شيء أقر لعين العبد المحب من رؤية محبوبه، ولا أقر لقلبه من ذكره وإحضار محاسنه، في الوعي والشعور، فإذا قوى هذا في قلبه جرى لسانه بمدحه، والثناء عليه، وذكر محاسنه، وتكون زيادة ذلك ونقصانه بحسب زيادة الحب ونقصانه في قلبه(٦٩).

ز- **كثرة الصلاة والسلام عليه من القلب:** فهي تثمر محبة الرسول، وزيادة هذه المحبة، ولها ثلاث وثلاثون فائدة، كما ذكرها ابن القيم في جلاء الأفهام، وأكتفي هنا بذكر حديث واحد؛ عن أبي بردة بن نيار، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من صلى عليَّ صلاة من تلقاء نفسه، صلى الله عليه بها عشر صلوات، وحط عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات**» رواه البزار ورجاله ثقات، ورواه الطبراني إلا أنه قال: «**ما صلى عليّ عبد من أمتي صادقا بها في قلب نفسه**» وزاد: «**وكتب له عشر حسنات**»(٧٠).

---

(٦٩) انظر: ابن القيم: جلاء الأفهام بالصلاة والسلام على خير الأنام، ص ٢٦٥، وادرس الكتاب الآتي: عبد الله بن صالح الخضيري وعبد اللطيف بن محمد الحسن: محبة النبي وتعظيمه، كتاب البيان، ط١، ٢٠٠٦م، كل الكتاب.

(٧٠) مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد، ج١٠، رقم ١٧٢٩٠، ص ٢٥٠، ٢٥١. وادرس (الترغيب في إكثار الصلاة على النبي، والترهيب من تركها عند ذكره) المنتقى من الترغيب والترهيب، ج١، ص٤٥٧ - ٤٦٠.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على آل محمد كما باركت على آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والحمد لله رب العالمين.

سادسا: خاتمة ونتائج:

١- يتبين من مادة هذا الفصل أن لين القلب لرسول الله ﷺ خلق أساسي من أخلاق القلب المؤمن، وقيمة من قيم تربيته، أي: أنها تحدد هدفا تربويا رئيسيا من أهداف تربية القلب تربية متكاملة، تتناغم مع قيمة الرقة واليقين، وقيمة الرحمة وقيم الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر المفصلة في (تربية تجدد الإيمان في القلب).

٢- ولين القلب وحنينه وتوقانه لمحمد رسول الله ﷺ قيمة عن معرفته، واليقين فيه، والإيمان به، ومحبته، وموالاته، وهي تشكل علاقة (عَبْرَ زمنية) وعلاقة روح بروح، وقلب بقلب، علاقة تآلفية، عبر الزمان والمكان، بين رسول الله، وكل مؤمن به، مما ينشئ (أمة) متحابة، متآلفة، في الزمان والمكان، مركزها التوحيدي: الكعبة، ومركزها البشري: سيدنا محمد رسول الله ﷺ وغايتها: الله.

٣- ولقيمة الحنين ولين القلب لرسول الله ﷺ آثار قلبية شعورية، واجتماعية، ودنيوية وأخروية، منها محبة الله للقلب اللين المشتاق لرسول الله ﷺ، ومحبة الرسول لرؤية هذا المؤمن، وترقية الشعور الإنساني بحب هذا الرسول ﷺ، والحنين إليه، ولين القلب لكلامه وسنته، مما يدفع للعمل به، والتزام طاعته، والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، والشعور بالصلة المتبادلة بيننا وبين الرسول ﷺ، وتذوق أننا إخوانه، وقلبه يلين لنا.

ومن أهم ما تثمره هذه القيمة تقرير أن السلفية، واتباع سنة الرسول ﷺ تقوم على بنية شعورية عاطفية نحو رسول الله ﷺ، فالسلفية الحقة مشاعر

حنين لرسول الله ﷺ، ولين قلبي لكلامه، والعمل به، وانحياز عاطفي لمنهجه؛ يدفع لمتابعته في كل أقواله وأفعاله ﷺ.

٤- ولين القلب والحنين إليه ﷺ ، ليس خاصا بالمؤمنين به من البشر فقط، فكل من عرف أنه رسول الله حقا، وآمن به؛ أحبه، ولان قَلْبُه له، وحنَّ إلى كلامه، واشتاق لرؤيته؛ مثل: (الجِذْع) والشجرة، والبعير المطيع[٧١]، حتى (الحَجَر) الذي كان يسلم عليه، وهو في مكة، (والجبل) - جبل أُحُد - الذي أحبه رسول الله ﷺ، وأحب رسول الله ﷺ «**أحد: جبل يحبنا ونحبه**» حديث متواتر.

٥- إن تربية القلب اللين لرسول الله ﷺ، الحنان والمشتاق والتواق لكلامه ورؤيته، هو هدف تربوي، يلزمه عمليات تربوية، فعاليات معرفية، ووجدانية وسلوكية بينت محاورها في الفقرة (خامسا).

٦- إن هذه القيمة تعطينا صورة لما ينبغي أن تكون عليه شخصية المسلم، فهو رقيق الشعور، لين القلب، له سلوك روحي، وعواطف، ومشاعر، في الطريق المستقيم.

وهذه القيمة مع أخواتها – تلقي عبئًا تربويا على كل من يريد إحداث تغيير حقيقي شامل في الشخصية الإسلامية المعاصرة، وفي المجتمع الإنساني عامة.

فتربية الشخصية الإنسانية ليست عملية برانية، أو شكلية، وليست مجرد دراسة لا تلامس القلب، لبعض آيات من القرآن، وبعض الأحاديث،

---

(٧١) أخرج أحمد عن جابر بن عبد الله؛ قال: أقبلنا مع رسول الله من سفر، حتى إذا دفعنا إلى حائط من حيطان بني النجار (حديقة نخل وعنب) إذا فيه جمل، لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه (هجم عليه بشدة) قال: فذكروا ذلك للنبي، فجاء، حتى أتى الحائط، فدعا البعير، فجاء؛ واضعا مشفره إلى الأرض، حتى برك بين يديه، قال: فقال النبي: «**هاتوا خطاما**» (حبلا يربطه به)، فخطمه، ودفعه إلى صاحبه، قال: ثم التفت إلى الناس، قال: «**إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس**» إسناده صحيح، المسند، ج١١، رقم ١٤٢٦٩، ص ٤١٨.

وليست هي- حتى- تضلعا من المعارف الدينية، بدون هذا البعد الجواني، أي: تربية القلب ذي الضمير اليقظ، وواعظ الله في القلب، والمتخلص من القسوة، والجلافة، والمتصف بقيم الرحمة والرقة، واللين، وصفاء اليقين، بكل متعلقاته، والصلب في دينه، في ذات الله، والحنان لرسول الله ﷺ، اللين لكلامه، والمشتاق لرؤيته،.. إلخ ما سنتناوله بعون الله، وكل واحدة من هذه القيم هي هدف تربوي عام، ملزم، يتطلب عملياتٍ وخططا تربوية متكاملة أشرنا إليها، لإخراج المسلم الصحيح، ليكون من ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ ليربيهم، ويكملهم، وينقذهم، ويخرجهم بشرا مؤنسنين، أسوياء الروح، والعقل، والقلب، والجسم والأخلاق، والعلاقات.

٧- إن هذا الفصل له استكمال في فصل (تربية تجدد الإيمان في القلب) في محور تربية الإيمان بالرسول ﷺ، فليرجع إليه، والحمد لله.

سابعا: أسئلة وأنشطة لتعميق الفهم وتسهيل الممارسة:

١- لين القلب لرسول الله ﷺ قيمة خلقية، وهي جزء من الإيمان، وضح ذلك.

٢- حلل مفهوم اللين، وحدد بعض صوره السلوكية، ثم بين الفرق بينه وبين رقة القلب.

٣- ما الآثار النفسية والخلقية والاجتماعية للاتصاف باللين والحنين لرسول الله محمد ﷺ؟

٤- استخرج وقائع وتطبيقات عملية للين القلب وحنينه لرسول الله، من هذا الفصل، وتصور نفسك مكان واحد منها.

٥- كلفت بإعداد خطة لدورة تربوية ليلية عن قيمة الحنين ولين القلب للرسول محمد ﷺ، حدد: الأهداف المعرفية والوجدانية والعملية السلوكية للدورة، وحدد الأنشطة التربوية: المعرفية، والتعبدية، والتذوقية المطلوب

فعلها لإنجاز الأهداف المقصودة، واذكر بعض المراجع التي استعنت بها، وعناوين بعض القصائد لتذوقها.

٦- في أثناء شرح الفقرة الخامسة تم تحديد معالم جدول للتقويم الذاتي لقيمة الحنين واللين، استخرج هذا الجدول وقم بإتمامه، وطباعته، ونسخه خمس نسخ، (لأصحابك) وطبقوه على أنفسكم، وراجع هذا الفصل معهم، من خلال هذا الجدول.

٧- اجمع خمسة أحاديث نبوية عن قيمة لين القلب وحنينه للرسول، وتذوق كلا منها.

٨- اجمع خمس قصائد شعرية صحيحة العقيدة عن رسول الله ﷺ وتذوقها.

٩- قوم سلوكك الروحي والوجداني نحو رسول الله ﷺ في ضوء قيمة الحنين ولين القلب له.

١٠- ماذا يقصد محمد إقبال بقوله:

مهجة المسلم مثوى المصطفى   عزة المسلم ذكرى المصطفى؟

وماذا يقصد بالقطعة الأخيرة من قصيدته؟ انثرها (= حولها نثرا) بأسلوبك.

١١- ما دلالة حديث أنس: «أضاء منها كل شيء.. أظلم منها كل شيء»؟ استخرج الدلالة الحقيقة والمجازية لهذا الحديث.

١٢- اعمل بحثا عن الحقيقة المحمدية في القرآن الكريم، وانشره على النت (سور الأحزاب، الفتح، النور، القلم، الضحى، الشرح، الكوثر، آخر الكهف، آخر التوبة.. الخ).. وكذلك في السنة النبوية.

١٣- نظم مسابقة لتلخيص أحد الكتب الآتية: الشفا للقاضي عياض -

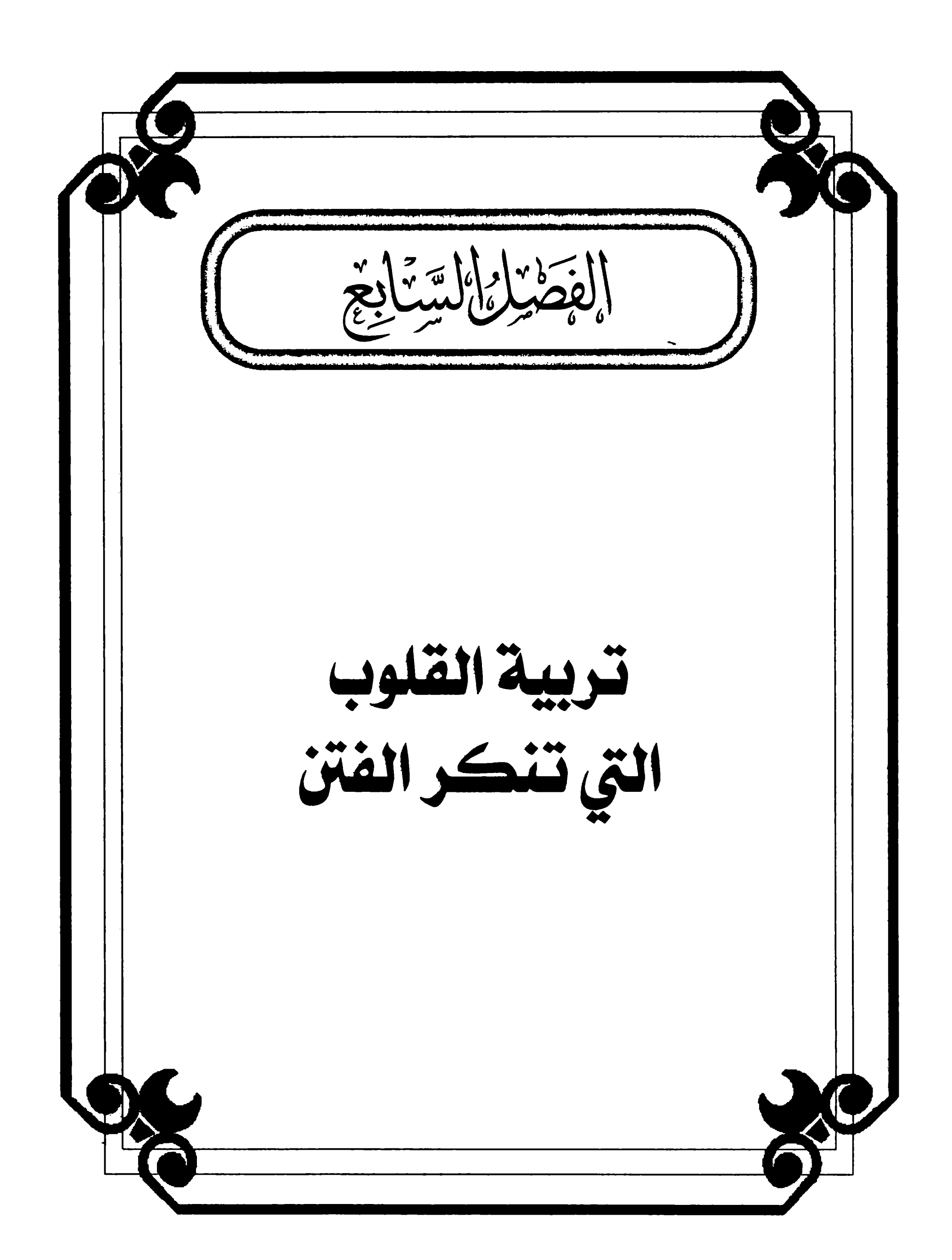
الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي، الشمائل والدلائل لابن كثير، المعجزات الأحمدية لبديع الزمان النورسي، أو قم بتلخيصها أنت، ووزع تلخيصاتك.

١٤- اجمع المدائح والتواشيح النبوية التي أنشدها الشيخ سيد النقشبندي وأبو مازن، من شرائطهما، وتذوقها وانقدها في ضوء عقيدة التوحيد الخالص.

١٥- في صلاة الجمعة خطب الإمام عن حب الرسول ﷺ، فأهاج شوقي وحنيني، وأسال دمعي، فقلت القطعة الآتية، في أثناء استماعي للخطبة، فانقدها، وقل رأيك فيها:

يا حُدَاءُ الشوق يكفي ... من شُجُونك ما يُنيرْ
كُفَّ يا شيخي، فإني ... كدت من شوقي أطيرْ
قد أثار الشوق دمعي ... هَيَّجَ الجَمْر الخطيرْ!
كيف يشتاق الجَمَالَ ... فؤاد عثمان الفقيرْ؟
كيف يشتاق الكمالَ ... وكل ما فيه .. حقيرْ؟
كيف ألقاه .. وقلبي ... ضل في وادي السعيرْ؟
عِشتُ مشتاقا إليه ... وكنت مُكْتَسِيَ الضميرْ
والآن عَرَّتْني الذنوبُ ... فآه من خَجَلِي المريرْ!

أسأل الله العفو والعافية. والحمد لله رب العالمين



الفصل السابع

تربية القلوب
التي تنكر الفتن

تربية القلوب التي تنكر الفتن

أولا: نص الحديث النبوي:

أ - أخرج مسلم عن حذيفة؛ قال: كُنَّا عند عُمَرَ، فقال: أَيُّكُمْ سمع رسول الله ﷺ، يذكر الفتنَ؟ فقال قوم: نحن سَمِعْنَاهُ، فقال: لعلكم تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرَّجُل في أهله وجارِهِ؟ قالوا: أَجَلْ. قال: تِلْكَ تُكَفِّرُهَا الصلاةُ والصيامُ والصَّدقَةُ. ولكن أَيُّكُمْ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يذكر الفِتَنَ التي تَمُوجُ مَوْجَ البَحْرِ؟ قال حذيفة: فَأَسْكَتَ القومُ، فقلت: أنا، قال: أَنْتَ، لله أَبُوكَ! قال حذيفة: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلى القُلُوب كَالحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا؛ نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وأيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَها نُكِت فيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حتى تَصِيرَ على قَلْبَين؛ على أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مادامت السماواتُ والأَرْضُ. والآخَرُ أَسْوَدُ، مُرْبادًّا، كَالكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يَعْرفُ معروفًا، ولا يُنكرُ منكرًا، إلا مَا أُشْرِبَ من هَوَاهُ**».

قال حذيفة: وحَدثْتُهُ أن بَيْنَكَ وبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، يُوشِكُ أَنْ يُكْسَرَ. قال عُمَرُ: أَكَسْرًا، لا أَبَا لَكَ؟ فَلَوْ أنهُ فُتحَ لَعَلهُ كان يُعَادُ؛ قُلْتُ: لا، بَلْ يُكْسَرُ. وحَدَّثْتُهُ أَنَّ ذلكَ البابَ رَجُلٌ يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ، حَديثًا ليس بالأَغَالِيطِ.

قال أبو خالد: فقلت لسعد: يا أبا مالك، مَا أَسْوَدُ مُرْبادًّا؟ قال: شِدَّةُ البياضِ في سَوَادٍ. قال: قُلْتُ: فَمَا الكُوزُ مُجَخِّيًا؟ قال: مَنْكُوسًا. رواه مسلم من طرق عن حُذيفة(١).

---

(١) القاضي عياض: إكمالُ المعُلم بفوائد مسلم، حديث رقم ١٤٤، ص٤٥١ - ٤٥٥ وهو في صحيح مسلم بشرح النووي، الجزء الثاني، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب، رقم ١٤٤، ص١٧٠ - ١٧٣. وروى البخاري بعض هذا الحديث، وليس فيه النص الخاص بهذا الفصل، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٦، كتاب المناقب، رقم ٣٥٨٦، ص٦٠٣، ٦٠٤، وج ١٣، كتاب الفتن، رقم ٧٠٩٦، ص٤٨.

ب- وأخرجه الإمام أحمد؛ حدثنا يزيد بن هارون، ثنا أبو مالك، عن ربعي ابن حراش، عن حذيفة، أنه قَدِمَ مِنْ عِنْدِ عُمَر، قال: لَمَّا جَلَسْنَا إليه أمس؛ سَأَلَ أَصْحَابَ محمد ﷺ: أيكم سَمِعَ قول رسول الله ﷺ في الفِتَنِ؟ فقالوا: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ. قال: لعلكم تَعْنُونَ فِتْنَةَ الرجلِ في أَهْلِهِ وَمالِهِ؟ قالوا: أجل، قال: لَسْتُ عن تِلْكَ أَسْأَلُ، تلك يُكَفِّرها الصلاة والصيام والصدقةُ. ولكن أيكم سمع قول رسولِ الله ﷺ، في الفِتَنِ التي تَمُوجُ مَوْجَ البحر؟ قال: فَأَمْسَكَ القَوْمُ، وظَنَنْتُ أنه إِيَّايَ يُرِيدُ. قلت: أَنَا. قال لي: أَنْتَ، لله أبوك. قال: قُلت: **«تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ عَرْضَ الحَصِيرِ، فأي قَلْبٍ أَنْكَرَها نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضاء، وأيُّ قَلْبٍ أشْرِبَهَا نُكِتَتْ فيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ. حتى يَصِيرَ القَلْبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، لا يَضُرُّه فِتْنَةٌ ما دامت السماوات والأرضُ. والآخر أَسْوَد مُرْبَدٌّ كَالكُوزِ مُجَخِّيا – وأَمَالَ كَفَّهُ – لا يَعْرِفُ مَعْرُوفا، ولا يُنكِرِ منكرا، إلا ما أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»**[2].

ورواه قريب من هذا، مع بعض اختلاف في بعض ألفاظ، وفيه: **«حتى تَصِيرَ القُلُوبُ على قَلْبَيْن»**.. حديثا ليس بالأغاليط[3].

جـ- وفي صحيح الجامع: **«وأي قلب أنكرها نكتت فيه نُكْتَةٌ بيضاءُ حتى يصيرَ القَلْبُ أبيضَ مِثْلَ الصَّفَا، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرضُ، والآخر أَسْودَ مُرْبَدًّا...»**[4] إلخ.

ثانيًا: تمهيد في قانون التحول التدريجي من الإيمان إلى الكُفْر:

أ- يتضمن هذا الحديث تصورات عقدية عن القلب هي:

١ - أن الفتن تُعرض على القلوب تدريجيا، جزءا جزءا، عُودًا عُودًا.

---

(٢) قال محققه: إسناده صحيح، انظر: المسند، ج١٦، تحقيق الزين، حديث رقم ٢٣١٧٣، وقال الشيخ الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، انظر: المسند، حديث رقم ٢٣٣٢٨.

(٣) قال محققه: إسناده صحيح، المصدر السابق، حديث رقم ٢٣٣٣٢، ص٦٢٧. وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، المسند حديث رقم ٢٣٤٨٧.

(٤) قال الألباني: صحيح، صحيح الجامع الصغير وزيادته، الفتح الكبير، المجلد الأول، رقم ٢٩٦٠، ص٥٦٩.

٢ – أن هناك مَنْ يعرض الفِتن على القلوب بهذا التكتيك.

٣ – أن القلوب تُحب الفتن أو تنكرها.

٤ – أن القلب الذي يقاوم الفتنة، وينكرها، يُكَافَأُ، بأن تنكت فيه نكتة بيضاء، فإذا استمر في المقاومة، تربى وقوي واشتد في الإيمان فيصير أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض.

٥ – أن القلب الذي يتولع بالفتن، ويحبها، يعاقب، بأن تُنْكَتَ فيه نكتة سوداء، فإذا استمر في حب الفتن، فإنه يشتد في الإثم، فيصير أسود، كالكوز المقلوب، ويعبد هواه، ولا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، إلا ما أحبه فيصير متخذا إلهه هواه؛ فَعِلَّةُ عبادة الهوى هي التتابع في حب الفتن والذنوب، وارتكابها.

ب– كما يتضمن هذا الحديث قيمتين قلبيتين رئيستين هما: أن ننكر الفتن بقلوبنا، ونستمر في ذلك الجهاد. وأن نحب طاعة الله، ونبغض معاصيه بالقلب.

جـ – وهذا الحديث يبرهن على قانون من قوانين تربية القلب، يقوم على تصور لطبيعة عمل القلب وحركته، فالتغير والتحول من الإيمان بالله، وعبادته وحده، إلى عبادة الهوى، أي: إلى الشرك، لا يحدث فجأة، بالنسبة إلى المسلم. وإنما يحدث شيئا فشيئا؛ يبدأ التحول من القلب؛ بعرض الشيطان، أو صديق السوء، أو أجهزة التثقيف، أو الإعلام، أو المعلم، أو خاطرة النفس الأمارة بالسوء.. أو تخيل قلبي، بِعَرْضِ فِتْنَةٍ، على القلب، يُحب القَلبُ الفِتْنَةَ، أي: الإثم، والمخالفة لله ورسوله، أو الضلال عن هداية الله. والنفس تحب هذه الفتنة. هذه أول خطوة، أول تكتيك حركي في استراتيجية الشيطان؛ فإن استقر حبها في القلب، ولم ينكرها، ولم يبغضها، ولم يرفضها، ولم يخرجها منه، فَوْرَ عَرْضِها عليه؛ تمكن حب المعصية فيه، فيسود شيء من بياضه، ويفسد جزء من فطرته النقية، ثم تُعْرَض

عليه فتنة أخرى فيحبها، فيتمكن حبُّ المعصية أكثر، فيسود جزء آخر من قلبِهِ، ويفسد جزء آخر من فطرته النقية.. وهكذا حتى يتكون اتجاه نفسي قوى للمعصية، ويتربى هواه المخالف لمنهج الله، وتكون النتيجة هي أن يحيط حُبّ المعاصي بالقلب، ويسيطر عليه، فيصبح متبعا للهوى؛ بحيث يصبح هوى الإنسان (ما يحبه ويبغضه)، ومزاجه، ورغباته، وغرائزه، ومصالحه الذاتية الدنيوية هي الميزان والمعيار الذي يقبل على أساسه أو يرفض، ويؤيد أو يعارض، فقد أحل هواه محل شرع الله، ولم تعد المشروعية العليا، والقيمة الحاكمة الموجهة للقلب هي ما يحبه الله ويرضاه، أزاح حاكمية الله من قلبه، وأحل محلها «ما أُشْرِب مِنْ هواه» أي: أنه اتخذ إلهه هواه، وتحقق فيه ظن إبليس ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠]، فخاب وخسر وهلك، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

د – فما المخرج من هذا المصير؟

يحدد الحديث النبوي سبيل النجاة؛ وهو: أن ينكر القَلْبُ الفتنة أوَّلَ ما تُعْرَضُ عليه، وذلك يستلزم أن يكون على وعي وفقه بدينه، قادرا على تمييز الحق من الباطل، فيقبل الحق، وينكر الباطل، وفي هذا المعنى أخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة؛ قال: «لا تضرك الفتنة ما عَرَفْتَ دِينَكَ، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل»(٥).

فإذا عرف القَلْبُ أن الفتنة باطل، وأنها إلقاء إبليس في القلب، فإنه يكرهها، ويرفضها، ويجاهد ضدها، ويقاومها، ويزيحها من قلبه، وهذا معنى: «أنكرها»، فكلما يعرض الشيطان، أو النفس الأمارة معصية على القلب، فإنه

---

(٥) انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١٣، ص٤٩. القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، مصدر سابق، هامش رقم (١)، ص٤٥٢ وفيه: «إنما الفتنة ما اشتبه عليك الحق والباطل».

يبغضها، ويرفضها، ويستنكرها، فيصفو قلبه، وينجلي، وتقوى إرادة الخير فيه، ويشتد، ويتربى في الطاعة، ويكتسب قناعة وقوة وحصانة ضد الفتن، وذلك بسبب قوة إيمانه، وحبه لله، وشدة النور فيه، وبسبب باصرته المعرفية القوية التي تميز الطاعة من المعصية، فيعرف أنها شبكة، وفخ ومصيدة لإبليس ومظلمة في القلب، يريد إبليس أن يصطاد كيانه الجواني، كله، ليأسره، ويسجنه ويربيه على عصيان الله، فكل معصية تعرض على القلب هي خطوة من خطوات إبليس، عدوه، فيبادر القلب ببغضها، فينكرها، قائلا بعزم: هذه فتنة، أعوذ بالله من مضلات الفتن، فيستنير قلبه، ويقوى إيمانه، ويشتد نوره، فيتربى، ويرقى في الطاعة، فإنكار الفتن زيادة في الإيمان، أي: تربية للقلب.

إذن، الهدف التربوي هنا هو أن يكون القلب مستنيرا، عارفًا للدين، مميزا للحق من الفتنة، منكرا للفتن كُلَّما عُرِضَتْ عليه.

والحديث النبوي الذي معنا يوضح فيه النبي ﷺ، هذا القانون القلبي توضيحا جليا، ولهذا نتلقى منه أضواء كاشفة في الفقرات الآتية.

ثالثا: مفهوم الفتن:

أ- الفتن: جمع فتنة، قال الأزهري وغيره: «جماع معنى الفتنة: الابتلاء، والامتحان، والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك: فَتَنْتُ الفِضةَ والذهبَ؛ إذا أذبْتَهُما بالنار، لتميز الرديء من الجيد، وفي الصحاحِ: إذا أدخَلْتَهُ النارَ؛ لتنظر ما جَوْدَتهُ؟»(٦). وقال ابن الأعرابي: «الفتنةُ: الاختبار. والفتنة: المحنة. والفتنة: المال. والفتنة: الأولاد. والفتنة: الكفر. والفتنة: اختلافُ الناسِ بالآراء. والفتنة: الإحراق بالنار»(٧). وقال ابن منظور: «ويقال: فُتِنَ الرجل بالمرأة، وافْتَتَنَ، وأهل الحجاز يقولون: فَتَنَتْهُ المرأةُ؛ إذا ولهَتْهُ، وأحبَّها...».

---

(٦) ابن منظور: لسان العرب، ص٣٣٤٤.

(٧) المصدر السابق، ص٣٣٤٤.

والفتنة: إعجابُك بالشيء (...) قال أبو زيد: فُتِنَ الرَّجلُ يُفْتَنُ فُتُونا؛ إذا أراد الفجور، وقد فتنتُه فتنةً وفُتُونًا (...) وافتتن في الشيء؛ فُتن فيه، وفتن إلى النساء فتونا، وفُتن إليهن: أراد الفجور بهن، والفتنة: الضلال والإثم. والفاتن: المُضِلّ عن الحق، والفاتن: الشيطان، لأنه يُضل العِبَاد(...) وفي حديث قيلةَ: «المسلم أخو المسلم، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان»، الفتان: الشيطان الذي يفْتِن الناسَ بخداعه، وغُروره، وتزيينه المعاصي، فإذا نهى الرجل أخاه عن ذلك؛ فقد أعانه على الشيطان، (...) وقوله - عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ...﴾ [التوبة: ٤٩] أي: لا تؤثمني بأمرك إياي، بالخروج، وذلك غير متيسر لي فآثَمُ (...) فَأَعْلَمَ الله- سبحانه وتعالى- أنهم قد سقطوا في الفتنة، أي: في الإثم (...) وفَتَن الرجل، أي: أزاله عما كان عليه، ومنه قوله -عز وجل: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ...﴾ [الإسراء: ٧٣] أي: يميلونك، ويزيلونك. قال ابن الأنباري: وقولهم: فَتَنَتْ فُلانَةٌ فُلانًا؛ قال بعضهم: معناه: أَقالتْهُ عن القصد، والفتنة في كلامهم - معناه: المُميلة عن الحَقّ (...) والفتنة: الكفر(...) والفتنة: الفضيحة، (...) والفتنة: العذاب، نحو تعذيب الكفار ضَعْفَى المؤمنين في أول الإسلام؛ ليصدوهم عن الإسلام، (...) والفتنة: ما يقع بين الناس مِنَ القتالِ، والفتنة: القَتْلُ (...) وأما قول النبي ﷺ: «إني أرى الفِتن خلال بيوتكم» فإنه يكون القَتْلَ والحروبَ والاختلاف الذي يكون بين فرق المسلمين؛ إذا تَحَزَّبُوا، ويكون ما يُبْلَوْنَ به من زينة الدنيا وشهواتها، فَيُفْتَنُون بذلك عن الآخرة والعمل لها (...) وفتنه يفتنه: اختبره (...) والفَتْنُ: الإحراق بالنار، (...) وفتنة الصّدْرِ: الوسواس، وفتنة المحيا: أن يعدل عن الطريق، وفتنة المكان: أن يُسْأَل في القبر[٨]. ويُبَلْوِرُ ابْنُ الأثير مفهوم الفتنة في قوله: «وقد كثر استعمالها

(٨) المصدر السابق، ص٣٣٤٤ - ٣٣٤٦.

فيما أخرجه الاختبار للمكروه، ثم كثر حتى استعمل بمعنى الإثم والكفر، والقتال والإحراق، والإزالة والصرْف عن الشيء»(٩).

وهذا ما يقرره القاضي عياض بقوله: «أصل الفتنةِ في كلام العرب: الابتلاء والامتحان والاختبار، ثم صارت - في عرف الكلام - لكل أمر كشفه الاختبار عن سوء. قال أبو زيد: فُتِنَ الرّجُلُ (...): إذا وقع في الفتنة وتحول من حال حسنة إلى سيئة. وفتنة الرجل في أهله وماله وولده: صَرْفُهُ، من فرط محبته لهم، وشحه عليهم، وشغله بهم. عن كثير من الخير»(١٠).

ويذكر ابن حجر في هذا المعنى، ويقول: «أصل الفتنة الاختبار والامتحان، ثم استعمل فيما أخرجه الاختبار للمكروه(...) وجاءت بمعنى: الكفر وبمعنى الضلالة، وبمعنى الإثم، وبمعنى العذاب، وبمعنى ذهاب العقل، وبمعنى الاعتذار(...) وبمعنى التوبيخ (...) ووردت بمعنى الالتهاء بالشيء عن أوْلَى منه، ومنه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ...﴾ [التغابن:١٥] »(١١).

فالفتنة- إذن: هي كل ما يُميلُ إلى الكفر، والإثم، والمعصية، والفجور، والقتل، والاختلاف، وإرادة زينة الدنيا، والانحراف عن طريق الله، والعدول عنه، وكل إزالة عن حال الإيمان والخير، والإيقاع في الشر.. بخداع، وتغرير، ووسوسة من القلب، أو إيحاء من خارج الذات.

فالفتنة- إذن- هي كل ما يوقع في الضلال والإثم، والمعصية، والكفر، وكل ارتكاب لبعض أو كل ما حرمه الله، ويؤدى إلى الاحتراق في النار، والعذاب بها.

(٩) ابن الأثير (الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجَزَرِي): النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزء الثالث، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، ص٤١١.

(١٠) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، مصدر سابق، ص٤٥١ ونفس المعنى في صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص١٧٠، ١٧١.

(١١) الإمام الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلاني: هدي الساري، مقدمة فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ط. مؤسسة مناهل العرفان، بيروت، مكتبة الغزالي، دمشق، ص١٦٥.

فالفتنة تشمل كل أنواع الكفر، والشرك؛ وعبادة الهوى، في الباطن والظاهر، وتشمل كل كبائر القلوب، كالحقد، والحسد، والرياء، والغل، والكبر، وحب العلو، وتشمل كل كبائر الجوارح؛ كالزنى والقتل، واللواط، وأكل مال الناس بالباطل، والرشوة، والربا، والحكم بالاستبداد.

ب – **ويقسم ابن القيم الفتنة إلى نوعين:** يقول[١٢]: «والفتنة نوعان: فتنة الشبهات، وهي أعظم الفتنتين؛ وفتنة الشهوات، وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما:

ففتنة الشبهات: من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولاسيما إذا اقترن بذلك فَسَادُ القَصْدِ، وحصولُ الهَوَى، فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى (...) وهذه الفتنة مآلُها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أَهْلِ البدع، على حسب مراتب بدعهم؛ فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق والباطل، والهوى بالضلال.

ولا يُنجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه (...) فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام(...) فلا يجعله رسولا في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة، في العلم والعمل، لا يتلقى إلا عنه، ولا يُؤْخَذُ إلا منه، فالهوى كله دائر على أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال. فإذا عقد قلبه على ذلك، وأعرض عما سواه، ووَزَنَه بما جاء به الرسول؛ فإن وافقه قَبِلَهُ، لا لكون ذلك القائلُ قَالَهُ، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده، ولو قاله مَنْ قالَهُ، فهذا الذي ينجيه مِنْ فتنة الشبهات، (...) وهذه الفتنة تَنْشَأُ تارة: من فهم فاسد، وتارة: من نَقْلٍ كاذب، وتارة: من حق ثابت خَفِيَ على الرجل فلم يظفر به، وتارة: من غرض فاسد، وهوى متبع، فهي: مِنْ عَمىً في البصيرة، وفساد في الإرادة.

---

(١٢) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، الجزء الثالث، ص١٦٠، ١٦١.

وفتنة الشبهات هي التي أشار إليها خبير الفتن، حذيفة بقوله: «لا تضرك الفتنة، ما عرفت دينك، إنما الفتنة ما اشتبه عليك الحق والباطل»(١٣). ويكمل ابن القيم:

«**وأما النوع الثاني من الفتنة؛ ففتنة الشهوات** (...) فلهذا كان السلف يقولون: (احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قَد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه) وكانوا يقولون: (احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون).

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل، فالأول: أصل فتنة الشبهة. والثاني: أصْلُ فتنة الشهوة..»(١٤).

جـ - وثمة معنى آخر للفتنة: هو التلبيس، لبس الحق بالباطل، وخلطه للخداع، وهو أسلوب (استحماري) يستخدمه الشيطان، والقوى التي تزين الوعي العام، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: إرادة الشبهات واللبس، والإضلال لأتباعهم، إيهاما لهم(١٥)، فهم يريدون التلبيس على أهل الحق من المؤمنين، والفتنة - بمعنى الخِداع - جاءت في قوله تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[المائدة: ٤٩]، قال الراغب: «فقد عُدّي ذلك بِعَن؛ تعدية خدعوك..»(١٦). فالذين يزيفون الوعي بالخداع يريدون أن يخدعوا المؤمنين عن التحاكم إلى شريعة الله، والحكم بها.

---

(١٣) انظر الهامش رقم (٥) من هذا الفصل.

(١٤) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص١٦١، ١٦٢.

(١٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء السادس، ص١٩٧. أحمد محمد شاكر: مختصر ابن كثير. المسمى عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، ج١، ص٣١٤.

(١٦) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد..) المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص٣٧٢.

د - **وأما فتنة الرجل في أهله وماله، وولده، وجاره**، كما أشار سيدنا عمر، وهي التي تُكفِّرها الصلاة والصيام والصدقة وسائر الحسنات، مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما حدث حذيفة، في رواية البخاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فتنة الرجل في أهله وماله وجاره، تُكَفِّرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..**»(١٧). وفي رواية ثانية: قال: «**فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، يكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..**»(١٨). هذا النوع من الفتنة هو ما يعرض للإنسان مع مَنْ ذكر من البشر، أو الالتهاء بهم، أو أن يأتي لأجْلِهم بما لا يحل له، أو يخل بما يجب عليه (...) وقال الزبير بن المنير: «الفتنة بالأهل تقع بالميل إليهن أو عليهن في القسمة والإيثار، حتى في أولادهن، ومن جهة التفريط في الحقوق الواجبة لهن. وبالمال: يقع بالاشتغال به عن العبادة، أو يحبسه عن إخراج حق الله. والفتنة بالأولاد: تقع بالميل الطبيعي إلى الولد وإيثاره على كل أحد. والفتنة بالجار: تقع بالحسد والمفاخرة والمزاحمة في الحقوق، وإهمال التعاهد، ثم قال: وأسباب الفتنة بمن ذكر غير منحصرة فيما ذكرتُ من الأمثلة..»(١٩).

فالفتنة- هنا- هي الميل إلى الشيء، أو الميل عنه، مَيْلًا يؤدي إلى التفريط في حقوق الله، أو حقوق العباد التي أوجبها الله، فيقع الإنسان في الإثم بسبب ذلك، ولهذا يقول ابن حجر: «والضابط أن كل ما يشغل صاحبه عن الله فهو فتنة له»(٢٠).

هـ - وأما قوله في الحديث: «**فتنة الرجل..**» فهو هنا خص الرجل بالذكر، وهذا جاء على سبيل التغليب، قال ابن أبي جمرة: «خَصَّ الرجلَ بالذّكْر ؛ لأنه-

---

(١٧) ابن حجر: فتح الباري .. ج٦، مصدر سابق، حديث رقم ٣٥٨٦، ص٦٠٣، ٦٠٤.
(١٨) المصدر السابق، ج ١٣، حديث رقم ٧٠٩٦، ص٤٨.
(١٩) المصدر السابق، ج ٦، ص٦٠٥.
(٢٠) المصدر السابق نفسه.

في الغالب- صاحب الحكم، في داره وأهله، وإلا فالنساء شقائق الرجال في الحكم»(٢١). ففتنة المرأة في أهلها ومالها وولدها وجارتها هي ميلها إلى ما يخالف أمر الله في علاقاتها بهؤلاء، وهذه الفتنة تحتاج إلى حسنات مكفرات كالصلاة، والصدقات، والأمر المعروف والنهى عن المنكر لإزالة الران الذي يحدث في القلب بسبب الوقوع في هذه الفتن.

و - وكل هذه الفتن المذكورة في هذه الفقرة، تعرض واحدة أو أكثر، ومرة بعد مرة على القلب، عبر نوافذ العرض التي سنشير إليها.. فالقلب الإنساني مُعَرَّض لكل هذه الفتن، وهو قادر على أن يحبها، أو يرفضها وينكرها- هنا يظهر دور الإرادة الإنسانية ودور التربية القلبية:

- بدراسة الدين الصحيح، لمعرفة الحق من الباطل.
- بتقوية حب الله في القلب، ليحب طاعته، ويبغض معصيته.
- بتجريد العبادة لله وحده.. ومتابعة الرسول ﷺ وتوحيد القلب لذلك باستمرار، خصوصا عند قراءة الفاتحة في كل ركعة، وتأمل: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].
- الحرص على تعلم هذا الحديث، والعمل بمقتضاه، وهذا هو الدرس الذي يعلمنا إياه عُمَر ﷺ.

ز - إن عمر ﷺ سأل عن الفتن التي تموج مَوْج البحر، فأسكَت القوم، أي: صَمَتُوا وأطرقوا وانقطعوا عن الكلام؛ لخُطُورَة هذا النوع من الفتن، ولهذا شبهها بأنها تموج كموج البحر، أو كما يموج البحر، أي: تضطرب، ويدفع بعضها بعضا كموج البحر عند هيجانه. يقول النووي: «وشبهها بموج البحر؛ لشدة عِظَمِها، وكثرة شيوعها»(٢٢).

---

(٢١) المصدر السابق نفسه.

(٢٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص١٧١.

ويقول ابن حجر: «وكَنَّى بذلك عن شدة المخاصمة، وكثرة المنازعة، وما ينشأ عن ذلك من المشاتمَةِ والمُقَاتَلَةِ»(٢٣)، فهي فتن ناشئة عن اتباع الأهواء، وتجاريها بأصحابها، وناشئة عن هيجان الشهوات المحرمة، وتدافعها في قلب الإنسان، فتؤدي إلى الضلال والزيغ عن منهج الله.

وسيدنا عمر كان عارفا بهذا النوع من الفتن، وكان يعلم تماما أنه هو الباب الذي يسد الفتنة، فلماذا سأل عن الفتن التي تموج كما يموج البحر؛ والجواب: «أن ذلك يقع مثله عند شدة الخوف، أو لعله خشي أن يكون نسي، فسأل مَنْ يُذَكِّرُهُ. وهذا هو المعتمد»(٢٤)، فعمر كان حريصا على (الوعي) بحديث النبي ﷺ في الفتن التي تموج، وتعرض على القلوب، ليكون على حَذَر دائم منها، حتى لا يقع فيها، لأنه يخاف منها، وهو يريد تقوية وعيه باستمرار، ليكون القلب حذرا.. فسأل ليعمق ويجدد وعيه، ولهذا فإنه فرح لما أخبره حذيفة بأنه سمع النبي ﷺ يذكرها، فقال عمر: «أنْتَ، لله أبوك» وهذه كلمة مَدْحٍ تدل على فرح عمر بقول حذيفة، الذي هو خبير الفتن، القائل: «أنا أَعْلَمُ الناسِ بكل فتنةٍ كائنةٍ فيما بيني وبين الساعة»(٢٥).

وهنا دلالة تربوية هي أن نتدارس هذا الحديث لنَعي التصورات العقدية التي يتضمنها، والقيم القلبية التي يدلنا عليها، إذا كنا نخاف من الفتن فعلا، ونريد تربية إرادة الرفض والمقاومة لها في قلوبنا.

هذه هي الفتن التي تعرض على القلوب، فما القوى التي تعرضها عليه؟ وكيف؟

رابعا: القوى التي تعرض الفِتنَ على القلوب وأساليبها:

وإذا كان إدراكنا لمفهوم وأنواع الفتن التي تعرض على القلوب لتفتنها،

---

(٢٣) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري، ج٦، مصدر سابق، ص٦٠٦.

(٢٤، ٢٥) المصدر السابق، ص٦٠٧.

هدفا تربويا، من أجل أن نحذر منها، فإن إدراكنا ووعينا وتصورنا الصحيح لمفهوم العرض، وللقوى الذاتية والثقافية التي تعرض الفتن.. وتصوبها نحو القلوب، هو هدف تربوي، لازم لنعبئ القلب، ونشحذ إرادته ضد هذه القوى المدمرة لفطرة القلب ونقائه، وسلامته، ونقوى قدرته على المجاهدة والمقاومة والفاعلية.

أ- مفهوم العرض:

يقول النبي ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عُودًا عودا**»، وفي رواية أحمد: «**عرض الحصير عودًا عودا..**» وهكذا في رواية أبي نُعيم، بدون قوله: «**عودًا عودا**»(٢٦).

أقول: تُعْرَضُ: فعل مضارع، يفيد التجدد والاستمرار، مبني للمجهول، فهنا: عَرْضٌ، وفعله: عَرَض يَعْرِض، وهنا فاعل للعرض، وفي هذه الفقرة أبين مفهوم العرض، ثم أبين القوى الفاعلة للعرض.

يقول ابن منظور: «وعَرَضَ الشيء عليه، يعرضُه عرضا: أراه إياه (...) وفي حديث حذيفة: «تعرض الفتن على القلوب عَرْضَ الحصير»؛ قال ابن الأثير: أي: توضع عليها، وتبسط كما تبسط الحصير، وقيل: هو من عَرْضِ الجُنْدِ بين يدي السلطان؛ لإظهارهم واختبار أحوالهم (...) وأَعْرَضَ لكَ الشيء من بعيد: بدا وظهر (...) وعَرَض له أمر كذا؛ أي: ظهر، وعَرَضت عليه أمر كذا، وعرضت له الشيء ؛ أي: أظهرته له، وأبرزته إليه. وعرضت الشيء فَأَعْرَضَ، أي: أظهرتُه فظهر. والشيءُ مُعْرِضٌ لك؛ موجود وظاهر...»(٢٧).

---

(٢٦) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المجلد الأول، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، من ترجمة حذيفة بن اليمان، ص٢٧٠.

(٢٧) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، وانظر في نص ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزء الثالث، ص٢١٥.

فَعَرْض الفِتَنِ على القلوب؛ يعني: إظهار الفتن، وإبرازها، وإبداءها للقلب، وإيجادها فيه، ونصبها وبسطها أمامه، بقصد إغرائه واستدراجه إلى حبها، واشتهائها وارتكابها، بتصويرها في أحسن صورة، مرة بعد مرة.

فهذا العرض هو أسلوب تربوي موجه للقلب من قِبَلِ القوى المضادة للإيمان وشعبه.

ب – القوى العَارضة للفتن على القلوب:

هذه القوى هي تحالف ثلاثي متكون من قوة ذاتية في النفس، هي الأمارة بالسوء، والشيطان وقبيله، والقوى الثقافية، التي أسميها قوى الاستحمار، المهيمنة على عملية التثقيف والتنشئة والفن والإعلام،التي تدخل إلى القلب عن طريق الصورة، والحركة، والكلمة، والنغمة واللون، أي: عن طريق نوافذ السمع والبصر والتخيل حين تهدف هذه القوى وعملياتها إلى فَتْنِ الناس، وصرفهم عن منهج الله، واجتيالهم عن دينهم.

١ – فالفاعل الأول لعرض الفِتن على القلوب هو : النفس الأمارة بالسوء:

فهي كثيرة الأمر بالسوء، وهى تأمر القلب الضعيف، وتركبه، وتوجهه إلى (السوء)، فهي واعظ الشيطان في النفس، تربى القلب تربية ذاتية من الداخل، في الإثم.

وأسلوبها الأول في ذلك هو: التسويل: قال ابن الأثير: «التسويل: تَحْسين الشيء، وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان؛ ليفعله أو يقوله»(٢٨).

ويقول الراغب: «والتسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه، وتصوير القبيح منه بصورة الحسن»(٢٩).

(٢٨) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزء الثاني، ص٤٢٥.
(٢٩) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص٢٤٩.

فأسلوب النفس الأمارة في أمر القلب بالسوء، وتربيته في الإثم هو (عرض) الفتنة عليه محسنة، مزينة، مصورة بصورة مغرية، مغوية، ليحبها، ويفعلها.

وهذا ما فعلته بالسامري؛ حيث انتهت به نفسه لصناعة عجل من ذهب له خُوَار، وقال لهم: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] قال السامري؛ مبينا العلة الباطنَةَ لهذا المنكر الخطير: ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦].

وهذا أيضا ما فعلته النفس بإخوة يوسف، حين ألقوه في غيابة الجب، وجاؤوا على قميصه بدم كذب، وقالوا لأبيهم الطيب: إن الذئب أكله، فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨] أي: ما أكله الذئب، بل زينت لكم أنفسكم أمرا غير ما تصفون.

وأسلوبها الثاني في عرض الفتن على القلوب هو: التطويع: وهو تسهيل فعل المنكر على القلب، وتشجيعه على ذلك، وتوهين إرادة الخير فيه لتستسلم لوازع الإثم، كما حكى الله- تعالى- عن أحد ابني آدم: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]. قال سيد قطب: «بعد التذكير والعظة، والمسالمة والتحذير، بعد هذا كله اندفعت النفس الشريرة، فوقعت الجريمة، وقعت، وقد ذللت له نَفْسُه كل عقبة، وطَوعت له كل مانع..»[٣٠]. وقال ابن منظور: «ومعناه: رخصت وسَهلت، (...) ورُوي عن مجاهد؛ قال: فطوعت له نفسه: شجعته.. قال الأزهري: والأشبه عندي أن يكون معنى طوعت: سمحت وسهلت له نفسه قتل أخيه، أي: جعلت نفسه - بهواها المردي - قتل أخيه سهلا، وهَوِيَتْه»[٣١].

وحكى الجَمَلُ عن الخازن في هذه الآية، قال: «يعني: زينت له، وسهلت عليه القتل؛ وذلك أن الإنسان، إذا تصور أن قتل النفس من أكبر الكبائر صار

---

(٣٠) سيد قطب: في ظلال القرآن، مجلد٢، ص٨٧٦.

(٣١) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، مصدر سابق، ص٢٧٢٠.

ذلك صارفا له عن القتل، فلا يقدم عليه، فإذا سهلت عليه نفسه هـذا الفعـل؛ فعله، من غير كُلْفَةٍ»(٣٢).

أما الأسلوب الثالث للنفس في عرض الفتن على القلـوب فهـو: أسـلوب الأمر المباشر: وهذا خاصية النفس الأمارة، أي: كثيرة الأمر - بالسوء، وهـذا ما فعلته بقلب امرأة العزيز، حين دعته، ودعتها إلى مراودة سيدنا يوسف عـن نفسه ليرتكب معها فاحشة الزنى، ثم قالت امرأة العزيز بعد ذلـك: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣] .

هذه هي الأساليب الثلاثة للنفس، لعرض الفتن على القلب، وتحبيبه فيها، وإيقاعه فيها.. إنها آليات تعمل من داخل الـذات: آليـة التـصوير المزخـرف، والتزيين، والتسهيل والتطويع والتشجيع، والأمر بالسوء بشكل ملح متكـرر، فهذه النفس الأمارة، أي: القوى الغريزية الشهوية المنحرفـة، التـي لم تنـصبغ بهداية الله، هي عدوة للقلب، تبسط عليه الفتن، وتظهرهـا بتلـك الأسـاليب، لتغويه، وتضله، لتفتنه.

إن إدراك ذلك، والإيمان بـه هـو الـذي يقـوى القلـب ليقـاوم، ويجاهـد، ويبغض هذه الفتن.. هذه هي النتيجـة التربويـة الأولى: أن نـدرك أن الأمـارة بالسوء - من داخل ذواتنا - تربينا في الإثم، بأساليب فاعلـة خطـيرة التـأثير، فنحذر، ونبصر، ونستعد، ونقاوم.

والنتيجة الثانيـة هـي: أنـه يتوجـب (مجاهـدتها): أي: بـذل الجهـد الـذاتي لدفعها، ومقاومة أساليبها، وكشفها بالتعلم، وشحذ إرادة القلـب ليقاومهـا، وتقوية محبة الله ورسـوله، وكـشف آثـار الفـتن للقلـب، ليبغـضها. مجاهـدتها لتستجيب لأمر الله، لا لأمرها هي، وتخضع لمنهجه، لا لمنهجها هي. وتطمـئن إلى الوحي المعصوم، لتأمر بما يأمر به.

---

(٣٢) الجمل: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، الجزء الثاني، ص٢٢٤.

وهذه المجاهدة تستلزم: أن تراقب هذه النفس مراقبة مستمرة، ذاتية، ونسلط عليها قوة الضمير المؤمن، اليقظ، قوة النفس اللوامة، لتفاتشها، وتعاتبها، وتحاسبها، وتلومها،وتعاقبها، حتى تستقيم على مراد الله، فلا تأمر إلا بخير.

ولإدراك هذا أرى لزوم عقد دورة تربوية لمدارسة هذه المعطيات، وما يضاف إليها من خبرات.. تعمق هذا الإدراك في القلب.

٢- والفاعل الثاني لعرض الفتن على القلوب هو الشيطان: أعنى، إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس، وسأذكر هنا جملة حقائق تتعلق بموضوع هذا الكتاب(٣٣):

الحقيقة الأولى: أن الشيطان عدو الإنسان من أول آدم إلى آخر بشر على الأرض، ومن أول ما يولد الإنسان حتى يموت، فهو ذئب الإنسان، يريد أن يفتنه، وأن يضله، وأن يحوله للكفر، وأن يجتاله، أي: يجرفه، ويبعده عن دين الإسلام.

وقد قرر الله هذه الحقيقة، وأكدها مرارا:

---

(٣٣) هذا موضوع خطير: اكتساب الوعي بالعدو الأول للمسلم وهو الشيطان؛ اكتساب الوعى بتاريخه، وعداوته، وأساليبه ومكائده، ليدركها، وليحذرها، وليجاهدها على بصيرة، لهذا أرى ضرورة عقد دورة تربوية روحية تدرس فيها آيات القرآن عن إبليس، بحيث تجمع، ويدرس تفسيرها من ابن كثير وظلال القرآن - معا - وتدرس أحاديث الرسول ﷺ عن إبليس، وأساليبه، وتدرس كتب مثل: رفاعي سرور: عندما ترعى الذئاب الغنم. ط٢، مكتبة وهبة، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، (فصل بيان تسلط الشيطان على القلب)، أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، المجلد الثاني، ط دار الشعب، (بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب) ص١٣٨٤ - ١٤١٠ .

وكتاب ابن أبي الدنيا: مكائد الشيطان، جمع وتحقيق مجدي فتحي السيد، ط مكتبة القرآن.

وكتاب ابن كثير: البداية والنهاية، المجلد الأول، ما ذكره عن إبليس وقصته وأساليبه.

وكتاب بدء الخلق: باب صفة إبليس وجنوده، مع شرحه، فتح الباري صحيح البخاري، مجلد٦، ط مناهل العرفان، ص٣٣٤ - ٣٤٣.

وكتاب صفات المنافقين: باب تحريش الشيطان وبعثه سرايا لفتنة الناس، من صحيح مسلم، انظر: القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، ص٣٤٩ - ٣٥١.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢]، ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢، ١١٣].

الحقيقة الثانية: أن لكل إنسان شيطانًا كما أخبر النبي ﷺ، أخرج مسلم عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا وقد وُكّل به قرينه من الجن..**»(٣٤). وأخرج عن عائشة: «**ما منكم من أحد إلا ومعه شيطان..**»(٣٥). ولما غارت السيدة عائشة حين خرج من عندها ليلا: قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «**مالك يا عائشة؟ أغِرْتِ؟**»، فقلت: ومالي لا يَغَارُ مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أقد جاءك شيطانك؟**»، قالت: يا رسول الله، أَوَ مَعِيَ شيطان؟ قال: «**نعم**». قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «**نعم**»، قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «**نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**»(٣٦).

وهذا الشيطان يحضر الإنسان دائما، فقد أخرج مسلم عن جابر قال:

---

(٣٤) صحيح مسلم بشرح النووي، ج١٧، ص١٥٧، وهذا أول الحديث.. وفي القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، حديث رقم ٢٨١٤، ص٣٥.

(٣٥) محمد ناصر الدين الألباني: صحيح الجامع الصغير وزيادته، مجلد٢، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، رقم ٥٨٠١، ص١٠١٠، وهذا النص ليس في صحيح مسلم.

(٣٦) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٨، مصدر سابق، حديث رقم ٢٨١٥، ص٣٥١.

سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه، حتى يحضره عند طعامه.. الحديث**» (٣٧).

وهناك غرفة عمليات، ومركز قيادة، حربية، يرأسها إبليس لقيادة العمليات الحربية التي ينفذها إبليس بهدف نشر الفتن، أخرج مسلم عن جابر، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن عرش إبليس على البحر، فيبعث سراياه، فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده أعظمهم فِتْنَةً**»، وفي رواية لمسلم عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**يبعث الشيطان سراياه، فيفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة؛ أعظمهم فتنة**»، وأخرج عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئا، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت**»، قال الأعمش: أراه قال: «**فيلتزمه**»(٣٨).

إن الوعي بهذه الحقيقة يجعل القلب حذرا من كل عرض يوجه نحو معصية الله؛ إنها الهزيمة في معركتنا مع إبليس.

الحقيقة الثالثة: أن إبليس وجنوده مصرون على تنفيذ استراتيجيتهم لفتنة الناس، وقد أعلمنا الله ورسوله ﷺ بكل أبعاد وتفصيلات هذه الاستراتيجية التربوية والحربية ضد الإنسان، فأهدافهم النهائية (الاستراتيجية) وتكتيكاتهم (خططهم وأساليبهم وخطواتهم التنفيذية) التي يصر الشيطان على إنجازها محددة بدقة؛ في الآيات الآتية:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، ﴿إِن يَدْعُونَ مِن

(٣٧) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج٦، مصدر سابق، حديث رقم ٢٠٣٣، ص٥٠٤.
(٣٨) المصدر السابق، ج ٨، مصدر سابق، حديث رقم ٢٨١٣، ص ٣٤٩ – ٣٥٠.

دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١١٧-١٢٠]، ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: ٦٢].

ونلاحظ أن إبليس حدد أهدافه بشكل واضح، يشخص إصراره على تنفيذها: لأقعدن، لآتين، لأتخذن، لأضلن، لأزينن، لأغوين، لأحتنكن، أي: لأستأصلن.

وقد جاء في حديث أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري يقول النبي ﷺ: **«قال إبليس: يا رب، وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب - عز وجل: لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»**(٣٩).

ورواه بلفظ: **«إن إبليس قال لربه - عز وجل: وعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له ربه- عز وجل: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني»**.

وفي رواية: **«لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم..»**(٤٠).

---

(٣٩) في إسناده ابن لهيعة، وقال محققه: حسن، المسند، ج١٠، رقم ١١٦٦٩، ص ٢٤٠.

(٤٠) في إسناده ليث، وقال محققه: إسناده صحيح، المسند، ج ١٠، رقم ١١٣٠٦، ص ١٣٠، ورواه مثله برقم ١١١٧٨، ص ٩٣ – ٩٤ وقال محققه: إسناده حسن، وقال الألباني: حسن، صحيح الجامع الصغير، ج١، مصدر سابق، رقم ١٦٥٠، ص ٣٣٩ وأخرجه في الصحيحة برقم ١٠٤، ونسبه الهيثمي في مجمع الزوائد للطبراني في الأوسط، وأبي يعلى، وقال: وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى (مجمع الزوائد، ١٠/ ٢٠٧). أورد هذا أحمد محمد شاكر: عمدة التفسير، ج١، ص ٣٧١، هامش رقم (٢)، وقال الأرنؤوط في تخريج المسند حسن، انظر: المسند، حديث رقم ١١٢٥٥ . وهذه الرواية الثانية أوردها الشوكاني في تحفة الذاكرين، وقال محققوه: حسن، انظر: الشوكاني: تحفة الذاكرين، بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، تخريج وتحقيق: سيد إبراهيم وآخرين، ط دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٤ م، حديث رقم ٥٢٤، ص ٣٩٤.

وبقدر الله سيحقق الشيطان جزءا خطيرا من أهدافه المعلنة، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠]، ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس:٦٢]، ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩].

والشيطان يرضى بأقل شيء من المعصية، وبأقل شيء من الكفر، والإثم، مما قد يحقره الإنسان؛ فهو يرضى بالكذبة، ويرضى بالنظرة الحرام، ويرضى بالالتفاتة في الصلاة، فهي اختلاس يختلسه الشيطان[٤١]، ويرضى بأدنى وأقل خروج عن منهج الله، فهذا جزء من الهدف الاستراتيجي للشيطان، الذي هو في النهاية، أخراج الإنسان من الإيمان، وإدخاله في الكفر، فهدف الشيطان من جميع تكتيكاته، وآلياته، وخططه، وخطواته هو أن يستجيب الإنسان لدعوته؛ كما صرح إبليس نفسه: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الحقيقة الرابعة: أن الشيطان ينجز أهدافه، ويحقق خططه عن طريق مجموعة متنوعة من الأساليب التي توظف رغبات النفس، والتكتيكات، وسأشير هنا لبعضها، بإيجاز:

فمن هذه الأساليب التي يستخدمها الشيطان لعرض الفتنة على القلب:

١ - **أسلوب التسويل، والتزيين، والتغرير، والخداع**، بالكلام المزخرف والصور المغرية التي يعرضها على القلب مباشرة ليزين الفتنة، ويحيها للقلب، ليصنع رغبة نفسية فيها.. واتجاها إليها.. فهو خبير تربوي يدرك أن السلوك الشرير ينبع من رغبة القلب، فيربي هذه الرغبة، ليضل القلب والعقل

---

(٤١) أخرج البخاري عن عائشة - رضي الله عنها: سألت النبي عن التفات الرجل في الصلاة، فقال: «**هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة أحدكم**»، فتح الباري، ج ٦، حديث رقم ٣٢٩١، ص ٣٣٨، وانظر: باب صفة إبليس وجنوده من كتاب بدء الخلق.

والإرادة في النهاية، وهذا أسلوب مؤثر خطير، يزيف الشيء – الفتنة، حين يعرضها على القلب، أسلوب تجميل الوثن، تزيين العمل السيئ حتى يراه القلب حسنا فيحبه، ويتحرك لفعله.

ولخطورة هذا الأسلوب أشار إليه القرآن مرارا، ففي التسويل قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، وفي التزيين الشيطاني يقول ربنا: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧]، ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧]، ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣] وفي تفسير قوله ـ تعالى ـ حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩]، قال الشوكاني: «التزيين منه: إما بتحسين المعاصي لهم، وإيقاعهم فيها، أو بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به، فلا يلتفتون إلى غيرها»(٤٢).

وفي الزخرفة الكلامية الخادعة؛ قال تعالى: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

إن هذا الأسلوب يتجه للقلب: لإقناعه بالإثم، وتحبيبه فيه ليرتكبه، إنه أسلوب صناعة الرغبة والاتجاه، وصناعة التصور الزائف.

٢- **أسلوب الوسوسة وإلقاء الفتنة مباشرة في القلب:** ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥]، ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣]، والوسوسة: همس الشيطان بإغوائه، في

---

(٤٢) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المجلد الثالث، ص ١٨٠.

القلوب.. بصوت خفي، متدسس للقلب، فيقذف الشر في القلب، ويرجع، ويختبئ، ويعود يوسوس.. والله يكشف هذا الأسلوب، الذي نحسه ونجد أثره في واقعنا النفسي والحياتي، ولكن لا ندري كيف، والنفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع، والمقاومة الحذرة ضد (الوسواس الخناس) الذي يتدسس إلى القلب بالشر، مترقب لغفلة القلب، ونسيانه لله، حتى يلتقم القلب ليوسوس من جديد، إن هذا التصور والإدراك والحذر «يحمي القلب من الهزيمة، ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة»(٤٣).

أخرج البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان، وله ضراط.. فإذا قُضِيَ، أقبل، فإذا ثُوِّبَ بها (أقيمت الصلاة) أدبر، فإذا قضي أقبل حتى يَخْطُرُ بين الإنسان وقلبه، فيقول: اذكر كذا، وكذا، حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعا..»**(٤٤). وفي رواية عبد الرزاق: **«فإنه ليخطر بين المرء وقلبه، ويقول: اذكر كذا، اذكر كذا، لشيء لم يكن يذكره قبل ذلك، فيظل الرجل إن يدري كم صلي..»**(٤٥) يخطر – بالضم: يمر بينه وبين قلبه؛ ليشغله، ويخطر – بالكسر: يوسوس.

وفي رواية: **«إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة أحال (تحول من موضعه)، له ضراط، حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته، فإذا سكت رجع فوسوس»**(٤٦).

وأخرج البخاري عن صفية بنت حيي – رضي الله عنها – قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفا، فأتيته أزوره ليلا، فحدثته، ثم قمت، فانقلبت، فقام

---

(٤٣) سيد قطب: في ظلال القرآن، ج ٦، ص ٤٠١٢.

(٤٤) ابن حجر: فتح الباري.. ج٦، حديث رقم ٣٢٨٥، ص ٣٣٧.

(٤٥) عبد الرزاق الصنعاني: المصنف، ج٢، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، رقم ٣٤٦٢، ص ٣٠٣، ٣٠٤.

(٤٦) رواه مسلم عن أبي هريرة، انظر: صحيح الجامع الصغير، ج١، حديث رقم ١٦٤٧، ص ٣٣٨.

معي ليقلني؛ وكان سكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**»، فقالا: سبحان الله! يا رسول الله، قال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكم سوءا**»، أو قال: «**شيئا**»(٤٧).

فالشيطان يقذف السوء والشر في القلوب، وهذا مثل الإلقاء في القلب، ومثل الإلمام به، كما قال ابن مسعود: «**إن للملك الموكل بقلب ابن آدم لَمَّةً، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ورجاء صالح ثوابه، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وقنوط من الخير، فإذا وجدتم لمة الملك؛ فاحمدوا الله، وسلوه من فضله، وإذا وجدتم لمة الشيطان، فاستعيذوا بالله، فاستغفروه**»(٤٨).

٣- أسلوب توظيف المشاعر والرغبات والغرائز القوية في الإنسان: فالشيطان خبير نفسي بطموحات وميول وحاجات وشهوات النفس الإنسانية، وهو يوظف هذه المعرفة النفسية في تربية القلب في الإثم، لإقناع الإنسان بالمعصية، وتحبيبه فيها، ودفعه إليها، فالإنسان يحب التملك، ويحب الخلود، ويحب السلطة، ويحب الثروة، ويحب الجنس، ويحب الجمال.. والإنسان ينسى، وتضعف إرادته أحيانا، ويغفل، وقد تتسلط انفعالاته على قلبه وعقله فتغطيه- وقد تلغيه ـ ومن هذا وذاك يدخل الشيطان، ويعرض الفتن على القلوب، ويذكر القرآن أن إبليس قد وظف علمه بالطبيعة الإنسانية لإغواء آدم وحواء، فدخل من مدخل حب التملك، وحب الخلود، وغلبة النسيان، وضعف

---

(٤٧) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٦، مصدر سابق، حديث رقم ٣٢٨١، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

(٤٨) أخرجه الطبري من قول ابن مسعود، وقال شعيب الأرنؤوط، وإسناده صحيح، انظر: ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، الجزء الثاني، ص ٤٢١ وهامش رقم (١)، وانظر: ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المجلد الثالث، ص ١١٢ – ١١٣ (تفسير الجزء الثالث) وليس فيه (ورجاء صالح ثوابه، وقنوط من الخير) ومع بعض اختلاف في الألفاظ.

الإرادة، فقال إبليس: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]، ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥].

ويذكر النبي ﷺ أن الشيطان يثير المشاعر الإنسانية نحو الآباء، وتقاليدهم، ونحو الوطن، ونحو الزوجة والأولاد، ونحو المال، ليفتنه عن طريق الإسلام، والعمل بمنهجه، فقد أخرج أحمد عن سبرة بن أبي فاكه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه؛ فقعد له بطريق الإسلام؛ فقال له: أتسلم، وتذر دينك ودين آبائك، وآباء أبيك؟ قال: فعصاه؛ فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة؛ فقال: أتهاجر، وتذر أرضك وسماءك، (...) قال: فعصاه؛ فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: هو جهد النفس والمال، فتقاتل، فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال،** (وفي رواية: «**وييتم الولد**»، **فعصاه فجاهد**»، فقال له رسول الله ﷺ: «**فمن فعل ذلك منهم فمات؛ كان حقا على الله أن يدخله الجنة**»[٤٩]. هذا لفظ أحمد ما عدا: «**وييتم الولد**».

٤ - **أسلوب التدرج، والخطوات التدريجية البطيئة، الأكيدة المفعول**: وهو أسلوب يبين إصرار الشيطان على إنجاز هدفه، والاحتفاظ الدائم بالهدف، فيوحي بعمل لا تظهر له نتائج شريرة، مباشرة، فيتابع الشيطان وحيه بعمل آخر، فيظهر في النهاية أن العمل الأول كان خطوة في تحقيق تلك النتائج، ولذلك يقول النبي ﷺ: «**يأتي الشيطان إلى أحدكم، فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فإذا بلغه، فليستعذ ولينته**».

---

(٤٩) إسناده حسن، وقال الألباني: صحيح، انظر: المسند، ج ١٢، رقم ١٥٦٠٠، ص ٣٩٠ - ٣٩١، صحيح الجامع الصغير وزيادته، ج١، مصدر سابق، رقم ١٦٥٢، ص ٣٣٩ - ٣٤٠، وأخرجه النسائي بإسناد صحيح، انظر: الإحياء، المجلد الثاني، ص ١٣٨٩، الإمام الحافظ عبد الرحمن أحمد ابن شعيب بن علي الخراساني النسائي: سنن النسائي، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية السندي، ج ٦، رقم ٣١١٤، ص ١٧، ١٨، وأخرجه الطبراني وفيه: (فمن فعل ذلك ضمن الله له الجنة)، المعجم الكبير، تحقيق، حمدي عبد المجيد السلفي، ج ٧، حديث رقم ٦٥٥٨، ص ١١٧، ١١٨.

وفي رواية: «**من خلق السموات؟ فيقول: الله، من خلق الأرض؟ فيقول: الله..**» ومن هنا جاء التحذير من هذا الأسلوب في قول الله سبحانه: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ**﴾ [البقرة: ١٦٨](٥٠).

٥ ـ **أسلوب التحريش**: أخرج مسلم عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلحون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**»(٥١) أي: الإغواء، والإيقاع بينهم.

هذه هي القوة الثانية لعرض الفتن على القلوب، وهي قوة خطيرة فعلا، ولهذا يلزم تربية القلب ليدرك، هذه القوة، وطبيعة أهدافها، وحركتها، وأساليب عرضها للفتنة على القلب، ليبغض الشيطان، ويبغض فتنته، فينكرها- ويلزم تربية الإيمان الصحيح في قلب المسلم، وإكسابه الحرص على ذكر الله؛ ليهزم الشيطان، وإكسابه الدعاء والاستعاذة بالله من الشيطان.. وليكون على حذر مستمر، لأن الشيطان ينصب فخاخه على كل طريق للإنسان.

ولهذا نرى ضرورة عقد دورة تربوية يدرس فيها كل هذا للمسلم، وضرورة تناول هذه المعطيات بتفصيل في الخطب، والدروس، لتكوين التصور العقدي القرآني عن إبليس وجنوده وأهدافه، وأساليبه، وكيف يواجهها المسلم.

٣- **والفاعل الثالث لعرض الفتن على القلوب: هو مجموع القوى الثقافية والتربوية التي تؤثر على تنشئة الإنسان، وتشكيل عقله، وقلبه، ووجدانه، وأذواقه واتجاهاته**: فهذه القوى الثقافية والتربوية - حين تكون خاضعة لمنهج

---

(٥٠) رفاعي سرور: عندما ترعى الذئاب الغنم، ط٢، ص ٢٣ - ٢٤ وانظر: في روايات صحيحة لهذا الحديث؛ الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ١٦٥٦، ١٦٥٧، ص ٣٤٠- ٣٤١، والحديث رواه السبعة إلا أبا داود.

(٥١) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، مجلد ٨، مصدر سابق، رقم ٢٨١٢، ص ٣٤٩.

الكفر، والعلمانية والطاغوت - تعرض على الأبصار والأسماع، والعقول، والمخيلة، بل وكينونة الإنسان كله، صورا، وأفكارا، وأقوالا، بمؤثرات نفسية عديدة، مغازلة الغرائز، النغمات، الألوان، الحركة.. بحيث تصل إلى القلب، فتشكل له وسطا ثقافيا مربيا، يتشربه، ويتشكل فكره وخلقه واتجاهه وشعوره طبقا له، أي: أنها تصوغه وتصبغه، وتصنعه قلبا وعقلا، ونفسا وأخلاقا، وأذواقا، وإرادة.

فالإنسان: أذناه قِمَع، يؤدي إلى العقل والقلب، وعيناه هاد يؤدي إلى العقل والقلب والخيال، والصور التخيلية التي تتركب من المحسوسات البصرية والسمعية.. فتصوغ الإنسان من الداخل.

كل ذلك يوظف لتكوين ميول نفسية واتجاهات قوية نحو الفتنة، فيتحول البصر والسمع والتخيل وأحلام اليقظة إلى فاعلين لعرض الفتن على القلوب، نيابة عن أجهزة التثقيف والاتصال والتربية.

فأنت إذا شاهدت صورة فتاة فاتنة الأنوثة متبرجة بزينتها، فإن ذلك يوقع في قلبك ميلا إليها، واشتهاء لها، وهكذا فمشاهدة الأفلام والصور، والمسلسلات والمجلات، التي تعرض الفتن، وتوظف صور الفاتنات، ومشاهد المتبرجات، وكذلك مشاهدة الشباب، وصور الممثلين والرياضيين غير المطيعين لله، من جهة البنات، كل هذا عرض للفتنة على القلب، وهكذا مشاهدة أفلام ومسلسلات العنف واللصوصية، والاستماع إلى الفحش، والقصص الفاحشة، وكذلك كل ما يعرض عن طريق الرؤية، أو السمع، في الأسرة، والمدرسة، والشارع، والحاسوب، والفيديو، والمسرح، والسينما.. ووسائل الإعلام.. وقصور الثقافة، ولافتات الحوائط، وجماعات الصحبة والرفاق، وقهاوى النت، وشاشة الهاتف النقال.. كل هذا يكون عارضا للفتن على القلوب.. إذا كان ما يعرضه مخالفا لمنهج الله.

والمقصد أن الفاعل الثالث لعرض الفتن على القلوب هو القـوى الثقافيـة المربية في المجتمع.

٤- **إذن، الفاعلون لعرض الفتنة على القلوب هم:** مجموعـة متحالفـة مـن قوى النفس الأمارة بالسوء وأساليبها، والشيطان وجنوده وأساليبه، والقـوى الثقافية المنحرفة، وأساليبها التي تتدسس إلى القلب تدسسا لتوجـه عروضـها وإلقاءاتها وإغواءاتها في القلب، لتجرفه، وتحرفه، وتستحوذ عليه.

وتربية القلب ينبغي أن تتخذ الإجـراء التربـوي المـضاد؛ ليـدرك القلـب، ويعي ذلك كله، ويحذر من هذه العروض، وليقف منها موقفـا عقليـا ناقـدا، محللا، مميزا الصواب من الخطأ، والحق من الباطل، والخير من الـشر، فيحـب الحق والخير، ويقبلـه، ويـبغض الـشر والإثـم والباطـل، ويرفـضه، وينكـره، ويغيره.

إذن، النهج التربوي المضاد للقوى التي تعرض الفتن على القلوب هو:

- **إقامة وسط ثقـافي صـحي، ومحاضـن تربويـة، وبيئـات تربويـة** تعـرض الإيمان، والخير، وطاعة الله على القلـب، بمـنهج القـرآن والـسنة الـصحيحة، بالـدرس، والـتلاوة، والـوعظ، والمدارسـة، والتوجيـه للتفكـر في القـرآن، والكـون،.. في الأسرة، والجـامع، والجمعيـات الخيريـة، ووسـائل الاتـصال والتربية والتثقيف ما أمكن ذلك.

- **دراسة كل هذه القوى وأهدافها، وأساليبها**، لتكوين وعي ناقد، وإدراك صحيح بها، لتقوية الحذر منها، مـن خـلال بـرامج تربويـة، ودورات تربويـة منظمـة ومقـصودة، ومـن خـلال الخطـب، والأشرطـة، والحاسـوب، والمجلة...إلخ.

- **تربية الإيمان بالله، وتقوية حبه في القلب، وبغضه للمعاصي**؛ بإدراك آثـار المعاصي التي تعرضها هذه القوى على القلب، حتى يبغضها، ويرفـضها حـين

تعرض عليه (دراسة الداء والدواء لابن القيم.. مثلا).

- **تربية العقل المسلم الذي يفقه دينه**، ويقيس كل شيء بمقياسه، فيقبل ما وافقه، ويرفض ما خالفه، ولا مفر من الدراسة والتعلم الذاتي والجماعي؛ بحب وإدراك، ولا مفر من فقه القلب، والتفاعل معه.

- **توجيه كل مسلم لبذل الجهد الذاتي**؛ لتقوية إرادة المقاومة في قلبه ضد إلقاءات الفتن في القلوب.

خامسا: تكتيك التدرج والتتابع في عرض الفتن على القلوب:

أ- ويفهم هذا التكتيك من تشبيه النبي ﷺ لعرض الفتن على القلوب بأنها كعرض الحصير، ففي هذا التشبيه بيان لتكتيك النفس الأمارة، والشيطان، وقوى التنشئة الثقافية المعادية للإسلام، وهو تكتيك التدرج، والتكرير، والتجميع، والتركيز، والتتابع، والإصرار على إنجاز الهدف؛ ذرة معصية بعد ذرة معصية، قطعة فجور بعد قطعة فجور، شظية إثم بعد شظية إثم، لحظة فتور وكسل، بعد لحظة فتور وكسل..، وهكذا، شيئا فشيئا، عودا بعد عود، خطوة بعد خطوة.

فتكتيك القوى الثقافية الجاهلية- أي: التي لا تتبع منهج الله- وطريقتها في التربية الكفرية، هي الطريقة التدريجية ذات الخطوات المتتابعة، يمهد الشيطان، ويقدم، ويهيئ النفس، ويعدها، ويحضرها، لعرض الفتنة، مستعينا بالبدايات الملفتة، والتزيين، والصور الجاذبة، ويعرض الفتنة بتركيز، وإصرار، ويزين، ويغري، ويحبب، ويسهل فعلها، ليضل، ويصل إلى تحقيق أهدافه السلوكية، وهي أن (يستجيب) المسلم لدعوة الكفر، أو الإثم، أو المعصية..

ب- فمعنى قول النبي ﷺ: «**تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير**» أو «**كعرض الحصير، عودا عودا**»: أن الشيطان - أو غيره - يظهر الفتنة، ويعريها، ويكشفها، ويحليها، ويزينها، ويصورها للقلب، ويشجعه على الوقوع

فيها، فتنة بعد فتنة، وذنبا بعد ذنب، كما أن الحصير ينسج عودا بعد عود، وشظية بعد شظية، وصانع الحصير كلما نسج عودا أخذ عودا آخر ونسجه، وسكنه في النسيج السابق، ويكرر هذه العملية، ويعيدها شيئا بعد شيء، حتى يصنع الحصير، وينسجه من هذه العيدان المتفرقة، وعملية النسج المتتابعة؛ فيصبح حصيرا يغطي الأرض، ويحجبها عن جسم الإنسان، فكذلك قوى التربية الكفرية الموالية لإبليس، هم صناع ونساجون مهرة لحصير المعاصي، يأتون بمعصية صغيرة، فيبهرجونها أمام عين القلب، ويُحَلّونها له، ثم يعرضون أخرى.. وهكذا.. يكررون عمليات النسج؛ نسج شعب الكفر في القلب، حتى يصنعوا حصير الكفر، غطاء الكفر الذي يغطي القلب، ويحيط به، ويغلقه، فيشكل له في النهاية (كنانا) و (غلافا) و (غطاء) و (حجابا) يحجبه عن الله، كما سيأتي في فصل (القلوب أربعة).

فيحولون القلب من مستجيب لمنهج الله، وعابد لله وحده، إلى مستجيب لمنهج الهوى، وعابد له.

فوجه الشبه الأول بين عرض الفتن على القلب، وعرض الحصير هو في تكوين غطاء كبير من أشياء صغيرة؛ فحجاب القلب عن الله، وعن منهجه، يتكون من ذرات معاصي، قد نحتقرها، لكن الحسن البصري يلفت انتباهنا إلى حقيقة مهمة بقوله، عن الرين: «**هو الذنب على الذنب، حتى يعمى القلب فيموت**»[٥٢].

جـ- وهنا وجه شبه ثان نلحظه من كلام أبي الحسن بن سراج، شيخ القاضي عياض، قال: «قال لي: ومعنى تعرض: أي: كأنها تلصق بعرض القلوب؛ أي: جانبها، كما يلصق الحصير بجنب النائم، ويؤثر فيه بشدة لصقها به»[٥٣].

---

(٥٢) سيأتي تخريج هذا الأثر، وما يتعلق به، في الفصل الثامن (تربية القلوب المصقولة)؛ بإذن الله.

(٥٣) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ٤٥٢، ونقله النووي وفيه: ويؤثر فيه شدة التصاقها به، صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، ص١٧١.

فعرض الفتنة على القلب يترك أثرا فيه، فإذا أشربها القلب نُكِتَ فيه نكتة سوداء، وإذا أنكرها القلب كان لذلك أثر طيب، وهو نور إنكار الفتنة، نور النجاح في امتحان القلب بالتقوى، كما سيأتي بعون الله.

د- وقول النبي ﷺ: «**عُودًا عُودًا**»، أو «**عَوْدًا عَوْدًا**» يدل على أن التكتيك التربوي الاستحماري تكتيك طويل النفس، متكرر، متتابع، لا ييأس من عرض الفتنة على القلب، نقطة نقطة، ومرة بعد مرة، فهذا أصل في تربية (العادات)، ويؤيد هذا رواية: «**عَوْدًا عَوْدًا**» وهو ما أختاره أبو الحسين بن سراج؛ قال: «وقوله: «**عَوْدًا عَوْدًا**» أي: تعاد، وتكرر عليه شيئا بعد شيء(٥٤).

وأما الرواية الأصح والأصوب، والأشهر فهي «**عُودًا عُودًا**» من العُودِ، وجمعه: أعواد، وعيدان، وتُعْرَبُ: حالاً من عرض الحصير.

وهناك رواية ثالثة هي: «**عَوْذا عَوْذًا**» أي: سؤال الإعاذة، أي: نسأل الله أن يعيذنا، وأن يجيرنا من عرض الفتنة، ومن قبولها.

هـ- وإذا كان هذا هو تكتيك النفس الأمارة، بالسوء، والشيطان، وقوى التنشئة الثقافية المعاصرة، (الضالة عن منهج الله) في عرض الفتن على القلوب؛ فماذا يكون موقف القلوب من ذلك؟

هنا يتحدد هدف تربوي يجب السعي لتحقيقه في قلوبنا وقلوب من نربيهم، هو: أن نربي قلوبنا تربية فقهية عقلية إيمانية صحيحة بهدف أن تدرك الفتن، وتبصرها، وتعي أساليب عرضها عليها، وتبغضها، وتنكرها، إيمانا بالله، وحبا لرضاه.

فالقلب - كما ذكرنا في التمهيد، وكما سنفصل - هو كياننا الجواني، وهو كيان فاعل، ومريد، يحب ويبغض، ويفقه، ويعي، ويغفل، وينسى، ويقبل ويرفض، ويجاهد، وينكر، ويغير،... إلخ، فماذا يكون موقفه المنشود- الذي

(٥٤) القاضي عياض: إكمال المعلم، مصدر سابق، ج٢، ص ٤٥٢.

نريد أن نربيه ليفقه- من الفتن التي تعرض عليه؟ هل نربيه ليحب الفتن، أم نربيه لينكرها، ويقاومها بالفقه، والبغض، والمجاهدة؟

إن القلب يقف أحد الموقفين بحسب ما يتربى عليه، فإذا تربى الإيمان بالله، والإسلام فيه، وإذا تربى حب الله، وحب ما يحب، وبغض ما يبغض، فيه، وإذا تربى وعيه بالقوى العارضة للفتن وأدرك أهدافها وأساليبها؛ فإنه سيكون قلبا فقيها، مبغضا للفتن، مجاهدا لها، منكرا بقوة، والعكس صحيح.

وفي الفقرة التالية سأحلل الموقفين اللذين بينهما النبي ﷺ، في هذا الحديث، حتى يتضح الطريق التربوي الذي نبتغيه.

سادسا: الموقف الأول للقلب من عرض الفتنة عليه: موقف الحب لها:

أ- موقف الحب للفتنة: واستلذاذها، وإسكانها في القلب، بحيث تخالط مشاعره مخالطة لا ينفك عنها، فتصوغه، وتشكل له اتجاهاته، ورغباته، وميوله، المشخصة له، فيشتهي المعصية، ويحبها بشدة، كما أحب اليهود عجل السامري؛ فيغلي قلبه بحب المعصية وأعمال الفجور، ويشكل حب المعصية في قلبه القيمة العليا الحاكمة الموجهة له كتوجيه الدفة للسفينة، وتشكل المعيار أو المسطرة التي يقيس بها الآراء، والمذاهب، والأشخاص والأشياء والمواقف، والميزان الذي يزن به، ويقيس إليه كل هؤلاء، والمرجعية العليا الحاكمة في التقدير والفعل، والتقويم، فما وافق هواه وحبه، واشتهاءه للمعصية؛ كان هو الصواب؛ والخير عنده، فيقبله، ويقبل عليه، وما خالفه رفضه.. فمعيار القيمة ليس هو ما يرضي الله وما يسخطه، وليس هو نتيجة الفعل ومدى نفعها أو ضررها، وليس هو الاتساق مع العقل النظري، لا شيء من هذه المعايير، وإنما معيار القيمة، ومصدر إلزامها له، ومصدرها ذاتها هو هواه، وشهوته، ورغبته الخاصة وأثرته، فمن هنا تنبع قيمة ومصدر إلزامها له، وهذا هو عبادة الهوى، فيصبح عابدا لهواه، مشركا بالله تعالى.

فمن هذا الجذر، أعني: إشراب القلب حب المعصية – الفتنة – التي تعرض على القلب، من هذا الجذر تنشأ منظومة القيم الموجهة في حياة هذا الشخص وسلوكه، وتعاملاته كلها.

وهذه النتيجة لا تتحصل مرة واحدة، بل بتدريج، وبطء أكيد المفعول، وعبر الأساليب التي ذكرناها سابقا، وباسترسال الإنسان مع الخطوات التربوية التدريجية للقوى العارضة للفتن على القلوب، فيتشكل وجدانه، واتجاهاته النفسية، حسب توجيه هذه القوى.

هذا الموقف الأول هو الذي عبر عنه النبيﷺ بقوله: «**فأي قلب أشربها نكت – أو نكتت– فيه نكتة سوداء..**» وأوضح هذا الموقف فيما يلي:

١ – مفهوم الإشراب:

قال ابن الأثير: «الإشراب: خلط لون بلون؛ كأن أحد اللونين سقي اللون الآخر (...) وأشرب قلبه كذا؛ أي: حل محل الشراب، واختلط به، كما يختلط الصبغ بالثوب»، وفي حديث أبي بكر: «**وأشرب قلبه الإشفاق**»(٥٥).

وقال ابن منظور(٥٦): «وأشرب قلبه حب فلانة؛ أي: خالط قلبه، وأشرب قلبه محبة هذا، أي: حل محل الشراب، وفي التنزيل العزيز: ﴿**وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ**﴾ [البقرة: ٩٣] أي: حب العجل، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه، ولا يجوز أن يكون العجل هو المُشْرَب لأن العجل لا يشربه القلب، وقد أشرب في قلبه حُبَّهُ، أي: خالطه، وقال الزجاج: ﴿**وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ**﴾ قال: معناه: سقوا حب العجل (...) والثوب يَتَشَرَّبُ الصِّبْغَ؛ يَتَنَشَّفُه، وتَشَرَّبَ الصبغ فيه: سَرَى».

---

(٥٥) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، مصدر سابق، ص ٤٥٤.

(٥٦) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، مصدر سابق، ص ٢٢٢٤.

ويذكر الراغب نفس المعنى، ويضيف: «وذلك أن من عادتهم، إذا أرادوا العبارة عن مُخَامَرَة حُبٍّ أو بُغْضٍ؛ استعاروا له اسم الشراب؛ إذ هو أبلغ إنجاع في البدن، ولو قيل: حب العجل، لم تكن هذه المبالغة؛ فإن في ذكر العجل تنبيها أن لفرط شغفهم به صارت صورة العجل في قلوبهم، لا تنمحي»(٥٧).

فمعنى ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ هو – كما قال قتادة: أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم، وقد اختار ذلك ابن جرير، قال: ويقال: أشرب قَلْبُ فُلانٍ حُبَّ كذا، بمعنى: سُقِيَ ذلك حتى غَلَبَ عليه، وخالط قلبه، كما قال زهير:

فَصَحَوْتُ عنها بعد حُبٍّ داخلٍ والحُبُّ تُشْرِبُه فؤادك داءُ

قال أبو جعفر: ولكنه ترك ذكر الحب؛ اكتفاء بفهم السامع لمعنى الكلام؛ إذ كان معلوما أن القلب لا يُشْرِبُ العجل، وأن الذي يشرب القلب منه؛ حُبُّه(٥٨).

ويقول الشوكاني: «وفي قوله: ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ تشبيه بليغ؛ أي: جعلت قلوبهم ـ لتمكن حب العجل منها ـ كأنها تشربه، ومثله قول زهير (...) وإنما عبر عن حب العجل بالشرب، دون الأكل، لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء، حتى يصل إلى باطنها، والطعام يتجاوزها ولا يتغلغل فيها»(٥٩).

وقال النووي: «معنى أشربها: دخلت فيه دخولا تاما، وألزمها، وحلت منه كل الشراب (...) ومنه قولهم: ثوب مُشْرَب بحمرة؛ أي: خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاكا لها»(٦٠).

---

(٥٧) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص ٢٥٧.
(٥٨) ابن جرير الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج٢، ص٣٥٨ ـ ٣٥٩.
(٥٩) محمد بن علي بن محمد الشوكاني: فتح القدير.. الجزء الأول، ط٢، دار الوفاء، ص ٢٣٣، ٢٣٤.
(٦٠) صحيح مسلم بشرح النووي، مجلد ١، ج٢، مصدر سابق، ص ١٧٢.

فقول النبي ﷺ عن الفتن بعد عرضها على القلب: «**فأي قلب أشربها**» يعني: أي قلب أحب المعصية، وشغف بها، وخالط هذا الحب قلبه، وسرى فيه، وتغلغل فيه، ووصل إلى باطنه، وصبغ كل جزئية فيه، وتمكن بحيث أصبح الإثم، أو الانحراف مصورا حاضرا في القلب.

و(أشرب) توحي بأن القلب تَشَرب الفتنة، فقبلها، وأحبها، وانصبغ بها، وتوجه إليها.. بعشق، وأن هناك من يسقيه، ومن يشربه هذه الفتنة، وهم القوى المربية له في الإثم، والفجور، حتى تخالطه، فيتمثلها، وينصبغ بها وجدانه، وعواطفه، واتجاهه.

٢- آثار ونتائج هذا الموقف المحب المشغوف بالفتن:

إذا كان القلب كذلك، «**نكتت فيه نكتة سوداء**» وهذا هو الأثر الأول الناتج عن قبول القلب، وحبه للمعصية التي عرضت عليه، وتشربها.

والنكت: «كل نَقْطٍ في شيء خالف لونه (...) والنكتةُ: كالنُّقْطَة»[٦١].

وأصل **النَّكْتِ**: من الضرب بقضيب أو بالأصبع في الأرض، فتؤثر بطرفه فيها.

فقول النبي ﷺ : «**نُكِتَ**»، أي: نُقِطَ، (فيه)، أي: في القلب، فالنكتة السوداء تنتج عن محبة القلب وشغفه بالفتنة حين تعرض عليه.

فإذا لم يحدث إنكار القلب، وبغضه، ورفضه، وكفاحه للفتنة التي عرضت في قلبه، وتكررت عملية العرض عليه لهذه الفتنة أو لغيرها، وأحبها القلب، وأشربها، وأنس لها، وسكن إليها، واستمرت هذه العملية التربوية؛ ظهرت النتيجة الخطيرة، المخرج التربوي، الذي تريده القوى الفاتنة؛ إنه التغير السلوكي: القلبي، والخارجي، الرهيب، حقا؛ سيكون القلب - كما قرر النبي

(٦١) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص ٤٥٣٦.

ﷺ: «أسود، مربادا، كالكوز مجخيا، لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا؛ إلا ما أشرب من هواه».

وقبل تحليل هذه المخرجات – النتائج – نذكر توصيف بعض خبراء الفتن؛ لهذا الموقف:

٢-١: أخرج أبو نعيم عن طارق بن شهاب؛ قال: جاء عتريس بن عرقوب الشيباني إلى عبد الله (يعني: ابن مسعود) فقال: هلك من لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر، قال: بل هلك من لم يعرف قلبه المعروف، وينكر قلبه المنكر (٦٢).

وقال ابن مسعود: «يذهب الصالحون أسلافا، ويبقى أهل الريب؛ من لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا»(٦٣).

ويقول: «وخير ما ألقي في القلب: اليقين، والريب من الكفر، وشر العمى، عمى القلب»(٦٤).

٢-٢: ويقول حذيفة: «إذا أذنب العبد؛ نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء، حتى يصير قلبه كالشاة الرَّبْدَاءِ»(٦٥).

ويقول: «أفلا تسألوني عن ميت الأحياء؟ فقال: إن الله – تعالى – بعث محمدا، فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحيي بالحق، من كان ميتا، ومات بالباطل من كان حيا، ثم ذهبت النبوة، فكانت الخلافة على منهاج النبوة، ثم يكون ملكا عضوضا؛ فمن الناس من ينكر بقلبه، ويده، ولسانه، والحقَّ اسْتَكْمَلَ، ومنهم من ينكر بقلبه ولسانه، كَافًّا يَدَهُ، وشُعْبَةً من الحق ترك، ومنهم من ينكر بقلبه، كافا يده

---

(٦٢) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج١، مصدر سابق، ص١٣٥.
(٦٣) المصدر السابق، ص ١٣٥، ١٣٦ بالتوالي.
(٦٤) المصدر السابق، ص ١٣٥، ١٣٦ بالتوالي.
(٦٥) المصدر السابق، ص ٢٧٣، ٢٧٥، بالتوالي.

ولسانه، وشعبتين من الحق ترك، ومنهم من لا ينكر بقلبه ولسانه، وذلك مَيِّتُ الأحياء»(٦٦).

إنني أقصد بهذه النقول أن أقرر: أن بداية الهلاك، والموت المعنوي هو قبول إلقاء الشيطان، وقوى التنشئة الثقافية، ومحبة الفتنة التي يلقونها، ويعرضونها في القلب، كلما عرضت، وزينت، دون إنكار، ودون مكافحة، ومقاومة، ودون معارضة ومجاهدة.

ومن هنا فإن الفعل التربوي الإسلامي يجب أن يتوجه لبناء قوة الإيمان بالله، وعبادته وحده، ومحبته، ومحبة طاعته، وابتغاء رضاه، ومحبة الخير والصلاح، وبناء قوة البغض لما يبغضه الله، وإرادة الإنكار ورفض للذنوب والمعاصي والشرور، بناء ثقافة المقاومة، وإرادة المقاومة للفتن في القلوب، بالدراسة، والتوجيه، والتحريض، والتفقيه في استراتيجية القوى التربوية المعادية لدين الله، من خلال الدرس الذاتي، والمدارسة الجماعية، ودورات التربية القلبية المخطط لها لتحقيق هذا الهدف، حتى لا يقع الإنسان في النتائج الخطيرة التي سنبينها بعد قليل.

ومن رحمة الله أن النكتة السوداء تنكت في القلب بعد أن يشرب القلب الفتنة، ويأنس بها، ويخلطها بكيانه، فيمكن أن (نلحق) قلوبنا، وقلوب من نربيهم ـ بسرعة ـ بالتوعية، بالتوجيه، بموعظة - بشحذ إرادة المقاومة، ببيان خطر ذلك على القلب والإنسان كله.

ومن رحمة الله أن النتائج الآتية تأتي بعد التكرار والتعود، حتى نستدرك أولا بأول، من خلال الإجراء التربوي المضاد الذي يرفع الفتنة بعد وقوعها، أو يدفعها قبل عرضها على القلب ببناء قوة التحصين المعنوي في القلب.. قوة الإيمان والولاء لله ورسوله، ودينه.

---

(٦٦) المصدر السابق، ص ٢٧٣، ٢٧٥، بالتوالي.

٣- **نتائج الموقف المشغوف بالفتن:** تربية إبليس والنفس الأمارة بالسوء وقوى التنشئة الثقافية الجاهلية- إذا لم يقاومها القلب، وينكرها، تحول القلب، وتغير إلى عبادة الهوى، والعبودية لغير الله، وتغير أحواله من الصفاء والنقاء، إلى غبش الإثم وظلمته، ومن الاستقامة والاعتدال إلى الانحراف والميل – كما يلي:

٣-١: يتحول القلب من حال الصفاء والنقاء، حال النور الأبيض ليصير «**أَسْوَدَ مُرْبَادًا**» وفي رواية: «**مُرْبَئِدٌّ**» وفي رواية «**أَسْوَدُ مُرْبَدًّا**» وهو مثل مُسْوَد، ومُحْمَر، والرُّبْدَةُ: الغُبْرَةُ، وقيل: لون إلى الغبرة، والربدة: سواد مختلط، ونعامة رَبْدَاء: لونها كلون الرماد، أو هي التي في سوادها نقط بيض أو حمر، وشاة ربداء: مُنَقَّطَة بحمرة وبياض أو سواد، ومُرْبَدٌّ ومُرْبَادٌّ: هما من: ارْبَدَّ، وارْبَادَّ، ويريد اربداد القلب من حيث المعنى، لا الصورة، والربدة: لون بين السواد والغبرة [٦٧].

وقال ابن دريد: «الرُّبْدَةُ: لون أَكْدَرُ، قال غيره: الربدة: أن يختلط السواد بكدرة .. ومنه: تَرَبَّدَ لونه، أي: تلون، فصار كلون الرماد»[٦٨].

وهذا هو التفسير الصحيح لقوله: (مُرْبَادًّا) وليس كما قال سعد: «شدة البياض في سواد»، ولعله تصحيف، وصوابه: شِبْهُ البياض في سواد[٦٩].

فاربداد القلب: تَغَيُّرُ لَوْنُه من البياض، وحلول السواد، والكدرة ولون الرماد كله، أي: بعد أن كان نقيا، مضيئا صافيا، أصبح مسودا مظلما، معتما، حالته كذلك (مربادا: منصوب على الحال) أي: أن القلب الذي أشرب حب الفتن، واستمر على ذلك، مع كل عرض للفتن عليه، يتحول إلى قلب مسود مظلم، حالة كونه مُرْبَدًّا، مُغْبَرًا، أَكْدَر، كالحا، يبعث على الكآبة.

---

(٦٧) ابن منظور: لسان العرب، ج٣، مصدر سابق، ص ١٥٥٥، ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، مصدر سابق، ص ١٨٣.

(٦٨) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، مصدر سابق، ص ٤٥٤.

(٦٩) المصدر السابق، ص ٤٥٤ ونقله النووي في شرحه لصحيح مسلم، ج٢، مصدر سابق، ص ١٧٣.

هذه هي النتيجة القلبية الأولى، أن يكون القلب: مثل الذي في الظلمات، ليس بـ[illegible] منها، إلا برحمة الله.

٣-٢: والمُخْرَجُ التربوي الثاني- النتيجة الثانية- أن يصبح القلب كالكوز مُجَخِّيًا:

فهذا وصف ثان للقلب الذي أشرب حب المعاصي والفتن، فهو يصير مثل الكوز، أي: الكوب، أو الكأس، المُجَخِّي؛ أي: المنكوس، المائل، المنحرف، المقلوب، جاء في رواية أبي نعيم عن ربعي بن خراش، عن حذيفة: «**والآخر: أسود مربدا، كالكوز مجخيا**» وأمال كفه، وإن أبا يزيد قال هكذا، وأمال كفه(٧٠).

قال ابن الأثير: «المجخي: المائل عن الاستقامة والاعتدال، فَشَبَّهَ القلبَ الذي لا يعي خيرا بالكوز المائل الذي لا يَثْبُتُ فيه شيء»(٧١).

وفي شرح القاضي عياض عن شيخه ابن سراج أن النبي ﷺ «أخذ في وصف آخر من صفاته؛ من أنه قُلِبَ ونُكِّسَ حتى لا يعلق به خير ولا حكمة، ومَثَّلَهُ بالكوز المِجْخيِّ (...) قال القاضي: إذا كان مقلوبا منكوسا؛ لم يثبت فيه شيء»(٧٢).

وفي شرح النووي: «قال صاحب التحرير: معنى الحديث: أن الرجل إذا اتبع هواه، وارتكب المعاصي، دخل قلبه - بكل معصية يتعاطاها - ظلمة، وإذا صار كذلك؛ افتتن، وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز، فإذا انكب؛ انْصَبَّ ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك»(٧٣). أي: ما دام مقلوبا منكوسا.

---

(٧٠) أبو نعيم: حلية الأولياء..، ج١، مصدر سابق، ص ٢٧١.
(٧١) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص ٢٤٢.
(٧٢) القاضي عياض: إكمال المعلم.. ج١، مصدر سابق، ص ٤٥٤.
(٧٣) صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، مصدر سابق، ص ١٧٣.

قلت: قول النبي ﷺ: «**كالكوز مجخيا**» فيه أمران: **الأول:** أن القلب مثل الكوز، أي: أنه وعاء يملأ، **والثاني:** أن حالة الكوز هو أنه مقلوب، مائل؛ (مجخيا: حال)، ووجه الشبه بين القلب والكوز المائل هو في الخلو من الخير، وعدم قبول الخير، فكما أن الكوز المنكوس ينصب منه الماء، ولا يدخله حتى يعتدل؛ فكذلك القلب الذي أشرب حب الفتن، هو مائل منكوس اندلق منه الإيمان والخير، فلا يعود إليه حتى نعدله ونرجعه إلى حال الاستقامة؛ بإدخاله في دورة تربوية إيمانية جديدة، وسيأتي تفصيل لهذه الحال في فصل (القلوب أربعة).

٣-٣: والمخرج التربوي الثالث، هو الأخطر؛ فالقلب إذا نكس، انقلبت عنده القيم، ومصدرها، فبدلا من أن يتلقى القيم والموازين عن الله ورسوله، بدلا من أن تكون المرجعية الموجهة له، ومنهاجه الذي يضبط حياته هو: الوحي الإلهي، ومتابعة الرسول محمد ﷺ، تصبح له موازين وقيم مختلفة، متناقضة، تصبح قيمته الحاكمة، ومشروعيته العليا هي: الهوى، أي: المزاج الشخصي، والرغبة والمصلحة الذاتية، وما تجده نفسه وما تبغضه فقط، تصبح قيمه هي قيم الأثرة والمنفعية والأنانية، يدور حول ذاته فقط، ولا اعتبار عنده بالآخرين، ولا بالخير أو الشر.

هذه هي النتيجة الثالثة، المخرج التربوي الخطير الناتج عن الشغف بالمعاصي، والقبول القلبي المستمر لها، أن يصير القلب: «**لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا إلا ما أُشْرِبَ من هواه**» أي: أن المعروف والخير عنده يكون خيرا فقط، إذا وافق هواه الذي يحبه، ويعشقه، ويحقق له ما يريد من رغبات ومصالح شخصية أنانية، حتى وإن كان الله حرم هذا وحكم بأنه شر، ويصير المنكر والشر عنده هو الذي لا يوافق مزاجه ورغباته ومصالحه الشخصية، المحدودة، الدنيوية، حتى وإن كان هو الخير الذي حكم الله أنه خير، وأراده وأحبه، فهواه - إذن - صار هو المشرع له، الموجه له، الآمر الناهي له، المحلل

والمحرم له، ومصدر الإلزام الخلقي له، والضابط له في كل سلوكياته، وتصرفاته، فيصبح عابدا لهذا الرب المطاع المشرع له، وهذا هو بعينه ما أخبر به الله ـ سبحانه وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣].

وهذا هو صميم وحقيقة الفتنة، كما عبر عنها حذيفة بقوله: «إن الفتنة تعرض على القلوب، فأي قلب أشربها (وفي صفة الصفوة: فأي قلب أَنِسَ بها)؛ نكتت فيه نكتة سوداء، فإن أنكرها؛ نكتت فيه نكتة بيضاء، فمن أحب منكم أن يعلم: أصابته الفتنة أم لا؟ فلينظر: فإن كان يرى حراما ما كان يراه حلالا، أو يرى حلالا ما كان يراه حراما، فقد أصابته الفتنة»[٧٤]، أي: أنه استحل الحرام، وحرم الحلال، واتبع ذلك، فأشرك بالله، وحقق الهدف الاستراتيجي للشيطان: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

٣-٤: فلنتأمل خط الانحراف والتحول القلبي، والسلوكي في اتجاه شرك الربوبية والإلهية:

القلب على نقاء الفطرة ← عرض فتنة على القلب ← حب القلب للفتنة وقبوله لها، ومخالطة هذا الحب للقلب ← اسوداد جزء من القلب وظلمته ← عرض وإلقاء ثان لنفس الفتنة، أو لفتنة أخرى ← قبول وحب ومخالطة لها بالقلب ← اسوداد جزء ثان من القلب ← تكرار عملية العرض للفتن من قوى التنشئة الكفرية ← قبول متكرر وحب من القلب ← اربداد القلب، وانحرافه، وانتكاسه، وفراغه من الإيمان وحب الخير ← صعود الهوى إلى مرتبة الحاكمية للقلب والسلوك؛ فيوجه القلب، ويشرع القيم التي يحبها له ← اتخذ إلهه هواه، وأشرك بالله ← مات موتا معنويا وهلك.

---

(٧٤) أبو نعيم: حلية الأولياء، ج١، مصدر سابق، ص ٢٧٢ – ٢٧٣ – الإمام ابن الجوزي: صفة الصفوة، المجلد الأول، ج١، ص ٢٦٩.

فهل نترك القلب ليصير كذلك؟ أم نستنفر قوانا المربية لممارسة الإجراءات التربوية المقاومة، لكي نخرج قلوبا تنكر الفتن؟

سابعا: موقف القلب المنكر للفتن، ونتائجه:

وهو الموقف القلبي الصحيح الناتج عن تربية الإيمان، ومحبة الله، ومحبة ما يحبه، وبغض ما يبغضه، في القلب، وهو الموقف الذي عبر عنه النبي ﷺ بقوله، في رواية: «**وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا، لا تضره فتنة، ما دامت السموات والأرض**»، فهو موقف إنكار الفتنة، حين تعرض عليه، في أول خاطر يخطر فيه من قبل النفس الأمارة بالسوء، أو من الشيطان، أو من مذيع، أو ممثل، أو صورة مغرية، أو معلم، أو كاتب، أو شاعر، أو مشهد متلفز، أو على شاشة الشبكة، أو من أي قوة ثقافية آثمة، هذا القلب؛ يتذكر، يستحضر في بؤرة وعيه أنه عبد لله، لا للهوى، ولا للشيطان، وأن هذا الإلقاء لهذه الفتنة في القلب، يبغضه الله، ويبغضها، فإذا هو يبصر الشر من وراء الكلام الحلو، والوسوسة المزينة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠]، فهو يبصر الإثم، من وراء العرض المغري، ويبصر أنه انحراف، وأن عدوه يريد أن يهزمه، وأن يأسره، ليحوله إلى (عبد) تابع لإبليس، فيبغض ذلك قلبه، أشد البغض، ويرفضه، ويرده، ويستنكره بشدة، ويتمسك بحريته، ونوره، أي: بعبوديته لله وحده، وتقواه لله.

هذا هو معنى (أنكرها)، ومن معاني الإنكار: المحاربة، والمعاداة، قال ابن منظور: «**والمُناكَرة: المحاربة، وناكره: أي: قاتله.. يقال: فلان يناكر فلانا، وبينهما مناكرة؛ أي: معاداة وقتال، وقال أبو سفيان بن حرب: إن محمدا لم يناكر أحدا إلا كانت معه الأهوال، أي: لم يحارب إلا كان منصورا بالرعب**»[٧٥].

---

(٧٥) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ط ٣، ص ٤٥٣٩.

و(أنكر) بمعنى رد، وبمعنى: أبغض، ورفض، وغير[٧٦]

فإنكار القلب للفتنة التي تعرض عليه: يعني: أن يبصر قبحها، ويدرك خطر أثرها، ويستقبحها، ويبغضها، ويعاديها، ويحاربها، ويردها عن قلبه، ويبعدها عنه، ولا شك أن هذا الإنكار، بهذه الأفعال الإرادية - هو مجموع طاعات لله، تؤثر في القلب، فتولد نورا، وصفاء.

ولهذا قال النبي ﷺ: «**وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء**» هي النور والصفاء، الذي يشرق بسبب تلك الطاعات لله.

وإذا استمرت عمليات إنكار القلب للفتن التي تعرض عليه، قوي النور، واشتد، وقويت إرادة الخير، وتربى القلب في طاعة الله، تربى بالابتلاء، فيقوى في المحنة، ويشتد، فيصبح القلب- بعد امتحاناته المستمرة، ونجاحاته المستمرة في المقاومة- منيرا، مثل السراج، يزهر، فيكون قلبا أبيض، صافيا كاللبن الحليب، قويا، صلب الإرادة، مقاوما بشدة للفتن، ناضجا، لا يخشى عليه من خداعات القوى المزيفة للوعي، والمجتاحة عن دين الله.

والقلب لا يصل إلى ذلك الوضع إلا بتربيته:

- تربية الإيمان بالله، ومحبة ما يحبه، وبغض ما يبغضه.
- تربية التقوى فيه، وشعور الخشية من الله بالغيب، ومراقبته.
- تربية إرادة الخير، ومحبته، وبغض الشر ورفضه في القلب.
- توجيهه ليقاوم كل فتنة تعرض عليه، ودفعه للنجاح في كل ابتلاء يربيه الله به.

فإذا كان كذلك فإنه ينكر الفتن حين تعرض عليه، بما معه من الإيمان، والحب، والتقوى وإرادة المقاومة، وتحققت له ثلاث نتائج مهمة:

---

(٧٦) تفصيل ذلك في فصل «تربية القلب المجاهد للمنكر» آخر فصل في هذا الكتاب، وانظر: صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، مصدر سابق، ص ١٧٢ في (رد) فقط.

أ- **النتيجة الأولى**: أن يصير أبيض صافيا.

ب- **النتيجة الثانية**: هي اكتساب صلابة في الإيمان واليقين، فيصبح إيمانه صلبا، وهذا هو ما يدل عليه تشبيه النبي للقلب الذي أنكر الفتن بأنه مثل الصفا، ففي رواية مسلم: «**حتى تصير على قلبين: على أبيض، مثل الصَّفَا..**» وفي رواية صحيح الجامع: «**حتى يصير القلب أبيض مثل الصفا..**» والصفا: جمع صفاة، وهي الحجر الأملس، «يكتب بالألف، فإذا ثني قيل: صفوان، ومنه الصفا والمروة..» والصفاة: صخرة ملساء [٧٧]. ولهذا يقول عياض: «ليس تشبيهه بالصفا لما تقدم من بياضه، لكن أَخَذَ في وصف آخر؛ من شدته على عَقْدِ الإيمان، وسلامته من الخلل، وأن الفتن لم تلصق به، ولم تؤثر فيه؛ كالصفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، بخلاف الآخر الذي شبهه بالكوز الخاوي الفارغ من الإيمان» [٧٨].

فهو لكثرة رفضه للمعصية قوي واشتد إيمانه، بسبب كثرة المران والتدرب.

جـ- **النتيجة الثالثة** لإنكار القلب للفتن هي: نموه في الطاعة، واكتسابه حصانة ضد الفتن، فالقلب الذي ينكر الفتن باستمرار، هو قلب يتربى في المحنة، ينمو، ويترقى، ويقوى، ويصلب إيمانه، ويرسخ يقينه، ويكتسب حصانة ضد الشبهات، لفقه قلبه، وضد الأهواء المضلة، لحسن تقواه ومتابعته للوحي الإلهي، وضد أساليب التزييف والاستحمار، فيزداد الإيمان، ويتجدد في القلب، ويربو فيه الخير، فيخشع، ويخضع لله، ويخبت، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ

---

(٧٧) ابن منظور: لسان العرب، ج٤، مصدر سابق، ص ٤٦٨.

(٧٨) القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم، ج١، مصدر سابق، ص ٤٥٣. ونقله في: صحيح مسلم بشرح النووي، ج٢، مصدر سابق، ص ١٧٢.

ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٢ – ٥٤].

وحين يكتسب القلب هذا النور، وهذه القوة، والنمو في الإيمان، والحصانة ضد الفتن، ويصبح خبيرا بها، حذر منها، حين يكون كذلك؛ «**لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض**»؛ أي: حتى وإن عاش مخلدا في الدنيا، فلا تضره الفتن أبدا، ما دام متمسكا بإنكارها كلما عرضت عليه.

ونستنتج من هذا أن تَعَوُّدَ القلب على إنكار الفتن، صغرت أو كبرت، كلما عرضت عليه، هو أسلوب تربوي- أيضا- ينتج صلابة الإيمان، وحصانة القلب ضد أساليب تزييف الوعي، وإغواءات قوى التنشئة على الفسق، فتدريب القلب، وتعويده على الإنكار المبصر للفتن هو أسلوب تربوي فعال، تشجع نتائجه ومخرجاته على التمسك به دائما، ومن هذه النتائج، نور القلب، وصلابة إيمانه، وحصانته ضد عروض الفتن.

ويتطلب هذا الأسلوب جهدا ذاتيا لمعرفة الحق، ومعرفة الفتن، وتمييزها، وتقوية إرادة إنكار الفتن، والرغبة في محاربتها، وهذا يتطلب دراسة ومعرفة آثار المعاصي في القلب، وفي الحياة، وأساليب القوى التي تعرضها على القلب، وجمع الهم للمجاهدة الدائبة لهذه القوى التي تريد زرع الفتن في القلب، معاداة لله ولرسوله وللمؤمنين.

وذلك كله يحتاج لدراسة متبصرة ومتفكرة لهذا الفصل، ولأحاديث الفتن في كتب الحديث، ولكتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لابن القيم، وعقد دورات تربوية إما على سبيل التثقيف الذاتي، وإما دورة تربوية جماعية لدراسة تفصيلية للقوى التي تعرض الفتن على القلوب وأساليبها، وكيف نجاهدها.

والخلاصة- هنا: أن خط الصعود إلى النور القلبي الشامل، والصفاء الروحي، وصلابة الإيمان، وقوة اليقين، يبدأ، وينطلق من (الإنكار القلبي) المستمر للفتن، ويتحدد هذا الخط فيما يلي:

عرض فتنة، أو انحراف، أو ضلال، على القلب ← القلب يتذكر عبوديته لله، ويتبصر ← القلب يبغض الفتنة ← القلب يحاربها ويعاديها، ويردها، ويزيحها عن ساحته ←يثيبه الله بالنور في قلبه، ويزود إيمانه، وينمو في الطاعة ← عرض جديد للفتن على القلب ← يطبق القلب نفس الانكسار تطبيقا فاعلا ← نور جديد يغمره، وقوة جديدة تضاف لإيمانه ويقينه، ونمو جديد يكتسبه، وخبرة جديدة بمداخل القوى الإبليسية، وتبصر ← وهكذا تتحقق النتيجة المنشودة، للقلب ← البياض والصفاء، والقوة والصلابة في الإيمان، والحصانة ضد الفتن، وبالتالي تفشل الاستراتيجية الإبليسية، وتتحقق خيبة أمل أولياء الشيطان، وتحسن خاتمة المسلم الملتزم بهذا الأسلوب.

ثامنا: تربية القلب المنكر للفتن: استنتاجات:

من التحليل الشارح السابق نستنتج ما يلي:

١- أن نتأسى بسيدنا عمر في بحثه عن حديث النبي ﷺ في الفتن التي تموج موج البحر، وأحاديث القلب، فبرغم أنه كان على معرفة بها؛ إلا أنه أراد أن يستزيد، وأن يطمئن، وأن يستحضر المعرفة بذلك في مركز الوعي، وبرغم أنه كان ملهما يجري الحق على لسانه وقلبه (٧٩)، ويفر منه الشيطان «إن

---

(٧٩) أخرج أحمد في المسند عن أبي هريرة قال: قال رسول الله : «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه**»، المسند، ج٩، رقم ٩١٨٥، ص ١٣٩، ورواه الترمذي عن ابن عمر، وأحمد وأبو داود والحاكم عن أبي ذر، والطبراني عن بلال وعن معاوية، وقال الألباني: صحيح، وخرجه في المشكاة (٦٠٣٣ - ٦٠٣٤)، وانظر: صحيح الجامع الصغير.. ج١، مصدر سابق، رقم ١٧٣٦، ص ٣٥٨.

الشيطان ليفرق منك يا عمر»[٨٠].

بل كان بابا موصدا ضد الفتن إلا أنه كان حريصا على هذه المعرفة المربية، وفرح بشدة عندما قال حذيفة أنه سمع النبي ﷺ يذكر الفتن التي تموج كموج البحر، ودعا له، ومدحه بقوله: «أنت، لله أبوك» فماذا – إذن – يكون موقف الذي احتوشته الشياطين..؟ وقد كثرت على قلوبنا عروض الفتن، وإلقاءات شياطين الإنس والجن؟

يجدر بنا أن نبحث عن هذا النوع من المعرفة، ونمعن في طلب أحاديث القلوب، وأحاديث الفتن، نربي بها قلوبنا لتقوى في إنكار الفتن، لتتصف بهذه القيمة، وتتحقق بآثارها، ونشرح بهذا البحث، وندعو لمن يعلمنا هذه الأحاديث التي تحدث قلوبنا، وتجلو عنها الصدأ المتراكم عليها.

٢- أن ندرك القيم القلبية التي نريد إكسابها لقلوبنا، من خلال هذا الحديث، وهي: أن نؤمن بالله، ونحبه ونحب ما يحبه، ونبغض ما يبغضه، أن نحب طاعته ورضاه، أن نبغض الفتن وننكرها، أن نفقه الحق، ونبصره، أن نتقي الله ونجاهد القوى التي تعرض الفتن على قلوبنا وأن نحذر من أساليبها، وأن نستمر في ذلك.

وكل واحدة من هذه القيم لها فصل أو أكثر في هذا الكتاب (تربية الإيمان في جذر قلوب الرجال – تجديد الإيمان في القلب- تربية القلب المخموم- تربية القلب المجاهد المغير للمنكر..).

إلا أننا نشير- هنا- إلى أن تربية القلب المنكر للفتن تستلزم ذلك كله، فضلا على أن يكتسب القلب إدراكا قويا، للفتن وآثارها والقوى التي تعرضها، وأساليبها، وخطر ذلك على القلب، لتتكون إرادة إنكار الفتن في

---

(٨٠) حديث صحيح، انظر الألباني: صحيح الجامع الصغير، ج١، رقم ١٦٥٤، ص ٣٤٠ (رواه أحمد والترمذي وابن رجب عن بريدة).

القلب، وقد أشرنا لضرورة ذلك من قبل، فنجمع وندرس ما يتعلق بالفتن والذنوب وشؤمها؛ فالفتنة أشد خطرا على العقل من الخمر - يقول حذيفة: «**ما الخمر صرفا بأذهب بعقول الرجال من الفتنة**»(٨١).

كما أن إنجاز هذا الهدف يتطلب بناء إرادة الخير وطاعة الله والالتزام بما يحبه.

وطريق ذلك: المدارسة.. والاهتمام، والتفكر، والتحليل العقلي لكل ما يعرض على القلب، وفصل صوابه من خطئه.

٣- أن ندرك قانون التحول والتغير التدريجي من الإيمان إلى الكفر، ومن الخير إلى الشر، وهو هكذا: يبدأ هذا التحول بحب القلب للفتنة، وخلطها بالمشاعر والعواطف، فيتكون ميل قلبي واتجاه نحوها، فتنتج ظلمة في القلب، ومع الاستمرار يتكون اتجاه قوي للإثم، فيظلم القلب، ويتكون عليه غطاء يحجبه عن معرفة الله، ومراده، وعن الشعور به، فينقلب، وينتكس، ويفرغ من الإيمان، وحب الخير، ويتعطل إدراكه الحدسي، الذي يتبصر به الخير، ويتعرف به الوحي، وينغلق هذا الإدراك، وينفتح القلب على الهوى، فيتخذ أهواءه ورغباته الأنانية ربا له، يستمد منه أحكامه، ويتلقى عنه قيمه ومعاييره التي يقيس إليها الأفكار والأشخاص والأشياء والمواقف، فيتخذ إلهه هواه، ويضله الله.

لابد من الإدراك القوي لهذا القانون؛ لأنه أساس قوي لبناء قوة البغض للفتن، نبني عليه قيمة إنكار القلب لهذه الفتن.

٤- أن ندرك كيفية عرض الفتن على القلب، وما القوى التي تعرضها، وما أساليبها؟ لنجاهدها على بصيرة، ولنتحفز لها، ولنحذر منها.

---

(٨١) أبو نعيم: حلية الأولياء...، الجزء الأول، مصدر سابق، ص ٢٧٤.

٥- أن ندرك القانون النفسي التربوي لصفاء القلب ونوره، وقوته وحصانته، وهو:

تتحقق قوة القلب وصفاؤه ونوره وصلابته في الحق، وحصانته ضد الشبهات، والشهوات - غير المباحة - والأهواء والفتن المضلة؛ بسبب تفكره وتبصره، ووعيه العميق بأنواع الفتن والقوى التي تعرضها، وأساليب عرضها، وبغضه لها، ومعاداته، ومحاربته، ورده لها، ورفضها، أي: الإنكار القلبي المستمر للفتن، فمع كل إنكار جديد يبيض قلبه، وينير، ويصفو، ويتربى، أي: ينمو في الإيمان والخير، ويترقى، ويصلب، ويشتد، ويتحصن فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، ما دام مطبقا لعمليات هذا القانون وأساسه النفسي: القلب كيان فاعل.

٦- أن ندرك قانون التغيير، وهو أن التغيير يبدأ من القلب، من الكيان الذي تنبع منه التصورات والقيم والمشاعر، والاتجاهات والإرادات وعزائم السلوك، فعملية التغيير الإسلامي تبدأ بتربية الإيمان بالله، وإرادة ما يريده، وبغض ما يبغضه، لتتربى إرادة إنكار الفتن والإثم والحرام الذي حرمه الله تعالى، تبدأ بتربية تصورات عقدية عن الله، والإسلام، عن القيم... إلخ.

٧- أن ندرك الإجابة عن سؤال: من أين تأتي عروض الفتن، وما أساليبها؟ فنحصل الوعي بذلك، ونعرف بوضوح حدود الفتن، وأنواعها، والأسس النفسية لها، وكيف نواجهها، وهذا علم كبير يلزم تحصيله والعمل بمقتضاه، فمنه ينشأ البغض والإنكار، وندرس العروض التي تأتي من الحالة الثقافية في المجتمع، من الإعلام، والفنون، وأجهزة التربية والتثقيف المختلفة، وكيف تدخل إلى قلوبنا، ووعينا عبر مداخل ومنافذ السمع والبصر، والخيال، ونتبصر في أساليبها، ونستنكرها بوعي وعقل ناقد، وإرادة قلبية تحب الله، وتبغض الشيطان.

٨- إن ما سبق يستلزم إدخال المسلم الذي يريد تربية قلبه لينكر الفتن ويحب الخير، في حالة ثقافية، في وسط ثقافي، يكسبه وعيا وتبصرا، واقتناعا، وحبا وإرادة، واهتماما، وعشقا لكل الحقائق التي ذكرناها، بيئة يصنعها لنفسه، ويصنعها له المربون المسلمون، لتشكل محضنا هادئا، وفاعلا، يربي فيه قلبه، هذا المحضن التربوي، الذاتي والجماعي، هو نقطة البدء، محضن تربوي، فيه يدرس ويقرأ، ويستمع، ويشاهد، ويفكر، ويحلل، وينقد، ويميز، ويتأثر، ويحب، ويبغض، ويقبل ويرفض، ويمارس.

محضن لا يكون فيه سلبيا، بل فاعلا تربويا مع فاعلين تربويين، يتدارسون معا هذا الفصل، وما يقترحه من دراسات، ويصلون بآيات القرآن عن هذا الموضوع، ويحاضر بعضهم بعضا في هذا الموضوع، ويحاسب كل واحد نفسه، في هذا الخصوص.

وبكلمة: يلزم دورات تربوية علمية وروحية، فردية وجماعية. يلزم برنامج دراسي فردي وجماعي، منظم وملزم، بحيث نتصور الفتن بكل أبعادها، وقواها وأساليبها، وندرك آثارها، ونتأثر بذلك لينشأ البغض لها في قلوبنا، وبحيث نتصور الخير الذي يحبه الله، وبحيث نفكر في ذلك لنكتسب (فقها ووعيا) به، على مستوى البصر العقلي والقلبي، والإدراك الناقد للواقع النفسي والثقافي التربوي، وموقفه من الفتن، وبحيث في النهاية نتجه لممارسة عمليات إنكار الفتن على بصيرة.

٩- يقول حذيفة: «لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل».

تاسعا: أسئلة وأنشطة لتعميق الفهم وتسهيل الممارسة:

١- ما دلالة سؤال عمر عن الفتن التي تموج موج البحر؟

٢- حلل مفهوم الفتن؛ وأعد قائمة بها... وتأملها.

٣- حدد ثلاثة أمثلة للفتن التي تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤- وضح مجموعة القوانين القلبية المستخلصة من هذا الحديث، ثم كون تصورا صحيحا عن حركة القلب وطبيعته، في ضوء هذه القوانين.

٥- قم بشرح هذا الحديث لأفراد أسرتك، أو لبعض زملائك.

٦- كلفت بعقد دورة تربوية عن هذا الحديث: حدد أهدافها، والأنشطة التربوية التي تتطلبها.

٧- ما القيم القلبية التي يوجهنا إليها هذا الحديث؟ أعد قائمة بها، وحاسب نفسك على أساسها.

٨- وضح النتائج التي تترتب على حب القلب وشغفه بالمعصية.

٩- وضح النتائج التي تترتب على إنكار القلب للمعصية.

١٠- ما مفهوم (أشربها) و (أنكرها)؟

١١- من أين ينبع إنكار الفتن في القلب؟ ما التربية اللازمة لذلك؟

١٢- حدد مفهوم الكلمات الآتية: مربادا، مجخيا، الصفا.

١٣- ما دلالة قول النبي ﷺ: «**لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه**»، وقوله: «**لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض**»؟

١٤- ما الأهداف التربوية التي يمكنك استخلاصها من هذا الفصل؟ فكيف تكسبها لقلبك؟

١٥- قوم عملية التربية التي تمارس في أسرتك، ومسجدك، ومدرستك، في ضوء دلالات هذا الحديث.

١٦- ما رأيك في صياغة هذا الفصل؛ من حيث: أسلوب كتابته، مصادره ومراجعه، مدى استفادتك منه؟ التوسع أو الإيجاز في عرض أفكاره؟

١٧- كم دورة تربوية اقترحها هذا الفصل؟

١٨- كم حديثًا نبويًا فيه لفظ القلب في هذا الفصل؟ قم بكتابتها وحفظها.

تم الجزء الأول - بحمد الله تعالى

فهرس الجزء الأول

الموضوع الصفحة

الفصل الثاني
تربية الضمير اليقظ
واعظ الله في القلب

الفصل الثالث

الطريق لتربية القلب الرقيق

الفصل الرابع
تربية القلب الرقيق والرحيم

الفصل الخامس
تربية القلوب اللينة الرقيقة
الصافية اليقين الصلبة الإيمان

الفصل السادس

تربية القلوب التي تلين وتحنّ إلى رسول الله ﷺ

الفصل السابع
تربية القلوب التي تنكر الفتن